بازيلي

سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي

من الناحيتين السياسية والتاريخية



ترجمة: د. يسر جابر

مراجعة: د. منذر جابر

بازيلي

سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي

من الناحيتين السياسية والتاريخية

ترجمة : د. يسر جابر

مراجعة : د. منذر جابر



طريق المطار - شارع مدرسة القتال
بناية حلمي عويدات
تلفون: ٨٣٣٩٨٩ - ص.ب: ١٤٥٦٣٦
الطبعة الأولى
١٩٨٨

تقديم

منذر جابر

«تـاريخ سـوريـا وفلسـطين تحت الحكم التـركي» عنـوان يفيض عن مضمـون الكتاب . «الأحداث في سورية ولبنـان وفلسطين وبعض منـاطق آسيا الصغـرى» يبدو الأقرب إلى الصواب . فبازيلي كمؤرخ يقف في كتابته على رؤوس الأحداث ، كما يقف كديبلوماسي مع رؤوس القوم وعليتهم . من تـاريخ المنطقة يختـار الحدث ، «الحـدث الرأس» المتفجر ، البارز ، الناتىء : محاولتا فخر الدين وظاهر العمر «الاستقلاليتان» ، حكم الأمير بشير ، حملة إبراهيم باشا ، ثورة جبلـي نـابلس ، قاطـع الطرق في جبـال طوروس ، علي أوغلو . وكأديب ومؤرخ وعسكري وديبلوماسي ، اغتذى من حـركات الاستقلال اليونانية ، يدور بازيلي حول هذه الأحداث في نظرة بانـورامية من أعـلى إلى أسفـل : القائـد أو الأمير ، ثم الأركـان العسكريـون أو المقاطعجيـون ، فالعسكـر أو الفلاحون ، وكأننا أمام لعبة شطرنج مقلوبة تتحرك فيها القطع الثقيلة قبل الجنود . فترة زمنية من تاريخ المنطقة بدون «حدث رأس» تبدو بلا تاريخ أو أنها فترة لا تستـأهل أن يكتب لها تاريخ . يلحق بازيلي الصراع ، فحيث تكـون المعركـة يكون تـاريخ سـوريا ولبنان وفلسطين وحتى بعض تاريخ مصر . حيناً يكون هذا التاريخ ، كل هذا التاريخ ، سابحاً في بحر عكا أو محاصَراً في قلعتها ، وحيناً يكـون معلقاً في جبـال نابلس أو ذرى جبال لبنان ، ولكنه في كل حالاته ، يكون هذا التاريخ مـرفوعـاً على رمـاح المنتصر أو ملصقاً على قفا المهزوم . أما المناطق التي لم تكن مقراً «للحدث» ، أو كانت ممراً عـابراً له ، فإنها بشعبها وجغرافيتها تبقى بمنأى عن لوحة بازيلي وتاريخه ، وإذا حصل وانحدف الحدث التاريخي إلى واحدة من هذه المناطق ، فإنها تكتسب لـدى المؤلف أهمية راهنـة لم تكن لها من قبل : اللجا في حوران لم تكن «متاهة تمتلك نظاماً عريقاً لدفاعها الداخلي» قبـل معارك الـدروز مع إبـراهيم باشـا ، جبال لبنـان المعلقة فيهـا القرى «كـأعشـاش

النسور» ، انتصبت فجأة لتدور فيها معارك «القبائل» اللبنانية فيما بينها ، أو بينها وبين الدولة العثمانية ، شعاب جبال طوروس لم تكن «الأقصر والأفضل بين سوريا والأناضول» قبل قاطع الطرق علي أوغلو .

يغفر لبازيلي منهجه ذاك كبر المهمة التي تصدى للكتابة فيها «تاريخ سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي» ، وهي ليست باليسيرة . غيره من قناصل الدول الأوروبية لم يتجرأ على الكتابة فيها ، جل ما وصلنا من هؤلاء تقارير عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (هنري غيز) ، أو تجميع إحصائي عن مجمل مرافقها (فيتال غينيه) ، أو خاطرات وملاحظات تنتقل من الدين إلى السياسة إلى الاجتماع والاقتصاد شأننا مع فولني وغيره من الرحالة الكثيرين . ينفرد بازيلي عن جميع الكتبة الأجانب بمحاولته كتابة تاريخ متساوق متكامل ، وهذا ما يبدو جريئاً ، لو اعتبرنا الفترة الزمنية التي مكثها بازيلي في المنطقة (١٨٣٩ ـ ١٨٥٣) ، ونشاطه الديبلوماسي والاجتماعي في ميدان وظيفته ، وانشغاله بنشاطات أدبية وتاريخية ، لا تأتلف في موضوعها مع تاريخ منطقة سوريا (راجع عن مؤلفات بازيلي في مقدمة سميليا نسكايا) .

منطقة سوريا ، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم «تقطع» بازيلي ، بل ظلت ترفده «بأحداثها» باستمرار ، في مناطق متعددة وفي نفس الوقت أحياناً : الرأسمالية الأوروبية في زخم تفتحها ، والدولة العثمانية توشك أن تدخل في الاحتضار ، والحركة الشعبية بأوجهها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، في ذروة اهتزازها وتحولها لتدخل مصيرها الجديد ، أمام هجوم الغرب المسلح بالماكينات التجارية ، واستسلام الدولة العثمانية الذي تُرجم معاهدات اقتصادية وسياسية ، يميزها عن معاهدات الذل قراءة الصدور العظام والوزراء لبنودها قبل التوقيع عليها . كل هذه الأمور أسعفت بازيلي بغزارة المواد ، فبدا «تاريخه» جامعاً لتاريخ سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم العثماني . مع الاستدراك هنا بأن ما نسوقه من اتهام لبازيلي بانتقاء الأحداث ، لا يقطّع تاريخه ، لأن بازيلي يمتلك ، كما يبدو من كتابته ، نظرة منهجية وخلفية ثابتة إلى حد الانطلاق من مسلمات والوصول بالتالي إلى أحكام وتقييمات صائبة حيناً ، ملتوية حيناً آخر ، جديرة بالقراءة في كل الأحيان .

* * * *

* * *

* *

*

أين يقع كتاب بازيلي من حركة الاستشراق الروسية ؟

حتى لو حصرنا مفهوم الاستشراق بمعنى دراسة الدين الإسلامي ، فإن كتاب بازيلي يدخل ضمن هذا المفهوم . صحيح أن بازيلي يتلمس الحديث عن الإسلام من بعيد ، إلاّ أنه في تحليلاته وأحكامه ، ينطلق من صورة كانت قد تكونت لديه عن الإسلام كدين وكتنظيم سياسي واجتماعي .

التشكيل «الإسلامي» لبازيلي ، كيوناني أولاً وكروسي تالياً ، يجد أسسه في ما خلفته العلاقات التجارية والدينية والأسفار المدونة بين الروسيا وبغداد وآسيا الصغرى وصولاً إلى الأماكن المقدسة ، وفي جانبه الأهم ، يجد أساسه في ما تركه البيزنطيون والإغريق في الروسيا عن الثقافة العربية والإسلامية . وما يعنينا هنا أن «هؤلاء أوصلوا إلى الروسيا كل ما هو سلبي في الحضارة الإسلامية ، كالاعتراف في التصوف والمثالية ، ووصلت صورة مشوهة عن نبي الإسلام ، وعن القرآن الكريم أيضاً »(١) . وكون بازيلي لم يكن مستشرقاً بمعنى الباحث في الإسلام كدين وكعقيدة ، وإنما وارثاً لمجموعة من القيم التي تصل «حد الأساطير عن العرب التي تشوه حضارة شعوب الشرق الأوسط» ، كان عليه أن يبحث في القضايا السياسية والاجتماعية ، وحتى الدينية الراهنة والمتحركة ، من خلال التشكيل الإسلامي السائد لدى المثقفين المهتمين بقضايا الشرق في الروسيا آنذاك .

كتابة بازيلي في تاريخ سوزيا ، لا بد وأن تنطلق إذن من معالجة ذاتية داخلية ، ومن إيديولوجيا جاهزة دائماً لمنازلة الإسلام ، أو بتعبير أدق المسلمين ، فتركيا «هي الدولة النموذج للاستبداد الإسلامي ضد المسيحيين» . وهكذا ينخفض تاريخ سوريا تحت قلم بازيلي إلى سلسلة من التعارضات ، ومن نقاط التوتر الدائمة . وهي معالجة تحمل الكثير من مقومات الصحة والصدق حول علاقة الأمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية ، ولكن هذه التعارضات تحت قلم بازيلي ، تكون بين طرفين غير متكافئين أبداً : في طرف الأمبراطورية العثمانية أو أقطارها نجد شخصية مفردة ، السلطان محمود ، السلطان عبد المجيد ، محمد علي باشا ، إبراهيم باشا ، فخر الدين المعني ، ظاهر العمر ، بشير الشهابي ، ولا يعوز بازيلي السحر الأدبي في وصف سمات هذه الشخصيات وقسماتها ، وينزل في وصفه حتى أدق التفاصيل . . أما مجتمع الأمبراطورية

---

(١) تشكل دراسة سهيل فرح «الاستشراق الروسي ، نشأته ومراحله التاريخية» ، المنشورة في مجلة الفكر العربي ، عدد ٣١ ، كانون الثاني ـ آذار ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٦٥ ، المصدر الأساسي في الحديث عن الاستشراق الروسي .

العثمانية ، فهو مجتمع قبائل مشتت وطوائف متباعدة ، متحفزة دائماً للتعارك فيما بينها أو للاستقلال عن الأمبراطورية . أما في طرف أوروبا ، سواء أكانت دولها مؤتلفة في سياستها مع السياسة الروسية أم لا ، فهناك دائماً «كلام كبير» : الأمم الأوروبية ، والدول الأوروبية والقوى العسكرية والسياسية الأوروبية ، جهوزية سياسية دائمة : فرنسا ، بريطانيا ، النمسا وبالطبع الروسيا ، دول تعرف ماذا تريد ، أخطاؤها السياسية أخطاء في التقدير وليس في التقرير . تحفز عسكري ، التعبئة لا تنتظر إلا القرار والأساطيل تنتظر فقط تحديد اتجاه الإبحار . بالمقابل السلطان محمود وخليفته عبد المجيد قعدا في الحكم محسورين ، ينتظران أن يأتيهما البشْرُ تارة من الروسيا وطوراً من فرنسا . محمد علي ، مع إعجاب بازيلي به ، يوشك دائماً أن يقع مغشياً عليه في حالتي النصر والهزيمة . الأمير بشير وهو في الحكم قلق دائماً من غدر أمير شهابي قريب ، وفي حال الاضطراب السياسي في إمارته ينزع إلى سفينة أوروبية تنقله إلى مصر ليعود منها بالإمارة من جديد ، وفي حال الهزيمة ينتظر سفينة أوروبية تنقله إلى حيث السلامة . التعارضات بين أوروبا والدولة العثمانية في مفهوم بازيلي ، هي تعارضات بين عملاق وقزم ، بين كبير وصغير ، بين مجتمع متماسك ومجتمع مفكك متآكل .

الأمبراطورية العثمانية عند بازيلي ليست كياناً أو دولة وإنما «أزمة سياسية» ، يستحضرها بازيلي ليبين ، إضافة إلى ما سبق وقلناه في حديثنا عن تشكيله الإسلامي ، السياسة الروسية وصوابيتها والسياسة الفرنسية وغباوتها والسياسة الإنكليزية ومكرها . الوجود العثماني خارج آسيا الصغرى يراه استعماراً أسوداً ممجوجاً ، أما التدخلات الأوروبية فهي ، وإن كان بازيلي بحياء يعترف بوجود دوافع استعمارية وراءها ، تتمحور أولاً حول شكل حل أزمة الأمبراطورية وأزمة شعوبها ، قبل أن تكون حلاً لأزمات الدول الأوروبية ، وخلافاً حول مصالح استعمارية أولاً وأخيراً .

* * *
* *
*

حديث بازيلي عن داخل الأمبراطورية العثمانية ملفت ومثير ، يستقرىء الحدث ، تمكنه مؤهلاته كمؤرخ وديبلوماسي وعبكري وأديب ، من الإحاطة الكاملة به ، من الخطوط العريضة إلى التفاصيل الجزئية ، لكن بازيلي يعود ليكبو في آخر الشوط : يسهب المؤرخ في الحديث عن المجتمع السوري ، كمجموعة من القبائل المتناحرة ، لكنه عندما

يصطدم بحركة داخلية موجهة إلى السلطة المركزية في الآستانة ، شأن حركة فخر الدين وظاهر العمر ، تَقُرُّ نفس المؤرخ وتطيب ، إذ يعتبرها من الظواهر الإقليمية القومية المعبرة عن تيار عريض ، وهي حركات جديرة بكل الدعم والتشجيع ، لأنها على ما يبدو تتماثل مع غيرها من الحركات في الغرب ، وتعني في نهاية المطاف اندماجاً في المعاصرة التي ينتجها الغرب وحسب ، ولا يخفى أن هذه المباركة تنطلق كذلك من اتجاه السياسة الروسية العام الهادف إلى تقسيم الأمبراطورية العثمانية .

الإصلاح الراهن في الأمبراطورية العثمانية ، يحصره بازيلي في نقطة واحدة : الجيش . ويتشبه بموديل واحد : العسكر الروسي المجاور . عدم التشبه بالجار الروسي ، يجعل منه بازيلي ضمناً أحد أسباب وقوع مصر فريسة للاستعمار الأوروبي ، لأن محمد علي باشا احتذى النموذج الفرنسي ، لا كما كان يخطط السلطان محمود والذي لم يسعفه القدر ، كما لم يسعف أمبراطوريته ، برؤية جهوده تستكمل تطورها .

أما إصلاح الأمبراطورية العام ، فيرى له بازيلي احتمالاً واحداً لا غير : ارتداد السلطان محمود إلى المسيحية . خطوة يستسهلها بازيلي لأن المسيحية هنا أرثوذوكسية . هذا في الوقت الذي جعل ارتداد الأمير بشير إلى المسيحية ، وهي هنا مارونية كاثوليكية ، مهمة غاية في الخطورة ، فقد أصابت مقتلاً في سياسة الأمير وسياسة خلفه ، لأنه في مجتمع إسلامي إسلام القائد الشرط الأول للقيادة .

* * *
* *
*

تاريخ سوريا عامة ، وتخصيصاً تاريخ الأحداث اللبنانية في الفترة الشهابية ، وذروة تأزمها فترة الأمير بشير الثاني ، هو القسم الأكثر إثارة ، ليس لأنه القسم الأكبر من الكتاب ، بل لأنه الأهم على صعيد الكتابة والتحليل التاريخي . من خلاله نرى بازيلي مؤرخاً وحسب ، بازيلي الديبلوماسي ينسحب ، ولولا بعض إشارات عن لقاءات له مع باشا أو قائد تركي أو مع غيره من زملائه القناصل الأوروبيين ، وهي إشارات تبدو عابرة على أية حال ، لما عرفنا وظيفته ، قنصل الروسيا في بيروت .

يبدو أن عمق كتابة بازيلي الملفت في الأزمة اللبنانية ، يجد دافعه في اختلاف سياسة الروسيا السورية عن سياستي فرنسا وانكلترا المتناحرتين أصلاً للسيطرة على هذه المنطقة . إن الحكومة الروسية ، منشغلة بمسألتي البلقان والمضائق ، لم تكن تملك شأن

تلك الدولتين مخططات لإخضاع سوريا ، وأمام محاولات السيطرة الفرنسية والإنكليزية كانت «شريكاً مضارباً» لا أكثر ، من هنا كان حديث بازيلي ببعض الصراحة عن المرامي الاستعمارية للدول الأوروبية في منطقة سوريا ، اعتقاداً من أن هذه التهمة لن تطال الروسيا ، التي لم يكن لها مصالح مباشرة في سوريا آنذاك ، بل كان همها المناورة في أحداث المنطقة للحصول على تنازلات في البحر الأسود والمضائق .

قد تفسر هذه النقطة ما نراه من تمايز في تناول بازيلي للأحداث اللبنانية حيث الحياد النسبي ، وبين حديثه وتقييمه لاتجاهات محمد علي باشا السياسية . إن موقع الباشا المصري آنذاك وموقفه من السلطنة وتهديده لجذورها من الأساس كان على تماس مباشر مع مخططات وأهداف السياسة الروسية . من هنا تقييم بازيلي لمحمد علي وحركته ، من موقع الديبلوماسي ، أي أن كتابته هي سياسية قبل كل شيء . الأحداث اللبنانية التي تلت حركة محمد علي ، وحملة إبراهيم باشا ، كانت ، بشقها الداخلي خصوصاً ، بعيدة عن الأصابع الروسية ، دون أن تكون بعيدة عن عيونها بالطبع ، من هنا تحرر بازيلي من التزاماته كموظف ديبلوماسي في كتابته .

إن ما سبقت الإشارة إليه عن نظرة بازيلي البانورامية للأحداث ، ينطبق أكثر ما ينطبق على حديثه عن أزمة ١٨٤٠ ـ ١٨٤٥ ، ومقدماتها قبيل حملة إبراهيم باشا وأثناءها ، وبعدها مع نزول الجيوش الأوروبية المتحالفة على الشواطىء اللبنانية . والطريف هنا أن بازيلي يجرنا لاعتباره «ديبلوماسياً فاشلاً» ، ففي تلاحق الأحداث وتزارك اجتماعات القناصل الأوروبيين وألاعيبهم مع زعماء الطوائف اللبنانية ، يقدم بازيلي نفسه «قنصلاً إنسانياً» غامراً في شعوره الإنساني ، مقلاً ، وإن بفعالية ، من تحركه كديبلوماسي ، وهو تحرك ، لا يبدو تحت قلمه ، بأنه يتعدى تأمين سلامة وإنقاذ أناس أبرياء ، وهذا ما تنفيه كتابات غيره من القناصل الأوروبيين ، الذين ينقل عنهم عادل إسماعيل في وثائقه ، أقوالاً بحق بازيلي ، تنعته بالداهية والماكر ، المتحرك في اتجاهات عدة والمدرك لخفايا وبواطن اللعبتين الدولية والداخلية . وكلام القناصل هذا هو الأصوب بالطبع ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من اعتبار بازيلي في كتابته في تأريخ الأحداث اللبنانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مؤرخاً قبل كونه سياسياً وديبلوماسياً ، فبعض الأحكام التي يطلقها توشك لدقتها أن تشكل قانوناً في أصول التوازن اللبناني . لنقرأ سويّة :

«ستوضح لنا الأيام ، إن فهمت أوروبا كم هو غال ثمن هدوء الوضع الحالي في

أفضل شواطىء البحر المتوسط ، وهو الهدوء الذي دفعت أوروبا فواتيره من استقرارها وتطورها المدني . لا يستطيع حتى أعند المتفائلين أن يؤكد لنا ، بعد الأزمات الثلاث في الشرق والتي عاشها جيلنا ، أن الأزمة الرابعة لن تتأخر في المجيء» .

الأزمة الرابعة لن تتأخر في المجيء ، رصد تاريخي ولا شك يتأكد صدقه في وقتنا الحاضر ، وهو يتعدى ببصيرته بأشواط ، التحليل السياسي ـ التاريخي الذي ساد بداية الأزمة الراهنة بأحداثها الحالية المعيوشة ، تحليل «المؤامرة» في حدّه المتشائم ، وتحليل «الجولة» في حدّه المتفائل بقرب الخلاص ، وهو تحليل دعا بأحد السياسيين إلى تصور خلاص الأزمة الحالية بعد «الجولة» الثانية ، ويكفي التهديد بالجولة الثالثة لحسم الأمور : «نقول للذين يفكرون بالجولة الثالثة ، بأنه إن حصلت فلن تكون هناك جولة رابعة» . الجولة الثالثة جاءت وتلتها الرابعة ، وقبلها بسنوات وسنوات كانت الأزمة الخامسة والسادسة ، ويبدو أن لبنان الآن يحتفل بذكرى مرور ١٢٥ سنة على نبوءة بازيلي تلك ، ولكن بالطبع على الطريقة المحلية ، وهي طريقة لا تترك متفرجاً ، بل تحدد لكل موقعه ، بالقوة أم بالفعل ، طريقة احتفال حددها بازيلي في حديثه عن ظاهر العمر «. . . في صراع الباشوات الأتراك حياد القبائل ولامبالاتها لا يمكن أن تدوم في سوريا . لم يكن ظاهر العمر يخشى جيوش الباشا ، إلا أنه كان تعلم أنه إذا لم يقف الجبليون إلى جانبه فسيقفون ضده لا محالة . . .» .

يكتب بازيلي في تاريخ سوريا قديماً وحديثاً ، ويكتب عن الطوائف اللبنانية : هرميتها الاجتماعية الداخلية ، علاقاتها المتبادلة ، علاقاتها منفردة أو مجتمعة مع الخارج الدولي ، بفرادة تحفظ له امتياز الريادة على الكثرة الساحقة من مؤرخي هذه الأحداث . يصدر تقييماته بجرأة كبير العائلة متحدثاً مع أحفاده ، وهي تقييمات جديرة بالاحترام والمناقشة ، وافقت رأي القارىء أم جانبته ، بعض من هذه التقييمات ـ الأرصاد :

١ ـ من غير الممكن أن ننسب ظاهرة رائعة كهذه (تقدم صور وصيدا واستعمارهما حول البحر) إلى شيء آخر يتعدى امتياز الموقع الجغرافي على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، رحم حياة العالم القديم .

٢ ـ إن بوصلة فاسكو دي غاما ، وليس سيف السلطان سليم هي التي كتبت نهاية رخاء سوريا القديمة . . . ، وفي أيامنا هذه تمثلت الضربة الأخيرة لصناعتها ، بمنافسة الغرب المسلح بالماكينات التجارية ، للحرف في الشرق للأنوال التي . . .

٣ ـ إنما من خلال كل القرون ، كلما كان النصر سهلاً على هذه الغنيمة غير الوفية

(المقصود سوريا) كان الاحتفاظ بها غاية في الصعوبة ، أما استخراج عناصر قوى جديدة من أجل المشاريع الآتية فهذا لم يسعد به فاتح قط .

٤ ـ إن حل هذه الظاهرة (ظاهرة تفتت جيش إبراهيم باشا) يجب أن لا نبحث عنه في فن الاستراتيجية أو في المآثر الحربية لجيش الحلفاء ، وإنما في الموقف الشعبي المعادي .

٥ ـ زار :قبودان باشا دير القمر بدعوة من الأمير (يوسف) . والأمراء اللبنانيون عادة ، يحبون التبختر أمام ضيوف العاصمة في طرقهم الجبلية الضيقة التي تلقي الرعب في قلوب قاصدي قراها المعلقة كأعشاش النسور . إن هذه الطرق لو ملكها شعب آخر ، خير سد منيع أمام العدوان الخارجي . إلا أن الأتراك تعلموا منذ مدة طويلة أن جيوشهم قادرة على عبورها بفضل خلافات الأمراء اللبنانيين أنفسهم .

٦ ـ الواقع أن مواقع الأمير (بشير) قويت منذ ذلك الحين ، بعدما قضى على بيت أبي نكد ، وعقد حلفاً قوياً مع الجنبلاطيين بشخص الشيخ الموهوب بشير ، رأس البيت الجنبلاطي . إلا أن وجود الأحزاب وطبيعة الخلاف نفسه ، العداء العائلي ، الخيانة والكره ، ظواهر نجحت خلال قرن من حكم الشهابيين ، أن تمدّ جذوراً عميقة في رحم القبائل اللبنانية ، لدرجة أن هذه القبائل فقدت أي تأثير سياسي في مصائر سوريا ، فحياتها مستنزفة في الدسائس والصراعات العشائرية .

٧ ـ الرأي العام الأوروبي كان يعطي الموازنة نوعاً من الاستقلالية بالنسبة للقبائل السورية ، وهي استقلالية يعسر فهمها لأي مراقب حيادي .

* * *
* *
*

كتب بازيلي في تاريخ سوريا في الفترة العثمانية ، والكتاب في مضمونه ، قد لا يكون المفرد في الاستشراق السياسي الروسي ، ولكنه بالتأكيد الأول الذي ينقل إلى اللغة العربية ، ولا يمكن للكتاب إلا أن يكون من منظار التشكيل الأوروبي وتحديداً الروسي لمؤلفه ، فهو يكتب إذن في السياسة المشرقية لروسيا القيصرية ، وفي النظرة الروسية لعناصر المجتمع السوري ، وهي نظرة تجعل من مجتمع المنطقة عناصر مجزأة ـ مركبة تبريراً للتدخل الأوروبي في الأمبراطورية العثمانية ، من هنا تشجيع بازيلي لكل حركة انفصالية عن الأمبراطورية العثمانية . إلا أن الكتاب في حديثه عن العلاقات الداخلية

بين الطوائف اللبنانية يبدو أكثر تجرداً وأكثر بعداً عن أن ينظر إلى تلك الأحداث من زاوية روسية وحسب .

لقد حاولنا في هذه الصفحات استقراء منهج بازيلي في كتابته ، دون أن نجيز لأنفسنا الحق بمناقشة المؤرخ في روايته ورصده حركية المجتمع السوري ، لأن في ذلك ادعاءً و«مرجلة» في غير موضعها ، ولأن بازيلي ، وهنا بعض امتيازه كمؤرخ يضمن حق القارىء في حرية «القراءة» والحكم على الكتاب : «أنا لا أضمن حياد أحكامي ولا صحة آرائي ، وإنما في ما يتعلق بالوقائع التاريخية الحديثة والتي يستطيع القارىء أن يستخلص منها حكمه الخاص فأنا أتكفل تماماً بصحة روايتي» .

حتى صحة الرواية ، على افتراض صدقها ، ومطابقتها للواقع ، تختلف باختلاف زاوية النظر «للصدق» وللواقع المروي عنه ، فما يؤكده بازيلي عن صدق روايته ، صحيح من وجهة نظر بازيلي ليس غير ، وقد نوافقه أحياناً وقد نفترق معه ، وصحيح كذلك من خلفية تشكيله التاريخي ليس أكثر .

الموقف من كتاب بازيلي لا يمكن إلا أن يكون أحد اثنين: إما الدفاع عنه وإما مهاجمته . إن تهمة أوروبية المؤلف ، لا ترد لبازيلي كل كتاباته ، ففي كل الكتابات الأوروبية ينخرط السياسي بالتاريخي . وفضيلة الصدق ، الشرف الذي يدعيه بازيلي ، لا تعفيه من بعض الباطل ، فالاستخدام الوظيفي للكتاب ، أي كتاب ، لا تحدده نوايا الفرد ـ الكاتب ، على افتراضها بريئة صافية .

أما ما قد يراه البعض ، خروجاً عن «موضوعية» مفترضة بمؤرخ ، نعني اعتصابه مثلاً للمماليك وأصلهم الروسي ، وكتابته بحنين عن ماضيهم الألق الممرح ، أو مقارنته بين فلاحي ورعاة مصر وسوريا (رعاع خاملون)، وبين فلاحي ورعيان منطقة القفقاس (عباقرة عسكريون شجعان) ، أو لهفته وغيرته اللاهثة تجاه أرثوذكس سورية في معارك ١٨٤٢ ـ ١٨٤٥ ، إن من يؤآخذ بازيلي على كل ذلك ، فليرمه بحجر إن كان بلا خطيئة . «وما يتبع أكثرهم إلا ظنّاً» (حديث شريف) .

مقدمة المستشرقة الروسية

إي . إم . سميليا نسكايا

المقدمة

عرفت الأوساط الأدبية الروسية في ثلاثينات القرن التاسع عشر ، قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيلي ، كاتباً لـ «نبذات عن القسطنطينية» وديبلوماسياً مميزاً وصديقاً لـ غوغول ، لكنها لم تعرفه أبداً صاحب مؤلفات عن سوريا (١) ، رغم القيمة الكبيرة لمؤلفاته العلمية . **إن كتاب «سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي» هو أحد أول المؤلفات العالمية في تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين الحديث .**

استطاع بازيلي في مؤلفه هذا أن يسلط الأضواء بوضوح ودقة كاملين على تاريخ سوريا من القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر ، وأن يرسم بإبداع حوادث الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر ، أي الحوادث التي حفلت بها أصعب أعوام التاريخ السوري الحديث ، وأن يُعطي تحليلاً متقدماً ، أعمق من أي تحليل آخر لأي من المؤرخين الأجانب في القرن الماضي .

اعتمد بازيلي في كتابه على الحوليّات العربية المخطوطة ، وكتب الرحالة الأوربيين الذين سبقوه ، إضافة إلى ما كانت توفره له معايشته الشخصية للأحداث من دقة المراقبة . وعلى هذا لا يزال كتاب «سوريا وفلسطين . . .» وحتى يومنا هذا ، واحداً من الأعمال الأولى في حقل الاستعراب الروسي ، محتفظاً بقيمته العلمية ، بفضل ما يحمل من أهمية تاريخية .

بالطبع يجدر أن نرسم بعض العوامل المحددة في حياة بازيلي ، والمؤثرة في آرائه وتفكيره والموقظة فيه الرغبة بدراسة التاريخ ، وبالتالي إنتاج مثل هذا الأثر وإصداره في الروسيا «بمعزل عن الاستعراب الأكاديمي» (على حد تعبير إي . يو . كرا تشوفسكي) .

---

(١) نحذو هنا حذو الكاتب باستعمالنا مفهوماً تاريخياً لـ «سوريا» . وهذا المفهوم يشمل أراضي لبنان ، سوريا الحديثة ، وفلسطين .

ولد ق. م. بازيلي في ٣ شباط ١٨٠٩ في مدينة اسطمبول ، في عائلة يونانية مرتبطة بحركة التحرير الوطني اليونانية والالبانية ، فالمعروف عن جده الملاك الكبير اشتراكه سنة ١٧٧٢ في الانتفاضة ضد النير التركي . سنة ١٨٢١ حكم والده ميخائيل فاسيلينيتش بالموت شنقاً لمساندته الحركة اليونانية ، لكنه تمكن بمساعدة السفير الروسي الكونت ستروكانوف من مغادرة الأراضي العثمانية والوصول لاحقاً إلى أوديسا . كتب ذات مرة «أقدار الشرق، وقدري الشخصي ، أعطياني وطناً جديداً : الروسيا» . وبالفعل قضى بازيلي كل حياته ملتصقاً بالروسيا ، محتفظاً في الوقت نفسه بالتعاطف العميق ، الذي يحمله من تاريخ عائلته ومشاركتها في الحركة اليونانية ، مع الشعوب المضطهدة في الأمبراطورية العثمانية .

سنة ١٨٢٢ دخل بازيلي معهد العلوم العليا في نجين Nigine حيث أتقن اللغة الروسية ، وتعرف على الأدب التقدمي الروسي ومؤلفات النهضة الفرنسية [٢] وهذا ما أثر بالطبع ، بالاضافة إلى إيديولوجية المتنورين الفرنسيين ، وبعض حلقات الأساتذة التقدميين في المعهد ، على تكوين فكر بازيلي . ولا بد هنا من الإشارة إلى أن بازيلي ارتبط من خلال وجوده في المعهد بصداقة قوية مع بعض زملائه من الطلاب ، ونشير هنا إلى ن. ق. غوغول شاعر أوكرانيا فيما بعد ، ي. غ غريبنكا الذي أصبح لاحقاً عالماً طليعياً وأستاذاً في الحقوق ، وب. غ. ريدكين [٣] وآخرين غيرهم .

١٨٢٧ التحق بازيلي في ليسيه «ريشيليو» في مدينة أوديسا ، وبعد تخرجه سنة ١٨٣٠ سافر إلى اليونان حيث دخل بصفة ترجمان في خدمة الأميرال ريكورد آمر الأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط . في سنة ١٨٣٣ انتقل إلى العمل في وزارة الخارجية في بطرسبورج .

مكث بازيلي في بطرسبورج ما بين ١٨٣٤ ـ ١٨٣٧ [٤] وهي فترة كانت فيها العاصمة تتفتح نشاطاً : أ. س. بوشكين لا يزال حياً ، عبقرية ن. ق. غوغول تبدو أكثر سطوعاً . أجواء العاصمة هذه جعلت بازيلي أكثر شغفاً بنشاط الحلقات الأدبية والعلمية ، فاشترك في إصدار عدد من المطبوعات الدورية ، وكتب للقاموس الموسوعة

---

(٢) كان تلامذة المعهد يطلعون سراً على كتب تمنعها الرقابة : مؤلفات ريليف ، بوشكين ، غربو يدوف ، فولتير ، روسو ، مونتسكيو .

(٣) انظر «ليسيه الأمير بيز بورودكا» .C II 5 SPb ، ١٨٥٩ «معهد العلوم العليا ، وليسيه الأمير بيز بورودكا» CII5 ، ١٨٨١ .

(٤) في هذه السنة أرسل بازيلي الى القفقاز سكرتيراً لرئيس بعثة شكلت لوضع تقرير عن إدارة الاقليم .

بلوشار (حيث كان يعمل عدد من المستشرقين المشهورين أمثال أو. أي. سنكوفسكي وب. س. سافيليف وق. ق. غريغوريف) . كذلك نشر عدداً من المقالات عن الشرق وبلاد الإغريق في الموسوعة الحربية . وفي هذه الفترة بدأ بازيلي بكتابة أعماله الكبيرة الأولى : ابتداء ١٨٣٤ وعلى امتداد سنوات ثلاث نشر كل عام جزأين كبيرين عن «الأرخبيل واليونان بين ١٨٣٠ و١٨٣١» و«نبذات عن القسطنطينية» و«البوسفور ونبذات جديدة عن القسطنطينية» . إن كل هذه الأعمال المبكرة تشهد على سعة أفق بازيلي وعمق اطلاعه ومعرفته الجيدة بحياة ونمط المعيشة التركية . نقول هذا مع غلبة الطابع الأدبي على مجمل إنتاجه .

١٨٣٩ عين بازيلي قنصلاً في بيروت حيث أعطت جديته في الدراسة كتاب «سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي» .

عاش بازيلي ١٥ سنة في سوريا (١٨٣٩ ـ ١٨٥٣) . واجبات الخدمة الديبلوماسية غيرت لديه عادة الإقامة في هذا البلد: الإشتاء في بيروت ، والاصطياف في جبل لبنان ، فقد أجبرته على التنقل باستمرار داخل هذا الوطن . كذلك زار ايطاليا واسطمبول ، محافظاً في كل إقاماته وتنقلاته على صلاته بالأوساط العلمية والأدبية الروسية فقد تردد إلى الروسيا عدة مرات . كذلك لم تنقطع مراسلاته مع غوغول الذي توقف عنده في بيروت أثناء مروره في لبنان ، وهذا ما حصل كذلك مع الشاعر ب. أ. فيازمسكي ومسؤول التبشير الديني بوقيري أوسبنسكي . أثناء إقامته جمع بازيلي مكتبة علمية ومخطوطات عربية أرسلها إلى وزارة الخارجية في بطرسبورغ [٥] ، كذلك حصل على ترجمات المخطوطات التي تهمه وعلى مصورات للوحات الكنائسية القديمة .

في السنوات الأولى من وجوده في سوريا اهتم بازيلي أساساً بدراسة الوضع الاقتصادي للبلد ، وقد أرسل في أيار ١٨٤١ إلى السفارة الروسية في اسطمبول رسالة وافية عن «تجارة سوريا الخارجية» [٦] ، تحوي دراسة عميقة للعلاقات الاقتصادية

---

(٥) في قسم المخطوطات لمعهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية في لينتغراد تحفظ مخطوطتان ألفهما المؤرخ اللبناني حيدر شهاب (١٧٠١ ـ ١٨٣٥) . وهناك ما يؤكد بأن بازيلي أرسل هاتين المخطوطتين إلى الروسيا . في وصف ف. ب : Rosene

(«Collections scientifiques de l'institut des orientales du ministère des affaires étrangères» Pt I, spb, 1877).

هذه المخطوطات توجد تحت رقم ٦١ و٦٢ .

(٦) هذه الرسالة مع تعديلات طفيفة نشرت بدون إمضاء الكاتب في جريدة مسكوفيسكي فيدوموستي سنة ١٨٤١ ، عدد ٩٣ ـ ٩٦ .

للمنطقة . واتبعها لاحقاً بتقارير لا تقل أهمية .

نفس العام ١٨٤١ كتب بازيلي «تجربة الاحصائيات الدينية في سوريا ولبنان» ملقياً بذلك الضوء على الوضع الديموغرافي والأتنوغرافي وعلى وضع الكنائس المسيحية الشرقية ، وهذا العمل لم يصدر كاملاً وإنما طبع جزء منه تحت عنوان «ملاحظات إحصائية عن القبائل السورية وإدارتها الروحية» (٧) .

أما الأثر الذي نحن بصدد تقديمه «سوريا ولبنان تحت الحكم التركي» فقد باشر بازيلي في كتابته أواسط القرن التاسع عشر ، وقد استند بشكل أساسي على التقارير التي كان يرسلها بانتظام إلى السفير الروسي في القسطنطينية منذ تشرين الثاني ١٨٣٩ .

من المعروف أن وضعاً معقداً من التناقضات السياسية الداخلية والخارجية كان قد نشأ في سوريا ابتداء من أربعينات القرن التاسع عشر . إن الهزائم التي ألحقها جيش محمد علي بالجيش السلطاني مزقت ثقة السكان العرب بالجبروت التركي . خطي شريف كلخانة ، أفكار الثورة البرجوازية الفرنسية العظمى المتسربة إلى سوريا ، أيقظت الوعي السياسي للجماهير ، فتفاقم النضال ضد الاقطاع في لبنان ، وضد الأتراك في بقية سوريا . وقد تعقدت تبعاً لذلك العلاقات الخارجية لهذا الجزء من الأمبراطورية العثمانية نتيجة التدخلات الأوروبية في أموره الداخلية . إن مؤامرات عملاء هذه الدول أدت لأن تصب الحركة المعادية للاقطاع في لبنان ، في معارك طائفية دموية بين الدروز والموارنة .

اختلفت سياسة الروسيا نحو سوريا كثيراً عن سياستي فرنسا وانكلترا المتناحرتين أصلاً للسيطرة على هذه المنطقة . إن الحكومة الروسية لانشغالها بمسألتي البلقان والمضائق لم تكن تملك شأن تلك الدولتين مخططات لإخضاع سوريا . لكنها مع ذلك لم تقف متفرجة أمام تدخلهما في الشؤون الداخلية لهذا الجزء من الأمبراطورية العثمانية ، لأن تقوية موقع كل من فرنسا أو انكلترا في أي جزء من الأمبراطورية ، يعني في نهاية الأمر تغييراً في موازين قوى الشرق الأوسط . أضف إلى ذلك أن الأوساط الديبلوماسية الانكليزية لم تكن تخفي نواياها باستعمال شمالي سوريا قاعدة للوصول إلى ما وراء القفقاس الروسي . هذه العوامل من الأسباب التي جعلت الحكومة القيصرية مهتمة بالوقوف في وجه السياستين الفرنسية والانكليزية .

---

٧) «ملاحظات إحصائية عن القبائل السورية وإدارتها الروحية» صدرت في الطبعتين الأولتين من كتاب «سوريا وفلسطين . .» واحدة من هذه المخطوطات ، وعنوانها «خلاصة الاحصاءات الروسيا في سوريا وفلسطين» محفوظة في قسم المخطوطات في المكتبة الحكومية العامة ، م . ي . سالطيكوفا ـ شيدرينا في ليننغراد .

سبب آخر يكمن وراء تميز السياسة الروسية . لقد وجدت الحكومة الفرنسية في الاقطاعيين الموارنة وقيادتهم الروحية سندها الأساسي . أما بريطانيا فقد اعتمدت بشكل رئيسي على فئة الاقطاعيين الدروز ، ولهذا حاولت كل من هاتين الدولتين العظميين الدفاع بأية وسيلة عن مصالح الفئات الاقطاعية المذكورة . يكتب بازيلي بهذا الصدد سنة ١٨٤٢ : «إذا لم تكن كل تصرفاته السابقة (يقصد القنصل العام الانكليزي I. S. ROSE) نابعة من تصوراته وإحساساته الذاتية ، فإنها تفسح في المجال للشك بمواقف حكومته من سكان سوريا. إنه حليف غيور للمبدأ الاقطاعي ، و. . . يرى واجبه الديني في مساندة هذا المذهب ، خاصة وأنه ملائم للأوضاع السياسية في سوريا ، ويفسح في المجال أكثر لنجاح النفوذ الأجنبي» [٨] .

من جهتها سعت الحكومة الروسية في تلك الفترة إلى الاعتماد على الطائفة الأرثوذكسية وقيادتها الروحية . الأرثوذكس العرب كانوا فلاحين ، حرفيين، تجاراً ومرابين . لهذا ومن أجل استمالتهم ، اضطرت الديبلوماسية الروسية إلى الدفاع عن مصالح هذه «الفئة الثالثة» ، وهذا ما ينعكس في البرامج الاصلاحية لبناء لبنان التي رفعها بازيلي سنوات ١٨٤١ ـ ١٨٤٤ [٩] .

في تلك السنوات احتلت المسألة الدرزية ـ المارونية مركز الصدارة في سياسة دول أوروبا الغربية ، وشكلت تربة خصبة لتدخل هذه الدول في الأمور الداخلية لهذا البلد ، بحجة أن السلطات التركية لا تستطيع إقرار الأمور ووضع حد للاضطراب فيها . وفي تدخلها الآنف كانت كل من فرنسا وانكلترا تسندان الطروحات التركية التي لا تؤدي إلى تخفيف حدة التناقض الطبقي ، بل إلى تأجيج نار العداء الديني بين الدروز والموارنة ؛ وتكفي الاشارة هنا ، إلى أن مخطط تقسيم لبنان إلى سناجق درزية ومارونية ، والذي أدى إلى تعقيد أكثر للوضع ، هو اقتراح الأوساط الانكليزية .

إن المحافظة على الوضع الراهن وتسعير هذا التناقض ، كان يفيد بالاضافة إلى فرنسا وانكلترا ، السلطات التركية والاقطاعيين الدروز والموارنة . فالحكومة التركية

---

(٨) أرشيف سياسة الروسيا الخارجية . «السفارة في القسطنطينية» L. 8. D 736 (ثم AVPR) . في أيلول سنة ١٨٤٤ أثناء اجتماع بازيلي مع العقيد روزي ، أكد الأخير بأن سياسة بريطانيا العظمى في لبنان تعمل على دعم الاقطاعيين وحفظ حقوقهم في اقطاعاتهم . F. AVPR «السفارة في القسطنطينية» ، L. 258. D 780 .

(٩) عن هذا الأمر وعن نشاط بازيلي الديبلوماسي ، وآرائه السياسية والعلمية انظر أي . م . سميليانسكايا ، ك . م . بازيلي ـ ديبلوماسي روسي ومؤرخ سوريا . «نبذات عن تاريخ الاستشراق الروسي» SB IV موسكو ١٩٥٩ .

كانت ترمي إلى استعمال الصراع الدرزي الماروني وسيلة لتدعيم سلطتها في لبنان ، وتالياً في سوريا بمجموعها . أما إقطاعيو لبنان الجنوبي (المقصود جنوب جبل لبنان) من الدروز فقد أغرقوا حركة الفلاحين الموارنة المعادية للاقطاع في جوهرها ، وإن كانت مغلفة بقناع ديني ، أغرقوها بالدم متخذين الفلاحين الدروز وسيلة لذلك . ومن جهتهم هوّل الاقطاعيون الموارنة ورجال الدين في شمالي لبنان بهجوم درزي مزعوم فأجهضوا بذلك كل تحركات الفلاحين الموارنة الموجهة ضدهم في الأصل ، كان الموارنة «في حالة هيجان نتيجة النزاعات الداخلية والطموحات المتناقضة للأرستقراطية وللكهنوت وللجماهير الشعبية ، ولا شك أن حرب عائلات كانت ستندلع لدى الموارنة لولا التهديد الدرزي» (١٠) . هذا ما أنبأ به بازيلي في كانون الثاني ١٨٤٢ .

آنذاك رأت الصحافة في أوروبا الغربية في ما عنى الصدامات الدرزية المارونية أن سبب النزاع يكمن في التعصب الديني لدى طرفي الصراع : الدروز والموارنة . أما الأوساط الديبلوماسية الانكليزية والفرنسية فقد أكدت أن الصراع نشأ في فرق سياسية ودينية ، وبالتالي فإن الحل يكمن في تشكيل مجلس أعلى لإدارة البلاد يأخذ بعين الاعتبار توازن القوى بين فرق الاقطاعيين الدروز والموارنة ، وفي هذا مرضاة لأطراف النزاع والدول الأجنبية التي ترعاها .

إن الخدمة التي قدمها بازيلي تكمن في ملاحظته التناقض الاجتماعي بين فلاحي الموارنة ومشايخ الدروز . كتب سنة ١٨٤٨ عن حوادث ١٨٤١ بأنها كانت «نتيجة محاولة السكان المسيحيين نفض نير المشايخ» (١١) . كذلك أدرك بازيلي حتمية الصدامات الطبقية داخل الطائفة المسيحية : «كانت الأرستقراطية المسيحية أقرب وأقدر على فهم الأحداث من الرأي العام الأوروبي ، المخدوع بالصبغة الدينية للمسألة اللبنانية ، وكانت هذه الأرستقراطية ترى بوضوح الاتجاه الفوضوي لأبناء دينها ، وكانت تدرك تماماً بأن إسقاط سلطة المشايخ الدروز سيل سيطالها ويريقهاهي بذاتها» (١٢) .

وانطلاقاً من نظرته هذه يؤكد بازيلي - في شباط ١٨٤٢ - عكس نظرائه الانكليز والفرنسيين أن مسألة تعيين حاكم في لبنان ليست هي «المسألة الأساسية» وأن حلّ

---

(١٠) F., AVPR «السفارة في القسطنطينية» L. 26, D 736 ،

(١١) راجع ص ٢٧٩

(١٢) راجع ص ٢٨١ .

التناقضات الدرزية المارونية يكمن في القضاء على «التسلط الاقطاعي» ، لأن هذا يؤدي برأيه ، إلى «حماية الشغيلة» (١٣) .

هذا الفهم المتقدم لطبيعة الأحداث الحاصلة في سوريا ، لا يصور فقط بأفكار بازيلي المستنيرة والمتقدمة على أفكار معاصريه ، ولا بطبيعة ومهمات السياسة الروسية التي كان بازيلي نفسه ممثلاً لها في منطقة سوريا ، فحسب ، وإنما أيضاً بفهمه العميق ودراسته الدؤوبة لتاريخ هذا البلد . يقول في مقدمة كتابه : «أنا . . . لم أكن لأستطيع إدراك كُنه ما يدور أمام عيني لولا مراجعتي لموجز الأحداث والوقائع التاريخية التي جرت سابقاً» . بكلمات ، إن دراسة تاريخ سوريا مهّد له بازيلي في عمله الديبلوماسي ، في نفس الوقت الذي كانت فيه مهماته اليومية تشكل دافعاً حثيثاً لدراسة هذا التاريخ . ونتيجة لتظافر هذه العوامل مع جهوده كان هذا الكتاب .

أنجز بازيلي كتابه «سوريا وفلسطين . . .» في أواسط العام ١٨٤٧ . وفي ربيع العام التالي فشل في طبعه وإصداره ، وقد عزا الشاعر ب. أ. فيارزمسكي سبب هذا الفشل إلى شكليات بسيطة : لم يحصل الكاتب كديبلوماسي على موافقة وزارة الخارجية لطبع كتاب يطال في بعض جوانبه مشاكل السياسة الخارجية للدولة . لكن بالتأكيد كان وراء منع الطبع أسباب تتعلق بالسياسة الداخلية للحكومة الروسية ، وتصديقاً لذلك فإن إذناً آخر بطبع الكتاب تقدم به بازيلي عام ١٨٥٤ رفض أيضاً . يومها كانت الروسيا في حالة حرب مع تركيا . لم ترفع السلطات الحصار عن الكتاب إلا سنة ١٨٦١ فسمحت بطبعه بعد أشهر من صدور مانيفست «عتق الفلاحين» .

ظهر الكتاب لأول مرة في أوروبا عام ١٨٦٢ ، وأعيد طبعه بعد ٣٠ عاماً في بطرسبورغ ، مع إضافات وملاحظات كتبت عام ١٨٦١ ، تلفت نظر القارىء إلى عدم جواز المقارنة بين الانتفاضة الفلاحية ضد الاقطاع في سوريا ، والتي يتعاطف معها بازيلي، وبين الانتفاضة الفلاحية في الروسيا . ففي ملاحظته عن «القومية الرسمية» نجد دعاية لمقولة تعايش مصالح الحكومة القيصرية والشعب الروسي ، وأفكاراً عن غياب النضال الثوري في الروسيا . وهذه الأفكار والمقولات ، تابع بازيلي ولمدة عقدين من الزمن ، شرحها والترويج لها حيث أصبحت أكثر يمينية .

كان بازيلي عام ١٨٦٢ ، عام طبع الكتاب قد ترك السلك الديبلوماسي وقطع كل صلة بالدراسة والبحث العلمي ، ولبث في أوديسا يتعاطى العمل الزراعي في أرض

(١٣) F. AVPR «السفارة في القسطنطينية» .D 736, L. 72 .

يملكها ناحية نوفوروسيسك ، وكان عضواً في البنك العقاري الخرسوني ، ونائباً لرئيس جمعية الزراعة في جنوب الروسيا إلخ . . .

مات بازيلي في ١٠ شباط ١٨٨٤ .

* * *

* *

*

«إذا كان كتابي هذا ـ يقول بازيلي في المقدمة ـ سيوضع في مصاف مواد تعتبر دراستها مفيدة أثناء البحث في مسألة مصائر الشرق ، فإن مجهودي لم يذهب هدراً» (١٤) . هذه الكلمات توضح الهدف الذي وضعه بازيلي نصب عينيه لدى شروعه في مؤلفه : الإسهام ببعض الفائدة في حل مشكلة الشرق .

من غير المعقول أن نفتش في آراء بازبلي عن نظريات ومفاهيم تاريخية جديدة ومبتكرة ، فهو لم يكن عالماً مؤرخاً، وإنما بسعة اطلاعه، استعار بشكل انتقائي بعض الأفكار التاريخية والفلسفية المنتشرة آنذاك في علم التاريخ البورجوازي، صاهراً عدة اتجاهات تاريخية في آن معاً . وبالطبع يمكن الافتراض بأن بازيلي تأثر إلى حد كبير بمؤرخي عصر النهضة الفرنسية وخاصة ممثلها الكبير فرنسوا غيزو .

إن انتقائية آراء بازيلي وعدم تناسقها ، يجد تفسيره بتعدد المنابع السياسية والاجتماعية والقومية لتكوينه الفكري والسياسي . من حيث آرائه السياسية كان بازيلي إقطاعياً ليبرالياً ، واقعاً تحت تأثير الإيديولوجية البرجوازية ، كان غريباً عن الديمقراطية ، مصراً على احتقاره «للسواد» العامة ، وكان باستمرار فارس الحكومة الأمين ، داعياً ومدافعاً عن سياستها في الشرق ، إضافة إلى كل هذا كان ملكياً صريحاً . ومع ذلك فإنه تقبل أفكار عصر التنوير الأوروبي الغربي والأدب الروسي ، وتعاطف مع القومية البرجوازية اليونانية والنضال الوطني التحرري لشعوب الأمبراطورية العثمانية . إن كل هذا التشكيل السياسي لفكر بازيلي ، ترك بصمات واضحة على المضمون السياسي لكتابه هذا . من هنا بعض ما يبدو في الكتاب من تناقض حيناً وعدم تناسق حيناً آخر .

---

(١٤) راجع ص ٢٣ .

تتبدى آراء بازيلي بخطوطها العريضة على الشكل التالي :

كان بازيلي يؤمن بالأطروحة النظرية الأساسية للتفكير التاريخي في بداية القرن التاسع عشر ، في أن التاريخ عملية تطور خاضعة لقوانين محددة ، فقد كتب عن «القوانين العظمى» التي تتحكم في المجتمع الإنساني وتملك أهمية عالمية . وهذا يعني أن التطور في سوريا يمر في نفس المراحل التي مرت بها أوروبا الغربية .

لكن مع اعترافه بوحدة وشمولية عملية التطور التاريخي ، فإن بازيلي ، لم يكن منسجماً مع نفسه : اقتفى أثر م . ب . بوغودين ، ولأسباب سياسية نفى تطور الروسيا والشعوب السلافية حسب هذه القوانين . وأحياناً كثيرة كانت العناصر السماوية (١٥) تشكل إحدى ركائز تفسيره للواقع ، بنفس الطريقة التي يمكن أن نجدها عند بوغودين وغيزو .

على الرغم من أن فهم التاريخ كعملية تطور بموجب قوانين معينة ، ينفي الاعتراف بأولوية إرادة الفرد ، فإن بازيلي حاول التمسك ومعالجة مسألة موضوع التاريخ بطريقة تاريخية بورجوازية جديدة . عند تحليله للوقائع التاريخية لم يأخذ بعين الاعتبار مزاج الجماهير فقط ، بل نسب للشعب دوراً نشيطاً في تاريخ الوطن (١٦) لكنه كان يظهر أحياناً احتقاره الطبقي تجاه النضال الشعبي . ويأتي في هذا السياق تأكيده بأن الشعب السوري يتميز «بفوضويته» ، لذا فهو يميل ، ودون أسباب وجيهة ، إلى العصيان والتمرد المستمرين .

إن الاعتراف بدور الجماهير النشيط يقترن عند بازيلي بتقديره لنشاط الفرد ودوره في التاريخ . كتب عن نشاط شكيب أفندي : «لم يجد صعوبات كثيرة لا من جانب الجماهير الشعبية ولا من جانب النبلاء، لأن تدابيره جاءت في وقتها ومتطابقة والمتطلبات الجوهرية لتلك الفترة»(١٧)، لكن بازيلي كان يغالي في تقديره دور بعض رجالات الدولة في الأمبراطورية العثمانية. وعلى سبيل المثال، كان يفترض بأن الاصلاحات الضرورية لتركيا، لا يستطيع

(١٥) يرد في الكتاب ، وفي أكثر من مكان عن «يد الله» التي تقرر في هذه الحادثة أو تلك .

(١٦) يؤكد بازيلي على ان أحد أسباب هزيمة الشيخ ظاهر يكمن في أن «السكان المتعبين في السنوات الأخيرة من ابتزازات ابراهيم الصباغ وتسلط أولاد ظاهر . . . لم يظهروا أي استعداد للدفاع عن شيخهم» . يدرس بازيلي ومن زاوية النضال الشعبي ، تاريخ لبنان منذ بداية أربعينات القرن التاسع عشر .

(١٧) راجع ص ٢٩٣ .

القيام بها إلا حاكم شرعي مطلق، يدفق طموحه لخدمة مصلحة الدولة. من هذا المنطلق حاول أن يرسم لنا السلطان محمود الثاني، باعتباره مثالاً أعلى. وهذا ما يفسّر إعجابه الشديد بشخص هذا السلطان، وبالمساعدة التي كان يتلقاها هذا الأخير من الحكومة الروسية. ومن هذا المنطلق كذلك كان يقارن محاولات محمود الثاني الاصلاحية بسياسة محمد علي حاكم مصر الذي كان ـ برأي بازيلي ـ يواجه السلطان بطموحات أنانية.

واضحة سذاجة الحجج التي يقدمها بازيلي في مصلحة محمود الثاني، لكن انتقاده للحاكم المصري، والذي يفسّر أساساً بالطموحات السياسية الروسية، يسمح له في النهاية أن يقيم موضوعياً ـ وهذا ما نفتقده في حديثه عن محمود الثاني ـ الجوانب الايجابية والسلبية في نشاط السلطات المصرية في سوريا.

اختار بازيلي موضوعاً لبحثه تطور المجتمع المدني في سوريا، وذلك تمشياً مع المسلمات التقدمية للفكر التاريخي في تلك الفترة.

وجهة نظره في تركيبة المجتمع كانت أعمق من آراء المؤرخين البرجوازيين في روسيا الثلاثينات وبداية أربعينات القرن التاسع عشر. وسبقت آراء ت. ن. غرانوفسكي، الذي كان قد وقع مع بازيلي، تحت تأثير أفكار غيزو وتيير عن الطبقات والصراع الطبقي (حسب التفسير البرجوازي لهذه المفاهيم). في كتابه يأتي بازيلي على ذكر التناقض الذي «يوجد بالضرورة بين السيد والعبد» وعن «عدم إمكانية الجمع بين المساواة في الحقوق بين الشرائح الاجتماعية» و«إعطاء السلطة.. لشريحة اجتماعية واحدة». في الأحداث اللبنانية، خلال أربعينات القرن التاسع عشر، رأى صراعاً بين مجموعتين اجتماعيتين: المشايخ والشعب، كان يعتبر الصراعات بين الاقطاعيين والشعب «زلزالا» «تتعرض له عادة الشعوب التي تعيش في ظل النظام الاقطاعي»[١٨]، لكنه كان يرى هذه الصراعات من الزاويتين الحقوقية والسياسية وحسب. فهو لم يربط علاقات «الاقطاعيين» و«الشعب» لا بعلاقات الإنتاج ولا حتى بعلاقات الملكية. كما فعل غيزو وتيير مثلاً، بل رأى أن أسباب الصدامات في سوريا تكمن في عدم القدرة على الادارة وفي سوء استعمال السلطة من قبل «المشايخ، مصاصي دماء الشعب». «انعدام الأخلاق والعجز والتعاسة ـ كتب بازيلي ـ جعلت البلاط الاقطاعي قرحة في جسم

(١٨) لم يعمم بازيلي هذا القانون على الروسيا، فالروسيا والشعوب السلافية كما يؤكد لم تكن تعيش أبداً نظاماً اقطاعياً.

الشعب وسلاحاً في يد الباشاوات المتوحشين» [١٩] . رسم بازيلي مخططاً لنشوء «التركيبة الاقطاعية» [٢٠] في سوريا ، تتفق وآراء المؤرخين الفرنسيين في عصر النهضة ، حول نشوء الاقطاعية في غرب أوروبا نتيجة انتصار البرابرة . «الفتح العربي - يكتب بازيلي - أدخل إلى السوريا تلك التركيبة الاقطاعية التي لا تزال موجودة حتى الآن» . إلا أن بازيلي يقابل الاقطاعية في أوروبا الغربية مع الاقطاعية العربية «إن النظام الاقطاعي في سوريا - يتابع بازيلي - بقي وفياً لمنطلقاته الأولى كما تحددت مع الدخول العربي ، حائزاً على عطف الشعوب والحكومات لعدم حجزه الحريات الشخصية أو حرية الملكية ، بينما في الغرب ، تحولت الجماهير الشعبية تدريجياً إلى عبيد ، ودخلت الأرض من جهة ثانية في عداد ملكية البارونات» [٢١] .

وهكذا ينفي بازيلي سلب أراضي الفلاحين في سوريا بالقوة ، كما حصل في أوروبا ، ويحاول كذلك أن يؤكد على أن امتيازات المشايخ السياسية تتأتى ليس من الملكية وحسب ، بل ومن فتح البلاد أيضاً . وعليه يكفي أن يحرم المشايخ من هذه الامتيازات ، وليس من ملكية الأرض حتى تسقط الاقطاعية كنظام . إن معالجة بازيلي للمسألة على هذا النحو تظهر آراءه المتحيزة للاقطاع (يجب ألا يغرب عن البال هنا أنه ابن أحد كبار الملاك) .

ومما يسترعي الانتباه لدى بازيلي آراؤه في الدولة ، المسألة التي أحيطت بكثير من الاهتمام في الأدبيات التاريخية الروسية . لم تكن الدولة حسب تصوراته سلطة قائمة بذاتها ، فتاريخها لا يعكس تاريخ الشعب . إن بمقدور الدولة حسب رأيه مجاراة مصالح المجتمع وهذا ما يساعده ويؤدي إلى تطوره ، أما إذا عاندته ووقفت في وجه حركته المتقدمة ، فإنه يتطور غصباً عن مؤامراتها ، ويودي ثالثاً بحياتها .

يفترض بازيلي أن الدولة العثمانية أعاقت تطور الشعوب المضطهدة في الأمبراطورية ، «تقتضي العدالة منا أن نفرق ما بين مصالح الدولة والمصالح

---

(١٩) راجع ص ٦٠ .

(٢٠) أعطى بازيلي ومعاصروه ومن جاء بعدهم من المؤرخين البرجوازيين مفهوم «المجتمع الاقطاعي» مضموناً سياسياً حقوقياً وليس اجتماعياً سياسياً . «فالتركيبة الاقطاعية» برأيه هي تنظيم للمجتمع يتميز بعدم تمركز بنيان الدولة واقتسام السلطة السياسية فيما بين الاقطاعيين . وفي ظل هذا النظام تبقى عامة الشعب غريبة عن الحياة السياسية المتمركزة في يد البلاط (انظر ص ٦٠) ، حيث يعارض بازيلي الشكل الاقطاعي للحكم بالتركيبة البلدية (Municipale) مع أجهزة ممثلة للسلطة .

(٢١) راجع ص ٢٦ .

الاجتماعية» [٢٢] ، ففي مثل تلك الدولة «لم يسبق للقبائل المحكومة إلا الأمل في التطور الداخلي رغم مؤامرات السلطة» . وبازيلي على يقين من أن هذا التطور سيؤدي بالتالي إلى سقوط الأمبراطورية العثمانية . إن عطفه على حركة التحرر الوطني لشعوب الأمبراطورية العثمانية دفعه إلى اتخاذ آراء أكثر جذرية في ما يتعلق بمفهوم الدولة ، وبذلك يكون قد تعدى بأشواط طويلة أقرانه من المؤرخين البرجوازيين الروس الذين كانوا يشاطرونه مثل هذا الرأي .

ويسترعي الانتباه في آراء بازيلي أيضاً ، موقفه من اتجاه تطور الأمبراطورية العثمانية ، وإمكانية حل ما يسمى بمسألة الشرق . كتب بازيلي الكلمات الشهيرة التالية : «ذهب ذلك الزمن الذي كان فيه العبقري الأوروبي مع ٣٠ ألفاً من الجنود و٣ من المعارك ، يستطيع تقرير مصير القارة الآسيوية الواسعة . إن الشعوب الآسيوية تصون بنفسها ولنفسها ، جبين وعبقرية مصائرها الآتية» [٢٣] ، وبكلمات أخرى ، لم ير بازيلي حل أقدار شعوب الشرق لا في الاحتلال الأوروبي ولا في تقسم الأمبراطورية العثمانية بين الدول الأوروبية ، بل في التطور الداخلي لهذه الشعوب .

يجب أن يؤدي التطور الداخلي لشعوب الأمبراطورية العثمانية ، برأي بازيلي ، إلى تقويض «المجتمع الاقطاعي» ونشوء نظام جديد هو «النظام البلدي» «أعدنا مراجعة الأحداث السورية خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، وبحثنا بدقة بداية وتطور المجتمع الاقطاعي للقبائل الجبلية . . . ولاحظنا كذلك علائم تطور النظام البلدي الذي تتطلع إليه الجماهير الشعبية وتأثير الاصلاحات الحكومية . . وهذا التوجه محكوم أينما كان بقوانين التطور الطبيعي للمجتمعات المدنية . وتطرقنا أيضاً إلى الصراع بين هذا التوجه الجديد والنظام الإقطاعي السابق . . هذا المجتمع (اللبناني) المتقدم في شعوره بالانتماء إلى وطن على بقية قبائل العائلة العربية الكبرى » [٢٤] وهكذا فإن بازيلي يفترض بأن « النظام الإقطاعي » في لبنان ـ الوطن المتقدم في تطوره الاجتماعي على بقية الأوطان العربية الآسيوية ـ يعيش «سكرات موته» الأخيرة وإن تطور وانتصار النظام البلدي هو «قانون التطور الطبيعي للمجتمعات المدنية» .

تجدر الإشارة إلى أن بازيلي ، عندما كتب عن احتضار «الحقوق الاقطاعية» كان

---

(٢٢) راجع ص ٢٤٧ .

(٢٢) راجع ص ٧٠ .

(٢٤) راجع ص ٢٩٢ .

يقصد في الواقع ، احتضار أكثر أشكال التسلط غير الاقتصادي تخلفاً (سيطرة الاقطاعيين السلطوية على الفلاحين ، الانتقاص من حقوق الفلاحين والمدنيين ، ومحو التشرم السياسي للبلد . إن انتصار النظام البلدي ، كما يرى بازيلي ، لا يعني القضاء على النظام الاقطاعي ، بل يؤدي بداية إلى إصلاحات سياسية ضمن المجتمع الاقطاعي ، وتالياً إلى تحلله (٢٥) . إن مستوى التطور السياسي والاقتصادي في سوريا في تلك الفترة كان يتطلب مثل هذه الاصلاحات . إن الدعاية لها تمثل في الواقع الجانب التقدمي من تفكير المؤلف .

أكد بازيلي ، على أنه مع القضاء على النظام الاقطاعي في الأوطان المستعبدة من قبل الأتراك ، تتآكل أيضاً وفي الوقت نفسه أسس السيطرة التركية على هذه الشعوب في الأمبراطورية . «منذ سنوات عديدة يثير التطور الداخلي لهذه القبائل العريقة في الشرق العثماني دهشة المراقب . تثير الدهشة والفضول الظاهرة التالية : إن الحكومة العثمانية نفسها ، رغم كل محاولاتها الوقوف بوجه القوميات ، محكوم عليها حسب الاتجاه السياسي الذي تقرر ابتداء من سنة ١٨٣٩ ، بمساعدة التطور القومي لشعوبها . إن المزاعم التي تنتشر بين القبائل عن صيانة حقوق المواطنين من قبل الحكومة ، وهي التي تقف ضد أي حق من حقوق القبائل المحكومة ، هذه الإشاعات توقظ بالتأكيد لدى الجماهير شعوراً جديداً ، وهذا هو الايجابي في الموضوع ، لأن الشرط الأساسي لكسب المواطنين لحقوقهم ، هو مبدئياً فهم المواطنين لمعنى هذه الحقوق أولاً» (٢٦) .

مختتماً كتابه بهذه الكلمات ، يترك بازيلي للقارىء إمكانية التوصل بنفسه إلى اقتناع بانتصار «القبائل المغلوبة على أمرها» في نضالها ضد الغالبين الأتراك . وهذا ما أنجزه اليونانيون ، الذين فتح لهم تطورهم الداخلي صفحة جديدة لكينونة مستقلة» (٢٧) .

إلا أن بازيلي يصل إلى هذا الاستنتاج بعد أن يطلق أحكاماً متناقضة ينفي بعضها أحياناً البعض الآخر . على سبيل المثال ، إذا كان بازيلي في الفصول الأخيرة من كتابه

---

(٢٥) هذا الرأي المثالي عن تطور الاقطاعية في لبنان ينتشر في الوقت الحاضر لدى أغلبية المؤرخين الأجانب الباحثين في تاريخ لبنان . وهم يعتقدون أنه قضي على النظام الاقطاعي في لبنان بعد رفع سلطات الاقطاعيين القضائية والادارية عن الفلاحين . يساند هذا الرأي بشكل خاص: POLIAK A. Feodalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 12:N — 1900, London, 1939. ISMAIL Adel, Histoire du Liban du XVII siècle à nos jours T. IV Beyrouth 1958.

(٢٦) راجع ص ٢٩٩ .

(٢٧) راجع ص ٩٤ .

يبشر بسقوط النير التركي في سوريا ، ثم تطورها مستقلة بعد ذلك ، فإنه وفي الفصل الأول يشك في إمكانية تدبير سوريا نفسها بنفسها «بدون التسلط الخارجي» . وفي الوقت الذي يحلل فيه وبعمق أسباب تململ سكان سوريا من الاقطاعيين ومن القهر الأجنبي التركي ، فإنه يفترض من ناحية ثانية أن الاضطرابات الفلاحية سنة ١٨٤١ تحرك بأيد وأهواء خارجية .

كان بازيلي نصيراً للاصلاحات الداخلية في الأمبراطورية العثمانية الهادفة إلى مركزة الادارة الحكومية والقضاء على القهر والتسلط من جانب الحكام المحليين ، ونمو المساواة في الحقوق بين كل طبقات المجتمع . كان يرى أن ضرورة القيام بإصلاحات قد وجبت ، لكنه لم يحسب حساب القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في تحقيق هذه الاصلاحات . ولهذا فهو لم يفهم أهمية خطي شريف كلخانه الذي تقبله بشكل عدائي ، واعتبره عملية تكريس شرعية لسلطة الطغمة التركية البيروقراطية . لم يفهم بازيلي أن خطي شريف كلخانه يستجيب لمصالح البرجوازية التجارية والتجمعات الاقطاعية التي قدمت الاصلاحات . اختصاراً يجب الإعتراف بأن بازيلي حتى في بداية عهد التنظيمات ، عندما كان الوهم المتعلق بالاصلاحات يبهر أبصار أوروبا والأمبراطورية العثمانية نفسها ، كان يدرك أن هذه الاصلاحات سطحية لا تعدو كونها حبراً على ورق .

عندما قيم بازيلي الاصلاحات التي استحدثت في تركيا ، وانعكاساتها على مستقبل شعوب الأمبراطورية . أصدر تقريراً مدهشاً بعمقه ، يؤكد فيه على أن الاصلاحات (المتخذة في عهد السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد) تؤدي في نهاية المطاف إلى تقوية السلطة التركية على شعوب الأمبراطورية ، وبما أن ذلك يتناقض مع حركة الشعوب المضطهدة الطامحة نحو التحرر ، فليس بمقدور أية إصلاحات أن تنقذ الدولة التركية من الانهيار .

تركت مهمات السياسة الروسية تجاه تركيا بصمات واضحة على تحليل بازيلي لعدد من الحوادث الداخلية في الأمبراطورية العثمانية . وهذه البصمات تظهر بوضوح عندما يسلط بازيلي الضوء على السياسة القيصرية في الشرق الأوسط . إنه يبيض صفحة السياسة الخارجية لحكومة الروسيا في تركيا ، حتى عندما يجري الحديث عن صفقات ديبلوماسية خاسرة . (كما في مسألة اتفاق خنكيار أسكله سي) . وفي سبيل ذلك يلجأ بازيلي إلى تزوير الوقائع (وهذا ما سنشير إليه في المكان المناسب) بهدف تبرير السياسة القيصرية في تركيا ويقابل بينها وبين سياسة الدول الغربية ، فاضحاً بحذاقة المضمون

العدائي لسياسة انكلترا وفرنسا . وبفضل ذلك ، فإن فصول الكتاب لم تفقد حتى الآن قيمتها وعصريتها ، خاصة وأن بازيلي ينجح في إظهار الطريقة التي ساعدت بها الديبلوماسية الانكليزية والفرنسية في تأجيج الصراع الدرزي الماروني ومسؤولية هاتين الدولتين في تلك الصدامات .

هذه هي أهم المسائل التي بحثها بازيلي في عمله المعقد . وفيه يقف عند عدد من الأسئلة : فهو يرى ، عكس قولي ، الذي كتب عن غياب النظام العبودي في الأمبراطورية العثمانية ، أن الفلاحين يرتبطون عملياً بالأرض بواسطة النظام الضرائبي . وقد أعار بازيلي اهتماماً كبيراً لتطور سوريا الاقتصادي ، ووقف ضد حرية التجارة في الأمبراطورية العثمانية ، والتي تؤدي في نهاية المطاف إلى تدمير الانتاج الحرفي في سوريا ، وفي هذا المجال يقدم ايضاحات عن تغير البنود الضرائبية في سوريا ولبنان . إلخ . . .

* * *

اعتمد بازيلي في كتابه هذا على المراجع التالية : الروايات والحوليات العربية وإخباريات وأحاديث شهود عيان . وبازيلي هو أول من استخدم كتابات حيدر شهاب ، والتي تقدر عالياً من قبل الباحثين العصريين . وقد اختار بازيلي من مجمل الأحداث والوقائع الكثيرة ما يسمح برسم تصور عام لتاريخ لبنان من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وبتتبع نظام الادارة الداخلية للبلد ونضاله ضد الجور التركي .

يحوي كتاب بازيلي ، وقد مضى مائة عام على صدوره ، جملة من التصورات غير العلمية والآراء التي عفا عليها الزمن ، دون أن يكون في هذا أي اتهام . إن طريقته في البحث التاريخي كانت مدفوعة بشغف انفعالي ، كونه مؤرخاً هاوياً لا ينتمي إلى مدرسة تاريخية معينة . كان يفتقد الجهاز العلمي ، لذلك كان يستخدم المراجع العربية دون أي تقييم نقدي . عمله في بعض الأحيان أقرب إلى التسجيل منه إلى البحث ، وخلاصاته وأرقامه لا تقوم باستمرار على برهان دقيق ، والحوادث ترد عنده أحياناً كثيرة غير مؤرخة .

قيمة كتاب بازيلي في الوقت الراهن تتلخص ليس في الحكم على المواضيع التاريخية العامة التي تحتفظ دوماً بأهمية تاريخية ، بل في غناها بمعلومات ملموسة محددة عن فترة تاريخية طويلة من تاريخ سوريا وفلسطين .

في طبعة الكتاب الحالية نعيد نشر الجزء التاريخي فقط من عمل بازيلي ، وقد ارتأت

إدارة النشر عدم إدخال أية تعديلات على النص السياسي ، على أن هذا لا يعني أنها تشاطر الكاتب الكثير من آرائه وطروحاته . كذلك حوفظ على الأسلوب الإنشائي الخاص والمميز لأواسط القرن الماضي . وقد أعطيت عند الضرورة الملاحظات والشروحات ، بهدف توسيع معلومات بازيلي انطلاقاً من المعطيات العلمية الحديثة . كذلك تم تصحيح عدد من الوقائع ، فالتواريخ في كتاب بازيلي ترد أساساً حسب التقويم القديم . كما أن هيئة النشر وجدت ضرورة تنقيح التسميات الشرقية ، أسماء الأشخاص وأسماء الأمكنة حسب ما تتبعه الطرق الحديثة في نقل التسميات التركية والعربية ، وقد أشرنا إلى هذه التعديلات في حينه . وأدخلت إلى النص تعديلات إملائية ولغوية ، وحذفت أغلاط الطبعة السابقة .

إضافات الناشر والمراجع من وضع إي . إم . سميليا نسكايا وأ . غ . استفاتسا توريان ، الخرائط والدليل ، ي . ك . غولوبو فسكايا .

إي . إم . سميليا نسكايا

ما قبل المقدمة

في صومعة منعزلة في مار الياس الشوير [1] حيث كنت أمضي أيام الصيف السوري الحار ، وعلى قمم الجبال اللبنانية غير بعيد عن ثلوج صنين الخالدة ، كتبت هذا الكتاب بين عامي ١٨٤٦ و١٨٤٧ .

خمسة عشر عاماً عشتها في سوريا وفلسطين بين ١٨٣٩ و١٨٥٣ ، كانت أجمل سنوات عمري . نشاطي في الخدمة ترك في نفسي ذكريات مرضية . أثناء وجودي في بيروت ، في لبنان ، في القدس وأثناء رحلاتي إلى دمشق ، إلى وادي التيم وإلى المناطق الداخلية ، أثناء وجودي هذا سنحت لي فرصة أن أخفف هموم المسيحيين ، وأن أناضل ضد جور السلطات التركية وضد التعصب الديني الاسلامي ، وأن أقف ضد تسلط الاقطاع وإساءاته . وقد وفّقت أكثر من مرة في أن أكون مصلحاً بين القبائل المتخاصمة ، منقذاً من الدمار مدنا وقرى بأكملها . أعتبر أن من واجبي التذكير بهذا ، لأن خدمات ممثل دولة عظمى في الشرق لا تنسب إلى شخصه ، وإنما للمهمة التي كان له شرف القيام بها . إنها مهمة مشرفة ومرفقة بعمل شاق ، بالمخاطر وبأنواع الحرمان . مقدّر على من يعمل بعيداً عن وطنه ، وعلى من يقوم بواجبه تجاه حكومته ، التي أعطته شرف الاسم الروسي بين القبائل المعذبة التي ترنو بامل إلى منّة دولة كبرى من نفس مذهبها ودينها ، مقدر عليه أن لا يتذمر لأن قيامه بهذا الواجب يعطيه فرصة أن يعيش في شيخوخته على مخزون من الذكريات الطيبة .

أحياناً كنت أعمل وحيداً باسم الحكومة الروسية ، وأحياناً أخرى كنت أتعامل مع إخواني ممثلي الدول الغربية . كان من واجبنا أيام حمامات الدم السورية ، وفي فوضى إدارية ولا أخلاقية لا مثيل لها في العالم وخلال عشرة أعوام ، مع رفيقي : قنصل بريطانيا العظمى العام الكولونيل Rosé (يشغل حالياً منصب القائد الأعلى للجيش الانكليزي في الهند) وقنصل فرنسا العام السيد Bourré (يشغل حالياً منصب مبعوث البلاط في

(١) صومعة مار الياس الشوير ، دير ارثوذوكسي صغير في قرية الشوير (ملاحظة الناشر) .

اليونـان) ، كان من واجبنا أن نعمل بحماس كي ننقذ المسيحيين من الظلم والاستعباد بغض النظر عن المنافسة الدائمة بين انكلترا وفرنسا في هذه المنطقة المعـذبة من الشـرق العثماني .

أجدني مصمماً على إصدار الكتاب بوقت أبكر بكثير مما توقعت ، وقد حذفت منه كل ما يمت إلى نشاطي الشخصي ، فأنا أحتفظ لنفسي بالانطباعات والذكريات الغـالية على قلبي ، وأنقل إلى الجمهور ثمرة دراسة تاريخية علمية وجـادة هذا الاقليم ، الـذي سيجتذب من جديد تعاطف الشعوب المسيحية . مضى على هذه الدراسة ثلاثون عاما ، لم أدخل عليها أية إضافات أو تعديلات . إن علاقتنا مع تركيا وموقفنا منها تغير كثيراً منذ ذلك التاريخ ، إلا أن أحكام المراقب الحيادي للشرق ، قبائله ، حكومته والاصلاحات السياسية المهمة التي حصلت فيه ، من الصعب أن تكون عرضة للتغيير . أقول هذا ، حتى لا يشك قرائي بأنني أغلب مواقفي وانـطباعـاتي وهواجسي القـديمة على الـوقائـع التاريخية . مخطوطة هذا الأثر قُرئت من جانب كثيرين سنة ١٨٤٨ ، من ضمنهم الأمير ب . أ . ڤيازمسكي [٢] الذي احتفظ لنفسي بحق الاعتماد على شهادته وشهرته الأدبية .

---

(٢) ب . أ . ڤيازمسكي شاعر وناقد أدبي ، أنهى سنة ١٨٥٠ رحلة قام بها إلى الشرق ، وصفها في «دفاتر مـذكرات قـديمة» . توقف في بيروت في بيت بازيلي . كتب ڤيازمسكي في كتاب بازيلي : «كتب بازيلي عن سوريا مؤلفاً يثير الفضول . كان قد قرأ لي في بطرسبورج عدة مقاطع منه (قد يكون هذا حدث سنة ١٨٤٨ أثناء رحلة بازيلي الى بطرسبورج ـ الناشر) . أما هنا فقرأ لي فصولاً أخرى . من الناحية الاحصائية ، التاريخية والسياسية فإن بـازيلي يعـرف هذا الاقليم بشـكـل جيد . ومن المؤسف أنه في ظل مشورتنا الديبلوماسية لم يسمح له بطبع هذا المؤلف» .

المختارات الكاملة ، ب . أ . ڤيازمسكي ، المجلد التاسع sp5 ، ١٨٨٤ ، ص ٢٨٠ .

ومن بين الذين قرأوا مخطوطة بازيلي سنة ١٨٤٨ ، نورد اسم غوغول الذي كان قد توفي قبل كتابة المقدمة . وهذا ما قد يفسر عدم استشهاد بازيلي برأيه . في ربيع ١٨٤٨ قام غوغول برفقة بازيلي برحلة إلى فلسطين ، وقد مكث فترة طويلة عنده في بيروت . من هناك في شهر شباط من نفس العام كتب غوغول لجو كوڤسكي : «كتب بازيلي أثراً مدهشاً ، تحت عنوان «سوريا وفلسطين» سترى أوروبا من خلاله الشرق على حقيقته . كتاب أخاذ يفيض بالمعلومات . لا أعرف كتاباً آخراً يزود القارىء بمعرفة جوهرية للاقليم» (ن . ف . غوغول ، المختارات الكاملة ، المجلد XIV ، موسكو ١٩٥٢ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ، ملاحظة الناشر .

مقدمة الكاتب للطبعة الأولى

في حزيران ١٨٣٩ ، وخلال أسبوعين أصبحت الأمبراطورية على شفير الدمار : مات السلطان محمود ، وقُضي على جيشه في معركة النزيب على حدود سوريا ، وانتقل الأسطول البحري بكامله عن طريق الخيانة إلى أيدي محمد علي باشا الوالي العاصي . قبل ذلك بـ ١٢ عاماً كانت ثلاثة من الدول الأوروبية قد وضعت حجر الأساس لتدخلها في شؤون الشرق بتوقيعها معاهدة لندن ١٨٢٧ [1] وباشتراكها متحالفة في معركة ناقارين . مذ ذاك اكتشف المارد العثماني بوادر سقوطه الآتي . سنة ١٨٣٣ وبتدخل الروسيا المباشر ، تخلصت عاصمة السلاطين من الزحف المصري . وفي فترة الهدوء التي تلت ذلك تابع السلطان محمود الاصلاحات بصلابة وعزم ، مستأصلاً من ناحية الخرافات والأباطيل الشعبية ، ومن ناحية ثانية مدعماً ومركزاً في يد الحكومة سلطتها المصادرة من قبل الباشاوات وصغار الاقطاعيين . فقمعت بشدة تمردات بعض الباشاوات في الأقاليم البعيدة مثل سكودرا وبغداد[2] . وحده الباشا المصري أصر على براءة فعلته ، مجاهراً وعلى مسمع من أوروبا وعالم الاسلام ، بحلم الاستقلال . محمود الناقم حضّر بالسر عن أوروبا ، وباسم الدفاع عن الحقوق الروحية لرأس الاسلام ضربة قاضية . . . ولكنه وفي يوم واحد غيبه الموت ، وغيبت جيشه وأسطوله هزيمة قاسية . خليفته ذو الـ ١٧ ربيعاً ، كان خارجاً لتوه من حجّاب السراي محاطاً بمؤامرات وجهائها .

استغلت الطغمة الحكومية في السلطان الجديد عدم تجربته وقلة خبرته لكي تحرر

---

(١) يعبر اتفاق لندن الموقع في ٦ تموز ١٨٢٧ من قبل الروسيا انكلترا وفرنسا ، عن نية الدول الكبرى القيام بمفاوضات مع تركيا بهدف مصالحة الأمبراطورية العثمانية مع اليونان المتمردة ، شرط منحها الحكم الذاتي ضمن الأمبراطورية العثمانية . سنة ١٨٣٠ وبإلحاح من الروسيا وقعت الدول الكبرى اتفاق لندن ، الذي اعترف بأن اليونان دولة مستقلة ـ ملاحظة الناشر .

(٢) سكودرا ، تسمية قديمة للمدينة الالبانية شكودر (بالتركية سكوتاري) ، وهي عاصمة لولاية تركية تحمل الاسم نفسه . منذ سنة ١٧٦٠ أصبحت هذه المدينة مركزاً لدولة نصف مستقلة ، يديرها باشاوات من البوشاتيين الألبان ، وقد قضي على استقلالها سنة ١٨٣١ . وفي بغداد حكم الباشاوات مستقلين عملياً عن الحكومة التركية منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى ١٨٣٠ . ملاحظة الناشر .

نفسها من تحكم السلاطين ، ولتحرف الدولة عن الطريق التي رسمها محمود مؤملا إتمام مأثرته العظمى بجعل المسيحية ديناً للدولة ، فأصدرت مسخاً عجيباً لدستور كلخانه . وهكذا تظهر في الشرق ، وخلال ١٢ سنة أزمته الداخلية التالية (٣) .

اضطرت الدول الكبرى إلى التدخل من جديد في شؤون الشرق لإبعاد خطر الانقلابات الداخلية في بلدانها نفسها ، أو تفادي نشوب حرب أوروبية فيما بينها . تواصلت المفاوضات ، وسوريا موضوعها الأساسي ، أكثر من عام . في خريف ١٨٤٠ بدأت العمليات العسكرية في سوريا باشتراك أربعة من الدول الكبرى ما عدا فرنسا التي أحجمت عن التدخل .

لم تحز أية مسألة من المسائل الدولية المطروحة بعد مؤتمر فيينا مثل هذا الاهتمام . ظاهر **المسألة** يتحدد في من يحكم سوريا السلطان أم واليه . وقد أدى هذا إلى قطيعة بين فرنسا والحكومات الموقعة على معاهدة التدخل في شؤون الشرق . كانت أوروبا في حالة انتظار للانفجار العام ، صدى قصف ضفاف الفرات والأودية اللبنانية تردد مضطرباً في ضفاف الراين وفي قلب المانيا الملتهبة . أكثر من مليون رجل استدعوا لحمل السلاح في الدول تحت وطأة خطر الحرب . جهزت الأساطيل ، بذّت البلايين ، تحزمت عاصمة فرنسا بتحصينات هائلة . . كل هذا الثمن يدفع من أجل أن يكون للحكومة التركية الحق في إرسال باشاواتها وجباتها إلى سوريا ، ومن أجل أن تهدم في تلك المنطقة التعيسة كل البدايات الادارية المصرية الحسنة ، إضافة إلى التسامح الديني الملموس .

على الرغم من ذلك، فإن المعاصرين من سكان المنطقة يدينون لرجال الدول الأوروبية في تلك الحقبة، التاريخية، لنجاحهم في حفظ الشعوب المسيحية من خطر الإبادة، في حرب يمكن أن توصم بالعصبية انطلاقاً من مادتها الأولية وليس من مسألة عمن يحرر مهد ديانتهم من نير الكفار ، بل من مسألة من يحكم سوريا عبد المجيد أو محمد علي .

ستوضح لنا الأيام ، إن فهمت أوروبا ، كم هو غال ثمن هدوء الوضع الحالي في أفضل شواطىء البحر المتوسط ، وهذا الهدوء الذي وقعت أوروبا فواتيره من استقرارها وتطورها المدني . ولا يستطيع حتى أعند **المتفائلين** أن يؤكد لنا ، بعد الأزمات الثلاث في الشرق والتي عاشها جيلنا ، أن الأزمة الرابعة لن تتأخر في المجيء

---

(٣) يقصد بازيلي حوادث ١٨٢٧ ـ ١٨٤٠ : المسألة اليونانية (١٨٢٧) ، الأزمة المصرية الأولى (١٨٣٢ ـ ١٨٣٣) ، والأزمة المصرية الثانية (١٨٣٩ ـ ١٨٤٠) . ملاحظة الناشر .

أثناء وجودي في سوريا ، ومنذ ١٨٣٩ ، تابعت بأم عيني كل الأحداث ابتداءً من معركة النزيب ، ودرست هذا الاقليم وقبائله باهتمام . وأعترف أنني، لم أكن لأستطيع سبر غور ما يحدث أمامي ، لولا مراجعتي لموجز الأحداث والوقائع التاريخية التي جرت سابقاً ، على الرغم من أن الروايات المتناقلة كما يظهر ، لا تملك علاقة مباشرة مع ما **حدث ويحدث الآن في الشرق ، في ظل الاتجاه السياسي الحالي للأمبراطورية** العثمانية ، إلا أنها تقدم تفسيراً لبعض الظواهر المتميزة ، وقد يكمن ، فيها حل أعظم مسألة من مسائل الشرق ، الذي يحار أمامها حتى أكثر السياسيين عمقاً .

لنلاحظ ، **أن** هذا البلد ، مثير للفضول بذكرياته القديمة وإقداره في العصر الحديث في آن **معاً**. **إنه** مهد اليهودية والمسيحية **والإسلام** (٤) ، وهو مؤجج عواصف أوروبا القرون الوسطى بفرسانها ، وهو قبلة الغرب ، حيث تتجه أنظاره إما لأهداف سياسية ، وإما لعواطف دينية ، وأغلب الأحيان لأهداف طوباوية . قبل سنة ١٨٤٠ كانت سوريا مجهولة لدى الأوروبي . نعم ، وحتى الآن وبعد كل ما كتب وما قيل في هذا الاقليم ، من الصعب الادعاء بأننا نملك فكرة صحيحة عنه .

تؤدي الأحكام السطحية والمعطيات الكاذبة إلى خلاصات خاطئة ، ومثل هذه في القضايا السياسية تثير الغموض والبلبلة لدى الرأي العام ، وتقود الحكومات إلى هدر مميت لدماء وثروات الشعوب . عند الحكم على مثل تلك القضايا ، الواجب الأول للمراقب ذي الضمير ، أن يحرر نفسه ليس من الخلفيات والآراء المسبقة لتربيته وعصره وحسب ، بل وحتى من العطف على مصالح الشعوب ، لكي يتمكن بالتالي من النظر إلى الوقائع ببرودة دم . تماماً كما يتعامل عالم الحساب مع الأرقام . أنا لا أضمن حياد أحكامي ولا صحة آرائي . إنما في ما يتعلق بالوقائع التاريخية الحديثة ، والتي يستطيع القارىء أن يستخلص منها حكمه الخاص ، فأنا أتكفل تماماً بصحة روايتي .

منذ بداية فترة إقامتي في سوريا ، رحت أفتش عن مواد دراستي لهذه المنطقة . قرأت سترابون (Strabon) وبوليبي (Polybé) وفلافيوس (Flavius) (٥) وقد وجدت في

---

(٤) لزم بازيلي المصطلحات المتداولة في القرن التاسع عشر . تحت اسم «المحمديين» كان يضم كل المسلمين على تعدد مذاهبهم الدينية (السنة ، الشيعة ـ المتاولة ، الدروز ، النصيريين). ويقصد بالمسلمين فقط السنة ، إلا أنه كان يستعمل هذا المفهوم بمعناه العلمي الكامل .

(٥) سترابون (حوالى ٦٣ ق. م ـ ٢٠ م) مؤرخ وجغرافي إغريقي قديم ، مؤلفه الأساسي الجغرافية ، في ١٧ مجلداً باللغة الروسية. أنظر «الجغرافيا في ١٧ كتاباً» ، موسكو ١٨٧٩ . «الجغرافية القديمة ، كتاب للقراءة» موسكو ١٩٥٣ . بوليبي =

نتاجهم معلومات أصح مما في المؤلفات الحديثة . وفي تلك الفترة كان الجميع يقرأون لامارتين Lamartine ورحلته إلى الشرق (٦) والذي انعكس مجده ككاتب «Les Harmonies Poétiques» «Les méditations poétiques» على مؤلفه ، الذي يذكرني بمرحلة سابقة من حياتي ، فتوتي الأولى ، عندما كنت أعيش سعادة التعرف الشخصي على الشاعر العظيم . مَنْ مِنْ أبناء جيلي لا يعرف عن ظهر قلب مقاطعه المتناغمة . حصل ذلك على ما أذكر سنة ١٨٣١ أو ١٨٣٢ عندما كنت في خدمة الأميرال ريكورد . وقد استضفنا الشاعر في رحلتنا إلى نابولي . كنت أصغي إليه مؤلها كلامه الراقي وحديثه الشاعري . لكن عندما قرأت كتابه في سوريا ، كنت مأخوذاً فقط ببساطة الشاعر ، الذي لا يصف الاقليم ، وإنما يدون أحاسيسه التي كانت نفسه مهيأة لها مسبقاً ، فهو لا يصف الشرق على أرض الواقع بل من خلال تصوراته الذاتية وحسب . إنني ، وبكل ما سمعت عن لامارتين في سوريا واسطمبول ، أشاطر الكثيرين من مواطنيه الأذكياء رأيهم ، بأن كتابه عن الشرق يشكل برهاناً على ظاهرة نفسية تثير الفضول ، ألا وهي : تأثير الإرادة والخيال على العواطف . لامارتين لا يقدم خدمة لقارئه : صحيح أنه شاهد كل ما كتب عنه ، لكنه شاهد كل هذا من خلال الجو المثالي الذي أحيط به في الشرق بالاضافة إلى ذلك ملأ الكتاب أوروبا بالهذيان والهلوسة ، حتى اللوحات الوصفية التي تحتل القسم الأكبر من كتابه ، تبدو رتيبة مضخمة ، ومن المشكوك فيه أن تضاهي بعض ملاحظات شاتو بريان(٧).

سنة ١٨٣٩ أطلعت الحكومة الانكليزية البرلمان على وثائق إحصائية أعدها الدكتور

= (حوالى ٢٥١ ق. م - حوالى ١٢٠ ق. م) مؤرخ يوناني قديم . مؤلفه الأساسي «التاريخ العام في ٤٠ كتاباً» . المجلد ١ - ٣ ، موسكو ١٨٩٠ - ١٨٩٩ . يوسف فلاڤي (حوالى ٣٧ م - حوالى ٩٥ م) مؤرخ يهودي ومسؤول عسكري . انظر «الحرب اليهودية» sph ١٩٠٠ ؛ «العصور اليهودية القديمة» المجلد ١ - ٢ sph ١٩٠٠ ؛ عن عراقة الشعب اليهودي . ضد آبيون sph ١٨٩٣ - ملاحظة الناشر .

(٦) Alphonse de Lamartine. Voyage en Orient . souvenirs. impressions . pensées et paysages . pendant un voyage en Orient (1832 - 33) Paris 1835.

يشارك في التقييم السلبي لعمل لامارتين كثير من الأدباء الروس . يكتب ب. أ. ڤيازمسكي : «من أجل تحديد وتقدير لامارتين تكفي الإشارة إلى ملاحظة واحدة ، إن أياً من الرحالة باتجاه الشرق لا يأخذ كتاب لامارتين معه» («المختارات الكاملة» للأمير ب. أ. ڤيازمسكي . المجلد IX ص ٢٨٣ - ملاحظة الناشر .

(٧) F. A de Chateaubriand . Itinéraire de Paris à Jérusalème et de Jérusalème à Paris en allant par Grèce et revenant par l'Egypte . la Barbareé et l'Espagne . T. 1 - 3 . Paris 1811 .

الترجمة الروسية «ملاحظات الطريق من باريس إلى القدس» الجزء ١ - ٣ ، موسكو ١٨١٥ - ١٨١٦ . زار شاتوبريان فلسطين في النصف الأول من تشرين الأول ١٨٠٦ - ملاحظة الناشر .

Bowring [٨] ، وهي تحتوي على معلومات أساسية عن جيش مصر وعن تجاربها : لكن في ما يتعلق بالاقليم نفسه وبقبائله فإن Bowring لم يستطع أن يفيد بشيء ؛ في حسابات السياسة الانكليزية تلعب هذه القبائل دوراً لا تحسد عليه ، دور المستهلكين المصنفين حسب إنتاجية فبارك مانشستر .

أما في ما يتعلق بالإثارة ، فيجدر ذكر رحلة Robinson وSmith [٩] ، هؤلاء الأسياد الـ methodistes تمكنوا كما يظهر من أن يجعلوا علمهم مادة استهلاك ، أكثر من جعله نفياً للمتوارث عن كل ما هو محلي .

وليس من الضروري في هذا المجال التذكير برحلات الرسامين وغيرهم من السائحين ذوي الريشات الشاعرية ، والمتجولين تجوالاً عابراً وسريعاً في فترة ما بين رحلتي الباخرة . من بين الرحلات القديمة ، يجدر ذكر كتاب العالم الدانماركي Neibuhr [١٠] ، إذ أننا نعثر بين الملاحظات الفيزيولوجية التي تؤلف القسم الأكبر من رحلته الصعبة على معلومات جدية مثيرة للفضول تتعلق بالقبائل العربية .

الكتاب الأكثر أهمية في أوروبا ، والذي يبحث في شؤون المنطقة ، نجده عند ڤولني ، وهو مكتوب في ثمانينات القرن الثامن عشر [١١] . ڤولني مراقب أمين ثاقب البصيرة ، وحده من بين الذين سبقوه أو جاؤوابعده ، استطاع النفاذ إلى العالم السياسي للقبائل السورية ، واستطاع رصد العواقب التي تركها تدخل الادارة التركية في عالم القبائل الاجتماعي والخاص . ولكن على الرغم من ذلك يعاني الكتاب من البرودة بسبب غياب أي شعور ديني وفيه تنعكس بوضوح شكوكية تلك الفترة ، إلا أنه يبقى لوحة صادقة عن سوريا تلك الأيام ، ففي أقسامه التاريخية عن علي بك ومغامرات ظاهر

---

(٨) John Bowring . Report on the commercial statistics of Syria . presented to both houses of parliament . 1838. London . 1840 .

استقر بورينغ في سوريا في النصف الثاني من ثلاثينات القرن التاسع عشر . ملاحظة الناشر .

(٩) Edward Robinson and Eli Smith . Biblical Researches in Palestino . Mount Sinai and Arabia Petrea in 1838 . Vol. 1 - 3 . London . 1841 . ملاحظة الناشر .

(١٠) Carsten Niebuhr . Reisheschieibung nach Arabien Und anderen umliegenden Ladern . vol. I - II . Copenhagen 1774 - 1778 .

زار نيبور سوريا وفلسطين والعربية في ستينات القرن الثامن عشر ـ ملاحظة الناشر .

(١١) Volney . C. F.. voyage en Egypte et en Syriè pendant les années 1783 — 1784 et 1785 . vol I - II . Paris . 1787 .

صدرت كتب ڤولني عدة مرات في فرنسا . ترجمت إلى الروسية سنة ١٧٩١ ـ ١٧٩٣ . الترجمة غير دقيقة . ملاحظة الناشر .

العمر وخططه ، نستطيع استقراء ما يشبه الحدس بالحوادث التي تجري في أيامنا هذه .

فور وصولي إلى سوريا[١٢] أعطت الأوضاع السياسية اعتباراً لرواية ڤولني . ولكن ابتداء من سنة ١٨٤٠ ، أي أثناء العمليات العسكرية التي كان يقوم بها الأسطول الانكليزي ، وكنت آنذاك على متنه ، وأثناء احتلال بيروت[١٣] ، وأثناء الحرب الداخلية بين **القبائل** اللبنانية سنة ١٨٤١ ، ومن ثم أثناء انتفاضة الدروز سنة ١٨٤٢ ، وخلال فترة الحرب الداخلية الجديدة سنة ١٨٤٥ ، أثناء كل هذا انشغلت بدراسة الروايات العربية القديمة وجمعت بدقة ما يتناقلونه هنا عن حملات المماليك إلى سوريا ، وعن حملات الأسطول الشمساني (الأسطول الروسي . اسم علم لأسطول البحر الأسود) عند هذه الشواطىء وعن احتلال بيروت من قبل الروس ، وعن الجزار العجيب ، وعن المذابح والخيانات واقتتال الإخوة ، أي عن ركائز جبروت إمارة آل شهاب في لبنان ، هذا الجبروت الذي انهار أثناء وجودي سنة ١٨٤١ .

رأيت من الضروري قبل تناول الأحداث التي كنت شاهدتها ، أن أسرد مبدئياً الوقائع التي ظهرت أكثر نتوءاً من غيرها من الناحية السياسية ، وتقدم الأكثر في سبيل دراسة الحالة الراهنة للاقليم وقبائله .

ولإكمال روايتي أدخلت في الفصل الثاني تحقيقاً عن الأحداث التي كان ڤولني قد وصفها . إن المرجع الأهم من بين المراجع التي أفادتني (عدا ما يتناقله السكان المحليون) هي مخطوطة بالعربية عائدة لبطرس[١٤] ، نقلها إليّ حفيد للكاتب كان يعمل في قنصليتنا العامة .

إذا كان كتابي هذا سيوضع في مصاف مواد ، تعتبر دراستها مفيدة أثناء البحث في مسألة مصائر الشرق فإن مجهودي لم يذهب هدراً .

---

(١٢) وصل بازيلي إلى سوريا في بداية آب ١٨٣٩ . وبعد تجوال في ربوعها استقر ابتداء من كانون الأول ١٨٣٩ في مدينة بيروت . الناشر .

(١٣) ١٠ أيلول بدأ الأسطول الانكليزي النمساوي التركي ، عملياته العسكرية بإنزال مشترك ضد جيش محمد علي (راجع الفصول ١٤ ـ ١٥) ، وقد انتقل بازيلي متخوفاً من قصف بيروت إلى سفينة انكليزية ، ومن ثم رحل الى قبرص ، فتحت بيروت عندما كان بازيلي في قبرص ٩ تشرين الأول ١٨٤٠ . (راجع D. 701. LL 69 - 79 «السفارة في القسطنطينية» AVPR F. ملاحظة الناشر .

(١٤) عن رواية بطرس المخطوطة راجع أ. ي كريمسكي ، من الأسفار الكنائسية البيروتية XVI - XVIII ـ «الحضارات الشرقية . أعمال بعثة جمعية الآثار الموسكوبية الامبراطورية إلى الشرق» المجلد III الطبعة الأولى ، موسكو ١٩٠٧ ـ ملاحظة الناشر .

لقد أبقيت دراستي هذه ضمن حدود عالم معيشة القبائل السورية وضمن استعراض للسلطات التي كانت تخضع لها هذه القبائل . وتجنبت بدقة اللوحات الوصفية للمنطقة التي ترتدي فيها الطبيعة حللها البراقة ، حيث الجبال والشطآن ، والأفق الذي يحتله قصر اقطاعي أو دير أو بيوت خربة ، ولا ننسى الجمال ومجموعة البدر لإتمام اللوحة ، التي تستلب الرسام وتجنح بخياله إلى القرون الماضية . ذكرياتي القديمة التي رافقتني في كل رحلاتي في الشرق ، وحتى الشعور بالإيمان الذي غمر روحي إبان زيارتي لقديسي فلسطين ، كل هذا لا يرد في كتابي .

في الثلاثينات أصدرت انطباعات طفولتي عن اليونان واسطمبول (١٥) وبالرغم من التقبل الحسن لكتبي هذه ، إلا أن تجربة الحياة والخدمة والدراسة أقنعتني بأنه لا يحق في عالم الأدب لأي كاتب كان أن يظهر إلى النور بصمات انطباعاته الخاصة . إن توفر الرحلات المريحة إلى الشرق ، يفسح في المجال أمام أي كان ، بأن يعيش بشخصه مباشرة وينفذ إلى جمال الطبيعة عبر إحساسه الخاص . أما الذكرى عما حدث فتخلد في البلد الذي نعرفه منذ بداية تربيتنا الدينية ، والذي لا يفتأ يعلو باسمها صوت الكنيسة . مقدسات فلسطين اجتذبت الكثير من مواطنينا من كل المراتب والألقاب من وجهاء العاصمة الكبار حتى الناس العاديين في الريف والمدينة . مع إنجيل في اليدين وشروحات الراهب الدليل ، لا يحس زائر القدس المؤمن بأية حاجة إلى دليل آخر ، ولا إلى منبع آخر للايمان سوى شعوره الخاص .

ق . م . بازيلي
صومعة القديس مار الياس
في جبل لبنان
آب ١٨٤٧

(١٥) يدور الحديث هنا عن بقاء بازيلي في أسطول الأدميرال ريكورد سنة ١٨٣٠ ـ ١٨٣٣ في القسطنطينية واليونان . راجع «الأرخبيل واليونان سنة ١٨٣٠ ـ ١٨٣٣» «نبذات عن القسطنطينية» ، «البوسفور ونبذات جديدة عن القسطنطينية». ملاحظة الناشر .

الفصل الأول

العناصر السياسية للمجتمع العربي في سوريا ـ النظام الاقطاعي في الشرق ـ الأمراء والمشايخ ـ العائلات المالكة ـ أحزاب اليمنية والقيسية ـ الاحتلال التركي ـ التمويل ونظام التزام الادارة ـ حملة الأتراك الأولى على لبنان ـ عائلات المعنيين والشهابيين ـ مغامرات فخر الدين ـ أملاكه ، تأثيره وخططه ـ توزيع البشاليك ـ خلفاء فخر الدين ـ صراع العنصرين التركي والعربي .

* *

إن حكم عشرة قرون من الشعوب الغريبة كاليونان والرومان ، لم يترك إلا الأثر القليل في الحياة النفسية والمدنية لسوريا . وحده الفتح العربي في القسم الثاني من القرن السابع أعطى المنطقة ، وبسرعة ، تركيبتها الداخلية وسماتها السياسية التي لا تزال سوريا تحتفظ بها رغم ما تعاقب عليها بعد الفتح من حملات وغزوات . الأسفار المسيحية لا تتردد أثناء الحديث عن نجاح العرب وتمكنهم من تضاعيف الحياة الاجتماعية السورية في إرجاع ذلك إلى الممارسة القاسية للفاتحين الجدد : قام العرب بقطع ألسنة الأمهات حتى لا ينشأ الجيل الجديد في كنف اللغة اليونانية التي كانت تسود المدن السورية ، آنذاك . الاحتلال المقرون بالدعوة الدينية كان دائماً وفي كل مكان بدون رحمة . الأتراك في القرن الخامس عشر لم يسلكوا داخل آسيا الصغرى ، مذهباً آخر . هنا وهناك لم يصمد العنصر الهلليني الذي كان يعتبر عند المحتلين سنداً لا يتزعزع للدين . وفي نهاية الأمر استؤصلت اللغة اليونانية من جذورها ، أما المسيحية فصمدت .

الفتح العربي أدخل إلى سوريا ، تلك التركيبة الاقطاعية التي لا تزال موجودة إلى اليوم . قواد القبائل التي خرجت من شبه الجزيرة تحت أعلام أبي بكر وعمر ، لنشر القرآن ، أسسوا في سوريا إمارات منفصلة . وقد تمتعت هذه الإمارات ، وإن كانت تدفع الجزية للخلفاء ، بحق الادارة الذاتية حسب العادات المحلية ، مع خضوعها فقط لقانون الخلافة الروحي . إن هذه الحسومات التي يقدمها تنظيم الدولة الآسيوية للمقاطعات يقابل الحق البلدي الذي كانت تقدمه روما في العهد القديم للشعوب

المحكومة . كذلك أدخلت إلى سوريا المركزية الحكومية (الحكم والتقرير) عن طريق التشريع الديني الاسلامي ، الذي عرفه العرب في هذه الفترة المبكرة من تطورهم ، والذي اغتنى كثيراً بتفاعله مع القوانين الروحانية السائدة في منطقة راقية موهوبة مشهورة بمدارسها الحقوقية (١) ، إلا أنها كانت مركزية قنوعة لا تطمح إلى كمش التركيبة الادارية للمجتمع السوري، فهي لم تسلب الحقوق والعادات المحلية ، ولم تمس جوهر الحياة الداخلية للقبائل المتواجدة . الطبيعة الجبلية ساعدت بدورها على هذا التفتيت الاقطاعي للمجتمعات ، طوال فترة عشرة قرون من حكم السلوقيين والرومان والبيزنطيين لمنطقة سوريا ، لم تستطع لا الحضارة الهللينية ولا القانون الروماني من القضاء على التمايز في الطبائع والخصائص الذاتية لكل من القبائل القاطنة في سوريا . فالقبائل الزراعية ، ما همّ أكانت في جبال سوريا أم في سهولها ، حافظت باستمرار على وجهها الشعوبي وخصائصها العرقية ، وما يستتبع ذلك من لغاتها وعاداتها وتفتت داخلي متوارث . ولكن ما نسوقه هنا لا ينطبق على المجتمع السوري المديني ، فقد استطاع العنصر الخارجي أن يتغلب في المدن ، حيث نجد بعض السكان يونانيين بالأصل ، أو أصبحوا يونانيين بتطور الوطنية فيهم .

يمكن القول بأن الفتح العربي ، أعطى وحدة واعتباراً للأقلية العربية التي كانت متواجدة أصلاً في المنطقة منذ فترات بعيدة . الدين الجديد انتشر بسرعة واللغة التي كان يبشر بها، لم تبطىء بالحلول ليس فقط محل اللغة اليونانية ، بل وأيضاً محل الكلدانية والآشورية واليهودية ، أي بين الأقليات التي كانت قد حافظت على شرائعها حتى ذلك الوقت . بغير هذه الطريقة لا نستطيع تفسير التشابه العميق بين السمات الاجتماعية والعائلية لهذه المنطقة مع تعاليم التوراة .

السلطة الأبوية ، الأساس في التنظيم الاجتماعي عند العرب الرحل ، شكلت في سوريا قاعدة الحق الاقطاعي الذي أدخله الفاتحون . المجتمع السياسي الحالي في سوريا تكون في ظل ركيزة السلطة الأبوية إلى جانب النظام الاقطاعي الذي وجب الأخذ به في ظل نجاحات الخلفاء السريعة في الادارة المدنية ، وبسبب التوطن والاستقرار . ولهذا أخذ هذا النظام المحصور في تبادل الحماية والخدمات يتوطد في سوريا ، دون أن ينفصم عن الحكم المطلق للدولة ، الذي ظل يسهل أمامه الطريق حتى حقبة الاصلاحات التي أحدثها محمود الثاني في الأمبراطورية العثمانية .

---

(١) في عهد جوستينيان ، كانت مدرسة الحقوق البيروتية ، تعد المدرسة الأولى في تدريس هذه المادة داخل الأمبراطورية .

الحروب الصليبية التي أنضجت التربية الاقطاعية للشعوب الأوروبية بدخول هذه الأخيرة إلى منطقة سوريا ، حملت النموذج الاقطاعي الأوروبي وأكسبته منذ دخوله الأول الحلّة والقوانين والأنظمة الداخلية ، ذلك أن النظام الاقطاعي في سوريا بقي وفياً لمنطلقاته الأولى كما تحددت مع الدخول العربي ، حائزاً على عطف الشعوب والحكومات لعدم حجزه الحريات الشخصية أو حرية الملكية . بينما في الغرب تحولت الجماهير الشعبية تدريجياً إلى عبيد ، والأرض دخلت في عداد ملكية البارونات . إن صراعات الخلفاء المسلمين الداخلية أو غزوات السلاجقة والمغول والصليبيين والمماليك والعثمانيين لم تؤثر سلباً على المنطلقات السياسية كما رسمها الخلفاء الأوائل . وإذا ما استثنينا الصليبيين ـ وهم لم يستطيعوا الوقوف كثيراً على كل حال ـ فإن أياً من القوى السياسية الخارجية التي تعاقبت على سوريا لم تستطع التغيير أو التبديل في توزيع الاقطاعات لدى العائلات العربية كما ارتسمت وتحددت منذ الفتح ، بالرغم من موقف العائلات المعارض لهذه القوى السياسية في كثير من الأحيان .

وهكذا نرى أن القومية العربية بالرغم من فقدانها مع الخلفاء استقلاليتها السياسية ، فإنها حافظت حتى يومنا هذا على عنصرها المدني ، وعلى أرستقراطيتها وتلك السمة الاسلامية المميزة التي أخذتها ابتداء من أواخر القرن السابع .

وكما في أيام التوراة ، تحافظ الأرستقراطية السورية بدقة على قواعد علم الأنساب ، المشايخ والأمراء [٢] يرجعون أنسابهم إلى أقدم العصور ، وكذلك نجد أن كثيراً من العائلات تعيد أنسابها إلى المحمديين من عائلة النبي محمد .

أثناء فتح دمشق على يد القائد العمري أبي عبيدة سقط الأمير الحارث المخزومي الحجازي ، والمتزوج من قرشية غنية تمت للنبي بصلة القربى ، سقط مجاهداً في الحرب المقدسة حسب تعبير المسلمين ، فأعطيت لابن هذا المجاهد ، بأمر من عمر بن الخطاب ، منطقة حوران السورية الغنية . ومن بعده حكم أحفاده خمسة قرون في عهد

---

(٢) شيخ بالتحديد تعني السيد ، القيّم (عريف) . هناك مشايخ يشبهون إلى حد كبير القيمون العرفاء عندنا في القرى . وهناك أيضاً عائلات أرستقراطية ترث هذا اللقب الرفيع إضافة إلى الامتيازات المرفقة به . عند القبائل الرحل يوجد مشايخ يحكمون مئات الألوف من الأسر ويدفعون إلى الميدان جيوشاً كاملة من الخيالة .

أمير من فعل أمر . وهنا لا يجب الخلط بين أمراء القبائل العربية الذين يعتبر لقبهم الأكثر رفعة ، وتتمتع به فقط بعض القبائل ذات الأصل العريق ، وبين الأمراء ـ أحفاد النبي (المقصود هنا الأشراف من سلالة بني هاشم . المترجم) ، الذين يدخلون في مصاف السواد (العامة) العثماني ، لقب مشايخ وأمراء في الاقطاع العربي يوازي في نواح كثيرة ألقاب البارونات والدوق في القرون الوسطى الأوروبية .

العباسيين والصليبيين ، ومن اسم أهم مدينة لهم Chihba «شهبا» ، أخذوا كنيتهم العائلية شهاب . في سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ - ١١٧٣ م أجبر الجوع المخيم على حوران الشهابيين ، على تجنيد ١٥ ألف مقاتل للسيطرة على وادي التيم حيث الحكم الصليبي بقيادة ما تطلق عليه المخطوطات العربية اسم «الكونتورا Conte de tyr» ، وكمكافأة لهم على انتصارهم وتقديمهم للسلطان نور الدين ٥٠٠ من رؤوس الأعداء حصلوا على حكم منطقة وادي التيم ، حيث شرعوا على المنحدر الجنوبي للجبال ، في بناء عاصمتهم الجميلة حاصبيا ، التي لا يزال قصر الإمارة الموجود فيها ، وبالرغم من بقاء جزء صغير منه الآن [٣] ، أفضل مثال للهندسة العربية .

في هذا الوقت كانت تحكم القبائل اللبنانية ووادي بعلبك عائلات تنوخ جمال الدين وعلم الدين[٤] ومعن التي ترجع نسبها إلى القبائل العربية القديمة التي عاشت في الحجاز واليمن . قبل ذلك بقليل كانت قد احتمت في لبنان ، إضافة إلى المنشقين عن المحمدية والهاربين من بلاد ما بين النهرين ، قبائل هاربة من مصر ، تتبع ديناً جديداً أنشأه الخليفة المصري في حفلاته الليلية ، **ملاحظة، وأسسوا معاً في لبنان ما يسمى بقبيلة الدروز التي انقسمت منذ بداية تكونها السياسي إلى حزبين: اليمنية والقيسية [٥].**

بالرغم من اتساع سيطرة العرب ، وامتداد دولتهم من المحيط الأطلسي حتى الهند ، فإنهم حافظوا في أمكنتهم الجديدة ، كإشارة وفاء لوطنهم القديم ، على العداء القبلي المستحكم بين حزبي **اليمنية والقيسية**، والذي هو امتداد لتنافس قديم بين سكان الحجاز واليمن في شبه الجزيرة العربية . عائلات تنوخ جمال الدين وعلم الدين كانت يمنية . أمراء معن شكلوا رأس الحزب القيسي المناوىء ، وقد كانوا مسرورين بنزول الشهابيين حلفاء جدداً في وادي التيم ، على اعتبار أن الشهابيين يعودون بأصولهم إلى الحجاز وهم بالتالي **قيسيون**. وزيادة اكتشف المعنيون علاقات قرابة قديمة في الجزيرة العربية بين أجدادهم واجداد الشهابيين ، وقد تكرست من جديد علاقة القرابة بين العائلتين من ناحية ، ومن ناحية ثانية تكرس الحلف السياسي السابق الذي امتد بلا انقطاع طيلة ستة

(٣) يقصد آثار قصر الشهابيين الباقية حتى اليوم . ملاحظة الناشر .

(٤) شجرة النسب الواردة في كتاب المؤرخ اللبناني طنوس الشدياق ، تخبر أن عائلات جمال الدين وعلم الدين الاقطاعية ، هي فروع من عائلة أمراء تنوخ . طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٨٥٩ (الناشر) .

(٥) يعود تقسيم المجموعات الاقطاعية بين يمنيين وقيسيين إلى مرحلة علاقات النسب القبلية . وقد اتخذ العداء الذي كان يستشري بين مجموعات قبلية في القرن السابع عشر بسبب الملكية والسلطة ، شكل العداء بين مجموعتين اقطاعيتين . وهذا الصراع أججته وغذته السلطات التركية . ملاحظة الناشر .

قرون . ذروة هذا التحالف الجديد كانت ، انتقال إمارة الحكم من المعنيين إلى الشهابيين بعد وفاة آخر أمير معني دون عقب (في نهاية القرن السابع عشر) .

في القرنين الثاني والثالث عشر ، اتحد الطرفان في النضال ضد الصليبيين ، وبعد طرد هؤلاء نهائياً ، تابع المعنيون والشهابيون سياسة تحالف من الموقع الأقوى مع غيرهم من الأمراء ، وتابعوا عند الضرورة القيام بحروب صغيرة محدودة حتى استطاعوا بالتالي بسط سلطتهم على بقية الأماكن في سوريا ، والتي كانت تؤدي في حينه الطاعة لسلاطين مصر. خلال غزوتي المغول، الأولى بقيادة هولاكو ابن ابن جنكيز خان والثانية بقيادة تيمورلنك (٦) ، تمكن هؤلاء الفاتحين المتوحشين من هزيمة الشهابيين القيمين على إمارة وادي التيم ، لقربهم من دمشق ، فلاذوا بالفرار إلى جبال لبنان ، وبالتحديد إلى منطقة الشوف الوعرة حيث يتحصن أمراء آل معن .

غب دخول الأتراك منطقة سوريا عام ١٥١٦ ، تحول أمراء وادي التيم وجنوب لبنان ، ومن ضمنهم الأمير فخر الدين المعني ، مؤسس عظمة الدروز إلى جانب المنتصر السلطان سليم الذي قضى على أمراء حلب والجيوش المصرية ، وقد جنى الأمير المعني ثمرة الموقف ، تثبيت السلطان سليم له في مقاطعاته الموروثة (٧) ، أما الأمراء التنوخيون وآل جمال الدين ، مالكو الذيول الشمالية والأوفياء للقائد المصري المملوكي ، فقد اضطروا للهرب من وجه الزحف التركي . من جهتها سناجق كسروان والمتن خضعت لفخر الدين ، أما في جبيل وبعلبك فقد قويت عائلتي مشايخ بني حمادة والأمراء الحرافشة ، وكلتا العائلتين من متاولة ما وراء الفرات ، وقد اعترفت بهم الحكومة الجديدة .

تولى باشاوات أتراك إدارة أمور سوريا ، ولكن يمكننا القول إن قليلاً من المدن مع محيطها خضعت للادارة التركية المباشرة ، أما باقي المناطق وبالأخص الجبلية منها ، فقد

---

(٦) هولاكو ، حفيد جنكيز خان . إن احتلال وادي التيم تم على يد جيوش أحد خلفاء هولاكو . جرى ذلك سنة ١٢٨٦ عندما تغلبت جيوش المغول التي غزت البقاع على سكان وادي التيم .

سنة ١٤٠٠ عندما دخلت جيوش تيمورلنك سوريا ، هرب كل سكان وادي التيم إلى لبنان ، لكن جيوش الغزاة انحدفت عن هذه المنطقة . لمزيد من التفاصيل راجع ، طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ملاحظة الناشر .

(٧) تقول الوثائق المحفوظة في الأرشيف الوطني في باريس ، إن الأمير فخر الدين المعني ، والأمير منصور شهاب وجمال الدين اليمني من عائلة تنوخ ، حضروا معركة مرج دابق (١٥١٦) لنجدة غزالي ، حاكم دمشق في عهد السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، لكن عندما دخل السلطان سليم منتصراً إلى دمشق مثل الأمير فخر الدين بين يديه إلى جانب الغزالي ، بلاغته أدهشت سليم ، الذي كرمه وقدمه على كل الأمراء السوريين وكلفه بتسوية خلافاتهم .

(Adel Ismail . Histoire du Liban du XVIII siècle à nos jours . T. 1, Paris, p. é) . ملاحظة الناشر .

بقيت كما كان متوارثاً تحت الادارة المباشرة للأمراء والمشايخ المحليين . وكما هي العادة عقد هؤلاء فيما بينهم تحالفات صداقة أو قاموا بغزوات حسبما تمليه مصالحهم السياسية والاجتماعية غير سائلين عن رضى الباشاوات . وفي كثير من الأحيان كانت هذه الغزوات تتم بإيعاز من الباشاوات أنفسهم . وفي مرات أخرى شكل هؤلاء الباشاوات أهدافاً مباشرة لأمير أو تحالف أمراء . وقد اعترف ديوان القسطنطينية مرات عدة بحقوق هؤلاء الأمراء ، رغم إرادة الولاة والباشاوات الأتراك ، اتقاء لمحاولات عصيان محلية في المستقبل .

النظام الضريبي في سوريا كان متطابقاً مع تلك المنطلقات السياسية . الباشا يلتزم بتقديم أتاوة معينة مفروضة على البشليك ، وفي المقابل توضع تحت تصرفه كل المداخيل التي كان ينفق منها على جيشه وحاشيته . كل سنجق من السناجق التابعة كان ملزماً بدوره ، بدفع كمية من المال تتناسب مع إمكانياته أو مع تأثير الباشا على سكان هذا السنجق وحكامه المحليين . الأتاوة المفروضة على البشاليك والمرفوعة إلى الباب العالي كانت إجمالاً ثابتة لا تتغير ، إلا أن كمية الأموال المحصلة من البشاليك بواسطة الباشاوات كانت متغيرة حسب الظروف وحسب قوة أو ضعف الباشا والأمراء المحليين . على كل في هذا المجال ، تبقى إرادة الباشا التي لا يحدها قانون ، بديلاً عن كل فرمانات الضرائب والجباية .

كان اهتمام الباشا أساساً ، جباية الأتاوة كل عام بشكل ضريبة عسكرية . وانطلاقاً من محافظة السلطة العثمانية على التنظيم الاجتماعي والسياسي داخل المقاطعات السورية ، كما كان قبل دخولها ، فإن سياسة الباشاوات كانت تقوم على المبدأ التالي : تشجيع الوجوه والعائلات التي تسيطر على إقطاعات موروثة وتمكينها من الحصول داخل هذه الاقطاعات على التأثير المعنوي والإمكانيات المادية ، مما ييسر لها جباية الأتاوة في وقتها المحدد ، مع المراقبة الدائمة واللجم المستمر لهذه الإمكانيات المتاحة أو الممنوحة لتلك الوجوه والعائلات ، كي لا تتحول في وقت من الأوقات نتيجة الشعور بالقوة إلى عصيان ورفض دفع الأتاوة وبالتالي إعلان الحرب على الباشا وخوض معركة مكشوفة معه . مبدأ بسيط قائم على أساس التوازن والمقاومة ، يشترك في نسجه الباشا والحاكم المحلي ، هدفه سحب الضرائب من البشاليك والسناجق بالقدر الذي تستطيع تحمله ولا يدفعها لشق عصا الطاعة . أما الشكاوى من الحكام المحليين (الوجوه والعائلات) لدى الباشا ، أو الشكوى من الباشاوات لدى الباب العالي ، فهي ليست بدون فائدة وحسب ، بل وخطرة أيضاً في مثل هذا البلد حيث حياة المواطن تقع تحت طائلة السلطة

المحلية . المحكمة الوحيدة والمحاكمة الوحيدة بين المحكومين والحاكمين هي السلاح والعصيان ، حيث يتقرر عندها مصير هؤلاء أو أولئك .

الباب العالي من جهته نهج القاعدة نفسها في تعامله مع الباشاوات ، إقصاء بعضهم لضعفه الاداري وبالتالي فشله في جمع الكمية اللازمة من المال . وإقصاء البعض الآخر وخاصة في الباشاويات البعيدة عن مركز السلطنة ، لتأثيره الواسع في باشاويته ، وتشكيله قوة ذاتية تسمح له بالعصيان وبالتالي تهديد وحدة السلطنة ، ومع مثل هؤلاء الأخيرين كان على الباب العالي ، إما تحمل العصيان بصبر ، أو الدخول معهم في حرب مكشوفة . وأحياناً كان يسلح سراً أحد الولاة الخطرين ضد الأخر مسعراً الحرب بينهما ، واعداً كليهما بأن يخلف منافسه في حال الانتصار عليه . والنتيجة النهائية تكون القضاء على الطرفين في آن معاً .

هذه الملاحظات في السياسة التركية كانت ضرورية لفهم الحوادث التي كانت تشكل سوريا مسرحاً لها ، وحتى الوقت الحاضر . لقد كان بنتيجة هذه الإدارة السياسية والمالية التركية أن وهبت القبائل نفسها في مراد الالتزام ، للباشاوات الأتراك والأمراء والمشايخ المحليين .

إن الحقوق والامتيازات التي تمتع بها الباشاوات والأمراء والمشايخ كانت في نهاية الأمر في مصلحة الجباية الضريبية (٨) . والنتيجة الحتمية لهذا النمط كانت انحرافاً كاملاً للبيوت الحاكمة والنافذة ، فالمؤامرات والدسائس وهدر دماء الإخوة في العائلات الأرستقراطية تملأ الأسفار والمخطوطات السورية ، وهي لا تزال حتى وقتنا الحاضر ولا تثير دهشة أحد . إنها جزء من الطبائع الاجتماعية لهذا البلد . لقد ساهمت السيطرة العثمانية طيلة ثلاثة قرون ونصف في تدعيم الحق الاقطاعي والقومية العربية ، اللذان تقف ضدهما الحكومة التركية بتصلب أكيد . لم يبطىء الأمراء اللبنانيون بإثارة غضب الباب العالي عليهم (٩) فأوكلت لباشا مصر مهمة تأديب هؤلاء الجبليين العصاة ، فاحتل الجبال بجيشه دون مجهود يذكر ، إذ أن أمراء جمال الدين وأحفاد تنوخ ، الملاك سابقاً ،

(٨) المقصود هنا المناعات (immunités) الادارية والقضائية التي كان يتمتع بها الاقطاعيون السوريون في اقطاعاتهم . ملاحظة الناشر .

(٩) سنة ١٥٨٤ هوجمت في جرود عكار شمالي طرابلس القافلة التركية التي كانت تحمل الأتاوة من مصر إلى القسطنطينية وقد نهبت الأموال بأكملها (بعد هزيمة الأسطول التركي في معركة لوبانتو سنة ١٥٧١ أخذ الأتراك ينقلون عائدات البلاد براً إلى القسطنطينية) . اتهم الدروز بالسرقة ، وقد اتخذ الباب العالي من هذه الحادثة ذريعة لتأديب سكان لبنان على رأسهم الأمير قرقماز بن فخر الدين المعني الأول ، والذي كان ينهج إلى حد سياسة استقلالية . ملاحظة الناشر .

والأوفياء لعداوتهم المتوارثة لخلفاء فخر الدين وللشهابيين وحزب القيسية ، انضموا إلى الأتراك في محاولة للقضاء على منافسيهم . ولكن لم يمض وقت طويل على رحيل الأتراك وتخويف الجبليين بالباشاوات وأخذهم جزية منهم ، حتى استعاد المعنيون تأثيرهم السابق ، خاصة في عهد فخر الدين الثاني (١٠) حفيد فخر الدين المذكور أعلاه . وقد هاجم هذا الأمير المقدام النواحي المحيطة بإمارته فجابهه حافظ باشا والي دمشق الذي جهز ، بتوكيل من الباب العالي ، وبمساعدة ١٤ من الباشاوات الآخرين ومنافسي الأمير في الداخل ، حملة على لبنان وخربه (١١) .

واتقاء لغضب الباشاوات سافر فخر الدين إلى ايطاليا موكلاً الادارة لأخيه الأصغر الأمير يونس الذي أرسل أمه محملة بالهدايا الغالية نصف مليون قرش (القرش آنذاك كان يعادل روبلنا الفضي) في محاولة منه لتخفيف غضب الباشا . أمراء وادي التيم ، وبالرغم من صلة القرابة ، وبالرغم من نعم تمتعهم بحماية المعنيين من الطغيان التركي ، فإنهم لم يشاركوا المعنيين مصيبتهم ، بل انشغلوا بكيفية خطب ود الباشا الحاكم الشرير عدو المعنيين والدخول في خدمته .

لكن أمراء وادي التيم أنفسهم ، وفقاً لما سبق وأشرنا إليه ، وقعوا في حبائل الدسائس والمؤامرات . وقف الأخ ضد أخيه ، فهذا هو الأمير أحمد يؤلب ضد أخيه الأمير علي حاكم وادي التيم ، الباشا العثماني حافظ . المصيبة المشتركة أعادت اللحمة

---

(١٠) ولد الأمير فخر الدين الثاني سنة ١٥٧٢ . تسلم سنة ١٥٩٠ إدارة الشوف ، اقطاعه الأمراء المعنيين . استطاع الأمير في العقدين الأولين من حكمه أن يخضع لادارته كل الأراضي الواقعة بين نهر الكلب وجبل الكرمل ، مضيفاً إلى أملاكه شمالي فلسطين ومدينتي صيدا وبيروت الساحليتين . سنة ١٦٠٨ عقد فخر الدين معاهدة تجارية مع دوق توسكانة فردينان الأول يعتقد الباحثون أنها كانت تحوي بنوداً سرية عسكرية وسياسية موجهة ضد الحكومة التركية . استعداداً منه للنضال المسلح ضد الأتراك أنشأ الأمير فخر الدين جيشاً نظامياً ودعم القلاع الواقعة على حدود أملاكه . كان استقلال لبنان حتى هذه السنوات ينحصر في دفع أتاوة بسيطة للسلطنة ، لكن استقلالية فخر الدين الثاني كانت تتمثل في سياسته الداخلية والخارجية مما أثار قلق الحكومة التركية . في صيف ١٦١٣ خرج أحمد حافظ باشا والي دمشق بأمر من السلطان في حملة ضد الأمير اللبناني . كل سكان الوطن نهضوا ضد الأتراك ، لكن كفة الميزان مالت إلى جانب الجيوش التركية . ١٣ أيلول ١٦١٣ ترك فخر الدين لبنان ، فعاثت به الجيوش التركية فساداً . سنة ١٦١٣ دخلت التاريخ باسم «سنة حافظ» .

سنة ١٦١٨ تلقى فخر الدين سماحاً بالرجوع إلى لبنان . فترة ازدهار الإمارة اللبنانية وعصرها الذهبي ، تمتد من ١٦١٨ حتى ١٦٣٢ . صب الأمير فخر الدين اهتمامه على تحسين التجارة والزراعة وتوسيع علاقاته السياسية الخارجية . راجع أحمد الخالدي . لبنان في عهد الأمير فخر الدين الثاني . نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ١٩٣٦ . يونس قرأ لي ، فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان ، الجزء ١ ـ ٢ . روما .

Adel Ismail . Histoire du Liban de XVIII siécle à nos jours T. 1. ملاحظة الناشر

(١١) سنة ١٦١٣ . ملاحظة الناشر .

السابقة بين المعنيين والشهابيين ، إذ أن حلفاً جديداً نشأ بين الأميرين علي الشهابي ويونس المعني ، تمكن بعده هذان الأميران من هزيمة الأتراك ، الذين عادوا وثأروا لأنفسهم بتخريب دير القمر عاصمة المعنيين (١٢) وحاصبيا عاصمة الشهابيين ، مع عدد من المدن الأخرى في جبل لبنان ووادي التيم ، فهرب أمراؤها المنكوبون إلى بانياس (١٣) عند منابع الأردن . ومع عودة الأمراء الشهابيين والمعنيين إلى لبنان بعد مغادرة الحملة التركية ، نشبت حرب عصبية بين الأحزاب القيسية واليمنية ، استمرت عاماً وحفلت بضروب الوحشية والدموية . تنازل بعدها الأمير يونس المتعب عن السلطة لابن أخيه الابن الشاب لفخر الدين . وتتالت الأحداث ، إذ أقيل جلاد لبنان حافظ باشا من منصبه ، وما لبث فخر الدين أن عاد بعد ذلك من رحلته .

قضى الأمير فخر الدين في إيطاليا قرابة الـ ٥ سنوات ، حيث أثار ظهوره ، كأمير للقبيلة الدرزية غير المعروفة حتى ذلك الوقت فضول أوروبا . بلاط فلورنسا حصه دوماً باستقبال رائع . انتشرت في الغرب إشاعة تزعم بأن الدروز ـ الهائمين في الجبال ـ هم أحفاد الصليبيين ، حتى أنهم نسبوا اسم الدروز إلى الكونت Dreux ، ويبدو أن فخر الدين نفسه طرب لهذه التنغيمة التي جعلت منه موضع اهتمام كبير في الغرب .

بعد عودته من أوروبا لم يبطىء فخر الدين في إعادة أموره الحكومية إلى نصابها، ولم يتردد في إعطاء عائلته ونسبه بريقاً جديداً . المصائب التي حلت بلبنان ؛ أثناء غياب الأمير زادت الشعب ثقة به . وهذه الفترة الجديدة من حكمه تعتبر عصر الدروز الذهبي . كل الوطن من امتدادات لبنان الشمالية إلى قمم بشري وعكا ، إلى أعالي العاصي ، وعلى امتداد الشاطىء حتى الكرمل ، وإلى وادي بعلبك الخصيب ، المدن البحرية ، البترون (عند القدماء Botrys) جبيل (Byblos القديمة) بيروت (Byrit) صيدا ، صور ، عكا (١٤) ، ومن الشرق حتى أعالي الأردن إلى صفد وطبريا ، كل هذه البلاد بجمالها وغناها وبقبائلها القوية الشكيمة اعترفت بسلطته . أمراء وادي التيم ،

---

(١٢) حتى ١٦١٣ كانت بعقلين مركزاً لأملاك المعنيين (أسسوها سنة ١١٢٠)ـ سنة ١٦١٣ وبأمر من فخر الدين المتوجه إلى ايطاليا نقل الأمير يونس مقر إقامته إلى دير القمر (طنوس الشدياق . أخبار الأعيان في جبل لبنان . ص ٢٦٠) ـ ملاحظة الناشر .

(١٣) Panéas القديمة .

(١٤) نحتفظ لهذه المدينة بتسميتها العربية ، بدل الأسماء المتعارف عليها في أوروبا Acre أو St . Jean d'Acre والجدير بالذكر أن التسمية العربية تعود إلى عهد سحيق حتى أنه غلب على التسمية الاغريقية Ptolemais (راجع Strabon ، الكتاب XVI الفصل ٢٥) .

وجدوا فيه حامياً ، أما الباشاوات الأتراك فقد تركوه وشأنه مخافة ومهابة .

في هذا الوقت كانت سوريا مقسومة إلى ثلاثة بشاليك :

١ ـ بشليك حلب ، التي كانت سابقاً صليبية Edesse ، وأنطاكيا وشاطىء اسكندرون الذي ترقد قربه قرية سويدية (Souweidiyé) الفقيرة ، عند بدايات العاصي وكأنها تمثال فوق ضريح دولة السلوقيين الشهيرة في الزمن **القديم** .

٢ ـ بشليك طرابلس على طول الساحل من اللاذقية حتى حدود الامارة اللبنانية .

٣ ـ بشليك دمشق وتدخل تحت إدارته كل البلدان الجنوبية الشرقية من العراق حتى السويس . فلسطين التي كانت في عداد ولاية دمشق ألفت سنجقاً مستقلاً تحت إمرة باشا برتبة مرمران . ولهذا فقد دخل شريطها البحري في عداد ولاية صيدا التي امتدت من ناحيتها الساحلية في القرن التالي من سواحل صيدا حتى الحدود المصرية ، أمام القدس ، كإحدى أربع مدن مقدسة عند **المسلمين،فقد انضوت** تحت لواء باشا دمشق .

في الجزء الشمالي من سوريا ، وفي بشليك حلب تحديداً ، تمكنت الحكومة التركية من نشر عاداتها ونظامها الحربي ، والانكشارية والاقطاعيين السباهي والتيماريوت (١٥) أي أنها تمكنت من عزل التنظيم الاجتماعي وقيادته العربية وإحلال هيكلية إدارية جديدة قوامها العنصر التركي . في بقية سوريا لم يستطع الأتراك القضاء على العنصر المحلي . ففي جبل الكلبية وقاسيون القديم كانت قبائل الانصاريين ، الفقراء **الوادعون** الذين لم يثيروا أي اهتمام رسمي إلا في موسم دفع الجزية السنوية . السناجق المتاخمة لذيول لبنان الشمالية كان يتناقلها بالوراثة أمراء بني سيفا المسلمون ، سناجق جبيل وبعلبك كانت تخضع لمشايخ بني حمادة وأمراء حرفوش المتاولة . وكل هذه القبائل والعائلات النافذة كانت ، تعترف بمحض إرادتها ، بسلطة الأمير فخر الدين عليها ، لا بل وتطمح إلى ملجأ حمايته من استبداد الباشاوات الأتراك .

قبيلة الموارنة تجمعت في كسروان والمنطقة الجبلية ، في ظل نفس النظام الأبوي المنوّه عنه في حديثنا عن مجتمع العرب الرحل ، وكانت بقيادة مشايخ من نفس دينهم من آل الخازن وآل حبيش . في منطقة المتن الجميلة كان الأرثوذكس العرب والدروز ، ومنذ القدم ، تحت إدارة مشايخ قديرين يعودون بأصولهم إلى الدروز ، مشايخ أبي اللمع .

---

(١٥) سباهي ملاكو الاقطاعات الحربية الكبيرة والمتوجب عليهم بأمر من السلطان الحضور إلى الجيش مع خيالة مسلحين يختلف عددهم باختلاف دخل اقطاعاتهم . التيماريوت ملاكو اقطاعات حربية صغيرة التيمارات . ملاحظة الناشر .

هذان السنجقان كانا من أملاك الأمير اللبناني لكنهما حافظا على امتيازاتهما الاقطاعيـة . جنوب لبنان ، المعروف بالشوف ، ويمتد من بيروت حتى صيدا ، والمتأرجح في تبعيته بين هاتين المدينتين ، كان محكوماً بمشايخ محليين . عائلات المتاولة التي تعيش في مدينة صور وضواحي صيدا ، والقبائل البدوية الأخـرى التي استقرت في أعـالي الأردن ، وما وراء الأردن في جبـال عجلون وحوران ، لم يكن لمشـايخها وحكـامها المحليـين قدر وافٍ من القوة ، لذلك كانت تنضوي تحت مظلة الأمير عن طيب خاطر ، فقد وجدت فيه سندها من مضايقات باشا سوريا وانتقامه . في عهد الأمير فخر الدين تصلبت وتعمقت التركيبة الاقطاعية في هذه الأقاليم ، لأنه سهل فيها إمكانية الادارة الذاتية الوراثية بزعامة الأمراء والمشايخ المحليين ، وهذا ما ييسر مهمة الأمير في جمع الأتاوات واستنهاض العساكر من طرف هذه القبائل .

زين فخر الدين عاصمته بيروت ، وابتنى فيها الأبـراج والقصور ، حصن مينـاءها حماية للتجارة من بوارج مالطة ، وشجع بناء الأسطول وامتلك نفسه أسطولاً صغيراً . بقايا قصر الأمير فخر الدين ، حدائقه حماماته وجنينة حيواناته ، تشهـد حتى اليوم عـلى عـظمة الأمـير الذي استبـدل في ايطاليـا عادات السلطة الأبـوية البسيـطة ببذخ بـلاط مديتشا . لكن الأثر الأهم للأمير يبقى غابـة الصنـوبـر التي زرعها لحمـاية المـزروعات والحدائق من زحف الرمال البحرية عند شواطىء بيروت الجنوبية . وحتى الآن يستمر في سوريا هذا الصراع بين الزراعة والصحراء والـذي يعبّر عنـه المصريـون القدمـاء مجازاً بالحرب الخالدة بين أوزيريس وتيفون . في مصر المحبة للعمل تمكن أوزيريس بمساعدة آلهة النيل من طرد تيفون المعادي ، وأخصب الأرض المحررة من هجماته المميتة . لكن في سوريا وبسبب التناقض المستمر للسكان وعدم وضوح التركيبـة السياسيـة للمنطقـة ولامبالاة الحكومات ، فإن هجمات تيفون الاستنزافية تجرف عاماً بعد عام وتحشر بشكل أكثر فأكثر هذا الشريط الطبيعي من الأرض المقدسة الممتدة تحت غطاء حصادها الوفـير بين صحراوين : الرمال والبحر ، جفاف الصحراء العظمى من الناحية الشرقية يـأكل شيئاً فشيئاً هذه الأرض المعطاء في سوريا ، ومن نـاحية الشـاطىء ، يلفظ الموج سنـوياً تلالاً رملية مقذوفة على ما يبدو بواسطة الرياح من الصحراء الليبية (١٦) .

---

(١٦) هذه الظاهرة تبدو مدهشة في صور وبيروت . من المعروف أن صور القديمة كانت جزيرة في وقت من الأوقات ، وصلها الاسكندر باليابسة بواسطة سد تسهيلاً لمهاجمتها . وهذا ما أدى إلى تراكم الرمال على امتداد الشاطىء . فنشأ مكان السد الضيق عنق عريض ، تأتيه الرمال مع هبوب الرياح الجنوبية الغربية ، وترتفع أحياناً أعلى من جدران القلعة وأحياناً يصل ـــ

في وادي التيم وحسب عاداتهم لم تتوقف الصراعات العائلية في صفوف الشهابيين ، فخر الدين بثقله السياسي الجديد ، وقوة تأثيره في السناجق المجاورة ، أصبح يمثل الحكم ونقطة التوازن ، وقد حل بذلك محل باشا دمشق ، الذي لم يكن يبطيء انطلاقاً من قواعد السياسة العثمانية ، بالعمل على قتل أحد الإخوة بيد الآخر اضعافاً لحزبيهما معا . قسم فخر الدين في ترتيباته لأمور الشهابيين ووادي التيم إلى قسمين : أعطى لأحد الإخوة حاصبيا أو وادي التيم التحتاني وللآخر راشيا أو وادي التيم الفوقاني ، وهذا التقسيم لا يزال نافذاً إلى الآن بين فرعي آل شهاب . وهذا لا يعني بالطبع أن الدسائس العائلية وقتل الإخوة قد زالت بين نسل هذه العائلة .

تحت قيادة فخر الدين الحكيمة عم السلام والرخاء بسرعة ، القبائل الموالية له ، وانتشر نفوذه وقوي في كل سوريا . كان على صلات جيدة مع القبائل القوية الشكيمة في نابلس وجبال اليهودية ورحل الصحراء ودروز جبال حلب * والأنصارية . وكممثل للعنصر الاقطاعي المحلي تمكن فخر الدين ، وببساطة من جعل نفسه رأساً لكونفدرالية القبائل المتصارعة قبلاً في سوريا ، وتمكن بالتالي من التخلص من السيطرة العثمانية التي حقنها سليم الأول في الجسم العربي ، الذي كانت لا تزال تضج فيه نبضات قوى الحياة ، بالرغم من قهره بعبقرية ذلك السلطان الفاتح الذي تمنحه الأدبيات التركية لقب الرهيب .

بدأت سوريا زمن الأمير ، تثير قلق الباب العالي ، وبالطرق التركية المعتادة ، ألّب باشا دمشق أمراء آل حرفوش وسيفا ضد فخر الدين (في ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ ـ ٢٤ م) . وتقدم الباشا شخصياً بجمع الجيوش لمنازلة فخر الدين ، إلا

= المدينة من فوق هذه الجدران . عندها يتجمع السكان مع رفوشهم وسلالهم يدافعون عن مدينتهم ضد هذا الهجوم المخيف الذي نذره الفاتح المقدوني ضد هذه المدينة المغضوب عليها .

في بيروت ، حيث تكوين الشاطيء الممتد في البحر بعيداً على شكل رأس ، تتكرر نفس الظاهرة ، فالرمال تغطي كل الشريط الجنوبي لهذا الرأس ، وقد دفنت مجموعة من الحدائق وحتى بيوتاً من طابقين ، لا يزال الطاعنون في السن يذكرون أماكنها . خلال إقامتي في بيروت لمدة ثماني سنوات زحفت هذه الرمال إلى الأمام مسافة ١٠ ساجين ونيف (الساجين ١م و٣٠سم) بين البساتين المعطاه . لا يستطيع أي كان أن يصور الكسل الفطري الموجود عند الانسان الأسيوي ، أو الحكومات الأسيوية مثلها تعكسه هذه اللامبالاة الكاملة تجاه خطر محدق ، فلا يتخذون أية تدابير لاتقائه . الباشاوات الأتراك ، والذين تقع بيروت تحت إدارتهم المباشرة ، وهي التي اغتصبها الباب العالي من أيدي الجبليين ، لا يفكرون بدرء المصيبة . الوسيلة الوحيدة في مثل هذه الحالة هي زرع غابات صنوبر ، كما فعل الجبلي العبقري فخر الدين .

* ويعرف بالجبل الأعلى شمال سوريا . راجع طليع أمين محمد ، أصل الموحدين الدروز وأصولهم ، بيروت ، دار الأندلس ، ط ١ ، ١٩٦١ ، ص ١٦ . (المترجم) .

أنه لقي هزيمة قاسية ووقع في الأسر ، احتفى الأمير بأسيره ، وتمكن من أن يحقق معه سلماً مستقراً ، وحتى أن يحصل على صداقته ، بعد ذلك بخمس سنوات قرر الباب العالي عزل هذا الوالي القوي والمباشرة بتأديب فخر الدين . وفي عهد السلطان مراد زحف الصدر الأعظم خليل باشا على سوريا عبر حلب ، أما قبودان باشا جعفر فقد ظهر بأسطوله على الشواطىء . بعض حكام الأقاليم عند فخر الدين انتقلوا إلى صفوف الأتراك . ابنه الأمير علي أحرز بلا طائل بعض الانتصارات على جيوش السلطنة . الآخرون من مناصريه فتشوا عن النجاة في الهرب . الأمير نفسه حاصره الأتراك في قصره المنيع على الصخور اللبنانية . أخيراً أجبره الجوع على التفتيش عن ملجأ آخر فاختبأ مع عائلته في المغارة المعلقة فوق هاوية جزين الجبلية .

أحمد كجك باشا الذي لاحق كالوحش ، الأمير التعيس في وديان لبنان، **اكتشف آثاره** واستطاع أسره بعد أن نبش المغارة من سقفها ، إذ كان من غير الممكن الوصول إلى فتحتها الأساسية . فحمله إلى الصدر الأعظم الذي اقتاده فوراً إلى القسطنطينية (١٧) مع واحد من أبنائه ، هو الناجي الوحيد من مجموع إخوته . عين الأتراك آنذاك حاكماً للبنان الأمير اليمني علي علم الدين بهدف القضاء التام على تأثير القيسية المتمثلة بآل معن . ولكن ما ان خرج الجيش العثماني حتى هب ابن أخ الأمير فخر الدين الأمير ملحم المعني ، الذي كان قد هرب من الأسر العثماني وتمكن بمساعدة أنصاره ، من طرد آل علم الدين بدون جهد . ثمن هذه العودة كانت حياة فخر الدين وأفراد عائلته ، فقد شنق الجميع (١٨) بعد أن وصلت إلى اسطمبول أخبار الاضطرابات والتغييرات الجديدة في لبنان . شنقوا على الرغم من حفاوة الاستقبال في البداية . الوحيد الذي نجا كان حسين الابن القاصر للأمير والذي أنقذ بمسعى من الوزير نفسه .

أعاد الباب العالي المعنيين إلى سدة الإمارة ، بالإقرار بملحم أميراً حاكماً، وذلك بعد أن توصلت الدولة إلى هدفها : ضربت المعنيين ضربة قاسية لن يستطيعوا بعدها العودة إلى ألقهم السابق ، ثم أعادتهم إلى الحكم ، وأكثر تركت للأمير الجديد قدراً من التأثير كافياً ليس لإدارة المنطقة وحسب بل والصراع ضد الآخرين من حكام وحتى من باشاوات ، دون أن تصل هذه القوة الجديدة بالطبع إلى ما كانت عليه عهد فخر الدين .

---

(١٧) شباط ١٦٣٥ . ملاحظة الناشر .

(١٨) شنق فخر الدين الثاني في ١٣ نيسان ١٦٣٥ . ملاحظة الناشر .

في عهد الأمير ملحم ، وولديه أحمد وقرقماز ، اللذين حكما لبنان معاً ، لم تنقطع في لبنان الحروب العصبية ، والنزاعات بين القيسيين واليمنيين . كـذلك في وادي التيم ، فقد تلاعب باشاوات دمشق بالأمراء الشهـابيين حينـاً مع هـذا الأمير وحينـاً مع ذاك . والنتيجة بالطبع كانت زيادة الجـزية السنـوية . وقـد استطاع العثمـانيون في النهـاية أن يطردوا العائلتين المعنية والشهابية من لبنان ووادي التيم ، فاضطر الأمراء إلى الاختبـاء حوالى عشر سنوات في مغاور كسروان أو التشرد في جبال حلب .

اليمنيون منتصرون في الحكم . خلال الاضطرابـات السابقـة صادر البـاب العالي مدن صيدا وصور وبيروت من الإمارة اللبنانية وجعلها ولاية لباشا جديد مقره صيدا ، والهدف من ذلك كان مراقبة النواحي الشاطئية القريبة من لبنان [19] . وعلى الرغم من المحاولات التي جرت لتدعيم سلطة الأمبراطورية العثمانية على يد وزراء عائلة آل كيو بروليو [20] ، وقد حصل هذا في سوريا على يد أحمد باشا والي دمشق الذي أرجع نفسه إلى هذه العائلة ، على الرغم من هذا فإن الاضطرابات لم تنقطع في لبنان . فقد لاحق الأتراك بعناد نسل فخر الدين . باشا صيدا نجح في استدراج الأمير قرقمـاز إلى شبكته وإماتته بخسة [21] . أخوه أحمد نجا جريحاً لمدة سنتين في كسروان . أما الحزب اليمني ، وبالرغم من الدعم التركي الكـلي فإنـه لم يستطع كسب ود العـائلات اللبنـانية وتقـوية سلطانه ، وقد تجمع القيسيون مع عساكرهم من جديد والتقوا الجيش اليمني في سهـل بيروت [22] ، وقد انجلت هذه الحرب الدموية على غير إرادة الأتراك ، الذين اضطروا إلى الإقرار بالمعنيين من جديد . الانتصار المعني في جبل لبنان انعكس تلقائياً على وادي التيم حيث تمكن الشهابيون من العودة والاستقرار مجدداً .

إن البناء الذي شيده فخر الدين ، هدمته المصائب المتلاحقة شيئاً فشيئاً . وبالرغم من زوالـه ، فإن الإشـارة إلى قوة العنـاصر المحليـة التي حملت عبء هـذا البنـاء تبقى واجبة . لقد وجدت هذه العناصر في الجسم الاقطاعي سنداً قوياً . فما أن تهدأ العاصفة ويلتقط الأمير أنفاسه بعد المطاردات ، كانت القبائل تعود من جديد لتنضوي تحت لوائه

---

(١٩) قامت ولاية صيدا سنة ١٦٦٠ . ملاحظة الناشر .

(٢٠) ممثلو أسرة كيو بـروليو ، احتلوا باستمرار منصب الصدر الأعظم في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وقاموا بنشاطات تهدف إلى تدعيم جهاز الدولة والجيش وإصلاح النظام الضرائبي ، وحاربوا انفصالية الباشاوات . ملاحظة الناشر .

(٢١) سنة ١٦٦٢ . الناشر .

(٢٢) التقى القيسيون واليمنيون مرتين ١٦٦٤ و١٦٦٧ . معركة بيروت سنة ١٦٦٧ . الناشر .

بطيب خاطر . الأسفار اللبنانية تذكر ، بأن في سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م قدم آل حرفوش أمراء بعلبك إلى دير القمر محتكمين من الشهابيين ممتنعين عن دفع الضريبة إلا بعد القرار التحكيمي من الأمير أحمد المعني .

وبعد عدة أعوام كلف باشا طرابلس الأمير اللبناني تأديب متاولة جبيل ، تنفيذاً لمبدأ الأتراك في أن النزاعات العائلية والخلافات الشعبية المميزة للادارة الاقطاعية تبقى الطريقة الفضلى التي تغني الدولة عن التدخل المباشر . فبمساعدة المتاولة ذبحوا الدروز أكثر من مرة ، وأكثر من مرة سلحوا الدروز ضد المتاولة . رفض الأمير اللبناني طلب الباشا التركي ، فالفكرة القائلة بجمع القبائل السورية ضد مكائد الأتراك ، على غرار ما فعل فخر الدين ، كانت لا تزال حاضرة في ذهن الحاكم . وبالنتيجة هزمت جيوش الباشا أمام المتاولة (٢٣) . وقد أرجع الباشا هزيمته تلك إلى مقامرات ودسائس الأمير اللبناني ، كما أورد في التقارير التي رفعها إلى الباب العالي طالباً المساعدة للاقتصاص من المعنيين وطردهم من حكم الجبل . وبالفعل هرب الأمير المعني وعاد آل علم الدين إلى حكم الجبل من جديد . ومن جديد كذلك ، غب خروج الأتراك ، عاد القيسيون وطردوا آل علم الدين وأعادوا أميرهم المعني (٢٤) الذي اكتسب شرعية الحكم من الباب العالي بعد التماس من باشا صيدا .

وهكذا فإن التأثير التركي كان متفاوتاً في سوريا ، وفي كل المحاولات التي قامت بها العائلات السورية لبعث العنصر المحلي ، كان التشرذم الاقطاعي والبغض المتبادل بين هذه العائلات السند الوحيد للأتراك في ردودهم على تلك المحاولات . لقد كانت الدولة التركية بحاجة ماسة للقوى وللسكان المحليين ، فهم القادرون الوحيدون على تأديب وإخضاع قوى محلية أخرى تحاول التفلت من سلطان الأتراك ، لهذا لم تستطع الدولة أن تفكر بإدارة هذا الاقليم مباشرة . الممثل الذكي للسلطان هو الذي ينجح في تجيير هذه القوى المحلية سلاحاً لسياسته فيقسو عليها أو يدللها رفقاً وحسنى كما تتطلب الظروف . وما أن ينشأ عبقري قادر على أن يخضع الفورات الشعبية وأن يقف في وجه الجور والدسائس التركية حتى تطمح سوريا إلى خلع السيطرة الخارجية . ولكن هل كانت سوريا قادرة على إدارة نفسها بنفسها ، وهل كانت قادرة أن تستغني عن الأتراك أو بالأصح عن حكم أجنبي غريب ؟ مصير فخر الدين في القرن السابع عشر ومن بعده

---

(٢٣) سنة ١٦٩٣ . الناشر .

(٢٤) سنة ١٦٩٤ . الناشر .

مصير ظاهر العمر في القرن الثامن عشر يجبران على الشك في ذلك . في سياق ثلاثة قرون ، يمكن تسميتها بحق قرون النضال ضد العنصر التركي من قبل العنصر العربي الضعيف غير المحمي ، والذي استنفذ قبل أوانه في مدّ لا يوازي قدراته الحياتية ، وفي هذا السياق لا يمكن إلا أن نلاحظ ، من ناحية، الفساد والضعف التدريجي في القومية العربية في سوريا ، ومن ناحية ثانية ، نجاحات النظم التركية في زرع الخلاف بين القوميات ، وهذا ما يعتبر ضمانة السلطة الوحيدة في هذه الفوضى السياسية المسماة بالأمبراطورية العثمانية .

هذه الظاهرة تمتد إلى أيامنا هذه ، نفس الوسائل يستعملها الأتراك حتى الآن ويحرزون النجاحات في سوريا وفي المناطق التي تقطنها القبائل السلافية والالبانية واليونانية . وقد ساعدت علاقات الأتراك بأوروبا كالبندقية والنمسا مثلاً على تطوير وتدقيق هذه القواعد التي تعتمدها تركيا في سياستها مع القبائل المحكومة . وقد اتخذت هذه السياسة مع ضعف الأمبراطورية أقنعة مختلفة حسب تصورات وظروف المرحلة التاريخية ، وغدت أكثر أهمية وشرطاً حيوياً من شروط وجود الأمبراطورية ذاتها . إن وصف العالم السوري يقدم أفضل دليل لفهم الاصلاحات الحديثة في الأمبراطورية .

الفصل الثاني

عهد الشهابيين في لبنان ـ الأميران بشير وحيدر ـ باشا لبنان ـ معركة عين دارة وآثارها ـ بداية حزب اليزبكيين والجنبلاطيين ـ الأمراء ملحم منصور وأحمد ـ النزاعات العائلية ـ الأمير يوسف ـ بداية تأثير الموارنة ـ الوهابيون في الجزيرة العربية والمماليك في مصر ـ الوضع السياسي لهذه البلدان ـ ظاهر العمر شيخ الجليل ـ تأسيس عكا ـ ائتلاف القبائل ـ سياسة الديوان ـ العمليات الحربية ـ حملة المماليك الأولى ـ خيانة البكوات ـ ظهور الأسطول الروسي ـ استيلاء الروس على بيروت مرتين ـ أحمد الجزار ـ موت علي بك ـ المحادثات مع الباب العالي ـ حملة المماليك الثانية ـ موت ظاهر العمر ـ مصير عائلته ـ مخططات ظاهر ـ نجاحات الجبروت التركي في سوريا .

* *

انقطع نسل المعنيين[1] بموت الأمير أحمد سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م بدون عقب ، فابنه كان قد توفي في حياته . أما ابنته فكانت متزوجة من حاكم حاصبيا الشهابي . اجتمع في دير القمر المشايخ الدروز لسناجق الشوف السبع ، والذين لهم منذ القدم الحق في انتخاب الأمير الحاكم . وانتخبوا الأمير بشير حاكم راشيا ابن أخت الأمير المعني .

---

(١) يورد البروفسور فيليب ك. حتي شجرة نسب الأمراء المعنيين على الشكل التالي:

فخر الدين الأول (توفي سنة ١٥٤٤)
|
قرقماز (١٥٤٤ ـ ١٥٨٥)
|
يونس ——— فخر الدين الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥)
|
ملحم ١٦٣٥ ـ ١٦٥٧
|
أحمد توفي ١٦٩٧

HITTI ph. Lebanon in history. London. 1957 الناشر .

ولكن حفيد الأمير أحمد المعني الأمير حيدر من ابنته زوجه حاكم حاصبيا الشهابي وعمره ١٢ سنة كان أحق بالإمارة التي تؤول إليه مباشرة حسب خط الوراثة المستقيم ، إلا أن الإرث السياسي في القبائل السورية لا يتماشى دائماً مع القوانين المدنية لإرث الأملاك ، فينتخب الأكثر قدرة والأكثر قيمة[٢] . أرسل مشايخ الجبل إلى راشيا ، وفداً يطلب باسمهم من الأمير بشير إدارة لبنان . وهكذا استلم الشهابيون إرث المعنيين ونقلوا معهم إلى لبنان عاداتهم القديمة والمميزة ، الصراعات العائلية ، تقاتل الأخوة ، نشر النزاعات بين التابعين لهم تثبيتاً لسلطتهم ، الوشايات والترضيات للباشا ، زيادة الضرائب ، المزايدة والمنافسة لتحطيم المعارضين . وهذا السلوك هو الذي أمن النجاحات للجبروت التركي في سوريا ، دون أن ينجي الشهابيين من المصير الذي يطال أحفادهم حتى يومنا هذا .

غب معرفته بموت الأمير أحمد ، جهز باشا صيدا ، الرسل إلى دير القمر لتطويب ثروته . وقد وافق على من اختاره مشايخ الدروز حاكماً للجبل شرط أن يدفع هذا الأمير الجديد ديون سلفه . الباب العالي من جهته ، عندما أخبر بانقطاع نسل المعنيين الحرون والمتمرد دائماً ، وافق على اختيار الأمير القاصر حيدر ، حفيد الأمير المعني من ابنته ، حاكماً ، معترفاً فقط بحاكم راشيا الأمير بشير ، أميراً على الجبل بصفته وصياً على الأمير القاصر ووليأً لأمره ريثما يبلغ سن الرشد . هذا الأمر ينسب إلى مسعى الأمير المعني حسين ، الناجي الوحيد من عائلة فخر الدين والمقيم في خدمة السلطان في اسطمبول وله فيها ذرية ما زالت حتى الآن وأخبارها مقطوعة .

رأينا جهود المعنيين الدائمة لجمع القبائل في سوريا والوقوف في وجه جماح الباشاوات ، ولكن ما إن دخل أول أمير شهابي لبنان حاكماً ، حتى قام ، إرضاءً للباشا ، بحملة تخريب لقبائل المتاولة القاطنين في مرتفعات لبنان الجنوبية وصور وبلاد صفد ، فقبض على شيوخهم وأرسلهم إلى إرسلان باشا الذي كافأه بأن أسند إليه إدارة جبال

(٢) لم تكن وراثة العرش في الأمبراطورية العثمانية من نصيب ابن السلطان الحاكم ، وإنما للأكبر من بني عثمان . لذا كان الأخ يتقدم على الابن والعم على ابن أخيه . وهذا القانون ينسب قتل الاخوة الظاهرة التي تصبغ حوادث السراي . على أية حال كان قانون الخلافة عند الأتراك يخضع للقاعدة الأساسية في الشرق في ما يتعلق بقدرات الخلف وقيمته الشخصية . في مذكرته إلى السفارات الأوروبية لدى موت السلطان محمود وتتويج ابنه عبد المجيد ، يشرح الباب العالي ، بأن السلطان الجديد يتولى عرش والده بحق الوراثة وحق الجدارة والاستحقاق . فالقانون الروحي الذي يرتكز عليه الشرع الاسلامي يفترض بالخليفة عدا الحقوق القانونية للوراثة ، حيازة خمسة شروط : أن يكون مسلماً ، حراً ، ذكراً ، عاقلاً ، غير قاصر .

صفد والسناجق المتاخمة لأملاكه[3] ، فأرسل الأمير ابن أخيه منصور حاكماً على صفد تحت رعاية شيخ مجرب من السكان المحليين هناك عمر بن أبي زيدان [4] والد ظاهر الشهير الذي سيدور الحديث عنه لاحقاً . كذلك استغل الأمير الشهابي خلاف قبلان باشا والي طرابلس مع متاولة جبيل والبترون فقام بضم سناجقهم إلى إمارته . وهكذا قدّر لأول الشهابيين عن طريق ممالأة الباشا أن يمد سلطانه تقريباً إلى الحدود التي وصل إليها فخر الدين عن طريق ولاء القبائل لتأثيره عليها . لن نتأخر بالإشارة إلى العواقب القاتلة للسياسة الشهابية المسهلة والمتساهلة مع تدخل الأتراك في شؤون لبنان الداخلية .

حكم بشير عشر سنوات ، دون أن يفكر أو يهمس بتسليم الإمارة لوارثها الشرعي الأمير حيدر ، وقد استعجلها هذا الأخير بدس السم لوصيِّه الذي توفي فجأة بعد غداء عائلي في حاصبيا التي عرّج عليها في طريقه إلى صفد لقضاء العيد مع أقاربه . وبعد مصرع بشير أسرع الأمير حيدر إلى دير القمر فاستقبله المشايخ بحفاوة وباشر مهماته حاكماً على لبنان [5] . صفد والمناطق الجنوبية أسقطت من الإمارة اللبنانية في بداية حكم الأمير حيدر ، إذ حكمها ظاهر بن عمر الزيداني بتكليف من باشا صيدا [6] الذي أخذ يمد سلطانه على القبائل المحيطة مع المحافظة على علاقات وثيقة مع أمير لبنان . الحدث الأهم في هذه الفترة كان الصراع الأخير في مسلسل الصراعات بين اليمنيين والقيسيين في لبنان . أحد ولاة الأمير حيدر ، الشيخ محمود أبو هرموش من الحزب اليمني شق عصا الطاعة ، وأقنع باشا صيدا البليد بإدخال السلطة التركية إلى جبال لبنان . الباب العالي الذي لم يكن يملك عن البشاليك والقبائل البعيدة ، سوى ما تقدمه فواتير الضرائب من معلومات ، وافق بسرعة على تقارير باشا صيدا المرفوعة اليه بخصوص ذلك ، وعين الشيخ اليمني محمود أبا هرموش نفسه مرمراناً على لبنان [7] ، وقد استدعى هذا من دمشق ، لعدم ثقته بالمشايخ الموجودين ، أحفاد أمراء علم الدين [8] . التجأ الأمير حيدر إلى كسروان واختبأ عند مشايخ آل حبيش في غزير ،

---

(٣) سنة ١٧٠٠ ـ ملاحظة الناشر .

(٤) سنة ١٧٠٦ ، وبعد موت الأمير منصور ، ثبّت بشير الأول في حكم سنجق صفد عمر بن أبي زيدان . ملاحظة الناشر .

(٥) سنة ١٧٠٧ . ملاحظة الناشر .

(٦) حوالى سنة ١٧٠٧ . ملاحظة الناشر .

(٧) سنة ١٧١٠ ـ ملاحظة الناشر .

(٨) أمراء آل علم الدين مكثوا في دمشق ابتداءً من سنة ١٦٩٤ ، أي منذ هزيمتهم أمام الأمير أحمد ومجموعة الاقطاعيين القيسيين .

ولكن العداء المستحكم بين مشايخ كسروان الموارنة ، آل حبيش وآل الخازن ، دفع بهؤلاء للوشاية بالأمير إلى الباشا ، فهاجمت جيوشه غزير وخربتها ، ولكن الأمير هرب في الشعاب العميقة لجبل صنين الثلجي ، وظل مختبئاً هناك طيلة عام في مغارة منيعة ، تعرف عند العامة بمغارة ملاك الموت .

عاش الباشا الجديد حالة انتصار ، وأخذ يضرب المشايخ المحليين مستنداً إلى الحزب اليمني المتمثل بآل علم الدين ، خاصة بعد زواجه من إحدى نسائهم . ولكن الحزب القيسي كان يعد العدّة للعودة من جديد . وبعدما نضج التململ وأصبح عاماً ، استدعى مشايخ القيسيين الأمير حيدر من مغارة ملاك الموت ووافوه بعساكرهم إلى المتن ، حيث التقى بمحمود أبي هرموش على رأس يمنييه . باشاوات صيدا وبيروت من جهتهم ، ولمراقبة الأزمة الجديدة في لبنان ، أسرعوا بإقامة معسكراتهم ، الأول في سهل بيروت ، والثاني في قب الياس على المنحدر الشرقي للبنان ، فوق وادي بعلبك (البقاع) ، أي أنهما لم يشاركا بشكل مباشر في الصراع الدائر بين الحزبين . دورهما كما الباشاوات دائماً ، كان تأجيج الصراعات العصبية ، بمساندة إحدى الجهات تارة وتارة مساعدة جهات أخرى ، والعمل قدر المستطاع ، على عدم السماح للأمور بأن تصل إلى أحد احتمالين : أن ترجح كفة أحد الطرفين بحيث يؤدي ذلك إلى القضاء تماماً على المهزومين ، أو أن تنتهي هذه الحرب بمصالحة حقيقية .

احتل محمود أبي هرموش مرتفعات عين دارة ، منتظراً دخول باشاوات دمشق وصيدا وديان الجبال القريبة ، فيتم بالتالي ضرب العدو القيسي من كل الجهات ويقضي عليه تماماً . ولكن الأمير حيدر ، فاجأ الباشا ليلاً وهزمه هزيمة قاسية[٩] . ثلاثة أمراء من آل علم الدين قتلوا في هذه المعركة الدامية ، الأربعة الآخرون ومحمود باشا أبو هرموش وقعوا في الأسر . قطع المنتصر رؤوس الأمراء الأسرى ، وبهذا قطع نسل آل علم الدين آخر أمراء الحزب اليمني . أما محمود باشا فكان نصيبه قطع اللسان والأصابع ، لأن العادات المحلية لا تسمح ، تحت أية حجة كانت ، بقتل باشاوات أمثال محمود باشا . باشاوات دمشق وصيدا الذين التزموا مراقبة الحرب ، لم يبطئوا بالاعتراف تحت وطأة الانتصار الكبير ، بالأمير حيدر حاكماً على لبنان .

وضعت معركة عين دارة خاتمة الحزب اليمني ، وبقي الشهابيون قوى الساحة

---

(٩) معركة عين دارة حصلت سنة ١٧١١ . الناشر .

المنفردون ، فبدأوا يفكرون بمركزة سلطتهم وسط طغمة المشايخ بتحجيم الحقوق الإقطاعية . إلا أن نجاح الحزب القيسي وضع الأمراء الشهابيين ، كقوادٍ له ، في وضع حرج ، خاصة وأنهم كانوا قد تشربوا حتى الأعماق ممارسات السياسة التركية في لبنان . فقد أحسّوا بضرورة تفريق أنصارهم ، مهددين أو محتفين بهؤلاء أو أولئك ، حتى يتمكنوا في النهاية ، شأن الباشاوات الأتراك من تقوية تأثيرهم وسلطتهم . هنا تكمن بداية ما يحدث الآن في لبنان بين حزبي الدروز : اليزبكيين والجنبلاطيين . وفي ظل الصراع الدائم بين هذين الحزبين ، تمكن خلفاء الأمير حيدر ، بغض النظر عن الصراعات العائلية الأخرى ، وتظلل أمرائهم تحت سلطان الباشاوات ، من إدخال الإدارة المطلقة إلى لبنان[١٠] .

كافأ الأمير حيدر أنصاره بالغنائم والتشريفات . الشيخ قبلان القاضي الذي اختبأ مع الأمير في مغارة ملاك الموت ، تسلم سنجق جزين الغني ، والذي أصبحت إدارته بعد موته من دون عقب من نصيب الجنبلاطيين ذوي النسب العريق والسند الأقوى للشهابيين فيما بعد ، وأصلهم أكراد من الأيوبيين . آل إرسلان خسروا نصف أملاكهم الوراثية تأديباً لهم على تأييدهم محمود باشا في عين دارة ، وقد أعطي لآل تلحوق الموالين لآل إرسلان حتى ذلك الحين . مشايخ أبي اللمع حكموا سنجق المتن برتبة مقدم ، وألحق الأمير بأملاكهم سنجق القاطع ، القضاء الجميل المتاخم لكسروان وشرفهم بلقب أمير ، فأصبح بإمكانه أن ينشيء معهم علاقات نسب وقرابة . ولنلاحظ هنا أن نبلاء لبنان مثل كل العائلات العربية تلزم بحزم بالقاعدة التي تفرض الزواج فقط من رتبة اجتماعية موازية . الأمير لا يعطي ابنته لشيخ ، ولا نجد مثلاً حالة زواج شيخ من فتاة من الشرائح السفلى . وعندما يصعب وجود عروس مناسبة ، كان هؤلاء الأرستقراطيون يوصون لأنفسهم على محظية من القسطنطينية أو من القاهرة ، ويتزوجونها شرعياً (الأخلاق الجبلية لا تسمح بوجود خليلة) لحفظ نسلها من الإذلال . وحتى في أوساط العامة ، فإن اختيار الزوجة المناسبة يخضع لشروط السن والنسب[١١] ، وأصول هذا

---

(١٠) أساء ڤولني القول إذ اعتبر أن حزبي اليزبكيين والجنبلاطيين هما نفسيهما الحزبان القديمان القيسي واليمني . لقد قضي تماماً على اليمنيين بعد معركة عين دارة . وبقايا هذا الحزب موجودة الآن في وادي التيم وحوران وجبال حلب وفي فلسطين في حالة مزرية من المهانة والفقر . أما الأحزاب اللبنانية حالياً فهي منبثقة من تفتت القيسيين أنفسهم .

(١١) يدور القول هنا عن الزواج بين الأقارب النخبة . وهذا الشكل من الزواج المعروف عند اليهود القدماء يغلب عند العرب منذ القرن السادس ـ السابع وحتى الآن . محاولة لشرح نشأة النخبة موجودة في مقال : أ. إي برشيتس ، من تاريخ الأشكال الأبوية للزواج ، النخبة عند العرب ، «أنباء مختصرة من العهد الآتي» العدد XXIV ، موسكو ، ١٩٥٥ . ملاحظة الناشر .

نجدها في المنطلقات التوراتية . وبالمناسبة نشير إلى ظاهرة مثيرة للفضول ، ألا وهي التقارب بين مصائر البيوتات الحاكمة في لبنان : مثلما دخل المعنيون في قرابة مع الشهابيين لتوثيق الصلات السياسية ، وبذلك تمهدت الطريق أمام هؤلاء الموصول إلى سدّة الحكم ، فإن أمراء أبي اللمع صاهروا الشهابيين وتخلفوا بدورهم بقائمقام لبناني الحالي .

لمزيد من مسايرة الأرستقراطية اللبنانية وإخفاءً لمخططاته التسلطية أدرج الأمير حيدر عادة تسمية المشايخ في وثائقه بالأخوان الأعزاء ، وهذا ما يتبع حتى الآن بدقة . ليس في العالم شعب أكثر تزكزكاً وحساسية من العرب في ما يخص قواعد السلوك . الشيخ اللبناني في ثياب رثة ، يتعلعل في دخان كوخه ، ويفتخر بأصله الطيب . يغفر لخصمه الخيانة واستعمال القوة ، إلا أنه لا يسامح ، ولو بعد قرن ، بما يسميه مسّاً بشرفه ، إذا أسقطت سهواً في حديثك أو رسالتك ولو لقباً واحداً مرافقاً لرتبته .

سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وقبل سنة من موته ، وبعدما فرغ من ترتيب أمور إدارة لبنان ، أوكل الأمير حيدر الحكم لابنه الأمير ملحم . أول هم من هموم الأمير الشاب كان تأديب جيرانه شيوخ المتاولة ، الذين لشدة فرحهم بموت والده خضبوا أذناب بغالهم باللون الأحمر* . مقتفياً خطوات والده جعل ملحم نفسه رأس حربة السياسة التركية ضد جيرانه ، وكمكافأة على مواقفه تلك أعطاه سعد الدين باشا العظم مدينة بيروت (١٢) التي كانت قد خرجت من أيدي الأمراء المعنيين ومن بعدهم الأمراء الشهابيين ، منذ شنق الأمير فخر الدين .

لم يستحوذ أي من أمراء لبنان الحاكمين قبلاً مثل هذا العطف من الباشاوات . الشهابيون ضيوف لبنان وغرباء عن عواطف الشعب ، وجدوا سندهم في التقرب من الباشاوات الأتراك ، وهذا ما نشر الذعر في القبائل الواقعة تحت سلطتهم . وقد ظهرت مواقف الناس تجاههم عند مرض الأمير ملحم نتيجة تفاعل وخزة شوكة صبير في يده ، وشيوع خبر يفيد بأن حياته في خطر ، فكانت مواقف احتفال وابتهاج مما أرعب الأمير المريض المتعب واقض مضجعه ، فتنازل عن الحكم ، كما فعل والده قبلاً ، لصالح أخويه أحمد ومنصور(١٣) وانتقل مع عائلته إلى بيروت . ولكنه ما لبث أن ندم على فعلته

* المقصود هنا «الحنّاء» (المترجم) . راجع الشدياق طنوس ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣١٧ .

(١٢) سنة ١٧٤٩ . الناشر .

(١٣) سنة ١٧٥٤ . الناشر .

تلك ، وراح يدبر كل المكائد الممكنة لخلع إخوته . واختصاراً ، بعد أن فقد الأمل في أخذ زمام الحكم من جديد ، دعا إليه أحد أبناء إخوته الأمير قاسم وتآمر معه وأرسله إلى القسطنطينية واشياً هناك بأعمامه .

مات الأمير ملحم دون أن يعرف نتيجة محاولته تلك ، إلا أن بذور الشقاق في العائلة أعطت ثمارها ، ولم يمنع الطاعون الذي ضرب الجبال اللبنانية سنوات متتالية ، أطراف العائلة الشهابية وراء منصور وقاسم من الاقتتال ، ومن ملاحقة بعضهم البعض عند باشاوات دمشق وصيدا . وقد نجح الشيخ عبد السلام العماد رئيس اليزبكيين ، بعقد الصلح بينهم ، فتزوج الأمير قاسم ابنة الأمير منصور ، ومن هذا الزواج ولد الأمير بشير الشهير في وقتنا (١٤) .

بعدما تخلص الأمراء الشهابيون من الطامح بالعودة إلى الحكم ، بدأوا الحرب فيما بينهم . ناصر الجنبلاطيون الأمير منصور واليزبكيون الأمير أحمد . انتصر أولهم فخلع أخاه وبقي حاكماً صيدا سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ ـ ٦٤ م . ولكن هذا لا يعني نهاية الصراع فقد تكاثرت الأجنحة الشهابية من جديد ، ومنعت نزاعاتها السكان التعساء من العيش بهدوء . الأمير يوسف بن ملحم وعمره ١٢ سنة كشف عن قدرات نادرة ، رعاها وطورها مربيه ومدبره سعد الخوري الماروني الأصل . هنا كما في باقي سوريا ، أصبح المسيحيون تدريجياً موضع ثقة الباشاوات الأتراك والأمراء المحليين . فدخلوا في الإدارة ، وتدخلوا حتى في الأمور البيتية . حتى ذلك الوقت لم يكن للموارنة أي وزن سياسي ، إذ كانوا تابعين للدروز ، وأوروبا نفسها كانت تعرفهم مشايخ فقراء ، بألقاب طنانة : الأمراء اللبنانيين ، يسافرون إليها لجمع الصدقات . مربي الأمير يوسف سعد الخوري يشكل مرحلة تاريخية عند الموارنة ، فقد أعطى لقبيلته دفعاً جديداً بترجيح كفة الموارنة السياسية على الدروز، نتيجة اعتناق الشهابيين أحفاد النبي (محمد صلعم) الدين المسيحي .

وقف الأمير يوسف في الصراع الدائر بين عميه ناحية الأمير أحمد ، فما كان من الأمير منصور إلا أن صادر كل أملاك ابن أخيه ، إلا أن الفتى المقدام رغم هذا تمكن من تجميع أنصار حوله ، وحاز بمساعدة مربيه على صداقة الجنبلاطيين ولكنه لم يدخل بشكل مكشوف في حمى الصراع الدائر نتيجة عطف باشا صيدا على الأمير منصور . توجه الأمير

١٤) ولد الأمير بشير الثاني سنة ١٧٦٨ . الناشر .

يوسف صوب باشا دمشق بالهدايا والرجاءات ، وبواسطته عينه باشا طرابلس حاكماً على سنجق جبيل ، الذي كان تابعاً كالسابق لباشا طرابلس ، على الرغم من أنه كان يدخل أغلب الأوقات تحت إدارة الأمير اللبناني الذي كان يدفع الجزية إلى خزينة طرابلس .

في سنجق جبيل ، وأكثرية سكانه من المسيحيين ، تمكن الأمير يوسف من إخضاع مشايخ آل حمادة المتاولة الذين أثاروا كره الشعب لهم لعنفهم ومضايقاتهم المستمرة ، وبذلك أمن لنفسه دخلاً جيداً وكسب محبة وتأييد المسيحيين في سنجقه وفي كل لبنان . بدوره ، الشيخ علي جنبلاط ، وأكثرية معتمديه من المسيحيين ، كان يرتاح ويطمئن للأمير يوسف : وعندما أحس الأمير منصور بنجاحات الأمير يوسف على الصعيد الشعبي : محبة المسيحيين له وصداقته مع الجنبلاطيين ، عمد إلى إثارة الخلاف اليزبكي الجنبلاطي ، الشيخ علي جنبلاط في رده ، أثار على الأمير الحاكم أخاه الصغير الأمير يونس واحتل معه دير القمر [١٥] . وبالرغم من تمكن المشايخ بعد عام كامل من إجراء مصالحه في لبنان ، إلا أن شهابيي حاصبيا ظلوا في الوقت يتذابحون الأخ مع أخيه .

نقطع إلى حين حديثنا الرتيب ، وننشغل بالحوادث التي كانت سوريا مسرحاً لها في عهد ظاهر العمر ، شيخ الجليل ، وعلي بك حاكم مصر اللذين كانا يفكران بمصائر جديدة لهذا الجزء من الشرق في القسم الثاني من القرن الثامن عشر . وإنما يجب أن نلقي قبلاً نظرة سريعة على الجزيرة العربية ومصر ، لأن مصير سوريا في هذا الوقت كان متعلقاً وإلى حد كبير بالحوادث الهامة في المناطق المجاورة .

خربت الجزيرة العربية على يد الوهابيين . وتفصيل ذلك ، أنه ظهر فيها في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقيه الشريعة الإسلامية محمد بن عبد الوهاب الذي قرر إصلاح الدين الإسلامي ، كما سبق وحصل مثل ذلك في الغرب . رفض محمد بن عبد الوهاب كل التقاليد والأباطيل والتقليد الأعمى للخليفة ، الذي وإن كان خليفة للنبي صلعم فلا يجوز تقليده عشوائياً كما النبي صلعم ، لأن النبي صلعم فقيهاً ملهماً من الأعلى . اقتصرت المبادىء الوهابية على عبادة الله وحده ، وعلى رفضها كل الطقوس ما عدا الصلاة وكل القوانين ما عدا تلك التي تمنع الفساد . وقد أجّج هذا المصلح خيالات وطموحات القبائل العربية ، الحاضرة دائماً ، كما في زمن محمد صلعم لنشر دعوتها بالسيف . إلا أن هذا المصلح الشبيه بسابقيه من المصلحين الألمان ، لم يكن يتمتع بمواهب حربية ، فتولى الأمير ابن سعود

---

(١٥) سنة ١٧٦٥ . الناشر .

قيادة الفئة الجديدة وفق مبادىء مصلح الشرق الكبير (محمد بن عبد الوهاب) [١٦] .

اشتعلت الجزيرة العربية كلها حرباً : القبائل الرحل ، أمراء اليمن ، إمام مسقط ، شريف مكة ، اشتركوا جميعاً في هذا الصراع ، هذا مع وذلك ضد التعاليم الجديدة . وظلت الجزيرة طوال قرن من الزمن تتدفأ بالدم والنار ، كما حصل في ألمانيا في القرن السادس عشر . مزارات المسلمين في مكة والمدينة ، ضريح ابني علي (ع) في كلابلاء ، قرب بغداد ، مزارات الفرس المقدسة ، كلها رفست ونهبت من قبل المصلحين الشرسين [١٧] .

طريق مكة أقفلت في وجه قوافل الحجاج . الباشاوات الأتراك الذين كانوا يحكمون بعض نقاط في شبه الجزيرة العربية طردوا أو هربوا . اضطرابات الجزيرة العربية هذه لاقت صدى لدى القبائل الهائمة في صحارى سوريا ومصر ، فأصبح البدو يشتمون الباشاوات وحكم السلطان . ليس هذا وحسب ، ففي سنة ١٧٥٧ م / ١١٧٠ هـ تعرضت قافلة من ٦٠ ألف حاج مسلم لهجوم البدو على الطريق من دمشق إلى مكة .

---

(١٦) محمد بن سعود ، سنوات حكمه ١٧٤٧ ـ ١٧٦٥ . أمير نجد كان مركزه في الظهران ، اتبع مذهب ابن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٨٧) ، واتخذ الوهابية ديناً رسمياً لامارته . وخاض تحت بيرقها حروبه من أجل ضم أراضي العربية إلى املاكه. الناشر .

(١٧) ها كم تعداد ما استولى عليه الوهابيون من ضريح الحسين وحده في كربلاء . كان ذلك في نيسان سنة ١٨٠١ . ونلتزم هنا بالترتيب الزمني فمن المعروف أن اضطرابات الوهابيين استمرت تقريباً حتى وقتنا الحاضر :

- ١٢ سيفاً مرصعاً بالأحجار الكريمة وجدوه حول الضريح .
- لؤلؤة واحدة بحجم بيضة حمام .
- عدد من الأوعية والمصابيح والأواني الفضية والذهبية .
- صفيحة من الذهب الذي كان يغطي الجدران .
- أعداد من السجاد العجمي الثمين .
- ٥٠٠ صفيحة نحاسية مطلية بالذهب كانت مهيأة لتزيين القبة .
- سلع فارسية وهندية أكثر من أن تعد (كان هذا في نفس يوم عيد الأضحى ، حيث تؤم كربلاء جموع غفيرة) .
- ٤٠٠٠ شال كشمير .
- ٢٠٠٠ سيف .
- كثير من الجواري السود والعباسيات .
- ٦٠٠٠ دوبلون (عملة ذهبية إسبانية . الدوبلون يساوي ٢١ روبل فضي) ، ٧٥٠ ألف (فلوران هولندي) ، ١٦٠ ألف قرش تركي . (القرش بـ ٥٠ روبل فضي) ٦٠ ألف تومان فارسي (التومان بـ ٣٧٣ روبل فضي) ، ٢٥٠ ألف تعريفة ، ٤ آلاف روبية (الروبية بروبلين فضيين) .
- عدد كبير من أحجار المرجان ، الزمرد ، اللؤلؤ وغير ذلك من الأحجار الثمينة .

استمر النهب ثمانية ساعات فقط ، ويؤكد بعض المطلعين بأن الأعراب قتلوا أثناء الفوضى الحارس الذي كان مسؤولاً عن مخابىء الضريح السرية ، وعلى هذا لم ينجح المهاجمون في الوصول إلى كل الدهاليز التي تحوي الكثير من الكنوز .

المخمل هذا الغطاء المقدس الذي كان يرسله الخليفة كل عام إلى الكعبة ، أصبح غنيمة البدو ، بالاضافة إلى الثروات الأخرى التي كانت مع القافلة كونها الصلة التجارية آنذاك بين سوريا والجزيرة العربية . مات الحجاج ، قسم قتله رماح البدو ، والقسم الآخر مات من الجوع والعطش ، نفسها السلطانة وليدة أم عثمان الثالث كانت مع القافلة وقد ماتت من الخوف (١٨) .

كادت هذه الكارثة أن تولد عصياناً في القسطنطينية ، عشية تتويج مصطفى الثالث . أما لدى القبائل العربية في سوريا فقد تركت انطباعاً يتنافى ومصالح الحكومة التركية ، وسخرت من فكرة القدرة المطلقة للسلاطين الذين تلاعب بهم خيالو الصحارى والقبائل الشرسة للحجاز واليمن .

في مصر كان يهدر المماليك منطقة من أغنى مناطق الخلافة ، وطن الفراعنة والبطالسة الكلاسيكي ، كانت تظهر للعالم منذ عدة مئات من السنين بمنظر غريب : الخمسة أو ستة ملايين من أحفاد المصريين القدماء (الاقباط) ، ومن العرب الفاتحين ، وحشد من الرق الخاضعين الذين يحملهم التجار من القفقاس كل عام ، يبيعونهم في أسواق القسطنطينية ودمشق والقاهرة ، من هذا الخليط تألف عسكر من الأشجع في العالم ، استطاع أن يقبض على مصر كالطريدة ، مع أخلاقيات وقواعد الفروسية ، التي كانت أبجديتها وعلمها نبراس وحصن سوق الرقيق التجاري .

أول من وضع اللبنة الأولى في تشكيل عسكر المماليك هم الخلفاء الفاطميون ، إذ أن الصراعات الداخلية في الاسلام ، المقسوم إلى خلافتين على شواطىء دجلة والنيل أجبرت حكام مصر الفاطميين على التفتيش عن حماة لهم بين عائلات القفقاس الشجاعة ، حيث كان يحمل الرقيق ، منذ القدم إلى بلاطات مختلفة . وقد استطاع هؤلاء أخيراً ، ومع الأيوبيين ، خلع الخليفة الأخير من ذرية صلاح الدين (مالك الأشرف

---

(١٨) البعض يرجح هذه الحادثة المشؤومة إلى حزازات السراي . كزليار آغا ، رئيس الغلمان أبدل أسعد باشا العظم والي دمشق القدير ، بأحد الباشاوات المقربين اليه وكلفه قيادة القافلة ، لم يساير البدو هذا التشكيل الجديد فكان ما كان . وحتى الآن لا تزال بعض الروايات الخرافية عن مسروقات البدو تتناقل بشكل ملفت . ومنها هذه الخرافة الطريفة : بين غنائم البدو كان هناك كمية من اللؤلؤ ، وقد ظنوها لجهلهم أرزاً . فراحوا يطبخون منها منسفاً استحال عليهم مضغه . أخيراً عرضوا مشكلتهم على بعض تجار دمشق الذين كانوا يترددون على مخيمات البدو بهدف المتاجرة . فعرض التجار على البدو مقايضتهم الأرز العديم الفائدة ، بنوع أرز آخر يستطيعون أن يحضروا منه مهلبية ممتازة . وبعد عودتهم إلى دمشق تقاسم التجار غنيمتهم (اللقطة) . الأسفار العربية التي تردد هذه الواقعة مع إضافات وتبهيرات عديدة ، تضيف أن أحفاد هؤلاء التجار يعرفون منذ ذلك الوقت بالجناوي (أي اللؤلؤي) .

موسى) وتنصيب أنفسهم مكانه على العرش المصري .

قبل الفتح العثماني حكمت مصر وسوريا سلالة المماليك الشركسية . وحدهم المماليك بقوا أوفياء لسلطانهم قانصوه الغوري (١٩) في الوقت الذي كان فيه الأمراء السوريون يخونونه واحداً بعد الآخر ، حيث كان يتقرر مصير هذه البلدان في معركة مرج دابق قرب حلب ١٥١٦ . وعندما كان الفاتح يتابع إخضاع سوريا ، انتخب مماليك القاهرة من وسطهم طومان باي سلطاناً خلفاً لسلطانهم القتيل ، وتهيأوا للدفاع عن مصر ناسبين نجاحات سليم الأول ليس لشجاعة العثمانيين أو كفاءتهم القتالية ، وإنما لفعل المدافع التي امتلكوها والتي كان المماليك يسمونها باحتقار مثل آخر فرسان الغرب ، سلاح الضعفاء .

في معاركهم عند حدود مصر في غزة وحول القاهرة ، فعل المماليك عجائب الشجاعة والاقدام ، لكن خيانة المسنين من باكواتهم سلمت مصر للأتراك . سقط منهم ٢٥ ألف قتيل على مشارف القاهرة(٢٠) . آلاف أخرى قتلها سليم عندما سقطت العاصمة، وبعدما فقدت البقية الباقية منهم كلياً ، الأمل بالنجاة من السيف العثماني . حاربت بثبات إلى جانب سلطانها التعيس (٢١) ، الذي ختم السيطرة الشركسية على ضفاف النيل ، بعد صراع يائس ببكائية مؤثرة محفورة على حجر الأهرام الخالد (٢٢) .

---

(١٩) سلطان المماليك (١٥٠٠ ـ ١٥١٦) قتل في مواجهة العثمانيين في معركة مرج دابق ٢٤ آب ١٥١٦ ولأنه حاكم حلب خير ـ بك وحاكم دمشق غزالي ـ بك انتقلوا إلى صف السلطان العثماني سليم الأول . كذلك انتقل إلى صفوف الأتراك في هذه المعركة فخر الدين المعني الأول . الناشر .

(٢٠) جرت معركة القاهرة في ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ . الناشر .

(٢١) شنق الأتراك السلطان طومان باي في نيسان ١٥١٧ . الناشر .

(٢٢) الحادثة التالية التي أرويها وقعت أثناء حرب سليم في مصر وقد أخذناها عن تاريخ غامير العثماني ، وهي لوحة حية تشهد على أخلاقية المماليك وفروسيتهم الشرقية . في معركة القاهرة أقسم السلطان المملوكي طومان باي مع اثنين من قواده علم بك وكرد بك ، على قتل السلطان العثماني سليم . فانطلقوا إلى حيث ترفرف الراية العثمانية ولكنهم أخطأوا هدفهم فكان الضحية الصدر الأعظم سنان باشا فقد ظنوه السلطان . بعد المعركة مثل كرد بك أمام سليم طوعاً وبعد أن استحصل على ضمان بالعفو . استقبله السلطان المحاط بكل أبهة «أيها القائد الشهير ، ماذا حدث لشجاعتكم» قال السلطان سليم «هي معي» أجاب القائد المملوكي ، وراح يتكلم عن عدالة قضيته ويعلي من شأن شجاعة المماليك . وقد أخبر هذا القائد بأن مغربياً أحضر من فينيسيا بندقية للمرة الأولى أيام السلطان أشرف ، وقد رفض يومها السلطان والبكوات هذا الاختراع الذي لا يليق بالشجعان أتباع الرسول الذي خلف لشعبه ، السيف والترس . وقد تنبأ المغربي يومها بزوال المملكة المصرية بالقنابل والرصاص . وهكذا صدقت النبوءة ووقع المقدر ، فلكل بداية نهاية وحياة الملك محدودة . شعر السلطان الثمل نصراً وسعادةً بالاهانة من فلسفة المملوك . «أنا لم أقف أمامك أسيراً ولا أخاف غضبك ، قال كرد بك ، إليك القرآن الذي أرسلته لي ضماناً لكلمتك» ثم راح يصب غضبه على أحد الحاضرين خيربك ، ناصحاً السلطان بشنق هذا الخائن ، كي لا يذهب معه سوية إلى الجحيم . «كنت أريد أن أعفو عنك ـ صرح سليم خارجاً عن =

غزالي بك وخير بك ، وهما اللذان أوقعا بخيانتهما مصر في أيـدي السلطان سليم ، كوفئا من قبل الأتراك . عين الأول حاكماً في سوريا والثاني في مصر . في سوريا شكلت النـزاعات والعـداوات العائليـة والمحلية ، بـين القبـائـل الجبليـة القـاسيـة ، والأمـراء والبلاطات المضطربة ، سلاح السياسة التركية في هذه المنطقة المفتحة ، ومفتاح تعاملها مع القوى السياسية المحلية التي خضعت للأتراك بطيبة خاطر .

في مصر بعد الفتح العثماني لم يتأخر المماليك في أن يصبحوا من جديد حكاماً فعليين لمصر ، محاصرين سلطة الباشاوات الأتراك في محيط القاهرة حيث كانت ترابط حامية من ٧ أفواج من الانكشارية . وهذا يعود إلى طبيعة المجتمع المصري الذي كان الفـلاحون فيه يعتقدون وجود أرستقراطية محلية ، أما مشايخ القاهرة ، فهم مشغولون كما أجدادهم وآباؤهم ، بتأويل وتفسير القرآن ودراسة دقائق الشريعة . فمن الضروري إذن والحـال هذه ، جمع جيش وبلاط من الخارج ، من أجل إدارة مجتمع هذه البقعة . وهكذا عاد المماليك إلى سيطرتهم السابقة مثلما كانوا قبل الفتح العثماني مع اختلاف في أن السيف المملوكي يسيطر على مصر ليس تحت سلطة عبد منتخب من بينهم كالسابق ، وإنما تحت سيطرة اسمية لشبح السلطان(ممثله) الذي لم يكن يملك في هذا البشليك البعيد من تأثير، سوى أن يوقع بين المماليك ويسلح أحدهم على الآخر .

ازداد عدد المماليك تحت الحكم التركي حتى ٢٥ ألفاً ، مع محافظتهم عـلى تركيبتهم الداخلية إذ كانوا تحت قيادة ٢٤ بك ، يدير كل واحد منهم سنجقاً مصرياً على أسـاس الحق الاقـطاعي ، وكل سنجق لـه شرطتـه وميلشياه ، المنصب الأول فيهـا من نصيب شركسي ذي عرق صافٍ ، كان البك قد اشتراه . وعند موت البك كانت شرطته ، أو كما يسمى هنا بيته ، تنتخب خلفاً له ، ليس ولداً من أولاده ، بل واحداً من الـوسط المملوكي ، أي من وسط الرقيق المشترى . تجدر الإشارة هنا إلى أن المماليك في سوريا كما في مصر لم يتركوا نسلاً بعدهم . فيض الحياة عند القبائل القفقازية تدفق على ضفاف النيل خلال عدة قرون من نسغ مآثرهم الروسية والرومنطيقية ، إلا أن هذا العود الغض من الجبال الشمالية وحسب قوانين الطبيعة لم يكن ليتأقلم مع جو إفريقيا الحارق . أولاد المماليك من المصريات ، من سبايا العباسيين ، أو من الشركسيات ، والمـولودون عـلى

— ضوره ـ ورفع مقامك إلى مصاف باكاواتي . لكن من يقف أمام السلطان دون وجل لا تلحقه الرحمة» . لا قدر الله أن أكون من أتباعك . أجاب كرد بك الذي لا يعرف الخوف . وفي فورة غضبه دعا السلطان الجلادين . وتحت سيوفهم قال المملوك خير بك : «أيها الخائن . قدم رأسي المضرج بالدماء إلى زوجتك لتكافأ بالخيانة في حرمك» .

ضفاف النيل لم يعيشوا أبداً تقريباً (٢٣) . هذه هي الظاهرة الوحيدة في العالم . خمسة ملايين من الجنود محاربون ، فتيان مشرقون ، وعلى امتداد ثمانية قرون في المنطقة نفسها ، ثم يمضون كالظل بلا أثر ، دون أن يتركوا نسلاً بعدهم . هذه الظاهرة تتعلق بدون شك بالتركيبة السياسية للمماليك ، وبالحقوق العائلية التي يقدمها البك لرقيقه .

لا يمكن لمصر أن تستقر أبداً في ظل إدارة كهذه ، ففي القسم الثاني من القرن الثامن عشر ، وبعد نجاحات الروس في بوغ (Boug) ودنستر (Dnester) وما وراء الدوناي (Dounai) وظهور الأسطول «الشمساني» في الأرخبيل اليوناني ، اهتزت الأمبراطورية العثمانية حتى العظم ، وكادت مصر وسوريا والجزيرة العربية أن تنفصل عن السلطة العثمانية ، وتنبعث من جديد السلالة الشركسية المستقلة على ضفاف النيل . علي بك ، رئيس بيت مملوكي قوي بلقب أمير أو قائد جيش أو شيخ البلاد ، استطاع الحصول على رضى الباب العالي بعد أن قدم له عن طريق القوة أو الغدر ، وبرضى من حمزة باشا ، رؤوس عدد من منافسيه من بكوات مصر المماليك الذين كانوا قد حجزوا الباشا في القلعة ووضعوا حراسة عليه (كان هذا سنة ١١٨٠ هـ [١٧٦٦ ـ ٦٧ م] .

بعد أن قوي في مصر ، وضاعف عدد مماليكه الخاصين ، الذين أوكل إليهم مهمات الإدارة في سناجق مصر ، لم يتأخر علي بك الكبير في إعلان نواياه ، فما أن اختلف مع شريف مكة ، حيث كان يقود المؤمنين المصريين بصفة أمير حج (٢٤) حتى أرسل مملوكه محمد بك أبي الذهب (٢٥) إلى الجزيرة العربية ، فخلع الشريف ونصب آخر مكانه . ثم أنه أقدم على طرد الباشا المرسل من قبل الباب العالي إلى مصر ، ووضع ضباطه في الانكشارية وشكل منهم حامية القلعة . نقش عملة باسمه وحصر في يديه كل حقوق السلطة العليا ، عدا ذكر اسمه في المساجد (٢٦) . وبعد ترتيب وضعه الداخلي ، وبعد انتصارات خارجية في حملته الاستكشافية إلى الجزيرة العربية ، إذ أن قواته احتلت جدة

(٢٣) يوجد في سوريا عائلة بكوات واحدة تعود بأصلها إلى المماليك ، وتقيم في جبال نابلس ، حيث يتناسب مناخها ومناخ القفقاس ، أثناء ترحالي في مصر التقيت باثنين أو ثلاثة من المماليك الطاعنين في السن . عندما سألتهم عما حدث لأولاد المماليك ، شرحوا لي أن أولادهم كانوا يموتون في المهد .

(٢٤) أمير الحج . لقب يمنح لعريف قافلة الحجاج المسلمين إلى مكة ، وهي قوافل تتجه سنوياً .

(٢٥) أبو الذهب مملوك أعطي هذا اللقب الضخم لأنه وزع على رجاله الذهب نقوداً عندما منح سنجقاً وليس فضة كما تقضي العادة . عند العرب تعطى هذه الألقاب الفخمة حسب المميزات الأخلاقية والجسدية لكل شخص . من يتميز بمنخاره ، بلحيته أو بحردبته يسمونه أبو المنخار ، أبو اللحية . . . الأخير من الشهابيين في لبنان الأمير بشير القاسم ، سمي بأبي طحين لأنه أنشأ المطاحن في أملاكه .

(٢٦) سنة ١٧٦٨ . الناشر .

على البحر الأحمر واعترفت كل بلاد اليمن بسلطته ، بدأ علي بك ينتظر المناسبة التي تسمح له بالتدخل في شؤون سوريا لإخضاعها ، وهي المنطقة التي تعتبر موقعاً متقدماً لحكام مصر . وبدورها لم تتأخر هذه «الفرصة بالسنوح» نتيجة الاختلال الداخلي في توازنات هذه البقعة .

كان الشيخ ظاهر العمر وهو من بيت أبي زيدان العريق ، يمد سلطته تدريجياً على الجليل. عند موت والده الذي عينه الأمراء اللبنانيون كما سبق وذكرنا ، شيخاً على صفد ، كان ظاهر ، في أول أعوام القرن الثامن عشر ، في السن التي يبدأ فيها أولاد العرب تعلم القرآن وفهم دقائقه إضافة إلى ركوب الخيل بالطبع ، أما هو فكان مجبراً على الدفاع عن إرث أبيه من دسائس الأعمام ومؤامرات الباشاوات . لقد قاسى الشيخ ظاهر باكراً أول دروس التجربة ، وصارع أعداءه في الداخل والخارج ، بنجاح تارة وطوراً بإخفاق. صمد في قصره الحصين، صفد، أمام حصارات باشا دمشق . قتل منافسيه واحداً بعد الآخر . حصل على ثقة القبائل المحيطة ، عقد معها التحالفات . ثم أنه خلال ٤٠ أو ٥٠ سنة هيأ بدأب وصبر عناصر الميدان السياسي الحافل ، الذي ظهر عليه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد أتقن علم الادارة واغتنى بتجربة سنوات طويلة ، دون أن يمنعه التقدم في السن ، من أن يلعب دوره بفروسية ونشاط الفتوة .

حوالى سنة ١٧٥٠ احتل عكا . عكا القلعة التي أنهى الصليبيون وراء جدرانها وبشكل معيب سلطانهم على سوريا ، يوم دك حصونها حتى الأساس سنة ١٢٩١ السلطان المصري خليل ، كانت في تلك الفترة ضيعة عربية فقيرة دون ميناء أو تحصينات، السهل الغني المحيط بخليجها الواسع من الرأس الأبيض (الناقورة) [٢٧] حتى الكرمل كان عبارة عن صحراء من المستنقعات ، إذ أن ساكنيه تعودوا تحت حكم المماليك والباشاوات الاختباء في الجبال وهناك راح يجد بصعوبة بقايا الأرض الصالحة للزراعة ، المحمية بين الصخور المنيعة من هجمات البدو المفترسين ومن جباة الضرائب الذين ليسوا أقل قسوة ووحشية . كانت عكا القرية المنسية ، والتي تخلى عنها باشا صيدا لقاء أموال ، ذات أهمية مزدوجة بالنسبة للشيخ : نقطة حربية على الساحل السوري ، ومركز تجاري يصله بالبحر . ومن جهة ثانية كانت علاقات ظاهر العمر الشخصية مع قبائل بدو ما وراء الأردن قد حققت أماني الإقليم ، لأنه كان قد ضمن الجباية من هذه

---

(٢٧) يرتكب بازيلي خطأ لعدم دقته : الرأس الأبيض ورأس الناقورة رأسان مختلفان يقع الأول شمالي الرأس الثاني . الناشر .

السناجق ، وهذا ما يمنع حسب النظام التركي أي طرف آخر أن ينهب السكان باسم الباشا تحت حجة جمع الأتاوات .

الهدوء والأمان والعدالة في سناجق ظاهر جذبت المزارعين من قبرص ، حيث كان يستبد كور باشا ، جاء يونانيون وأنشأوا تلك البساتين والحدائق التي لا تزال تغطي سهل عكا . ازدهرت الزراعة في هذه الأرض الطيبة ، وتبعها ازدهار التجارة التي وجدت في عكا مكاناً أميناً . تميز ظاهر بتسامحه الديني ، اشتبه بأمر علاقته مع بوارج مالطه (المقصود القراصنة) ، وقد ادعى أنهم كانوا يدخلون عكا عمداً ليبيعوا فيها غنائمهم ، من المؤكد أن البدو الذين سلبوا سنة ١٧٥٧ قافلة الحجاج ، باعوا غنائمهم المسروقة بكامل حريتهم في أسواق عكا . الباب العالي نفسه استعان بظاهر لاستعادة المحمل المسروق . مداخيل الشيخ كانت تتضاعف باستمرار وهذا ما مكنه ولفترة طويلة من أن يشتري ، إن لم نقل عطف ، بل تساهل باشا صيدا ، الذي كان ينظر من بين أصابعه إلى مشاريع ظاهر ، ويتغاضى عن تحصين المدينة بخندق وأبراج من ناحيتي البحر واليابسة ، وعن بناء قصر منيع حصين . وهنا نقول إن التحصينات التي كان مقدراً لها أن تحمي سوريا من الفرنسيين تشاد الآن مع ظاهر .

ازدياد إمكانيات ظاهر المادية وإرساله الذهب في الأوقات المناسبة إلى العاصمة ، مكناه من التحرر من مسايرة الباشاوات المملة والارتباط مباشرة بالباب العالي ، بعد أن ألحقت به سناجق عكا وصيدا وطبريا وكل الجليل . في تلك الأثناء لم تستطع قبائل المتاولة القوية الشكيمة والقاطنة في صور وذيول لبنان الجنوبي ، أن تتعايش لا مع الباشاوات ولا مع جيرانها اللبنانيين . شيخ هذه القبائل كان ناصيف النصار ، قوي ، قادر يملك أراض غنية وعدداً من الحصون ، وكان باستطاعته أن يدفع إلى الميدان عدة آلاف من أميز الفرسان . حذا ظاهر للحصول على هدفه المنشود ، حذو الأمير فخر الدين ، إذ رأى أن ائتلافاً عاماً للقبائل العربية المتاخمة لأملاكه يساعده في تأسيس دولة مستقلة ، وعلى هذا عقد حلفاً قوياً مع المتاولة واشترط على الباشا أن يدفع عنهم الضريبة ، وبذلك اتسعت دائرة سيطرته بعد أن أقام علاقات حسنة مع قبائل الصحراء .

فطن الباب العالي بغريزته لنوايا ظاهر الشجاعة ، وقد علمته التجارب في مثل هذه الحالات أن يظهر العطف ما لم يحن وقت العقاب ، الذي سيطال ، وبطرق السياسة الشرقية الخفية ، جميع الولاة العاصين إن عاجلاً أم آجلاً . أوقات الباب العالي كانت عصيبة آنذاك : جيش الانكشارية كان يعلن العصيان أحياناً ، وأحياناً أخرى كان على

الأمبراطورية منازلة الجيران الشماليين . أعطى الباب العالي لظاهر ، كما أعطى غيره من الولاة ، فرصة أن يطور مستوى معيشة البلد الذي يديره ، وأن يخفف عن القبائل جور الباشاوات وأن يبني الحصون ويجني الثروات التي ستصب ولا شك في خزينة السلطان يوماً ما ، كما تذهب مياه النيل إلى البحر بعد فيضانه المخصب للأرض .

كان الباب العالي يراقب بصبر ، وكان عملاؤه يعملون في الظلام . أولاد الشيخ ظاهر العمر ، كانوا قد سئموا الخضوع للشيخ العجوز ، فراحوا ينتظرون بفارغ الصبر موته ليقتسموا فيما بينهم السلطة والثروة، وكانوا ذوي طبائع عنيفة تارة يتقاتلون فيما بينهم وطوراً يعتصبون ضد الأب . هذه أحوال ظاهر عندما جاء عثمان باشا والياً على دمشق مع تفويض على كل سوريا الجنوبية . بشاليك صيدا وطرابلس أعطيت لأولاده . هذا الترتيب الجديد أثار قلق الشيخ ، والواقع أنه تأكد بواسطة سعاته في العاصمة وفي مقر الباشاوات أن المهمة الأولى الموكلة لعثمان باشا كانت قتل الشيخ العجوز . فاستعجل المصالحة مع أبنائه ، ثم جهز كبيرهم علي ، المعروف بشجاعته ومعجزاته ، والذي كان عشية المصالحة يتبادل النار مع والده ، وانقض فجأة مع ٥٠٠ من خيالته على معسكر الباشا قرب نابلس . عثمان باشا نفسه نجا بأعجوبة من خيالة البدو العرب الذين شبعوا غنائماً .

هكذا افتتحت العمليات العدائية بين شيخ الجليل والأتراك . القبائل التي عانت كل مصائب تدخل الباشاوات في الأمور الداخلية ، أحست مع الشيخ الشجاع ، وكانت متأهبة للاتحاد معه ومساندته ، وهذا كاف لأن تسقط سوريا من حسابات السلطة التركية . إلا أن نزاعات الشهابيين العائلية أعطت مصائر هذه القبائل اتجاهاً آخر : الأمير منصور حاكم لبنان كان متعاطفاً مع ظاهر ، الأمير يوسف الذي كان ينتظر فرصة خلع عمه انحاز إلى الباشاوات . وهكذا ، أوقع عمه الأمير الحاكم منصور في الشبكة التي كان قد نصبها له منذ وقت طويل ، إذ وجد نفسه محكوماً بالوقوف مكتوف اليدين . بقي على ظاهر أن يختار أحد أمرين: إما أن يكون ضحية انتقام الباشاوات أو أن يتابع الحرب . كان يلزمه الحلفاء . في صراع الباشاوات الأتراك حياد القبائل ولامبالاتها لا يمكن أن تدوم في سوريا . لم يكن ظاهر يخشى جيوش الباشا ، إلا أنه كان يعلم أنه إذا لم يقف الجبليون إلى جانبه فسيقفون ضده لا محالة .

علاقة الأمراء اللبنانيين ببعضهم البعض جعلت ظاهر لا يفكر بأية إعانة من جانبهم ، كل فلسطين كل الجهة الجنوبية من بشليك دمشق كانت متعبة من مضايقة الباشاوات . فهم ظاهر هذا الوضع ، فاتجه بأبصاره جنوباً صوب علي بك الكبير ، وقد

باتت نوايا الأخير تجاه السلطنة معروفة ، ودعاه إلى سوريا واعداً إياه بإخضاع كل البقعة له . قبل علي بك دعوة ظاهر بترحاب وجهز بقيادة اسماعيل بك ، جيشاً من المماليك قوامه ١٠ آلاف محارب ، واحتل غزة والرملة في فلسطين ، في الوقت الذي كان فيه باشا دمشق يجمع الضرائب في أنحاء فلسطين ، فتراجع إلى دمشق بعد أنباء حملة المصريين ، حيث بدأ التحضير لرحلة إلى مكة مع قافلة الحجاج المؤمنين موكلاً أمر بشليكه لإرادة الله . أوفد ظاهر ابنه علياً لاستقبال المماليك وسار محتفياً بهم إلى عكا محتلاً كل النقاط الساحلية . ومن هناك ، مع ٢٠ ألفاً من الجيش الحليف انتقل إلى ما وراء الأردن لمنازلة عثمان باشا .

الشعور الديني لدى المماليك منعهم من مهاجمة الباشا أثناء توجهه في رسالته السامية ، كمعرف للقافلة وأمير للحج . أرسلوا نداء لعثمان للخروج من بين الحجاج ومقاتلتهم ، إلا أنه رفض مجيباً بأنه يقود المسلمين إلى مكة ، ومن يتجرأ ويهاجمه سيكون مسؤولاً أمام الله والخليفة . رفض القائد المملوكي بعد ذلك الإقدام على أية خطوة ولم يقبل اقتراح ظاهر باحتلال دمشق . ولكن السبب الفعلي لرفضه هذا ، كانت غيرته من الشيخ ظاهر ومن أولاده ، وأكثر ، كان منزعجاً من كونه تحت إمرتهم ، في الوقت الذي اعتاد فيه مماليك مصر منذ الطفولة احتقار العرب واعتبارهم قطيعاً من الرقيق . اشتكى ظاهر لعلي بك . فجهز الأخير إلى سوريا في العام التالي فيلقاً بقيادة محمد أبي الذهب (٤٠ ألف جندي) حيث انضم اليه فيلق اسماعيل بك (٢٠ ألف جندي) وقوة ظاهر ، وتقدمت كل هذه الجيوش باتجاه دمشق ، حيث استسلمت عاصمة سوريا لهم بعد أن أوقعوا هزيمة قاسية بجيوش عثمان باشا ـ وكان قد عاد حديثاً من الحج ـ ومعها جيوش أولاده حكام بشاليك صيدا وطرابلس [٢٨] . أعلن العفو في دمشق باسم علي بك ، واتهم عثمان باشا بقلة الشرف لمضايقته الشعب ولسلوكه في مكة . أما عن السلطان وسلطته فلم تذكر كلمة واحدة . الأمير اللبناني منصور أرسل الهدايا لمحمد بك وأعلن الولاء عن طيب خاطر .

وهكذا أخضع المصريون فلسطين وكل سوريا الجنوبية بدون جهد في ذلك الوقت ، كما في يومنا هذا ، ولم يبخل ظاهر كما رأينا في توظيف سلاحه لمصلحة الفاتح بشكل علني . تماماً كما عمل لاحقاً الأمير بشير لمصلحة إبراهيم باشا ، مع فارق يكمن في أن إنجاز علي بك هش غير متين ، ليس له مثل محمد علي ابناً يسلمه قيادة الجيش .

---

(٢٨) هذه الحوادث وقعت سنة ١٧٧١ . الناشر .

نجح اسماعيل بك في بعث الكره لدى علي بك ضد ظاهر العمر وأولاده خاصة . حجته الكبرى كانت أن هؤلاء المشايخ يجلسون على الصوفا في ديوان البك ، وبالبساطة الأبوية لطبائعهم العربية ، دون أن يضموا أرجلهم ، ويدخنون نراجيلهم دون أخذ الاذن بذلك . وهذا ما بعث لدى هؤلاء المماليك نظرة جديدة للأمور في سوريا : «القيام بحرب ضد الخليفة زندقة وكفر في الاسلام . صحيح أن السلطان مشغول الآن بحربه ضد الروس ، إلا أن غضبه سيطال العاصي علي بك إن عاجلاً أم آجلاً ، خاصة وأنه كان متهماً بعلاقاته مع الروسيا» (٢٩) . حكايا النراجيل وقلة حياء المشايخ أقلقت القواد المصريين ، وفي هذه الحالة ضبطهم «سرّا أمين» القادم من اسطمبول موفداً مكلفاً من السلطان بحمل هدايا هذا العام من اسطمبول إلى مكة . وقد استطاع هذا الأفندي الخبيث إقناع البكاوات المماليك بالرجوع فوراً مع جيوشهم إلى مصر واعداً إياهم بالسعي من أجلهم لدى الباب العالي . وبهذا أصاب هدفين بضربة واحدة : من ناحية خلص سوريا من ضيوفها الخطرين على الباب العالي ، ومن ناحية ثانية جعل الخيانة تلف علي بك في مصر نفسها .

ووسط ذهول عام ، وفي ليلة واحدة ، دار جيش المماليك المنتصر ، وألقى سيقانه للريح من دمشق إلى مصر . أدرك ظاهر هنا أن كل مخططاته قد فشلت بسبب خيانة البكاوات ، فتراجع إلى دياره في عكا ، خاصة وأن الباشا التركي بعد سقوط دمشق كان يستجمع قواه في حلب . والأمير يوسف على رأس ميليشيا جبيل يتهيأ للانضمام إليه ، لأنه ما دام العم قد وقف إلى جانب ظاهر والمصريين ، فإن ابن الأخ المعارض ، حسب قواعد السياسة الشهابية ، يفترض أن يتسلح لحساب الباشا . عاد عثمان باشا عودة المنتصر إلى دمشق ، عازياً تراجع البكوات المصريين إلى خوفهم من استعداداته ، دون أن ينسى وسط ذلك ، التنويه بمروءة الأمير الفتى يوسف الشهابي .

هنا أدرك الأمير منصور ، بعد عودة عثمان باشا إلى دمشق ، أنه لم يعد باستطاعته الحفاظ على سلطته ، بوجود منافس مثل ابن أخيه ، مدعوم من باشا منتصر ، فاقترح على الأمير يوسف أن يتولى إمارة الحكم مكانه . رفض يوسف في البداية لكي يسبر غور العواطف ويقيس ميزان القوى في لبنان . وفي النهاية ، وبطلب من أقاربه في حاصبيا ، ورضى المشايخ العام قبل اقتراح عمه منصور ، وتلقى من حاميه باشا دمشق قفطاناً تثبيتاً له حاكماً على لبنان . أما منصور فقد اعتكف في بيروت ، يلعن سراً ابن أخيه ، إلى أن

(٢٩) يدور الحديث هنا عن الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤ . الناشر .

تدخل أخيراً ، المشايخ ، أكثر المتضررين من نزاعات أمرائهم ، وأجروا مصالحة تزوج على أثرها الأمير يوسف من ابنة عمه منصور .

في هذه الأثناء ، كان علي بك مذهولاً من عودة مماليكه من سوريا ، التي كان يعدها آنذاك في رأس غنائمه . تذرع المماليك العائدون باختلاق الأكاذيب عن ظاهر ، حيث زعموا أن الشيخ نشر شباكه ليقتلهم بمجموعهم . ظاهر من ناحيته أرسل ابنه الأصغر عثمان لايضاح الأمور لدى علي بك ، محذراً إياه من خيانة بكواته عارضاً رأس ابنه عربون وفاء . محمد بك أبو الذهب ، وقد رأى العاصفة تتجمع فوق رأسه ، انفصل عن علي بك الكبير وقصد مصر العليا ، الصعيد ، مع من استماله إلى جانبه من المماليك والجيش بالمسايرة والمال . أرسل علي بك لتأديبه اسماعيل بك ، دون أن يفطن إلى مساهمة هذا الأخير في المؤامرة التي تحيط به (بعلي بك) من كل الجهات .

اجتمع القائدان الخائنان في مصر العليا وعادا زاحفين إلى القاهرة ، فلم يبق أمام علي بك إلا أن يهرب مع الأوفياء من مماليكه ، إلى شاطىء الأمان عند حليفه ظاهر العمر [٣٠] ، الذي استقبله بحفاوة وبقي له حتى في اليوم الأسود ، مستعداً مرة أخرى لتجربة مصيره .

لم يقف الحظ في وجه الشيخ العجوز حتى بعد رجوع المماليك إلى مصر ، إذ هجم كالفدائي على معسكر عثمان باشا عند بحيرة الحولة وراء وادي التيم ، ففرق وأغرق في المستنقعات أكراده واستولى على مدافعه ومتاعه . الباشا نفسه نجا بأعجوبة ، إذ عبر البحيرة سابحاً على أكتاف عبدين من عبيده . أخبار هذه المعركة نشرت الرعب عند باشا صيدا درويش بن عثمان باشا ، حيث كان جيرانه المتاولة يتهيأون للهجوم عليه فترك المدينة وراح يفتش عن ملجأ أمين عند الأمير يوسف الذي أرسل للدفاع عن صيدا وحمايتها من هجوم المتاولة المحتمل ، الشيخ علي جنبلاط على رأس ميليشيا العقال[٣١] .

في تلك الفترة كان أسطولنا يهدد تركيا في البحر المتوسط [٣٢] فاتصل علي بك وظاهر

---

(٣٠) نيسان ١٧٧٢ . الناشر .

(٣١) العقال ، طبقة خاصة من المشايخ الدروز ، تعرف وحدها أسرار المذهب الدرزي خلافاً لجماهير الشعب التي لا تهتم أبداً بالدين . الدين في هذه القبيلة حكر على العقال .

(٣٢) يقصد بازيلي حوادث الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤ ، عندما أرسلت كاترين الثانية أسطولا روسياً بقيادة أ. غ أرلوف من بحر البلطيق إلى البحر الأسود لمؤازرة الحركة المعادية للأتراك : حركات اليونانيين والسلافيين ، والقيام بعمليات ضد الأسطول التركي . وقد استطاع الأسطول الروسي بعد معركة تشيسمي Tchismé البحرية في ٢٨ حزيران ١٧٧٠ أن يؤمن رقابة كاملة على الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . قاعدة الأسطول الروسي الأساسية كانت ميناء =

بقيادته وأخبروها بما يدور على الشاطىء السوري[٣٣] الذي كان عدا العمليات العسكرية مناسباً جداً للأسطول من أجل الإمداد والمؤونة . ظهرت السفن الحربية الروسية أولاً في حيفا عند أقدام جبل الكرمل ، مقابل عكا ، ثم أخذت تساند العمليات العسكرية لجيش التحالف علي بك وظاهر[٣٤] المؤلف من ١٠ آلاف عسكري : ٧٠٠ من المماليك النخبة و١٠٠٠ من المشاة الأفارقة ، مغاربة علي بك ، والقوة الباقية : خيالة ظاهر ، الصفديون ومتاولة الشيخ الحليف ناصيف النصار . عثمان باشا من جهته ، وانطلاقاً من التكتيك التركي ، أقدم على تأليب الدروز ضد المتاولة ، فهاجم الأمير يوسف بنصيحة من عثمان وعلى رأس ٢٠ ألف من الجبليين بلاد المتاولة حارقاً الضياع والمزروعات ، ولم تنفع محاولات الشيخ علي ابن ظاهر العمر بإقناع الأمير اللبناني بالتخلف عن محالفة الأتراك ، وتولي شرف قيادة ائتلاف كل القوى الجبلية فيتخلص الجميع بالتالي من جور الباشاوات ، أنصار الأمير منصور ورغبة منهم بإضعاف الأمير يوسف والقضاء عليه حرضوه على متابعة العمليات العسكرية ليكرهه الشعب أكثر فأكثر ، وفي الوقت نفسه أشاروا للمتاولة بمهاجمة الأمير . وهكذا هاجم ٥٠٠ من المتاولة الشرسين حتى الوحشية ، عساكر الأمير في النبطية فوق صيدا . لم يستطع الدروز الصمود ولو للحظة ، خاصة وأنهم كانوا يحاربون لمصلحة الباشا رغماً عنهم ، فولوا هاربين باتجاه الجبال من ملاحقة المتاولة الذين أراقوا منهم دماءً كثيرة . الأمير يوسف عاد إلى دير القمر ملطخاً بعاره ، ١٥٠٠ أرملة «كرف من الغربان» حسب تعبير الأسفار العربية ملأوا سماء القمم اللبنانية بالزعيق واللعنات . أما العقّال الدروز الذين كانوا يحتلون عاصمة البشليك[٣٥] ، فقد تراجعوا من الخوف بعد سماعهم عن هزيمة الأمير .

= Aouso في جزيرة Paros ، ومن هناك كانت السفن الروسية تحاصر الأملاك التركية المتوسطية وتقضي على بقايا الأسطول التركي .

(٣٣) يسرد لوزنيان المقرب من علي بك ، بإسهاب وقائع المفاوضات التي جرت بين علي بك وقائد الأسطول الروسي أ. غ. أرلوف .

في بداية ١٧٧١ على وجه التقريب أرسل علي بك رسالة إلى القائد الروسي بواسطة يعقوب الأرمني عبر فيها عن رغبته بعقد تحالف مع أمبراطورة الروسيا للقيام بنضال مشترك ضد السلطان ، كذلك عرض عليه تقديم المساعدة بالحاجيات والأموال . أجاب القائد بأنه على استعداد تقديم المساعدة لعلي بك ، وبأنه سيعلم الأمبراطورة بأفكار القائد المصري .

مرة ثانية يرسل علي بك يعقوب الأرمني مع رسالة إلى القائد أورلوف في بداية ١٧٧٢ ، بعد أن هرب القائد المصري من مصر إلى فلسطين . وفي رسالته تلك يجدد مطالبة الأسطول الروسي بالمساعدة . الرسالة الأخيرة كانت في أيار وتشرين الأول ١٧٧٢ مع رجاءات حارة بالمساعدة (انظر «تاريخ استيلاء علي بك من الباب العالي» موسكو ١٧٨٩ . الناشر .

(٣٤) يعود دعم الأسطول الروسي لعمليات ظاهر إلى سنوات ١٧٧٢ ـ ١٧٧٣ . الناشر .

(٣٥) وقعت هذه الحوادث في خريف ١٧٧١ . الناشر .

فدخلها ظاهر وعين من قبله متسلماً ، واحداً من أشجع ضباطه الأفارقة : الدنغزلي .

لم يعرف الباب العالي قبلاً عاراً يعادل هذا العار ، ولم يجد ، وهنا المصيبة مخرجاً لأزماته . كل فترة حكم مصطفى الثالث حافلة بالمصائب : الانكشارية يعصون في العاصمة ، السنكي الروسية تحطم الدعامات الشمالية للأمبراطورية وتدمر الأسطول التركي ، اليونان تخرج عن الطاعة ، وفوق ذلك تأتي مصر والجزيرة العربية وسوريا لتلغي اعترافها بسيادة السلطنة .

مات عثمان باشا فخلفه عثمان آخر بلقب سرعسكر كل الناحية العربية ، ومهمته إحلال السلام في سوريا مهما كلف ذلك من أمر ، إن حرباً أو سلماً . ولكي تبدأ المفاوضات وجب أولاً احتلال صيدا ، وقد أوكل السرعسكر هذه المهمة إلى الأمير يوسف بعد أن أمده بجيش من عنده وبمدافع حصارية وميدانية وأحاط الأتراك والجبليون بصيدا (٣٦) واصطف جيشهم على طول الشاطىء من الناحية الشمالية ، إلا أن ظاهراً وحلفاءه وصلوا في أوانهم ، وأبدت جيوشهم ضروباً ليس من الشجاعة والإقدام وحسب بل ومن التكتيك والمناورة أيضاً . المدفعية التركية أثارت في البداية اضطراب المتاولة إلا أن المماليك زحفوا نحوها واستولوا عليها . كذلك وصلت في وقتها الفرقاطة الروسية . وفي النهاية هزم جيش الباشا ، وتراجع الدروز دون التفات إلى الوراء ، لكنهم وبعد وصولهم إلى وديانهم ومسالكهم الجبلية بدأوا بسلب فرق المشاة والخيالة الأتراك حلفاؤهم في المعركة والذين لم يصلوا إلى دمشق إلا بعد التعب والضنى .

في اليوم التالي ظهر الروس بأسطولهم مقابل شاطىء بيروت التي كانت تحت إمرة الشهابيين فقصفوها تأديباً للأمير يوسف ، ثم قاموا بإنزال عسكري ، ولم يتراجعوا إلا بعد مفاوضات مع الأمير الذي نزل من الحدث ، مسافة ٥ فراسخ عن بيروت عند أقدام الجبال اللبنانية ، انتهت باتفاق يأخذ بموجبه الروس تعويضات الحرب من الأمير (٣٧) .

---

(٣٦) في ربيع ١٧٧٢ . الناشر .

(٣٧) استجابة لنداء علي بك وطلبه النجدة ، أوصلت المراكب الروسية تحت إمرة ليوتنانت جنرال «ريزو» الدفعة الأولى من المساعدات إلى الشواطىء السورية في نيسان ـ حزيران ١٧٧٢ .

وصل أسطول ريزو المؤلف من ١٠ سفن في ٨ أيار ١٧٧٢ إلى دمياط ، أي في الوقت الذي كان فيه علي بك قد طلب من ريزو أن يسعف مدينة صيدا المحاصرة من قبل الأساطيل الخليفة والأمير يوسف . قبل وصولها إلى صيدا التقت السفن الروسية بفرقاطة تركية وأجبرتها على الفرار ، ثم تابع الأسطول المكلف «بطرد السفن الإحدى عشرة الراسية عند أسوار القلعة مع جيش الانزال والمدفعية ، ومن ثم قصف المعسكر التركي» وبالفعل تراجعت السفن التركية عن المينا ، وقصفت السفن الروسية المعسكر التركي الذي كان يهاجم في نفس الوقت من البر من قبل جيوش ظاهر . وفي النهاية تراجع الأتراك ومنوا بخسائر فادحة . =

عملية الأسطول الروسي الناجحة في بيروت أظهرت لباشا دمشق أهمية هذه النقطة التي تصبح المواصلات ، في حال فقدانها ، صعبة جداً بين بشليك دمشق والبحر ، خاصة وأن كل المدن السورية الساحلية الواقعة جنوب صيدا كانت قد أصبحت تحت إمرة ظاهر . ولكي ينتقم الأمير يوسف من عمه الأمير منصور ، والذي أقام بعد تنازله في بيروت ، وأخذ يتصرف كما لو كان في مقاطعته ، ولم يتوان أثناء المعركة السابقة عن مساعدة ظاهر والمتاولة ولو بشكل سري ، لكي ينتقم منه ، طرح على الباشا أن يرسل إلى بيروت حامية قوية بقيادة موثوق بها للدفاع عن المدينة ضد الروس ، فأرسل الباشا أحمد بك الجزار مع ٣٠٠ من نخبة المغاربة (٣٨) .

لننقل بعض الكلمات عن هذا الإنسان الذي ظهر شهاباً دموياً في أفق سوريا ، والمشهور في أوروبا بصموده في وجه نابوليون . إن بعض جوانب الحياة الشخصية لمثل هذا الصنف من البشر تعكس طبيعة المرحلة التاريخية والسياسية المعاصرة لهم ، أكثر من الأحداث نفسها ، والتي تمتنع تفاصيلها على الرصد التاريخي في دولة مثل تركيا . الجزار وعلي باشا التبلاني (٣٩) ، والآن محمد علي المصري ، يشكلون واجهة مراحل تاريخية وواجهة شعبهم ، ونخبة تلك الطبقة من الناس الذين بنوا ، في وقت من الأوقات مجد القبيلة العثمانية ثم حضروا لهدمها . مثل هذه الوجوه لا تظهر في ظل توجهات تركيا الحالية ، هل نضب نسغ الشجرة القوية التي كانت تحمل مثل هذه الثمار المخيفة ، أم أن الصدف التي كانت تتكشف عنهم أصبحت في يومنا هذا مستحيلة الحدوث ؟

أحمد باشا الجزار من أصل باشناقي، في السادسة عشر من عمره ، نجا هارباً إلى القسطنطينية من انتقام أقاربه لاستعماله العنف مع زوجة أخيه ، وهناك وفي حيرته وضياعه باع نفسه للتجار الذين كانوا يتاجرون برقيق القفقاز ، وهكذا دخل في خدمة مماليك أحد بكوات مصر ، الذي قتل لاحقاً من قبل البدو . جمع أحمد باشا كوكبة من أترابه وأخذ يقتل منتقماً من تقع عليه يده من البدو ، وقد استدرج بالحيلة مرة أكثر من

= بعد هذه العملية توجه الأسطول الروسي صوب بيروت ، متعقباً المراكب التركية التي تخلت عن شواطىء صيدا . وصلها في ٦ حزيران و٧ منه بدأ قصف المدينة . بعد القنابل الأولى ارسلوا من الحامية مفاوضاً ، فطلب «ريزو» فدية ، الجزية التي تدفعها المدينة سنوياً للسلطان . وبما أنه لم يحصل على جواب فوري فقد تابع حصاره . استسلمت الحامية في ١٢ حزيران . الأمير يوسف الذي كان إلى جانب الأتراك قبل أن يدفع الفدية . في ١٧ تموز أقلعت المفرزة وفي ١٩ تموز عادت إلى أوزا Aousa التواريخ الواردة أعلاه هي حسب التقويم القديم) . ملاحظة الناشر .

(٣٨) المغاربة هم كل القبائل الافريقية القاطنة إلى الغرب من مصر . شكل الباشاوات منهم فرقة خيالة ممتازة .

(٣٩) علي باشا التبلاني (تبدلاتي) (١٧٤١ - ١٨٢٢) إقطاعي كبير . حكم ابتداء من ١٧٨٨ بانيني وإبير وقسماً من منسّالي سنة ١٨٢٠ اعتمد على مساعدة اليونان في حركة تمرد ضد السلطان لكنه هزم . الناشر .

٧٠ بدوياً من ضمنهم بعض مشايخهم وذبحهم جميعاً . وبعد كل عملية قتل كان يهتف «ضحية أخرى ثأراً لدم سيدي عبد الله بك» . هذه الأعمال كانت تلاقي هوى لدى المماليك . فأمنوا للفتى أحمد الشهرة الواسعة في مصر وأعطوه لقب الجزار . علي بك تقبل الجزار المقدام في خدمته بعد أن قدم له رؤوس أربعة من مشايخ البدو المكروهين منه أشد الكره . وبواسطته تخلص علي بك ليس من أخصامه وحسب بل ومن مقربيه الخطرين أو خدمه الأمناء الذين ربما شكلوا مصدر إزعاج له بقلة أدبهم . وكمكافأة ثانية لخدماته هذه أعطي أحمد إضافة للقب الجزار لقب بك . المهمة الجديدة التي اعتذر الجزار لعلي بك عن عدم تنفيذها ، كانت رفضه قتل صالح بك ساعد علي بك الأول ومساعده على استلام السلطة في مصر ، وقد أراد علي بك قتله لأن الوقت برأيه قد حان للتخلص من هذا الحليف . حجة الجزار كانت أنه كان قد تآخى خلال إقامته في مصر مع صالح بك [٤٠] ، ولهذا فهو لن يغدر به الآن . تراجع علي بك وأخذ يمتدح الجزار على وفائه لأصدقائه مؤكداً أن اقتراح قتل صالح بك لم يكن للتنفيذ بل تجربة مدى إخلاص ووفاء الجزار لأصدقائه . ثم أن علي بك تأكد لاحقاً من أن الجزار لم يخف الأمر عن صالح بك ، بل إنه فاتحه بكل ما كان قد حصل ، وهكذا تقرر مصير الاثنين معاً .

وقع اختيار علي بك على محمد أبي الذهب ، المذكور سابقاً وكلفه بمهمة التخلص من الاثنين صالح بك وأحمد بك الجزار . فدعاهما محمد أبو الذهب إلى نزهة على ضفاف النيل من ناحية الأهرامات وهناك اصطنع خلافاً وقتل صالح ، الذي لم يكن يشك بما في الأمر فلم يجلب معه مماليكه . رأى الجزار كل ذلك من بعيد ، وقد وصل متأخراً لإنقاذ «أخيه صالح بك» . أبو الذهب لم يتجرأ ويهجم على الجزار ما دام الأخير يحمل سلاحاً ، فاستقبله بحفاوة ، جلسا على السجادة ، ودخنا الغليون ، وأبو الذهب يسرد وقائع الخلاف الذي أدى إلى الاقتتال فالقتل ، سحب سيفه من غمده ، وأخذ يفتخر ببولاذ سيفه الدمشقي ماسحاً إياه من الدم وأراد أن يقارنه بسيف الجزار ، في حيلة لتجريده من السلاح ، فأجابه الجزار ببرودة بأنه لن يسحب سيفه من غمده إلا لكي يقطع به رأساً ما ، بهذا انتهى اللقاء ، الجزار من ناحية ركب

---

(٤٠) توجد لدى اليونان والالبان والصرب وكذلك عند الشركس وغير هؤلاء من القبائل الشرقية ، عادة المؤاخاة . المسيحيون يرفقون ذلك ببعض الطقوس الدينية . المسلمون يتبادلون القمصان والسيوف . هذه القرابة الطوعية مقدسة تماماً مثل قرابة الدم . عند الشعب خاصة عند المسلمين ، قد تكون أكثر تقديساً من قرابة الدم . كان المماليك وهم المحرومون من الأهل والحسب والنسب يستبدلون يتمهم بالمؤاخاة .

حصانه باتجاه القاهرة ، وهناك تنكر سريعاً في ثياب مغربي وأبحر سراً إلى اسطمبول ناجياً من انتقام علي بك .

سئم الجزار المكوث في القسطنطينية ، فهو لم يجد ميداناً مناسباً له ، ولم يـر إمكانية أن يفتح لنفسه طريقاً في جمهرة سعاة العاصمة فاتجه نحو دمشق ، بعد مصر كانت سوريا قد أصبحت منطقة مناسبة لمثل هؤلاء الناس . تقبله باشا دمشق في خدمته بسرور وفي معركة صيدا تميز الجزار بقسوته وحاز شهرة جديدة ، وعندما بدأ الحديث عن معركة بيروت ضد الأسطول الروسي ، وقع الاختيار على الجزار للمساهمة في الدفاع عنها . الأمير يوسف تقبل الأمر بطيبة خاطر ، خاصة وأنه سبق أن استضاف الجزار في دير القمر (٤١) ، ويومها عرض محمد بك أبو الذهب على الأمير يوسف ، والجزار بضيافته ، ويعمل بخدمته ، مبلغ ١٠٠ ألف «تعريفة» مقابل رأس الجزار ، إلا أن الأمير لم يرض التفريط بواجبات الضيافة ، وسنرى فيما بعد كيف شكر الجزار مضيفه وحاميه .

ما ان تولى الجزار مدينة بيروت ، حتى بدأ بتحصين جدرانها وتجديد أبراجها التي هدمها الروس ، ولهذا فرض الجزية على السكان وهدم قصور الأمراء ليستعملها في تحصيناته . منع الجبليين من الظهور في المدينة ، وأباح لمغاربته القيام بغارات على الضواحي ، فكانوا ينهبون ويذبحون الجبليين دون شفقة أو رحمة . تنادى الأشرار والمشردون من كل الأنحاء وتراكضوا نحو الجزار فتضاعفت جمهرته من يوم لآخر ، حتى أصبحت خطرة على لبنان . عندها فقط أدرك الأمير يوسف غلطته ، إنما بعد فوات الأوان . كل شكاويه للباشا لم تلق أذناً صاغية ، إذ أن الجزار من ناحية كان قد اقترح على الباشا بأن تبقى المدينة تحت الإدارة المباشرة للباشوية .

خيانة الجزار دفعت الأمير يوسف إلى المصالحة مع ظاهر ، وهذا ما تمناه الدروز منذ وقت طويل : النزاعات العائلية بين الأمراء كانت سبباً للحروب ولتدخل الباشاوات في أمور لبنان . التقى الأمير يوسف مع الشيخ ظاهر في صور عند رأس العين ، ذلك البئر الطبيعي الذي أسماه الرحالة لسبب غير معروف سالومون . وهناك عقدوا تحالفاً ضد الباشاوات واتفاقاً يقضي بالتوجه من الأميرال الروسي بطلب لتحرير مدينة بيروت من الجزار . كان هذا سنة ١٧٧٢ م (٤٢) ، وبناء عليه ظهرت قطع من الأسطول

---

(٤١) سنة ١٧٧٠ . الناشر .

(٤٢) لم يدفع الأمير يوسف أية أتاوة إلى الباب العالي في الفترة الممتدة من ١٧٧٢ وحتى سقوط ظاهر عام ١٧٧٥ . الناشر .

الروسي تحت إمرة الكابتن كاجوكوف أمام كلأ بيروت [٤٣] . وبينما كانت قوات من الدروز والمتاولة تحاصر المدينة من ناحية اليابسة كانت الفرقاطة الروسية والسفن الصغيرة تقصف من البحر . استمر الحصار أربعة أشهر دافع الجزار مع كوكبته عن المدينة ببأس . ونتيجة القصف والإنزال على الشاطىء تحطمت كل البطاريات الساحلية واحتلت أبراج المدينة ، إلا أنه رغم ذلك لم يكن من وسيلة لأخذ المدينة دفعة واحدة ، لأن حامية المدينة ما زالت في مأمن بعيدة عن خطر القصف ، فالعمارات الداخلية الراسخة على قناطر متينة جداً ، نتيجة خواص حجر البناء نفسه ، والشوارع الضيقة الملتوية والمسقوفة بدورها بالقناطر ، كانت تشكل ملجأً يقي الحامية شر القصف . وبالرغم من تحضير الثغرات للدخول إلى المدينة ، إلا أن الميليشيا المؤلفة من السكان الأصليين لم ترض بأي شكل ، القيام بالهجوم حتى ولو كانت فرقة الإنزال الروسية في المقدمة . وبالطبع كان من المستحيل أن تفكر فرقة الإنزال أن تقوم وحدها بالهجوم . وفي النهاية اضطر المحاصرون أن يأكلوا النفايات ولحوم الكلاب . فكان أن استسلم الجزار وحملته البارجة الروسية بناء لطلبه لحضرة الشيخ ظاهر العمر في صيدا لأن الجزار لم يكن يثق بالأمير يوسف . سنلتقي مع الجزار مرة أخرى .

جمعت فرقتنا [الأسطول الروسي] غنائم كثيرة من الساحل السوري ، عدا بيروت التي لم يؤخذ منها سوى الغنائم الحربية فقط ، وهذا ما دفع الجبليين ، لقاء هذا الصنيع إلى إعطاء الفرقة ٣٠٠ ألف قرش ، حتى أن الأمير يوسف طلب انضواء كل شعبه تحت المواطنية الروسية ، طبعاً على أن تحرر الروسيا لبنان من الأتراك [٤٤] .

---

(٤٣) في ربيع ١٧٧٣ . الناشر .

(٤٤) كانت العمليات الحربية للأسطول الروسي على الشواطىء السورية قد تمت وفق التسلسل التالي : منذ ٢٠ تموز ١٧٧٢ وحتى ٩ آذار ١٧٧٣ كانت فترة سلام بين تركيا والروسيا . في نيسان ١٧٧٣ انتقلت قيادة الأسطول إلى الأميرال سبيرو دوق الذي أمر الكابتن كاجوكوف بالتوجه إلى الشواطىء المصرية - السورية ومساعدة علي بك وحلفاءه بناء على طلبهم وأرسل في الوقت نفسه الماجور فينويفتش إلى سوريا . في ١٢ حزيران التقى فينويفيتش في صور بملازم الحامية باوغارتين ، الذي كان بعد علي بك يتابع مع ظاهر المفاوضات باسم أ. غ. أورلوف وقد توصل إلى أن يعقد معه «اتفاقات صداقة مع الروسيا العظمى» . طلب ظاهر عبر الدنغزلي من فيتوتفيتش مساعدة الدروز في تحرير بيروت من الجزار . وبالفعل أرسل القائد الروسي سفينتين مع مراكب ظاهر العربية لحصار مدينة بيروت .

١٩ تموز اقتربت السفن وراحت تقصف المدينة تمهيداً لإنزال الجند النظامي المؤلف من ٧٨٧ ركيزتهم الأساسية البحارة المدفعيون الروس بالاضافة إلى الجند غير النظامي . كانت هذه القوات على التوالي تحت قيادة باوغارتين والماجور دوسي . وقد استطاعت هذه القوات بمساعدة جيش الأمير يوسف الذي تردد أولاً في مهاجمة المدينة وبمساعدة ظاهر الذي هزم قوات باشا حلب التي أرسلت لنجدة الجزار في بيروت . في ٢٢ أيلول قبل الجزار ترك بيروت على متن سفينة روسية . في ٢٩ =

ومهما يكن من أمر فإن قائد العمليات العسكرية الروسية في بيروت ، والتي تفيد الروايات الشعبية بأن اسمه ستيفان Stephan (٤٥) ترك انطباعاً جيداً لدى الرأي العام .

أسرع ظاهر وعلي بك بالعودة إلى فلسطين (٤٦) التي كانت قبائلها قد اعترفت بسلطة الشيخ عليها ، وبعد أن أمنا ظهيراً من الدروز في الناحية الشمالية ، بدأ بالتحضير لحملة على مصر ، إلا أن دسائس باشا دمشق أخرت الحملة ، إذ برزت الاضطرابات في فلسطين وتحديداً في نابلس ويافا ، فما كان من علي بك إلا أن حاصر يافا بمشاته وبدون مدفعية حصار ، وبالرغم من تعب المماليك من التسمر عند أسوارها طيلة ثمانية أشهر ، إلا أنها استسلمت في ربيع ١٧٧٣ (٤٧) . بعد سقوط يافا بدأ علي بك محادثات العودة مع بكاوات مصر المماليك ، ملوحاً بحملة على مصر مع حلفائه السوريين . وأمام كثرة أنصاره في أوساط المماليك والبكاوات داخل مصر ، وخوفاً من الثأر ، قبل محمد بك أبو الذهب مع بكاوات آخرين أن يكتبوا لعلي بك رسائل خضوع يعرضون فيها العودة وتسلم السلطة من جديد في مصر . أخذ علي بك الرسالة على محمل الجد ، ولم يدر أنه وقع في حيلة مدبرة ، فانطلق مع القليل من عساكره في طريق العودة ، دون أن يصغي لنصائح ظاهر بتوسيع جيشه المرافق وانتظار المساعدة الموعودة من الأسطول الروسي . وفي العريش لاقاه بكاوات مصر وعلى رأسهم أبو الذهب بكل التشريفات الممكنة . لكن مماليك أبي الذهب دبروا وعلى طريق صحراء السويس ، خلافاً مع مماليك علي بك وبدأوا بقتلهم أجمعين ، غير آبهين بأوامر سيدهم أبي الذهب بوقف القتال . نفسه علي بك الذي لم يشك حتى الآن ولو للحظة بأن في الأمر خيانة ، انطلق على ظهر حصانه نحو مماليكه لضبطهم وقد أصيب بجرح في فوضى الصدام . البكاوات المصريون تحلقوا حول حاكمهم وضيفهم مبدين كل الأسف والاعتذار . من الصعب هنا أن نحكم على أسفهم أكان

= أيلول وقعت الشروط التالية لتسليم بيروت : تنتقل المدينة إلى يد الأمير يوسف وتدخل حامية الجزار تحت إمرة ظاهر . دخل الروس المدينة التي سلمت إلى الدروز في اليوم التالي .

بقيت السفن الروسية عند الشواطىء السورية حتى كانون الثاني سنة ١٧٧٤ ، وفي بداية شباط عادت إلى قاعدتها في جزيرة باروس (التواريخ الواردة أعلاه هي حسب التقويم القديم) . ملاحظة الناشر .

(٤٥) الأغلب أنه باوغارتين ، الذي كان مكلفاً بإجراء محادثات من قبل الأدميرال لتسوية الأمور مع الجبليين .

(٤٦) يرتكب بازيلي هنا أخطاء في ترتيبه الزمني لأحداث المعارك في فلسطين ورحيل علي بك إلى مصر سبقت حصار بيروت .

(٤٧) وصف الضابط الروسي سيرغي بلشيف ، الذي اشترك في العمليات العسكرية للأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط ، وصف بالتفصيل حصار يافا من قبل مفارز علي بك في كتاب «يوميات رحلة في الأرخبيل ، التابع لروسيا في جزيرة باروس Paros ، إلى سوريا . . . في نهاية صيف ١٧٧٢» SPB ١٧٧٣ . الناشر .

مصطنعاً أم أنه شعور عميق فعلي ، وقد استمروا حتى مصر على هذه الحال يحيطون علي بك بكل مظاهر العناية والتكريم . على كل حال هناك في مصر ، مات علي بك ، وطويت صفحته . فالجرح الذي أصيب به كان مسموماً مميتاً . (٤٨) بكاه شيخ الجليل بمرارة ، إذ فقد فيه الحليف ، على الرغم من أن هذا الحليف كان يرى في الشيخ ظاهر وأولاده الشجعان فقط ، سلاحاً لمد سيطرته ولمخططاته الآتية في العالم العربي .

بعد موت السلطان مصطفى الثالث ، وقد استنزفت الحرب مع الروسيا كل قواه ، أمر خليفته عبد الحميد باشاواته في سوريا بعقد معاهدة سلام مع الشيخ القوي ظاهر بأية وسيلة كانت . في المفاوضات بين الطرفين تنازل الباب العالي للشيخ عن كل أملاكه في سوريا ما عدا مدينة القدس التي أبقيت في عهدة باشا دمشق لاحتوائها الأماكن المقدسة ، بالاضافة إلى بشليك صيدا أي فينيفيا القديمة . ومع ذلك واحتراماً لاتفاقية راسّيلاين ، التي ذكرناها أعلاه أبقى الباب العالي ظاهراً تحت مراقبة الأمير اللبناني .

هذا الأمر كان مدبراً بشكل ممتاز كضمان للنزاع الآتي بين الواليين وبالتالي سيطرة الباب العالي عليهما معاً . وبالفعل أرسل الباب العالي مبعوثاً باسمه يحمل فرمان عفو لطيف مع وعود معسولة بأخذ جزية معقولة جداً ، لقاء هدوء الشيخ الذي رغم التسعين من سنيه ما زال قوي البنية خيالاً لا بأس به . عروض الباب العالي أرضت الشيخ ، أما أولاده ، الذين أصبحوا عاجزين بدورهم ، فقد رأوا فيها طعماً ونصب أشراك فنصحوا والدهم بمتابعة الحرب .

عدم الثقة وتشوش التفكير ، أمور تسربت إلى طبائع ظاهر ، كما لدى أي طاعن في السن . أصبح يصغي فقط لنصائح مستشاره الخزمتشي المسيحي ابراهيم صباغ ، الذي كان يدير كل أعماله ، جامعاً في يديه كل الاحتكارات التجارية مستغلاً ثقة الشيخ به ليفرض على الشعب ضرائب خيالية ، يحصل منها الملايين لنفسه ولسيده . المفاوضات بين ظاهر والباب العالي أخذت وقتاً طويلاً مما زاد في حدّة التعارض في المواقف بين ظاهر وأبنائه ، إضافة إلى أنه في هذه الفترة برزت معطيات جديدة أعطت الأمل للباب العالي ، وأخذت بعدها الأمور السورية مجرى آخر . أثناء المفاوضات

---

(٤٨) في نيسان ١٧٧٣ . الناشر .

بين الطرفين خرج باشا دمشق بجيشه لتأديب الجبليين بحجة إرجاع المنهـوبات التي أخذها أخو الأمير يوسف ، في وادي بعلبك ، وفي ساعة استعداد جيش الباشا لدخول شعـاب الجبال اللبنـانية ، فـاجأه الشيخ علي بن ظاهـر العمر عنـد قب الياس على المنحدر الشرقي للبنان وهزمه شر هزيمة (٤٩) ، النزاعات العائلية انفجرت بدورها في وادي التيم ، إذ لم يكف الشهابيون حتى الآن عن الاقتتـال الأخ مع أخيـه . فها هم إخوة الأمير يوسف يجتذبون إلى جانبهم المشايخ اليزبكيين ويعلنون معاً العصيان على الإمارة .

الحدث الكبير في تلك الفترة كان توجه محمد بك أبو الذهب سنة ١٧٧٥ (٥٠) مع ٦٠ ألف مقاتل إلى سوريا ، معلناً باسم السلطان أن ظاهر العمر خائن يجب شنقه . ظاهر بعد مقتل حليفـه علي بك كـان دائم الحذر في جنـاحه الجنـوبي على الحدود المصرية ، فحصن قدر المستطاع يافا كخط أمامي لتلك المواجهـة المحتملة . ومع هذا لم تصمد يافا أمام أبي الذهب أكثر من شهرين فأعمل فيها قتلاً ونهبـاً . تراجـع الشيخ من عكا إلى صيدا على أمل أن يساعده الدروز والمتاولة ، إلا أن الأمير اللبناني فكر فقط بنجاته ورفض حتى مقابلة ظاهر . أما سكان الجليـل ونابلس المتعبـون في السنوات الأخيرة من جباية ابـراهيم الصباغ وتسلط أبنـاء ظاهـر الدائمي الاقتتـال مع والدهم والدائمي الجباية وتنظيف جيوب السكان ، فلم يظهروا أي حماس للدفاع عن شيخهم ، وهكذا وجد الشيخ نفسه وحيداً ، فاختبأ مع كنوزه في جبال صفد ، وما لبث أن انتقل إلى حلفائه بدو حوران مع تقدم المصريين أكثر في فلسطين .

خضع الجميع لمحمد بك بعـد احتلالـه عكا ، مشـايخ المتـاولة خـرجوا إليـه بالهدايا ، الأمير يوسف أرسل من يؤدي له التحية والسلام ، طالباً الأمان . أثنـاء كل ذلك كان الفاتح يوغل أكثر في قسوته ، سكان يافا دفعوا دماءهم جزاء مقاومتهم . لكن كابوس هذا الفاتح لم يدم كثيراً ، لأن المرض المميت المفاجىء حررها منه مجـرماً حاقداً (٥١) ، ويقال إنه في نزاعه الأخير مع الموت كان فريسة أحـلام مخيفة ، كـان الشعب من مسلمين ومسيحيين ينسبـون عذابـه هـذا إلى الأشبـاح المنتقمـة لأجسـاد الرهبان المطمورين تحت ردم ديرهم في جبل الكرمل .

---

(٤٩) رواية الشدياق تقول إن ذلك حدث سنة ١٧٧٣ . الناشر .

(٥٠) في آذار ١٧٧٥ . الناشر .

(٥١) مات أبو الذهب في حزيران ١٧٧٥ . الناشر .

القرار بالحملة ، هل هو ذاتي من محمد بك أم بأمر من الباب العالي لتأديب ظاهر ، تساؤل لا يزال بلا جواب ، إلا أنه من المعروف أن البك كان يخطط لإخضاع دمشق وحلب ثم الانفصال عن الباب العالي ، الذي تحدثنا عنه سابقاً ، كان لا يزال عند ظاهر مفاوضاً في نفس الفترة التي ظهر فيها محمد أبو الذهب قرب أسوار عكا .

مماليك محمد بك بعد وفاته ، أطلقوا سيقانهم للريح وعادوا أدراجهم إلى مصر آخذين جثته ، تاركين وراءهم عكا غنيمتهم الثمينة ، القبائل السورية تنفست الصعداء ، أما ظاهر فكان أول العائدين إلى عكا .

في العام التالي (٥٢) ، أرسل الباب العالي قيودان ـ باشا حسن الذي طالب ظاهر ، لترتيب الأمور نهائياً مع الدولة ، بحساب الضريبة المتأخرة لفترة ٦ سنوات ماضية . استشار ظاهر أولاده وكبار قومه : دفع الضرائب والخضوع أم حرب مفتوحة ؟ ومن يضمن ـ دار الحديث في المجلس ـ بأنهم سيتركوننا وشأننا إن دفعنا ما يتوجب ؟ من المؤكد أن الباب العالي يريد قتلنا ، إنه يتصرف بدون شرف أو رحمة . كان المبعوث ما يزال معنا وكنا نناقش سوية الفرامانات المكتوبة بالتركية عندما هوجمنا من المماليك ، وطبعاً بأمر من الأتراك . لا ، ليحفظ الله أولاد العرب من كل الوعود والمسايرات التركية ومن الفرمان وإعطاء الأمان . وحتى في حال عدم استطاعتنا الصمود في وجه الأسطول ، من الأفضل لنا أن نعود إلى جبال صفد ، وليشرفنا الباشاوات الأتراك بقدومهم إلى هناك» . «مهما كنت عجوزاً ـ لاحظ ظاهر من جانبه ـ فأنا أحب أن أفكر باليوم الآتي . اليوم هذا لنا ، أما الغد فلمن ؟ هذا ما لا يدركه أحد . الأفضل لنا أن ندفع ما يطلب منا ، وأن نحفظ رؤوسنا ، فما زال القدر يسمح لنا بذلك» . الدنغرلي المغربي وآمر الحامية ساند هذا الرأي «لا نستطيع المقاومة طويلاً ، لن نستطيع أن ننهض الشعب ، إذ أن من يعصى السلطان سيشنق في الدنيا والآخرة ، سيف السلطان طويل ويطالنا حتى في الجبال ، وأنا أتكفل بتسوية الأمور مع قيودان باشا بـ ١٠٠ ألف تعريفة» .

لكن إبراهيم الصباغ وزير المال بخل بفتح صناديقه «ليس عندنا أموال ، لنعلن للباشا أن الشيخ يملك فقط ناراً وسيفاً ماضياً» . وعلى هذا تفرق الجميع .

في المعركة المتوقعة خان الدنغرلي شيخه وأمر جنود مدفعيته المغاربة برشمة

---

(٥٢) سنة ١٧٧٥ . الناشر .

مدافعهم على أبراج عكا وأعطى علماً بذلك لقيودان باشا . فتح الأسطول العثماني ناره على المدينة ، وعندما رأى ظاهر خيانة المغاربة ، وأثناء انهماكه بتحضير حاجاته للخروج من عكا إنقاذاً لزوجته الحبيبة ، عاجله أحد المغاربة برصاصة في الصدر (٥٣) .

وهكذا انتهت ملحمة الشيخ التسعيني . قدم رأسه غنيمة دامية للباشا الذي أرسله إلى اسطمبول . لقد عانى الشيخ ظاهر من النقص في أعوان كفوئين ، حتى يؤسس في القرن الثامن مملكة عربية في الشرق . يؤكد العارفون أن صناديق ظاهر حوت ٤٠ مليون قرش (أربعة ملايين روبل فضي تقريباً على الحساب القديم) عدا المجوهرات المختلفة ، خنجره الذي أهداه إياه علي بك قدره وحده بـ ٢٠٠ ألف قرش . حامي كل هذه الكنوز كان في طريقه إلى الهرب من عكا ، أسر وسلم للباشا، عذّبه طويلا علّه يعترف إن كان هناك كنوز أخرى ، ثم علقه بحبل المشنقة ، حتى يكتم عن الباب العالي حساب الثروات الصحيح . أما الخائن دنغرلي فقوبل بالترحاب ، ولكنه ما لبث أن مات مسموماً بفنجان من القهوة لنفس الأسباب المذكورة .

التجأ أولاد ظاهر إلى المتاولة ، أعلن حسن باشا العفو عنهم ودعاهم إليه مع وعد بأن يعيد إليهم ما كان لوالدهم ، فلبوا دعوته ، ما عدا الشجاع علي الذي لم يكن يؤمن بالأتراك . لكن الباشا ما لبث أن أهانهم وعنفهم ، فلم يحتمل صغيرهم سعيد واتهم الباشاوات بالكفر ، فأحيل فوراً إلى المشنقة ، الآخرون أرسلوا إلى القسطنطينية ، ثم تولوا منصب الباشوية فيما بعد أحدهم في الحجاز والآخر في بلاد المورة .

وحده الشيخ علي من أبناء ظاهر لم يفقد أمله في إعادة مجد بيته وعشيرته . هيئة الجندي الباسل والأخلاق الفروسية العالية ، شجاعته المجربة ، والخطابية التي تقدر عالياً عند العرب ، كل ذلك أعطاه الكثير من الأنصار في فلسطين وما وراء الأردن ، خاصة وأن الناس بعد ما لاقوه من ظلم الجزار ورجاله أخذوا يترحمون على أيام الشيخ ظاهر ، ويظهرون العطف لابنه علي الذي تابع الحرب بشجاعة رغم فقده اثنين من أولاده . عرض على الأمير اللبناني التحالف ، إلا أن الأخير كان مشغولاً بالحرب مع إخوته . بقي الشيخ علي وحيداً في مواجهة الدولة العثمانية ، حاول إثارة جبلي

(٥٣) في آب سنة ١٧٧٥ . الناشر .

نابلس . في المقابل كان باشا عكا يتفق مع باشا دمشق على قتل الشيخ علي بالحيلة . أحد ضباط الباشا يصطنع خلافاً مع رفاقه ، فيثير ضجة ورصاصاً طوال النهار يهرب بعد ذلك ويستجير مع صحبه بحمى الشيخ علي ، يستقبلهم هذا بكل براءة ، ولكنهم ما لبثوا أن انتهزوا فرصة انقضوا فيها على الشيخ علي ، فقتلوه ولاذوا بالفرار .

موت علي غيّب عن المسرح السياسي في المنطقة نسل أبي زيدان ، الذين شكلوا بعد المعنيين مدافعين متقدمين للقومية العربية . ومنذ ذلك الوقت والقومية العربية لاجئة ما وراء الأردن في الصحراء وبين البدو البعيدين عن التسلط التركي والذين يحافظون حتى الآن على عهد التحرر الذي قطعته قبيلة اسماعيل بن العبدة . بعد ظاهر قوي التسلط والجور العثماني في سوريا . الصراعات الدموية المتكررة يومياً والتي تملأ الأسفار السورية ، يمكن اعتبارها أكثر من أمر شخصي بين الباشاوات والقبائل ، وأكثر من نتيجة طبيعية للتشكيل الاقطاعي للقبائل الجبلية ، وإنما يمكن أن نضيف اعتبارها ثورة من العنصر العربي ضد العنصر التركي . إن الدراسة الجدية والدقيقة للحوادث التي جرت في سوريا حتى يومنا هذا تعطي جواباً على النظريات الباطلة عن عدم إمكانية واستحالة بعث القبيلة العربية على يد محمد علي أو نسله وعن عدم إمكانية تأسيس الدولة العربية في سوريا ومصر .

إن عامة الناس في هاتين المنطقتين تحفظ تقاليدها وطباعها ولغتها وتقريباً كل عفويتها . وهذا الواقع يوقع الرحالين في انطباع خاطىء إذ يظنون بأن الأتراك يعيشون في المنطقة ضيوفاً ، يرفضون أية علاقات مع السكان المحليين . إلا أن ما يجب لفت النظر إليه هو أن العامة في القبائل العربية ، كما في القبائل الآسيوية ، غريبة عن الحياة السياسية المركزة فقط بيد البلاط . في مصر ، وفي ما يتعلق بهذه النقطة بالذات نرى اختفاء حتى ظل هذه النخبة وهامشيتها في الحياة السياسية ، إذ من غير الممكن تسمية المشايخ المشغولين بتفسير القرآن في مساجد القاهرة بالنبلاء . نجح محمد علي في استبدال المماليك الغرباء المقطوعي النسل ، بنسله وأخصائه ، أما عرب مصر فقد سدت في وجوههم وبقسوة كل الميادين السياسية والعسكرية . أما في سوريا فقد حافظ الأمراء والمشايخ على مكانتهم الاجتماعية ، إلا أن لا أخلاقيتهم وعجزهم وتعاستهم جعلت البلاط الاقطاعي قرحة في جسم الشعب وسلاحاً في أيدي الباشاوات المتوحشين .

محاولات فخر الدين العبقرية ، ومخططات ظاهر الشجاعة ، هذان الشهابان في

سماء سوريا ، أديا فقط ، إلى رد فعل سياسي . السيطرة التركية كانت تتزايد أكثر فأكثر بعد غروب كل منهما . وبالرغم من جنون الباشاوات فإن تأثير الباب العالي في سوريا كان يقوي من الناحيتين المادية والمعنوية . لذا ، وبعد السيطرة المصرية التي خدمت في تدجين القبائل السورية ، من أجل تحضيرها لأشكال جديدة من السيطرة التركية ، نرى حالياً أن إدخال نظام المركزية إلى سوريا أسهل من إدخاله إلى مناطق أخرى يغلب فيها العنصر التركي .

الفصل الثالث

الجـزار باشـا ، مؤامراتـه وجيشه ـ نـزاعات الأميـر يـوسف مـع إخـوتـه ـ اقتتـال الإخـوة ـ حملة الجزار على المتاولـة ـ مصير هـذه القبيلة ـ مغامـرات عاطفيـة في حـريم الجـزار وعصيان الممـاليك ـ تنـازل الأمير اللبنـاني ـ انتخـاب الأمير بشيـر ـ الأتـاوة المفروضة على لبنـان ـ انتفاضـة الجبليين ـ شنق الأمير يـوسف ـ هرب بشيـر ـ انتقام الجزار ـ النكديـون ـ تثبيت سلطة الأمير ـ حملة الفـرنسيين ـ بيان السلطان ـ عـواطف عامة الشعب ـ فتح الفرنسيين ليافا ـ حصار عكا ـ المتاولة في معسكر بونابرت ـ موازين القوى في لبنان ـ الحجر السياسي على الجبليين ـ المعـركة الحـاسمة ـ الانـطباعـات التي تركتها الحملة الفرنسية ـ فشـل المخططات المنسـوبة لبـونابـرت ـ تناقض مصـر وسوريا .

* *

عودة إلى قصتنا وبطلها الجزار الذي أصبح معروفاً لدى القارىء . بعد أن احتل الروس بيروت استسلم الجزار لظاهر وبقي في عكا بحق الضيافة . ولتعطشه للسلطة والمغامرات هرب إلى اسطمبول ، وهناك وبطريقة مجهولة حصل على لقب باشا في كاراخيسار . ثم أن الباب العالي وبعد نجاح حملة قبودان باشا ضد ظاهر العمر أسرع بتعيين الجزار باشا في صيدا [1] وتـوكيله إدارة لبنان وبـلاد المتاولـة وكل البـلاد التي كانت تحت سلطة الشيخ ظاهر .

أثار ظهور الجزار الرعب في قلب الأمير يوسف . والجزار كما مر معنا ، مـدين بحياته للأمير يوسف ، إلا أن واجب الاعتراف بـالجميل عنـد الرعـايا الأتـراك يقوي شعوراً خفياً بالانتقام . لجأ الأمير إلى قبودان باشا ، محاولاً استمالته بالهدايا ، مفتخراً بصراعه الطويل مع العاصي المعاقب ظاهر العمر ، متغاضياً عن تحـالفه معـه بعض الأحيان ، وقد نجح بهذا في كسب عطف الباشا بل والحصول منه على وعد بحمايته

(١) سنة ١٧٧٦ . الناشر .

ضد ملاحقات الجزار . وقد زار قبودان باشا دير القمر بدعوة من الأمير . والأمراء اللبنانيون عادة ، يحبون التبختر أمام ضيوف العاصمة في طرقهم الجبلية الضيقة التي تلقي الرعب في قلوب قاصدي قراها المعلقة كأعشاش النسور . إن هذه الطرق تشكل ، لو ملكها شعب آخر ، خير سد منيع أمام العدوان الخارجي ، إلا أن الأتراك تعلموا منذ مدة طويلة أن جيوشهم قادرة على عبورها بفضل خلافات الأمراء اللبنانيين أنفسهم . قبودان باشا ، تمكن خلال زيارته ، مع التشريفات التي أظهرها للأمير ومع المكافأة التي قدمها إليه على حماسته من أجل الباب العالي ، والتي تمثلت بإعفائه من الجزية لعدة سنوات ، تمكن من تكوين رأي نافع عن قدرة الأمير .

بعد إبحار قبودان باشا وأسطوله ، أرسل الجزار بطلب من مضيفه السابق الأمير يوسف الجزية المقررة ويطلب كذلك هدية محترمة لنفسه ، في الوقت الذي كان فيه الباشا يطرد الشهابيين من بيروت ويصادر أملاكهم في هذه العاصمة المعنية القديمة (٢) والتي بقيت حتى يومنا هذا تحت سلطة الباشاوات المباشرة . لا تسهيلات قبودان باشا ، ولا استرحاماته للجزار في ما خص الأمير ، استطاعت إنقاذ الجبليين من الضرائب الجائرة ، والأمير مجبر على الدفع تجنباً لغضب الجزار الرهيب . لذلك كان يطلب من رعاياه الأموال باستمرار ، وباستمرار صار الشعب يتذمر من أميره ، ووقف منافسوه من أمراء الجبل على استعداد لخلعه عند أول فرصة . وهكذا أصاب الجزار الذي لم تضع سدى ضيافته السابقة في دار الأمير يوسف ، إذ تعرف أثناءها إلى كل الدسائس اللبنانية ، أصاب عصفورين بحجر واحد: أساءه حال الجبليين وخلق العداوة والنزعات فيما بينهم ، وهذا ما كان يشكل ضمانة صحيحة لتقوية سلطة الباشا على لبنان وبالتالي مضاعفة الضرائب .

لم يعتمد الجزار في حكمه على العرب ، بل ملأ بشليكه بعسكر من المشردين والقتلة الذين جمعهم من كل أنحاء تركيا ، باشناقيين ، البان ، مغاربة ، وَزُمَر ديليين (٣) تدافعوا من كل الجهات تحت راياته وعاشوا حياة ماجنة ، وانضم إلى هذه الزمر ، التي تذكر في الشرق بجيوش معسكر فاللنشتاين Wallenstein المزركشة ، بقايا Levendiew (٤) هذه الميليشيا البحرية العنيفة ، التي كان القضاء عليها أيام

---

(٢) سنة ١٧٧٦ . الناشر .

(٣) مفارز الدبليين فيالق خاصة منوطة بالخدمة في المقاطعات البعيدة ، وهي تتألف بشكل أساسي من الناس المحليين ، ويخضعون لحكام المقاطعات ويأخذون علاوات فقط أيام الحرب . الناشر .

(٤) ليفندي ، فرقة مشاة ، منوطة بحماية السفن ، تعمل تحت إمرة كابودان باشا قائد الأسطول التركي . الناشر .

السلطان عبد الحميد في القرن الثامن عشر الشرط الأساسي للاصلاح العظيم الـذي أنجزه في أيامنا هذه بواسطة ابنه السلطان محمود .

اختار الجزار عاصمة لبشليكه مدينة عكا ، وقد فضلها على مدينة صيدا العاصمة القـديمـة ، لأن مـوقعهـا على رأس بين البحـر والسهـول الشـاسعـة يسهـل إقـامـة التحصينات . وهكذا فإن الحصن الذي أسسه المدافع المتقدم عن القومية العربية في سوريا (ظاهر العمر) تحول إلى عش ، ظلّ الأوحش من الباشاوات الأتراك يمسك منه البلاد بمخالبه ويعذب فرائسه أكثر من ٣٠ سنة .

العام الثاني من حكمه ، وتحت ذريعة جمع ١٠٠ ألف قرش عثملي من الأمير ، وبأن الجبليين اشتبكوا مع عسكره قرب صيدا ، جهز الجزار إلى ديـر القمر ٤٠٠ من أشقيائه الذين قضوا أشهراً ينهبون ويسلبون في الشوف ، المتن وكسروان أكثر الأماكن اللبنانية مناعة . آتامان (زعيم) هذه القوة كرد مصطفى آغا ، وبعد أن رأى سهولة تسيير العرب فكر بخلع الجزار والجلوس مكانه . في مثل هذه الأيدي كانت مصائر القبائل التي يحكمهـا الباب العـالي . كان من السهـل على مصطفى هـذا أن يصبح حـاكم سوريا ، ولم يكن الباب العالي ليتأخر عن الأعتراف به ممثلاً للسلطنة ، على أن يدفع للخزينة كمية الأموال المفروضة عـلى البشليك، لكن الجـزار عرف بـالخيانـة في الوقت المناسب ، ونجح في أن يجتذب نحوه عسكر كرد مصطفى ، فهرب الأخير لاجئاً إلى أكراده .

لا شك أنه كان بمقدور الأمير يوسف أن يحرر المنطقة من هذا الضيف الثقيل ، إلا أن أخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي ، أثارا المشايخ المستائين من سياسة الأمير المالية وقاما بخلعه . ولكي يقضي الأمير الداهيـة على أخويه ويجعلهما مكروهين من الشعب، تنازل لهما عن الإمارة بكل طيبة خاطر ، وانتحى جانب الموارنة في كسروان . وقد حصل الأخوان على مباركة الجزار بعد تعهدهما بزيـادة الجزيـة المقررة ، ولكن الأمير يوسف ما لبث أن عاد إلى الإمارة بعد عصيان عام . كل هذه التغييرات كانت في مصلحة الجزار الذي وافق على عودة الأمير يوسف من جديد ، طبعاً بعد زيادة مقدار الجزية المقررة .

قام سعد الخوري وزير مالية الأمير يوسف وعقله المـدبر ، بـرسم سياسـة ماليـة جديدة لإشبـاع نهم الباشـا . هنا كمـا في كل البلدان الآسيـوية كـانوا يعـرفون فقط الضريبة المباشرة المـدفوعـة عن المزروعـات الحريـرية والزيتون ، منتـوجات لبنـان

الوحيدة. الخراج لم يطل مسيحي لبنان لأنهم لم يؤخذوا بالسيف الإسلامي، ملاحظة، بل خضعوا طوعاً مع المحافظة على حقوقهم . في البداية فرض الأمير الضريبة على نربية دود القز ، ثم فرض ضريبة الرأس ثم ضريبة الدواجن ، ضريبة حيوانات القرون ثم ضريبة المطاحن الخ . . .

لم تمر ثلاث سنوات على عودة الأمير يوسف ، حتى ازداد تذمر الناس مما دفع أخوا الأمير إلى التفكير مجدداً بخلعه . تكشفت المؤامرة للأمير وتمكن من الإمساك بأحد أخويه ، وبيده في ساحة قصره وبحضور المشايخ والعامة ، قطع الأمير يوسف رأس أخيه حتى لا يدنس دم الشهابيين الصافي بيد جلاد . قبل ذلك بقليل ، جرت في وادي التيم مثل هذه الحادثة إذ قطع الأمير محمد رأس أحد أخويه وفقأ عيني الآخر ، متخلصاً منهما منافسين .

استمرت الاضطرابات في لبنان ، واستطاع الأمير يوسف أن يشعل النزاع بين اليزبكيين والجنبلاطيين لإضعافهما معاً ، وبواسطة الأموال الطائلة حصل مؤقتاً على حماية الباشاوات . بذر الجزار بنجاح ، بذور الصراع بين أمراء لبنان وأمراء وادي التيم ، إذ قدم سنجق مرجعيون لأمير من وادي التيم ، وبعد ذلك بقليل دفع الأمير يوسف لأن يطرد أقاربه من مرجعيون واستعادة هذا القسم من أملاكه . كانت هذه الاضطرابات لصالح واحد من إخوة الأمير يوسف ، الذي عقد تحالفاً مع عمه الحاصباني اسماعيل وتوصل إلى سدّة الحكم بعد أن حصل على حماية الجزار ، وقد نجا الأمير يوسف ثانية بالهرب . إلا أن الجزار ما لبث أن أرجع الأمير الهارب إلى السلطة من جديد ، وأرسله مع عسكر باشوي إلى الجبال (على الرغم من أن أخ يوسف كان قد دفع ٥٠ ألف قرش لمن يأتي برأس يوسف) بعد أن عجز الأمير الجديد عن جمع الضرائب .

تعهد الأمير يوسف أن يدفع للجزار مليون قرش ، فراح ينهب مؤيدي أخيه ، الذي فقأ له الأمير عينيه ، فقط من باب الوقاية وبدافع الحذر الزائد . أما عمه اسماعيل فقد وضعه في السجن ثم ما لبث أن أرسله إلى العالم الآخر مسموماً . أوكل إلى المغاربة مهمة تعذيب المشايخ الذين اشتركوا في العصيان إلى جانب أخيه وعمه . الروايات العربية الحديثة تذكر بأن هؤلاء الأفارقة كانوا يتسلون بتجويع المشايخ التعساء بقطع أجزاء من أجسادهم وقليها وتقديمها للمساجين طعاماً .

عائلة المتاولة في الجبال بين صيدا وعكا ، كانت تدير أمورها بهدوء بواسطة

مشايخها ، الذين احتموا من الجزار بدفع الجزية بانتظام . إلا أن الجزار كان يحمل إليهم ثأراً قديماً لاتحادهم مع ظاهر ، سنة ١٧٨٥ ضاعف الجزار جيشه إلى ١٥ ألف من المشردين الجدد ، الذين اجتذبهم إلى سوريا مجده وشهرته . من هذا الجيش أرسل حملة إلى بلاد المتاولة ، حيث دافعت قبائلها بشجاعة تحت قيادة حليف ظاهر ورفيقه ، الشيخ الحكيم والمقاتل القديم ناصيف النصار الذي سقط في المعركة . أما زمر الجزار فاندفعت في الجبال قتلا ونهباً لمدة عامين . مشايخ المتاولة الذين كانوا يحمون ضيوفهم الشهابيين في فترات مختلفة لجأوا يفتشون عن مساعدة عند الأمير يوسف الذي كان آنذاك على خلاف مع الجزار ، ولكن الأمير يوسف ما إن تصالح مجدداً مع الجزار حتى استجاب لطلبه بتسليم مشايخ المتاولة . هذا التصرف الأخرق لحقوق الضيافة المقدسة ، ترك عند الناس انطباعاً أسوأ من انطباع إراقة دم الأخ الملطخة به يد الأمير يوسف .

قبيلة متاولية أخرى كانت تقطن وادي بعلبك ، يديرها أمراء حرفوش ، وعلى طريقة الشهابيين كان الأخ منهم يلاحق أخاه ، وكانوا يحتكمون تارة لباشوات دمشق وطوراً للشهابيين ويدعون هؤلاء أولئك إلى موطنهم . وأخيراً ، وفي سنة ١٧٨٦ تمكن درويش باشا من طرد الأمراء الحرافشة وتعيين متسلم من قبله يدير المنطقة مباشرة . كنا قد ذكرنا أن الأمير يوسف عندما كان حاكماً لجبيل ، أضعف آل حمادة المتاولة الذين كانوا يملكون هذا السنجق . وهكذا فإن المتاولة في سوريا دخلت فترة انحطاط منذ ذلك التاريخ ، وبالرغم من أن أحفاد آل حرفوش يظهرون الآن من وقت لآخر حكاماً لبعلبك ، فإنهم يقومون بذلك من قبل الباشا وباسمه . أما الحقوق الاقطاعية والسلطة المرافقة لهذه الحقوق فقد فقدت منذ عهد بعيد . واحدة وراء الأخرى كما نرى فقدت العائلات والقبائل اللبنانية سلطتها ، وخرجت عن المسرح السياسي ، فاسحة في المجال أمام الحكم التركي المباشر بكل لا أخلاقياته الموروثة . ملاحظة .

ترك الأمير يوسف في عكا سعد الخوري ، مربيه وروحه السياسية ، رهينة لدى الجزار ، ريثما يتم دفع المليون قرش . وحتى وفاة الرهينة كان الأمير لا يزال مديناً بـ ٣٠٠ ألف قرش ، ابن سعد الخوري الذي ورث تأثير والده على الأمير يوسف ، رأى أنه من الأربح محاربة الجزار ثلاث سنوات على أن تدفع الـ ٣٠٠ ألف قرش الباقية .

في تلك الفترة كانت لدى الجزار مشاغله الذاتية . إن اهتماماته السياسية شغلته كثيراً عن أموره البيتية ، فاغتنم مماليكه الفرصة للقيام بمغامرات عاطفية مع حريمه .

وعندما علم الجزار بذلك جن جنونه ، وهجم بسيفه على الحريم ، قاطعاً رؤوس خصيانه وجواريه وحتى رؤوس زوجاته الحبالى ، ثم صب نقمته على المماليك الذين تمكنوا من الهرب ، والتجأوا إلى مملوكي الجزار وممثليه في النواحي سليمان وسليم الحائزين لقب الباشوية بمسعى من الجزار نفسه ، ثم أن الجميع وعلى رأسهم سليمان وسليم ما لبثوا أن أعلنوا العصيان وحاصروا عكا في الوقت الذي لم يكن لدى الجزار سوى حامية من ٥٠٠ ـ ٦٠٠ رجل ، فلجأ إلى الحيلة ، وجمع مرتزقة المدينة ومتسوليها وألبسهم ثياب العسكر وانضموا صفوفاً وعلى مسافات قصيرة مع عدد كبير من اللعب الخشبية ، وعندما رأى المحاصرون في الصباح هذا المشهد ولوا هاربين لاعتقادهم بأن الباشا الساحر طلب فرقاً من الشياطين لمساعدته .

الأمير يوسف أعلن العصيان في هذا الوقت بالذات ، إلا أنه بعد انتصار الجزار في معركته الداخلية في عكا ، فقد كل أمل برحمة الباشا هذه المرة ، خاصة وأن كفة حزب الجنبلاطيين المعارض له بدأت بالرجحان ، إضافة إلى كل هذا كان الأمير نفسه محاطاً بالخيانة . وعندها قرر الأمير التنحي فدعا المشايخ إلى اختيار البديل ، وقد وقع الاختيار على قريب* الأمير يوسف ، الأمير الفتى بشير المتميز بطباعه الشجاعة وقدراته الباكرة . وافق الجزار على هذا الاختيار بتقديمه القفطان كالعادة ، ثم دعا إليه الأمير الشاب وأعطاه جيشاً من الالبان والمغاربة وأمره بطرد الأمير يوسف من الجبال أو القبض عليه واقتياده إلى عكا (٥) .

كان الأمير بشير عند انتخابه ، قد وعد قريبه السفاح بالحماية ، ولكنه عاد وأدرك أن سلطته لا يمكن أن تقوى أو تستقر بوجود الأمير يوسف في الجبال ، وهذا هو الواقع ، فليست هذه هي المرة الأولى التي يعتزل فيها الأمير يوسف الحكم ، ثم أنه قد يغتنم ولا شك ، أية اضطرابات تحدث ، ليفعل بابن عمه ما فعله بإخوته . انطلاقاً من هذا انقلب الأمير بشير على وعده وقامت حرب شعواء بين أبناء العمومة هرب بنتيجتها الأمير يوسف مهزوماً إلى حوران . معايناً الانتقام وعارفاً بطبائع الجزار ، وبغض النظر عن الخطر ، ظهر الأمير يوسف فجأة في عكا مع حبل معقود في رقبته كإشارة استعداد لأن يشنق . وبدون مقدمات عرض على الجزار أن يرجعه حاكماً على

---

* مخطىء بازيلي هنا في النص الأصلي ، فهو يجعل الأمير بشير ابن أخ (أو ابن أخت ، إذ لا فرق في اللغة الروسية بين الاثنين) الأمير يوسف . والواقع أن الأمير يوسف ابن عم أبي الأمير بشير . المترجم .

(٥) سنة ١٧٨٨ . الناشر .

لبنان ، على أن يقدم جزية سنوية قيمتها ٦٠٠ ألف قرش . أعجب الجزار بالاقتراح ، فعدا عن المردود المادي كان من مصلحة الباشا أن يمتلك بين يديه مرشحاً حاضراً دائماً كوسيلة لإخضاع الحاكم الجديد . قبل ٢٠ سنة كانت الجزية السنوية المفروضة على الإمارة اللبنانية لا تزيد عن ١٥٠ ألف قرش ، ولكن الشهابيين ، الأخ مطارداً أخاه ، وراء كل زيادة في الضرائب .

علم الأمير بشير بالمساومات التي كانت تجري في عكا . فأسرع بنفسه إلى المزاد هناك وعرض على الباشا أن يدفع له في السنة الأولى ضعفي ما يقترحه الأمير يوسف ، مشترطاً هذه المرة أن يشنق يوسف مع مستشاره غندور . طبعاً وافق الجزار بسرعة وعلق على المشنقة الأمير يوسف وغندوره [٦] .

في عكا أسدل الستار على الأمير الذي أهرق دماء إخوته ، وأدخل الباشاوات الأتراك في تضاعيف السياسة اللبنانية ، وساعد أكثر من كل أسلافه الأمراء على الفساد السياسي لشعبه . فالنزاعات العصبية ، صمام أمان سلطته لم تتوقف أثناء حكمه ، إذ كان يبذرها باحتيال هو ووزراؤه سعد وغندور ، ومنهم من لا يزال يعيش حتى الآن بين المشايخ اللبنانيين . الأمير بشير من ناحيته عبر إلى السلطة تحت جثة ابن عمه المعلقة ، متبعاً نفس أساليبه اللئيمة للحفاظ على سلطته حتى أيامنا هذه ، وما الصراعات والنزاعات الدموية في أيامنا هذه ، ولوقت طويل كذلك ، سوى ميراث تركه الأمير بعد إبعاده .

قسوة الأمير الشاب سرعان ما أحدثت عصياناً عاماً في لبنان سنة ١٧٩٠ أي في العام الثاني لحكمه ، انفض الجميع من حوله ولم يبق إلى جانبه أحد سوى حراس الجزار ، الملحقين بالأمير لجمع كمية الأموال الموعودة . ولكن الجزار ما لبث أن استرد حراسه ، بعد أن أُعطي بشليك دمشق فتسمى وقتها أميراً للحج وقرر الذهاب إلى مكة على رأس قافلة الحجاج ، فاضطر الأمير بشير ، والحال هذه ، إلى الهرب واللجوء إلى أتراك صيدا ، فانتخب أمراء الجبل مكانه أميرين من أقربائه حيدر وقعدان .

بعد عودته من مكة ، أرسل الجزار جيوشه لمساعدة الأمير بشير . وقف الجبليون وقفة واحدة في وجه إعادة بشير ، واستمرت الحرب عامين بقي لبنان خلالها منيعاً أمام

---

(٦) سنة ١٧٩٠ . الناشر .

الأمير وعساكر الجزار . لكن القدر سمح للباشا أن ينتقم من الجبليين بقسوة . ففي سنة ١٧٩٣ عمّ القحط سوريا وكانت المراكب المحملة بالقمح تفرغ في بيروت ، وبالرغم من أن قرى بأكملها كانت تموت جوعاً ، إلا أن الباشا منع وصول القمح إلى الجبال . عندها فقط استوفى الجزار كل ديونه . ولتهدئة الشعب التعيس المعذب والجائع ، والذي فقد كل إمكاناته في دفع الجزية والفدية ، طلب الجزار من الأمير بشير بأن يغرب عن الجبال ، فالتحق بقبائل الانصاريين إلى الشمال من لبنان ، حيث استطاع من هناك أن يجتذب إلى جانبه حزب الجنبلاطيين وأن يؤجج نار النزاعات العائلية في لبنان . وأخيراً أصدر الجزار ، وقد سئم شحّ واردات لبنان وعدم انتظامها ، أمراً بإعادة الأمير بشير من جديد حاكماً على لبنان (سنة ١٧٩٥) فاسحاً أمامه في المجال للتخلص بنفسه من منافسيه .

في الصراع الداخلي في لبنان وبمساعدة الجزار تخلص الأمير بشير من معارضيه . ما همّ شنقاً أم قتلاً ، وفي النهاية فرض سلطته في الجبال . وبالمصادرة والجزية أضعف سلطة المشايخ وأشبع الجزار الشره . في هذه الفترة تعرضت أسرة أبي نكد للانتقام ، أبيد كل أفرادها ما عدا طفلين اختبآ مع أمهما في دمشق . هذه العائلة اشتهرت بلؤمها منذ القدم ، وعندما نرى لاحقاً عدداً من الفظائع التي قام بها مشايخها بعد عودتهم إلى لبنان ، وقد تركوه صغاراً فراراً من خنجر الأمير ، بعد أن نرى هذا فإننا عن غير قصد نصبح مؤمنين ، مثل سكان الجبال ، بأن الميول الطبيعية للخير أو للشر تنتقل في الدم من جيل إلى جيل .

اهتمامات من نوع آخر شغلت الجزار عن الأمور اللبنانية . بعد احتلال بونابرت السريع لمصر ، بدأ حملته الرائعة إلى سوريا (١٧٩٩) (٧) . نادى خطي شريف السلطاني (٨) كل المؤمنين للدفاع عن مهد الاسلام ، ضد حملة الكفار ، وقد أعلن البيان للشعب المؤمن بأن الفرنسيين الخالعين لأي إيمان ، المحرفين لكل ما هو مقدس في الدين ، وفي البيانات الحكومية لأمتهم ، أعلنوا الحرب على الاسلام من أجل القضاء على المؤمنين ، ما عدا النساء والأطفال ، لتحويل هؤلاء إلى مشركين . كذلك أعلن التحالف مع الانكليز ضد العدو المشترك .

---

(٧) حملة بونابرت إلى سوريا بدأت في شباط ١٧٩٩ . (استولى على العريش في ٢٠ شباط) . الناشر .

(٨) خطي شريف ، هو الفرمان السلطاني الموقع شخصياً من قبله وبيده ، مثل البيانات المتعلقة بالأمور السياسية ، والأمور التي لها أهمية خاصة .

كان منتظراً من القبائل السورية القوية أن تنتفض لهذا النداء الاحتفالي الضارب على وتر العواطف الدينية والوطنية ، وتجند كل طاقاتها مثلما حدث أثناء الحملات الصليبية التي يحتفظ الناس بذكريات حيّة عنها . لكن لنتذكر أن الشعب في مصر كان متعباً من جور المماليك ، كل جزيرة العرب وكل الصحراء العظمى كانت تغلي بحرب الوهابيين ، أما في سوريا فما زال الأتراك يتراذلون منذ حوالى القرن ينهبون سكان السهول ، ويستنزفون الجبليين بالنزاعات العائلية . كل هذه الأمور جعلت الشعب غير مبال إزاء نداء السلطان . بينما أجاب بونابرت على اللعنات التي صبها على أمته خليفة الشرق ، بتدين ذكي في مصر ، ولكي يتبرأ من كل البقع التي خلفتها الحروب الصليبية في نفوس الشعب وليقنع المسلمين بلاعدائيته تجاه دينهم تظاهر في القاهرة بإسلامه مؤدياً الفرائض الدينية . خاب الباب العالي في أن يجعل من الحرب مع فرنسا حرباً وطنية ، فاضطر بالتالي مع باشاواته أن يخوضوها بقواهم الخاصة .

كيف استعد وكلاء السلطان للحرب ؟ كان الجزار قد تمكن بواسطة ذهبه ومساعيه في العاصمة من الحصول مرتين على بشليك دمشق [٩] التي طرد منها قبل حملة الفرنسيين بقليل ، بانتفاضة شعبية . ولكنه وفي هذه المرحلة الحاسمة ، لم يكف عن محاربة باشا دمشق ، إما بدعوة القبائل الموالية إلى التمرد والعصيان ، وإما بنهب الدوائر الدمشقية والطرابلسية ، وإما باحتلال جبال نابلس التابعة لهذا الوالي وعدم السماح له بجمع الضرائب منها . وعاد الجزار يطالب ، وهذا قبل انطلاق بونابرت باتجاه سوريا ، ببشليك دمشق مكافأة له ، لأنه كما كان يتباهى أمام الباب العالي، الوحيد القادر على طرد الفرنسيين من مصر . كل استعدادات الجزار تلخصت بتحصين يافا وتجنيد سكانها بالقوة . بالاضافة إلى الحامية ، شكل ١٠ آلاف من العسكر الرديء ، كذلك بالاتمام السريع للتحصينات التي كان ظاهر قد باشرها في عكا ، وترميمها حسبما اتفق ، وبدعوة الباشناق والالبان والأكر.د والمغاربة اليائسين الذين كانت فرقهم تستنزف البشليك . وآخر استعداداته كانت تأجيل ملاحقة الأمير بشير الذي كان قد بدأ يشعر ويعاني من مساومة الجزار لأبناء الأمير يوسف على الإمارة .

يافا التي كانت تقاوم الحملات المصرية أسابيعاً وأشهراً ، سقطت في اليوم التالي

---

(٩) عين الجزار للمرة الأولى والياً على دمشق سنة ١٧٨٠ . والمرة الثانية كانت حوالى ١٧٩٠ . الناشر .

لظهور الفرنسيين عند أسوارها [١٠] رجال قبائل الجبال الفلسطينية ونابلس الأبية ، الذين كان بإمكانهم إن لم نقل مقارعة الفرنسيين في المعركة فعلى الأقل إزعاج كتائبهم ، ظلوا على طول الطريق حتى عكا مشاهدين لامبالين . لم يحتل بونابرت القدس لأنه كان يفتش في سوريا عن المواقع العسكرية فقط ، والقدس مهمة فقط في حالة عصيان الجبليين إذ بإمكانهم قطع طريق العودة أمام الجيش الفرنسي إلى مصر .

حوصرت عكا ، ساعد الكومودور الانكليزي سيدني سميث [١١] الجزار من البحر ، وعبأ جنود مدفعيته لمساندة مدفعية الجزار الذي كان يتطاير غضباً وراء أسوار مدينته المحاصرة بالفرنسيين . القبائل المحلية كانت تنظر إلى الحرب بفضول زائد ، لا بل إنها كانت تسهل أمور الفرنسيين ، إن لم يكن حباً لهم فكرهاً بالجزار . متاولة صفد الذين عانوا أكثر من غيرهم من صفاقة المستبد خرجوا إلى معسكر الفرنسيين تحت إمرة أحد أحفاد ظاهر ، الشيخ صالح المشهور بعبقريته الشعرية أكثر من قدراته العسكرية ، أما غيره من المشايخ الأكثر قدرة فلم ينجوا من ملاحقات الجزار . القبائل السورية ، وانطلاقاً من تركيبتها الداخلية ، لا تستطيع بدون مشايخ الحركة والتصرف ، ولهذا فإن قبائل المتاولة ، وبالرغم من استعدادها للتحالف مع أي كان للتخلص من مستبدها ، كانت كالمشلولة ، ولم تستطع أن تقدم للفرنسيين مساعدة ذات أهمية .

دعا الجزار اليه الأمير بشير مع الجبليين اللبنانيين ، إلا أن الأمير أبطأ بالظهور معتذراً بأن الفوضى تدب في الجبال ـ وهذا ما كان صحيحاً إلى حد ـ وبأن أبناء الأمير يوسف لا يعطونه مجالاً للراحة وبأن الشعب لا يريد دفع الضرائب ، وأنه لا يريد حتى السماع عن أخبار الحملة . بونابرت من ناحيته كتب للأمير رسالة منمقة داعياً الجبليين للوقوف إلى جانبه مع وعد بتحرير سوريا من ظالمها . كذلك حمل الضابط الشاب سيبا ستياني [١٢] بندقية هدية للأمير من الجنرال في محاولة لكسب ودّه في

---

(١٠) ٧ آذار ١٧٩٩ . الناشر .

(١١) وليم سيدني سميث (١٧٦٤ ـ ١٨٤٠) أميرال انكليزي ، بدأ الخدمة في الأسطول سنة ١٧٧٧ . سنة ١٧٩٠ كان في خدمة البحرية السويدية ، وقد اشترك في الحرب الروسية ـ السويدية . منذ ١٧٩٣ اشترك في العمليات العسكرية للأسطول الانكليزي ضد الأسطول الفرنسي . منذ ١٧٩٨ خدم تحت إمرة الأميرال نلسون وأرسل سنة ١٧٩٩ إلى عكا لتنظيم دفاعها . في كانون الثاني سنة ١٨٠٠ اشترك في توقيع الهدنة في العريش . الناشر .

(١٢) أصبح من ثم مارشالاً [فرانسوا باستين دو سيبا ستياني] هو ديبلوماسي روسي ورجل عسكري ورجل دولة . لعب دوراً كبيرا في تحقيق سياسة نابليون في الشرق : سافر إلى اسطمبول بمهمة خاصة سنة ١٨٠١ ممهداً لاستدراج تركيا إلى الحرب مع الروسيا ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ . في عهد لويس فيليب ، وزير العلاقات الخارجية .

المحادثات التي انتهت لاحقاً بالفشل . لم يكن الأمير ليقرر كيف يتصرف ، كان ينتظر نهاية حصار عكا ، ليقدم من ثم خدماته للمنتصر . في إحدى رسائله عتب بونابرت على الأمير لتأخره بالإجابة . وقعت هذه الرسالة في يد الجزار ، فأجبر ، والحالة هذه ، على امتداح الأمير لوفائه . إلا أن الجبليين لم يقرروا مساعدة الباشا المحاصر . في هذه الأثناء كان المماليك المصريون الذين يخدمون لدى باشا دمشق ينزلون إلى وادي التيم استعداداً للهجوم على الفرنسيين . هذا الفيلق نفسه ، وعدد رجاله العشرون ألفاً ، إن كان يصح تسمية هذا الخليط الرث فيلقاً ، كسره الفرنسيون في سهل مرج بن عامر أمام جبل الطابور الذي سميت باسمه هذه المعركة في حكاية بونابرت الشعرية (١٣) .

الأمير اللبناني كان يمد الأتراك بالمؤونة ، وفي نفس الوقت كان يزود معسكر الفرنسيين بالنبيذ اللبناني . خلاصة القول ، إن إدانة الموقف المتلون للأمير غير ممكنة . والواقع أن مواقع الأمير قويت منذ ذلك الوقت ، بعدما قضى على بيت أبي نكد ، وعقد حلفاً قوياً مع الجنبلاطيين بشخص الشيخ الموهوب بشير ، رأس البيت الجنبلاطي . إلا أن وجود الأحزاب وطبيعة الخلاف نفسه ، العداء العائلي ، الخيانة والكره ، ظواهر نجحت خلال قرن واحد من حكم الشهابيين ، أن تمد جذوراً عميقة في رحم القبائل اللبنانية ، لدرجة أن هذه القبائل فقدت أي تأثير سياسي في مصائر سوريا ، فحياتها مستنزفة في الدسائس والصراعات العشائرية .

سياسة الباشاوات المسهلة لاتجاه القبائل اللبنانية هذا ، والتي برهن الوقت على نجاحها ، حكمت على هذه القبائل بعدم التحرك في مثل هذه المرحلة الدقيقة ، وعلى الرغم من أن مصير سوريا يتعلق بهذا التحرك . والواقع ، أنه لو حزمت القبائل اللبنانية أمرها مثلما فعل المتاولة ، ووقفت في خندق واحد مع الفرنسيين في حصار عكا ، لاستطاع بونابرت أن يستولي على كل البقعة حتى حلب دون أن يكون للدفاع المستميت عن عكا نتيجة حاسمة .

لم يكن للدفاع عن عكا أية صلة ، قريبة أو بعيدة ، بالأمور الدينية التي كانت تجري في سوريا آنذاك . كان الموارنة والكاثوليك المتحمسون ، ومن فترات بعيدة

---

(١٣) حرب المعركة في ١٦ نيسان ١٧٩٩ . تحدث نابليون عن هذه المعركة في :
«Correspondance de Napoleon I^er^ , publiée par ordre de l'Empereur Napoleon III» . T. V. Paris 1860. PP[542 — 543].

يعطفون على الفرنسيين . لكن رجال الكهنوت الموارنة ورجال كهنوت روما الذين حطوا رحالهم في لبنان في تلك الفترة ، كانوا قد نجحوا مقدماً في تصوير جيش بونابرت بأبشع الصور ، وذلك بتدريس الأطفال العرب عن الثورة الفرنسية حسب الترجمة التي وضعها مبشرو روما . وبالرغم من أن الموارنة كان يشكلون أغلبية سكان الجبل ، إلا أنه لم يكن لهم أي وزن سياسي خلال تشكيل لبنان الاقطاعي ، إذ كانوا تحت سلطة المشايخ والأمراء دروزاً كانوا أم مسلمين . وكان الدروز يكرهون الفرنسيين كرهاً عظيماً ، وكانوا يستعدون في حال فتح عكا للتراجع إلى جبال حوران ومتاهات اللجا [١٤] حيث يتواجد إخوانهم في الدين .

بالرغم من أن الأمير بشير كان مؤمناً بمحمد صلعم، إلا أنه كان مستعداً، في سبيل التخلص من الجزار ، لأن يتحالف مع عباد النار واليزيديين عباد الشيطان ، لكنه كان يدرك جيداً أنه في حال أعلن ولاءه للفرنسيين ، لتمكن أبناء الأمير يوسف من إثارة الشعب فوراً ولبدأت في لبنان حرب عصبية ، نتيجتها الأولى ستكون ، وبتأثير باشاوات دمشق ، خلع الأمير وشنقه .

تراجع بونابرت إلى مصر ، مرافقاً بالطاعون ، بعد حصار غير مجدٍ لعكا [١٥] دام ٧٠ يوماً ، واهباً سوريا من حملته تلك مذكراته الشعرية عن ظهوره الساحر، عن تلك الصفوف المنتظمة من الجنود الذين كانوا يتقدمون بكبرياء إلى المعركة ، تحت قرع الطبول ، وكأنهم الجدران الثابتة المزروعة بالحراب ، عن فنون التكتيك الحربي التي نسيتها آسيا ولم ترها منذ أيام المقدوني والكتائب الرومانية ، عن تلك القصور الحية المسماة بالمركبات ، التي كانت تنتظر الهجوم الصاعق للخيالة الأسيويين في الجليل في سهل عكا الواسع ، عن نظامية الجنود غير المفهومة للآسيوي ، الذي تعود أن يرى في عسكره جمهرة من المرشحين للسرقة والنهب ، وأكثر من ذلك ، أن المواد الغذائية لم تكن تصادر بل كان يحملها السكان إلى المعسكر وتشرى منهم بالأموال ، وهذا ما لم يسمع به قط قبلاً في آسيا .

والواقع أن الثمرة الوحيدة للحملة الفرنسية كانت الانطباع الذي تركته في الشرق عن تفوق الجيوش الأوروبية على الجيوش الآسيوية . كانت الروسيا في ما وراء القفقاس وما وراء الدونا ، قد أقنعت جيرانها بهذه الحقيقة . الانكليز قاموا بنفس

---

(١٤) سنتكلم بالتفصيل عن اللجا في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(١٥) استمر الحصار منذ ١٨ آذار وحتى ٢٠ أيار ١٧٩٩ . الناشر .

الشيء على ضفاف الهند . أما الفرنسيون فاختاروا مصر وسوريا ميداناً لتجربتهم ولكن أجلهم لم يطل . بدفاعها اشتهرت عكا في أوروبا كقلعة منيعة بالرغم من أنه كان من المشكوك فيه أن ننعتها بالقلعة . نعم ، وحتى اليوم وبعد جهود عبد الله باشا وابراهيم باشا فإن عكا لا تستطيع تحمل الحصار الصحيح . لم يستطع بونابرت احتلالها ، أولاً لعدم مقدرة المدفعية المحاصرة على التصرف ، والأهم أن الأسطول الانكليزي كان يحميها من البحر .

اعتادوا على الاعتقاد في أوروبا ، بأن فشل بونابرت أمام عكا أنقذ تركيا وكل آسيا من الفاتحين الغربيين . كذلك ينسبون لبونابرت مخططات واسعة لإعادة بعث وتكوين الشرق ، فيتحدثون عن حملة له إلى الهند مقتفياً آثار المقدوني ، وعن تبشيره بدين جديد بين البدو . إننا لا نصدق بأن عقل نابوليون المنفتح كان يتسلى بمثل هذه الأحلام (١٦) . ذهب ذلك الزمن الذي كان فيه العبقري الأوروبي مع ٣٠ ألف من الجنود و٣ من المعارك يستطيع تقرير مصير القارة الآسيوية الواسعة . إن الشعوب الآسيوية تصون بنفسها ولنفسها جبين وعبقرية مصائرها الآتية . شعاع العلم الذي أطل زمناً من الشرق على الغرب ، والذي ينعكس اليوم من الغرب إلى الشرق قادر على تطوير مدينة الشرق المتجدد ، إلا أنه يصعب التصور في أن محاولات الفتوحات المركنتيلية ، ومحاولات الانقلابات السياسية المفاجئة ، رغم كل البهرجة الظاهرية ، تستطيع تسهيل نجاحات

---

(١٦) إن افتراض بازيلي بأن نابوليون لم يكن يهدف إلى احتلال الهند لا يرتكز إلى أساس . من المعروف أن نابوليون اقترح سنة ١٧٩٧ على حكومة الادارة احتلال مصر ، وكان يعتبر أن أحد أهداف حملته هو إمكانية استعمال مصر قاعدة لافتتاح العمليات ضد الهند ، وتوجيه ضربة قاتلة إلى انكلترا . في كتابه إلى حكومة الادارة يقول بونابرت «من أجل القضاء الفعلي على انكلترا يجب احتلال مصر» . وفي السنوات التالية كان نابوليون يحاول بعث مخططاته باحتلال الهند .

سنة ١٨٠٠ عرض على باڤل الأول حملة برية إلى الهند . موت باڤل قطع كل التحضيرات . سنة ١٨٠٤ عرض نابوليون إرسال ٣٠ ألف جندي بحراً إلى الهند . أخيراً سنة ١٨٠٧ ، للمرة الرابعة يرسل نابوليون إلى بلاد الفرس بعثة برئاسة الجنرال الياور Gardan لجمع المعلومات عن الطرق ، المؤدية إلى الهند ، وعن وضع الجيش الفارسي وإمكانية استخدامه في الحملة القادمة .

بعد لقاء تيلزي وتوقيع السلام مع الروسيا عرض نابليون (في ٢ شباط) على الكسندر الأول إخضاع الهند بفيلق روسي فرنسي . إلا أن حملة نابوليون سنة ١٧٩٩ إلى سوريا لم تكن مرتبطة مباشرة بمخططات الحملة إلى الهند . بل كانت لمنع الجيوش التركية من الوصول إلى الحدود المصرية ، خوفاً مما في ذلك من إثارة للمصريين ضد فرنسا ، كذلك رغب بضرب الجيش التركي في سوريا لأن دعم الاقطاعيين السوريين المعارضين دوماً ، يؤمن تسهيلاً أكيداً للجيوش الفرنسية .

العلم والمدنية ، نجاحات بطيئة ، لكن متينة وقوية تحت أعلام مينرفا الحكيمة ، وليس أعلام مارس الشرير .

إن ما حصل في العالم العربي من انقلاب ديني، وتحول مليون من البدو إلى مليون من الفاتحين حسب تعبير النبي صلعم، وتبعاً لخطى محمد صلعم، فإن مثل هذا وإن كان قابلاً للتحقيق في ظل الأوضاع الراهنة لقبائل العرب الرحل ، وأكراد تركيا وإيران ، فإنه ليس بمقدور أي عبقري غريب أن يحقق هذا الانقلاب . إن أي غريب لا يستطيع أن يوقظ أي تعاطف مشترك مع أي بدوي . اللغة والخطابة تلعب لدى البدو دوراً مهماً أكثر بما لا يقاس من بلاطات وجرائد أوروبا الغربية . ولن يكون بمقدور أي عبقري أرضعه الغرب ونشّأه ، التمتع بهذين العاملين الحاسمين في مصائر شعوب الشرق . إن نابوليون في الواقع لم ينف المخططات المنسوبة إليه ، بالعكس فقد حاول أن يعطيها وزناً أكبر ، ليس من الصعب تفسير ذلك برغبته في إثارة حذر الانكليز فيما وراء مملكتهم الهندية ، وبأنه يريد أن يحيط نفسه بهالة سحرية في عيون شعبه ، وأنه يريد أن يشعل نار التسلح في الغرب بشرارة أولعها بحذاقة في الشرق ، الوطن الكلاسيكي للخيال .

من الممكن أن تنسب الحملة إلى سوريا إلى هذه التصورات ، وإلى الواقع الذي كان يمكن انتظاره من نشر الكراسات الشعرية عن جبل الطابور ، أكثر من نسبتها إلى رغبة بونابرت باحتلال سوريا . إن فتح مصر بتلك السهولة، لم يدخل الوهم إلى قلب بونابرت فيما يخص سوريا، كان يكفي في مصر هزم وتشريد المماليك الضيوف المكروهين من الشعب، حتى تخضع للحاكم الجديد، القاهرة والنيل الصالح للملاحة ، بحر النيل حسب التعبير العربي ، وكل هذه البلاد الغنية المزنرة بالصحراء من الجانبين والمتاخمة للممالك الجنوبية التي كف فاتحوها عن المهاجمة والحرب ، وأحلت محلها القوافل المزودة بالعاج ، والرمل المذهب ، بالصموغ والعنبر والرقيق . أما من ناحية البحر فالدفاع ينحصر بدمياط ، رشيد ، أبو قير والاسكندرية ، أما باقي الشاطىء فمنيع .

أما سوريا التي يرتبط مصيرها بمصير مصر منذ القدم ، فإنها تتناقض تناقضاً عجيباً مع جارتها . هنا يمكن القول بأن الطبيعة نفسها وتكون الأرض في تحالف أبدي مع الطموحات والميول الطبيعية والتكوين السياسي للقبائل ضد كل حكم قوي . كانت سوريا دائماً ، تستسلم غنيمة سهلة لأول فاتح ، لو أتى نحوها من الشمال أو من

الجنوب ، من الفرات أو من البحر . المماليك وحدهم حاولوا إيقاف حملة سليم الاحتفالية والتي خضعت له القبائل المحلية بلامبالاة . علي بك الكبير ومحمد بك من بعده ، أنجزوا بنجاح حملاتهم على سوريا دون مقاومة تذكر من القبائل السورية القوية . من هنا فإن أسوار عكا وجيوش الباشا التركي ، وليس القبائل السورية ، هي التي أوقفت الحملة الفرنسية . ولئن كانت عكا قد أنقذت سوريا فإن بونابرت نفسه من جهة ثانية قد يكون مديناً لها بمصيره في الغرب لأنه بفشله عند بابها تراجع إلى مصر في الوقت اللازم .

إلى أين كان يمكن أن تقود الحملة قائدها ؟

لاحتلال سوريا ، لا يكفي الانتصار في معركتين أو ثلاث . إن نجم الفتى البطل ، في هذا الوطن المحروث بحزمات الفاتحين في كل القرون ، كان يستطيع أن يسحب وراءه إشعاع انتصاراته . إنما وخلال كل القرون ، كلما كان النصر سهلاً على هذه الغنيمة غير الوفية كان الاحتفاظ بها غاية في الصعوبة ، أما استخراج عناصر قوى جديدة من أجل المشاريع الآتية فهذا ما لم يسعد به فاتح قط .

صحيح أن مماليك مصر وسلاطين الأتراك قد استطاعوا أن يمدوا سلطتهم ويحتفظوا بها في هذه المنطقة ، إلا أن الأصح أن لا هؤلاء ولا أولئك طلبوا من الأهالي الخضوع والطاعة ، بل اكتفوا دائماً بجزية معتدلة ، ونظروا بصبر إلى أي عصيان ، واستفادوا من حروب القبائل التي ساهموا أنفسهم بتأجيج نارها ، وأكثر أدمنوا عصيان ولاتهم أنفسهم وعصيان الولاة هذا بلا شك من عدوى روح القبائل السورية .

الفصل الرابع

غضب الجزار ـ علاقات الأمير بشير مع الانكليز ـ حملة الصدر الأعظم ـ الحرب الجديدة للقبائل اللبنانية ـ هرب الأمير ـ الحالة السياسية في سوريا ـ مخطط الباب العالي ـ عودة الأمير ـ تصالح الجبليين والحرب مع الجزار ـ موت الجزار وذكراه ـ الطرق التي اتبعها الباب العالي لاحتلال عكا ـ الحرب بين الباشاوات ـ خلافات مفوضي الباب العالي على كنوز الجزار ـ مرابي يهودي يسلم عكا لسليمان باشا ـ اشتداد الأمير اللبناني ـ خزائن الأمير ـ أحوال بشليك دمشق ـ جسارة البدو ـ كنج يوسف ـ حملة الأمير على دمشق ـ أبو نبوت في فلسطين ـ بداية تعاظم الأمير بشير ـ اعتناق الشهابيين للمسيحية ـ التصورات السياسية والدينية ـ رأي أوروبا بالأمير بشير .

* *

بعد تراجع بونابرت ، عاد حبل الجزار ، الذي أصبح في أوج عزه ، إلى رقبة المتاولة من جديد ، لأنهم تعاطفوا مع الفرنسيين ، فهرب مشايخهم إلى لبنان . الأمير بشير أدرك بدوره أن سيف الجزار سيطاله أيضاً ، والواقع أن الباشا كان قد عيّن أولاد الأمير يوسف حكاماً على لبنان ، ممهداً أمامهم الطريق لتحصيل ثمن موت والدهم تلك الميتة الشنيعة بتحريض من الأمير بشير . بهذا أصاب الجزار هدفين معاً : الانتقام من الأمير بشير لعدم تحركه أثناء حصار عكا من ناحية ، ومن ناحية ثانية مضاعفة الجباية والضرائب وتوسيع تأثيره على لبنان ، لأن باستطاعة الباشا في هذه الحال تسليح أحد الأخوين من أولاد الأمير يوسف على الآخر ، ومتابعة نفس اللعبة القاسية التي ملأت خزينته أيام الأمير يوسف بغنائم الجبليين .

منقذ عكا الكومودور سيدني سميث كان له من الأمير بشير موقف آخر ، فقد أدرك هذا القائد أن السنة الأفضل لسوريا في وجه حملة فرنسية ثانية هو القبائل السورية نفسها . ثم أنه تفهم موقف الأمير بشير وأسباب تخلفه عن المساعدة أثناء حصار

عكا . لهذه العوامل أقدم الكومودور على زيارة الأمير في الجبال في عين عنـوب [1] (أربع ساعات عن بيروت) ، وتبادل معه الهدايا على الطريقة الشرقية وأوكله بابن أخيه الجريح ، يشفى عنده في الجبل . وبعدما علم عن تخوف الأمير من الجزار ، أسرع سميث إلى عكا ساعياً لدى الجزار لتخفيف غضبه ، إلا أن هذا الأخير ، هازئاً بكـل تبريرات الكومودور ، رفض بكبرياء كل توسط معلناً الأمير خائناً . اشتكى الكومودور لسفارة بلاده ، وهذه بدورها نقلت الشكوى من الباشا الجاحد إلى الصدر الأعظم حاج يوسف باشا ضيا الذي كان ينزل سوريا في طريقه إلى مصر مع ١٠٠ ألف من جنوده . كذلك حمل الأمير من طرفه شكوى من باشا عكا إلى الصـدر الأعظم ، مـدللاً على وفائه وصدقه بكمية كبيرة من المؤونة للجيش التركي .

في لقائه مع الأمير ، أجّل الصدر الأعظم بحث القضية حتى يتم طرد الفرنسيين من مصر ، بعد أن قدم للأميـر خلعة ، قفـطاناً رائعـاً ، كذلـك منحة ، استنـاداً إلى الصلاحيات الواسعة التي بحوزته لتسوية أوضاع سوريا ، سلطة الحاكم الوراثي لإمارة جبال لبنان (جبل الدروز [2]) ووادي التيم ، بعلبـك ووادي البقاع (كيـلي سوريـا) ، سنجق جبيل ، وبلاد المتاولة (بلاد بشارة) ثم أكد له حقوق المعنيين القديمة وجعله على علاقة مبـاشرة مـع الباب العـالي ، مع دفـع جزيـة على الأرض فقط للبـاشاوات عـلى السناجق المكلف بإدارتها وغير التابعة له في الأساس .

إلا أن هذه الهبات العظيمة بقيت حرفاً ميتاً في أوامر الصدر الأعظم . كان الصدر الأعظم ضيفاً في سوريا أما الجزار فسيّداً في عكا ، وهذا ما لم يأخذه الأمـير بشير بعـين الاعتبار حين أرسل للوزير ضيا باشا الأتاوة السنوية عن لبنان ، وعدداً كبيراً من الجياد الأصيلة كهدية ، و١٠ آلاف ربعيـة قمح للجيش ، بينـما كان الجـزار يراقب كـل هذا ببرودة دم من وراء أسواره في عكا ، ودون أن يرسـل للوزير لا الهـدايا ولا المؤونـة ولا الأتاوة . كان ينتظر فقط خروج ضيف العاصمة مع جيشه من سوريا . ولم يكد الوزير يبلغ غزة ، حتى أرسل الجزار أولاد الأمير يوسف حكاماً على الجبال اللبنانية مع فرق من عساكره ، محتفظاً بأخيهم الأصغر رهينة لديه [3] .

---

(١) حزيران ١٧٩٩ . الناشر .

(٢) في القرن ١٧ كان جبل لبنان يسمى بـ «جبل الدروز» نسبة لأغلبية سكانه الدينية .

(٣) الأمير سليم الابن الأصغر للأمير يوسف ، والذي أطفأ بصره ابن عمه الأمير بشير عندما أعمل الانتقام بكل أحفاد الأمير يوسف ، هو الذي أخبرني بكثير من وقائع هذه القصة . مات الأمير سليم في لبنان سنة ١٨٤٥ .

استقبلت القبائل اللبنانية الأمراء الجدد بسرور تام أملاً بالتخلص من الجباية التي أثقلهم بها الأمير بشير يوم عمل على استدرار عطف الصدر الأعظم. باشاوات دمشق وطرابلس وبإشارة من يوسف باشا ضيا، أرسلوا جيوشاً لمساعدة الأمير ووجهوا تحذيرات واسعة للجبليين إن هم خرجوا عن طاعته. كل ذلك ذهب هباءً كما ذهب من قبل نداء الأمير إلى الجبليين بطرد عساكر الجزار. إن النزاعات التي كان الجزار قد بذرها بين أمراء وادي التيم فتحت له الآن مدخلاً سريعاً إلى لبنان من كل الجهات. إن اللاأخلاقية الوراثية عند أمراء وادي التيم لم تكف عن تمزيق سناجق حاصبيا وراشيا لصالح الجزار. كان اقتتال الأخوة بالنسبة للشهابيين عملاً عادياً. فأمهات الأمراء كن يأخذن عهداً على أولادهن بعدم الإقامة في مكان واحد، خشية الوقوع في حبائل تضليل اقتتال الأخوة من ناحية، ومن ناحية ثانية كي لا يموت الجميع معاً في حالة اعتداء الأقارب، فيبقى والحال هذه من يأخذ بالثأر.

هرب الأمير بشير إلى جبيل مع ٥٠٠ من دروز الشيخ بشير جنبلاط، فتعقبه أولاد عمه الذين فرضوا الجزية وجمعوا الضرائب مرتين إضافة إلى أن عساكر الباشا تمادوا في سرقة وإحراق القرى. ندم الجبليون على خذلانهم الأمير بشير لكن بعد فوات الأوان. وبينما كان ينتقل من مكان إلى آخر في طرق السناجق الشمالية الوعرة، استلم دعوة الكومودور سيدني سميث مع مركب ينقله من طرابلس إلى غزة حيث الصدر الأعظم. وبعد أن استودع الأمير وعائلته مشايخ أبي رعد المسلمين الموالين له، والذين كانوا يملكون سناجق الضنّية والحصن وصافيتا، وبعد أن أطلق أنصاره لكي يكونوا تحت حماية باشا دمشق، ركب في كانون الأول [٤] السفينة الانكليزية، التي وصلت العريش وحدود مصر بعد ثلاثة أسابيع من الابحار، لأنها ضلت الطريق وحملتها العاصفة حتى شواطىء البربر.

استقبله الوزير بعطف وعرض عليه ١٠ آلاف جندي لاحتلال لبنان رغماً عن الجزار، ولكن الأمير استبعد هذا الاقتراح لعلمه صعوبة الصمود في لبنان مع ١٠ آلاف ناهب، واكتفى بوعد من الوزير بتحرير لبنان وكل سوريا من الجزار العجيب.

في هذا الوقت، كان الجزار يأخذ الجزية من المدن والقرى ومن المناطق المتاخمة لدمشق، وكان يجمع الضرائب من جبال نابلس، وقد حاصر قلعة سانور حيث التجأ

---

(٤) سنة ١٧٩٩ . الناشر .

مشايخها . ولأنه على خلاف مع باشا دمشق، أثار ضده أمراء وادي التيم ، كذلك اقتص من مسلمي طرابلس لمجرد استيائهم ، ممهداً الطريق في هذه البشاليك لمشرد آخر مصطفى بربر ، الذي حذا حذو الجزار واستعمل نفس الأساليب ، واستولى على طرابلس ، وأجبر الباب العالي على تحمل وقاحته بصبر . مشهد غريب ، كل سوريا في حالة طويلة من الحذر والفوضى ، مع كل عام كان ينشأ مشردون جدد ، يستولون على السلطة تحت قناع ظاهري من الولاء للباب العالي وللباشاوات ، مع أنهم كانوا في الواقع مستقلين . فقط القبائل اللبنانية ، مع صخورها المنيعة ومع تركيبتها الاقطاعية كانت تصبح أكثر فأكثر ، ومع كل عام ، لعبة في أيدي الباشاوات بفضل العداء العائلي بين أمرائها .

في رده على الصدر الأعظم ، وضماناً لسياسته الرامية إلى إضعاف سلطة الباب العالي في سوريا مع المحافظة على سلطته ونفوذه ، نجح الجزار في رشوة كابودان باشا وغيره من الشخصيات النافذة في العاصمة ، تداركاً لأية خطوة قد يلجأ إليها الصدر الأعظم ، في هذه الأثناء ، وفي أي مكان من الموقد السوري ، المليء بالاضطرابات ، كان الجزار يرمي شرارة وينفخ بكل ما أوتي من قوة .

بعد فشل حملته العسكرية على مصر لم يجرؤ الوزير التركي على مهاجمة الجزار المستعد لحصار تركي هذه المرة ، بل اكتفى بتشليحه سنجق غزة في الناحية الجنوبية من بشليكه ووضع عليه محمد أبي مرق من السكان المحليين . أما الباب العالي من جهته وبعد أن رأى خفوت تأثيره في سوريا ، وعجزه عن إخضاع الجزار ، شرير المنطقة الأكبر ، رأى في إكثار الباشاوات تثبيتاً لسلطته ، فعين عدداً منهم في حماه وحمص وفي الصحراء العظمى ، ولكن الشيخ المحلي دنش طردهم من هناك ، كذلك عجز الباشا الشهير يوسف العظم عن إدارة بشليك طرابلس التي أعطيه .

قافلة المؤمنين إلى الحج ، كانت تتعرض كل عام لهجمات البدو ، الذين كانوا يستغلون الاضطرابات الدينية في شبه الجزيرة العربية ، فيمدون عربدتهم إلى الصحراء السورية . من ناحيته كان الباب العالي يبذل كل قواه ، الخبث والمكافآت من كل نوع ، لكي يكفل للمؤمنين فرصة تأدية الفرائض الدينية . من ناحية أخرى كان الجزار يلاحق بدسائسه باشا دمشق المكلف ضمان أمن وراحة الحجاج ، الذين كان يزداد تذمرهم لدى كل فشل يصيب باشا دمشق ، فيسرع الجزار ويستغل المناسبة ليجدد اقتراحاته التقية الشريعة المشفوعة بالهدايا للوزراء : يضمن الجزار أمن وراحة طريق الحج إلى مكة شرط أن يعطى بشليك دمشق .

الديوان السلطاني ، وفي محاولة منه لتخفيف العبء عن الشعب وإعادة الثقة المفقودة بالحكومة ، بدأ يفكر باتخاذ إجراءات حازمة لإخضاع الباشاوات والحكام المحليين وتسوية الأمور الحكومية . وكان الاتجاه نحو تعيين الصدر الأعظم يوسف باشا خبا آمراً مطلقاً بصلاحيات واسعة على كل البلاد من طوروس حتى الخليج الفارسي وحتى البحر الأحمر ، وتركيز سلطة البشاليك الاثني عشر بين يديه ، والإبقاء على قسم كبير من الجيش تحت تصرفه .

نلاحظ هنا أن الباب العالي توصل ، وبعد تجربة قرنين إلى ضرورة إعادة احتلال المناطق التي كان السلطان سليم قد أخضعها . أحوال أوروبا وبداية الحرب الروسية منعت الشروع في هذا الإجراء الحكومي العظيم . ولكن ، وحتى في حال عدم وجود موانع خارجية في طريق إجراء مثل هذا ، ما هي الضمانة التي يستطيع الباب العالي تأمينها لإنجاح مأثرة الصدر الأعظم المدنية ، أو على الأقل ، وهذا في حال افتراض النجاح ، ما هي ضمانة وفاء من يأتي بعد الصدر الأعظم في حكم تلك المناطق ؟ منذ نشوء الأمبراطورية العثمانية مَن مِن الباشاوات والولاة لم يعلن العصيان دون خوف من العقاب عندما كانت الامكانيات والفرص تسمح له بذلك ؟

أطال الأمير بشير تجواله على متن الأسطول الانكليزي . وفي النهاية ، وبعد أن تأكد بأن لا وعود الصدر الأعظم ولا مساعي الانكليز ، ولا فرمانات السلطان ، تمكنه من استعادة الامارة المفقودة، قرر تجربة حظه مرة أخرى معتمداً على شوق الناس لحكمه بعد تذمرهم من معاملة بدائله لهم . فحط رحاله في طرابلس ، أقام في ذيول المناطق الشمالية من لبنان ، التابعة لباشا دمشق ، وأخذ يراقب مجرى الأمور في الجبال ويحرك في نفس الوقت راسوراته (أعوانه) الموجودين في لبنان . أولاد الأمير يوسف ، سعد الدين وحسين وبإشراف وزيرهم الماروني الأصل جرجس باز ، كانوا مشغولين باستمرار بالنهب الدوري للجبليين لكي يؤدوا للجزار الأموال في مواقيتها . كانوا يجمعون الضرائب كل شهر ، وفي كل حملة جباية كانوا ينظمون غارات لعساكر الجزار الموضوعة بتصرفهم . وبالرغم من كل ذلك كانوا غارقين في الديون دون أن يتمكنوا من إرضاء الباشا . الأمير بشير ما زال ينتظر فرصة العودة بمسعى لدى الجزار ، وهي فرصة لم تتأخر ، لأن الجزار وبعْدما أيقن بأن الأمراء الذين سلمهم إدارة الجبل لن يستطيعوا الصمود طويلاً ، بدأ يهددهم بوجوب دفع الديون المتوجبة في ذماتهم .

المضايقات الجديدة التي لجأ إليها الأمراء اضطرارياً ، تحت وطأة تهديد الجزار ،

أخرجت الجبليين عن طورهم ، فراحوا يطالبون جهاراً بعودة الحاكم السابق ، وأرسلوا وفداً إلى بشير يرجونه العودة إلى الحكم مع أيامين مغلظة بأنهم لا يعترفون بسيد آخر غيره فوق رؤوسهم ، وبأنهم مستعدون للدفاع عنه أمام كل ملاحقات الجزار .

استقبل الأمير بإعجاب طلبات الجبليين المتعبين من الصراعات القبلية والابتزازات المالية [٥] . وكانت العواطف الشعبية تعطي هيبة النصر لمسيرته نحو الشوف ، حيث كان معارضوه هناك قد نجحوا في احتلال دير القمر بواسطة ألفين من الباب الجزار ، جرجس باز الذي كان يريد المدينة باسم أبناء الأمير يوسف سلمها للأمير ، خشية أن يحاصر في الجبال . ونزل مع رجاله الالبان إلى سهل بيروت حيث تمكن ، بعد زيادة عدد جيشه إلى ٦ آلاف من الأوباش من متابعة الحرب ضد الأمير لمدة سنتين أيضاً . أحرق عدداً كبيراً من القرى عند سفوح لبنان ، وقد استطاع أن يضيق الخناق على الأمير مرات عدة ، لأن هذا الأخير لم يظفر من الجبليين بالمساعدة الموعودة ، بل وجد نفسه مجبراً على المقارعة وحيداً مع بعض خدمه . وفي النهاية وبعد أن فقد جرجس باز الأمل في تثبيت الإرث مع وارثيه ، بدأ محادثات مع الأمير بشير ، يُعطي أبناء الأمير يوسف بنتيجتها سنجق جبيل .

كان مفاوضو الطرفين يعلمون جيداً أن الجزار لن يسامحهم إن تصالحوا . جرجس باز أول من عمل لتلافي هذا الأمر ، فرفع إلى الجزار ، تحذيراً له وكسباً للوقت ، تقريراً يزعم فيه بأن الأمير هزم شر هزيمة ، وأنه مع فرقة صغيرة من جيشه دخل الجبال اللبنانية ، واستطاع أسر الأمير بشير الذي سيرسل مكبلاً إلى عكا ، وأن الجبليين في النهاية يطلبون رحمته وعطفه . ومع هذا التقرير أطلق باز العسكر الالبان طالباً منهم العودة إلى عكا ، وعقد فوراً حلفاً دفاعياً مع الأمير . وهكذا تم وضع حدّ للصراعات العائلية بين الأمير بشير وأولاد عمه . إلا أنه أمام تطورات الأحداث اللاحقة ، لم يكن مقدراً للجبليين أن يرتاحوا .

استشاط الجزار غضباً عندما أدرك بأن لبنان سيمتنع عليه ، وأن قبائله في حالة سلم ووفاق ، وعلى مدار سنوات ثلاث ظل يحاول بذر الخلافات بين القبائل اللبنانية ، عارضاً حماية على الأميرين سليمان وعباس ، أقرباء الأمير بشير ومعارضيه ، لكن عامة الشعب وقفت هذه المرة وراء أميرها . مما اضطر الجزار في النهاية ، وعملاً بنصيحة مسؤول خزينته البانكير اليهودي حاييم أن يرتضي بعدم دخول أي قرش زائد إلى خزينته ويوقف

---

(٥) سنة ١٨٠٠ . الناشر .

الدسائس وبذر الشقاق وأن يعترف بالأمير بشير أميراً على لبنان شرط أن يقدم ٤٠٠ ألف قرش ، ضرائب متأخرة عن السنوات الماضية ونصف مليون قرش جزية سنوية (١٨٠٣) .

نجح الجزار قبل عام من موته في إقناع الباب العالي بإعطائه بشليك دمشق ، ضامناً مقابل ذلك أمان قافلة الحج [٦] . تولى قيادة القافلة سليمان باشا ، أحد المماليك الذين كانوا قد تعرضوا في السابق لنقمة الجزار عند اكتشافه المغامرات العاطفية لرجال مماليكه مع الحريم . وقد استطاع سليمان باشا هذا ، وبعد سنوات من التشرد بين قبائل البدو ، أن يحوز من جديد ثقة الجزار ، وأن يتشرف بقيادة جيشه في عدة حملات . انتقم الجزار من سكان دمشق الذين رفعوا الشكوى مرتين بحق إدارته إلى الباب العالي ، وأقفلوا بوابة مدينتهم في وجهه ، ففرض عليهم غرامات كبيرة وجمع منهم الضرائب بطريقة بسيطة جداً : كان يطلب من كل متسلم أو رئيس سنجق أو مقاطعة كمية معينة من المال، في وقت محدد، ما هم إن دفعها هذا الأخير من جيبه . . أو من جيوب من يراه مناسباً من السكان . أما البدو الذين كانوا يرعون قطعانهم في بشليك دمشق فكان من الصعب الحصول على الأموال منهم ، فأخذ الجزار منهم ١٠٠ ألف رأس من الخيل والجمال والأغنام ثم أجبر سكان المدينة على شرائها بالقوة معطياً البدو في بعض الأحيان فرصة استعادة مواشيهم المصادرة وافتدائها حسب اتفاق متبادل مع المستهلكين .

عرف بشليك عكا منذ فترة بعيدة نظام الجزار المالي : احتكاره التجارة وحصرها في يديه . بدايات هذا النظام كانت في القرن الثامن عشر ، يوم بدأت الحكومة التركية ومن ثم الباشاوات باحتكار بعض السلع والمنتجات بعد أن كانت التجارة حرة، تماماً في تركيا . الشيخ ظاهر العمر وجد في احتكاراته الوسائل اللازمة لتحقيق مخططاته العظيمة . الجزار بمساعدة المرابي حاييم ، الذي خسر أنفه وأذنه ، ذات مرة أراد الجزار فيها أن يمازحه ، لم يكتف باحتكار السلع والمنتجات التي حددها سابقوه، بل عمم هذا النظام على كل مجالات الادارة . وهكذا ، مثلاً طرح في المزاد مجلس المدينة (ديوان ـ مشورة) أو الدوما ، مانحاً الشاري الحق تسمية الأعضاء والسكرتاريا ، الذين كانوا يدفعون لقاء منصبهم بدلاً معيناً . حتى الحق العجيب بجمع الضرائب من المدن كان يباع في المزاد مرة أو مرتين سنوياً وكان الشاري بدوره يختار على هواه مواطني المدينة والتجار أو أطفالهم ويعذبهم إلى أن يدفعوا الكمية المفروضة . ولا يزال الناس في بيروت

---

(٦) سنة ١٨٠٣ . الناشر .

يذكرون كيف أن عائلات بأكملها هاجرت في البحر طلباً للنجاة من معذبيها . . . أمام مثل هذه التفاصيل التي يتهمها بالمغالاة ، فقط جاهل بأمور الأتراك في العاصمة ، كما في بقية المناطق ، يبدو الدخول في التحليل والنقاش إطناباً وزيادة في القول غير مبررة ، لأنها كتفاصيل ، تشرح بالشكل الأفضل الوضع الأخلاقي والمادي في سوريا .

لا تلاحق اللعنة ذكر الجزار ، فالشعب يحفظ فقط أخباراً عن مجده وقوته ، عن ثرواته وطبعه الجريء والقوي . صحيح أن غرائبه نفسها ، تسلياته الدامية ، والقصاص الذي تعرضت له مناطق بأكملها ، أفعال تثير دهشة الآسيويين ، لكن الخوف الذي نشره الجزار أبعد ذكره مستبداً عن ألسنة الشعب . الآسيويون يخضعون منذ القدم للجبروت وحسب ، بغض النظر عن صاحبه . في قساوة حاكمه ، يرى الآسيوي قرارات حتمية لمصيره ، لحظه الذي لم يعتد التذمر منه . المسجد الجميل الذي شيده الجزار في عكا مع مضافة واسعة ونافورة مياه رائعة ، كلها دعوات للمؤمنين إلى الترحم على عبد الله وفقيره أحمد ، الراقد في قبر مجاور للمسجد ، والذي انتقل إلى رحمته في نيسان ١٨٠٤ م .

رأينا كيف نجح الهارب الحافي القدمين ، الشريد أحمد ، في أن يصبح بواسطة عبقريته ، الباشا الجزار الشهير . وإذا كانت ظاهرة الجزار تعبيراً عن الوضع السياسي آنذاك ، فإن الأحداث والظروف التي تبعت موته تساعد في التقييم الصحيح لعلاقة الباب العالي بهذه المنطقة ودرجة تأثيرها على مصر وسوريا .

قبل موت الجزار بـ ١٢ سنة ، كانت الحكومة العثمانية قد كلفت خليل باشا ، الذي كان آنذاك قد عزل في الظاهر عن بشاليك طرابلس ، بقتل الجزار حيلة ، بعد أن تأكدت بأنها لن تستطيع ذلك عنوةً . إلا أن الجزار لم يكن ليحتفظ هباءً بجواسيسه في العاصمة ، أو لينثر الذهب لأعضاء المجلس الأعلى بدون مقابل ، وعلى هذا فقد أعلم عن طريقهم في الوقت المناسب بما يعد له في العاصمة فبادر إلى قتل خليل باشا بالسم واستولى على أملاكه . ومنذ ذلك الوقت والباب العالي مجبر من ناحية ، على الأخذ بتأكيدات الجزار عن ولائه ووفائه للكرسي ، السلطاني ، بالرغم من احتقاره الكلي والمعلن لكل الفرامانات السلطانية ، ومجبر من ناحية ثانية ، على القبول بتلك الكمية من الضرائب التي كانت تسمح بها نفس الجزار العجيب . ما إن وصل خبر مرض الجزار إلى عاصمة السلطنة حتى كلف والي حلب ابراهيم باشا سراً بوضع يده مباشرة على بشليك عكا فور موت الجزار ، وبرفع تقرير عن كنوزه لخزانة السلطنة . كان ابراهيم باشا يملك

الفرامانات اللازمة لتنفيذ مهمته ، إلا أنه تباطأ ولم يباشر ، إضافة إلى أن مدير كي آي (غرفة عمليات) الجزار ، وخوفاً من انتقام الجند وكرههم للباشا ، قام بإخفاء خبر موت سيده يومين أو ثلاثة واستدعى من السجن اسماعيل بك ، شخص أقرب لأن يكون مجهولاً ، كان في خدمة الجزار وما لبث أن تعرض لنقمته ، استدعاه وأعلنه باشا زاعماً أنها وصية الجزار .

نجحت المؤامرة وحاز الحاكم الجديد ، الذي تخلص لتوه من السلاسل ، على ولاء المماليك والجيش ، الذين كانوا يلعبون على امتداد البشليك دور الانكشارية الأسطمبولية وغلمان السراي . وأول ما قام به اسماعيل كانت توزيع المكافآت المنتظرة على هؤلاء والتي بلغت ٧٠٠ كيس (ما يقارب ٣ ملايين روبل فضي) غير مكترث بما يمكن أن يقال عنه في العاصمة ، وكذلك أصدر أوامر باسمه لكل السناجق التي كانت تابعة لسلفه .

أجاب الأمير بشير من ناحيته ، الباشا الجديد بخبث ، بأنه لن يتأخر عن الاعتراف به فور صدور فرمان السلطان ، ثم إنه عندما علم بأن باشا حلب وصل دمشق في طريقه لمهاجمة عكا بأمر من الباب العالي ، راح الأمير بإرسال الهدايا لهذا وذاك ، مماطئاً ريثما تنجلي الأمور .

سليمان باشا آمر جيوش الجزار ، انضم فور عودته من مكة إلى جيوش باشا حلب ، كذلك انضم لمساعدتها الأسطول العثماني بقيادة كابودان باشا ، ووصل أيضاً الكوميسار المكلف بوضع تقرير عن خزينة الجزار . أمام كل هذا الزحف أقفل اسماعيل باشا مدينة عكا واستعد للدفاع . الخلاصة أن كلا من ممثلي الباب العالي كان يتصرف ، وقبل كل شيء من زاوية مصالحه الخاصة . فبدلاً من أن يحاصر كابودان باشا عكا ويهاجمها من البحر ، دخل في مفاوضات مع اسماعيل باشا ، انتهت بأن يحمل أسطوله بجزء من كنوز الجزار يقتسمه مع السلطان ، مقابل أن يسعى (كابودان باشا) لاسماعيل بطلب العفو وتثبيته في البشليك من قبل الباب العالي .

الباشاوات إبراهيم وسليمان أوقفا الحصار بعد خطوة كابودان باشا هذه ، أما راغب أفندي قوميسار الباب العالي ، والناقم الأول على كابودان باشا لأنه غنم رشاوي ليست أصلاً من حصته ، بل من حظ القوميسار وبعد أن اختلف مع إبراهيم باشا ، عقد (راغب) حلفاً مع سليمان باشا ، يحصل بموجبه سليمان باشا على باشوية عكا مقابل حصوله على تركة الجزار . وبالفعل رجع راغب أفندي إلى العاصمة وعاد مسرعاً بفرمان

يسمي مرشحه سليمان باشا والياً على عكا . في هذا الوقت كان سليمان باشا قد نجح في استمالة قبائل المتاولة وجبلي نابلس إلى جانبه ، ثم انضم اليهم جميعاً الأمير بشير بعد أن استلم أمراً من الباب العالي بالوقوف إلى جانب سليمان باشا . وأخيراً استطاع سليمان باشا حسم الأمر لصاحبه ، وتفصيل ذلك أن اسماعيل باشا المزهو بوعود كابودان باشا ، خرج ذات مرة في حملة لإخضاع البشليك وجمع الضرائب ، فتصدى له سليمان باشا في الناصرة ، قاتل اسماعيل وحاميته بشجاعة فائقة ، إلا أنه هزم بخيانة من حراسه وسلم إلى المنتصر ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث عرض رأسه عند بوابة السراي .

انتصار سليمان باشا هذا لم يفتح أمامه طريق عكا ، لأن جيوش اسماعيل المهزومة أقفلت على نفسها القلعة مطالبة بدفع المعاشات المستحقة لها أثناء خدمتها تحت إمرة الباشا المهزوم ، إلا أن اليهودي حاييم بانكير الجزار ، تدارك الصدام وبواسطته دخل سليمان باشا إلى القلعة معاهداً الجند على دفع الأموال . وهكذا انتقلت مصائر البلاد الواسعة ، في ظل خطى السلاطين المترددة ، من باشا إلى آخر على يد يهودي مجدوع الأنف .

وجدت في خزينة الجزار كنوز تفوق كل تقدير ، فعدا عن الأموال التي سرقت خلال العواصف التي تبعت موته ، والأموال التي وزعت على الجيوش المتحاربة في معارك خلافته ، وعدا عن كل ما وقع في يد خليفته سليمان وحليفه الكوميسار راغب أفندي ، الذي أسرع من العاصمة للاشتراك في الوليمة ، عدا عن كل هذا ، فإن الأموال التي أرسلت إلى العاصمة فاقت الـ ١٠ ملايين روبل فضي . وهكذا لم يكن للباب العالي أن يشتكي من عصيان باشاواته ، فثروات العصاة ومسروقاتهم كانت تصب في نهاية الأمر في خزينة السلطان التي تشبع خيراتها الحاشية أولاً ثم مبعوثي الديوان المطلقي الصلاحيات وفوق العادة . وكلما كان عصيان الباشاوات طويلاً ، دون أن يتصدى الباب بقصاص حازم ، كلما كان الحصاد وفيراً . أما زعيق الشعب فلم يكن بمقدوره الوصول إلى آذان السلطان ، خاصة أنه كان في مناطق بعيدة ، وعلى افتراض مزدوج بوصول هذا الزعيق وإصغاء السلطان إليه ، فإن شنق السارق حسب مفاهيم العدل التركي كان كافياً لإرضاء الشعب المسروق ، أما المسروقات فتصب في مطلق الأحوال في الخزينة السلطانية .

بعد استتباب الأمور في يد سليمان باشا ، اجتمع في عكا مع راغب أفندي والبانكير اليهودي حاييم لدراسة وضع الخزينة والادارة في البشليك ، اليهودي وهو مسؤول

الخزينة زمن الجزار ، كان له في هذا الاجتماع الدور الأكبر ، انطلاقاً من أن الجباية تلعب الدور الأساسي في تنظيم الادارة . جردة حسابات الجزار دلت المجتمعين على أن السندات والايصالات التي يتوجب على الأمراء اللبنانيين ، أو على الطامحين إلى الإمارة في لبنان ، دفعها تقدر بحوالى ٤٠ ألف كيس أي ما يقارب الـ ١٥ ـ ١٨ مليون روبل فضي . أجاب الأمير بشير الذي طولب من قبل المجتمعين بسدادها ، بأن هذه الأموال مدفوعة بكاملها تقريباً من زمن بعيد ، وأن الجزار كان يقبضها حسب الايصالات المبينة ، دون أن يعود ويرجع هذه الايصالات لأصحابها . وفي النهاية ، وبعد مباحثات طويلة دفع الأمير ما يعادل الـ ١٥٠ ألف روبل فضي علاوة على الضرائب ، وثبت في إمارته بالرغم من دسائس منافسيه .

مستنداً إلى بعض الطمأنينة التي شعر بها الشعب في ظل ولاية سليمان باشا ، وإلى علاقته الحسنة مع هذا الباشا الجديد ، راح الأمير بشير يعمل لتقوية سلطانه وترويض أركان حكمه الذين تعودوا التصرف على هواهم في فترة الحكام السابقين . خاصة وأن الإدارة الهادئة التي كان يحكم بها أبناء الأمير يوسف سنجق جبيل ، تحت مراقبة باشا طرابلس ، أكسبتهم محبة الموارنة ليس في جبيل فحسب بل وفي لبنان أيضاً ، وهذا ما أثار حذر الأمير ثم نقمته لاحقاً . ولا ننسى الحديث هنا عن جرجس باز مستشار أبناء الأمير يوسف الذي أصبح حليفاً صادقاً للأمير وخير مساعد له فكراً وسيفاً ، كذلك كان أخوه الباز الصغير الذي خلف أخاه في منصب المستشارية عند أبناء الأمير يوسف .

أقلق تأثير الأخوين باز وشعبيتهما لدى الموارنة في جبيل ولبنان ، بال الأمير الساعي إلى سلطة مطلقة . وكمقدمة للقضاء على وزيره الأول وحليفه جرجس باز أوكل إليه وبصلاحيات واسعة مهمة تحقيق تدابير عديدة تفضي إلى تنظيم أفضل لشؤون الإمارة ، ولكنها مبعث استياء في صفوف المشايخ . وفي مجالسه الخاصة ، كان الأمير يطلق إشاعات ذكية تزعم أن هذه الاصلاحات والتدابير الجديدة هي من ابتكار الأخوين باز في جبيل . وبعد نضوج الاستياء كلف الأمير بشير أخاه الأمير حسن بتدبير مؤامرة ، وقد نجح الأمير الصغير بالفعل ، وبدعم من المشايخ المستائين في احتلال جبيل ، وقتل صغير الأخوين باز ، وخنق كبيرهم في السجن ، وخلع أبناء الأمير يوسف الذين اقتيدوا إلى الأمير فأطفأ أبصارهم بالحديد المحمى وقطع ألسنتهم على عادة مشايخ ذلك الوقت . دخل سنجق جبيل في الادارة اللبنانية من جديد ، وعين الأمير ابنه القاسم حاكماً عليه ، وقد أقر هذا التعيين مصطفى بربر الذي كان قد استولى على بشليك طرابلس في هذه الفترة . وهكذا قوي سلطان الأمير «وطبقت شهرته الآفاق» حسب تعبير العرب .

في دمشق كان الباب العالي يبدل باشاواته باستمرار لعدم قـدرة هؤلاء ضمان أمن طريق قافلة الحجيج إلى مكة ، حيث كانت تحصل كل عام حوادث مؤسفة ، خاصة بعد أن تمكن الوهابيون ، وقد بلغت قواهم ٣٠٠ ألف خيال بزعامـة ابن سعود وأولاده من احتلال مكة ، وخلع حفيد محمد ، الشريف الذي كان يدير المدن المقدسة في الجـزيرة العربية بتكليف من الخليفـة . لم يكن الوهـابيون يعتـرفون بـالسلطان العثماني ، وقـد وصلوا بدعوتهم المتزمتة حتى حدود سناجق سـوريا الشـرقية ، وكـان باشـاوات دمشق يشترون من هؤلاء المنشقين وبأموال طائلة السماح بزيارة مكة مع الرضوخ طبعاً لشروط مهينة أو صعبة . مثلاً كان يطلب الوهابيون ، وليس هـذا هباءً ، أن تخلوا القـافلة من الأولاد أو بشكل عام من كل من لا يملك لحية ، وبالرغم من ذلك فإن القوافل كانت تموت جوعاً في الصحراء لعدم قدرتها على حماية مؤونتها من خيالة الوهابيين المفترسين . وهكذا بينما كانت قوافل الحج في النصف الأول من القرن الماضي تضم من ٧٠ إلى ١٠٠ ألف شخص ، يبعثـون حيويـة في الـوضـع الاقتصـادي عن طـريق المقـايضـة ، فـإن القـوافل التي تنـطلق اليوم لا يـزيـد عـددهـا عن ١٥٠ ـ ٢٠٠ شخص لا غيـر ، من الشديدي الايمان الراضين بما يكتبه الله من قدر طريق مليئة بالمخـاطر والصعـاب . هذا الوضع بالطبع أدى إلى زيادة التدمير في كل الأمبراطورية .

لم يدر الباب العالي كيف يتصرف أمـام هذه المعضلة ، فعين واليـاً على دمشق يوسف كنج الذي كان آمراً لبضع مئات من الخيالة عند باشاوات دمشق ، والمعروف في المنطقة بمعاركه ضد الوهابيين . صحيح أن يوسف كنج ، لم يوقف خطر الـوهابيين لكنه قدم خـدمة كبيـرة للدولة ، من نـاحية ، بـالقضاء على عـدد كبير منهم بـواسطة انكشاري دمشق ، ومن ناحية ثانية ، بإخضاع قبائل الانصاريين والاسماعيليين وفرض الجزية عليهم بعد أن دمر قصـورهم وقضى على استقلاليتهم المتـوحشة . العصيـان والنزاعات بين الباشاوات كانت لعنـة سوريـا المعتادة . حتى أن مصـطفى بربر آغا الـذي عيّن ، صدفة آمراً لقلعة طرابلس ، احتل كل المنطقة وأخذ الضرائب من الناس دون حساب ، ولم يعترف بأية سلطة عليه ، لكن باشا دمشق سـار إليه بجيش كبيـر وحاصره في القلعة واضطره للهروب إلى عكا . اشتم البـاب العالي من خـطوة باشـا دمشق هذه رائحة الجزار ، فوضعه على المحك بالطلب إليه أن يساهم بالحرب ضد الروسيا ، بجيشه وخزينته (٧) ، فاعتذر الباشا بالخطر الوهـابي على حدوده . عنـدها

(٧) المقصود الحرب الروسية التركية ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ ، التي انتهت باتفاق بوخارست السلمي .

كلف الباب العالي سليمان باشا ، الوفي الهادىء الطباع ، قتل جاره واحتلال بشليكه . سليمان باشا بدوره أوكل الأمير بشير بهذه المهمة ، فحاصر الأمير دمشق بـ ١٥ ألفاً من رجاله وطلب من سكانها تسلم الباشا العقوق تحت التهديد بإنزال ٥٠ ألف جبلي من لبنان وإباحة المدينة أمامهم . يوسف كنج لم يصمد طويلاً ، خاف من جنوده الذين أحسوا بقرب نهايته فأخذوا يسرقون حتى أملاكه ، فحمل خزينته وهرب إلى أنطاكيا ومنها إلى مصر ، حيث استقبله محمد علي بحفاوة ، لكنه ما لبث أن توفي فجأة سنة ١٨١٥ تاركاً لباشا مصر كل ما حوته خزائنه .

احتل سليمان باشا بشليك دمشق ، وأعاد مصطفى بربر من جديد إلى طرابلس . محمد بك أبو نبوت [٨] ، واحد من المستبدين الصغار الذين فاضت بهم تركيا ، احتل سواحل فلسطين لسنوات ، وحصن يافا لموقعها الاستراتيجي ، وعمر شاطئاً مزداناً ببطاريات مدفعية على مستوى الماء ، وترك في المدينة نافورتين جميلتين مع كثير من الذكريات الشنيعة المخيفة . قبل موته بقليل ، وبإذن من الباب العالي جهز سليمان باشا نحو أبي نبوت جيشاً أجبره على ترك يافا والفرار إلى مصر ١٨١٩ . ومن يومها دخلت سواحل فلسطين في عداد بشليك عكا . أما محمد بك أبو نبوت وبمسعى محمد علي باشا ، فقد استحصل على عفو السلطان مع براءة بحكم بشليك سالونيك .

كان سليمان باشا يكافىء الأمير بشير باستمرار ، ويقدم له تشريفات كثيرة ، فأضاف لإمارته وادي (كيلي سوريا) المعروف اليوم بالبقاع ، الوادي الذي يمد لبنان بالقمح ، وهذا مبعث سرور للأمير لأنه منبع غنى له ولعائلته .

عندما كان الأمير يتيماً في الثاني عشر من عمره ، يفتش عن خدمة لدى عمه الأمير الحاكم يوسف ، كان متاعه من الدنيا مهر أسود لا تزال فصيلته تعيش في خان الأمير ، وسيف واحد ، وحمل دابة من الحاجيات المنزلية . وكان يسكن في بيت صغير متواضع في قرية صغيرة ، بيت الدين [٩] قرب دير القمر . أما الآن ، وبعد أن أصبح حاكماً فرداً في الجبال بلا منازع ، سلطته تتعدى بأشواط سلطة أي من سالفيه ، أبدل مسكن فتوته المتواضع ، قصراً رائعاً مع نوافير رخامية وأعمدة خفيفة من كل عجائب

---

(٨) أبو نبوت ، سمي كذلك للنبوت الدائم الذي كان يحمله في يديه لتخويف الآخرين . كان يعذب العصاة ويقتلهم بيديه .
(٩) بيت الدين أو بتدين ، تسمية تعني برأي أحدهم «ما بين مرتفعين» وهذا يتفق مع موقع القصر الجميل الحالي .

فن العمارة العربي ، وجرّ السيول الجبلية إليه من مسافة ٢٠ ميلاً [١٠] . هذه المياه التي تشعل الحياة والخضرة في الرمل وفي الصخر جعلت التلال المحيطة بهذا القصر مغطاة بالحدائق والبساتين . اسطبلات القصر كانت تعج بمئات من الأفراس العربية الأصيلة من الصحراء السورية والحجاز . حراس الأمير ، أكثر من ألف خيال من النخبة كانوا يؤلفون حامية القصر وكانوا حاضرين عند أول إشارة للانطلاق في كل الاتجاهات لتطبيق أوامر السلطة المركزية للجبل ، التي حلت شيئاً فشيئاً محل الادارة الذاتية الاقطاعية ، وخففت من وطأتها على السكان في ظل هذا الأمير الموهوب . السلطة المركزية هذه كانت ترتكز ليس على إخضاع المشايخ وإنما على الاعتراف الشعبي . الرخاء المنتشر في لبنان ، إضافة إلى عدل سليمان باشا الذي استبدل نهب الجزار بضرائب معتدلة ، أفسح في المجال أمام الأمير ، لأن يجمع من الشعب ، دون ضغط أو إكراه أموالاً طائلة ، حافظ بواسطتها على بريق قصره وانتشار بذخه ، اللولب القوي للتأثير السياسي في كل العالم الآسيوي . ومن ناحية ثانية صادر الأمير بشير إقطاعات المشايخ المذنبين وأتحف بها أبناءه .

في هذا العهد الزاهر اعتنق الشهابيون المسيحية ديناً ، عن اقتناع أم لحسابات سياسية ؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال . الواقع أن بيت الإمارة الشهابي المسلم ، المشلوح ، بلا سند ، في لبنان بين المسيحيين والدروز ، كان يضطر لمحاربة الباشاوات ، دون أن يجد متكئاً ، في ظل الفوضى المزمنة ، سوى العناصر المحلية، ولذلك لم يستطع البقاء طويلاً أميناً لدين أجداده. الانتساب العائلي للنبي صلعم العربي لم يكن ضمانة كافية لوفاء الأحفاد للقانون المحمدي . كان يقطن لبنان الدروز والمسيحيون فقط . كان محتماً على إحدى هذه القبائل ، إن عاجلاً أم آجلاً القبول في أحشائها بيتاً حاكماً غريباً عن المسجد وفقهاء الاسلام . دخل الدروز مرحلة الانحدار في عهد فخر الدين . كان دينهم خليطاً من العقائد التي صاغتها مخيلة الخليفة المصري . دين بدون فكرة أساسية وبدون عواطف ، وهو في نفس الوقت غريب عن الطقوس النيرة للوثنية والأسفار الخيرة لليهودية ، والابتهاجات النقية للمسيحية ، والدوافع الجبارة للاسلام . وكان هذا الدين محكوم بصراع لا هوادة فيه

(١٠) في بناء القصر وجر المياه إليه سخر الأمير الفلاحين اللبنانيين . بناء قنوات الجر امتد ما يقارب الأربع سنوات (١٨٠٨ ـ ١٨١٢) ، وبناء القصر امتد حوالى ٢٠ سنة ابتداء من ١٨١٠ . في الوقت الراهن تحافظ الحكومة اللبنانية على القصر كمعلم تاريخي . الناشر .

مع نجاحات الفكر . ولن ينقذه السر الممتنع الذي أحاط نفسه به ولا غموضه العظيم ، من القانون الحتمي الذي أودى إيزيدا الحكيمة .

كان الموارنة أكثر عدداً وأقدم من بقية المسيحيين اللبنانيين ، أقاموا في كسروان بإشراف نبلاء من طائفتهم ، مؤلفين عنصراً من عناصر التطور السياسي . استطاع رجال كهنوت روما النشيطون أن يتغلغلوا داخل هذه القبيلة ، وأن يزرعوا في هذه الناحية تأثير السلطة الروحية ـ المستعر في الغرب ـ عن طريق تعليم الشبيبة والتحكم بأفكار الشعب . التركيبة الداخلية لقبيلة الموارنة قائمة على عنصري : التيوقراطية والاقطاع . دور الموارنة القيادي الأول كان في عهد الأمير يوسف الذي كان يخضع مباشرة لتأثير مدبره الماروني سعد الخوري ، وتأثير ولده غندور من بعده ، وهو نفس الدور الذي لعبه فيما بعد الأخوان باز المارونيان . ولا بد من الإشارة إلى أن اعتناق الأمراء الشهابيين للمسيحية لم يستطع أن يكون لا احتفالياً ولا شاملاً ، ففي دولة يعتبر فيها الارتداد عن الدين جريمة عقابها الموت (١١) كان لا بد لهذا التحول من أن يكون سرياً ، خاصة وأنه كان مبنياً ، من ناحية على أساس التسامح الديني الذي يشكل امتيازاً أولاً للقبيلة الجبلية ، ومن ناحية ثانية على برودة العلاقة بين الشهابيين ودين آبائهم وأجدادهم .

يقال إن الأمير الشهابي علي ، كان أول من اعتنق المسيحية سراً ، وذلك في عهد الأمير يوسف . رجال الكهنوت الموارنة فسروا هذه الظاهرة بالأسطورة التي ترويها أسفارنا عن اعتناق القديس فلاديمير المسيحية بعد النقاشات اللاهوتية مع اليهود والمسلمين والمسيحيين . إلا أن أحفاد الأمير علي أنفسهم أرجعوا ، على مسمعي ، سبب تحول جدهم الديني كان بسبب زواجه من قبيلة الدروز ، امرأة أحبها وبادلته الحب عظيماً وغيرة قوية ، فخافت أن يستعمل مستقبلاً حقه كمسلم ويتزوج من أخريات إن دخل علاقتهما السأم أو بعض الملل ، من هنا توجهت معه نحو الدين الذي يؤمن لها حقوقها الزوجية المقدسة ، وبواسطة بطريرك ماروني موهوب نجحت من ثم بتحويل زوجها عن دينه إلى المسيحية .

---

(١١) هذا القانون كان يطال أيضاً المرتدين عن المسيحية المتحولين نحو الاسلام ، ومن ثمّ عادوا فأعلنوا رغبتهم بالعودة إلى الكنيسة . سنة ١٨٤٤ وبمسعى من ممثلي الدول الكبرى في القسطنطينية خفف هذا القانون . وعد الباب العالي بعدم الحكم شنقاً على المرتدين ولكنه لم يتعهد في الوقت نفسه بالسماح بدون قيد أو شرط بالعودة إلى المسيحية . إلا أن هذا التخفيف لا يعني أن القانون سيتحول مع الزمن في مصلحة المسيحيين . في مثل هذا البلد حيث يترافق الارتداد عن الدين بامتيازات عظيمة ، يؤدي الارتداد الكيفي أو غير المقاصص إلى إضعاف الروح الدينية لدى الجماهير .

هذه الرواية عن بدء تحول الشهابيين نحو المسيحية تبدو أقرب إلى الصحة ، إذ أن أحداً من الشهابيين لم يهتم للتاريخ العالمي فيغرف منه أفكاراً ترتكز إلى قوانين شمولية تدير المجتمعات البشرية ، والتي تحت تأثيرها وعبر الحقب الطويلة كان الانجاز المقدس بتحول الحكام والشعوب نحو المسيحية . وهو تحول في مصلحة النساء لأنه أعطاهن امتيازات ، لولاها لتعرضت حقوق نصف البشر في اليونان المزدهرة ، وروما المرهفة وجمهورية أفلاطون المثالية ، للانتقاص ، والاهانة التي تغرق فيها نساء الشرق حتى اليوم .

الأول بين الأمراء الحكام ، الذي اعتنق المسيحية وإن بشكل باطني ، كان الأمير بشير ، وتبعه من بعده كل أقربائه تقريباً . وظل الأمير يخفي دينه طيلة فترة ولايته ، ولم يظهره حتى أبان الحكم المصري الذي تميز بتسامحه الديني الذكي . أكثر من ذلك كان يؤدي ظاهرياً وبانتظام كل الفرائض الدينية الإسلامية ، كأن يصلي في المسجد إذا ما استضافه أحد الباشاوات، أو يقسم الإيمان بمحمد صلعم أمام جمهور من المسلمين، وحتى أنه كان يؤدي في قصره في بيت الدين المحاط بالمسيحيين ، فريضة صيام شهر رمضان ، رافضاً كأس الماء حتى في حر الصيف ، متخلياً عن غليونه الذي يظل دخانه يتعالى من فمه في أوقات أخرى. بالمقابل كان يقيم الأمير في قصره وفي جوسق جميل قداساً يومياً يخدم فيه راهب كاثوليكي ، تحت ستار مفاده أن زوجته الشركسية اعتنقت الدين المسيحي . لامارتين عندما زار بيت الدين سنة ١٨٣٢ ، وصف دين الأمير باللغز مؤكداً بأنه (أي الأمير) لم يكن يملك أية قناعات داخلية ، فقد كان درزياً مع الدروز ، مسيحياً مع المسيحيين ، مسلماً مع المسلمين . هنا ، كما في أمور أخرى أخطأ لامارتين لتجاهله الظروف السياسية التي كانت تجبر الأمير على إخفاء دينه ، لقد كان مسيحياً عن اقتناع تام بدينه والدليل أنه أمسك عن الزواج طيلة ١٥ سنة ، فترة مرض زوجته الأولى وأمسك كذلك عن الجواري اللواتي رباهن على الدين المسيحي نساء لأبنائه وأحفاده . فقط بعد وفاة زوجته تكلل على واحدة منهن . كل فرائض الإسلام الخارجية كان يؤديها حسب الضرورة إلا أنه لم ينتحل لا هو ولا أسلافه الصبغة الدرزية كما يفترض لامارتين .

أما في ما يتعلق بأعمال الشنق والخيانة والقسوة التي لجأ إليها لتثبيت سلطته والتي لا تتفق وروح المسيحية ، فمن المعروف أن الكهنوت الكاثوليكي كان متساهلاً إذا تعلق الأمر بتدابير سياسية ، خاصة وأنه كان من السهل التخلص من هذه الذنوب واستكتاب تسامح روما . وهكذا كان بإمكان الأمير بشير أن يكون كاثوليكياً فعلياً

متحمساً ، وأن يبقى في نفس الوقت وفياً للأسلوب الدموي الذي نهجه أسلافه منذ القدم [١٢] . كان من السهل التكتم في أمر تعميد الأطفال ، أما مراسيم الدفن على الطريقة المسيحية فمن الصعب إخفاؤها . غالباً ما كانوا يستدعون رجال الدين الكاثوليك إلى البيت لإتمام كل ما يتعلق بالميت من مراسيم وصلوات جنائزية ، ثم بعد ذلك كان يؤتى لتغسيل الميت وحمله إلى المقبرة على الطريقة المحمدية . وتجنباً للإشاعات بين الناس عن ماهية دينه ، أقدم الأمير الحذر على منع أفراد أسرته من الظهور بتاتاً في المدن الواقعة تحت سلطة الباشاوات ، لئلا يتعرض لهم أحد ، وليأمن على أولاده وتالياً على نفسه الخطر الذي يهدده ، كخائن للاسلام وهو ، حفيد النبي محمد صلعم ، وسنرى فيما بعد أن هذه الصاعقة المتجمعة انفجرت في رأس خلفه لاعترافه بمسيحيته جهاراً .

أمراء أبي اللمع الدروز ، أقرباء الشهابيين ، ومالكو سنجق المتن الغني حيث القسم الأكبر من السكان المسيحيين ، والمتاخم لسنجق كسروان ، هؤلاء الأمراء اعتنقوا الدين المسيحي ، المذهب الماروني . الملفت أن الأمراء المولودين مسيحيين أو المعمدين في سن العشرين أو ما بعد الأربعين من شهابيين أو لمعيين ، يحتفظون حتى الآن بكثير من دياناتهم القديمة . كانت تعطى لهم عند التعميد الأسماء المسيحية يوسف وسليمان وغيرها ، وتبقى لهم في التداول أسماء أخرى ليست بالمسيحية مثل محمد ، أحمد ، مراد ، علي ، حيدر ، وغير ذلك من الأسماء التي يغلب عليها الطابع الاسلامي . وبدون أن يطلبوا سماح البابا كما يفعل الكاثوليك الآخرون ، كانوا كما في الأديان القديمة ، يتزوجون من قريباتهم ، عدا الدرجتين الأوليين [بنت عم أو خال ، أخت] . وهذا طبعاً يتعلق بمفهوم الأمراء عن النبل وصفاء الدم وعدم إمكانية التفتيش عن عروس من خارج القبيلة ، عدا المحظيات بالطبع [١٣] كانت الكنيسة

---

(١٢) كتبت سيرة الأمير بشير في عددين من مجلة Revue d'Orient (تشرين الثاني وكانون الأول ١٨٤٥) ، بقلم منحاز ومتعصب دينياً . محاولات الكاتب غسل بطله من تهمة النفاق الديني تثير الضحك . عندما يتذكر الجميع في سوريا حياة وأعمال الأمير الشهيرة ، يؤكد الكاتب ، وكأن المسألة صدفة ، بأن الأمير وجد نفسه مرة مجبرا على مرافقة سليمان باشا إلى المسجد ، وهناك تجاوز هذه المحنة باللعنات والصلاة المسيحية . أما في ما يتعلق بالأعمال غير المسيحية مثل قتل العم ، ومفضل سابق عليه ، فقء عيون الإخوة إلى ما هنالك ، كل هذا أغفل أو نسب للدروز ، وكأن مسيحيي هذه البلاد ، لم يعودوا قادرين على هذه المساوىء ، وكأن الأمير بشير ، مؤسس السلطة الفردية في لبنان كان ألعوبة في يد المشايخ المحيطين به .

(١٣) كنا قد أشرنا إلى أن النبلاء اللبنانيين يحافظون بدقة على أصولهم (حسب تعبير العرب) ، إذ أنهم يبتعدون عن علاقات القرابة مع أناس أدنى رتبة ، حتى الأسماء متميزة بين النبلاء والطبقات الدنيا . لا يطلق الأمير على ابنه أبداً لقب جورج ، =

الرومانية تغض النظر بالطبع عن مثل هذه التجاوزات الدينية لاهتمامها وغبطتها بالمكتسبات السياسية والأشكال التبشيرية في هذه المنطقة من الشرق ، وكانت تكتفي بإقلاع الأمراء المسيحيين عن تعدد الزوجات وحرية الطلاق . ويتحدثون هنا عن أن بعض الأمراء أعربوا عن رغبتهم في اعتناق المسيحية البروتستانتينية ، إلا أن صرامة الكنيسة اليونانية وحزمها في تأدية القواعد الكنسية المتعلقة بعقد القران شكلت العقبة الوحيدة أمام تحقيق ذلك .

كان لتحول الأمراء نحو المسيحية آثاره السياسية الهامة في منطقة سوريا ، والتي لا نستطيع تحديدها الآن . قبيلة الموارنة التي كانت مغمورة تماماً حتى هذه الفترة ، لم تحصّل بواسطة أرستقراطيتها ، فقط التفوق السياسي على كل قبائل سوريا ، عدا المسلمين ، إلا أنها إضافة إلى ذلك جذبت نحوها تعاطف الغرب وغدت أكثر اقتراباً من أوروبا . الرأي العام الأوروبي كان يعطي الموارنة نوعاً من الاستقلالية بالنسبة للقبائل السورية ، وهي استقلالية يعسر فهمها لأي مراقب حيادي . ومهما يكن من أمر ، فقد فتح اعتناق الأمراء للدين المسيحي صفحات جديدة في تاريخ الموارنة السياسي . كانت دائرة عمل رجال الدين الكاثوليك تتسع تدريجياً وكانت تتضاعف وتقوى وسائل عملهم . ومع هذا الانقلاب السياسي بدأت تظهر عوارض الصراع ، ليس تحت أعلام حزبين أرستقراطيين متعاونيين كما كان في السابق ، بل صراع شعبي بين قبائل ذات أديان مختلفة ، وهو صراع دموي عنيف أغرق لبنان بالنار والدم ، مرتين في أيامنا هذه .

لم يكن اعتناق الأمراء الشهابيين للدين المسيحي على قدر من الصلابة ، على الرغم من الحماس الذي يبديه المعمدون الجدد ، وخاصّة النساء والأطفال . وقد بدت هذه الهشاشة في الإيمان بعد خلع بشير وإبعاد عائلته إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى ، إذ تحول بُعيد هذا الحدث ، كل أولاد الأمير وأحفاده تقريباً ، وحتى الذين ولدوا مسيحيين ، إلى محمديين من جديد بين عامي ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ م .

شهابيو وادي التيم تابعوا علاقتهم بفخذ العائلة في لبنان ، بقطع النظر عن ارتداده

= ايفان ، حبيب ، بطرس أو غير ذلك من الأسماء المتداولة عند الشعب . النبلاء يأخذون أسماء خليل، منصور ، بشير ، يوسف ، يونس ، قيس ، حيدر ، ملحم الخ . . . مع أننا قد نجد هذه الأسماء أحيانا لدى عامة الشعب . استطراداً نذكر هنا ، أن مسيحيي كل المذاهب في سوريا يحملون أسماء تعودنا اعتبارها محمدية ، أمثال عبد الله سليم (حارث باليونانية) ، أسد ، أمين وغيرها .

عن الإسلام ، معترفين كذلك بسلطة الأمير وحقه في حمايتهم ، وظلوا بالطبع أوفياء لكل عاداتهم وتقاليدهم السابقة بما فيها الدسائس العائلية وتلطيخ الأيدي تارة بدماء الأخ وطوراً بدماء الأب . وهذا ما ظل يحصل في لبنان نفسه مع المعمدين الجدد . فها هو الأمير حسن الشهابي المسيحي حديثاً ، يقتل والده وعمه ، دون أن ننسى في هذا السياق الأمير بشير نفسه الذي اقتلع عيون بعض من أقربائه .

استطاع الأمير بشير خلال ١٥ سنة من إدارة سليمان باشا أن يقوي سلطته في لبنان وأن يجلب السلام والرخاء للقبائل الجبلية . ينسب الشعب عادة شقاءه أو سعادته للحاكم الموجود وليس للمسببين الفعليين قربوا أم بعدوا . وقد تعود الشعب هنا أن يرى في الأمير منقذاً من مآسي الأيام السابقة . تأثير الأمير والتشريفات التي أحاطه بها الباشا ، والثروات التي جمعها في هذه الفترة الطويلة من السلام ، وتحجيمه لنفوذ عائلات كاملة ، وطلعته الوقورة المهيبة ، ونفاذ بصيرته في الأمور . كل هذه عوامل أوحت للشعب بعظمة وعبقرية الأمير . الوصف الحي لهذه الانطباعات أوجده مناصرو الأمير في أوروبا : يستحيل بدون الأمير تقوية الحكم في لبنان . نسي أصحاب هذا الرأي من دعاة الأمير ومبخّريه أمراً واحداً : مع عدم التقليل من شأن قدرة الأمير ، فإننا نلاحظ مرحلتين سلميتين من ١٨٠٤ حتى ١٨١٩ ومن سنة ١٨٣٢ حتى ١٨٤٠ ، وهاتان المرحلتان تتوافقان الأولى مع مرحلة حكم سليمان باشا في عكا والثانية مع الحكم المصري .

من حقنا ، وقد رأينا الاضطرابات التي عمت لبنان فترة حكم الأمير بشير يوم كان الجزار باشا في عكا ، والتي تكررت على عهد خليفته سليمان ، أقول من حقنا الأخذ بالحسبان ، دور الباشاوات كفاعلين حقيقيين للخير أو للشر وهم الذين ، خبروا الجبال جيداً عن طريق الأمير اللبناني نفسه ، وفي فترات عديدة خلال الخمسين سنة من حكمه .

الفصل الخامس

المرابي اليهودي يسلم عبد الله باشا بشليك عكا ـ طبائع الباشا الفتى ـ شنق المرابي ـ الاضطراب في لبنان ـ اعتداء عبد الله على بشاليك دمشق والقدس ـ جمع الضرائب من كنيسة القيامة ـ الكفارات من المؤمنين ـ حملتان ضد عكا ـ هرب الأمير اللبناني ـ توسط محمد علي ـ مجزرة الجنبلاطيين والإرسلانيين في لبنان ـ حملة عبد الله باشا على نابلس ـ الشمبانيا والطلاق ـ وضع الأمبراطورية الداخلي بعد الحرب مع الروسيا ومأثرة السلطان محمود الوطنية ، مصيره ، مشاعره نحو باشا مصر ـ تطلعات محمد علي نحو سوريا ـ اختلافه مع عبد الله باشا ـ حملة إبراهيم باشا ـ حسابات الباب العالي ـ حصار عكا ـ نجاحات المصريين في سوريا ـ التسامح الديني ـ أمور كنيسة القيامة ـ أول حملة للأتراك ضد المصريين ـ بيان السلطان ـ فتح إبراهيم لعكا ـ السمة الأساسية للعصيان الشرقي .

* *

كما ينتقل الحكم بالوراثة ، حصل سليمان باشا على حكم بشليك عكا بعد سلفه وسيده الجزار ، وقد أحاط نفسه بالمماليك ، حسب عادات الولاة العظام ، وحذا حذو الجزار بالسعي لدى الباب العالي لاستصدار لقب باشا (مرمران) ، لمن يقربه من صفوة مماليكه . صاحب الحظ هذه المرة كان المملوك علي ، الذي خدم سليمان باشا قائداً لـ «الكي آي» (غرفة العمليات) . ولكنه ما لبث أن توفي تاركاً ابنه عبد الله مشفوعاً بمحبة سليمان باشا التي غمرت الابن بعد وفاة الأب . ومع تقدم سليمان باشا بالسن ، واقترابه أكثر فأكثر من نهايته ، كانت آمال الوجاهة تنتعش لدى المقربين منه . الفتى عبد الله ، أكثر هؤلاء حيوية ، شكل جمهرة من المماليك للاستيلاء على الاقليم . وضماناً لتحقيق هدفه ، عقد حلفاً مع المرابي اليهودي حاييم الذي ورثه سليمان باشا عن الجزار بأنف مجدوع وأذن مصلومة وعين مسمولة ، ومع هذا وبهذه الهيئة ، تابع إدارته المالية بموهبة نادرة ، بلا مشاكل أو ضغوطات وبلا جباية مقرونة بالقوة ، مكيفاً نفسه مع ميول سيده الجديد ، راضياً بالاحتكارات السلعية التي أغنت

جيبه الخاص بعد خزينة الباشا . لكن هذا اليهودي ، كان ، في حال تعيين قوميسار تركي لتقريش خزينة سليمان باشا ، معرضاً ، لأن يدفع لضيف عكا هذا ، ليس فقط الأذن والعين الباقيتين ، بل وأيضاً كنوزه ، وهذا هو الأسوأ بالنسبة إليه . لذلك راح هذا اليهودي يساعد عبد الله بك ، الطامح الجديد لمنصب الباشوية ، دون أن يحسب حساباً لإيقاع هذا الأخير به . أطلق حاييم مفاتيحه في العاصمة سعياً لتنصيب عبد الله بك والياً في عكا . وقد أعطت هذه المساعي ثمارها بعد أشهر من موت سليمان باشا(١) وأوصلت إلى سدّة الباشاوية عبد الله باشا بلقب مشير عكا .

في هذه الفترة كان نصف بشليك عكا نهباً للسارقين المهرة ، أما النصف الآخر فكان يخضع لبضعة أشخاص يستنزفون دم وعرق السكان لسداد حسابات المرابين الأرمن واليهود ، مفاتيح العاصمة لأي طامح في منصب داخل الأمبراطورية العثمانية . هذه الوسيلة المالية للحصول على منصب ، حافظت على قوتها بالرغم من الاصلاحات المالية والإدارية التي حصلت في الأمبراطورية ، والتي لم تؤد ، مع سبب آخر قد يكون انحطاط القبيلة التركية ، إلا إلى خروج فئة المشردين المنوّه عنهم أعلاه ، والقادرين على أخذ المناطق وحكمها بالسيف .

بانتظار الفرمان السلطاني بتعيين عبد الله باشا والياً على عكا ، قضى هذا الشاب أيامه ولياليه في الصلاة ، وفي التمارين الروحية مع الدراويش ، لكي يعوض بهذه اللقطات القدسية العلنية ، ما كان يفتقر إليه من ضرورات الوجاهة ، ليس أقلها صغر سنه ، وعدم اكتمال لحيته . وبعدما توصل إلى مبتغاه ، فرمان تعيينه وكسبه ثقة العامة ، لم يبطىء هذا الباشا الذي دلله القدر ، في الكشف عن طباعه . كان عبد الله فتى نحيفاً شاحباً ذا نظرة كنظرة النسر ، وصوت مبحوح ووجه أسمر أجدر ، وهب خيالاً متأججاً وأعصاباً مرهفة ، وطباعاً شرسة ينعكس فيها أصله المزدوج ، أبوه مملوك غير حر وأمه عربية من الجزيرة . وقد اختار عبد الله مثالاً أعلى في الإدارة ليس صاحب الأفضال عليه ، وأعني سليمان باشا ، وإنما الجزار العجيب . اعتمد ما يزيد على السنتين في بداية حكمه على عبقرية اليهودي حاييم ، من أجل تأمين المداخيل المالية ليس فقط عن طريق الاحتكارات ، بل عن طريق البيع القسري لسلعه وبأسعار محددة . وكما نعلم كان عبد الله باشا مديناً بوجوده السياسي ، وحصوله على كنوز سليمان ، لليهودي حاييم ، الذي لم يفطن ، رغم كل دقته وخبرته ، إلى أن خدمات

---

(١) مات سليمان باشا سنة ١٨١٨ ، الناشر .

من هذا النوع وفي دولة مثل الأمبراطورية العثمانية محفوفة بمخاطر عظيمة . وبالفعل لم يلبث عبد الله أن نقم عليه ، لأن بعض أقربائه (أقرباء اليهودي) كانوا يعملون لدى باشا دمشق المكروه من الباشا ، وجاءت نهاية العجوز البانكير ، فقد أمر عبد الله باشا بخنقه ، ومصادرة ملايينه وضمها إلى الخزينة .

كان عبد الله باشا في عهد سابقه سليمان على علاقة جيدة بالأمير اللبناني ، يتبادل وإياه الهدايا على الطريقة العربية . وبعد حكمه عكا ، سأله الأمير اللبناني أمر تثبيته في إمارة الجبل ، فرد عبد الله باشا بطلب مبالغ طائلة من المال تفوق الضريبة العادية . أذعن الأمير وبدأ حملة جباية لجمع المبلغ المطلوب وإيداعه خزينة الباشا . السناجق الشمالية المسيحية ، كسروان ، جبيل ، جبة بشري تمنعت على الأمير وأعلنت عصيانها ، وهاجمته في معسكره قرب جبيل بآلاف القرويين المسلحين [٢] وهزمته شر هزيمة ، ولولا استماتة الأمير في الدفاع عن نفسه ووصول الشيخ بشير جنبلاط ، حليفه القديم والوفي مع ٣ آلاف من دروزه في اللحظة المناسبة لما استطاع الأمير بشير حتى النجاة بنفسه ، حيث أن القسم الأكبر من قواته سقط ضحية الغضب الشعبي ، ولم يبق في خدمته تلك اللحظة سوى ما يقارب الـ ٣٠٠ شخص .

لم يستطع عبد الله المحافظة على هدوئه والبقاء ساكناً. كان بشليكه الأفضل والأغنى في سوريا وهو يشمل بشاليك طرابلس الممتد شمالاً حتى خليج الاسكندرون وفلسطين حتى الحدود المصرية . بكلمة واحدة ، كل الشاطىء الذي تتمركز فيه صناعة وزراعة سوريا ، بالاضافة إلى جبال نابلس والجليل . كان في ذلك الوقت تابعاً لبشليك عكا ، ومع هذا كان عبد الله يرغب بدمشق ، التي كانت لوقت من نصيب سليمان باشا مكافأة له على خلعه يوسف كنج . وبالقدس التي كانت في عهدة باشا دمشق احتراماً للمقدسة الاسلامية ، مسجد عمر ، الذي لم يكن يشكل مطمع عبد الله بالطبع ، بقدر ما كانت تطلعاته تنصب على احتواء المقدسات المسيحية ، النبع الذهبي بالنسبة

---

(٢) جرت هذه الأحداث سنة ١٨٢٠ وتمثل الانتفاضة الفلاحية الأولى ضد الاقطاع في القرن التاسع عشر في سوريا . يصف بازيلي المراحل الختامية من هذه الانتفاضة . وقبل ذلك كانت قد جرت الوقائع التالية : بعدما تكررت طلبات عبد الله باشا بدفع ضرائب جديدة وإرساله مفارز مسلحة إلى سفوح الجبال اللبنانية ، أرسل الأمير بشير جباته إلى شمالي لبنان . وقد واجه هؤلاء مقاومة مسلحة من قبل فلاحي المتن وكسروان الذين رفضوا دفع أية ضرائب إضافية .

اضطر الأمير لأن يترك لبنان بعد هذه الأحداث ، وبعدما لم يجد سنداً من جانب عبد الله باشا أو من جانب بعض حلفائه من المشايخ . قريباه اللذان خلفاه لم يستطيعا تلبية مطالب الباشا مما دفع هذا الأخير لاعادة الأمير . وفي هذه المرة تحالفت كل الفئات الاقطاعية المرعوبة من حركة الفلاحين حول بشير . فخرج الأمير على رأس هذه القوى لجمع الضرائب من شمالي لبنان . ما حدث بعد ذلك يرويه بازيلي. ملاحظة الناشر .

للباشاوات الأتراك ، فالدير اليوناني وحده كان يدر سنوياً ألف كيس (١٢٠ ألف روبل فضي) ، تدخل خزانة باشا دمشق لإشرافه على الأماكن المقدسة وحمايته لها .

سنة ١٨٠٨ أحرق هيكل الرب ، فأعاد الكهنوت تجديده من التبرعات الشعبية ، وقد زاد منذ ذلك الوقت عدد الحجاج إليه . الباشاوات من جهتهم راحوا يجمعون ما يسمونه بالكفارة ، إضافة إلى ضريبة الدخول إلى الدير . إن هذه الكفارات ، الضرائب على الأشخاص أو البضائع عند الانتقال من وإلى أماكن معينة ، كانت تؤخذ أولاً في تركيا بحجة حماية الرحالة والسواح أو التجار في الممرات الخطرة ، وأول ما وجدت كانت بأمر من الفاتح صلاح الدين ، تؤخذ من الحجاج عند دخولهم الهيكل ، ومع الوقت كانت هذه الكفارات تزداد كل عام : كانت تؤخذ عندما ينزل الحجاج من مراكبهم في يافا ، وعند مرورهم في الرملة وفي وادي جبال اليهودية وفي كل مرة يقصدون فيها الهيكل للصلاة أو يتوجهون إلى نهر الأردن . . . وفي هذه الفترة بدأت الحرب الشعبية في اليونان (٣) . أدرك عبد الله باشا اليقظ المستنفر دائماً أن لا قوة تستطيع إنقاذ كنوز مقدسات القدس من شره الباشاوات الأتراك ، حتى ولو كانت هذه القوة كتاباً مباشراً من عمر بن الخطاب يسلم تسليم اليد وفيه تأكيد لكل امتيازات الديار المقدسة ، أو كانت كل تسامح السلاطين ، أو خطي شريف نفسه . والذي زاد من حنق عبد الله باشا أن باشا دمشق ، منح إضافة إلى أملاك القدس ، الحق بالإشراف السنوي على قافلة الحج ، سيما وأن طريق مكة أصبحت آمنة بعد أن استطاعت يد محمد علي الجبارة ، القضاء على الوهابيين وتمشيط الطريق إلى مكة من فلولهم .

لهذه الأسباب مجتمعة راح عبد الله يفتش عن مبررات خلاف مع جاره الدمشقي .

---

(٣) يدور الكلام هنا عن انتفاضة الشعب اليوناني ضد النير التركي ، التي ابتدأت بخروج مفارز الوطنيين اليونان بزعامة الأمير أ . إبسيلنتي Ipsilanti من جنوب الروسيا عبر فلاخيا إلى اليونان .

لم تستطع الحكومة التركية قمع الانتفاضة منفردة ، فطلبت من محمد علي باشا مصر ، واعدة إياه بإعطائه سوريا وكريت مكافأة له . في سنوات ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧ نجح الأسطول والجيش المصريين بقيادة ابراهيم بن محمد علي في شلّ قوى المتمردين . فرنسا وانكلترا ، أقدمتا خوفاً من ازدياد نفوذ الروسيا عن طريق مساعدتها سنة ١٨٢٩ للمتمردين ، على القيام بعدد من الاجراءات الديبلوماسية (بروتوكول بطرسبورغ ١٨٢٦ بين انكلترا والروسيا ، والاتفاق الانكلو ـ فرنكو ـ روسي بتاريخ ٦ تموز ١٨٢٧ في لندن وفيه طولبت تركيا بحكم ذاتي لليونان) . في تشرين الثاني (نوفمبر ١٨٢٧ تحطم الأسطول المصري ـ التركي في معركة نافارين في معركة مع أسطول مشترك انكليزي ـ فرنسي ـ روسي . وقد اضطر ابراهيم باشا لترك اليونان . سنة ١٨٢٨ أعلنت الروسيا حرباً على تركيا انتهت بهزيمة تامة للجيش التركي وبعقد اتفاق ادريانوبول السلمي في ١٤ أيلول سنة ١٨٢٩ ، والذي اعترف انطلاقاً منه بحق اليونان في الحكم الذاتي ، يربطها بتركيا فقط دفع مليون ونصف المليون قرش في السنة للخزينة السلطانية . وأخيراً أعلنت اليونان دولة مستقلة في العام ١٨٣٠ على أساس برتوكول وقع في لندن . ملاحظة الناشر .

جاءت الفرصة مع افتراق موقفي كل من الرجلين من انتفاضة اليونان .

كان دزويش باشا والي دمشق يشغل أيام السلطان محمود منصب الصدر الأعظم ، وقد عايش عن قرب المخططات الإصلاحية لهذا السلطان والهادفة أولاً إلى القضاء على التعصب الديني عند الشعب . وكان يعرف بخبرته ـ وهو من بلاد المورة ـ أن الجور الذي تتعرض له القبائل المحكومة يشكل بؤرة شرور عظيمة في الأمبراطورية ، من هنا فقد أحب المسيحيين في المنطقة وساعدهم بكل حماية وأحاط البطريرك الأنطاكي سيرافيم بكل التشريعات والعناية .

عندما وصلت أنباء انتفاضة اليونان ، تجمع في دمشق السواد المتعصب واستسلم لكل انفعالاته وأحقاده ضد السكان المسيحيين الخائفين ، لا بل أن القاضي والمفتي وغيرهم من أعضاء المجلس عرضوا على الباشا ، بهدف انتهاز الفرصة ، اتباع ما جرى في العاصمة حيث شنق البطريرك(٤) وأخذت الجزية من أتباعه . رفض درويش هذا العرض وكبح جماح العامة بحزم وذكاء رغم معارضة السواد والوجهاء ، على حد سواء لهذا التصرف . عبد الله باشا كان من ناحيته متعصباً حتى الحقد : طارد المسيحيين ، سجن المطارنة وكبار الأساقفة من كل مدن بشاليكه . فرض جزية كبيرة ، حتى أن المسيحيين اضطروا ، لإيفائها ، إلى تذويب فضة الكنائس وتحويلها ، إلى سبائك ، كذلك نهب عبد الله باشا الديرين القائمين في الكرمل قرب عكا ، أحدها يوناني والآخر لاتيني ، بحجة أن نية المسيحيين كانت تحويل الأديرة إلى قلاع(٥) .

بمثل هذه التدابير أغنى عبد الله باشا خزينته ، وأذاع صيته فاجتذب حثالة العامة في دمشق . ثم أنه أشاع زوراً عن فرمان سلطاني بتقديم بشليك دمشق له ، وأمر بعدها الأمير اللبناني بالمسير نحو دمشق ومحاصرتها ، مؤملاً مع بدء الحصار بحدوث عصيان شعبي ضد درويش باشا . سار الأمير مع ١٠ آلاف من الميليشيا المسيحية والدرزية

---

(٤) عندما علمت السلطات التركية ، في ربيع ١٨٢١ ، بحملة الكسندر ابسيلانتي ، اتهمت السكان الأرثوذكس ورجال الدين في القسطنطينية بالتعاطف مع حركة التحرر اليونانية ، فشنقت البطريرك في القسطنطينية وأثارت المذابح ضد المسيحيين . الناشر .

(٥) هذا الاتهام هو من الصحة بمكان . أثناء الانتفاضة اليونانية تعرض تجار دمشق المسيحيون إلى الاضطهاد لعلاقتهم بالمتمردين اليونانيين ، وفي سنة ١٨٢٦ وجه هذا الاتهام إلى مسيحيي بيروت ، عندما اقتربت ٣٠ سفينة يونانية من شواطىء المدينة وأنزلت جيشاً بهدف إشعال التمرد بين السكان المسيحيين . يمكن الافتراض ، بأن التمرد الذي انفجر ضد الأتراك في Vifliema سنة ١٨٢٣ وانطلق من ثم إلى القدس . نشأ تحت تأثير الحرب التحررية في اليونان . ملاحظة الناشر .

وهاجم مدينة المسلمين الشريفة ، متوقعاً نجاحاً سهلاً في مهمته[٦] . لم يكن في دمشق أية قوات عسكرية لأن درويش باشا كان قد أرسل كل قواته إلى الحدود مع بشليك عكا ظناً منه بأن عبد الله باشا نفسه سيقوم بالهجوم . فاجأت قوات الأمير بشير سكان دمشق الذين تهيأوا لإعلان دمشق مفتوحة والولاء لعبد الله باشا ، لكن درويش باشا المتحصن مع حريمه داخل قلعة دمشق بين الأسواق والبدستان [٧] هدد بقصف هذا الحي الغني إذا ما رفض السكان الدفاع عن مدينتهم . هذا التهديد أجبر السكان على الوقوف بوجه الجبليين ، وفي هذه الأثناء وصلت عساكر درويش باشا من الحدود مع عكا ، فهرب الأمير مخلفاً حتى أمتعته ودسوته المملوءة سلفاً بالأرز واللحمة المسمومة .

أخبار حرتقات عبد الله باشا أثارت غضب السلطان ، رغم المحبة التي يكنها له ، فالسلطان محمود كان يقدر في عبد الله موهبته الشعرية وقدرته حتى على الارتجال ، وهي الموهبة التي أشبع منها هذا الوالي الشاب ولع أمير المؤمنين بالشعر . وكان السلطان يقدر فيه كذلك موهبته الأخرى ، المعتبرة عالياً في الشرق : جمال الخط ، فعبد الله الخطاط الأفضل في الأمبراطورية . وقد أهدى السلطان مخطوطة قرآن بخط يده . بصعوبة صدق السلطان نبأ عصيان عبد الله باشا الشاعر الخطاط ، ومحبوب المحترم سليمان باشا وثمرة تربيته . ألقيت مهمة تأديب هذا الفتى الوقح على كاهل والي دمشق درويش باشا مع باشاوات حلب وعدن ، لأن السلطان نفسه كان مشغولاً بتأديب علي باشا اليانيني ، وقلقاً لانتفاضة يونان الدوناني وجزر المورة . من ناحيته سخر عبد الله وراء جدران قلعته الممتنعة على ميلشيا الباشاوات ومدفعيتهم السيئة ، وصمد عدة أشهر لا يعاني نقصاً بأي من الإمدادات التي كانت تصله من البحر . إلا أن خوفه من احتمال ظهور الأسطول السلطاني على سواحل عكا دفعه لإجراء محادثات مع الباب العالي ، سأل فيها العفو ، واعداً بدفع كل تكاليف ونفقات الحملة التي جندت ضده .

لم يكن الباب العالي متشدداً في قضية عادية كهذه ، فتراجعت الجيوش المحاصرة ، ورفعت اللعنة عن الباشا المذنب . لكن عبد الله باشا ، وبعد عام على هذه الحادثة ، وبعدما رأى أن الحرب مع اليونان تستنزف كل قوى الديوان ، عاد وشقّ عصا الطاعة من جديد . مبرر الصدام الذي افتعله باشا عكا هذه المرة ، كان أن أرسل إلى العاصمة الأتاوة السنوية من بشليكه ، وأردف قطاع طرق ، كانوا سابقاً في خدمته ، فهاجموا

---

(٦) سنة ١٨٢١ . الناشر .

(٧) بدستان ، بناية حجرية في السوق توجد فيها دكاكين الحرفيين ، النقاشين ، المزخرفين وغيرهم . الناشر .

حاملي الضريبة وقتلوهم وأعادوا إليه أكياس الذهب . ولكن عبد الله باشا ، وهنا بيت القصيد ، اشتكى والي دمشق إلى السلطان متهماً إياه ومؤكداً بأن قطاع الطريق الذين سرقوا الأموال يعملون لحساب الباشا الدمشقي ، إلا أن هذه الكذبة ما لبثت أن انكشفت فجهز الباب العالي حملة ثانية ضد عكا .

حاصر درويش باشا من جديد مع ستة من الباشاوات و٥٠ ألف جندي ، عش عبد الله المنيع ، ولكن هذا الأخير كان قد توصل إلى إقامة علاقة مع قراصنة اليونان ، وأرسل نصف مليون قرش لشراء أسلحة واقتناء جنود من هناك ، فلم يعد يخاف بعد هذا ظهور الأسطول السلطاني المرعوب من القراصنة اليونان . امتد الحصار دون نتيجة فترة طويلة ، كان الباب العالي أكثر ما يخاف خلالها أن يقدم عبد الله باشا على تسليم قلعته إلى اليونانيين .

الجديد في حصار هذه المرة كان عرض محمد علي المصري التوسط ، وقد أدت مساعيه التي باءت بداية بالفشل ، إلى أن يعفو الباب العالي عن عبد الله باشا في نهاية الأمر ، خاصة بعدما تراءى للقسطنطينية أن محمد علي يمد عبد الله ببعض المساعدة . وهكذا انتهت الحملة الثانية ضد عكا عبد الله باشا بالفشل .

من ناحيته كان محمد علي باشا قد وطد حكمه في مصر ، واستخرج من أعماق هذا البلد الغني عناصر الجبروت الكامنة حتى ذلك الحين . مقتفياً خطوات علي بك ، توجه حاكم مصر الجديد بأنظاره المتعطشة نحو سوريا ، وانتظر فرصة وضع اليد على هذه الغنيمة السهلة المثقلة بخلافات الباشاوات . سأل الباب العالي أن يعطيه بشليك دمشق ضامناً بالمقابل إخضاع باشا عكا وكل السارقين العصاة الذين كانوا يتعاقبون على سوريا ، إلا أن الباب العالي ، وهو المرغم على الاعتراف بمحمد علي والياً على مصر ، فضل حل أموره مع السارقين الصغار على أن يحلها مع وال يسطع نجمه فوق النيل .

من زاوية مخططاته القادمة ، لم يكن محمد علي يحلم بوالٍ أفضل من عبد الله باشا ومزاجيته ، وفي هذا الوقت بالذات هرب إلى مصر الأمير اللبناني بشير[8] خوفاً من نقمة عبد الله باشا ، فاستقبله محمد علي بحفاوة ، وقدر مواهبه وتأثيره في الجبال ، وتنبأ بأن ذكاءه كجنون عبد الله ، سيساعده في تحقيق طموحاته في سوريا .

أخفى والي مصر طموحاته وتطلعاته ، بشرنقة إخلاصه للباب العالي ، وباهتمامه

---

(٨) في تموز ١٨٢٢ . الناشر .

بمصلحة جاره . حتى أنه عرض على عبد الله باشا أموالاً من خزينته ، لكي يدفع الأخير ما يترتب عليه من أموال للباب العالي . هذا العرض استهوى عبد الله باشا الدائم الشكوى ببرودة وطول بال ، مؤملاً عدم إرجاع القرض لصاحبه ، وهذا بالطبع ما كان يحلم به باشا مصر ، لكي تتهيأ له الفرصة المناسبة للتدخل المشروع في شؤون سوريا . أما الأمير بشير فقد عاد من مصر مع انطباعات جيدة عن عبقرية محمد علي ، وتقدير لجبروته ، وشعور بواجب الإخلاص من أجله حتى التضحية . ومن المحتمل آنذاك أن يكون الأمير قد عقد حلفاً مع محمد علي باشا ، بقي مستوراً خلال سنوات عشر حتى مطلع الثلاثينات ، لمعاكسة الفرص لظهوره .

بعد عودته ، طبق الأمير بشير قاعدته الذهبية في التعامل السياسي داخل الجبل : توجيه ضربة أليمة للخصوم بعد كل أزمة ، من أجل تركيز السلطة وحصرها في شخصه بشكل مطلق ، ولكن من هم خصوم الأمير أو بالأحرى أعداؤه ؟ برأي الأمير كل ما كان له سيطرة وتأثير في الجبل حتى ولو كان من محازبيه . رأينا كيف قتل بمساعدة الجنبلاطيين جرجس باز الذي قدّم له خدمات جلّى ، أما الآن فقد جاء دور الشيخ بشير جنبلاط ، الذي كان يدين له الأمير بكل شيء تقريباً .

سبق ونجح أسلاف الأمير بشير بشق الدروز إلى حزبين ، اليزبكيين والجنبلاطيين ، لأن هذا الانقسام يسهل كبح جماح هؤلاء وأولئك . بالتحالف مع الشيخ بشير زعيم الجنبلاطيين قضى الأمير على أبي نكد وعلى آل العماد من حزب اليزبكيين ، ثم ها هو اليوم يمد يده لأعداء الأمس لينتقم بقسوة من الشيخ الجبار . مبرر الأمير للصدام مع الشيخ يتلخص في ان الشيخ بشير أثناء هرب الأمير إلى مصر ، وانطلاقاً من شعوره الوطني بضرورة حماية الجبال من تدخلات الباشاوات المباشرة ، واتقاء للنزاعات الداخلية بين الطامحين للإمارة ، استعمل كل تأثيره لدعم أحد أقارب الأمير المدعو عباس واستصدر له من الباب العالي تكليفاً بالحكم ، مقدماً ابنه رهينة للأتراك . بعد عودة الأمير من مصر خضع له الجميع عن طيب خاطر . كان من المنتظر أن يعترف الأمير بجميل صنيع الشيخ بشير لحفظه السلام والأمن في الجبال . إلا أن تأثير الشيخ بشير الواسع ، وسهولة تعيين حاكم جديد في غيابه أثارا عميق استيائه ، ففرض على الشيخ جزية ضخمة (١٥٠٠ كيس) ، ثم راح يهين كبرياءه ، بتقريب اليزبكيين وإحاطة نفسه بهم . ظن الشيخ بشير سوءاً بتصرفات الأمير الغاضب ، فابتعد إلى حلفائه المسلمين في عكار . حزب الشيخ ، سكان أملاكه الواسعة ، المسيحيون مرتبطين ببيته منذ فترات

بعيدة ، رفعوا علم العصيان في وجه الأمير وطالبوا الشيخ بشير بالعودة وتنحية الأمير الناكر الجميل .

الأمير بشير من ناحيته سلح اليزبكيين ، واستدعى عساكر عبد الله باشا إلى الجبال اللبنانية ، فهزم الجنبلاطين وحول إلى خرائب قصرهم القديم الرائع في المختارة ، بعد أن هرب الشيخ بشير إلى أقربائه الدروز في حوران . وهناك لحقه رجال باشا دمشق واجتذبوه بالحيلة إلى مدينتهم ، حيث أرسل إلى عبد الله باشا في عكا ، الذي حاول ، إشفاقاً بالشيخ ، مصالحته مع الأمير ، إلا أن محمد علي أصرّ على شنقه بناء على طلب الأمير . وهكذا كان فخنق الشيخ في سجنه . ثم تابع الأمير انتقامه بنفي أولاد الشيخ بشير ومصادرة أملاكهم وإعطائها لأولاده . أمراء أرسلان أنصار الجنبلاطين اقتسموا معهم المصيبة ، أم الإرسلانيين التي اشتهرت بحدة ذكائها وعظم نفوذها في الجبال ، على غير حظوظ نساء آسيا ، قطعها جلادو الأمير بشير ، وشردوا أطفالها عشرين سنة .

كل هؤلاء المنفيين ، من آل جنبلاط ، ارسلان ، العماد ، أبو نكد ، عادوا فوراً إلى لبنان بعد سقوط الأمير ، للانتقام من خلفه والثأر من الشهابيين ، وإثارة حرب ما لبثت أن غطت المنطقة ، وهي الحرب التي بدت لأوروبا أنها مؤامرة المسلمين والدروز ضد الدين المسيحي أو نزاعاً بين الدروز والمسيحيين على الثقل السياسي في لبنان .

إضافة إلى انتقامه من الجنبلاطيين والارسلانيين ، نجح الأمير بسمل عيون بعض أقربائه وقطع ألسنتهم حسب العادة العائلية في البيت الشهابي ، عندما يظهر فيه أقارب ذوو مواهب أو عزة نفس . بعد هذه الصراعات أصبح الأمير حاكماً بلا منازع ، ينكمش عند تخاصم الباشاوات فيما بينهما ، لكنه لم يعد يخشى أبداً المنافسة أو الانتفاضات الشعبية .

أما على صعيد ما يدور في المنطقة ، فقد نزع بشليك طرابلس من يد عبد الله باشا بعد اعتدائه الوقح على باشا دمشق . قلعة طرابلس كمثيلتها في عكا كانت تنتقل من سارق إلى آخر ومعها كل المنطقة . بعد مصطفى بربر أخذها علي بك عكا ربيب عبد الله باشا . وببعي من درويش باشا أغدق عليه الباب العالي التأهيل والعناية ، ومنح لقب باشا في اسيا الصغرى . عندها فقط تنازل علي بك (باشا) عن أملاكه لأحد معتمدي الباب العالي .

منذ فترات بعيدة لم يدفع باشوات دمشق وطرابلس الضرائب للسلطان ، كانوا محاطين بالدلال والمنن وحسب ، أولها مرافقة القافلة إلى مكة ، وثانيها تقديم «الجردة»

عند عودة الحجاج . أما عكا فكانت من بعد الجزار في حال عصيان دائم .

وهكذا فإن هذه المنطقة الرائعة الجمال ، التي وهبتها الطبيعة الكثير ، بشاطئها الشاسع وموقعها المهم وتجارتها الرابحة ، وسكانها النشيطين، وصناعتها العريقة ، لم تكن تقدم للسلطان ، منذ أن افتتحها سليم في عهد ازدهار الأمبراطورية وحتى يومنا هذا حيث تجدد الفتح في أيام انحلال تركيا خلال ظروف مصيرية ، لم تقدم لا المداخيل ولا العساكر ، بل كانت عبئاً دائماً بسبب اضطراباتها المستمرة وتركيبتها الإدارية السيئة .

كان عبد الله باشا بدون مشاكل يشعر بالوحدة والسأم ، ولخوفه من نزاعات جديدة مع الباشاوات ، استعمل الحق الذي منحه الباب العالي لكل باشا : محاربة السكان المحليين التابعين له . كان النابلسيون يملكون في جبالهم المنيعة برجاً حصيناً سانور ، صمد أمام الجزار ، وفشل أمامه سليمان باشا مراراً وتكراراً ، عبد الله باشا حاصره بـ ٢٠ ألفاً من عساكره وأجبر حاميته في نهاية الأمر على الموت جوعاً بعد أن عزله من كل الجهات[٩] . وقد تغنى عبد الله بانتصاره هذا شعراً ، ووضع نفسه في مصاف القواد العظام في العصور القديمة والحديثة .

في هذا الوقت كان محمد علي باشا يبني جيشه النظامي . عبد الله باشا لم يتوان عن النسج على منواله، معتبراً نفسه ليس أقل شأناً من جاره. وفي هذه الفترة كانت موضة المارش على أصوات قرع الطبول قد انتشرت في الشرق واجتذبت إلى البلاد الكلاسيكية للمغامرات فلول الضباط المغامرين ، الذين تركوا الخدمة في الدول الغربية أو الهاربين لأسباب سياسية بعد الحمى التحررية التي غطت في العشرينات جزر البيرنيه والانبين . أحد ضباط سردينيا من الذين شاركوا تحت علم نابوليون في الحملة على الروسيا ، وهو المسيو بازيو ، رماه القدر في عكا ، حيث قبله الباشا في خدمته كطبيب (كانت القبعة على الرأس في تلك الأيام تخدم كدبلوم في الشرق) ، ولكن بعدما علم الباشا عن الماضي العسكري لطبيبه وحملاته وتنقلاته عرض عليه أن يؤلف فيلقاً نظامياً من مماليكه .

مصلحا مصر والقسطنطينية كانا منهمكين بتغيير الأنظمة الحربية ، وقد قدّر لهما إعطاء شكل جديد للبناء السياسي للشرق . في عكا كان تغيير النظام الحربي تسلية من تسليات الباشا ، الذي كان يتابع ببسمة عريضة من ديوانه تطور المماليك تماماً مثلما كان يتابع رقص جواريه في الحريم . وهكذا فإن بازيو إضافة إلى مواهبه العسكرية كان طبيب

---

(٩) سنة ١٨٢٩ . الناشر .

الباشا ، وكان له شرف إشفائه بواسطة الشمبانيا من التزمت الإسلامي ومن نوبات التعصب الديني ، وهو الذي كان يرفض في أيام حكمه الأولى حتى الغليون ، ويقضي مع الدراويش معظم أيامه ولياليه .

في الوقت الذي كان فيه عبد الله باشا يكرع الشمبانيا ، كان أمير المؤمنين يستنزف قواه في الحرب مع الروسيا[١٠] ، حين كانت النسور الشمالية في أوروبا وآسيا تنقض على العاصمة . لا مصر ولا سوريا استجابتا لنداء السلطان للدفاع عن الإسلام المهدد . باشا مصر من جهته وجد المبرر في عدم تحركه في الحملة التي جردها الباب العالي على بلاد المورة ، وفي فقدان أسطوله في نافارين بسبب عناد الأميرال التركي . باشاوات سوريا اعتذروا بضرورة المحافظة على خضوع القبائل الشرسة في هذه المنطقة ، وفي الأخير وجد الباب العالي نفسه مجبراً على الاكتفاء بتأكيدات الباشاوات الخجولة على الاخلاص والولاء .

بعد سلام أدريانو بول توجه السلطان محمود بكل قواه لإتمام إصلاحاته ، بإدخال السلطة تدريجياً إلى المقاطعات ، وبإخضاع الولاة واحداً بعد الآخر . بإمكاننا التنبؤ بأن السلطان لم يكن ليتأخر عن إبدال الباشاوات ، النهج القديم ، المطلقي الصلاحية في بشاليكهم كما الحال في مصر وعكا ، بباشاوات ذوي سلطة محدودة ، وإنما فشل الجيوش التركية في حروبها الخارجية ، استدعى قبل كل شيء تغييرات في النظام العسكري المتآكل للأمبراطورية . وما إن نجح السلطان في تثبيت قوته في العاصمة ، حتى باشر بتأمين عناصر حكومية مطيعة قادرة على مساعدته ليس في فتح بلاد جديدة أو بلاد بعيدة ، بل أمبراطوريته نفسها التي يتناهبها الباشاوات .

إن محمود الثاني يحمل عن جدارة لقباً مدوياً ، الغازي ، فانتصاراته على التعصب الديني ، وانتصاراته على عنف المستبدين الذين كانوا باسمه يعذبون سكان مقاطعاتهم ، محولين الأرض المباركة إلى صحراء ، مستنزفين بعصيانهم وحفلاتهم التهتكية وبذخهم القوى الحياتية المنتجة في الأمبراطورية ، إن انتصاراته هذه ، كانت أقوى وأوفر مردوداً من الفتوحات التي أحرزها أسلافه بسرعة ، والتي لم تكن معبرة عن القوة الحقيقية للدولة المنتشرة في أطراف الدنيا الثلاث . كان السلطان دائم البؤس في صراعه مع الأعداء الخارجيين ومع الشعوب المحكومة ، التي فتح تطورها الداخلي صفحة جديدة في طريقة العيش . وحده القدر دل السلطان إلى المضمار المباشر لعمله وسمو هدفه . بعد فشل

---

(١٠) المقصود الحرب الروسية التركية ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ والتي انتهت باتفاق ادريا نوبول السلمي . للناشر .

محاولاته ضد اليونانيين والصرب ، بعد سلام بوخارست المتعب ، عندما استطاعت الروسيا الخروج من الحرب مع كل أوروبا بقدرة على توقيع معاهدة السلام مع السلطان ، تحت دوي نافارين ، وتحت وطأة دخول الجيوش الروسية إلى قلب الأمبراطورية ، تحت كل هذا ، لم يكف محمود عن الانتصار على الولاة وعلى الفوران الشعبي ، جاهداً دائماً من أجل المأثرة العظيمة : وحدة السلطنة .

لم يدرك عبد الله باشا أهمية الإصلاحات الجذرية في النظام الحكومي ، بل تابع تقليد سلطانه بتشكيل العسكر النظامي ، دون أن يشعر بالمصير الذي ينتظره مع أقرانه . أما محمد علي باشا ، المنتصر على المماليك والانكليز والوهابيين ، وفاتح سنار وكاردافون والنوبة ودارفور ، فإنه لم يستطع أن يراقب بهدوء التطور الإيجابي المطرد الذي يحققه السلطان محمود شيئاً فشيئاً . وهل يمكن أن يقبل محمد علي وهو الآن فاتح مطلق أن يتحول من أمير (مالك) مطلق الصلاحية إلى ممثل بسيط للسلطان ، عندما يأتي دوره بعد تنحية الولاة الجبابرة واحداً بعد الآخر ، إذا ما انتصر السلطان محمود بإصلاحاته ؟ .

متابعاً تحقيق غايته الأساسية ، لم يتعرض السلطان محمود حتى الآن لباشا مصر ، خاصة بعد فشل المحاولات السابقة التي جرت ضدّه منذ زمن بعيد ، إلا أن محمد علي كان في هذا الوقت محاطاً بالمنن ومدللاً على أساس القانون الرئيسي للسياسة الشرقية «عامل عدوك بالحسنى حتى يحين اليوم المناسب للقضاء عليه» . ومكافأة له على حملته قدمت لمحمد علي جزيرة كريت . منذ هزيمة الوهابيين ، وإبراهيم بن محمد علي ، على البحر الأحمر ، باشا في جده وحامي المدينتين المقدستين مكة والمدينة . إلا أن كريت والجزيرة العربية كانتا في الواقع هما مشرفاً أكثر منها ملكاً مربحاً . في هذه الفترة كان أمام محمد علي ، وقد أشرنا إلى نواياه تجاه سوريا ، أحد احتمالين ، إما تطبيق الخطط المعدة منذ مدة بعيدة ، والتي تتعلق بها عظمة ومستقبل الحاكم المصري ، وتدعيم امتيازاته التي أحرزها ، وإما الانتظار حتى يصل الخط الذي يرسمه السلطان في كل الأمبراطورية ، إلى مصر عبر الحدود السورية .

الأوضاع بمجملها كانت مؤاتية . كانت الفوضى تسيطر في دمشق[١١] . الباشا الجديد سليم بدأ حكمه بالكشف على الحوانيت والفبارك لفرض ضريبة ولو بسيطة عليها ، فما كان من الطبقة العاملة إلا أن أعلنت عصيانها . وبدلاً من أن يتصدى الباشا

---

(١١) في شباط ١٨٣١ ، وبعد إبلاغ الفرمان السلطاني عن جمع الضريبة الاستثنائية . في دمشق انفجر تمرد فقد رفض السكان دفع الضريبة . نواة الانتفاضة كانت في الميدان الضاحية التي يقطنها فقراء دمشق . الناشر .

لحركة السواد هذه ، ويستدعي الجيش من السناجق ، تحصن في القلعة مع ألفين من جنوده ، غير معتبر عدم وجود احتياطات حياتية فيها . السواد الثائر أحرق قصر الباشا وحاصر القلعة . أشراف دمشق ، خشية عنف ثورة شاملة ، انضموا إلى حركة العامة تلك وتصدوا لمهمة قيادتها ، كتبوا لعبد الله يستشيرونه ، فأجابهم وهو المعتاد على إشعال نار العصيان من حوله ، بأنه كان عليهم قبل كل شيء التخلص من باشاهم ، الذي كان يستجدي من القلعة آنذاك الدخول في مفاوضات ، فلم يستجب معه أحد بعد نصيحة عبد الله باشا تلك ، وقد حاول سليم باشا ، متأخراً ، بعد ستة أسابيع من حصار القلعة ، الهرب إلا أن السواد الغاضب ضبطه وقطعه مع كل حاشيته ، وأفراد عائلته ، ونثرت أشلاؤه في الأحياء الدمشقية .

هذا ما كانت عليه حال بشليك دمشق ، جبليو نابلس كانت ما تزال ماثلة في أذهانهم أعمال عبد الله باشا وهدمه لقلعتهم سانور. الأمير اللبناني ، متعباً من أحابيل عبد الله باشا ، كان ينتظر الحماية من صوب مصر . مشايخ فلسطين ، حاضرون دائماً للانتفاضة بغض النظر عن الطرف الداعي إليها . في حلب كان حزب الانكشارية التي أخضعها جلال الدين باشا ، يتنفس ثأراً . أما المسيحيون في كل سوريا من القدس حتى حلب ، فقد كانوا متعبين من الملاحقات والجبايات والإهانات بسبب الحرب اليونانية ، فالتسامح الديني الذي أمر به السلطان محمود بعد اتفاق ادريانوبول ، لم يعرف طريقه بعد إلى هذه المنطقة الفوضوية البعيدة .

كان محمد علي يراقب باهتمام هذا الانحلال التدريجي للسلطة الشرعية في سوريا ، إلا أن مخططاته الأنانية كانت واسعة وأكثر جذرية من تصرفات الباشاوات الصبيانية الوقحة ، الذين كانوا يرفعون راية العصيان بكثرة . محمد علي يعتبر أن صراعه ضرورة حتمية لوجوده السياسي ، وفي صراعه هذا لم يكن يعتمد على قواه المادية فقط بل كان يأخذ الموقف الشعبي بعين الاعتبار ، كان يجهد في تجنب اللوم والمؤاخذة الدينية التي ستنتج عن عصيانه الحاكم المدني والروحي ، لذا كان محتماً عليه أن يجد مبرراً شرعياً للخلاف. مع جار كعبد الله باشا من البساطة بمكان إيجاد مبرر كهذا .

مع حلول تسلط محمد علي الاداري والعسكري محل تسلط المماليك ، وإجباره الفلاحين على العمل في الأرض وتأدية الخدمة العسكرية ، هاجرت عائلات فلاحية بكاملها إلى سوريا هرباً من العمل والسخرة التي افترضها سابقاً ، لشراء رضا السلطان وتبريد غضبه بعد عصيانه مرتين كما سبق ومرّ معنا . رفض عبد الله بصورة قاطعة ،

مطالب محمد علي المشروعة ، مستنداً فيما يتعلق باللاجئين المصريين إلى الحرية المعطاة للمسلمين بالانتقال من مقاطعة إلى أخرى ، عارضاً على محمد علي في نفس الوقت أن يتقدم باعتراضاته للاحتكام لدى سيدهما السلطان .

كان محمد علي يدرك تماماً أن عبد الله يعلن طاعته للسلطان ، فقط ، عندما تتماشى هذه الطاعة مع مآربه ووحامه ، ومع ذلك تقدم محمد علي بشكوى إلى القسطنطينية . جاءه الجواب «بأن الفلاحين العرب هم رعايا السلطان ، وليسوا عبيد الباشاوات ، ولهم ملء الحرية في الانتقال من مكان لآخر» هذه القاعدة غير قابلة للنقاش ، ولكن هل تتفق والقانون الذي تدفع بموجبه كل مقاطعة كمية ثابتة من الضرائب لا تتأثر بالتغيير الذي يطرأ على نسبة القوى المنتجة في المقاطعة .

خلال هذه المحاولات كان محمد علي يحضر حملته البرية والبحرية إلى سوريا بنشاط حثيث . وينشر بين الناس إشاعة عن أن هذه الحملة المرتقبة تتم برضى الباب العالي . وفي نهاية تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٣١[١٢] تقدم جيش نظامي من ٩ آلاف جندي وبطاريتي مدفعية وألف من البدو ، وقطعوا صحراء السويس . هذه القوات كانت بقيادة إبراهيم كجك باشا ابن أخ محمد علي . وفي نفس الوقت أبحر باتجاه سوريا أسطول مؤلف من ٧ فرقاطات و٣٣ سفينة حربية وحاملة جنود مع ٧ آلاف جندي من جنود الانزال مع مدفعية حصار . إبراهيم كان القائد الأعلى للقوات المجتمعة . في غرفة القيادة العامة كان الضباط المجربون الذين حاربوا في الجزيرة العربية وبلاد المورة .

استقبلت فلسطين المصريين كمخلصين ، غزة ويافا فتحت أبوابها بسرور ، من لم يهرب من حاميات باشا عكا ، دخل في خدمة القوات المصرية . الجناح البري من الحملة ، قطع بدون مقاومة كل المسافة حتى حيفا الواقعة تحت سفوح الكرمل مقابل عكا التي يفصلها عنها خليج ضيق ، وهناك التقى بالقوات البحرية ، وأنزلت في هذه النقطة المواد الغذائية والأسلحة اللازمة للحصار ، إذ أن محمد علي كان يقدر بأن كل مقاومة سوف تتركز في عكا وإبراهيم باشا كان قد ترجل في يافا وحصل في طريقه إلى حيفا على تأكيد ولاء القبائل الجبلية وجبال اليهودية ونابلس وطاعتهم واستعدادهم للقتال تحت رايته . في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) تقدم الجيش المحاصر إلى عكا ، وبعد أيام وبمواتاة الرياح فتح الأسطول ناره على المدينة .

---

(١٢) خرجت الجيوش من القاهرة في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣١ . ملاحظة الناشر .

قرر عبد الله باشا الاستماتة في الدفاع عن عكا . فشل الفرنسيين عند أبوابها زاده ثقة ونشاطاً ، هذا عدا ما يربو على ٣٠ سنة قضاها الجزار وسليمان باشا في تدعيم عكا بأسوار جديدة ومدفعية جبارة (أكثر من ٤٠٠ قطعة) ٠ إضافة إلى ما استجد على يد عبد الله نفسه من تحصينات ومجار للمياه ومخازن وثكنات . في هذه القلعة التي كانت ضمانه لخضوع المناطق وملزمة للباب العالي على بناء علاقة حسنة مع العصاة من ولاتها . كانت حاميتها تتألف من ٣٠٠٠ رجل من نخبة الألبان والداليين والمماليك والأكراد وحرس الباشا . أما فيما يخص الجيش النظامي لدى عبد الله ، فإن تشكيله كان تسلية عبد الله باشا ، الذي تخلى الآن وفي هذه الظروف عن أية تسلية .

أخطاء المصريين في بداية الحصار ، وانعدام تجارب الجيش في هذا المجال ، غزارة الشتاء ومناورات الالبان وحيلهم الناجحة ، عوامل أطالت مدّة الحصار أكثر مما تصور محمد علي . كان إبراهيم باشا يريد أن يأخذ كل الاحتياطات الممكنة ، وكان يريد أن يستغل عواطف القبائل السورية حتى ينشر سلطانه بسرعة على المنطقة كلها ، قبل أن تصل المساعدة التركية إلى القلعة المحاصرة .

استدعى إبراهيم باشا إليه في المعسكر الأمير اللبناني بشير ، ولكن هذا الأخير أبطأ برد الجواب ، وظل يراقب مجريات الأمور من أعالي جباله ، بانتظار مؤشرات عن الموقف في العاصمة . موقف العاصمة أطلع عليه الأمير عن كثب ، بعد أن قطع رجاله قرب بيروت ، أمام رسول عبد الله باشا العائد من اسطمبول ، طريق الوصول إلى عكا . الرسالة التي كان ينقلها الرسول تفيد بأن الباب العالي لن يستجيب لطلبات عبد الله ، حتى أن صديقه وركيزته في العاصمة كتب له بأن لا ينتظر من الديوان مساعدة سريعة لعدم ثقة أهل الديوان به . هذه المعلومات دفعت بالأمير لأن يأخذ جانب المصريين . خاصة وأن إبراهيم باشا ، وفي كتاب تهديد أرسله إلى الأمير ، كان قد أقسم برأس والده بأنه سيخرب الإمارة إذا لم يظهر الأمير في المعسكر بدون أي تأخير . مقرناً تهديده بالفعل ، قام إبراهيم باشا بتجهيز حملة إلى المدن الساحلية ، صور ، صيدا ، بيروت وطرابلس ، التي خضع سكانها جميعاً عن طيب خاطر للقائد المصري الذي ملأت أخبار مجده كل سوريا : تصرفاته الحاسمة ، عسكره النشيط ، تنظيمه ، حركاته السريعة ، نداءاته اللطيفة العادلة . كانت الإمدادات من كل نوع تصل إلى المعسكر من مصر . وصل عباس باشا الحفيد الفتى لمحمد علي على رأس مفرزة من الخيالة النظامية والبدو ـ قوزاق الشرق ـ اخضاع القبائل الجبلية الفلسطينية أعطى إبراهيم باشا فرصة

مناسبة للاستيلاء على القدس ، التي كانت أديرتها معتادة على النهب السنوي من قبل باشاوات دمشق . جلّ ما كان يخافه رجال الدين وكل أفندية القدس أن يستبيح المصريون المدينة ويدنسوا مقدساتها ، لكن أي عجب غمرهم عندما دخلت الحامية المصرية المدينة مع الأمر التالي لإبراهيم باشا الموجه إلى سلطات : الملاّ ، شيخ مسجد عمر ، المفتي ، النائب وغيرها من السلطات[١٣] : «توجد في القدس معابد وأديرة وجوامع ، يأتي إليها المسيحيون واليهود والطوائف المختلفة من أقصى أماكن الدنيا . وهؤلاء المؤمنون كانوا مثقلين بأعباء الضرائب الباهظة ، يدفعونها لإتمام واجبات إيمانهم ومعتقداتهم . نحن رغبة منا في إزالة هذه التعسفات نأمر كل مسلمي ايالة صيدا وسنجقي القدس ونابلس إلغاءها وإلغاء ما شابه من ضرائب على كل الطرقات بدون استثناء . إن العدل يفرض أن يكون الرهبان والمصلون الذين يأتون إلى أديرة وكنائس القدس لقراءة الانجيل وإتمام دينهم ، محررين من هذه الضرائب التي أثقلت كاهلهم تعسفاً من قبل السلطات المحلية . ونأمر في كل مكان ، بأن تلغى وإلى الأبد كل الضرائب المأخوذة من الأديرة والمعابد ومن الشعوب المسيحية[١٤] الوافدة إلى القدس : اليونان والفرنسيون والأرمن والأقباط ، كذلك الضرائب القديمة والمستحدثة المدفوعة من الشعب اليهودي ، ولا يمكن أن تنوجد هذه الضرائب تحت أية حجّة أو اسم : هدية طوعية أو عادية ، أو في خزينة الباشا أو في مصلحة القضاة المسلمين أو الديوان ، كل هذا ممنوع . عندما يتلا عليكم هذا البيولوردي يجب أن تسرعوا إلى تنفيذه حرفياً وبدون تلكؤ ، بإيقاف كل ما نوّه عنه أعلاه أو غيره من المرتكز على العادة ، من طلبات من أديرة ومعابد القدس المنتمية إلى الشعوب المختلفة من مسيحية ويهودية ، كذلك يتوجب إلغاء الكفارة التي تؤخذ من المسيحيين عند دخولهم إلى كنيسة القيامة أو عند توجههم إلى الشريعة في الأردن لأن هذه الكفارة تخالف القانون . بعد إعلان هذا فإن الذي يطلب من المعابد المذكورة أعلاه ومن المؤمنين أقل فريضة سيعاقب بشدة» .

هذا البيولوردي الذي صدر عن ديوان المجلس الأعلى ومثل هذه الخطابات من فم الباشا المسلم ، الفاتح الشجاع ، الذي ما إن احتل سوريا حتى بدأ يفكر باستئصال الاستغلال التاريخي ، فتحت صفحة جديدة في تاريخ مسيحيي الشرق . والواقع لقد آن

---

(١٣) يحمل بشليك عكا في التعبير الرسمي اسم عاصمته السابقة صيدا . بيروت الآن مركز إقامة الباشاوات . لكن كل المقاطعة تحمل كالسابق اسم إيالة صيدا . وهنا نشير إلى أن ابراهيم باشا ظل حتى فتح عكا يحصر أوامره الحكومية بمنطقة عبد الله ، محاولا أن يظهر للشعب بدقة ، بأن حربه مع عبد الله ليست انتفاضة ضد سلطة الباب العالي .

(١٤) التعبير التركي الرسمي يعني بتعبير الشعوب ، المذاهب الدينية .

الأوان لتخليص المسيحيين من الضرائب المخجلة وعمليات الإبادة ، التي وبدون علم الحكومة ، كان الباشاوات ومشايخ الجبال والحكام المسلحين وحتى عامة القدس المؤمنة على هواهم، يظلمون كهنوت القدس استناداً إليها .

ذكرنا في سياق حديثنا أن الضريبة السنوية العادية التي يدفعها الدير اليوناني لباشا دمشق كانت تساوي ألف كيس[١٥] ، إنما يجب أن نضيف إلى هذا المبلغ ٥٠٠ كيس كان ينفقها الدير هدايا وحاجيات لحاشية وحرم الباشا عندما يحضر الجميع إلى القدس . أما حصة ملاّ القدس التي كان يأخذها من الدير غب زيارته المدينة فكانت حوالى ٢٠٠ كيس ، ونادرة هي المرات التي لم يجد فيها الملاّ المناسبة لجمع هذه الكمية وأحياناً ضعفها . وما يعادل هذا المبلغ كان ينفق على كتبته (سكرتاريه) وأعضاء محكمته ، كذلك متسلم القدس مع حاشيته . إضافة إلى مبلغ يعادل إلى ٥٠٠ كيس يهدى سنوياً لعائلات مسلمة مختلفة لضمان عدم ملاحقة الدير الأرثوذكسي . إلى هذه الضرائب الدائمة وشبه القانونية ، إذ أن الاستغلال الطويل كان يأخذ قوة القانون ، يمكن زيادة أموال الكفارات التي كانت تزيد أو تنقص قليلاً عن ٥٠٠ قرش عن كل حاج . بقيت ضريبة الجرم Djermé، وهي من أكثر الضرائب إفقاراً للرعايا ، كون الباشا أو الملاّ أو المتسلم يفرضونها كيفياً وبدون مناسبة: إذا تخاصم حاجان أو حصلت فوضى بين طائفتين ، أو أزيحت قبّة السماء السابعة داخل الكنيسة في مبنى الدير لترميم السقف ومنع الدلف ، أو أصلحت الشبابيك المخلعة ، كانت تدفع في مثل هذه الحالة ١٠، ٥٠ ، أو ١٠٠ قرش على أساس أن ترميم الهياكل في الأمبراطورية العثمانية كان يخضع لمراقبة وموافقة المحاكم والسلطات المحلية .

أحياناً كان يشك الباشا ، وبدون مبرر ، بوجود علاقة بين الكهنوت اليوناني ويونانيي المورة ، وهذا ليس بمستبعد في بعض الأحيان ، أو في حالة وجود خبر عن حرق الايدريوت(*) للأسطول التركي ، أو خبر عن ملاحقة المسيحيين في العاصمة ، كان الباشا يطلب ١٥٠٠ أو ألف قرش ويعطي أساقفة كنيسة القيامة ، فرصة عدة أيام أو عدة ساعات لتقديم المبلغ أو . . . فالشنق . في مثل هذه الظروف ، ليس في الأمر غرابة ، أن يحول الدير اليوناني إلى سبائك ، حوالى ألفي بود (البود يساوي ١٦,٣٨

(١٥) من ١٨٢٠ وحتى ١٨٣٠ سقطت العملة التركية ، لأن المعدن أصبح رديئاً . وفي هذا الوقت أصبحت الـ ١٠٠٠ كيس أي ٥٠٠ ألف قرش تعادل ١٠٠ ألف روبل فضي .

(*) سكان إحدى الجزر اليونانية .

كلغ) من الفضة وما يربو على أربعين بوداً من الذهب ، في عدادها الأواني والثريات التي أهداها في حينها أباطرة يونانيون . علاوة على ذلك وقع الدير تحت وطأة ديون تعادل ٣٠ ألف كيس . أيام الحملة المصرية كانت مآسي الدير قد وصلت مداها . عرض الدير أن يدفع ٢٥ ـ ٣٠ ٪ من ديونه كل عام إلا أن أحداً لم يقبل هذا العرض : طالب المدينون ؛ ، المرابون المسلمين والأرمن واليهود أن تباح الأديرة وحتى المحجات المقدسة لسداد الديون .

في تلك السنوات العجاف ، عندما كانت ابرشيات القدس وكل رجال كهنوتها ، يصبرون على الإهانات ، يلبسون رث الثياب ، ويأكلون الخبز والزيتون طوال العام ، فقط كي لا تخمد مصابيح المحجات المقدسة ، وكي لا تنتقل المقدسات الموكلة إليهم حراستها إلى أيدي الغرباء من القبائل الأخرى ، لا نستطيع إلا أن نشكر حتى التعظيم أمام القديسة التي ملأت نخبة مؤمنيها بنبع الروحانيات الذي لا ينضب ، عند مهد ايماننا ، والتي يمكن مقارنتها فقط بمآثر وصبر مجاهدي القرون الأولى للمسيحية .

حقق إبراهيم باشا وعده ، ولم تكن أوامره أيام القبائل السورية حروفاً ميتة شأن أوامر الباب العالي ، كانت بالفعل تعهداً احتفالياً من التسامح الديني ، ظل إبراهيم باشا وفياً له طيلة فترة الادارة المصرية في سوريا ، لم تخضع لادارته في القدس السلطات الشرعية والتنفيذية وحسب ، بل أن مشايخ جبال اليهودية نفسهم ، والذين لم يعرفوا الخضوع لأية سلطة ، والذين كان الحجاج يمثلون بالنسبة إليهم مادة دسمة من مداخيلهم ، اضطروا أن يقدموا للحجاج الحماية المجانية ، وضمان السلامة وعدم المضايقة . ثم ان ابراهيم أعلن إمعاناً في تأديب العرب الشرسين ، بأن اليد التي تمتد لأخذ المال من الحجاج في الجبال اليهودية ستقطع . وقد نفذ العرب هذا الأمر بحرفيته ، فأخذوا يجبرون الحجاج على رمي النقود أرضاً ، وبعد ابتعاد هؤلاء كانوا يأخذون المال من على الأرض وليس من أيدي الحجاج . وعندما علم ابراهيم باشا بذلك لم يبطىء بتفسير إرادته بشكل مباشر ، فقطع أيدي ثلاثة من العرب ، وبعد ذلك لم يجرؤ أحد قط على مخالفة أوامره .

كانت عائلة أبو غوش بقيادة مشايخها تقطن منذ القديم في شق جبال اليهود على الطريق بين يافا والقدس ، وكان أفراد هذه العائلة تحت ستار حماية الحجاج من قطاع الطرق ، يعمدون ، إلى ابتزازهم وأخذ الكفارات والهدايا منهم . قدم إبراهيم باشا لشيخهم معاشاً بدل مدخول كهذا ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد أبو غوش مهدداً للحجاج

بل حامياً . وهذا ما أدى إلى ازدياد عدد الحجاج اليونانيين والأرمن المتوجهين من كل مناطق الأمبراطورية العثمانية إلى القدس ، حتى بلغوا بعد عامين أو ثلاثة من الإدارة المصرية الـ ١٠ آلاف شخص . اغتنى سكان يافا ، وسكان الجبال الذين كانوا يعملون كأدلاء ، وسكان القدس حيث كان الحجاج يمضون فصل الشتاء ، إضافة إلى زيادة مدخول الأديرة بالطبع . ومع الوقت اقتنع سكان فلسطين بأن مصلحتهم تقضي باجتذاب عدد كبير من الضيوف عن طريق التسامح وحفظ الأمن ، بدلاً من نهب مائة ونصف المائة من التعساء الذين كانوا يتجرأون على المسير وتحمل أخطار الطريق .

في كل أوجهه ، كان التسامح الديني عند إبراهيم باشا ، مبنياً على حسابات سياسية صحيحة ، من ناحية ، كان الأمر الذي أطلقه من معسكره قرب عكا تلاطفاً مسبقاً وثمناً لجذب سكان الجبال اللبنانية المسيحيين ، والذين رأى فيهم سنداً وفياً يساعده في تحقيق طموحاته ، ومن ناحية ثانية ، إن أول شرط لخضوع المسلمين للسلطة الشرعية ولنجاح الإصلاحات في الأنظمة الحكومية والعسكرية ـ وهذا ما استنتجه ابراهيم باشا من تجربته في مصر وفي الجزيرة العربية ـ هو لجم التعصب الديني ، الذي استخدمه الباشاوات الأتراك ، أمثال عبد الله لتدعيم نفوذهم .

إن المقارنة المنصفة غير المتحيزة لفترة الحكم المصري ، مع غيرها من فترات الحكومات التي مرت على سوريا ، وحتى مع فترة إقرار السلطة العثمانية من جديد عام ١٨٤٠ . إن هذه المقارنة تخدم الحقيقة السابقة أعلاه عن التسامح الديني ، هذه الحقيقة التي لم يقتنع بها وكلاء الباب العالي حتى الآن . من هذه الزاوية كان تسامح إبراهيم باشا الديني أهم وأمتن تدبير في إصلاحاته ، وقاعدة نفوذه على القبائل السورية المسلمة .

كان الشعور الديني ، منذ القدم ، يخدم عاملاً خفياً من عوامل السلطة الحكومية في الشرق . في سوريا ، هذه التربة الكلاسيكية للإلهام ، للعقيدة الأساسية للردة والتعصب الديني ، المنطبعة فيها التقاليد والقيم ، كانت السلطة الحاكمة مجبرة على اتباع الفكر الديني والتقيد به أكثر من أي مكان آخر . كانت الجماهير الإسلامية المتدينة تشكل الضمانة الأساسية لثقل الحكومة السياسي ، أما أحلام الغرب عن بعث المملكة اليهودية في فلسطين رغم التنبؤات الخطيرة ، أو إعادة السلطة المسيحية رغما عن عناصر المنطقة ورغما عن تجربة قرنين من الحملات الصليبية ، فإنها تكشف عن جهل عميق بإحصائيات هذا الإقليم ، الذي كتب وقيل فيه الكثير في السنوات الـ ١٥ الأخيرة . إبراهيم باشا مع تفكيره السليم كإنسان شرقي توصل إلى أن يدرك ببساطة أن الحكومة

تستطيع أن تنتظر من المسيحيين السوريين فقط التعاطف والمساعدة لتأديب قبائل المسلمين الذين كانوا في أوج تعصبهم الديني يؤججون وقاحة عميقة للصراع مع السلطة القانونية الشرعية ، ملاحظة. التجربة تبرهن صحة حسابات إبراهيم كاملة.

عودة إلى عكا المحاصرة . ولنا العذر في ابتعاد حديثنا عنها لأن الحصار استمر دون نجاح طوال الشتاء . كان جواب عبد الله على مطالبته بالاستسلام ، بأنه قرر فيما لو ثقبت جدران القلعة أن يلجأ إلى الحل الأخير ، نسف القلعة بمن فيها على أن يسلمها . أثناء الحصار حضر الأمير اللبناني إلى المعسكر ، فأوقف رهينة مقابل وصول المساعدة الموعودة وبالفعل انضمت إلى الجيش المصري ، لاحقاً مفرزة من الجبليين بقيادة الأمير خليل ابن الأمير بشير . كان محمد علي باشا ملحاحاً في طلباته لابنه ابراهيم بفتح القلعة مهما كان الثمن ، ففي هذه الحالة فقط ، كان بإمكانه فرض الشروط على ديوان القسطنطينية . من ناحيته ، ظل الباب العالي وفياً لقاعدة السياسة التركية القديمة : «القضاء على خصم بواسطة خصم آخر» ، من هنا كان يرنو بفرح إلى العراك الناشب بين باشا مصر وعبد الله ، إذ كان يحسب أن الاثنين معاً ، أو أحدهما في أسوأ الاحتمالات ، سيحني هامته المتعجرفة أمام أبواب اسطمبول .

حسابات الباب العالي هذه ، كانت خادعة ، وقد أعاد مراجعتها بعدما تواردت الأنباء عن قوة الحصار ، وعن تعاطف القبائل السورية مع ابراهيم ومع التدابير الحكومية التي اتخذها كفاتح واثق من مأثرته ، وليس كضيف مؤقت عابر . لكن مراجعة الباب العالي لحساباته لم تعن تغييراً في أساليب تعامله الفاترة مع الأزمة ، وإنما عنت تعبيراً عن تعجبه وعدم رضاه ليس غير ، وقد أرسل إلى محمد علي باشا قوميساراً اسمه ناصيف الدين مع تهديد مبطن ، بضرورة الكف عن هذه «التصرفات الشائنة» (هذه الكلمة جاءت على لسان موظف الديوان التركي) ، والتوجه بالشكوى ضد جاره إلى الباب العالي ، وهذا بدوره يكفل عدم تدخل عبد الله في شؤون مصر . المفتي بدوره ، وباسم الدين هذه المرة ، نصح محمد علي بأن يترك سوريا ، تأميناً لمسير قافلة الحجيج إلى مكة .

تهرباً من لقاء مبعوث الباب العالي ، قام محمد علي بحجزه شهراً كاملاً في المحجر الصحي «الكارانتينا» ، وكان طوال هذه الفترة يوالي إرسال كتائب عسكرية كاملة على ظهور الجمال ، لتعويض الخسائر التي أحدثتها الكوليرا في جيشه ، حتى وصل عدد قواته أخيراً إلى ٤٠ ألفاً . رسائل الباب العالي ، وطلبات المفتي المستمرة ، كانت تلقى من محمد علي باستمرار نفس الإجابة : يطلب وبخشوع أن يتنازل له عن بشاليك عكا

ودمشق اعتباراً لخدماته السابقة : تهدئة مصر وخضوعها ، القضاء على الوهابيين ، تسوية أمور المقدسات الإسلامية في الجزيرة العربية ، حملة المورة وتقديم الضرائب في وقتها إضافة إلى تضحياته الوطنية .

عند ذلك فقط قرر الباب العالي أن يتصرف ، تباطؤه السابق هيأ لابراهيم باشا ، وكأن بشكل مقصود، الفرصة لاحتلال عكا، فمنح والي حلب محمد باشا رتبة سرعسكر في الجزيرة العربية، مع أمر له بتجييش الجيوش، وأمر آخر لباشاوات ومتسلحي قيسارية وقونيا ومرعش وسيواس ، وغير هذه من مناطق آسيا الصغرى ، بالإسراع في التجنيد والانضواء تحت لواء سرعسكر الجزيرة العربية الجديد . في هذه الحملة لم يكن للجيش النظامي أي وجود ، فقد رأى الباب العالي بأن جموعاً عادية للمشردين ، بموجب النظام الحربي القديم ، كفيلة بتمزيق أفواج الآلاي ابراهيم . في منتصف شهر رجب (بداية كانون الأول) (١٦) ، وعند خروج قافلة الحجاج التركي من القسطنطينية إلى مكة ، كان أفرادها متأكيدين من أن الطريق إلى مكة قد مشطت بواسطة الجيوش السلطانية (١٧) ، وبأن كل التدابير اللازمة لسفر وعودة القافلة قد أنهى صياغتها باشاوات دمشق وطرابلس . إلا أنه لم يكتب لمؤمني ذلك العام تأدية فريضة الحج . كانت دمشق تلعب دور الملتقى ، حيث تجري كل التحضيرات لانتقال القافلة عبر الصحاري السورية والعربية . هذه المدينة استقبلت علي باشا الذي خلف سليماً ، ببرودة لا يحسد عليها لأنه دخلها بدون جند مع حاشيته الصغيرة . كان الباب العالي من جهته يؤجل انتقامه الذي كان سينزله بالسكان المدنيين ، أما السكان فقد رأوا في الباشا رهينة أثناء محاولة قمع العصيان . في ظل مثل هذه العلاقات بين وكيل الباب العالي ، والشعب المتعصب دينياً ، وفي ظل الاستعدادات الحربية ، عاد الحجاج أدراجهم من دمشق ، المدينة المسماة بوابة مكة ، بعد أن انتظروا سدى لعدة أسابيع .

هاجمت جيوش آسيا الصغرى حلب وعاثت فيها فساداً ، مما أدى إلى زيادة نقمة السكان الذين أخذوا يرون في ابراهيم باشا منقذاً . والحامية المصرية بقيادة مصطفى بربر احتلت مدينة طرابلس ، ومصطفى بربر هو نفسه الذي طرده عبد الله باشا قبل

---

(١٦) سنة ١٨٣١ . الناشر .

(١٧) بما أن السنة الهجرية تتألف من ١٢ شهراً قمرياً أي ٣٥٤ يوماً ، فإن الأشهر الاسلامية لا تتطابق مع تقويم شهورنا ، كذلك السنوات الهجرية لا تتطابق مع تقويمنا السنوي . فترة الحوادث التي تصفها سنة ١٨٣١ حصلت سنة ١٢٤٧ هـ ، وبالتالي فالعام الحالي ١٨٦١ ، يعتبره المحمديون سنة [٨]١٢٧ هجرية .

ذلك بسنوات ، إلا أنه عاد إلى سوريا مع المصريين وخدم محمد علي بإخلاص . باشا طرابلس عاد لاسترجاع المدينة من أيدي المصريين وقد هزم حاميتها لكنه ، وبعد انقضاض ابراهيم باشا نحوه ، وخوفاً من اسمه فقط ، ولى بسرعة هارباً على رأس الكتيبة السلطانية ، تاركاً وراءه المدفعية والعربات متوجهاً نحو حماه ، إلى حيث وصلت قوات العثمانيين التي كانت تعسكر في حلب .

لم يفقد الباب العالي الأمل في إعادة الوالي المصري إلى دائرة الطاعة عن طريق المفاوضات التي طالت . ومع حلول الربيع كانت عكا ما تزال تدافع باستماتة ، وأمام عرض بالاستسلام جن جنون عبد الله باشا ، فنزل إلى ثغرة بنفسه وأعلن لمندوبي ابراهيم باشا بشكل ساخر ، بأنه والحمد لله سليم معافى كالقلعة تماماً مع أن ثوبها الخارجي يبدو ممزقاً ، وهو لا يرى الآن أي مبرر للحديث عن الاستسلام ولما تنقضي إلا خمسة أشهر على الحصار . وهو سيكون لمثل هذا الحديث عن السلام والاستسلام بعد انقضاء خمس سنوات على بدء الحصار لأن المياه والمواد الغذائية تكفي لمثل هذه المدة . ولو أخذنا في الحسبان بأنه من واجب عبد الله أن يحذر ليس فقط أخطار الحصار ، بل وخيانة حاميته اليائسة ، خاصة وأن ما حدث لعلي باشا اليانيني ما يزال ماثلاً للعيان ، إذ باع حراسه رأسه بعد أن سرقوا الخزينة ، ولو أخذنا في الحسبان كذلك موقف سكان المدينة الموالي لابراهيم باشا ، فإن من واجبنا الاعتراف بأن الشجاعة هي إحدى طبائع هذا الشخص العجيب .

في ربيع سنة ١٨٣٢ أيقظ غضب السلطان محمود الباب العالي من سباته ، فدعا إلى العاصمة حسين ، كاسح الانكشارية الشهير والخادم المتعصب للسلطان ، والذي كان يعرف سابقاً بـ آغا باشا، والذي كان ، ولسنوات عدة ، يكتئب من عدم مكارم الباب العالي عليه بسبب دسائس منافسه خسزو ، الذي ترأس وزارة الحربية وحاز لقب سرعسكر لتقربه من السلطان محمود . أعاد محمود الاعتبار للشيخ الوفي آغا باشا (١٨) وخلع عليه لقباً جديداً سردار أكرم أو فيلد مارشال آسيا الصغرى وخصه بسلطات واسعة ، معلناً في فرمان صريح ، واستناداً إلى قوانين الدين الإسلامي وسلطة الخليفة ، اللعنة على محمد علي وابراهيم لخيانتهما السلطة الشرعية ، ومنح المقاطعات الموكولة إليهما ، مصر ، جدة وكريت للفيلد مارشال مع أمر باحتلال هذه المناطق وتنظيف سوريا قبل كل شيء .

(١٨) آغاباشا، في التراتبية العسكرية التركية القديمة ، هو الذي يشغل منصب القائد الأعلى لفيلق الانكشارية . عن القضاء عن الانكشارية من قبل حسين قائدهم الأهلي ، ذكرت تفصيلات في كتابي «نبذات عن القسطنطينية» .

أثار نداء السلطان هذا ، الأماكن السورية التي دخلت دائرة السيطرة المصرية ، فقد بدأت بعض المؤامرات في طرابلس ولبنان ، إلا أن ابراهيم باشا أخمدها بهجومه على دير القمر ، فثبت سلطة الأمير بنفي أخصامه . أما في دمشق وحلب فلم يكن لنداء السلطان أي صدى في نفوس الشعب . وهنا يزاح الستار عن ظاهرة غريبة ومحزنة في آن معاً ، تميز بها الحكم المصري في سوريا حتى سقوطه : كلما كان عمر سلطة السارق (يقصد ابراهيم باشا) يمتد فترة أطول كلما كان السكان يتحسرون بصدق وإخلاص على أيام سلطانهم الشرعي ، بينما كان الناس المحكومون من قبل وكلاء السلطان في مناطق آسيا الصغرى ، يتطلعون بلهفة لوصول المنقذ المصري . أنرجع ذلك إلى تقلب وعدم استقرار النفس البشرية غير الراضية أبداً بمصيرها أم إلى خلل النظام التركي في الأناضول ، أم لقساوة إبراهيم باشا في سوريا ، أم لصعوبات مرحلة الاصلاحات الحتمية ـ بعدما طفح الكيل من سوء استعمال النظام القديم ـ التي بالرغم من أخذها بعين الاعتبار العنصر المحلي ، وتكيفها مع الوضع الداخلي ، تبقى كأي إصلاح أو تغيير ، مكروهة أصلاً من قبل الإنسان الآسيوي .

اتجه بقيادة الفيلد مارشال من القسطنطينية نحو سوريا ، فيلق مؤلف من ٥٠ ألف جندي ، في عدادهم ثلاثون ألفاً من الجند النظامي مع ١٦٠ مدفعاً . في شهر أيار كانوا في جبال طوروس وفي نفس الوقت أبحر الأسطول من الدردنيل بإمرة خليل باشا . ودعماً للعمليات البحرية تمركز في نيسان ١٠ آلاف من الجنود غير النظاميين ، بقيادة والي حلب عثمان باشا ، عند حمص ، على مسافة ٤ أيام من دمشق . ابراهيم باشا من جهته كان قد أخذ موقعاً حربياً مميزاً في بعلبك حيث تلتقي الطرق من طرابلس ودمشق مع طريق حمص ، وراح يراقب الجيش التركي ، وفي نفس الوقت كان يؤمن تغطية الجناح الأساسي لجيشه عند أسوار عكا . بعد هذه التدابير ، حاول ابراهيم في ١٦ أيار[١٩] القيام بمحاولة ثالثة لفتح عكا المحاصرة ، والتي كانت أبراجها ، تحت تأثير بطاريات المدفعية وأعمال النقب تحت الأرض ، قد تحولت إلى أنقاض ، اندفع ابراهيم باشا والسيف في يده مجبراً مصرييه على التقدم نحو الثغرة ، التي كانت تحميها نيران القناصة الالبان ، فتراجع المصريون خوفاً من الرصاص ، إلا أن ابراهيم ألقى بنفسه من جديد في أتون المعركة بعد أن عاقب وقطع بدون شفقة جنوده المتراجعين ، وقد تمكن المهاجمون بعد جهد جهيد من الدخول إلى القلعة حيث خرج وجهاء المدينة لطلب الرحمة من

(١٩) سنة ١٨٣٢ ، الناشر .

الفاتح . أما عبد الله باشا فقد حضر في منتصف الليل بعد أن تلقى منديلاً أبيض علامة الأمان من ابراهيم باشا الذي استقبله برقة . وعلى سؤال الفاتح لماذا يهدر الدماء المسلمة بعناد غير مجد ، أجاب عبد الله متنهداً «وهل كنت أعلم بأن والدي السلطان قد تركني ، بينما لم يكف سعادة والدك الطيب عن مدك بالجنـد ؟» حقاً اتهـام عجيب للسلطان من شفاه باشا شق عصا الطاعة مرتين ! .

وعلى سؤال عن الخزينة التي أصبحت بحوزة الفاتح ، أجـاب الباشـا الأسير بـأنه وزعها مع كنوزه على الحامية . خلاصة القول : يفترض أن يكون الجيش المصري قـد حصل على غنائم كبيرة في تلك الليلة الوحيدة التي أبيحت فيها عكا [٢٠] . في حصـار عكا سقط أربعة آلاف جندي ، وعند الاحتلال توفي أكثر من ألفين بالحمى .

كاد أن يغمى على محمد علي من شدة الفرح لدى سماعـه عن سقوط عكـا ، وقد استقبل عبد الله الذي وصل مصر بحـراً بحفاوة كبيـرة ، وقد بـدا هذا البـاشا الأسـير مكسوفاً ذليلاً أثناء مـأساتـه ، بنفس القدر الـذي بدا فيـه جسوراً مقـداماً وراء أسـوار قلعته . من مصر أرسل إلى القسطنطينية ، حيث يعيش الآن مغموراً ، يعتاش من راتب تقاعدي يمن به السلطان .

أسرع ابراهيم بعد سقوط عكا صوب دمشق ، قطع الأردن بين بحيرة الحولة وبحر الجليل(*) ، عن جسر يعقوب[٢١] . (المقصود جسر بنات يعقوب . المترجم) . الأردن هو الحد الفاصل بين بشليك عكا الذي أخضع وبشليك دمشق الذي ينتظر الفاتح . علي باشا والي دمشق ، فقد كل أمل بإجبار السكان عـلى الدفـاع ضد العـاصي الملعون من الخليفـة ، وفشل في مـا أمر بـه ، أن يجند بـاسم الدين ثـلاثين ألفـاً من سكان مـدينة الاسلام ، الشام الشريف .

خلال قرنين من الزمن كانت الحكومة العثمانية تلجأ لمثـل هذه النـداءات الدينيـة بكثرة ، وكانت تغذي في الشعب التعصب الديني ، إلا أن هذا العامل الداخلي الخفي الذي كان يرتكز اليه النفوذ العثماني ، وبرغم جبروته وسـلاسته حتى الآن ، لم يخضـع

---

(٢٠) الليفتنانت غاتافاكو Levantenets Katafago توصل في هذه الليلة وفي اليومين التاليين إلى جمع ثروات طائلة ، مشترياً بأبخس الأثمان الـ doublon وغيره من العملات التي لم يكن يعرف الجندي المصري قيمتها إذ كان يعتبرهـا jetone أو لعب .

(٢١) يطلق هذا الاسـم على جسـر في الأردن بناه يعقـوب العربي . يقـول رجال آخـرون مطلعـون على خـرافات التـوراة بأن يعقوب بن اسحق عبر من هذا المكان نهر الأردن ، عندما هرب من غضب أخيه عيسـو .

(*) المقصود بحيرة طبرية (المترجم) .

للاتجاه الذي حدده السلطان، الرأس السياسي والروحي للإسلام. علي باشا والي دمشق، وحفظاً لماء الوجه فقط أبرز في مواجهة المصريين عدداً من الفرق الخفيفة التي سرعان ما تراجعت تاركة إبراهيم باشا يدخل المدينة وسط استقبال شعبي حافل من سكانها الذين شملتهم في هذه الحالة غضبة السلطان ولعنته[٢٢]. بعدها تابع ابراهيم باشا تحضيراته للتوجه نحو حمص. لقد اقتتل مع الباشاوات، فتح القلاع وعين سلطات جديدة في المدن، إلا أنه لم يسمح لأحد ولو للحظة بالتشكيك بولائه المطلق للسلطان الشرعي. إن هذا النوع من العصيان وقف على الشرق ومعروف فيه منذ القدم. السلطان، رأس السلطة الدينية والدنيوية وخليفة النبي صلعم، ليس هدف الباشاوات في تمردهم. فالتمرد يتجه أساساً ضد الحكومة التي ينصبها هذا السلطان نفسه. وهكذا وبما أن المتناقضات تكون أحياناً متشابهة ومتماثلة فإن الاستبداد الشرقي يلتقي مع الراديكالية في الغرب. نهار الجمعة الذي تلا احتلال ابراهيم لدمشق، وفي الصلاة الجامعة عند المسلمين التي تختتم بدعاء الامام بصحة السلطان وطول عمره، اقترب امام الصلاة من ابراهيم باشا يسأله باسم من يكون الدعاء. شعر ابراهيم بالإهانة للتشكيك بولائه للسلطان، واعتباره منشقاً، وعلى مرأى ومسمع من جموع المصلين أمر بتقطيعه إرباً إرباً. وبعد هذا الإعلان الاحتفالي بالولاء والطاعة للسلطان أسرع إبراهيم للقضاء على جيش سلطاني في حمص وبيلان.

(٢٢) احتلت الجيوش المصرية دمشق في ٢٣ حزيران ١٨٣٢. الناشر.

الفصل السادس

التراخي المقصود وحسابات الباب العـالي ـ أهـم أسبـاب انحطـاط الامبراطـوريـة العثمانية ـ وصول سردار أكرم الى سوريا ـ المعركه قرب حمص في بيلان ـ عدم تحرك الاسطول العثماني ـ حملة المصريين الى آسيا الصغرى ـ شعور السكان ـ تدخل الروسيا في شؤون الشرق ـ موقف الدول الاخرى ـ المعركة قرب قونية ـ وصول اسطول الروسيـا وجيشهـا الى البـوسفـور ـ المحـادثـات ـ إدعـاءات وهفـوات الحكـومـة الفرنسيه ـ إتفاق كوتـاهيـه ـ عـواطـف السلطـان نحو المحمـديين وفترة التسـامـح الديني ـ معاهدة خنكبار أسكله سي وفكرتها الاساسيه.

* *

أول خبر تلقاه سردار اكرم في طريقه من قمم جبال طوروس نحو الشواطىء السورية، كان سقوط عكا، حصن سوريا الذي فشلت أمامه حصارات ثلاث من قبل: حصار نابوليون وباشاوات أتراك في عهدي الجزار وعبدالله باشا. من السهل الاعتقاد بأن ما ألمحناه من تراخ تركي تجاه حصار ابراهيم باشا، كان السبب في سقوط القلعه بيد المصريين. وهذا في الواقع صحيح، وهو لم يكن تراخٍ بقدر ما كان مخططاً، والباب العالي كان يتمنى سقوط عكا. لقد تعلم من تجارب القرون الماضيه أن يقدم في الصراع مع الولاة الطرق الملتوية على التدابير الحازمة المستوية. وكان (اي الباب العالي) يدرك أن انتصار الجزار على الفرنسيين عند اسوار عكا، أدى فقط الى اطاله عصيان باشاوات عكا اكثر من ثلاثين سنه. ولم يكن من شك بأن عبدالله باشا سيستقبل سردار اكرم حسين كما استقبل سلفه الجزار الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا. لقد وجد الباب العالي في ابراهيم سلاحاً لتأديب عبدالله. ولكن خطأ الباب العالي هنا يكمن فقط في حساباته عن امكانات هذا السلاح. وتبعات احتلاله لعكا وقلعتها الشهيرة، هذا الاحتلال الذي ادى بعد حصوله الى تثبيت سلطة ابراهيم على القبائل السورية من ناحية ومن ناحية ثانية بعث النشاط في صفوف المجندين الذين كانوا يؤلفون القسم الاكبر من الجيش المصري.

سقوط عكا سنة ١٨٣٢ كان افتتاح دراما شرقية جديدة، حل عقدتها كان مثار

اوروبا سنة ١٨٤٠ . هل يحق للدُوَل الاوروبية التي شاركت في صياغة الحل، أن تلوم الاتراك لتراخيهم المقصود، وسماحهم بسقوط عكا؟ إن حسابات الباب العالي كانت خاطئة، فهي نتيجة منطقية وحتمية للمنطلقات السياسية التي اعتمدتها الامبراطورية العثمانيةمنذ تأسيسها.

إن السلطة المطلقة التي يتمتع بها الولاة في مقاطعاتهم، وبدلاً من أن تكون لحمة حيوية تربط هذه الشظايا الرائعة التي صهرت منها سيوف محمود وسليم والعملاق الجبار سليمان، فإنها، أي سلطة الولاة المطلقة، أدت عكس ذلك، الى ائتلاف فوضوي لحكام مسلحين مستبدين. بالطبع كان هؤلاء الولاة يعترفون بلا جدال بسيدهم رأساً للسلطة السياسية والدينية في الامبراطورية، إلا انهم كانوا يخضعون لحكومته، فقط عندما كانت تتوافق سياسة هذه الحكومة مع مصالحهم، أو عندما كانوا يفتقدون وسائل محاربتها. من هنا كانت صعوبة المرحلة الاصلاحية الثانية التي بدأها السلطان محمود الثاني بعد انتهائه من الاصلاحات في نظام السلطنة الحربي، إذ كان يجب عليه النضال ليس فقط ضد أباطيل وخرافات شعبه وضد عنف الانكشارية وحسب، ولكن ايضاً النضال ضد المبدأ السياسي الذي درجت عليه حكومات السلطنة ما يزيد على الاربعة قرون، ضد الحكم المطلق الذي تمتع به الولاة، وكلاء السلطان في المقاطعات.

إن ما يدهش فكر المراقب مصيرعشيرة رعاة القزوين الرحل، الذين اثاروا الاضطراب بحملتهم المؤلفة من ملايين المنغول، واعتبروا أنفسهم الشعب المختار لاله الحرب في الشرق. مآثرهم الحربية في ذلك الوقت، بعدما تمكنوا على قلة عددهم من تشكيل نفوذهم السياسي، تقارن بافضل صفحات في تاريخ روما. الا ان هذه الاخيرة كانت تعرف كيف تساير الشعوب الخاضعة، باعطائها حقوقها المدنية او تنازلات بلدية. وفي نفس الوقت كانت روما تكتسب من هذه الشعوب الخاضعة، الدين والعلم، وهذا ما كان يشدد التقارب بين الطرفين.

كانت الشعوب المضطهدة، وقد فقدت كينونتها السياسية، تعتاد على اعتبار روما ليس سوطاً للبشر، بل مركزاً لوجودهم السياسي ومنبعاً لمدنيتهم. فقد تبنت روما القبائل الخاضعة لها وربطتها بمصائرها بروابط المواطنية. وحتى في فترة تساقط امبراطوريتها بسبب الاستبداد الحربي، فإن المقاطعات لم تتساقط بنفسها، لا إساءات الحراس البريتوريين، ولا الصراعات الداخلية بين الأباطرة، شكلت ذات يوم شرارة عصيان. لقد انهارت الأمبراطورية الرومانية ولكن ليس بسبب انتفاضة الولايات ولا تمرد الشعوب الخاضعة، وإنما بسبب هجوم ملايين من الاعداء الخارجيين.

الفاتحون الأتراك من جهتهم وضعوا شرطاً أساسياً للحقوق المدنية، الإيمان بمحمد صلعم، وبذلك شكلوا حاجزاً منيعاً بينهم وبين الشعوب المغلوبة، إضافة إلى أنهم أصيبوا، باستيلائهم على القسطنطينية بعدوى الفساد السياسي. غير أنهم وحفاظا على كبريائهم كمنتصرين، استبعدوا القانون المدني وعلم الإدارة الغريب عنهم بالوراثة في الفترة الاولى من حكمهم اتخذ السلاطين لقب قياصرة، لكن أين هم من النسق التي سار على اساسها القياصرة طيلة ١٤ قرناً، وأين هم من النظام الذي وجدت الأمبراطورية بفضله في صراعها مع الاعداء الخارجيين كل مساندة وعطف الشعوب المغلوبة؟!

أما السلاطين وأفراد قبيلتهم الحاكمة، فقد ظلوا ضيوفاً غرباء عن القبائل الخاضعة لهم وسوطاً مسلطاً فوق أعناقها، ولقلة عدد قبيلتهم نفسها لجأوا الى وسيلة مريحة، وإنما مميتة، وهي تبني النظام الاقطاعي لحكومتهم، بغض النظر عن افتقار تركيبة قبيلتهم السياسية الى النبلاء، العنصر الاساسي في السلطة الإقطاعية. تحت بريق استبداد السلطة المطلقة للحكومة، كانت الفوضى الكاملة تسيطر على امتداد الأمبراطورية، أما الحقوق المدنية والحقوق الخاصة فلم تكن تملك في الأمبراطورية أية ضمان سوى ما تقدمه القوة المادية (المال، السلاح، الجيش). كان المتشرد المقدام يجعل من نفسه حاكماً مطلقاً لمقاطعته، يخنق الشعب لكي يستخرج منه عناصر جبروته للدفاع عن نفسه ضد السلاطين، الذين تستغل اسماؤهم لاضفاء الشرعية على سلطة المتشردين مع كل مساوئها. عندما كانت اوروبا الغربية تصدق خضوع الباشاوات الاعمى واستعدادهم لشنق انفسهم بالحبل الذي يرسله السلطان مع فرمان بذلك، كان السلاطين من جهتهم يرون انفسهم محكومين، وحتى في عهد جبروتهم الذهبي، بتجديد فتح واحتلال إرثهم الذي تركه لهم الاجداد.

من السهل فهم مغزى الاصلاحات السياسية التي حاولها السلطان محمود، والتي تتمثل بتقوية نفوذ السلاطين، ولكن هل تستطيع هذه الاصلاحات انقاذ الدولة؟ انصار تركيا رأوا فيها الانعطاف المنقذ من المرض الداخلي، إلا أن هذه الازمات السياسية المتتابعة تأخذ الان وبصورة أوضح شكل المرض المميت. لا محاولات سلطات الديوان، ولا الانتصارات ضد الانكشارية، وضد الباشاوات، ولا التنازلات المقدمة للقبائل المحكومة، ولا التعاطف مع العالم الخارجي، كل هذه لا تشكل بحد ذاتها عناصر الانقاذ من هذا المرض.

من الصعب الحكم على هذه التصورات بأنها في غير مكانها قبل الحديث عن العمليات الحربية: ليس بين واليين كالسابق، بل بين والٍ منتصر وحاكمه الشرعي.

جعل سردار أكرم غرفة عملياته على شاطىء خليج الاسكندرون، وجلس ينتظر

الاسطول والعربات المحملة بالمؤونة، دون أن يأخذ بعين الاعتبار، إصابة اكثر سكان منطقة الشاطىء بالحمى، وقد أجبره الطقس الخبيث، على الانتقال الى انطاكية، بعد ستة اسابيع من الانتظار المضني . وهناك جهز الى مدينة حلب، الجنرال محمد باشا، علامة التكتيك الاوروبي، مع ١٠ آلاف من الجيش النظامي و ١٠ مدافع، واعطاه أمرة القيادة على الباشاوات الموجودين في الصفوف الأمامية في حمص، على أن يأخذ مكاناً في الصف الاول منها .

كان التنظيم التركي القديم، حيث يستطيع القائد العام، حتى تقطيع مرؤوسيه من الجنرالات إربا إربا، قد انتهى في هذه الفترة دون أن يكون الديسبلين الجديد قد تملك من النفوس بعد . لم يصغ محمد باشا الشديد الثقة بنفسه، الى الاوامرالحذرة التي وجهها اليه سردار اكرم، اذ أنه نزل حمص مع فيلقه بدون أي استطلاع لحركات العدو، وبدون التأكد من خروج ابراهيم باشا من دمشق، وتهيأ بأخذ مواقعه، لينصب فخاً يطبق بعده على ابراهيم باشا بسرعة .

في هذه الأثناء كان ابراهيم باشا يتقدم شمالا على نهر Oronte الذي يسميه العرب بالعاصي لجريانه من الجنوب نحو الشمال على العكس من كل الانهار في آسياالجنوبية، والتي تجري من الشمال نحو الجنوب. ابراهيم باشا نفسه كان يسير فاتحاً من الجنوب نحو الشمال، عكس اتجاه الفاتحين المعتاد من الشمال نحو الجنوب. على بعد مسيرة يومين من دمشق، في قيسارية انضمت اليه الفرقة التي كانت تلعب دور الخط المتقدم بين طرابلس وبعلبك أثناء حصار عكا . وفي ٢٦ حزيران، وقبل ساعتين من غروب الشمس، تقدمت الجيوش المصرية المقاتلة، فجأة نحو حمص في الوقت الذي كان فيه الباشاوات يدخنون نراجيلهم على ضفاف النهر، وكان فيه الجنود يرتاحون في الضاحية الجنوبية من تعب الطريق، بدون خيام أو حاجات غذائية .

هذا هو اللقاء الاول بين الجيشين السلطاني والمصري، لدى الجانبين حوالى ١٠ آلاف من الجيوش النظامية وما يعادل هذا العدد من الجيوش غير النظامية . لم تصمد صفوف الاتراك طويلاً أمام هجوم المشاة المصريين، ولم يستطع محمد باشا بشجاعته اليائسةالتكفير عن هفوته المميتة. قضي أمر المعركة في الليل وفي الصباح كان ابراهيم باشا يحتل حمص . خسائر الاتراك كانت نصف مدفعيتهم، مع الفي قتيل وثلاثة آلاف أسير . إن هذا النصر المصري أكد الانطباع الذي تركه احتلال عكا في نفوس القبائل السورية وأمن لابراهيم خضوع الاقليم بكامله .

لقد عانت الفرق النظامية في الجيش التركي، من زميلاتها الفرق غير النظامية، اكثر

مما عانته حتى من جيوش الاعداء، إذ أنها، وهي المسماة «بالمنصورين»، وقعت أثناء هروبها ضحية النهب والسخرية من قبل الخيالة باشي ـ بزق، فخلع عناصرها ثيابهم الرسمية وحقائبهم كي لا يتعرضوا للسباب والاهانات. هل كانت مثل هذه النتائج القاتلة متوقعة، ومن الدور الاول، لهذا العنصر المحبوب من السلطان محمود، والذي هو ثمرة عشر سنوات من العمل المجهد، وقد بنيت عليه كل آمال ومصائر الامبراطورية العظيمة؟ جموع الهاربين أثارت عدوى الخوف لدى كل الفرق الموضوعة على الطريق لتأمين الاتصالات مع مقر القيادة الاساسي، وقد هدّد هذا الطوفان المذعور مقر القيادة نفسها، تداركاً للأمر توجه الفيلد مارشال بنفسه على حصانه نحو جسر الحديد[1] على العاصي ليقطع الطريق على الهاربين. وأسرع، قدر استطاعته باعادة تنظيم جيشه، وتوجه نحو حلب، لكي يقفل المدينة بوجه ابراهيم باشا، الا انه تأكد وبسرعة من النظرة العدائية لسكان حلب نحوه.

مدينة حلب مثل دمشق، تشتهر بشغبها بين المسلمين. سكانها المتعصبون ينقسمون حزبين: الينتشارية والاميرية[2]، وهذا الانقسام هو السند الوحيد لتأثير السلطة. في خضم الفوضى الأبدية المنتشرة في كل مكان كانت مدينة حلب تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الجمهورية الفوضوية. حزبا حلب، أحفاد محمد ـ الامراء، واحفاد انكشار الذين انتظموا أثناء الفتح والذين لم يخدموا الحكومة قط، كانا ضد أصلاحات اسطمبول ويتهمون السلطان بالهرقطة.

بعدما استكشف الفيلد مارشال العثماني الوضع في المدينة، خاف عصيانها، ورفض اتخاذها مركزاً للدفاع، وأسرع للتمركز في ممرات جبال طوروس، بوابات سوريا القديمة، لسد الطريق الى آسيا الصغرى في وجه أي هجوم مصري. دون أن ننسى الاشارة

---

(١) سمي بجسر الحديد، لبواباته الحديدية التي كانت تحيط بناحيته يوماً ما، حيث كانت تؤخذ الكفارات من عابريه.

(٢) كان هذا التقسيم ينسحب على اقطاعيي حلب المسلمين. كانت الكتلتان تتميزان ليس فقط من حيث المنشأ، وإنما ايضاً بمصادر الدخل. «الاميرية كانوا معادين دوماً للمسيحيين ـ كتب ق. م. بازيلي سنة ١٨٥٠ في تقريره للسفير ـ الينتشارية على العكس منحوا المسيحيين الحماية، لأن مصالح تجارية وصناعية كانت تربطهم بهم. بينما كانت مصالح منافسيهم تتركز في الاستغلال الزراعي، ملكية الارض، الوقف الالتزامات، والسباهيات».

AVPR. F.. «السفارة في القسطنطينية» L. 245, D 832.

ملاحظة الناشر.

هنا، الى ان الحمى التي كانت منتشرة في الاسكندرون والكوليرا التي تلتها انهكتا الجند العثماني. ونستدرك هنا لنقول بأن امراض الاسهال لم تتعب الجندي التركي بقدر ما شلت من نشاطه الهزيمة قرب حمص، وهذا ما حكم عليه بالتالي معمماً (جندي غير نظامي) كان أم حامل جعبة (نظامي) بالهزيمة المره.

بينما كان حسين باشا يحتل قمم بيلان بين بحيرة انطاكيا وخليج الاسكندرون، تأميناً لاتصال دائم بالبحر، كان ابراهيم باشا يسير نحو حلب، التي كانت قد ارسلت وفداً من سكانها يرجو ابراهيم باشا تحرير المدينة من سلطة الباشاوات الاتراك. استقبلت حلب ابراهيم بمظاهر الابتهاج، فراح يعين السلطات الجديدة، ويلم العربات التي خلفتها القوات التركية المنسحبة. وبعد ثلاثة أسابيع من أخذه حلب، هاجم ابراهيم بيلان، وقد قاتل جيشه هناك بشجاعة إيماناً بقائده وبالنصر، مدفوعاً بطاقة جديدة، إضافة الى تعاطف السكان المتعبين من إساءات الجيش التركي بعد تخليه عن حلب. كانت مناورات المصريين متكيفه مع الاوضاع الحملة، إذ كانوا يجبرون الاتراك، عن طريق مجموعات صغيرة على التراجع عن القمم التي استحكموا فيها، في الوقت الذي كانت مدفعيتهم تنظف الممرات أمام هذه المجموعات. هذه الخطط العسكرية التي خاض بها ابراهيم باشا معركة بيلان، تعتبر من أفضل مآثره الاستراتيجية[٣].

من ممرات بيلان عاد الاتراك أدراجهم تاركين ذيول سلاسل جبال طوروس، حيث يستطيل على امتداد ١٠ فراسخ، واد يصعب اجتيازه لضيق طرقاته وشدة منحدراته وعمق وديانه، ويكفيه من الناحية العسكرية كتيبة واحدة ومدفعين لاقفال الطريق الى آسيا الصغرى. ما فعله سردار أكرم أنه وضع وبلا تنظيم عدة مفارز تحت أمرة أحدهم المسمى صادق باشا، أما هو فعاد على أعقابه الى اعماق آسيا الصغرى عن طريق قونيه (إيقونيم القديمة) على رأس فلول جيشه المهزوم. وهذا العمل طبعاً هو من الاخطاء المميتة لسردار باشا، الذي فقد رأسه والتفكير الصحيح بعد معركة ممر بيلان، إذ أن ترك المنطقة هكذا يعني تسليم ابراهيم باشا الممرات، البوابات السورية في بيلان وبالتالي مداخل كيليكيا في **Colec - Bogadze** كولك بوغاز.

الاكراد والتركمان، القبائل الرحل في كراماني، كانوا في الصراع الدائر، سياطاً تلهب ظهور المهزومين، وأذلاء خداماً لابراهيم باشا. إن الاشاعة التي انتشرت عن خروج الاتراك من أضَنَة، حيث كادت طلائع القوات المصرية أن تمسك بسردار اكرم نفسه، أدت الى تنظيف كولك بوغاز من القوات العثمانية حيث أصبح بإمكان الحملة المصرية

---

(٣) جرت معركة بيلان في ٢٧ تموز ١٨٣٢. الناشر.

الوصول الى قلب الأمبراطورية.

نشير أيضاً الى أن الجيش المصري استولى على كميات غذائية كبيرة، كانت قد أرسلت بحراً من العاصمة مع بدء مسيرة الجيش التركي، والتي وصلت رغم بطء هذه المسيرة قبل هروب الجيش بقليل. وقد اقترح أحدهم حينذاك على الفيلد مارشال أن يرمي قبل هربه هذه الامدادات في البحر، كي لا يستفيد منها ابراهيم باشا الذي لم يكن يستطيع بدون تموين، اللحاق بالاتراك. الا أن حسين ببذلته نصف الأوروبية بقي وفياً للروح «البطريركية» جريمة «إن إتلاف الخيرات التي يسد بها الله جوع كائناته، جريمة لا تغتفر - أجاب حسين - يكفينا أننا نخوض حرباً ضد المؤمنين، يجب علينا الا نميتهم جوعاً».

عاد مسببو المآسي السورية حسين ومحمد الى العاصمة، وقد استقبلهم السلطان هادئاً، في الوقت الذي كان فيه أجداده يشنقون قوادهم لبعض الهفوات أو انتقاماً لمآسيهم، ولكن يظهر ان شجاعة الباشاوات واستبسالهم في الدفاع عن سيدهم، قد افتدت اخطاءهم، في الوقت الذي كان فيه السكان ينضوون فرحين تحت لواء العاصي. خلاصة القول، لقد أدرك السلطان محمود أن عبقرية آغا باشا المشهورة قد استنزفت في جداول الدم الانكشاري المهدور، وفهم كذلك أن الاخلاص للسيد والكره للعصاة، لا تغني عن مواهب القائد العسكري. ومن ذلك التاريخ وحسين باشا يدير بشليك **Viddine** ويجمع الملايين من التجارة والاحتكارات.

الاسطول العثماني بقيادة خليل باشا لم يشترك بأية من العمليات العسكرية بالرغم من أنه التقى بالاسطول المصري في مياه قبرص، بعد معركة بيلان. وقد بقي «الأميرالان» المصري والتركي يطوفان البحر مقابل بعضهما، وكأنهما اتفقا على تفادي المعركة، وقد حاول الاسطول المصري محاصرة مثيله التركي بعد أن نزل الأخير الى خليج مرمرة عند شواطىء كاري مقابل رودوس. الا أن العاصفة أبعدت المصريين الى كريت، فإلى خليج سويدية للاشتاء. عندها أبحر خليل باشا على رأس اسطوله عائداً الى اسطمبول[٤]. نتيجة

---

(٤) كنت في هذه الفترة أخدم في أسطول الاميرال ريكورد في البحر الابيض المتوسط، وكانت الاحوال السورية مثار انتباه الحكومات. وجهة نظر الحكومة الروسية كانت ضرورة التدخل في أواخر أيلول زرنا مع الاميرال سودا وكريت، حيث رأيت الجيوش النظامية المصرية للمرة الأولى. كانت كريت قاعدة لعمليات الباشا التخريبية في بلاد اليونان. وكان من المخيف النظر الى حالها في ذلك الوقت. أثناء تجوالي عبر القرى الجميلة في الجزيرة المشؤومة لم التق روحاً حيّة. مؤتمر لندن أقرّ للسلطان حكم هذه الجزيرة التي ظل سكانها المسيحيون يقاتلون الاتراك =

هذه المواقف المترددة خسر الاميرالان مقامهما، ووقع ، كل من ناحيته تحت وطأة عدم

= على امتداد الحرب اليونانية، حيث أجبر الاتراك إما الى مغادرتها الى آسيا الصغرى وإما الى الاختباء داخل قلاع ثلاثة تمكنت حامياتها من الصمود في مواجهة غضبة السكان المسيحيين. عند انتهاء الحرب أجبرت اليونان على استدعاء جيشها من كريت وتسليمها الى الاتراك، فلجأ سكانها المسيحيون الى اليونان في قرى الجزيرة التي لم تحرق، بقيت في تلك الفترة (بعد مرور عامين على هرب السكان) بيوت غير مسروقة، والسبب بسيط. فليس هناك من يسرق في هذه القرى المهجورة. من كريت أبحرنا للتفتيش عن الاسطول التركي، عند رودوس التقينا الاسطول المصري وكان مؤلفاً من ١٣ سفينة، منها ٣ سفن صف و ٥ فرقاطات. الفرقاطات كانت مطلية كما السفن ذات مربضي مدفعية. والى المراكب ذات الـ ٨٠ مدفعاً أضيف زيح أبيض للزينة. الاسطول التركي التقيناه في خليج مرمرة، المكان، الميناء الافضل على شواطىء البحر المتوسط، لامانه واتساعه وسهولة الدفاع عن مدخليه كان الاسطول التركي يتألف من ٣٢ سفينة، منها ٢٠ مركب صف. أعلام ورايات الاميرال الاعظم كانت ترفرف على «المحمودية» ذات الـ ١٤٢ مدفعاً. مداخل الخليج كانت مقفلة بالجنازير بأمر من خليل باشا خوفاً من هجوم مصري محتمل، على الرغم من أن الاسطول التركي كان أقوى بأربع مرات عدداً وعدّة من الاسطول المصري. استقبلنا الاميرال على شاطىء المضيق ببشاشته المعهودة. مؤكداً لاميرالنا، بأنه ينتظر فقط فرمان السلطان بالهجوم للقضاء على الاسطول المصري. إلا أن الاميرال التركي كان يملك أسباباً كافية لتجنب المعركة: لم يكن طاقمه مؤلفاً من بحارة مدربين وإنما من عناصر جمعت بشكل كيفي، ولم يكن ضباطه يمتلكون أية تجربة في الامور البحرية (لن نطالب الاتراك بالنظريات). إن كل منن السلطان لم تكن لتبعث الموهبة البحرية لدى قبودان باشا. خليل، ابن القوقاس، وقاهر الباشاوات. كان في طفولته رقاً عند مواطنه خسرو، الذي عينه ضابطاً في الجيش النظامي محتفظاً بحقوقه عليه. في حملة المورة أحبه ابراهيم باشا لبراعته وقوته البدنية في حملات ١٨٢٨، ١٨٢٩ ضد الروسيا، أوصلته شجاعته ووصاية خسرو عليه الى مستوى باشا، بعد إقرار السلام، ورغبة من السلطان بإعطاء مثال للاتراك الجدد، أصبح خليل باشا سفيراً في بطرسبورغ. والواقع أنه حاز إعجاب البلاط والمجتمع محاولاً اقتباس نبرة وسلوك الانسان الاوربي وعندما عاد الى اسطمبول بعد ٦ أشهر من وجوده في الروسيا، أعجب به السلطان أيما إعجاب، لانطلاقه وتصرفاته الفروسية الرائعة وأحاديثه عن الجيش الروسي، وفخامة البلاط الروسي. يد السلطانة ابنة محمود ولقب جنرال ـ اميرال (قبودان باشا)، ارتقتا برقيق القفقاز الى درجة رفيعة من الابهة والفخامة في البلاط العثماني. بعد الإصلاحات ، كما كانت الحال قبلها، ظل السلاطين يأتمنون على أساطيلهم مقرباً وصاحب حظوة، وإن لم يخدم أبداً في البحر. أما الاسطول المصري فكان يقوده عثمان نور الدين باشا، الذي تلقى تربيته مقدماً في اوروبا وكان الى جانبه عدد من الضباط الفرنسيين الجيدين.

رضا السلطان ومحمد علي، في اسطمبول لاموا خليل باشا لعلاقته الطيبة بالباشا المصري ولأنه أغنى الاسطول التركي عن مغامرة غير محمودة العواقب، وكذلك لأنه لم يحطم الاسطول التركي. والواقع أنه كان من حق الاميرالين، انتظار نتيجة المحادثات بين الباب العالي ومصر بعد معركة بيلان، بدل متابعة إراقة الدماء رخيصة.

كان رأس محمد علي في ذلك الوقت مثقلاً بالانتصارات التي فاقت كل تصوراته، لذلك لم يسع الى السلام، إضافة الى أن ابراهيم في تقاريره كان يفيد والده الشيخ بأنه، لن يتردد بعد معارك حمص وبيلان، في لقاء جيش تركي مؤلف من مئة الف مقاتل. أما السلطان محمود. السيد الشرعي، والدخول في محادثات سلام يعني بالنسبه له إهانة لا غير، فقد تحول وقد أدمنت طباعه الصراع مع الولاة، الى الحقد وليس الى الاكتئاب بعد الهزيمتين الأنفتين اللتين نسبتا وبحق الى أغلاط الجنرالات.

من المعروف أن محمد علي كان ينفخ، منذ زمن نار العصيان في تركيا الأوروبية، ليصرف انتباه الباب العالي عن سوريا. لقد بقيت أفضل الافواج (الآي) النظامية مدة عامين كاملين تحت قيادة الصدر الاعظم محمد رشيد خيرة القواد الاتراك، مشغولة بالحرب ضد قبائل روميليا المشاغبه[5]. الآن وقد خمدت تمردات بوسنه والبانيا، استدعى السلطان جيشه من هناك عدا ٢٠ كتيبة و ٢٠ سرية خيالة تخرجت من هذه المدرسة الصعبة، كل القبائل المخضعة حديثا انضوت تحت علم الصدر الاعظم الذي تمكن بشجاعته أن يوحي بالثقة. ثلاثون الفا من الالبان والباشناق تحت علم بكاواتهم الشجعان انتقلوا الى آسيا. على مثل هؤلاء من أبناء روميليا الذين رضعوا الحرب مع حليب الطفولة في وطنهم الفوضوي. بنى الصدر الاعظم طموحاته في تأديب فلاحي النيل، الذين رغم انتظامهم الآن في كتائب عسكرية، يظلون محتقرين من قبل الاتراك كما كانوا دائما.

عادت فلول جيش حسين المهزوم الى قونيه للمرة الثانية، حيث كانت تسير جيوش روميليا للقائها، وقد ساهم السلطان محمود شخصياً وبنشاط في إعداد هذه الحملة، محاولاً بعث الحمية في قلوب ضباطه إن بالهدايا والمكافآت والخطابات، أم بالمراقبة الدورية، أم باعتنائه شخصياً بعساكره. وبانتظار الصدر الاعظم، كان مسؤول غرفة العمليات أمين رؤوف باشا يجهز جيشاً آخر الى قونيه، دون أن تكون لديه أوامر بعمليات عسكرية، وإنما أوامر بالتراجع عند الضرورة.

في هذه الفترة كان محمد علي بالمقابل منهمكاً بجمع المجندين لجيشه المحارب في

(٥) يدور الكلام هنا عن الانتفاضات التي اندلعت سنة ١٨٣١ في البانيا بقيادة مصطفى باشا وفي بلاد الباشناق بقيادة حسين. الناشر.

سوريا، ولو باساليب الشدة، كذلك أمد ابنه ابراهيم من البحر بالمدفعية وبكل ما يلزمه لمتابعة مهمته خلال فصل الشتاء. من ناحيته نجح ابراهيم باشا، وقد قضى في بشليك أظنه حوالى الشهرين، في اجتذاب الخيالة غير النظاميين من السكان المحليين الى خدمته. كذلك أرسل عملاءه الى آسيا الصغرى لكي يبثوا في القبائل الخشنة لهذه المنطقة روح العداء للسلطان ولإصلاحاته، وليصوروا في الوقت نفسه باشا مصر المنتصر على الوهابيين سلاحاً في يد الله لانقاذ الاسلام.

كنا قد أشرنا الى أن الطريق الى قلب آسيا الصغرى، أصبح ممهداً أمام الفاتح المصري. وفي تشرين الاول (اكتوبر) عبر مع جيشه شعاب جبال طوروس متوجهاً نحو قونيه. وفي طريقه كان الناس يخضعون لـه طـواعيـة فـرحين. إن انضبـاطيـة الجيش المصري. وعدالة ابراهيم باشا بالنسبة للسكان المتعبين من فوضى الجيش التركي، عاملان نشرا في آسيا الصغرى مجد نصره العظيم وأمنا له الالتفاف الشعبي اللازم.

صحيح أن السلطان محمود استطاع ترويض الطباع المشاغبة والعناد الاقطاعي عند ديربيي آسيا الصغرى، الا ان حكم الديربي الوراثي انتقل وبأمر من الحكومة الى أيدى الموظفين العديمي الاخلاق. لقد قويت بذلك السلطة الحكومية، اما الشعب فراح يتحسر على جلاديه السابقين، فهو يخطو بصعوبة خطوات الاصلاح الاولى، من هنا عدم الرضى بها، ولبث الناس في كل مكان ينتظرون ابراهيم باشا منقذاً في هذه الظروف الصعبة.

تراجع أمين رؤوف باشا مع القيادة العامة الى آك ـ تشير عشية وصول ابراهيم باشا الى قونيه. لم يبطىء الوزير الاعلى باستلام إمرة الجيش الذي وصل تعداده الى ٥٥ ألف جندي مع تسعين مدفعاً، وهذا ما يجعله افضل من كل النواحي من الجيش التركي السابق الذي تبدد أمام ابراهيم باشا في سوريا، أما الاحتياط المؤلف من ٢٠ ألف جندي من نخبة العسكر، بما فيهم حرس السلطان، فقد عسكروا على الشواطىء الآسيوية غير بعيدين عن العاصمة. أو كانوا يقفون كما الحـامية عن العاصمة نفسها.

كان مصير الأمبراطورية بأكملها أمانة لدى جيش الصدر الاعظم، ففي حال الهزيمة لم يكن بمقدور الاحتياط (٢٠ ألفاً) ان ينقذ القسـطنطينيـة. كنا قد رأينا عن اتجاهات قبائل آسيا الصغرى، كانت الروح الانكشارية لا تزال تختبىء في العاصمة، وكانت أحياناً تشتعل على عادتها كالحريق. كل قسـاوات خسرو بـاشـا البـوليسيـة، لم تستطع القضاء على نميمة المقاهي. كان السلطان محمود يفهم جيدا بأنه كان باستطاعة ابراهيم باشا فيما لو حالفه الحظ للمرة الثالثة في معركته المقبلة، المسير بدون أية عقبات نحو القسطنطينية لا بل أن اقترابه منها كان سيثير الانتفاضة في داخلها.

وهكذا نرى أن صراع الوالي المحظوظ مع سيده الشرعي تحول الى مسألة سياسية غاية في الخطورة: وجود الامبراطورية نفسها تحت إمرة سلالتها الحاكمة. لم يكن محمد علي وابراهيم من ذلك النوع من الباشاوات الذين يخلعون السلطان عن العرش ليسجدوا من جديد أمام أخيه أو سلفه، كما حدث سنة ١٨٠٨ عندما توج مصطفى بيراقدار محمود نفسه سلطاناً. كان بإمكان الدول الأوروبية أن تنتظر بهدوء حل الازمة الداخلية في تركيا، الا أنه في الاوضاع الراهنة، أخذت الازمة الشرقية حجم المسألة السياسية الهامة لاوروبا نفسها، لأنه بات من الواضح أن السلالة الحاكمة في الأمبراطورية ستسقط، وأن أي تغيير كهذا مقرون بعواقب قد تؤدي الى انتاج حروب في أوروبا نفسها.

إن موقع الروسيا الجغرافي ورغبة حكومتنا بتأمين السلام الداخلي والسلطة الشرعية في الدولة المجاورة لنا، من أجل التطور الصناعي لكل شاطىء البحر الأسود، الذي تمحور حول مصير مياهه، عمل أسيادنا اصحاب الجلالة أباطرتنا ولعدة قرون. واخيرا فإن علاقاتنا مع تركيا بعد سلام ادريانوبول والرغبة بتدعيم هذا السلام الذي اشتريناه بالانتصارات على قواعد صلبة من تعاطف الحكومة والشعب التركيين، وثقتهم بجارتهم الشمالية الجبارة، كل هذا أجبر الروسيا على العمل لدرء الغيمة المتجمعة جنوباً في وسط آسيا الصغرى، والتي تهدد الشرق وأوروبا نفسها.

اعطت السياسة الروسية ثمارها في الشرق خلال السنوات الثلاث الاولى التي أعقبت صلح ادريانوبول، فقد تأكدت الحكومة العثمانية، وبعد تجربة القوة مع السلاح الروسي، من صراحة وصدق الكلمة الروسية من ناحية، ومن ناحية ثانية من الاتجاه الدفاعي للبلاط الروسي.

كانت اليونان المولودة لتوها غير راضية عن الحدود التي رسمت قسراً لها. والقبائل المسيحيه الواقعة تحت سلطة تركيا كانت بدورها تنظر بعتب عميق الى الروسيا لاتجاهها المدافع عن الامبراطورية العثمانية. لكن الانصاف يقتضينا التساؤل: هل كان بمقدور هذه القبائل انتظار سقوط السلالة الحاكمة لتحقيق فرصتها المناسبة؟ وحتى في حال سقطت الامبراطورية العثمانية، هل كانت القبائل المسيحية قادرة على ايجاد كينونتها السياسية بدون مساعدة اوروبا، والمساعدة العسكرية من قبل أوروبا، وفق الاسس التي أعلنتها بعض الدول العظمى، تعني في تلك الظروف شيئاً واحداً تعميق المآسي التي يعاني منها الشرق، الذي كان آنذاك بحاجة الى الاستقرار والسكون اكثر من أي وقت مضى؟

بعد أن وضع السلطان محمود مصيره، رهينة ما تقرره صدف المعركة الأخيرة، توجه، كرهان أخير نحو الروسيا طالباً منها التعاون في حال الخسارة. الحكومة الروسية من جهتها

كانت قد أشارت عند سقوط عكا، أي عندما بلغ عصيان محمد علي انعطافاً خطيراً، على الدول الأوروبية الاخرى بضرورة كبح جماح الفاتح. يومها كان ظهور الاسطول البريطاني أو الفرنسي عند شواطىء سوريا يشكل تهديداً كافياً لتحجيم خطط باشا مصر.

الا ان الدول الغربية كانت تراقب بلا مبالاة حوادث الشرق، ولكنها سرعان ما تنبهت، عندما دخلت فرقاطة البحر الاسود الروسية Chtandart مياه البوسفور وعلى متنها الجنرال مورافيوف[٦] الذي كان يحمل رداً ايجابياً من السيد الامبراطور على رجاء السلطان مع عرض روسي بالمساعدة المادية والمعنوية. عندها فقط تنبهت الدول الأوروبية وبدأت تنظر بحسد الى المساعدة الروسية غير المغرضة، وخاصة فرنسا، التي كانت ولمدة قريبة تحاول برعونة ورغم الفشل، تسليح تركيا ضد الروسيا اثناء الحرب البولونية. بينما نراها اليوم تطالب، ولا تقصر عن التهديد والوعيد لتؤول تسوية الاوضاع اليها بمفردها. تسامحها (والحديث ما زال عن فرنسا) الواضح مع باشا مصر أوحى للسلطان بعدم الثقة بها دولة تتبجح في القسطنطينية وفي كل مناسبة، بتحالفها العريق مع الباب العالي العثماني. وقبل ذلك بقليل كان وزير خارجيتها في خطاب له في مجلس النواب، قد أطلق على تركيا لقب الجسد الميت لأنها لم تأخذ بنصائح السفير الفرنسي سنة ١٨٣١ وتعلن الحرب على الروسيا.

في هذه الاثناء كان ابراهيم باشا في قونيه ينتظر الصدر الاعظم، وكان يقوم مع جنوده يومياً بمناورات ميدانية في الاماكن التي انتقاها ساحة للمعركة، الى الشمال من المدينة على الطريق الرئيسية المؤدية إلى القسطنطينية. في ٩ كانون الاول خسر رشيد محمد قرب قونيه المعركه المصيرية القاتلة، بعدما كان النصر في متناول يده، اذ تمكن بمناورة ناجحة من الاحاطة بالجيش المصري قاطعاً ما بينه وبين المدينة، مما سبب حرجاً كبيراً لابراهيم باشا لأن جيوش الأخير كانت مهيأة، وخاصة الفرق غير النظامية، للانتقال في أية لحظة الى القتال بجانب الاتراك. التحول الحاسم في المعركة لصالح ابراهيم كان أسره الصدر الاعظم الذي ضل طريقه في ساحة المعركة المغطاة بالضباب الكثيف، فوجد نفسه فجأة بين جنود مفرزة مصرية. «من أنتم؟» سأله الجنرال المصري الذي قدّم إليه، «ضابط» أجاب رشيد محمد باشا «ألستم الصدر الاعظم؟» سأل الجنرال المصري. «قبل

---

(٦) مورافيوف نيقولاي نيقولا يفتش (١٧٩٤ - ١٨٦٦)، شخصية ديبلوماسية وعسكرية اشترك في الحرب الروسية - الفارسية ١٨٢٦ - ١٨٢٨ وفي الحرب الروسية التركية ١٨٢٨ - ١٨٢٩. سنة ١٨٣٣ كان آمراً للمفرزة الروسية التي أرسلت لمساعدة السلطان ضد محمد علي. الناشر.

دقائق من الآن كنت الصدر الاعظم» أجاب الأسير باكتئاب. أسرع المصريون للترحيب به وقدموا التشريفات العظيمة سرى خبر الاسر بين المتقاتلين. في الجانب التركي لم يكن هناك غرفه قيادة عامة؛ كل الاوامر وخطة المعركة كانت في يد القائد الاعلى، وبفقده أسيراً اهتز كل شيء، الميليشيا الروميلية التي كانت تؤلف القوة الأساسية في الجيش التركي، لم تكن تعترف بسلطة أي باشا آخر، عدا الصدر الاعظم، والذي كان وجودها في المعركة يرتبط اصلاً بشخصه، هذه الميليشيا عندما وصل اليها خبر وقوعه في الأسر أوقف باكاواتها اطلاق النار واخذوا يخرجون من الميدان، وهكذا تباعاً توجهت القوات التركية نحو الهرب بعد أن اسقطت من يديها فرصة نصر أكيدة.

تعودت الشعوب الشرقية أن تجد في المنتصر، مختار القدر ومختار الله. إن النصر الذي احرزه ابراهيم باشا في قلب الأمبراطورية، على الجيش الذي تشكلت قواته، بموجب أنظمته العسكرية القديمة والحديثة، من أفضل القوات النظامية وغير النظامية، وعلى رأسها الصدر الاعظم نفسه والذي وقع في الأسر، هذا النصر هز بعمق وجدان قبائل آسيا الصغرى، وواحدة بعد الاخرى بدأت هذه القبائل بتقديم ولائها للفاتح. ذروة الازمة انعقدت عند أسوار قونيه، المهد الاول المقدس لعظمة السلاطين، من حيث خرجت قبيلة عثمان الفتية، المليئة حياة وقوة يجذبها نجم الانتصارات البراق نحو مآثرها الجبارة.

عند معرفته بهزيمة جيشه، توجه السلطان الى سفيرنا أ. ب. بوتينيف[٧] يطلب الوفاء بوعده وارسال الجيش والاسطول الروسيين لحماية العاصمة المهددة. وفي نفس الوفد أوفد الأميرال خليل باشا المشهور بميله نحو محمد علي الى مصر لافتتاح المفاوضات. وتلبية لرغبة السلطان أسرع الجنرال مورافيوف الى مصر، لكي يبدد بالكلمة الروسية العنيدة والصادقة، الغشاوة عن تفكير محمد علي بعد انتصار سلاحه، ولمساندة طروحات الباب العالي التي تتنازل للباشا المصري عن جنوب سوريا بأكمله. وكلف كذلك عقيد غرفة العمليات العامه ديوغاميل[٨] من قبلنا بالتوجه الى معسكر ابراهيم باشا ونصحه بالتوقف

(٧) بوتينيف أبولليناري بتروفيتش Boutenev Appollinari Petroviteh (١٧٨٧ - ١٨٦٦) ديبلوماسي بدأ خدمته في وزارة الشؤون الخارجية سنة ١٨٠٤ بين ١٨١٦ - ١٨٢١ عمل سكرتيراً في السفارة الروسية في القسطنطينية، اشترك في الحرب الروسية التركية ١٨٢٨ - ١٨٢٩، بعد اتفاق ادريانوبول السلمي اصبح أمين سر في السفارة، ١٨٣٠ أصبح سفيراً في القسطنطينية. بين ١٨٤٣ - ١٨٥٦ عين سفيراً في روما. سنة ١٨٥٦ عين عضواً لمجلس الدولة ثم سفيراً في القسطنطينية حيث بقي حتى ١٨٥٨. ملاحظة الناشر.

(٨) ديوغاميل الكسندر أوسيبفيتش Diougamel Alexandre Oçipvitah (١٨٠١ - ١٨٨٠) رجل دولة عسكري سنة ١٨٢٧ عين سكرتيراً ثابتا للقسم الحربي في السفارة الروسية في =

وانتظار نتائج محادثات السلام بين والده وبين الباب العالي .

اما السفاره الفرنسية ، فقد أصرت من ناحيتها على مطلبها بانهاء القضية فقط عن طريق وساطتها ، وتكفلت كذلك امام الباب العالي بالا يتقدم ابراهيم بعد الى الامام ، ودأبت على الطلب وأكدت على القسطنطينية الا تعترف بالقوى الروسية المساعدة. الباب العالي من ناحيته كان يعلم أن القنصل الفرنسي العام في الاسكندرية المسيو Mimo ميمو لم يكن يكف في نفس الوقت باسم حكومته عن إثارة همة محمد علي .

وسط هذا التحرك الديبلوماسي ، خرج ابراهيم باشا من قونيه باتجاه العاصمة رغم كل تعهدات القائم بالاعمال الفرنسي لدى الباب العالي بتجميد تحركات الجيش المصري . هل كان يأمل ابراهيم باشا باقترابه من العاصمة إثارة العصيان وبالتالي خلع السلطان؟ أم أن تحركه هذا مساندة ودعماً لمطالب والده بحيث يجبر الباب العالي على التسليم بما يفرضه الباشا؟ هذا ما لا نعلمه . حجة ابراهيم باشا في خروجه من قونيه كانت عدم توفر المبيعات والحاجيات لجيشه . وكان ابراهيم باشا ، مدعوماً من الحكومة الفرنسية ، يجيب باختصار على نصائح المبعوث الروسي بعدم التقدم ، بأن واجبه الخضوع لوالده الذي أمره بالتقدم من مصر الى الامام . اتجه ابراهيم نحوالقسطنطينية دون أن يغير من ولائه الديني للسلطان . وقد ضخّم ابراهيم هذه الكوميديا الآسيوية الى حد أنه وضع نفسه تحت أمرة أسيرة الصدر الاعظم ، فباسم الاخير كانت تكتب كل التقارير ، ومنه كان يطلب السماح بالتوجه نحو بورسا ، غير بعيد عن بحر مرمرة .

أما محمد علي فما إن تسلم نبأ الانتصار ، حتى استعد للابحار مع اسطوله والظهور عند القسطنطينية من البحر لملاقاة ابنه الذي كان يتقدم في آسيا الصغرى ويلاقي اينما حل استقبالاً حماً .

وصل الجنرال موراڤيوف الى مصر قبل أيام وصول خليل باشا ، وقد نجح في تهدئة العجوز وتهيئته لقبول المفاوضات ، محذراً بأنه في حال متابعة ابراهيم لحملته فإنه سيجد في

القسطنطينية . اشترك في الحرب الروسية التركية ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ ، سنة ١٨٣٢ أرسل كمبعوث كامل الصلاحيات من قبل وزير الحربية الى الجنرال موراڤيوف الى القسطنطينية حيث ارسل في ٥ ك' (يناير) ١٨٣٣ الى قونية بمهمة عرض اقتراح على ابراهيم باشا لايقاف تقدم الجيوش المصرية . ١٨٣٣ عين قنصلاً عاماً في الاسكندرية فكان داعية نشيطاً للسياسة الروسية في بلاط محمد علي ، حيث بقي حتى ١٨٣٧ . بين ١٨٣٧ ـ ١٨٤١ كان سفيراً في طهران ـ ١٨٤٣ أرسل بمهمة خاصة الى مولدافيا . بعد ذلك لم تعد مهمته مرتبطة بشؤون الشرق .

عن خدمة ديوغاميل في الامبراطوية العثمانية راجع «سيرة أ . أو . ديوغاميل» ، الارشيف الروسي ، ١٨٨٥ ، الجزء II - IV ملاحظة الناشر .

القسطنطينية قوات الروسيا البرية والبحرية في انتظاره، وبالفعل فإن قوة من اسطول البحر الاسود الروسي، مؤلفة من أربع سفن و ٤ فرقاطات وطرادين، تحت إمرة العميد البحرى كوماني، كانت قد دخلت البوسفور في ٨ شباط ١٨٣٣، وهذا ما أوقف ابراهيم باشا في كوتاهية على مسافة ٢٥٠ فرسخاً من البوسفور.

السفير الفرنسي الجديد في القسطنطينية الاميرال روسان، أخذ يهدد بقطع العلاقة مع الباب العالي إذا لم يرفض المساعدة الخارجية، ضامناً باسم حكومته تراجع ابراهيم باشا حتى ممرات طوروس، وكذلك قبول محمد علي للشروط التي يعرضها خليل باشا. وهذا مطلب غريب جداً، نزولاً عند رغبته، يوجب السفير ارجاع الاسطول الروسي على أعقابه، وهو الذي جاء بناء على طلب من السلطان نفسه، وايضاً يغلب حضرته المسعى الدبلوماسي على الدفاع العسكري في الوقت الذي يجري فيه الحديث عن انقاذ الامبراطورية من الموت المحتم، وفي الوقت الذي كان فيه التمرد داخل العاصمة على حد الانفجار... فيما لو خطر لابراهيم باشا توجيه طلائعه صوب القسطنطينية. على كل حال واختصاراً للقول، لم يصغ لا الباشا الأب ولا الباشا الابن لطلبات السفير الواثق من نفسه. وخلال آذار ونيسان دخلت البوسفور ايضاً مفرزتان من اسطول البحر الاسود مع ١٢ الفاً من جنود الانزال الذين أقاموا معسكرهم على الشاطىء الاسيوي للبوسفور في وادي خنكيار اسكله سي، تماماً مقابل السفارة الفرنسية.

تسلم الجنرال مورافيوف، اثر عودته من مصر بعد افتتاح محادثات محمد علي وخليل باشا، الإمرة على جيش الانزال، اما قيادة الاسطول فكانت لنائب الاميرال لازاريوف. في أيار جاء الجنرال الياور كونت اورلوف قائداً أعلى للبحرية والمشاة مع صلاحيات سفير فوق العادة.

في تركيا، وفي كل مرة كان السكان المسلمون، محتكرو الحياة السياسية يدخلون في حالة اضطراب ما، كانت الصاعقة تنزل عادة على الصناعيين المسيحيين العزل من السلاح، وهكذا ففي روميليا وآسيا الصغرى كان السواد المؤمن في هذا الوقت مشحونا بالتعصب الديني ضد المسيحيين بعد الحرب اليونانية. إضافة الى ذلك كان هذا السواد معبأ بكره للسلطان لاصلاحاته الحكومية ولمسعاه بتهدئة العواطف الفوضوية التي نشرتها الانكشارية كالعدوى في الأمبراطورية. باسم ابراهيم كانت تؤجج نيران المشاعر الشعبية. وفي كثير من السناجق كانوا ينتظرون بين الساعة والساعة، الاشارة بالانقضاض على المسيحيين. السلطة الحكومية كانت تنهار وتتآكل من داخلها. كان الوضع النفسي للاقليم كالتالي: في سميرنا مثلا مدينة الأمبراطورية الثانية، ظهر متشرد مجهول تماماً من العامة

والخاصة بكل ما تحمله كلمة مجهول من معنى، تسمى باسم محمد آغا واستلم سلطة المدينة حاكماً باسم ابراهيم باشا من غير أن يبرز تكليفاً بذلك وقد تمكن هذا المجهول مع بعض السكان المحليين، وبدون أي جندي من تنفيذ مؤامرة خلع المتسلم السابق وأخذ السلطة منه، بدون طلقة رصاص، وبدون أية مقاومة او اعتراض. اللهم سوى ما أرسله القناصل الموجودين في المدينة من احتجاجات، ثم ان هذا المجهول عاد واختفى كما جاء فجأة بعد أن سرق من سكان المدينة الـ ١٥٠ ألفا من المال ما استطاع اليه سبيلاً.

من الواضح أن التدابير الروسية الحاسمة، أنقذت من اعتداءات الباشا المصري في مثل هذه الاوضاع، ليس السلطان وسلالته وحسب، وإنما أنقذت كذلك كل السكان المسيحيين في العاصمة وفي آسيا الصغرى وفي روميليا، من جنون غضب السواد المؤمن. ومن ناحية ثانية، ولولا هذا الظهور السريع للقوى الروسية في القسطنطينية لاتخذ خلاف المسلمين الداخلي حجما كبيراً لا محالة، ولأصبحت الحرب الشاملة واجبة لأجل الحل.

طالت المحادثات بين الباب العالي وبين محمد علي، لأن الأخير رأى نفسه مجبراً على التخلي عن نياته فيما خص القسطنطينية نفسها، حيث كان يحلم برفع سلالته الى الكرسي العثماني، وإعطاء حياة جديدة للأمبراطورية المريضة. وقد توصل الباشا المصري عن طريق المفاوضات الى انتزاع اكثر ما أمكن من السناجق والمقاطعات وضمها الى ادارته. فقد تنازل الباب العالي عن كل سوريا وهذه تضحية كانت تتطلبها في الواقع مصالح السلطنة السياسية، لأن الأهم في ظروف تلك المرحلة كان تكملة وتدعيم الاصلاحات الحكومية المتخذة في مناطق آسيا الصغرى، أي في تلك المناطق التي كان السلاطين يستخرجون منها عنصري جبروتهم: الجيش والمال. أما سوريا فكانت كما رأينا، همّ الباب العالي الدائم، حتى في تلك الحقب التي كان فيها السلاطين وحكوماتهم لا يكترثون لأمور البشاليك الداخلية. وخلال الازمة الراهنة وبعد تعاطف القبائل السورية الصريح مع ابراهيم باشا، فإن سوريا ستشكل فيما لو وضعت من جديد تحت إدارة الباشاوات الاتراك سلاحاً في يد محمد علي لاثارة الأمبراطورية ساعة يريد.

علاوة على سوريا كان الباشا المصري يطالب بأورفة وغيرها من السناجق الواقعة على الفرات شمالي حلب، وكذلك طالب وباصرار ببشليك أضنه لأن غاباته كانت ضرورية لبناء الاسطول. والواقع أن احتلال هذا البشليك يشكل حماية أمنية لسوريا لأنه يلعب ببوابتيه دور مفتاح سوريا من ناحية آسيا الصغرى. وفي النهاية، وقد رأى الباب العالي نفسه مجبراً على التنازل عن سوريا، أعطى للباشا سوريا ومفاتيحها، رغم إدراكه بأن هذه المفاتيح كانت تفتح ايضاً الطريق من سوريا الى داخل آسيا الصغرى. بهذا وقعت الاتفاقية في

كوتاهية في غرفة القيادة المصرية يوم ١٣ ذي القعدة (٢٧ آذار)[٩]

في البيان السنوي الصادر في ١ نيسان ١٨٣٣ والذي يحمل التوجيهات السلطانية بتثبيت أو تغيير وكلاء السلطان في المناطق، ظهرت من جديد اسماء محمد علي وابراهيم بعد أن اختفت العام الماضي من البيان السنوي السابق، وقد أضيفت الى ممتلكاتهم، مصر كريت، جدة بشليك صيدا (عكا)، بشليك دمشق، طرابلس، حلب، وسناجق، غزة ونابلس، أما بشليك أضَنة فأعطي بحق المحصل، إي جمع الاتاوات لحساب الحكومة.

بدأت قوات ابراهيم باشا بالانسحاب الى ما وراء جبال طوروس بعد توقيع الاتفاق، وقد وصل الى القسطنطينية في أواخر حزيران خبر إتمام سحب الجيش المصري الى حدوده المقررة. وفي اوائل تموز ترك اسطولنا وجيشنا العاصمة العثمانية، التي كان قد انقذها من السقوط.

كان السلطان محمود يقود بنفسه المناورات في معسكر خنكيار اسكله سي، وكان مشدوهاً بالعرض اليومي لقواتنا: الهيئة النشيطة النظام، جمال صفوف الافواج، وهذا الانطباع الذي تركه جيشنا واسطولنا لدى السلطان والحكومة والشعب إن دل على شيء

(٩) تاريخ غير صحيح، وقعت اتفاقية كوتاهية في ٤ أيار ١٨٣٣. والغالب أن بازيلي هذا يزوّر الحقائق قصداً، تبييضاً لصفحة السياسة الروسية باعطائه صيغة شرعية للتدخل الروسي في الشؤون التركية. كان تسلسل الاحداث كالتالي:

توجه السلطان بعد هزيمته في صراعه مع محمد علي يستجدي المساعدة عبثاً من انكلترا وفرنسا، وحدها الروسيا، تدخلت في الصراع مباشرة وتلافياً لسقوط حكومة السلطان الضعيفة واستبدالها بحكومة محمد علي القوية. وقد ارسلت الجنرال موراڤيوڤ ن. ن. الى القسطنطينية لاعلام الباب العالي باستعداد الروسيا تقديم المساعدة لتركيا لأجبار محمد علي على وقف عملياته العسكرية.

الحكومة التركية من ناحيتها رفضت هذا العرض، محتفظة بحقها في طلب المساعدة لاحقاً، وارسلت خليل باشا الى الاسكندرية لمفاوضة محمد علي في ٢٠ ك٢ (يناير) ١٨٣٣ دخل ابراهيم باشا قونيا باتجاهه نحو بورسا في ٢ شباط وصل الى كوتاهية، وهناك أدركه أمر محمد علي بالتوقف (كان هذا من نتائج رحلة موراڤيوڤ). أمام تقدم ابراهيم باشا طلب الباب العالي مساعدة فرنسا لكنه لم يتلق ضمانة أكيدة.

في الثاني من شباط ١٨٣٣ توجه الباب العالي نحو السفير الروسي برجاء إرسال اسطول البحر الاسود وفيلقه مشاة من ٢٥ الى ٣٠ الف جندي.

ظهور الاسطول الروسي في البوسفور أثار قلقاً واسعاً بين الديبلوماسيين الاوروبيين تحت ضغط ممثلي دولتي فرنسا وانكلترا قبلت الحكومة السلطانية الشروط التي أملاها محمد علي: إعطاؤه إدارة كل سوريا مع بشليك اضنة ملاحظات الناشر.

فإنه يؤكد نوايا البلاط الروسي الحسنة بعد سلام ادريانوبول تجاه الدولة المجاورة لقد افتتحت صفحة تاريخية جديدة أمام ملايين من المسيحيين الشرقيين، لشعور سيدهم (السلطان) بالعرفان تجاه دولة كبرى تدين بدينهم، والواقع ان فترة السنوات الست ابتداء من سنة ١٨٣٣، وحتى موت السلطان محمود، هي فترة التسامح الديني العملية للحكومة التركية.

لم تصدر في هذه الفترة أية قوانين عن التسامح الديني، وعن المساواة بين المواطنين من كل الاديان، ولم تعلن أية تعهدات احتفالية للقبائل المحكومة ولم تتغاوى الحكومة العثمانية بمنطلقاتها الخيرية، ولم تذر الرماد في عيون اوروبا الساذجة، عن طريق الاساليب التي اشتهر بها الحكم اللاحق والتي سيأتي الكلام عنها فيا بعد. الا ان إدارة محمود القوية والصادقة ادخلت الى الحكومة منطلقات جديدة للتسامح الديني وقمعت بقسوة التعصب عند الشعب المتدين. لقد توصل المصلح محمود الى فهم حقيقة مفادها أن القبيلة التركية الحاكمة أنجزت مأثرة كتبها القدر، وأن القرآن الذي انبنت عليه الامبراطورية العثمانية لا يستطيع إعطاء حياة جديدة للملك المنحل، ملاحظة. لم يكتئب محمود من هذا الوضع وإنما استند بشكل أساسي إلى القبائل المسيحية المحكومة.

خلال التجارب المرة في هذه الحقبة التاريخية المثقلة بصراع السلطان ضد الانكشارية والديريبي، تولد لدى محمود كره فعلي لشعبه المؤمن الذي أظهر العقوق اكثر من مرة. فهذه قبائل آسيا الصغرى كانت تنفصل عن سيدها الشرعي واحدة بعد الأخرى عند اول نداء لأي عاص، وهي القبائل نفسها التي انقذها محمود من ظلم الديريبي أسيادها الاقطاعيون. وكذلك كان سكان المدن المسلحون الذين انقذوا بدورهم على يد محمود من اساءات الانكشارية الوقحة، حاضرين للخيانة في هذه الفترة اكثر من أي وقت مضى. ليس هناك من شك في ان السلطان فهم تأثير التنازلات التي قدمها للمسيحيين بلا أشكال قانونية أو جمل طنانة، انطلاقاً من إرادته الشخصية المطلقة ودون أية محادثات مع العلماء المكروهين من طرفه. وكان يدرك بدوره بأن المساواة التي يسعى اليها بين المسيحيين والمسلمين ستهدم حتى الاساس البناء السياسي والاجتماعي لوكلائه في المقاطعات، وبأن مسيحيي تركيا الأوروبية الذين يفوقون المسلمين هناك عدداً ووعياً وحباً للعمل سيأخذون من يد هؤلاء الزمام في كل درجات التراتبية الحكومية، من الادارات الريفية وحتى مجلس الدولة. وكان يدرك من ناحية ثانية بأن المسلمين لن يذعنوا لسياق الامور الجديد غير المتناسب مع التعصب الديني والكبرياء الوراثي لاحفاد الفاتحين، من هنا سيكون العصيان ضد الحكومة، التي ستدوسهم في تركيا الأوروبية بواسطة جيوشها المسيحية، اما في تركيا الأسيوية حيث يتفوق العنصر المحمدي فإن السلطة ستسقط في يد المسلمين وسيقف

السلطان أمام حتمية أحد اختيارين: إما اعتناق المسيحية، أي إعادة اعتبار الكرسي البيزنطي على قاعدته المتينة القائمة على اتحاد مع المواطنين، واحتلال آسيا الصغرى بواسطة السلاح المسيحي، او الانتقال الى آسيا وإنشاء المملكة الإسلامية على أساس التعصب الديني ومنطلقاتها الأساسية. لا شك أن السلطان محمود بتفكيره العملي كان يعي هذا كله، ولم يكن يخشى العواقب المتطرفة لهذا المخطط المرسوم. لم يكن يؤمن بالقرآن، أكثر من أي مسلم لا يؤمن بشؤون دينه، مع اطلاعه عليه. اما الاتراك فكان يحتقرهم بعمق[١٠].

(١٠) نسوق هنا حادثتين توضحان مشاعر السلطان محمود إزاء الاتراك في هذه الفترة: اراد السلطان ان يرسل خيرة جنيناتيبه (بستانجيه) الى حيث يبتني قصره الجديد في دولمار باختشي فأمرهم بالاصطفاف (عددهم ٣٠٠) وراح يستعرضهم، ويستسميهم فرداً فرداً حتى بلغ الرقم عشرين، حيث تبين له أنهم جميعاً من المسيحيين: «هذا ما تنبأت به» قال السلطان بصوت عال. ثم أضاف ملتفتاً إلى حاشيته «انظروا الى العمال الآخرين، فأنا أراهن وأقسم، بأنه لا يوجد بينهم أي يوناني فجميعهم أتراك، فأسماؤهم أسماء تركية، ودمهم آسيوي صاف، غير مختلط بدم يوناني أو سلافي أو ألباني.

الحادثة الثانية: كان السلطان يجلس ذات مرة في جوسق شرفة «ألدير». مرّ على مسافة قريبة منه سفيرنا أ. ب بوتينييف مع زوجته يركبان الخيول برفقة خادم واحد. أمر السلطان ياوره عزت بك بمعرفة من هو هذا السيد. أعلمه عزت بك. «وهل تعلم أنت ماذا يعني السفير الروسي؟» سأل السلطان. «لا. سيدي السلطان». «أنا سأشرح لك: هذا رجل دولة عظمى، عاقبتني أنا وعاقبت أجدادي بسبب إساءات الانكشارية والباشاوات الذين كانوا يقتلون أهل الذمة العزل بقسوة، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الكتيبة الروسية. انظروا إذن ممثل هذه الدولة الكبرى المتمتع بثقة عاهله، يتنزه مع قرينته مع خادم واحد (يالتيز، ماداماهي إيلي، وبيرأ وشاغ إيلي). بينما آخر خدمي. أي شراب ـ أميني (الساقي) يجر وراءه ذيلاً من عشرة خدم. معكم دون جدوى والله مؤسف (تشاري يوك، والله يا زيك)».

قد يستبعد بعض القراء الفكرة القائلة بأن محمود كان سيتمم تنظيماته بتحويل الحكومة والبلاط نحو المسيحية. لن ابدأ بالبرهنة على أن وجهة محمود الاصلاحية كانت ستؤدي الى ان يعتنق السلطان نفسه المسيحية. إن اقتناعي يستند الى بعض الوقائع. ١٨٤٥ اخبرني بعض المقربين جداً من السلطان محمود، بتفاصيل مثيرة للفضول، لا مجال للشك بصحتها عن إحساس السلطان حتى في سنة ١٨٣٠ بضرورة اعتناق اكثرية مواطنيه المسيحية ديناً كما نصحه بعض اصدقائه في الخارج.

[يشير بازيلي الى ما ورد على لسان نيقولا الاول أثناء الاحتفال الرسمي بتسليم خليل باشا لاوراق اعتماد سفيراً لبلاده في بطرسبورغ. طلب القيصر منه ان ينقل الى محمود الثاني نصيحة مخلصة بترك المذهب الاسلامي واعتناق المذهب الارثوذوكسي. والغالب أن الاشاعات عن نية محمود الثاني اعتناق المسيحية. والتي صدقها بازيلي، كان يبثها الباب العالي في بداية الثلاثينات =

لنعد الى روايتنا، كان محمد علي يجد نفسه مجبراً على القبول بصفة الوالي، والاكتفاء بالتالي بتوسيع حدود المقاطعات الموكولة اليه، الا أنه احتفظ لنفسه ايضاً بسلسلة جبال طوروس ضمانا لسيطرته من ناحية، ومن ناحية ثانية تهديداً باعتداءات جديدة على الأمبراطورية التي هز أركانها. بادر السلطان من ناحيته حفاظاً على أمنه، الى عقد معاهدة خنكيار أسكله سي مع الروسيا. ومنها تلتزم الروسيا بتقديم المعونة المادية والمعنوية للدفاع عن الأمبراطورية العثمانية في حال حصول اعتداءات جديدة. إن الاتفاقات عادة ترتكز على مبدأ التكافؤ، وإلا فإن الدولة التي تأخذ على عاتقها بموجب معاهدة حق الدفاع عن الطرف الآخر، تكون مبدئياً دولة حامية. لم تكن الروسيا تنتظر من تركيا مساعدات مادية أو معنوية، ولهذا فإن بنداً سرياً في المعاهدة يحرر تركيا من هذا الواجب، ولكن عليها مقابل الحماية الموعودة أن تقفل مضيق الدردنيل في وجه السفن الحربية مهما كانت جنسياتها.

في المعاهدة الآنفة تكرست للمرة الاولى بالشكل الديبلوماسي، قاعدة لا تزال سارية المفعول، وحتى بعد انقضاء معاهدة خنكيار أسكله سي، واصبحت فيما بعد قاعدة دائمة في الحقوق الدولية الأوروبية بموافقة الدول الكبرى سنة ١٨٤١. الرأي العام في كل من فرنسا وانكلترا تابع زعيقه ضد المطالب الروسية باقفال الممر المائي في وجه الاساطيل الحربية، وهو الذي لم يكن في وقت ما مفتوحاً أمامها. وعلى الصعيد الرسمي احتجت كلتا الدولتين دون أن تجنيا أية نتائج عملية.

كان الرأي العام الاوروبي يسقط من اعتباره بعض الوقائع التاريخية التي تفسر المنحى الذي اتبعته الحكومة الروسية في اتفاقها الجديد مع الباب العالي. في عهد الاباطرة اليونان كانت جمهوريات ايطاليا البحرية تقوم بتجارة ناشطة في البحر الأسود، الذي أقفله الاتراك في وجه التجارة الأوروبية، واعتبروه ملكاً خاصاً لثلاثة قرون ونيف خلت بدءاً من احتلالهم القسطنطينية. كانت التجارة في البحر الاسود تتم تحت العلم التركي وتقتصر على الحاجيات المصادرة بالقوة وبدون ثمن من إمارات الدوناي لاطعام العاصمة إضافة الى بعض حمولات الرقيق وجواري القفقاس. لم يجرؤ أي علم أوروبي على الظهور هناك،

= لحسابات سياسية محددة.

أما فيما يتعلق بكفر محمود وكل المحمديين المتنورين، فهذا ليس بالجديد على من يعرف الشرق جيداً من القراء، ليس الجيل الحالي من الاتراك المتعلمين وحسب هو الذي لا يؤمن بأي شيء لانغماسه بمادية خشنة، وإنما قبل هذا الاختيار بكثير، وهو الذي يسبق كل إصلاح، كان تدين المحمديين المتعلمين قد انحصر بالموقف من الاله فقط. الناشر.

حيث كانت سفن اليونان القديمة العريقة تمخره بحرية قبل ظهور المسيح بنيف والف سنة .

عندما استولت الروسيا على الشاطىء الشمالي للبحر الاسود أجبرت تركيا بموجب معاهدة كوتشوك قينارجو على التخلي عن احتكارها هذا الطريق البحري، وفتحت للتجارة العالمية ميداناً جديداً . وانطلاقاً من سهر الروسيا على أمن الشواطىء العزلاء، وحماية أسطولها لتجارة كل الشعوب في هذا البحر الداخلي، من الطبيعي ألا تكتفي بحق السلاطين القائم على العرف بإقفال البحر الاسود في وجه الاساطيل الحربية ، لذا حوّلت حق السلاطين ذاك الى واجب بعد المعاهدة السياسية السلمية. وإنما هل كان بامكان الروسيا وفي أمر يتعلق به أمنها الخاص، الاعتماد فعلياً على الاتفاق المعقود مع الحكومة التركية؟ هل كان باستطاعها المراهنة على متانة هذا الاتفاق في الوقت الذي كانت فيه كل اوروبا الغربية تنظر بعين الحسد الى تأثيرها الراجح في الشرق، وهو تأثير دفاعي لا غير؟ سيما وأن تداعي الأمبراطورية العثمانية كان لا بُدَّ وأن يؤدي وهذا طبيعي الى رحجان التأثير الدوري لهذه أو تلك من الدول الكبرى. بعد سلام أدريانوبول، وخاصة بعد الحقبة التي تطرقنا إلى الحديث عنها كان لا بد من أن يعود ثقل التأثير إلى الروسيا، وهو أمر لن يطول الى الابد، ولا حتى لفترة طويلة ، مهما كان حجم المساعدات المقدمة ، ومهما كانت عملياتها معتدلة . لذا تحددت مدة معاهدة خنكيار أسكله سي بثماني سنوات، وفي نفس الوقت بدأت الروسيا بتقوية الوسائل المادية للدفاع عن البحر الاسود.

الفصل السابع

استعراض عواقب اتفاقية كوتاهية ـ تأثير الاصلاحات في سوريا وآسيا الصغرى ـ حملة الاتراك على كردستان ـ العواطف الشعبية على جانبي جبال طوروس ـ خيبة أمل العرب ـ الرأي الخاطىء عن بعث الامة العربية ـ مخططات وآراء محمد علي ـ التركيبة الحكومية الجديدة في سوريا ـ اصلاح النظام المالي ـ ضريبة الرأس ـ ايرادات ونفقات الباشا المصري في سوريا ـ المحجر الصحي، الشرطة، البريد.

* *

ان البحث في الاحداث العظيمة التي أدت الى ان يحكم الباشا المصري سوريا مدة ٧ سنوات، حوّل حديثنا عن سوريا نفسها. خرج ابراهيم باشا من الاناضول في الوقت المناسب تاركاً وراءه أثراً طيباً، إذ رأى فيه سكان الاقليم منقذاً من مضايقات السلطات المحلية، وآخذاً بثارات الشعب المؤمن من بدع السلطان الكافرة، إلا أنهم لم يتوصلوا الى التعرف على أساليب الادارة المصرية، ولم يدركوا كذلك بأن قوة ابراهيم باشا كانت تقوم على أساس الاصلاحات الاكثر حدّة وقهراً للشعب واكثر معاكسة للاباطيل الدينية المتعصبة في الاسلام، مما كانت ترمي اليه اصلاحات السلطان محمود نفسها. كان هدف السلطان من إصلاحاته تخفيف آلام القبائل التي مزقها حكم الولاة الاستبدادي المطلق. ووضع تركيبة منتظمة لحكم واحدٍ يغطي كل الامبراطورية، بدلاً من الاقطاعيين الوارثين (البكاوات) أو الباشاوات بكل ما يمثله هؤلاء وأولئك من عيوب ومساوىء. بينما كان الباشا المصري يطمح الى ان يستخرج قدر استطاعته، من القبائل الخاضعة له الوسائل المؤدية لتحقيق كل مخططاته الطموحة، معتمداً في حسابات السياسة، ليس على محبة الشعب، بل على تطوير جبروته المادي.

إن سوريا التي انتقلت بكل رضى الى يد ابراهيم باشا، كانت محكومة بتجربة قاسية للتكفير عن ذنبها بخروجها على السيد الشرعي. في هذا الاقليم المختلف تماماً عن مصر بوضعه الجغرافي وتقاليده وروح سكانه، بدأ محمد علي تطبيق أنظمته الحكومية والمالية. فروّض الميول الفوضوية عند القبائل السورية، وعدّل الضرائب التي كانت خاضعة قبلاً

لرغبات الباشاوات والحكام المحليين. لكن محمد علي كان مضطراً، حماية لسلطته، لأن يستبدل بالعسكر النظامي العساكر المحلية التي كانت تشكل قوام القوة الحربية للاقليم، وبالتالي كان عليه أن يجبر القبائل المعتادة على الخيالة الحرة منذ القدم، على الخدمة النظامية والتجنيد الاجباري.

كلف محمد علي ابنه بتطبيق هذه الاصلاحات الهامة في سوريا، لكن وبقدر ما كان الفتح سهلاً، كان صعباً على الفاتح ومن ثم على البلاد إعادة البناء الداخلي، إذ أن القبائل السورية، مع محاولات الاصلاح الأولى التي قام بها ابراهيم، راحت تتحسر على إدارة الباشاوات الاتراك السابقة، ومقابل التجنيد الاجباري كانت تتحسر على الحياة العابثة اللامسؤولة قبل الباشا المصري. وهكذا اتضحت على ناحيتي جبال طوروس تلك الآراء والمواقف الشعبية التي سبقت الاشارة إليها. قبائل آسيا الصغرى، وقد حنت هاماتها أمام إصلاحات السلطان كانت تتوجه بانظارها إلى سوريا ابراهيم باشا، معتبرة أن تقاليد الزمان الفوضوي القديمة كانت تتنفس في الجهة المقابلة من الجبال. بدورها، كانت القبائل السورية المهيأة للعصيان، تلعن مصيرها وتتذكر الحقوق المقدسة للسيد الشرعي صاحب الجلالة.

إن إعادة تركيب الامور كما كانت سنة ١٨٣٣ شأن مرفوض من الاعماق من جانب محمد علي كما من جانب السلطان محمود. فالاول لم يكسب قدر طموحه، ولم يفقد الامل بانتهاز الفرصة عند أول حرب أوروبية لاستكمال مخططه. والثاني من ناحيته كان متشبعاً بالفكرة التي تتملك كل سلطان: خلع كل ولاته الاقوياء، وكان يراقب بألم وحسرة النتيجة المقلوبة لجهوده. بدل إخضاع مصر أجبر على التنازل عن سوريا، محاولاته الحثيثة لاقرار سلطة واحدة في الامبراطورية انتهت بشقها إلى قسمين. في الحالة التي يتواجد فيها مثل هذا الترتيب للنوايا في القسطنطينية وفي الاسكندرية إضافة إلى ما ذكرناه عن إتجاه العواطف والرغبات عند جماهير السكان على جهتي جبال طوروس، فمن الطبيعي أن تصبح سوريا الخاضعة لمحمد علي موقعاً متقدماً للسلطان ضد محمد علي نفسه، وأن تتشكل بالمقابل عند شعوب آسيا الصغرى الخاضعة للسلطان، قاعدة عطف قوية نحو محمد علي وبالتالي سلاحاً قوياً في يديه ضد خصمه وحاكمها الشرعي.

تولى مخضع روميليا، رشيد محمد، الذي خانه الحظ عند قونيه، حكم الاناضول، بهدف إدخال الترتيب المدني والنظام الحربي الجديدين إلى هذا الاقليم، الذي يتميز سكانه بتعصبهم الديني وعاداتهم القديمة الخشنة، مما يشكل عقبة في وجه إنجاز تلك الاصلاحات. وهذا ما تعرض له السلطان محمود ووزيره الاعلى قبل سنوات. التعصب القومي، حيوية

الطباع والروح المنطلقة لقبائل روميليا تعكس بصدق إزدواجية أصلها الهلليني والسلافي، إن في طباعها أم في هيئتها الخارجية.

في ربيع سنة ١٨٣٤ أقام رشيد محمد قيادة أركانه في سيواس إلى الشمال من طوروس وأقرّ توزيعاً جديداً لمقاطعات آسيا الصغرى. الشرط الاول للنجاح فيما كان يذهب إليه، هو تطبيق التجنيد الاجباري، الخطوة التي تثير السكان، وهذا ما استغله محمد علي، ونتيجة لدسائسه، وميل قبائل آسيا الصغرى نحوه، أعلنت القبائل الكردية الرحل، القاطنة سلاسل آسيا الصغرى الداخلية وعلى الحدود الفارسية، عصيانها، فجهز رشيد محمد إلى هذا البلد المتوحش حملة تابعها بعد موته حافظ باشا[1]. في الضفة المقابلة كانت الحكومة التركية، وإن لم تشترك مباشرة في انتفاضات القبائل السورية ضد السلطة المصرية، فمن المؤكد أن الشعب قد دعي باسم السلطان إلى حمل السلاح ضد الباشا المصري، الذي كان في عيون الناس، ابتداء من ١٨٣٣ وحتى ١٨٤٠ عدواً للباب العالي رغم تستره بالخضوع الشكلي. كل هذه العوارض تدفعنا إلى القول بأن ترتيب الاوضاع كما تحدد سنة ١٨٣٣، كان توازناً مؤقتاً، محكوماً بظروف الامبراطورية ولم يكن باستطاعته أن يشكل تدبيراً سياسياً ثابتاً.

في هذه الأثناء كان يسيطر على أوروبا وخاصة فرنسا رأي قوي، يبعد عن محمد علي صفة الباشا التركي، ويجد فيه ممثلاً لعالم عربي وباعثاً لوجود القبائل العربية السياسي. وانطلاقاً من هذه الفرضية قامت في اوروبا نظريات مثيرة للانتباه. ثلاث مقاطعات واسعة من الامبراطورية العثمانية، مأهولة بالقبائل العربية وتتكلم اللسان العربي، توحدت مجتمعة تحت قيادة شخص قادر ومبادر، بعد كل ما عانته من الخلافات الدائمة بين الباشاوات والامراء في سوريا، ومن النشوة الروحية لمنشقي شبه الجزيرة العربية ومن الحفلات التهتكية للمماليك المصريين. استغل الحاكم الجديد حقوقه المطلقة وتعب القبائل وكرهها المحق للمضطهدين السابقين الواقعين تحت سوط عدله، واستغل كذلك الثروات التي كانت كامنة حتى ذلك الوقت في أعماق الارض التي داسها المماليك بلا مبالاة. شكل جيشاً، بنى أسطولاً، استقدم إلى شواطىء النيل تكتيك الغرب وصناعته، جمع الملايين وأقام السلطة الحكومية التي كانت حتى ذلك الوقت تسرق من قبل آلاف المستبدين الصغار.

(١) جرت الحملة التأديبية ضد المتمردين الاكراد سنة ١٨٣٣ وكانت بقيادة رشيد باشا (منذ ١٨٣٦ صارت بقيادة حافظ باشا. استعمل الاكراد اسلوب حرب العصابات فكبدوا الجيوش التركية خسائر فادحة. سنة ١٨٤٧ نجحت الحكومة التركية مؤقتاً بكسر حركة التمرد الكردي الناشر.

إن الفصول الحكومية في نظام محمد علي، وكل اتجاه قدراته، بالاضافة إلى حربه ضد السلطان كانت تكشف فيه باشا تركياً لا نصيراً للقومية العربية، إذ ظل يعتبر نفسه غريباً عن العرب، يحتفظ بكره عنيد لهم كما احتقار أي تركي قديم للقبائل العربية، وبكل حذر الضيف المسلح عند أعدائه وبأساليب عنف لم يسمع بها أحد من قبل، جمع محمد علي فلاحي مصر وساقهم إلى الخدمة العسكرية، وبعد ان احتلب طاقة مصر، جهز حملة إلى سنّار لسركلة المجندين المدنيين. كذلك فعل ابنه الاكبر اسماعيل سنة ١٨٢١ حيث شكلت قساوته في تجنيد السود البائسين، دافعاً ليأس مطلق، من نتائجه مقتل اسماعيل باشا نفسه. وقام محمد علي بغارات على النوبة والسودان، وجمع ما استطاع من الرقيق الاسود الذين يرقطون جبين الجيش المصري وكذلك ادخل سكان ضفاف النيل في الاسطول، وابتاع بدون شفقة أولاد العشر سنوات من عائلاتهم للعمل في الترسانات وفي المصانع: بهذه الاساليب تشكل عنده جيش واسطول عظيمان، لا يتناسبان أبداً مع الامكانيات المادية لهذا البلد.

نظر المتفائلون لخطوات محمد علي تلك، على أنها تلبية نداء لمجد القبيلة العربية الحربي المبتعد عن إرث الانتصارات القديمة. إلا أن هؤلاء المادحين الغربيين سهوا عن نقطة هامة تشكل مؤشراً عن مدى مساهمة العرب في المجهود الحربي ومدى كسبهم لمجده: في الخدمة العسكرية المصرية، كانت رتبة الملازم، هي الرتبة المفتوحة فقط أمام العربي، وهي رتبة محتقرة من الاتراك الزاحفين نحو المناصب والرتب العالية في الجيش وفي الاسطول. إن العرب حاربوا بشجاعة تحت راية ابراهيم باشا، اندفعوا في ثغرة قلعة عكا، اسقطوا بحرابهم قمم بيلان. إنما يتوجب في هذا المجال أن نشير إلى أنه وراء كل مفرزة عربية كانت المدافع المجهزة للاطلاق، وأكثر من مرة أعادت قذائفها العرب الهاربين من نيران العدو إلى صفوف القتال، بالاضافة إلى أن الجيوش النظامية المصرية كانت قد تلقت تدريباتها الاولى، ميدانياً في الحملة على بلاد المورة التي كانت تعمها الانتفاضة الشعبية وسعير الحرب الدينية، وضد عدو لم يكن ليرحم أي مسلم. وهكذا فإن غريزة البقاء علمت الجندي المصري كيف يقيم كل منافع خدمة الصف والنظام. كلمات محمد علي نفسه خير معبر عن ماهية علاقته مع القبيلة العربية، فقد توجه لابنه ابراهيم الذي سعى لترقية عدة ملازمين عرب تميزوا في الحملة على سوريا «تذكر يا بني بأن عددنا (أي الاتراك) لا يزيد عن ١٠ آلاف بين هؤلاء الملايين من العرب».

واقع السلطة لم يتغير بالنسبة للقبيلة العربية، فبدلاً من أن يكون الاستبداد الحربي لـ ١٠ آلاف من المماليك، أصبح حالياً في يد عشرة آلاف عثملي اجتذبهم مصير محمد علي

من وطنهم. هناك ظاهرة بارزة بالنسبة لمصر: في نفس الوقت الذي نضب فيه منبع الدم القفقازي، بعد أن أنهى السلاح الروسي هذه التجارة المخجلة، والذي كون لمدة قرون القبيلة الحاكمة في مصر، في هذا الوقت قضى محمد علي على آخر المماليك وأبدل جماعاتهم الشجاعة بقواته الروميلية. وإذا كان الشعب المملوكي وفوضاه في ظل البكاوات الأربع وعشرين، قد استبدلوا بادارة جيدة وسلطة واحدة متماسكة، فإن حسنات هذا الواقع الجديد قد افتديت من القبيلة العربية بأنهار من الدم والعرق سالت في الخدمة العسكرية والاعمال الزراعية التي كانت القبيلة العربية مجبرة على القيام بها، في سبيل نفوذ حاكمها ونزولاً عند رغبته. بهذا السلاح الجبار المطواع في يده، حول محمد علي مصر إلى ينبوع ثروات ومجد له ولعائلته وأزلامه.

بالنسبة للشعب المصري، تحددت اصلاحات محمد علي بالمعادلة التالية: بدل سرقات المماليك الفاجرة حلّ نهب منظم دوري صارم عن طريق الاحتكارات والضرائب، وبدل صراعات المماليك الداخلية الدامية، والتي كانت تطال الشعب رغم عدم مشاركته المباشرة بها، حلت الحملات والمعارك الخارجية البعيدة، التي سالت فيها الدماء العربية، وبدل الفنطزية الفطرية[٢] التي يتعشقها سكان ضفاف النيل، حلت مرحلة العمل الاجباري العبودي. إذا كان محمد علي طوال ٤٥ سنة، فترة حكمه للقبائل العربية، بقي وفياً لأصله التركي، لصيقاً به مبتعداً عن السكان الاصليين، طباعهم ولغتهم، غير سامح لهم بالتقرب منه. فإن القبائل العربية بدورها، لم تتبن بعواطفها ضيفها الحاكم وظلت ترى فيه، ما عنى لها بداية، باشا تركياً، لا باعثاً أو عراباً للقومية العربية، كما كان يزعم الرأي العام في الغرب.

الرحالة والكتاب الذين يبشرون بهذا الرأي، يشيرون إلى الجيش والاسطول والترسانة والفبارك، وكأنه يمكن من خلال هذه المؤسسات أن يبعث من جديد قومية قبيلة مستعبدة. عندما كانت صدف الانقلابات العادية في الشرق تؤدي إلى وقوع سوريا والجزيرة العربية تحت سلطة الباشا المصري، كان الرحالة والكتاب الغربيون يرون في ذلك شرعية وراثية ويحسبون أن محمد علي قائداً مختاراً للمأثرة العظيمة، ومؤسساً جباراً للمملكة العربية الجديدة، ولكنهم كانوا يسقطون من حساباتهم قومية محمد علي نفسها. كذلك رأى هؤلاء في كره العرب الوراثي للاتراك ضمانة انفصال هذه القبائل عن الامبراطورية التركية.

(٢) الفنطزية: بهذه الكلمة الاغريقية يسمي العرب أعيادهم، حفلاتهم، موسيقاهم، رقصهم وأفراحهم الشعبية التي يتعشقها على الاخص أهل القاهرة.

لم يتعاطف العرب في الواقع، مع هؤلاء الفاتحين الذين حولوا مهد عظمة الاسلام، الخلافة العريقة مع مقدساتها إلى أقاليم بعيدة في الامبراطورية. ولكي نقيم بشكل صحيح الاهمية السياسية للقومية العربية، والتي قيل عنها الكثير في هذه السنوات، يجب أن نذكر ان القبيلة العربية، إحدى القبائل الاعرق والاكثر عدداً في العالم، لم تستطع يوماً، أن تشكل شعباً واحداً ودولة واحدة. فقط كلمة القرآن في عهدها الذهبي جمعت في لحمة واحدة القبائل المبعثرة منذ تكوين أرض شبه الجزيرة العربية نفسها، هذا الارخبيل من الواحات في بحر من الرمال، التي كانت قوافل الرعاة والفرسان تطوف فيها مثل الاساطيل. ومع برود الشعور الديني ضعفت عرى الرباط الروحي والمدني بين هذه القبائل، أما في وقتنا الحاضر، فإن كره هذه القبائل لبعضها البعض يتعدى كرهها المشترك للاتراك. إن المشاحنات الوراثية المحلية بين قبيلة واخرى، بين ساكن الحجاز وساكن اليمن، بين السوري والمصري، بين رحّل ما وراء الاردن وساكني شواطىء سوريا، بين جبلي نابلس وجبلي لبنان، إن هذه المشاحنات التي أغنتها إدارة الامراء الاقطاعية، واختلاف الملل، كانت تضمن من المؤكد سلطة الاتراك على هذه القبائل، وتضمن تأثير الباشاوات، بغض النظر عن كون هؤلاء ولاة خداماً للباب العالي، أم ولاة مسلحين عاصين مثل باشا مصر. إن المحاولات الوحيدة لبعث العنصر السياسي العربي خلال سبعة قرون منذ أيام السلاجقة حتى يومنا هذا كانت برأينا مآثر فخر الدين وظاهر العمر، كذلك الاضطراب الروحي السياسي للقبائل العربية تحت راية تعاليم محمد بن عبد الوهاب. إلا أن هذه المحاولات نفسها أدت كما رأينا إلى تقوية النفوذ التركي وحسب، ومن المحتمل جداً أن تبقى القبائل العربية محكومة ولمدة طويلة بالوصاية التركية.

فهم محمد علي جيداً وضعه في المنطقة، وأدرك عدم متانة اسس جبروته الغريب عن القومية هذا الشرط الاساسي لأي سلطة. وإدراكاً منه لنقطة الضعف هذه، ورغم البريق الخارجي للجيش والاسطول والفتوحات والتجارة والصناعة واشباعه لطموحاته وانطلاق مبادرته غير المحدودة، فإن محمد علي لم يعتد على دعائم الدولة العظمى غير المرتبطة بالقبائل العربية الواقعة تحت سلطته. كان يستطيع سنة ١٨٣٣ لو كتب ذلك المصير للدولة العثمانية أن يثير اضطراب كل تركيا أن يخلع السلطان ويرفع سلالة جديدة إلى العرش العثماني، ولكن ما دامت السلطة الشرعية في عاصمة الامبراطورية مركزاً للحياة الادارية والسياسية للقبيلة العثمانية، فإنه من غير المسموح به للوالي المنتصر، المتراجع إلى ما وراء جبال طوروس نحو الوطن العربي، أن يقطع روابط الولاء الضعيفة التي كان يتلاعب بها على هواه أمام العالم الخارجي، والتي كان يقوم عليها فقط، نفوذه السياسي على القبائل العربية.

إن المراقب المدقق في الاساليب السياسية لمحمد علي، وفي كل محادثاته مع الباب العالي والدول الاوروبية يقتنع بأن كل نداءات الباشا المصري عن الاستقلال، وكل ادعائه المغالي عن قوته العسكرية، وكل تهديداته بحرب جديدة مع السلطان، والتي كانت تبدو وكأنها تهديدات موجهة لاوروبا في آن معاً، إن المراقب يقتنع بأن كل هذا كان يفعله محمد علي ليكسب عائلته حقوق الحكم وراثياً.

أما فيما يخص اقتراحه الغريب سنة ١٨٣٤ على النمسا وفرنسا، تحت حجة تأمين استقلال ووحدة الامبراطورية العثمانية، والذي يدعو إلى سلخ المقاطعات العربية عن هذه الامبراطورية ثم اعلان الحرب على الروسيا، فإن الباشا الخبيث، المخدوع بتعليقات الصحف الغربية، التي كان لا يزال يصدقها حتى ذلك الوقت، كان يظن بأن حكومات الدول العظمى تشاطر الصحفيين أهواءهم وتستعد للانقضاض جوقة واحدة على الروسيا وتمزيق اتفاقية خنكيار اسكلة سي، وفي هذه الحالة كان الباشا يمني نفسه من خلال قرقعة الحرب الاوروبية باتمام معركة قونيه التي حد من خطرها جيشنا واسطولنا، وإثارة الاضطراب في الامبراطورية العثمانية، وبالتالي سرقة العرش. باقتراحه هذا ـ والذي لم يهمس به ثانية ـ أثار محمد علي نحوه قسوة وسخرية الحكومات الاوروبية، وحتى تلك التي كانت تغض الطرف عن تصرفاته.

لنبحث الآن في التنظيمات الحكومية للباشا المصري في سوريا أثناء فترة سنوات حكمه السبع.

كانت الادارة المدنية لبشاليك سوريا الاربع: حلب، دمشق، طرابلس وصيدا، بالإضافة إلى بشليك أضنة مركزة في يد شريف باشا حاكماً مدنياً، صلاحياته محدودة ومقره دمشق، وتحت إدارته المباشرة في كل المدن والسناجق اعداد من المتسلمين الخاضعين في التغيير والتبديل لمحمد علي أو ابنه ابراهيم. وكان ابراهيم طوال تواجده في سوريا، يتمتع وبتكليف من والده، بصلاحيات الحاكم المدني والعسكري العام، وفي بعض الحالات كان يأخذ قرارات هامة دون سؤال والده أو الرجوع إليه. ونظراً لأهمية مدن حلب وعكا كان متسلموها يحملون اسم مدير ويرأسون سناجق كثيرة متاخمة، كذلك ونظراً لأهمية بيروت التجارية وموقعها المركزي كان متسلمها هو نفسه كابتن الاسطول الذي يراقب كل المرافىء وكل أمور الابحار على شواطىء سوريا. المشايخ أو العمداء في القرى كانوا على علاقة مباشرة مع المتسلم. هذا التنظيم يؤول كما نرى إلى توحيد ومركزة سلطة الحكومة. الجيش كان في حالة استنفار دائم. علاقات السلطان العسكرية مع السلطة المدنية كانت قائمة على غرار قواعد النظام العسكري الاوروبي، الشرطة المدينية والريفية

كانت تطلب المساعدة العسكرية فقط في حالة الاخلال بالامن. في كل مدينة شكلت مجالس من الوجهاء ـ مسلمين ومسيحيين ـ تحت ادارة المتسلم الذي كان يضعهم في صورة الامور المهمة في الادارة، أما في الامور الاقتصادية فلم يكن باستطاعته القيام بأي خطوة دون استشارة ومؤازرة المجلس، وشيئاً فشيئاً، أوكلت إلى هذه المجالس مع الوقت سلطة الاشتراع في الامور المعلقة وخاصة الامور التجارية. أما فيما يتعلق بالمحاكم الشرعية الاسلامية، فإنها كانت وستبقى في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية منيعة أمام أي تغيير. تحت الادارة المصرية كان السلطان يعين لمدة سنة في كل من دمشق والقدس مـلّا أي حاكماً أكبراً، وهذان يتوليان مهمة تزويد السناجق بنوابها وقضاتها الشرعيين، الذين كان عليهم أن يؤمنوا للمـلّا معاشات معينة. كانت الامور القضائية بالاجمال، تحل عن طريق السلطة الحكومية المدنية بعد أن تتم من حيث المبدأ محاكمة قضائية، في المحكمة الشرعية أو في مجلس المدينة حسب توجيه السلطة الحكومية. ثم ترفع الاحكام للتصديق عليها من الحاكم المدني أو من ابراهيم باشا أو من محمد علي نفسه، حسب أهمية الأمر المطروح. ولكن، عندما كان الامر يتعلق بمحاكمة أو معاقبة مجرمين سياسيين، فإن ابراهيم باشا يحتفظ لنفسه بسلطات غير محدودة كتلك التي كانت لدى سابقين من الباشاوات الاتراك. ومثلهم بدون محاكمة أو حتى تحقيق، كان يشنق المجرمين أو المتهمين بإثارة الاضطراب، أو المعادين للحكم المصري.

الشق الاقتصادي، الذي لم يكن يمتلك في سوريا زمن الباشاوات أي هيكل تنظيمي، إذ أنه كان يخضع لأهواء هؤلاء وامزجتهم ودرجة تأثيرهم، حظي تحت الادارة المصرية باصلاح حديث ومتين. إلى جانب الحاكم المدني في دمشق عين ابراهيم باشا، حنا البحري بلقب بك مديراً خاصاً بالادارة المالية، وحنا هذا وأصله من حمص شخصية تعمل في خدمة محمد علي منذ زمن بعيد. أصطحب حنا البحري معه من مصر محاسبين أقباطاً، يتمتعون وراثياً بقدرة خاصة على العمليات الحسابية. في كل مجلس من مجالس المدينة عين ماسك دفتر لصادرات وواردات الادارة. وهكذا ادخلت تحت نظام عام كل الضرائب وكل البنود المالية لمداخيل الخزينة، والتي كانت سابقاً من مهمات السلطات المحلية. لم تكن المناصب في فترة حكم الباشاوات السابقة غير مدفوعة الاجر وحسب، وإنما كانت تشترى بالمال، مع حق الشاري باستغلال المداخيل الخاصة بكل منصب، أو بطريقة أوضح، الحق بنهب الشعب بالقوة أو عن طريق البلف والرياء. مع ابراهيم باشا حددت الاجور ومنع البلص والرشوة، الضرائب حدّدت وتوضحت. كانت المداخيل خلال الادارة القديمة تأتي من:

١ ـ الميري أو ضريبة الارض.

٢ ـ ضريبة الرأس من المسيحيين واليهود (خراج).

٣ ـ الالتزام ويدخل في عداده: الحقول الاميرية، كذلك الجمارك على التجارة الداخلية والخارجية والتحصيل من الحرف.

٤ ـ الاحتكارات المفروضة هنا كما في كل تركيا، على بعض المواد أو بعض ميادين التجارة وفقاً لمصالح الباشاوات.

٥ ـ والاهم ابتزاز الاموال الاستبدادي والغرامات، التي كان يجمعها الباشا من الاشخاص أو من الفئات أو من المدن أو من السناجق، حسبما تسمح به الاوضاع السياسية والاجتماعية.

أقدم محمد علي باشا على إلغاء هذا البند الأخير، الذي كان يشكل مصدر تدفق الثروات على الباشاوات، وأبدله بأتاوة على الرأس، الفردة، ويخضع لها على قدم المساواة كل المواطنين وكل الفئات عدا رجال الدين والموظفين. وقد استتبع هذا الاجراء الجديد إجراء إحصاء للرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٦٠ سنة، حددت بنتيجته الضريبة بـ ٥ روبلات فضية على الشخص الواحد، ثم أعطيت للمجالس المحلية في المدن والارياف الفرصة لتقدم كفالة مدورة الرقم حسب عدد السكان، وتوزيع الحصص بشكل يتناسب وامكانيات الفرد، وقد تراوحت حصة الفرد بين ٥٠٠ و١٥ قرشاً حسب قدر الفرد على الدفع.

لقد طالت هذه الضريبة الكبرياء الدينية للمسلمين فقد حصلت منهم وللمرة الاولى، ضريبة الرأس على قدم المساواة مع غير المسلمين من أهل الذمة، والحقيقة ان المسلمين كانوا في منأى عن ابتزاز الاموال الاستبدادي. إن الذي كان مجبراً في لحظة غضب الباشا، على افتداء رأسه بمئات الآلاف، لم يكن بأي حال، مجبراً تحت الادارة الجديدة على دفع أكثر من ٥٠٠ قرشاً (حوالي ٣٠ روبلاً فضياً). إلا أن الآسيوي، وقد اعتاد منذ القدم على الاوامر المبرمة الاستبدادية للسلطة الحاكمة، كان انطلاقاً من قدريته ينسب سلوك ومزاجية الباشاوات السالفين التي تقود إلى الخراب، إلى أمور القضاء والقدر ويخضع لها بدون تبرم. لقد اعتبر المسلم نفسه مهاناً وفق الترتيبات الجديدة. إن هذا التنظيم الجديد يشمل كل الطبقات، لأنه يأخذ بعين الاعتبار مقياساً واحداً للجباية، مقدرة الفرد على الدفع، والمرتكز على الحقيقة الابدية: المساواة أمام القانون في الحقوق بين المواطنين من مختلف المذاهب. لقد كانت الابتزازات المالية السابقة للباشاوات تطال عادة الاغنياء القادرين على الدفع، ونادراً ما كانت تصيب الطبقات السفلى المستنزفة بالطبيعة، أما الضريبة الجديدة فتحتضن كل الطبقات، وبذلك بدل الخوف الذي كان يلاحق الاغنياء في ظل النظام المالي

السابق، نَفَذَ الاستياء إلى الجماهير في ظل الترتيبات الجديدة لمحمد علي.

ومهما يكن من أمر فإن وقف الغرامات والجبايات الكيفية غالباً، ما ترك انطباعاً طيباً، فقام الاغنياء الذين كانوا يخفون ثرواتهم بدقة، ويموهون غناهم بحياة وسلوك الفقراء حتى لا يثيروا شكوك الباشاوات، قاموا بادخال رؤوس أموالهم في التداول وخاضوا العمليات التجارية وأعطوا الصناعة حياة جديدة. إلى هذه الاسباب، طبعاً بالاضافة إلى استتباب الأمن في الطرق والمسالك، يجب أن ننسب النجاحات التجارية في سوريا تحت الحكم المصري.

صناعة سوريا التي كانت مزدهرة، وكانت لقرون خلت تمد اوروبا بالانسجة على أنواعها ابتداءً من الحرير الغالي حتى الخيش (الجنفاص) الرخيص[٣]، كانت عند دخول محمد علي مستنزفة متعبة. فبالاضافة إلى كونها كانت تنوء تحت وطأة الاحداث السياسية المتعاقبة، تلقت ضربة حادة، فالسلع الاوروبية الرخيصة التكاليف بعد ظهور الماكينات البخارية تمكنت وبشكل تدريجي من الدخول إلى بازارات الشرق. من جهة ثانية كانت الزراعة في نفس تلك الفترة، فترة دخول محمد علي، قد تخلت عن السهول الخصبة حيث يفتقد الأمن والحماية، والتجأت إلى الجبال حيث المناطق أكثر أمناً، وهذا يعني أن القوى المنتجة في الاقليم كانت في حالة ضعف وعدد السكان يتناقص بشكل ملفت، لهذا فإن محمد علي لم يدخل إلى سوريا، نظامه المصري الجديد لاحتكار كل السلع وحسب، لا بل قدم أيضاً امتيازاً كبيراً للتجارة واستبدل الاوامر المانعة للسلطة القديمة بضرائب معتدلة.

لقد اختفت تماماً بعض بنود الالتزام، أما الجمارك فكانت تحت المراقبة المباشرة للخزينة. أتاوة الأرض ـ الميري، وضريبة الرأس من المسيحيين الخراج، والمبنية على القوانين الاساسية للامبراطورية بقيت محافظة على شكلها القديم، مع فارق مستحدث كونها أصبحت لحساب الخزينة بدلاً من الحكام المحليين.

بالاضافة إلى مقدرته العسكرية كان ابراهيم باشا يمتلك مواهب كثيرة في النواحي الاقتصادية، وكان يحب أن يستثمر انجازاته في مجال من هذا النوع ويوظف رؤوس امواله في المضاربات التجارية والصناعية. لم يجمع ثروته العظيمة عن طريق النهب أو عن طريق ابتلاع ملكية الآخرين. منظر حقول انطاكية العذراء أوحى لإبراهيم باشا فكرة تأسيس مزرعة كبيرة هناك تكون مثالاً للزراعة وتربية القطعان أمام القبائل السورية وتجتذب

---

(٣) كانت حمولات الجنفاص البسيط تنقل من سوريا الى فرنسا وترسل من هناك الى المستعمرات ليخيط منها الزنوج قمصاناً.

لاعمال الحقول، التركمان نصف الرحل الذين كانوا يسوقون قطعانهم إلى هناك من قمم جبال طوروس. وبالفعل اجتذبت الاغراءات التي قدمها ابراهيم بعض القبائل البدوية التي اخذت تستقر في أراضي سوريا الزراعية على أطراف الصحراء، وقد أعفيت هذه القبائل من ضريبة الارض لمدة تسع سنوات في حال استصلاح أراض جديدة. جبليو لبنان بدأوا ينزلون من سناجق عكار والضنية الصخرية ويقطنون الأراضي الصالحة للزراعة والتي كانت ما تزال بوراً. حوالي ١٥ ألف فدان[٤] استصلحت على موازاة الصحراء بين دمشق وحلب. في حوران حيث تعطي حبة القمح الواحدة أربعين حبة وحبة الذرة مائتي، لم يكن هناك أكثر من الفي فدان من الأراضي الزراعية، وقد أضيف إلى هذه الاراضي زمن الادارة المصرية حوالي ٧ آلاف فدان مستصلحة[٥]. ومرة عندما غزا الجراد الحقول ما بين حلب وحماه دهش السكان المعتادون على نهب الباشاوات السابقين وإساءات عسكرهم، من منظر ابراهيم على رأس أفواج من مشاته يتعقبون الجراد، وقد قضى الفيلد مارشال كل الربيع في هذه الحملة، وأكثر من ذلك منح السكان والجنود مكافآت على كل مقدار معين من الجراد المقتول. وهكذا انقذ ابراهيم باشا مواسم السكان الزراعية وزاد تالياً مداخل الحكومة المصرية.

في سبيل تدعيم خيالته (سلاح الفرسان) لجأ ابراهيم إلى طريقة اقتصادية تنطلق من طبائع وعادات القبائل العربية. إن الفرس الأصيلة عند العرب، لم تكن أبداً بكاملها ملك شخص واحد، كان يتقاسم ملكيتها اثنان، ثلاثة، عشرة وأحياناً العشيرة مجتمعة، على هذا الاساس، وبموجب ما يسمى بحق اللجام، يمكن شراء حصة في تلك الشراكة مقابل كمية بسيطة من المال، وبالتالي اقتسام مداخيل الفرس، ونعني نسلها مع شركاء الملكية

---

(٤) لا يجب الخلط بين الفدان السوري والفدان المصري: الفدان في مصر وحده هو وحدة قياسية ثابتة للارض، توازي ثلث عشرنا ونيف. في سوريا يتغير الفدان حسب نوعية التربة وكمية البذار. من أجل بذر فدان واحد يلزم من القمح حوالي ٨ أرباع (كل ربعيه ١٠ بود) فلاح واحد مع زوج ثيران يفلح هذه الارض في مدة ٤٢ يوماً، بشليك دمشق ربح وحده من هذا الحساب كما هو واضح حوالي ٧٠٠ الف يوم عمل.

(٥) كل هذه النجاحات في العمل الزراعي انهارت بانهيار الحكم المصري في سوريا. في حوران لا يستغل حالياً أكثر من ٢٠٠٠ فدان. في سهل انطاكية وحده كان لدى ابراهيم باشا ما يزيد عن ١٢ ألفاً من الاغنام والابقار والجمال، سرقت كلها سنة ١٨٤٠. بين حلب ودمشق لم يبق أثر للقرى التي تأسست تحت رعاية ابراهيم باشا. في بشليك دمشق وحده اقفرت حوالي ٧٠ قرية. وحرمت الخزينة من حوالي نصف مليون من الميري.

بشكل يتناسب مع حساب حصص كل طرف.

هذا الشكل من الشراكة يبدو معقداً جداً للوهلة الاولى، إلا أنه يحوي نظاماً متكاملاً من القواعد المفصلة الدقيقة القائمة على العرف، والتي تمتلك قوة القانون في العالم العربي. إنها تحل محل الضمان المتبادل للملكية لدى القبائل المحرومة من ملكية الارض، وتحمي البدوي من الافلاس في حال نفقت الفرس التي تشكل الثروة الرئيسة عند البدو الرحل. ابراهيم باشا بدلاً من أن يحتفظ باسطبلات للاحصنة أو بدل أن ينشئها بتكاليف مرتفعة أخذ من السكان مناصفة، ضريبة متأخرة بضعة آلاف من الاحصنة، وأخذ مع بقاء الافراس في عهدة أصحابها، يتسلم سنوياً أعداداً كبيرة من المهر لخيالته بثمن زهيد.

في ظل هذه الترتيبات الادارية والاقتصادية التي ادخلها ابراهيم باشا إلى سوريا، بلغت مداخيل الخزينة المالية ٧٠ مليون قرش (٤ ملايين روبل فضي) سنوياً، وبالرغم من أن ربع هذا المبلغ فقط ينفق على الادارة المدنية، إلا أن الاحتفاظ بجيش ضخم، والاضطراب السياسي، والخطر الدائم من ناحية السلطان، وبناء القلاع والثكنات (القشلات) كانت تبلغ فوق الثلاثة أرباع الباقية، مبلغ ٣٠ - ٤٠ مليون يسحبها ابراهيم باشا سنوياً من الخزينة المصرية لتغطية النفقات التي كان يستلزمها احتلال سوريا.

يبقى أن نتحدث عن أهم جانب من التنظيمات المدنية التي أدخلتها الإدارة المصرية إلى سوريا، ونعني مؤسسات الحجر الصحي والبريد.

تعتبر مصر منذ القدم موطن الطاعون وعشه الدائم، مع أن الأبحاث الحديثة في هذا الموضوع لا تستطيع أن تؤكد هذا الاعتبار. محمد علي، هو رائد الفكرة الأولى باتباع نظام الحجر الصحي في المنطقة. كان يواكب الإصلاحات في الشرق صراع حاد بين الحكم الاستبدادي، ملاحظة، وبين الأباطيل والخرافات الشعبية من سياسية أم دينية. محمد علي الذي قضى على المماليك، انكشارية مصر، كان يستطيع أن يمضي قدماً في مشاريعه الاصلاحية، أكثر من السلطان، الذي كان وضعه على رأس الهرم الديني في الامبراطورية يشكل عقبة فعلية في هذا المجال، فبينما كان محمد علي يدخل في بشاليكه أكثر التجديدات حداثة، كان السلطان، وفي دوامة الازمات السياسية، مجبراً على أن يبرر من ناحية دينية وبطرق دقيقة، ويلقي الضوء على كل تصرف أو تدبير يتعلق به مستقبل الامبراطورية أو مستقبل الاسرة الحاكمة. وفي عهد السلطان محمود ومحاولاته الاصلاحية كانت محاولة ادخال الحجر الصحي كافية لاثارة العصيان في الامبراطورية، أو على الاقل ساقت اليه كل الاتهامات التي تحكي عن ارتداده عن قواعد الاسلام الاساسية، وتلويثه ببقع المرطقة كل مآثره المدنية. يجب على الحكومة أن تهتم أولاً بانطباعات شعبها قبل الاهتمام بأقاويل العالم

الخارجي. وباستطاعتهم في اوروبا ان يصموا السلطان وشعبه بالجهل المطبق الذي يحكم الشرق باستنزاف دائم من عدوى الطاعون، ولكن نسي أصحاب التهمة من العلماء الآراء اللاهوتية في التلقيح ضد الجدري لكليات باريس والسوربون، عندما نصحت الليدي Montequiey (مونتاكيو) العالم الغربي باستغلال هذا الاكتشاف العظيم، الذي كان معروفاً منذ القدم عند الشعوب الشرقية. لم يكن هنا أبعد من النصف الاول من القرن الثامن عشر المتمدن. ولنتذكر كذلك كم من الجهود بذلتها الحكومات لنشر التلقيح ضد جدري الماء، عندما تم اكتشاف هذه الطريقة الجديدة الاكثر وقاية للحماية من هذا المرض!!.

إن تطويق سوريا بالحجر الصحي، خدم كتدبير بوليسي لفصل هذه المقاطعة عن بقية تركيا، إذ كان المسافرون، وبحجة الكارانتين، لا يستطيعون دخول سوريا، إلا تحت رقابة السلطات المحلية، حتى في الفترات التي كانت فيها تركيا خالية من المرض المعدي، بينما العدوى مستشرية في سوريا نفسها والاطباء الاوروبيون كانوا في خدمة محمد علي في هذا المجال، إذ كانوا يقدمون التبريرات لهذا التدبير بفرضية اعتباطية تقول بأن المرض يقوى ويستشري باختلاطه مع جميع الامراض الخارجية، وكانوا يؤكدون أن خط سير المرض ليس من مصر وسوريا باتجاه الشمال، بل بالعكس كان الوباء، يكمن في القسطنطينية وفي منطقة ارضرروم، ومن هنا يتجه جنوباً، في كل مرة كانت الاوضاع السياسية تتطلب اقفال الممرات والمسالك مع تركيا، من حيث كانت صاعقة غضب السلطان على محمد علي تثير الامل لدى القبائل السورية في انتفاضاتها المتتالية، كانت السلطات المحلية وبحجة خطر الطاعون تلجأ إلى مثل هذا التدبير.

أما إنشاء مؤسسة البريد في سوريا، فترتبط أيضاً بنظام الدفاع الحربي عن هذا الاقليم، وبمحاولة مركزة السلطة الحكومية في الداخل. لقد أمنت الادارة المصرية المواصلات أمام انتقال الاشخاص والبضائع. كان التجار والرحالة سابقاً مضطرين لانتظار قافلة مأمونة يواكبونها في المسير، أو استئجار خفر للتنقل بين مدن ومناطق الاقليم، أما في عهد ابراهيم باشا فأصبح بإمكان هؤلاء التنقل بحرية عبر كل سوريا. وقد احتذى التجار بالحكومة فأنشأوا بريدهم الخاص بين حلب والقدس، إذ أن بريد الحكومة كان يخدم فقط القيادات المدنية والعسكرية، ولم يستلم قط الرسائل الشخصية. إن البلد الذي كان الجيش فيه يعيش حالة استنفار دائم إما لاخضاع عصيان أو لجمع سلاح، أو من أجل سركلة المدنيين، في بلد مثل هذا كانت سرعة الاتصالات وصحتها شرطاً ضرورياً ليقظة الحكومة. على هذا كان البريد منتظماً إن داخلياً في سوريا، أم خارجياً في صحراء

السويس للاتصال بمصر. في سوريا كان الرسل يخبون من قرية إلى أخرى على المهر الاصائل، أما الصحراء فكانوا يطوونها على الجمال بسيرها السريع جداً والتي يسميها العرب بالهجن[٦].

منذ سنوات عديدة سيرت الحكومة التركية، في سوريا كما في كل الامبراطورية، بريداً منتظماً لتأمين الاتصالات الحكومية والاتصالات الخاصة، وقد حل هذا محل التتار أو محل الرسل الذين كانوا يجهزون بأمر من الباب العالي أو من باشاواته.

---

(٦) لا تستطيع أي فرس أن تجاري مثل هذه الجمال في مسافات طويلة. تنجح الفرس وتجتاز الهجين في العشرين فرسخاً الاولى، ثم تتعب خاصة أذا انطلقت حثيثاً منذ البداية. بعد الـ ١٥ ـ ٢٠ فرسخاً الاولى، تخب الهجين بكل قوتها وتستطيع البقاء كذلك مسافة ثمانين فرسخاً. الهجين الجيد يثمن عاليا. وفي أوربا يعتبرون خطأ الهجين فصيلة خاصة، أنها الجمال نفسها، ويتم اختيارها عادة قصيرة القامة سليمة الجسم نحيفة قدر الامكان.

الفصل الثامن

التجنيد الاجباري (السركلة) في سوريا - عصيان اليهودية والسامرة - مصادرة السلاح - عصيان الدروز والحرب في اللجا - بطولات شبلي العريان - اخضاع الدروز - تأثير التجنيد الاجباري - الامتيازات المقدمة للمسيحيين - حسنات وسيئات التسامح الديني - بدع ابراهيم المغرية - تدعيم الجيش المصري في سوريا - تدعيم عكا وكولك بوغاز - الخرافة التاريخية عن عكا .

* *

إن الاصلاحات في الهيكلية الادارية لسوريا، والتي تفيد السكان وتستجيب لمصالح الحكومة في آن معا، لم تكن لتتم في هذا البلد الفوضوي بدون استعمال القوة. فمنذ السنة الاولى للحكم المصري، ونتيجة لخطوات إبراهيم باشا تلك، ساد التذمر لدى الشعب، الذي طالما فضّل سوء استعمال السلطة على أي تجديد، بحيث أصبح سوء الاستعمال هذا تقليداً . أوّل من شهر السلاح في وجه ابراهيم باشا كانت نفس القبائل التي هتفت كثيرا في البداية لاطلالة راياته من ناحية الجنوب. كانت الحكومة المصرية مجبرة على الاحتفاظ بجيش كبير في سوريا، ففرضت الخدمة العسكرية على كل السكان المسلمين. عند هذا الحد المكروه من الآسيويين، لجأت القبائل الى السلاح، والتهبت جبال اليهودية عصيانا، ورجمت بالحجارة كتيبتين مصريتين في الوديان. ابراهيم باشا نفسه احتجز من قبل فلاحي القدس المتذمرين، فأسرع محمد علي باشا باسطوله مع جيش الانزال الى يافا لانقاذ ابنه .

أخمد العصيان في آخر الأمر بالقوة وبالحيلة، وحل بانتهائه زمن الشنق الذي لا يرحم، وتكرر بعد ذلك في السامرة وجبال نابلس[1]، فقد جردت قبائل هذه المناطق من السلاح

(١) التمرد الذي عمّ كل فلسطين تقريباً، انفجر في ربيع ١٨٣٤ بعد اعلان السلطات المصرية قرارها بجمع السلاح والمجندين المدنيين. ضرب المتمردون الحاميات المصرية في نابلس وحبرون . حاصروا الوحدات المصرية في القدس، ولم يرفعوا عنها الحصار الا بعد تعهد المصريين بالغاء التجنيد. لكن الحكومة لم تنفذ وعدها. سنة ١٨٣٤ بدأ التمرد ضد الحكومة المصرية في المناطق الشمالية الشرقية من لبنان بين المتاولة وفي جبال النصيرية .

بعد دفاع مستميت، وقدمت، تبعاً لارادة المنتصر عدة آلاف من المجندين الذين ارسلوا الى مصر بدل الجنود المصريين الذين يمضون خدمتهم في سوريا، فتم بهذه الطريقة تلافي مسألة هرب المجندين في جناحي باشوية محمد علي. أكثر القبائل كرها لهذا التدبير، كانت القبائل السورية المعروفة بحبها لموطنها، وهذه ميزة كل القبائل الجبلية.

كذلك كانت القبائل السورية معروفة بإصرارها على اتباع نظامها العسكري الخاص الذي كان يقدم لها بالاضافة الى المجندين، فائدة في غاية الأهمية، فالقبائل السورية باتباعها أسلوبها العسكري، تحافظ على قوتها، بينما كانت تضعف وتصبح أكثر خضوعاً في حال جمع خيرة شبانها وسوقهم الى خدمة الصف. بعد أن فقد الحكم المصري كل أمل بتعاطف هذه القبائل قرر أخافتها والتأثير عليها بأساليب القوة، أمر بجمع السلاح في كل مكان إن في السهول أم في الجبال تفاديا لاضطرابات جديدة، ووضعت الحكومة بشكل كيفي كشفاً تقديرياً بكمية السلاح الموجودة لدى كل قبيلة، في كل مدينة أو سنحق، وكانت هذه الكمية تطلب بدون أية شروط أو أي تنازل أمام رجاء أو كفالة. وكان على السكان تأمين السلاح المطلوب منهم جمعه شراءً أو الحصول عليه بأية طريقة، وفي حال عدم التنفيذ كان المذنب يتعرض لعقاب جسدي شديد القساوة ويساق للاعمال الشاقة في عكا.

مصادرة السلاح والتجنيد الاجباري، بعبعا الحكم المصري في سوريا، حيث كانت القبائل المتباينة بتقاليدها، بصراعاتها المحلية الموروثة، بتكوين التربة نفسه، بتأثير سلوك السلطات الحاكمة، تعصى الواحدة تلو الاخرى، دون أن يشكل هذا الموقف المشترك صف مواجهة موحداً، نتيجة التصارع الشرس لهذه القبائل مع بعضها. بعد كل انتفاضة جديدة كانت الحكومة تعمق قسوتها، وتغرز في النفوس خوفاً جديداً. اكثر هذه الانتفاضات عناداً ودموية كانت انتفاضة الدروز نهاية العام ١٨٣٧، التي كتب فيها على دروز لبنان ووادي التيم أن يفتدوا بالخضوع للتجنيد الاجباري، شرف إيمانهم المشكوك فيه بالنبي محمد (صلعم).

سنة ١٨٣٣ وفي أول محاولة جرت لسوق مجندين، قبض بالقوة او بالمخادعة على الفين من الدروز وجمع الكثير من السلاح، مقدمة لتجميع المجندين. أما دروز حوران فقد أعفوا ولمدة خمس سنوات من هذه الخدمة لقلة عددهم، ونضوب موارد موطنهم الجميل، الذي يشكل في حال استصلاحه أهراءات قمح لسوريا وللقبائل الرحل في الصحراء، كذلك لم يصادر السلاح من دروز حوران، اذ بدونه يقعون فريسة استبداد جيرانهم البدو المتوحشين.

كانت سنة ١٨٣٧ نهاية هذا الامتياز، إذ طلبت السلطة المصرية من دروز حوران تأمين ٧٢ مجنداً، واستدعت الى دمشق شيخهم حنتش، الذي حاول، باسم مواطنيه، تجديد إعفاء الدروز في حوران من الجندية، ولكن حنا بـحري بك، الذي تكلمنا سابقاً عن نفوذه، وبنيّة منفعة دنيئة، أقنع الباشا بعدم العطف على هذا الطلب، وأكثر من ذلك، أقدمت حاشية الباشا بوقاحة، على إهانة الشيخ الدرزي، الذي أضمر والحال هذه ثأراً غالياً من المصريين لاهانتهم لحيته، فأعلن مخادعة، استعداده لقبول مساعدة الحكومة في جمع المجندين شرط ان يؤازر بقوة عسكرية كبيرة. جهزت القيادة في دمشق فرقة عسكرية من ٤٠٠ خيال غير نظامي ساروا مع الشيخ الى حوران حيث استقبلوا واستضيفوا بحرارة، ولكنهم ذبحوا جميعاً في اول ليلة مبيت. وحده آمرهم نجح في الهرب من شباك غرفته بعد أن تنبه من نومه على حشرجة من يحتضر من رفاقه، وأخبر دمشق بما حصل. أما الدروز فقصدوا بعد هذه الحادثة سنجق اللجا المنيع.

في مرج حوران في السهل المزنر بسلسلة وادي التيم، وبالذيول الشمالية لجبال عجلون وجبال حوران، يوجد مرتفع مسطح، يأخذ شكل مضلع سداسي غير منتظم بمحيط يمتد على ٥٠ فرسخاً. يبدو وكأنه معلق من كل نواحيه، ارتفاعه عشرة أمتار ينغرز في التربة بشكل عامودي وكأنه أسوار قلعة. في بعض الاماكن منه توجد ثغرات ضيقة يمكن الدخول عبرها الى داخل هذا السنجق المسكون بالجن. البازلت الذي يؤلف هذه الكتلة هو آثار طازجة لتكوينه البركاني، وهو يبدو وكأن النار التي أنضجته قد خمدت منذ مدة قريبة، وعند تجمدها تفسخت الصخور شقوقاً ونتوءات في كل الاتجاهات، متقاطعة ببعضها البعض مشكلة فيما بينها شوارعاً كشوراع مدينة اغريقية قديمة بين المعيّنات وأشباه المنحرف والابنية الصخرية المعلقة ذات الاشكال العجيبة. هـذه المتـاهـة مـن الصخـور والشقوق والممرات الغائرة في الارض والمغارات المنيعة، هذا الحطام العظيم لبركان خالد، المغبر في بعض أماكنه بالارض المعشوشبة على شكل مرعى، من المؤكد أنها خدمت في القديم وفي عصر سوريا الذهبي ملجأ مأموناً لقبيلة حرّة هاربة من حكم السلاجقة او الرومان، أو من كوكبات قطاع الطرق، حيث تجد القبيلة هنا عشاً ممتنعاً عن كل الملاحقات. إن هذه المتاهة تمتلك نظاماً عريقاً لدفاعها الداخلي. على قمم الصخور المسطحة المشرفة على كل الجهات، وعلى محاذاة الشوارات (الشقوق) أقيمت أعداد من الابراج بارتفاع خمسة أو ستة ساجينات (الساجين: متر و١٣ سم) بشكل مخروطي مقطوع، ومن أروقتها تمكن مراقبة كل الممرات الداخلية والإعلام فوراً عن أي تحرك خارجي قريب بإشارات خاصة لكل السنجق. وقد حضّرت كذلك حفر متقاربة وعلى

امتداد عدة فراسخ على طول الشوارات والشقوق. الماء مفقود في هذا السنجق، ما عدا نبع واحد تحت صخرة خزفية في الجهة الجنوبية منه، أما على امتداد الجهة الشرقية، وفي مكان غير بعيد عن السياج البازلتي، فتجري خلال شهور الشتاء سيول في وادي لوف حيث تمتلىء الآبار المنحوتة في الحجر نفسه والمستورة بالصخور.

لا يوجد في هذا السنجق سكان ولا حتى حيوانات في مغاوره، فهل تستطيع السلحفاة أن تزحف على البازلت الحامي؟ وهل يستطيع النسر أن يبني عشه على نتوء منيع ويحمل الطعام من بعيد لصغاره؟! إن اللجا البازلتية سنجق ميت كالبحر الميت مع سائله الاسفلتي الثقيل، كلاهما يرفضان أية حياة، ومولودان حتما في زمن واحد، لهما نفس عمر التكوين ونفس الأيدي الخالقة. أحياناً يدخل اللجا بعض قبائل البدو الرحل يرعون مواشيهم في هذا المرعى المقفر الذي تغطي الامطار فيه اقدام الصخور والوديان والشقوق الداخلية، واحيانا كان دروز حوران المجاورين يختبئون من انتقام العدو أو من ملاحقة الحكومة بسبب العصيان أو الشغب أو عدم دفع الاتاوات. هؤلاء وحدهم وبعدد من علامات الصخور قادرون على سلوك طرقات هذه المتاهة.

الى هنا توافد الدروز بعد قتلهم خيالة المصريين في حوران، الشيخ حنتش أول من رفع لواء العصيان، انضم اليه بعد ذلك شيخان آخران منزعجان من الادارة المصرية، بدو يحيى حمدان والشيخ الفتى شبلي العريان من قبائل دروز وادي التيم.

في البداية، أرسل شريف باشا حاكم دمشق المدني، فوجين من المشاة لاخماد العصيان، وعندما لم تلق قواته عدوا على مداخل اللجا توغلت في شعابه، ولم يكن ممكنا هنا اتخاذ أية تدابير احترازية في سير الصفوف، إذ كان الدروز يلاحقونهم على ارتفاع ثلاثين ساجيناً وعلى امتداد عدّة فراسخ، دون ان يخالج المصريين أي شك بوجود مثل هذه الملاحقة، وأحياناً كان يبرز درزي وحيد من على حافة شوار أو قمة مستطلعاً عمق الوادي ثم يختفي بسرعة. وبعد أن تمكن الدروز بهذه الطريقة من استدراج خصومهم الى داخل الشعاب الملتوية، بدأوا بدحرجة الصخور على زوارهم غير الحذرين، والبعض الآخر فتح النار من داخل حُفَرة.

من أصل أربعة آلاف جندي مصري، دخلوا اللجا لم ينج ما يزيد عن الـ ٤٠ شخصاً انبأوا دمشق بما حصل. فقاد ابراهيم باشا نفسه حملة من عشرين الف مقاتل، وتوجه الى الحرب الأكثر عناداً وقساوة والأكثر هدراً للدماء من كل الحروب التي عرفتها المنطقة، بلغ عدد الدروز في اللجا ٢٥٠٠ رجل جاؤوا من حوران ووادي التيم. القبائل المجاورة في حالة تحفز، يوقف انتفاضتها، ويبقيها على خضوعها وإن شكلياً للمصريين، الـ ٣٥

ألف جندي مصري المتواجدين في سوريا. دخل ابراهيم باشا مرتين الى الوادي بشكل مفاجىء، وباتجاهات مختلفة مع صفوف قوية من الجند، قضي على أحد صفوفه تماماً، حتى أن بعض الجنود المغمى عليهم بتأثير الجراح، تركوا يموتون على الصخور، ومن هذا المشهد علم ابراهيم باشا كيف عذب الدروز أسراهم وكيف مزقوا إرباً إرباً واحداً من جنرالات الجيش المصري، إسماعيل باشا، الذي قبض عليه حياً أثناء دفاعه مع صفه عن انفسهم.

طالت الحرب، وبأمر من محمد علي توجه مصطفى باشا حاكم كريت الى سوريا، مع فوجين من المشاة وثلاثة آلاف الباني لنجدة ابراهيم. وحدهم الالبان المعتادون على تعقب الانصار في روميليا، كانوا قادرين على التصارع مع الدروز، دون أن يتمكنوا من هزيمتهم داخل لجاهم. قرر ابراهيم باشا محاصرة المنطقة من كل النواحي، وإماتة الدروز عطشاً، لكن هذه الخطة لم تنجح، لأن صفوف الدروز الخفيفة، المتخفية بثياب القتلى المصريين، كانوا يمشون صفاً واحداً ويستولون على حاجيات الجيش المصري، متجاوزين كل حذر حراسة، لجأ ابراهيم باشا الى طريقة ثانية: في إحدى غاراته داخل المنطقة الخطرة أغرق ينبوع اللجا الوحيد بالحجارة وتفجيرات البارود، ثم تقدم تحت غطاء مدفعي قوي نحو ضفاف المستنقعات ورمى فيها من جثث البشر والدواب. كان هذا في صيف ١٨٣٨. تعفنت مياه المستنقعات المتجمعة أيام الشتاء، إلا أن الدروز تابعوا اطلاق الرصاص من الضفة الاخرى راوين عطشهم من هذه المياه دون أن يلتفتوا لطعمها. ثم أن فرصة سنحت لابراهيم فألقى في المياه عدة جرار من السم القاتل.

ريع الدروز لرؤيتهم موت عطاشاهم المفاجىء بعد أن شربوا من الآبار، فأجبروا على الخروج من اللجا. شبلي العريان الشجاع مع ألف من الدروز انطلق الى موطنه في وادي التيم وتابع حرب العصابات عند سفوح جبل الشيخ، فهزم وأجبر على العودة من جديد إلى اللجا. مآثر هذا الشيخ الفتى على امتداد الحرب، فروسيته، شجاعته وسرعة حركته جعلت منه بعبعاً للمصريين، الذين راحوا ينسبون اليه ضروب قتال تفوق الوصف. ابراهيم باشا تولته الدهشة، ولتبديد الاوهام والاشاعات التي كانت تسري في جيشه الخائف، وليكسب ثقة الشيخ من جديد، اعلن في بيان موجه الى الجيش، منع أية محاولة للاعتداء على حياة العدو الشجاع وخصصت مكافأة عظيمة لمن يحضره حياً.

بهذه الطريقة وصل ابراهيم الى مبتغاه، وقف تمرد الدروز، فقد ظهر الشيخ الفتى المدلل ذات مرة فجأة في معسكر المصريين، دون أن يعرفه أو يلاحظه أحد. وبدون مقدمات أو شروط تقدم من ابراهيم طالباً المكافأة الموعودة، أكرمه ابراهيم وضمه الى

خدمته، بالطبع ليس الى خدمة الصف التي يخشاها الدروز، آمراً لخيالة الباشا غير النظامية.

انتهت بهذا إراقة الدماء، وخضع الدروز، إلا أن ابراهيم، وقد علمته هذه التجربة كم هي خطرة التدابير القاسية ضد الجبليين، رضي بعدد قليل من المجندين، كرمز لولاء هذه القبيلة مجدداً للادارة المصرية، التي دفعت باهظاً ثمناً لذلك: ثمانية أشهر من الحرب في حوران، مقتل ١٥ ألف جندي نظامي، باشا واحد وأربعة جنرالات[٢]، ١٥ قائد صف وفوج.

على العكس من الجبليين، لم يكن باستطاعة سكان المدن الدفاع عن أنفسهم أو الاختباء من التجنيد الإجباري. لكن المعتقد الديني عن عدم جواز المساس بالحرم، شكل ملجأ أميناً بين الزوجات لمن كان مهدداً بسوقه مجنداً. وأحيانا أخرى كان يعيد للعائلات اليتيمة أحد الابناء اذا ما كان له من الاخوة المجندين اثنين أو ثلاثة. وعدا ذلك لم يكن يقبل أي رجاء أو أي فدية مالية.

إن هذه السياسة لم تولد لدى الشعب، سوى الخوف والكره لكل الاصلاحات المفيدة للمنطقة من نواح عدة، إلا أنها لم تكن فوائد مجانية، فهي مفتداة بالدم. سوريا ذلك الشريط من الارض الممتد بين الصحراء والبحر، الذي تتقاطع فيه السلاسل الجبلية من كل الاتجاهات، كانت تقدم امكانيات واسعة للهرب، خاصة لسكانها الاصليين الخبيرين بكل الممرات السرية والمسالك الضيقة. لم يهرب المجندون فقط، وإنما كان آلاف من السكان قد غادروا سلفاً باتجاه أراضي البدو وديار بكر والاناضول وجزيرة قبرص هرباً من الخدمة العسكرية. وقد ساعدت الحكومة في هذا الاتجاه، يوم أقدمت، في محاولة منها لتجبر السكان على مراقبة بعضهم البعض، على تطبيق نظام المسؤولية المشتركة التي تُلقى على كاهل المجموع وخاصة من ناحية الضرائب عن أي تقصير يرتكبه الفرد. وعلى هذا جمعت السلطات المصرية الاتاوات والضرائب المتأخرة المتوجبة على الهاربين من الرعايا التابعين لها، وكذلك قامت بتوزيع حصة القرى المقفرة التي هجرها سكانها، على بقية مناطق السنجق بأكمله. إن هرب الكثير من القبائل السورية يدل على كره الشعب للادارة المصرية، خاصة إذا ما عرفنا أن القبيلة العربية المستقرة هي أكثر ارتباطاً بأرض المولد من القبيلة التركية، ففي الوقت الذي ينزل فيه ساكن روميليا من جباله قلقاً يفتش عن

---

(٢) في الخدمة المصرية يمنح لقب باشا لكل جنرال - ليوتنانت. في التركية يمنح لكل الجنرالات دون تمييز.

الثروة عن طريق السلاح أو الصناعة في كل أنحاء العالم المعروف لديه، فانه من النادر أن نجد سوريا خارج نطاق جباله. حتى في عاصمة الامبراطورية حيث تصب سنويا، وبالتقليد القديم. أعداد كبيرة من الناس، فإننا لا نجد سوريين، باستثناء بعض التجار الحلبيين.

لقد هرب من جور الادارة المصرية أكثر من ١٠٠ ألف سوري، وهذا النقص أثر بما لا يقاس على الزراعة والصناعة أكثر من تأثير التجنيد نفسه، خلال خمس سنوات (١٨٣٣ - ١٨٣٨) لم يستطع ابراهيم باشا بالرغم من قساوته أن يجمع من سوريا أكثر من ٣٥ ألف مجند مدني، وهذه الخدمة كانت تطال فقط السكان المحمديين الذين يربو عددهم على ٩٠٠ الف من الجنسين، وهذا يعني أن نسبة المجندين كانت تبلغ ٧/٩٠٠ . ومهما يكن من أمر هذه النسبة وأثرها في السكان، خاصة وأن أكثر الذين تطالهم كانوا هاربين مقدماً، فإن المفجع في المسألة هو القلق الدائم الذي كان يقض مضاجع السكان لجهلهم اليوم الذي يساقون فيه الى الجندية، ولتكرر إساءات واعتداءات الجيش المصري، ولغياب أية قاعدة يتم التجنيد بموجبها. لقد كانت السلطات المحلية العسكرية أوالمدنية تتلقى أوامر بارسال عدد محدد من المجندين، وتترك لها حرية اختيار المناسب والوسيلة لاصطياد العدد المحدد من الناس، في الأسواق أو أثناء العمل في الحقل، أو أيام الجمعة حيث كانت المفارز المصرية تحاصر المساجد، التي كان الشعب غالباً ما يجتمع فيها لتأدية الصلاة، وبعد أن تطلق العجزة والقاصرين كانت تأخذ الصالحين للخدمة. لقد ساير ابرهيم باشا مجتمع الحريم ولم يساير المساجد.

كل تحرك من تحركات العسكر كان يعني للناس تهديداً جديداً بالتجنيد، فتقفر القرى وتقفل الاسواق، والكل يبيت في انتظار مقلق. كان المحمديون يحسدون المسيحيين واليهود، الذين اصبح استبعادهم عن الخدمة تحت رايات المؤمنين امتيازاً عالياً بعدما كان إهانة. واكثر مَنْ ديست مشاعرهم الدينية كانوا مسلمي سكان المدن، لدرجة أن أفراداً من ذوي الشأن منهم اضطروا للعمل خدماً وسائسين لدى القناصل الأوروبيين، وحتى عند وكلاء مترجمين من مواطن السلطان من اهل الذمة المحتقرين. كل ذلك اجتناباً للخدمة العسكرية، لأن قوانين التجنيد كانت تصون حرية العاملين في خدمة القنصليات وتعفيهم من الخدمة.

من هذه الزاوية كانت قسوة ابراهيم باشا التي لا تعرف الرحمة منقذة للمسيحيين، إضافة الى أنها ادت الى لجم التعصب الديني الموروث عند المسلمين، وهو الذي يتغذى بالفوضى القديمة المستمرة في سوريا، جيلاً بعد جيل منذ الخلافات الدامية مع صليبيي الغرب على الارض المقدسة. فهم ابراهيم مسبقاً، بأن استبدال التعصب الديني عند القبائل

السورية بشعور الانتماء القومي يؤدي، كما لدى كل القبائل الآسيوية، الى تغذية الميول الفوضوية. كنا قد تحدثنا عن الخطاب الذي وجهه ابراهيم في عكا الى كل سلطات فلسطين لمصلحة الحجاج والمقدسات المسيحية. والذي يمثل برنامج ابراهيم باشا السياسي حيال القبائل المسيحية السورية. وهو لم يكن قائماً على العدل وحسب بل على حسابات المنفعة العامة والحسابات الاقتصادية ايضاً، فالامتيازات التي اعطيت للمسيحيين أيام السيطرة المصرية، أدت الى انتعاش الاقتصاد بمرافقه الثلاثة، الزراعة والتجارة والصناعة. كان المسيحيون قبل الوجود المصري في منطقة سوريا كاللعبة تحت رحمة التعصب الديني والمنفعة الخاصة للباشاوات الذين كانوا يصبون جام غضبهم عليهم عند بروز أي تململ لدى القبائل المحمدية، فعن طريق احتقار المسيحيين أو ملاحقتهم كان الباشاوات يحاولون إرضاء المسلمين والحصول على ثقتهم وحبهم، كذلك كان هؤلاء يعبرون عن حميتهم وغيرتهم على الاسلام بكره المذاهب الأخرى، وهذا ما كان يتبدى دائماً بفرض الغرامات المالية التي تشكل حاجة ملحاحة لدى الباشوات.

عرفت فترة الحكم المصري في سوريا أمراً لم يحصل سابقاً في الامبراطورية العثمانية، لقد أعطيت الفرصة للمسيحيين في أي مكان من سوريا لتجديد هياكلهم واديرتهم وحتى بناء الجديد منها، دون شراء شهادة الامام المسلم بضرورة مثل هذا العمل، ودون الحصول على سماح السلطات المحلية، ولا حتى على تعاطف الوجوه المتحكمة بعقول عامة الشعب المؤمن. في المقدسات المسيحية في فلسطين، التابعة بمجموعها لمذهبين أو ثلاثة كان حق البناء أو الترميم يخضع لتحديدات قانونية من قبل المحكمة الدينية الاسلامية لتأمين الحقوق التي يتمتع بها كل مذهب من المذاهب المسيحية. وفي حالة وجود دعاوى بين المسيحين أنفسهن والناتجة عن تداخل دور العبادة أو عن تناقض الحقوق غير المحددة أساساً، كانت هذه الدعاوى والمخاصمات تجد حلّها القانوني في المحكمة. وكان كل مذهب من المذاهب يتابع بعد ذلك استعمال الحق الممنوح له دون أن يشتري السماح أو الاذن من الباشاوات لتنفيذ الحكم الديني للمحكمة الاسلامية كما كان يحصل في السابق.

كان هضم حقوق المسيحيين، المدعم بالقوانين الاساسية للامبراطورية العثمانية، يصل الى حد إسقاط شهادة المسيحي ضد المحمدي بأي حال من الاحوال حتى ولو كانت شهادة الاسقف أو الجاثليق ضد أسوأ متشرد مسلم[٣]. لقد وضع القضاة المستشارون

---

(٣) كان هذا أمر الخليفة عمر الثاني. مثل هذا القانون العجيب يستمر حتى الآن بكل قوته، رغم كل تنظيمات محمود وتأكيدات الحكومة التركية الحالية بأن كل المواطنين من كل الاديان يتمتعون حسب زعمها بحقوق متساوية.

المتمتعون بسلطة كبيرة في الشرع المحمدي واستناداً الى تبريرات مأخوذة من القرآن، عدداً من الشتائم والاهانات التي تطال المسيحي في حياته الشخصية، كأن يمنع من ركوب الخيل ومن لبس الثياب الفاقعة اللون وغير ذلك من المضايقات، ملاحظة . . إضافة إلى ما كان يبتكره مزاج الرعاع المؤمن من إهانات. تتحول مع الوقت الى عرف يحمل قوة القانون. في طرابلس مثلاً لم يكن يسمح للمسيحيين بحمل موتاهم على الأكف، بل كان يفرض عليهم نقل الميت على حمار، وأن يتحملوا بصبر طوال الطريق، إلى المقبرة كل شتائم الرعاع المسلم.

لم يكن من حق ابراهيم باشا أو بمقدوره، النيل من القانون الروحي للامبراطورية، لكنه خفف على الأقل من الاهانات الكيفية التي كانت تلحق بالمسيحيين. أمر السلطات المحلية بأن تتفادى في المحاكم قدر المستطاع، مناقشة أمور النزاعات بين المحمديين والمسيحيين، وأمرت بتطبيق العدل بين المتخاصمين بغض النظر عن اختلاف المذاهب. وبالطبع أزيلت موانع المسيحي من ركوب الخيل أو لبس الثياب الفاقعة الالوان، غير المكربة للشعب مثل قانون الشهادة. إن واقع المسيحيين السابق يشهد على حيفٍ دائم ورفض لشعب بكامله، وتغذيه لغطرسة معتادة لدى المسلمين. أمر ابراهيم باشا المسيحيين باعتمار العمامة البيضاء والثوب الذي يريدون وركوب الخيل والتجول في دمشق نفسها، وهي المدينة الاسلامية المقدسة، حيث تلتقي سنويا جموع المسلمين الذاهبين الى مكة، وهذا ما أثار التعصب الديني عند الرعاع المؤمن، وجموع الدراويش العراة والاشراف أحفاد النبي صلعم الممزقي الثياب. لقد رأى خليط تلك الجموع العجيبة العديدة في أسواق دمشق، في خطوات ابراهيم باشا وأوامره، مساً بحقوق الشام الشريف، باب الكعبة وبستان الجنة[٤] الا ان جموع الرعاع هذه ما لبثت ان هدأت بعد أن أمر ابراهيم باشا بمائة جلدة فلقاً لأحد الدراويش الذي رمى في ثورة غضبه، الاوساخ واللعنات على رأس مسيحي يعتمر عمامة بيضاء. علماء دمشق ورجال الشرع فيها والذين استاؤوا من عمامة المسيحي أكثر من العامة أنفسهم، تجرأوا على التقدم من ابراهيم باشا وسؤاله عن كيفية التمييز بين المؤمن وبين الكافر الغيور من أهل الذمة، وهذا ضروري كي لا يرتكب إنسان مسلم ذنب القاء التحية المقدسة «السلام عليكم» على واحد من اولئك الكفار. الباشا

---

(٤) الشام الشريف، باب الكعبة، بستان الجنة، كلها أسماء ملازمة لهذه المدينة التي تحمل في التاريخ وفي الادب الشرقيين الاسم العريق دمشق المحفوظ في الكتابة المقدسة. في اللغة المحكية، يسمي العرب والاتراك دمشق بالشام او الشام الشريفة، بينما تحمل بقية سوريا اسم بر الشام.

المصري الذي لم يكن يهتم بهذه المسائل الفقهية الدقيقة، كان اكثر جذرية في فهمه لتاريخ الاسلام من العلماء أنفسهم، فقد أجابهم بجزم بأن الخلفاء حماة الدين ودعاته، كانوا يعتمرون عمامة سوداء بسيطة، لا عمائم عجيبة مزركشة كتلك التي يتزين بها مناقشو الشريعة الآن. وبأن المسلم يجب أن يميز فقط من دخوله المسجد والمسيحي من دخوله الكنيسة، أما خارج هذين المكانين فليس هناك برأيه أي فرق بينهما.

بعد هذا الموقف كانت كل الفئات من علماء وعامة مجبرة على الاستجابة لارادة الباشا الفولاذية. وقد أدى عطفه على المسيحيين الى استياء المسلمين عامة من خطواته الاخرى كالتجنيد الاجباري والضرائب. ومن ناحية اخرى، رأى المسلمون بعين النقمة، كيف أن وظائف السلطة المصرية وتشريفاتها كانت حكراً على المسيحيين. والحقيقة أن عهود الجزار وعبدالله باشا وغيرهما من الباشاوات السابقين عرفت صرافين مسيحيين تمتعوا بصلاحيات واسعة لادارة اعمال الباشاوات، الا ان نفوذ هؤلاء لم يتعد نفوذ العبد المتعفر بالغبار أمام سيده، والمحكوم عليه لتحمل أقسى الاهانات من أقل خدمة رتبة، وبالعمل فقط من وراء الستار.

أما في ظل شريف باشا، حاكم دمشق المدني باسم ابراهيم باشا، فإن الشخص الاول الذي يليه رتبة، كان مسيحياً بلقب بك، وكان يدير باستقلال كلي عن الباشا الجانب الاقتصادي في كل بشليك سوريا، وهذا ما أدى بالتالي لأن تصبح كل الترتيبات الاقتصادية الجديدة، تغيير نظام الضرائب والوضوح الحازم فيها وجباية مداخيل الخزينة، ممقوتة لأن الادارة التي رسمتها كانت مسيحيةً محتقرة من أصل سوري.

أثار التسامح الديني، الميزة الفضلى غير المغرضة للادارة المصرية في سوريا، حساسية الجماهير المسلمة. لكن ما يجب الاشارة اليه هنا، أن هذا الاتجاه الديني الامثل عند ابراهيم باشا كان مجروحاً من قبله بكفر علني ماجن. فابراهيم نفسه، وقد سار على خطاه من بعده شريف باشا وكل الوجهاء المصريين، كانوا يضمرون احتقاراً شديداً لكل القبيلة العربية. صحيح أنهم داسوا بعض اباطيلها الدينية التي تحدثنا عنها، إلا أنهم وفي نفس الوقت، داسوا مبادىء القرآن الاساسية، فهذا هو ابراهيم باشا يكرع الشمبانيا علناً في دمشق وفي غيرها من المدن السورية. هنا كما في القسطنطينية كان محكوماً كما يبدو، أن تغسل كل هذه البدايات السياسية المصرية الجديدة برغوة الشمبانيا المنعشة. جمع ابراهيم باشا في شخصه، حتى الشغف، عيوباً اخرى للباشاوات الاتراك، لم يكن يخفي حفلاته التهتكية عن عيون الشعب، ونادراً ما كان يؤم المسجد في أوقات الصلاة، ولم يكن يتطهر أو يتوضأ، ولم يصم شهر رمضان، وكان المحيطون به يفتخرون، بصبيانية، بحريتهم

الفكرية. في جيشه لم يكن هناك، أئمة دين، وبدون أن يحسب أية عاقبة أدخل التنظيم العسكري الفرنسي، مسقطاً من اعتباره اختلاف العناصر والعواطف القومية بين القبائل الفرنسية والقبائل العربية. وبدلاً من أن يكتفي بترويض حكيم للتعصب الديني راح الباشا المصري وبدون أيما سبب، يطعن الشعور الديني لدى العامة انفسهم، فقد سمح لكثير من الرحالة الاوروبيين في القدس بزيارة مسجد عمر الذي يعتبر في الاسلام، الحرم الثاني الشريف بعد الكعبة، ولا يوجد في الاسلام ما يثير هوس التعصب الديني لدى الجماهير المؤمنة أكثر من هذا التصرف. خدم المسجد الطاعنون في السن كانوا يجشهون بالبكاء لهذا التدنيس الذي لم يسمع بسابقة مثله في العالم الاسلامي. وقد أجبرت السلطات المحلية في القدس، في كل مرة كان يزور الاجانب فيها المسجد، على إحاطة موظفيها وزوارها بالعسكر، اتقاء لغضب مشاهدي هذا الفعل من المسلمين.

إذا كان محمد علي وابنه ابراهيم يقصدون بهذه التدابير تحجيم التعصب الديني لدى مسلمي سوريا، وإذا كانوا يأملون تقوية سيطرتهم عن طريق اضعاف الشعور الديني لدى الشعب المؤمن، لأن هذا الشعور هو القاعدة السياسية الاساسية لنفوذ السلطان، فإنهما أخطآ كثيرا في حساباتهما تلك، وحصدا نتيجة معاكسة تماماً لما أراداه، فقد جلبا عليهما لعنة الشعب الدينية وأججا نار تيار الرد على إهانات الشعور الديني، وزادا من شعور الولاء للسلطان. كانت عواطف الشعب تظهر في البداية على شكل كآبة وتذمر، ومع الوقت تزايدت العواطف الدينية واتقد كره الشعب، وراح ينتظر لحظة الانفجار العام، فمن الصعب حصول مثل هذا الانفجار بسرعة في ظل الجيش المصري الكبير الذي كان يحتل سوريا دائماً، وفي ظل حملات التأديب المخيفة التي تعرضت لها نابلس واليهودية وجبال حوران، وفي ظل النشاط الساهر للسلطات العسكرية والمدنية. وهكذا فإن ابراهيم باشا الذي كان مسبوقاً بحملته الى سوريا، بمجده المنتصر على الوهابيين الخارجين عن الدين، وحامٍ للمقدسات الاسلامية من حيفهم كانفصاليين، والذي كان اسمه يغمر بدعاء الاتقياء المؤمنين على الطريق التي جعلها مأمونة من دمشق الى مكة، ان ابراهيم هذا توصل خلال اعوام قليلة من وجوده في سوريا أن يشتهر لدى الشعب، غيوراً مهرطقاً عاصٍ لرأس الاسلام الروحي، السلطان السيد الشرعي. لقد خدم الشعور الديني المجروح المهان كترجيع للشهوات السياسية المنشأة على الفوضى القديمة، وتحت وطأة شعورها بالاهانة لم تستطع القبائل السورية أن تسلّي نفسها بالطوباويات المتحدثة عن الكينونة العربية، التي كان يندهش أمامها حالمو الغرب. وبناء على كل ما سبق لم تشهد المنطقة صراعاً بمثل حدة الصراع بين قبائلها وباشاواتها المصريين. أما قبائل سوريا وبعد أن استنزفت في

صراعها الآنف توجهت بانظارها نحو سيدها الشرعي، السلطان. فقد اقتنعت في آخر الأمر بأنها محكومة بالوصاية التركية بدون قيد أو شرط، فلم يعد أمامها والحال هذه الا أن تكتفي بالتمني في أن تكون تلك الوصاية أكثر تواضعاً ورقة.

بهذا فقط نفسر الظاهرة المثيرة للفضول والتي أشرنا اليها سابقاً، الا وهي ظاهرة التناقض في الآراء الشعبية شمال وجنوب سلسلة جبال طوروس، والتي تتبدى في تعاطف قبائل آسيا الصغرى تجاه محمد علي، يقابله تعاطف قبائل سوريا خلال الحكم المصري تجاه السلطان. وهذا ايضاً يساعد في فهم ظاهرة أخرى أكثر اثارة للدهشة، وهي التداعي السريع للسلطة المصرية في سوريا سنة ١٨٤٠، رغم وجود جيش ابراهيم المؤلف من ٧٠ ألف رجل، بعد الانتصار عند نزيب وخلال الازمة الداخلية في الامبراطورية العثمانية والتي أعطت الأمل للباشا المصري بانتصارات جديدة.

في الفترة الاولى من سنوات حكمه في سوريا كان باستطاعة محمد علي أن يتأكد من أن القوة وحدها تستطيع تثبيت سلطته وتدعيمها، ولكنه بدلاً من كسب التعاطف الشعبي، الضمانة الاساسية لقوة أي فاتح، أثار في وجهه كره القبائل الخاضعة له، وفي هذه الحال أصبحت كل محاولة لتطوير نظامه الحربي مرادفاً لمضايقات جديدة، فلم يبق أمامه الا ممارسة التخويف الوسيلة المعتادة عند حكام الشرق، وأن يبهر الخيال الشعبي لأن القلوب كانت ممتنعة على الدلال. أخضعت سوريا من قبل ابراهيم باشا بواسطة ٢٠ ألف جندي، وبدون أدنى شك كان بإمكانه مع ١٠ آلاف من الجند، الانطلاق مباشرة من مصر حتى شعاب طوروس، قبل ان يستطيع الباب العالي التدخل، ولكن مقاومة عبدالله باشا عند اسوار عكا، وأخطاء المحاصرين، وضرورة تهديم الاساطير الفاتنة التي نسجها حاكم عكا حوله وبها سيطر على العقول في سوريا، كلها عوامل جعلت الاستيلاء على اقليم سوريا يطول ويتطلب مثل تلك القوة العظيمة. بعد الانتصارات المصرية السهلة فقد الباب العالي أية امكانية للدفاع، فتنازل بموجب فرمان سلطاني عن المنطقة التي اعتبرها الشعب محصلة بحق السيف، ولكن محمد علي بدلاً من أن يدعو جيوشه من سوريا، وبدلاً من أن يعطي ابنه الفرصة للراحة تحت اكاليل الغار رأى نفسه مضطراً لتدعيم قواته وإبقائه في سوريا حارساً ساهراً على الاقليم الخاضع. ظل ابراهيم طوال ثماني سنوات يدفع ثمن الانتصارات السهلة لحملته الاولى، عملاً دموياً ونشاطاً محموماً. أما محمد علي، فبدل الارباح التي كان يطمع بها بتوسيعه لاملاكه فإنه فقد سنويا قسماً كبيراً من مداخيله.

عدا انشغال الجيش المصري باخماد الاضطرابات وجمع المجندين، كان محمد علي مجبراً على تحصين وادي طوروس تحسباً لهجوم من قبل الاتراك، وقد اخفيت خلف اسوار في

الوديان ٢٥٠ مدفعاً من العيار الثقيل، وبذلك اكملت هذه المنشآت الاعمال الرائعة التي بدأتها الطبيعة نفسها بتحصين أودية كولك بوغاز وكياَاور داغا. كل هذه الاعمال انجزت بمتانة وسرعة تحت إدارة مهندسين أوروبيين، بدون رحمة بالنفقات التي بلغت الملايين من القروش. من ناحية ثانية، كانت عكا لموقعها وأوهام الشعب عنها، قد لعبت دور الكفيل بخضوع القبائل السورية، أوربا نفسها كانت تعتبر هذه القلعة مفتاحاً لسوريا من ناحية البحر، وهذا الرأي يعتمد كما يبدو على اباطيل تاريخية ووهم جماعي اكثر من اعتماده على دراسة طوبوغرافية للمنطقة.

كانت عكا بلا شك مؤاتية للتحصين لاسباب عديدة، تقع المدينة على مرتفع عند الشاطىء، ويحيط بها سهل منبسط، بينما مدن الشاطىء السوري الأخرى كانت محشورة بالمرتفعات القريبة وهذا ما كان يشكل عائقاً أمام عمليات التحصين. إنما مقابل هذه المميزات نرى أن عكا، ولموقعها بين البحر والخليج على حافة الرأس، كانت قابلة لأي هجوم من جهتي البحر. وعمق البحر عند اسوارها يسمح لسفن المئة مدفع أن تقترب منها بحرية وعلى مسافة طلقة رصاصة. إن هذه القضية، هي وحدها التي تتحكم بالقلعة، فالاسطول الذي يحمل عددا لا يحصى من بطاريات المدفعية، قادر بلا شك على الحاق الهزيمة بنقطة محددة، عدد بطاريات مدفعيتها يبقى محدوداً مهما بلغت من القوة. إضافة الى ذلك، وعلى افتراض صمود عكا، فإن الشاطى السوري وعلى طول امتداده سهل المنال من البحر، ففي سوريا، كثيرة هي النقاط الملائمة لعمليات الانزال العسكرية والاتصال بالسناجق الداخلية: صور وصيدا تفتحان الطريق الى قلب سوريا، الى دمشق نفسها، مدينة بيروت وخليج جونيه وجبيل القلعة البحرية الرومانية البناء ومدينة طرابلس كلها تعطي منافذ الى لبنان، أما شمالاً فاللاذقية، الاسكندرونة والسويدية فإنها تفتح المنفذ الى حلب، بعد كل هذه المواصفات يحق لنا، كما يبدو، أن نسمي أهمية عكا خرافة. والملاحظة هنا ضرورية، لأن خرافة عكا تسود من القرون الوسطى حتى أيامنا هذه، فقد أهدر الصليبيون أنبل دمائهم عند أسوارها، وبعد سقوط القدس لبثوا في عكا قرناً كاملاً، شهوداً على تساقط ممالكهم الاساسية واحدة بعد الاخرى. وفي وقتنا اشتهرت عكا بمنجزات ظاهر العمر، وفشل الفرنسيون عند أسوارها، ثم راحت تنتقل من يد باشا الى يد آخر وكأن حيازتها ضمانة خضوع القبائل السورية.

إن ابراهيم باشا، الذي كان يقدر جيداً ماذا يعني حصار السبعة أشهر، حول الخرافة الشعبية الى واقع ملموس، بعد أن جعل من هذه القلعة أهم موقع من مواقع الحكم المصري في سوريا. لم تعرف أعمال تحصينها زمن المصريين أي توقف أو استراحة. انفق

حوالي ٥٠ مليون قرش (ما يقارب ٣ ملايين روبل فضي) على تجهيز الاسوار والحصون وبناء الثكنات الداخلية ومخازن البارود وغير ذلك... بالاضافة الى تسليحها بـ ٢٣٠ مدفعاً. خلاصة القول، إن أعمال ابراهيم باشا هذه كانت تعاني عيباً أساسياً يتمثل بكونها جاءت تكملة مباشرة لاعمال ظاهر والجزار وعبد الله باشا السابق، ولم تكن ضمن برنامج أو مخطط عسكري عام. كان يوجد في القلعة مخزن احتياطي كبير للمدفعية الميدانية ولكل متطلبات الجيش المصري من مؤونة وذخيرة، ولكن حوادث ١٨٤٠ جاءت لتبرهن كم هي خاطئة مراهنات ابراهيم باشا ووالده على أهمية هذه المدينة، ولترينا كذلك كيف ذهبت هباءً كل تكاليف تدعيم عكا ووادي طوروس.

الفصل التاسع

تحجيم الحقوق الاقطاعية في سوريا ـ ملاحقة الاقطاعيين ـ قوة العناصر المحلية نفوذ الامير بشير ونظامه الاداري ـ بداية الامتيازات اللبنانية ـ العلاقات المتبادلة بين الامير والباشاوات.

* *

إذا كانت التجديدات (البدع) المصرية قد أثارت غضب العامة من السكان، فإن الموضوع الذي أثار شديد الكره لدى الاقطاعيين، كان اتجاه السلطات المصرية نحو تحجيم امتيازاتهم وقمع مساوئهم. هذه الخطوة تشكل في سوريا أهمّ وأعظم إصلاح للتركيبة الداخلية التي تجذرت تحت حكم الباشاوات السابقين، والتي بانفلاتها من القيود بالأصل، لم تعد تتماشى الآن مع التركيبة الحكومية الجديدة للاقليم، ومع وحدته الادارية. إن خطوات ابراهيم باشا المتمثلة بتحديد الأتاوة، والجباية لمصلحة الخزينة، ووجود الجيش المستعد دائماً لمساندة السلطة المدنية وتأمين ولاء الشعب، هذه الخطوات أعفت الحكومة من التعامل المميت مع الاقطاعيين، هذه الطبقة من الناس التي كان نفوذها الموروث سلاحاً في يد السالفين من الباشاوات الاتراك. كان المشايخ والامراء، وهم يرثون إدارة السناجق، يحتفظون بمجموعات في خيالة في خدمتهم، يوظفونها في إخضاع الشعب نزولاً عند إرادة الباشاوات، أو يوظفونها في مقاومة الباشاوات في حالة التمرد وإعلان العصيان. وهنا شعر الباشاوات أنفسهم بحتمية تطوير علاقاتهم مع الباب العالي، وقد انعكس الخطر الاساسي لذلك على الطبائع السياسية للاقليم.

كانت سياسة الباشا التركي في باشويته، صورة عن سياسة الباب العالي في امبراطوريته، اذ كان الباشا يسقط على وكلائه في السناجق مطالب الباب العالي منه: المواضبة على دفع الأتاوة، وتأمين ولاء الاقليم دون الدخول في مناقشة الاساليب التي تجمع بواسطتها هذه الأتاوة أو يتأمن من خلالها خضوع الاقليم وولاءه. كذلك كان الباب العالي يقتص من الباشا الحرون بواسطة باشا مجاور آخر، أو بتعيين خلف له وتكليفه بالهجوم عليه واحتلال البشليك. بدوره، كان الباشا يؤدب متسلميه المتمردين أحدهم بواسطة

الآخر، والاغلب كما رأينا في مثال الامور في لبنان ووادي التيم، كان الباشا يختار من نفس العائلة طامعاً آخر، ويسانده بنفوذه وجيشه حتى ينجح بازاحة الأمير الحاكم وقتله، ما همّ أكان أخاً أو ابن أخ أو ابن عم. طرق تعامل الباب العالي مع رجالاته، القتل غيلة، الخنجر، السم، الملاطفة والخيانة... نفسها كانت قواعد تعامل الباشاوات ووكلائهم.

كان النظام الاساسي لادارة المقاطعات، يظهر اكثر لا أخلاقية وغرابة كلما تتبعنا خط سيرورته: خلق العداوات العائلية، قتال الاخوة، المؤامرات، تشكيل طبقة وصولية من الناس المستعدين والقادرين على اكثر الاعتداءات وقاحة، ومنها تولدت فئه الباشاوات الذين قدر لهم أن يحكموا الأمبراطورية المرامية. هذه الامورالسالفة أصبحت اكثر حدة ووضوحاً مع ازدياد سلطة الحكام المحليين، بانحطاط عزيمة سلاطين اسطمبول المحاطين دوماً بالدسائس.

نظرة ثانية على الوضع في سوريا عشية دخول المصريين: كانت فلسطين الساحلية محررة لتوها من محمد بك ابي نبوتّ، الذي كان يطمح بعد أن جعل يافا عشاً له أن يلعب نفس دور الجزار السابق في الساحل الفلسطيني. عائلة مشايخ ابو غوش كانت تحتل اودية اليهودية. مشايخ عمرو تحتل الوديان الجنوبية للجبال الفلسطينية وقلعة خليل الرحمن (حيروت القديم). مشايخ سمحان، على رأس ائتلاف عدد من القبائل الصغيرة، يحتلون الذيول الشمالية لجبال اليهودية. نابلس والسامرة كانت في عصيان مفتوح في حال تناسي مشايخ العائلات جرار وطوقان وعبد الهادي خلافاتهم الداخلية، أو وضعهم جانباً حسابات الثأر العائلية. في منخفض الخليل كان يسرح بدو ما وراء الاردن طاردين أمامهم الزراعة من الاراضي السهلية الصالحة الى الجبال. عبدالله باشا نفسه أعلن العصيان من وراء أسوار عكا، كما فتح بدسائسه حرباً مع جبلي نابلس او بدسائسه ايضاً دفع سكان دمشق نفسها الى العصيان وقتل باشاهم. لبنان كان لا يزال في حمأة صراع الأمير بشير مع الجنبلاطيين. بشليك طرابلس يتقلب في ولائه بين خلفاء مصطفى بربر وعلي بك. من دمشق حتى حلب كانت تتلاطم أمواج اضطرابات البدو اللجوجين. اسكندرون وبانياس اعترفتا بالاستبداد الموروث لعائلة كجك علي، انطاكيا كان يحتلها آغا مجهول. قبائل الانصاريين لم تكن تدفع الأتاوة في جسر الشغور وأماكن اخرى من بشليك حلب، في بيلان وفي أودية طوروس، في كل مكان كان يثور المشردون الذين توصلوا الى الحكم مرة بفلتة شوط وراحوا يساومون الباشاوات او يحاربونهم.

لقد تمكنت الادارة المصرية أن تخضع للنظام الحكومي العام، هؤلاء الحكام المحليين

مع أملاكهم واحداً بعد الآخر، ومن المؤكد أن ابراهيم باشا كان يرمي في سوريا الى القضاء على ممثلي الأرستقراطية الفلاحية من أمراء ومشايخ كما سبق لوالده وقضى على الطغمة المملوكية في مصر. الا أن الباشا الابن وجد نفسه مجبراً، ولأكثر من مرة، على أن يفسح في المجال امام بعض القبائل لتطبيق أعرافها، وأن يساند ضمن الحدود المشروعة الحقوق الاقطاعيـة لقبائل اخرى، داعماً السلطات بأشخاص منتخبين من النبلاء المحليين. وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه عشائر نابلس الجبارة، جرار وطوقان وبرقاوي معرضة، على يد ابراهيم باشا، للشنق والنفي بعد إخضاع عصيانها، كان مشايخ عبد الهادي، المنافسون الدائمون للمشايخ المذكورين، يختارون من قبل الباشا نفسه لادارة جبال نابلس ضمانا لولاء المنطقة واخلاصها.

من هنا كان نشوء عدة قبائل ارستقراطية جديدة في ظل الادارة المصرية، ومع أن هذه القبائل لم تكن تتمتع بحقوق وامتيازات الارستقراطية السابقة، الا أن نفوذها كان اكثر حدّة لاعتمادها على السلطة المركزية، في الوقت الذي كانت القبائل السالفة دائمة الصراع مع هذه السلطة، وبالتالي كانت دائمة الحذر من ملاحقات وخيانة الباشاوات. وهذا الواقع يؤكد ملاحظتنا عن أن التشكيل الاقطاعي للقبائل السورية لم يكن صدفة بسبب الفتح الخارجي او الفوضى الداخلية، وإنما نتيجة القانون الاساسي للتكوين الفيزيائي للمنطقة ولروحية سكانها. سقوط المماليك في مصر، كان سقوطاً تاماً لكل نظامهم الاداري العجيب القائم على حق السيف وضعف السلاطين، بينما كانت جذور النظام الاقطاعي في سوريا أقوى من أن تجتث، مع أن هذا النظام كان مجبراً في ظل حكومة قوية على أن يتخلى عن عيوبه، وأن يشكل سنداً وسلاحاً شرعياً في يد السلطة.

في ظل هذا التركيب الحكومي الجديد في سوريا، كانت تحدث في لبنان ظواهر مثيرة للفضول. لقد تعرضنا في حديثنا عن فترات تاريخية سابقة لهذا الاضطراب الداخلي الدائم في الحياة السياسية اللبنانية، والذي تحول منذ فخر الدين وضعاً طبيعياً لدى القبائل اللبنانية، وتتبعنا كذلك الخلافات الداخلية بين الشهابيين أنفسهم، والتي تتحدث عنها أسفارهم، في فترات التشويش الفوضوي الذي أنهك سوريا تحت حكم الباشاوات الاتراك. زمن الادارة المصرية، حيث هدم الصرح القوطي للزمن السالف، وتخلى النبلاء الاقطاعيون عن نفوذهم للسلطة المركزية كان يقود لبنان أمير موهوب طموح، وفي نفس الوقت محب وموال للباشا المصري منذ فترة بعيدة. تأثيره على الجماهير الشعبية تدعم بأربعين سنة من الحكم أخضع خلالها مرات ثلاث عصياناً شعبياً. نفوذه لدى النبلاء ناتج عن الخوف العام بعد التأديب القاسي الذي لحق بمثيري الفتن، وبعد الانتقام الذي لا يرحم

من الاهل والمنافسين. ثرواته العائلية جمعها من مصادرة ممتلكات المشايخ المنقوم عليهم. كثير من الاقطاعات التي صادرها اثناء نقمته اصبحت بتصرفه وتصرف حاشيته، يستعملها مكافآت لابناء عائلته لقاء ولائهم وخضوعهم، أو لمن أرتفع شأنه من المشايخ بدل الذين شنقوا أو هربوا.

في ظل هذه الاوضاع الداخلية والخارجية، أخذت أمور لبنان زمن الادارة المصرية انعطافاً حسناً. النظام المالي الجديد وإعلان كل الضرائب والمداخيل، القضاء على الابتزاز المالي المستبد الذي كان يثقل به الباشاوات كاهل الحكام المحليين. الاتاوة من القبائل اللبنانية مع ضريبة الرأس الجديدة الفردة، والتي اتينا على ذكرها سابقاً حددت بـ ٦٥٠٠ كيس (حوالي ١٩٠ ألف روبل فضي). اما الضرائب غير المباشرة وبنود المداخيل التي كانت موجودة في الاماكن الاخرى من سوريا تحت رقابة مباشرة من الخزينة أو بشكل التزام مباشر، فقد وضعت في لبنان تحت سلطة الامير بشير مباشرة، من هنا كان الامير يجمع الضرائب حسب ما يراه مناسباً دون أي تدخل أو رقابة من ناحية الحكومة، وكان باستطاعته بعد تقديم الأتاوة اللبنانية الى الخزينة أن يعود ويحصل من الشعب اكثر بكثير مما سبق ودفعه.

لقد بلغت مداخيل الامير من الضرائب المباشرة وغير المباشرة مع مردود الاملاك التي حصل عليها عن طريق الشراء او المصادرة ٢٥ ألف كيس، وهذا ما كان يوفر له بعد دفع الأتاوة، أموالاً طائلة كانت كافية للاحتفاظ بقصر وحرس في بيت الدين. هذا عدا ما كان يدخره الامير سنوياً على عادة الملاك الآسيويين.

كان وادي التيم الغني من نصيب سباهي دمشق، الذين كانوا مجبرين أن يجهزوا غب طلب الحكومة حملات على حسابهم الخاص، لكن الاضطرابات المستمرة التي عرفتها المنطقة قضت بطبيعة الحال على الخدمة العسكرية للسباهي، أمّا المداخيل فتنعم بها أفنديو دمشق الكسالى الذين لم يشتركوا أبداً في حملات عسكرية لانشغالهم المستمر بالدسائس والمؤامرات ضد الباشاوات. أمراء لبنان بدورهم تنعموا اكثر من مرّة بخصب وادي التيم ومداخيل قراه السبعين. الادارة المصرية سمحت للأمير اللبناني بشير بالحاق وادي التيم بامارة لبنان امتيازاً اقطاعياً قديماً له، فالسباهي وبسبب تخليهم عن الخدمة العسكرية، فقدوا برأي السلطة المصرية الحق باستعمال مداخيل هذه المنطقة، وقد استطاع الأمير أن يجعل من هذا الوادي المجاور اهراء حبوب لبنان، وكذلك أخذ بتوزيع عقاراته على أقربائه ومقربيه. في الطرف الآخر من لبنان كان سنجق جبيل الذي يتبع عادة بشليك طرابلس، قد دخل نهائياً في عداد الاملاك اللبنانية.

متخذاً محمد علي باشا مثالاً له، قام الامير بشير، وفي ظروف مؤاتية، باخضاع الزعامات المحلية ومركزة السلطة في يديه. وبتأثير نفس العوامل والظروف التي مزقت النظام الاقطاعي في كل سوريا، واخضعته لتحجيات قانونية. راحت الاملاك اللبنانية في عهد الامير تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الامارة الاقطاعية القائمة على الحقوق الخاصة. محمد علي انطلاقاً من اعتباره الأمير سنداً قويا لسلطته في سوريا، سانده في خطواته تلك، بدلاً من أن يثير المنافسين عليه، ويقوي نفوذه الخاص في الجبال، حسب ما تمليه القواعد السياسية للسياسة الشرقية. لا نستطيع بالطبع أن ننسب قوة الامير والتحولات التي حصلت في لبنان الى رضى محمد علي الشخصي ومحبته للأمير وإنما هناك دخل أكيد للاوضاع السياسية الخارجية ولعلاقات محمد علي مع الباب العالي منذ سنة ١٨٣٢ حتى سنة ١٨٤٠، ولاتفاقية كوتاهيه الهشّة، وللاضطرابات المتتالية للقبائل السورية، ولطموح السلطان الاكيد الى استغلال أول فرصة لطرد المصريين من سوريا.

هذه العوامل كانت في أساس الامتيازات التي تأمنت للقبائل اللبنانية فيما بعد، بمساعدة خمس من الدول العظمى. ولا بد من الملاحظة هنا بأنه لو كان محمد علي يحكم سوريا على قاعدة اكثر قوة ومتانة، لكانت حقوق الأمير اللبناني قد تحددت وتقلصت أكثر، ولخضعت القبائل اللبنانية بالتالي للترتيب المدني العام لسوريا. كل أسلاف الأمير منذ خلع الامير فخر الدين وحتى احتلال الاقليم من قبل المصريين حكموا لبنان بصفة وكلاء للباشاوات الاتراك، الذين كانت إرادتهم نافذة في خلع الأمراء وحتى شنقهم، وفي المساومة على الأتاوة عند تسلم الامراء الجدد فرمانات تعيينهم. كان لبنان محكوماً بموجب نفس المبادىء المطبقة في كل السناجق الجبلية في الأمبراطورية العثمانية حيث كانت التقاليد الاقطاعية لقبائلها وعدم ضمان أمن مواصلاتها، تجبر الباشاوات على تكليف النبلاء المحليين أمور الادارة المحلية بدل تعيين حكامٍ غرباء من قبلهم، وبذلك كان يتم تأمين ولاء القبائل من ناحية، ومن ناحية ثانية تأمين انتظام وصول المداخيل الى الخزينة، وطوال فترة الوجود العثماني لم يحصل الجبليون اللبنانيون على أية امتيازات خاصة إن بالحق الاساسي مثل إمارة الدوناي، أو بالبركات السلطانية شأن جزر الارخبيل.

استخدم الامير بشير بدقة وذكاء الظروف المؤاتية له مع الوجود المصري، لجم الامراء المشايخ، والمستبدين الصغار «الفراطة»، وشد الجماهير الشعبية الى فرديته الاستبدادية، ناشراً في الاقاليم اللبنانية سلطته المباشرة، جامعاً المجدوالثروة، وفي عهد خيم الأمان التام على الجبال، مع اليسر والهناء والبحبوحة نتيجة تطور التجارة والصناعة، سيما وأن الادارة المصرية في سوريا أعطت حياة جديدة للمدن الساحلية بازالتها الموانع والاحتكارات

الاستبدادية للباشاوات السابقين. مدن صيدا وبيروت وطرابلس أصبحت أسواقاً حرّة للجبليين حيث كانوا يبدلون حريرهم وزيت الخشب بالمنتوجات الأوروبية. وقد زاد الانتاج اللبناني في هذه الفترة بنسبة الثلث، كذلك زاد استهلاك السلع الأجنبية بنسبة الضعف. من ناحية ثانية ونتيجة لتسامح السلطات المصرية الديني ارتفع شأن المسيحيين أمام أنفسهم وفي عيون القبائل المجاورة، بحيث ان عائلات الامير شهاب وابي اللمع، والذين تحدثنا عن تنصرهم، جاهروا بتبنيهم دينهم الجديد.

كانت سياسة الأمير بشير الخبيثة، إن في إدارته لحكمه أم في تصرفاته الخاصة، ترمي الى تدعيم سلطته على لبنان عن طريق الاخضاع المستمر لاقربائه وأنصاره، وتخويف الشعب دائما بمشاهدات دورية لعمليات الاعدام شنقاً. والأهم من كل هذا كان دأب الأمير على إخراج اعماله الادارية بشكل يظهر شخصه، الوحيد القادر على ضبط القبائل اللبنانية، والوحيد الحامي لشعبه من مضايقات السلطات المصرية. كل التدابير القاسية، وكل الضرائب المباشرة وغير المباشرة، المتزايدة باستمرار نسبها الامير للادارة المصرية، ولم يترك فرصة في محيطه وعلى مسمع من جبلييه لم يتذمر فيها من تصرفات الباشا المصري.

إذا كان ميل محمد علي باشا نحو الامير مبنياً فقط على حسابات سياسية فإن ميل الامير نحو الباشا كان أيضاً استجابة لمآرب شخصية. وكان الأمير يدرك أن أي تغيير في أوضاع المنطقة ومعادلاتها، سيقود الباشا الشغوف للسلطة، الى هدم ذلك البناء في الجبال اللبنانية، المخالف للبنية السياسية العامة في كل سوريا، والذي ارتفع أصلاً بمباركة من الباشا المصري نفسه. طوال ثماني سنوات متواصلة، ظل هذان العجوزان، الباشا والأمير يتخابثان أحدهما على الآخر: كان الاول ينتظر فقط بت المسائل المهمة عن حقوقه في سوريا، لكي يخلع محبوبه، والثاني اكتفى بالايحاء الى شعبه بالحذر وعدم الثقة بالباشا حليفه وحاميه في نفس الوقت، عاملاً على تعقيد الامور الداخلية ليبرز شخصه عنصراً ضرورياً، وليؤكد على قاعدة أكثر صلابة حقوقه وحقوق نسله في لبنان.

نضجت برامج العجوزين في آن معاً، والرسائل اللطيفة المتبادلة بينهما والتي تؤكد دائماً على الاخلاص والثقة، لم تكن لتعني ابداً تعامي أحدهما عن خطط الآخر وعدم فهمه لها، الا أن ابراهيم باشا، مع خضوعه بشكل اعمى لسياسة والده لم يستطع السير في اللعبة بين العجوزين الى نهايتها. فهو، والمزاجية في طباعه، لم يصبر على احابيل الامير، الذي كان، وعن سابق تصور وتصميم، يطبق على الشعب سياسة مالية جائرة لكي يوجه كل نقمة العامة الى الباشا، مبرزاً نفسه حامٍ للمضطهدين وساعٍ لاجلهم. مع العلم ان سياسة الأمير في الجباية كانت تتعدى بكثير مطالب الباشا المصري، حتى أن ابراهيم باشا نفسه اتهم

الامير بـ « مهووس الفضة » في معرض انتقاده سياسة الجباية لديه وعدم تمشيه مع رغبة الباشا العجوز بعدم فرض ضرائب على القبائل اللبنانية ، كان الرد الحرفي للأمير بشير على هذا الاتهام « سعادة الباشا ، انا مضطر للتصرف هكذا من أجل مصلحتنا المشتركة . سكان جبالنا يحملون العادات التي تحملها البغال اللبنـانية ، ويجب التصرف معهم كما مع البغال » ، كيف ذلك؟ سأل ابراهيم باشا « لم تلاحظوا سعادة افندينا ، أثناء حملاتكم بأن البغال اللبنانية تسير هـادئة من مبيت الى مبيت عندما تكون محملة بـ ٨٠ باتمان (الباتمان يسـاوي ١٣ بوداً ، والبود يساوي ١٦,٣٨ كلغ أو ٣٦ رطل مصري) حسب العادة المحليـة؟ انقصوا الحمل فإنها تعْبَثُ طول الطريق وترمي حمولتها ، وترفس وتتعب نفسها بنفسها اضعافاً » جواب مناسب للأمير ، صفق له الباشا طرباً من الاعماق . نظرية الامير للأسف وجدت ما يدلل على صحتها إن بالبحبوحة القسرية للجبليين تحت إدارته أم بالأزمـة التي حلّت من ثم .

والآن لنعرض للاوضاع السياسية التي ولدت هذا الانقلاب .

الفصل العاشر

الأوضاع في بداية ١٨٣٩ ـ مواقع محمود ـ عودة إلى محادثات السلطان مع الباشا ـ فشل السعي الفرنسي ـ كنّة محمد علي في العاصمة ـ تغيير الوزارات ـ صارم أفندي في مصر ـ الاستعدادات الحربية للسلطان ـ نداءات محمد علي الجديدة عن الاستقلال والرد الأوروبي ـ سفر الباشا إلى أعالي النيل ـ مذكرته للقناصل العامين ـ تقدم الجيش العثماني نحو الحدود السورية ـ صراع محمود مع الوزارة ـ نصائح المقربين ـ تحفظ السلطان ـ الخطة الموسعة لدخول سوريا ـ غطرسة سرعسكر حافظ باشا .

* *

قبل سنة ١٨٣٩ ، التي حملت نذير الخطر ، بالنسبة للحكم المصري في سوريا ، كانت أمور المنطقة قد سوّيت بدقة . قمعت الاضطرابات الداخلية ، واكتمل البناء المدني للاقليم ، وازدهرت التجارة وأصبحت طرقها آمنة تماماً بحيث أن المسافر كان يجتاز الطريق بين حلب وغزة وصيدا بدون حراسة ومعه الفواتير وكميات أموال وافرة للتجارة . أوامر محمد علي ، بل وحتى أوامر معتمدة في دمشق ، كانت تثير الخوف أكثر مما كانت تثيره فرامانات السلطان قبيل الحكم المصري . القبائل الجبلية حنت هاماتها أمام قانون التجنيد الاجباري الكريه ، كل الفئات جردت من سلاحها ، وإذا كان أحدهم قد قام بتخبئة بارودة أو يطقان [سيف محدب ذو حدين] ، فإنها لا بد قد صدأت ، لأن المخبأ الاحترازي لهذه الأدوات كان مكاناً ما تحت صخرة أو في شعب مجهول أو في باطن الأرض . التذمر الشعبي كان يعبر عنه فقط بأنين ، من أقصى سوريا إلى أقصاها . أما المتذمرون الوقحون، وكل من كانت تسول له نفسه ، ولو في الظلام أن يحرض على المقاومة أو ينشر إشاعات مغرضة ، فسيكون تحت رحمة انتقام لا يرحم أصلاً . ففي دمشق وطرابلس ، حيث تشابه الطبيعة ووفرة المياه تعطي للسكان تماثلا نفسياً وجسدياً ، أثار ابراهيم الخوف بمشهد الاعدام الدامي لكبار المسلمين وشرفائهم لمجرد إبدائهم التذمر . كان الباشا بقفازات من حديد متمسكاً بغنيمته تلك رغم تبعتها

المتعبة ، فقد بلغ جيشه النظامي في سوريا أربعين ألفاً ، وأتم تحصينات كولك بوغاز وعكا لدرء الأخطار الداخلية والخارجية التي لا تهدد سوريا وحدها وحسب ، بل وحكومته في آن معاً ، كذلك كانت المراقبة دقيقة ودائمة لكل خلجان سوريا .

بينما كانت الصاعقة تتجمع وتهدر شمالي جبال طوروس ، كان السوريون يعيرون أذناً صاغية لاصدائها البعيدة ، ومع بعض الجرأة يخالجهم شعور بالأمل والتحرر من النير المصري ، الذي كان رغم ايجابياته الكثيرة ، ثقيلاً على بلادهم المعتادة على الحياة المشاغبة غير المسؤولة .

كنا قد تحدثنا عن العلاقة بين السلطان محمود وباشا مصر . الحيف الذي لحق بالسلطان سنة ١٨٣٣ أمام الشعب المؤمن ودول أوروبا ، كان أكثر إيلاماً في نفس السلطان الطامح نحو الرفعة ، لكن القدر ، الذي كان يخونه غالباً في صراعه مع أعدائه ، كان بدوره دافعاً لتأكيد الفكرة العظيمة التي صبغت حكم محمود ، إعادة وحدة السلطة ووحدة السلطة المجروحة بالتركيبة الاقطاعية ، بغض النظر عن بعبع الاستبداد الشرقي الذي كان يخيم على هذه الأمبراطورية ، التي كانت تحذو في التجزئة حذو جارتها الغربية الأمبراطورية الألمانية .

كل الولاة المتمردين ، واحداً بعد الآخر ، حملوا طاعتهم أو حملت رؤوسهم حتى أعتاب السراي . السكان بدأوا يستسيغون الثمار الأولى للاصلاحات وصاروا شيئاً فشيئاً يرتاحون تحت صولجان السيد الشرعي من عناء الاستبداد العسكري للولاة العصاة . السلطان بدوره ، المتحرر حديثاً وبجهد جهيد من وصاية الانكشارية ومن تصرفات ولاته الوقحة ، شعر أن باستطاعته أن يحكم ويأمر في أمبراطوريته . من حق السلطان محمود على خلفائه أن يذكروه كمرمم للجبروت العثماني ، لا من زاوية الفاتح الجديد ، بل بمعنى أكثر تشريعاً : المصلح .

حتى الآن ، وإنجاز محمود غير مكتمل ، ليس لأن محمد علي يتابع بنجاح عصيانه ، في مقاطعاته الثلاث الواسعة ، ولا لأن مهد الإسلام موجود تحت سيطرة الباشا المصري ، وإنما ، وهذا هو الأهم ، لأن محمد علي انطلق انطلاقة نجم فوق كل الأمبراطورية ، وقد شكل نجاحه ومثاله امتداداً لتلك العهود الغابرة المقيتة ، التي كان السلطان قد وقف لهدمها كل نشاطه .

بعد توقيع اتفاقية كوتاهية تابع محمود بنجاح ، تكوين جيشه ، ودأب على ترتيب مجالات كثيرة لبناء الدولة الداخلي . نفس الارادة الصلبة التي صبغت بدايات إنجازه

الدموية ، ظهرت في كل اتجاه من عبقريته . لقد حكم على محمود أن يهدم كل ما يحيط به ، أن يناضل ضد خرافات شعبه ، وضد الحقد الذي تجمع خلال قرنين . كل ذلك قبل أن يقوم بتحويل الحطام صرحاً طالما حلم به . أنجزت الاصلاحات الحكومية بنجاح في العاصمة ، وأحرز سلاحه أيضاً نجاحات في روميليا وفي الأناضول حيث فتحت بعد ذلك طريق المقاطعات . حافظ باشا فيلد مارشال الشرق ، أتم إخضاع الأكراد ، وأجبر القبائل الجبلية على الخضوع للتجنيد الاجباري ، وهذا إنجاز بحد ذاته ، لأن هذه القبائل لم تكن حتى تاريخه تعترف بأية سلطة ، ثم أنه بقي في الأناضول عاكفاً على بناء جيشه بمساعدة ضباط من القيادة البروسية العامة ، كان الباب العالي قد دعاهم ليس لتدريب أفواج خدمة الصف وحسب، بل والجنرالات أيضاً الذين لم يطلعوا بعد على علم الستراتيجية الأوروبية .

في خريف سنة ١٨٣٨ كانت غرفة قيادة حافظ باشا ما تزال في ملاطية (ميليتيان القديمة) ، فقد أجبرته قسوة الشتاء على تأجيل انتقاله حتى فصل الربيع إلى سمسات (ساموسات القديمة) الواقعة جنوباً على الفرات قرب الحدود السورية . ديار بكر ، أورفة ، مربوط في مرعش . وكل البلاد الواقعة إلى الشمال من بشليك حلب حيث كانت تغلي بالتحضير للحرب . وكان ظاهراً بأن جيش السلطان المفصول إلى حدود سوريا الشمالية الشرقية والمحمي بغرانيت جبال طوروس ووديانها الحصينة ؛ يحضر نفسه للنفاذ إلى سوريا من الناحية الشمالية الشرقية على محاذاة نهر الفرات . الأسطول اللازم جرى بناؤه حثيثاً في القسطنطينية طوال الشتاء ، وقد تولى الكابتن الانكليزي ووكر[1] مستشار قبودان باشا تأمين تطوير هذا السلاح .

لنراجع الآن العلاقات بين مصر والقسطنطينية بعد اتفاق كوتاهية ، كنا قد عرضنا للعرض الغريب الذي تجاسر الباشا المصري على تقديمه للنمسا ، انكلترا وفرنسا سنة ١٨٣٤ والقاضي بالاعتراف باستقلال مصر والاتحاد معها ، وقد فهم محمد علي بعد الاجابات الأوروبية السلبية والواعظة والتي أصابت غروره في الصميم ، وعلى الرغم من خداع وتملق مستشاريه الأتراك والأوروبيين ، فهم بأن خططه تلك غير قابلة للتحقيق ، لكنه لم يفقد الأمل باعتراف السلطنة الرسمي ، بالحقوق الوراثية لعائلته في حكم المناطق التي كانت تحت إدارته .

---

(١) ووكر بودين (١٨١٢ ـ ١٨٧٦) أميرال انكليزي . خدم في الأسطول التركي عام ١٨٣٨ بسماح من قيادته . سنة ١٨٤٥ عاد إلى انكلترا . الناشر .

مجبراً على النضال ضد العقبات المتتالية التي تعترض اي حكم يفرض بقوة السلاح ومدركا تطلعات محمود الدائمة نحو سوريا ، حاول محمد علي أن ينتهز أية فرصة لمحادثات جديدة ، مع أمل بتحقيق حلمه : الحصول على حقوق الحكم وراثياً لنسله من بعده ، فيكتمل بذلك انتصار كوتاهية ، ويدعم سلطته أمام شعبه الذي لم ينس سلطانه حتى الآن . كل سنة كان محمد علي يبتكر مبررات جديدة ، كي لا يدفع الأتاوة المشترطة التي كانت مفروضة على بشاليكه ، وبدلاً منها كان يرسل الهدايا النفيسة لسيده في المناسبات كعقد قران ابنته مثلاً ، وكأنه يسخر من عجزه ، ويشعره بالحرج الناجم عن تردده وعدم صحة علاقاتهم المتبادلة . السلطان من ناحيته أجاب على التملق الوقح لواليه بخطاب صارم طالباً فيه الاتاوة بدل الهدايا . السفارة الفرنسية ، من جهة ثانية ، لم توقف مساعيها لدى الباب العالي ، وقد نجحت فعلاً بأخذ موافقة السلطان على إعطاء محمد علي ونسله من بعده حقاً بحكم مصر ، وكلاء مطلقي الصلاحية من قبل السلطان ، يدفعون أتاوات معلومة ، ويخضعون للقوانين الداخلية للأمبراطورية عامة ، ولكل معاهداتها مع الدول الأخرى ، إلا أن السلطان طلب إعادة سوريا والجزيرة العربية وكريت . طبعاً كانت فرنسا تسعى إلى ما يتعدى ذلك ، أي إلى إبقاء سوريا في يد محمد علي زاعمة أن هذا أكثر ربحاً للباب العالي من الحكم المباشر ، وقد اعتبر السلطان أن هذه التبريرات ادعاءات مهينة عنيدة تصدر عن دولة يرتكز إليها محمد علي في سياسته .

إضافة إلى عامل الضغط الخارجي هذا، لم يسقط محمد علي من اعتباره العوامل الخفية الداخلية في السياسة التركية القديمة، ولكي يجذب صوبه الوجوه المحيطة بالسلطان ويؤثر بالتالي بواسطتهم على تفكيره ، أرسل إلى القسطنطينية سنة ١٨٣٦ كنته زهرة خانم أرملة ابنه اسماعيل باشا المقتول في سنار ، في زيارة لوالدها عارف بك أحد كبار العلماء المشهورين ، وتحت مبرر زيارة والدها كلفت الكنة بالتغلغل في حريم اسطمبول ، حيث للنساء هناك ، رغم ما يبدو لهنّ من دونية ، وكما في العواصم الأخرى ، القدرة على التأثير في العقول والديوان والسراي ، وتوظيف ذلك لمصلحة الحم العجوز .

لاقت زهرة خانم استقبالاً رفيعاً ولطيفاً في القسطنطينية وأطالت هناك إقامتها ، وفي هذه الأثناء ، وعند مرور الملاّ المعين في مكة عبر القاهرة . أحاطه محمد علي بالتشريفات والملاطفات ، وحدثه بعين دامعة عن الخلاف مع السلطان ، وهو خلاف مميت لشعبه المؤمن . ونظراً لمعرفته بعلاقة الملا مع الوجهاء النافذين في اسطمبول أقنعه محمد علي بضرورة دعوة أحمد فوزي باشا القائد الأعلى للحرس ونجم تلك الفترة ، إلى القاهرة،

لمباحثته بشأن الأموال واطلاعه على أمر هام . رسالة محمد علي تلك قدمت للسلطان ولاقت قبولاً منه ، وسماحاً بالسفر لنجمه أحمد فوزي باشا الذي ذاع صيته نصيراً لمحمد علي وساعياً لانفصاله عن الأمبراطورية .

اتخذت الأحداث آنذاك مجرى مغايراً، لأن تغييراً وزارياً مفاجئاً حصل في القسطنطينية ، وهذه الظاهرة من الأمور العادية في الأمبراطورية . فقد أقدم بيرتيف باشا باتفاق مع خليل باشا وأحمد فوزي على خلع السرعسكر القديم خسرو باشا الذي كان لسنوات طويلة يتمتع بثقة السلطان . بموجب التغيير الجديد ، منح خليل منصب سرعسكر ، أحمد فوزي منصب قيودان وأصبح بيرتيف نفسه روح الوزارة الجديدة ، وهو إلى جانب موهبته ، ممتلىء بالتعصب الديني كمسلم عجوز ، ومخلص غيور على العرش ، وهو الأقدر على تقدير المواهب ووزن الأمور أفضل من السلطان محمود نفسه . رأى بيرتيف أن المحادثات مع شخص خبيث مثل محمد علي باشا لا تستلزم شخصية نافذة مقربة من السلطان ، قد تسمح لها صلاحياتها الواسعة بالخروج على حدود التعليمات الحكومية ، بل شخصية إدارية تنفيذية . اقتنع الباشا وأرسل إلى مصر بدلاً من قيودان باشا ، بيلكشي صارم أفندي مساعد وزير العلاقات الخارجية ، مع هدايا للباشا المصري من ضمنها صورة للسلطان نفسه .

افتتحت اللقاءات في القاهرة أول العام ١٨٣٧ ، وبعدما اشتم محمد علي رغبة السلطان الفعلية بإجراء مفاوضات ، لم يتقدم بأي اقتراح مبدياً قناعته بمضيره ، مع استعداده في كل الحالات لسماع أي اقتراح من قبل الباب العالي . أسقط من يد صارم أفندي بعد ادعاء محمد علي هذا ، ووجد نفسه مجبراً على بسط اقتراحاته بدل أن يدخل في مناقشة ادعاءات الباشا ، وأول ما تقدم به كان نصيحة إلى محمد علي بالتوجه بنفسه إلى القسطنطينية والدخول مباشرة بالمحادثات مع الباب العالي والسلطان أو كحد أدنى ارسال ممثل شخصي موضع ثقة منه . رفض محمد علي الاقتراحين بلباقة وحجته في ذلك أن وجوده ضروري في مصر ، وهو لا يستطيع الاتكال على أي شخص في إيجاد حل نهائي لأمر يتعلق به مصيره ومصير ذريته .

كان محمد علي ، وقد أغنته التجارب ، يعلم موقعه من السلطان وحاشيته ، فمن أين له الثقة بكلمة السلطان ، وتقاليد الانتقام الاسطمبولية السرية كانت لا تزال طازجة ماثلة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية كان من الأربح للباشا أن يتحادث في مصر مع مبعوث السلطان بدل أن يكاتب القسطنطينية ويراقبها من بعيد . صارم أفندي وبعد عدة جلسات من المفاوضات مع الباشا الداهية ، أجبر على الافصاح عن تنازل جديد

لمحمد علي ويتمثل بالحكم الوراثي لمصر والجزيرة العربية. رد محمد علي كان جردة بمداخيل شبه الجزيرة العربية ومصاريف إدارتها، لكي يبين الخسارة الكبيرة التي تتأتى من حكم هذه المنطقة، بحيث أن إدارتها لا تعتبر امتيازاً بل همّاً ثقيلاً يتحمله بطيب خاطر تضحية منه في سبيل العرش والدين .

حجة محمد علي هذه أفحمت صارم أفندي الذي تأثر بما امتصته الجزيرة من الأموال والجنود المصريين دون أن يلتفت أبداً إلى المنافع التجارية والسياسية الهائلة التي كان يستخرجها الباشا فيها بعد. وفي نهاية المباحثات اضطر صارم أفندي لأن يفرغ ما في جعبته من تنازلات ويتقدم باقتراحه الأخير الذي يتلخص بأن يضم محمد علي كل سوريا الجنوبية : اقليم عكا الواسع (إيالة صيدا) وبشليك طرابلس ، دون أن يطبق على هذا الجزء مبدأ الوراثة شأن مصر والجزيرة العربية . وهنا بدأ الباشا الخبيث بالحديث عن أن كل سوريا ضرورية له ، وأعلن بأنه لن يتنازل قطعياً عن أي شيء ، وإذا كانت رغبة الباب العالي تكمن في زيادة الأتاوة، فإنه مستعد للافساح في المجال أمامه لزيادتها .

بهذا اختتمت المحادثات أبحر بعدها صارم أفندي إلى القسطنطينية ، أما الباشا ورغبة منه بالتأثير على الرأي العام في مصر وسوريا والرأي العام الأوروبي ، فقد قلب كل شيء ، وأعلن في احتفال لسفراء الدول العظمى ، بأن السلطان عرض عليه سوريا كملك وراثي .

بعد عودة صارم أفندي إلى القسطنطينية كتب الصدر الأعظم إلى محمد علي وثيقة رسمية مملوءة بالعبارات المعسولة ، فيها ملخص العرض الأخير لمبعوثه : التنازل عن بشاليك عكا وطرابلس كملك له مدى الحياة ، وحق ذريته بالحكم الوراثي على مصر وكل الجزيرة العربية ، مشيراً في نفس الوقت بأن السلطان لا يمانع بتأكيد هذا العرض بفرمان . رد محمد علي على ذلك ، كان تأكيد موقفه السابق المطالب بحق ذريته في حكم البشاليك الموكولة إليه رافضاً بذلك عروض الباب العالي تاركاً مصيره للقدر .

خابت آمال السلطان محمود واقتنع بعدم إمكانية الافتراق السلمي عن الوالي الطموح ، وبدأ بالتحضير لتأديبه مضاعفاً جهوده في تقوية جيش حافظ باشا . من ناحية توقف محمد علي عن دفع الأتاوة . وقد أجاب ببرودة أعصاب على تساؤلات الدول الكبرى بشأن هذه المسألة ، بأنه نظراً لاستعدادات الباب العالي العسكرية فإنه يعتبر إرسال الأموال إلى القسطنطينية بمثابة تقديم سلاح للعدو . ولكنه ورغم ذلك يبقى أميناً خاضعاً لسيده ، أما موقفه الصدامي منه فعائد لكونه لا يستطيع أن يصارع غريزته في البقاء .

في هذه الفترة كانت حرب الدروز وكل اضطرابات سوريا في طريقها إلى الهمود ، مما أشعر محمد علي بقوة لم يعد بعدها بحاجة إلى تنازل سلمي من السلطان ، فتوجه من جديد نحو الدول الأوروبية ، بأمله القديم وحلمه بالاستقلال ، لكن هذه المرة بقناع مختلف يتماشى مع توازن القوى السياسية في أوروبا سنة ١٨٣٤ . إذ أقدم ، مخدوعاً بتعليقات المجلات الأوروبية ، على رمي فتيل الحرب بين الدول العظمى ، تسليح النمسا وانكلترا وفرنسا ضد الروسيا ، علّه يستطيع في حمأة الحرب هذه ، تحقيق مخططاته الخاصة . ولكنه وبعدما تأكد من جنون افتراضاته تلك راح يغري سيده بمفاوضات خبيثة . ولكنه عاد وأدرك أن إرادة الدول العظمى في هذه الفترة كانت تنصب على حفظ السلام وتجنب أي انفجار في الشرق . من هنا فقد تخيل بأنه يصل إلى مبتغاه ويجبر الدول الأوروبية على ترتيب الأمور كما يشتهي ، فيما لو تعرض هذا السلام للتهديد والاختلال . فأعلن أمام سفراء النمسا وانكلترا وفرنسا والروسيا تصميمه الذي لا يتزعزع على نيل استقلاله وحمايته هذا الاستقلال بالسلاح . كان هذا في ربيع ١٨٣٨ ولنلاحظ هنا الفترات التي يطرح فيها محمد علي مشاريعه السياسية ، كل فترة توازي نصراً تحرزه قوى الباشا في سوريا . سنة ١٨٣٤ تكلم الباشا الطموح عن الاستقلال بعد اخضاعه لعصيان نابلس ، واليوم وفور انتهائه من حرب حوران الدامية نراه يعاود هذا المطلب من جديد .

جواب الدول الأوروبية كان هذه المرة أكثر وضوحاً وحزماً من موقفها سنة ١٨٣٤ . فقد هددت النمسا وفرنسا بشر الغضب في حال التطاول على السلام في الشرق ، أما الروسيا وانكلترا ، فأعلنتا وبحزم أشد ، عن نيتهما بمساعدة السلطان في حال رغبته تأديب الباشا . رغم كل هذا لم يفقد الباشا العجوز أمله بالوصول ، على الأقل ، إلى هدفه الرئيسي ، حق الحكم الوراثي المعترف به والمضمون من قبل الدول الأوروبية النافذة وذلك عن طريق طرحه مطلباً رئيسياً : الاستقلال المطلب الصعب المنال . في إجابته على بيان الدول الأوروبية الصارم عرض محمد علي مطالبه بكل هدوء وبأس مذكراً بخدماته التي قدمها للباب العالي ، للبلاد التي يديرها ، للتجارة الأوروبية وللانسانية . أما فيما يخص حدود الحصة التي يريد إدارتها وراثياً فقد تهرب بحذاقة من أي تحديد واضح وصريح ، أيكتفي بمصر ، أم كان يريد بالإضافة سوريا والجزيرة العربية وكريت ؟

في خريف ١٨٣٨ أعلن محمد علي عن نيته زيارة أعالي مصر ، وأن ينفذ من هناك إلى سنّار وإلى أعالي النيل البعيد إلى سنجق الفازوغلي عند خط العرض ١٠° ، للبحث

عن مناجم الذهب . قبل رحيله ، وَكَلفْتَةٍ اعتدال وولاء أرسل إلى القسطنطينية جزءاً من الأتاوة غير المدفوعة ، وتقدم من سفراء الدول الكبرى الروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا ، بهذه المذكرة المعبرة عن قراره الأخير :

«أضع أمام الدول الأربع العظمى كل الحجج المعبرة عن واقعي ورغباتي . اسمح لنفسي أن آمل بأن يأخذ جلالة السلطان فكرة جيدة عني ، ولا يحرمني من وضعي الجديد ، ولا يقف ضد تنفيذ رغباتي ، فرغباتي منتقاة من السياسة الأوروبية ومن الأمن الذي سيستتب في الشرق . عمري سبعون سنة ، فليسمح لي أن أنظم مصير عائلتي قبل موتي ، أرجو إهدائي حق التوريث وأكون بذلك في تمام الرضى . أنا لا أنوي فتح حرب ، أتمنى أن أصل إلى أهدافي بمحادثاتي ورجائي وبرهاني على ذلك ذهابي إلى سنّار . ولكن لن أكبّل يدي فأصبح ضحية، أموت قبل أن أضع عائلتي وشعبي في مصير مجهول . إذا لم أستطع الوصول إلى هذه الأهداف برجائي ، وإذا لم تؤخذ حججي هذه بالاهتمام من قبل الدول العظمى ، وإذا لم يؤمن مصير ومستقبل مصر ، وأخيراً إذا كتب عليّ مواجهة مصيري ، عندها سأنتقي بنفسي وحسب مفهومي وسائل تنظيم أعمالي ، وإذا ما فُرض علي سألجأ إلى السلاح ، وعدا عن المطالبة بحقوق الوراثة ، سوف أعلن استقلالي .

أقر بأنني لا أستطيع الوقوف أمام أربع دول عظمى متحدة ، يمكن أن أهزم وأموت، ولكن هل سيزيد موتي الدول العظمى عظمة؟ . . أما إذا كانت ريح الحرب مؤاتية لي ، فعليكم أن تحكموا على النتائج .

الاسكندرية ٥ أيلول ١٨٣٨»

لم تعد فكرة مفاوضات جديدة مع السلطان تراود محمد علي ، وعلى الرغم من الأنباء الواردة عن الاستعدادات الناشطة لجيش آسيا الصغرى ، وعن تسليح الأسطول ، فقد أبحر العجوز النشيط نحو أعالي النيل بدون اكتراث بتلك الأنباء ، في رحلة يقطع خلالها أكثر من ٤ آلاف فرسخ ذهاباً وإياباً ، وفي طريق وحشية من أصعب الطرق تمتد عبر الشلالات والصحارى ، طوراً يتم اجتيازها بالزورق وتارة على ظهر جمل ، تحت الشمس الحارقة حيناً ، والأمطار الاستوائية حيناً آخر . كل ذلك من أجل الحصول على منابع الذهب . في الوقت الذي بلغت فيه مداخيل مصر ٢٥ ألف روبل فضي . ووادي النيل تحول إلى اهراء ، الباشا العجوز الطامع بالجزيرة العربية الحارقة ، وبسوريا

المضطربة ، أهرق عنوة وبدون تروٍ دم وعرق ٣ أو ٤ ملايين من سكانه في تحصين صرحه بشكل لا يتناسب مع قواه المادية والمعنوية . هذا الصرح ، البعبع المتأرجح ، الذي كانت أوروبا ، تحكم عليه من خلال أشكاله الخارجية المخيفة والمستوية ، وتعطيه من بعيد اسماً طناناً ، المملكة العربية . إن رحلة محمد علي للتفتيش عن الذهب في جوف جبال القمر ، ترجع من ناحية لاقتناعه بعدم كفاية مداخيل مصر في تغطية المصاريف الطائلة لشبه الجزيرة العربية وسوريا ، حيث كان جيشه ينتظر المعاش منذ ٨ أو ٩ أشهر متتالية دون أمل بالحصول عليه ، ومن ناحية ثانية لشعوره بوقوع أزمة سياسية مع الدولة العثمانية لا محالة ، وعليه بالتالي مضاعفة قواته العسكرية .

بينما كان العجوز يقضي كل فصل الشتاء في إنجاز رحلته العجيبة إلى كولخيدا ، أسطورة العصر الحديث الافريقية(*) ، كان ابراهيم باشا يتابع استعداداته الحربية في سوريا ، مدركاً أن عوامل العصيان في هذه المنطقة ناضجة في كل النواحي ، كأخطبوط ذي مئة رأس ، لكنه كان هذه المرة ، وقد تعلم من تجربته السابقة ، أكثر لطفاً ونعومة ، فاكتفى بدل التجنيد الإجباري ، بمفرزة من الدروز تحت امرة المقدام شبلي العريان ، كما أنه سامح مدناً كثيرة لعدم سداد كامل الاعداد المطلوبة منها للتجنيد . في آذار ١٨٣٩ عاد محمد علي صفر اليدين من رحلته إلى الفازوغلي ، لينشغل بأمور أكثر جديّة وإيجابية ، فبدأ بتسليح أسطوله وتنظيم المجندين داخل الجيش المصري .

في القسطنطينية كانت الاستعدادات الحربية أكثر نشاطاً مع بداية الربيع ، وقد تابعت السفارات الأوروبية باهتمام بالغ الميول الحربية للسلطان ومقربيه ، خاصة وأن تلك الاستعدادات العسكرية كانت تقلق الدول الأوروبية الكبرى التي استنزفت كل قواها للدفاع عن السلام في الشرق المضطرب منذ ١٨٣٣ . حتى ذلك الوقت كان الباب العالي ملتزماً جانب السلام ، وأكثر من مرة أخمد كره السلطان الأسود للوالي المصري ، وهو كره امتص كل تفكيره وكل طاقات نفسه المتقدة . ومن مؤشرات عديدة يمكن الشك ، وعلى الرغم من تأكيدات الوزارات عن موقف السلطنة المسالم ، بأن السلطان الذي كل يجول بنفسه على فيلد مارشالاته ، كان يحرر مخططاته دون الرجوع الى الوزارات ودون علمها .

(*) كولخيدا : منطقة في آسيا الصغرى على الضفة الشرقية لجسر «أوكان» ، كان يندفع منها المغامرون اليونان ، اتباعاً لتقليد قديم ، تفتيشاً عن «أغمار» الذهب (المترجم) .

حـافظ باشـا ابن القفقاز الشجـاع الموالي لسلطانـه بـإخـلاص ، والغـارق بـالمنن والملاطفات ، كان يتحرق شوقاً لانجاز المأثرة التي تصبوا إليها باستمرار أحلام السلطان محمـود تأديب الوالي الحرون ، وغسل العار الذي غطى البندقية التركية سنة ١٨٣٢ . كان حافظ باشا موقناً بالنصر : أكمل جيشه الاستعداد العسكري في حملات صعبة ضد الأكراد ، الانتصارات المتتابعة بعثت النشاط في نفوس الجنـد ، حتى يمكننا القـول بأن تركيا لم تقدم في وقت من الأوقات ، وفي أي من المجالات مثل هـذا الجيش المنضبط ، وتأكيداً لثقته بجيشه أرسل حافظ باشا للسلطان تقريراً سـرياً يـطمئن بالنصر الأكيـد ، ويسعى فيه لدى السلطان بالحصول على أمر بالتحرك متكفلاً طرد المصريين من سـوريا خلال صيف واحد . هكذا كانت عواطف وآمال القائد العام للجيش التركي ، كذلك كانت توجهات أحمد فوزي باشا الجنرال ـ الأميرال مقرب السلطان ، والذي كان لفترة وجيزة نصيراً لمحمد علي في انفصاله السلمي ، بينما نراه اليوم داعية حرب غيوراً ، ممالئاً في ذلك رغبة سلطانه الجامحة بالقتال . كان هذا الوجيـه الجبان الـذي أتقن كل دروس سياسة السراي ، يضمر عن طريق تأجيج رغبة سلطانه تقوية نفوذه في سبيل القضاء على منافسيه واحداً بعد الآخر . أما بيرتيف الشهير الـذي استعمل أحمـد فوزي بـاشا سنة ١٨٣٦ سلاحاً لتنحية خسرو بـاشا ، فهو لم يفقد في تبديلات السـراي دوره في الوزارة وحسب ، بل فقد رأسه وبأمر من محمود نفسه خلال حفلات التهتك في السراي . وبما أن مقربي السلطان محمود بحاجة دائمة لشخص مدبر ومجرب لقيادة مجلسهم ووزاراتهم ، فقد وقع اختيارهم على خسرو النشيط الأكثر قدرة من كل رجالات الدولـة النافـذين ، فعاد إلى السلطة وأعاد نفوذه ، إن لم يكن على تفكير السلطان ، فأقله على الباب العالي . وبغض النظر عن عدائه المزمن مع محمد علي ، والذي يرجع إلى ثلاثين سنة خلت ، فإن روح السلام عنده ، كانت تدفعه ولأكثر من مرة ، وبجرأة الخـادم القديم ، لأن يـرجو سيده ، بالا يضع مصيـر الأمبراطورية في يد الحرب العمياء ، وأن لا يقطع الاصلاحات المدنية المنقذة للدولة ، في نفس الوقت الذي كـان يدفعـه فيه لتـطوير البنـاء العسكري بشكل تدريجي . بهذا ، برأي خسـرو ، وبدون مغـامرة تعـرض الجيش لصدمـة مميتة تذهب فيها هباء كل الجهود المبذولة ، يمكن الوصول إلى الهدف المرجو ، تـأديب محمد علي وإعادة سوريا ومصر إلى أحضان الأمبراطورية .

كان خسرو باشا يرفض الحرب في الفترة الحالية ، مهما كانت مسوغاتها ونتائجها ، لأنها غير مجندة من طرف أي شعب من شعوب الأمبراطورية من أقصاها إلى أقصاهـا . هـذا إذا استبعدنـا مواقف الـدول الأوروبية التي كـانت تـنظر بعـين الاستيـاء إلى كـل

اضطرابات الشرق . كان السلطان محمود يقدر خدمات باشاه القديم العجوز وتفكيره الصائب ، إلا أن تردده بين نصائح خسرو وبين رغبته الجامحة بالانتقام ، أفسح في المجال أمام المقربين منه ، لأن يسخروا من أفكار العجوز المنحوس . وبالرغم من إعلان السلطان أمام الحكومة بأن يصون السلام بصلابة ، فإن كان يراسل من خلال المابين (ديوانه الخاص) ، القائد العام للجيش ويسمح له بالنزول من ملاطيه باتجاه الجنوب إلى سمسات ، كذلك وضع خطط الحرب في اجتماع سري عقده مع قيودان باشا الحاسد الأساسي لنفوذ خسرو باشا ، الذي كان في تلك الفترة يتابع اجتماعاته في المجلس حيث تتم معالجة مختلف ميادين الاصلاحات المدنية في الأمبراطورية . أعضاء المجلس بدورهم كانوا يشاركون رئيسهم رأيه ، وكان أكثرهم يتمنى حفظ السلام ، وبالرغم من كل ميول السلطان محمود الاستبدادية، فإنه لم يكن يريد التصرف جهاراً عكس ما يراه مجلس وزرائه .

أخذت وزارة الحربية تتلقى التقارير من القائد العام عن تقدمه نحو الحدود السورية بمحاذاة نهر الفرات وعلى ضفتيه . كان السلطان من الناحية الفعلية ، المسؤول الأساسي عن تحركات الجيش آنذاك ، إلا أن حافظ باشا كان يتحمل وزرها شخصياً ، متذرعاً تارة بضرورة التفتيش عن هواء نقي لجيشه الذي عانى الكثير من قسوة الشتاء ومن أمراض الإسهال ، وطوراً متذرعاً بعدم كفاية الاعلاف لخيوله . خسرو باشا ، من جهته ، لم يفقد الأمل بدرء الانفجار ، وبطلب منه قرر الباب العالي إرسال مبعوث خاص إلى المعسكر في جولة تفتيشية . إن أي تقرير صادق في تلك الفترة يرسله المبعوث المفتش كان يؤدي بالطبع إلى كبح اندفاعة السلطان محمود باتجاه الحرب .

من حسن حظ السلطان أن الاختيار وقع على طيار باشا الذي كان قد اطلع سلفاً في ديوان السلطان الخاص على التقرير المرفوع من حافظ باشا عن وضع القوات العسكرية ، وفي نفس الوقت كلف السلطان العقيد المرتد عمر بك النمساوي(٢) تفتيش الفرق الاحتياطية في انقرة وقونيا . في هذه الأثناء كانت طليعة جيش حافظ باشا قد وصلت إلى بيرجيك (أو بيريدجيك) على ضفة الفرات اليسرى ، على بعد ٣٠ فرسخاً من الحدود السورية ، أي على مسيرة ثلاثة أيام من حلب . في نيسان عبرت طليعة الجيش نهر الفرات إلى الضفة اليمنى وأخذت في إقامة الاستحكامات العسكرية ، بينما

---

(٢) حالياً عمر باشا ، اشتهر في اوروبا بانه بعد سقوط الشهابيين وحتى إدخال النظام الإداري المالي إلى لبنان ، كان هو الحاكم المباشر وهو الذي أخضع سنة ١٨٤٢ تمرد الدروز . بعد ذلك برز في حملة روميليا ١٨٤٤ . سنة ١٨٤٧ أخضع تمرد الدروز مع بدر خان بكَ .

كانت قوات الفيلق الأساسي ما تزال في سمسات . في بداية أيار حضر القائد العائد بنفسه إلى ضفاف الفرات وقام بتحريك كامل الجيش إلى هذه النقطة . حتى الآن لا تزال القوات داخل الحدود التركية ، إلا أن عبور النهر اتخذ أهمية خطيرة ، إذ تحطمت آخر آمال أنصار السلام . مبعوث الباب العالي ، والذي يتوقف على تقريره عن الوضع العسكري قرار بالحرب أو بالسلم ، استعجل ، وبتوجيه من السلطان ، نتائج التكليف الموكل إليه .

الجيوش المصرية بدورها تمركزت في حلب ، ابراهيم باشا ، قائد العمليات سليمان باشا ، وزير الحربية محمود علي أحمد منقلي باشا . وصلوا إلى حلب واحداً بعد الآخر للتحضير لحملة الرد .

أنباء تحرك جيوش السلطان أثارت قلق سوريا بأجمعها . الكره للإدارة المصرية بدأ يظهر على العامة المؤمنين والمخلصين بشكل أعمى للسلطان ، في دمشق ، طرابلس ، حلب ونابلس وفي كل فلسطين كان السكان ينتظرون إعلان دخول جيش السلطان لكي يباشروا العمل في الجبهة الداخلية ضد جيش ابراهيم باشا . وفي نفس الوقت كانت التهديدات تلاحق السكان المسيحيين حيث كان العامة المسلمون يستعدون لتسديد الضربة الأولى إليهم . في دمشق ، أتون النفاق الإسلامي ، كانت تهيأ الشرارة الأولى ، حيث كان السكان المسيحيون مهددين بتقديم دمائهم فدية التسامح الديني لمدة ثماني سنوات تحت الادارة المصرية . ابراهيم باشا كان يفهم جيداً موقع القبائل السورية هذا ، فطلب من الأمير اللبناني أن يعسكر مع جبليين في جوار دمشق لكي يلجم رعاعها المضطرب .

في العاشر من أيار تقدم الجيش العثماني نحو نزيب[٣] على بعد ٢٠ فرسخاً من الحدود السورية ، وبدأ بتحصين مواقعه بعد أن تحتمت المواجهة . إلا أن الجيش التركي شأن الجيش المصري كان يتجنب العمليات الهجومية ، إذ أن الطرفين تلقيا إرادة الدول الأوروبية الكبرى بضرورة حفظ السلام : محمد علي تلقى تهديدات حازمة ، والسلطان تلقى مثل ذلك مع احترام مناسب لمقامه .

الآن بدأت تتضح خطط محمود المشبعة بالتفكير الجذري الناضج . كان يعلم حالة

(٣) Nicivia القديمة يتردد ذكرها في حروب الأباطرة الإغريق مع الخلفاء . هنا انتصر يوحنا ابن الشمشقيق Tzimiskès على الفرس . ومن هنا حمل المساعدة للقديس يعقوب .
لنذكر هنا أن ابن الشمشقيق احتل سوريا في هذه الحملة في ٨ أشهر ، بسرعة الفاتحين العادية لهذا الاقليم ، إلّا أنه كغيره ، لم يحتفظ بسوريا طويلاً .

سوريا النفسية ، وكان يرى أن ظهور الاعلام السلطانية عند الحدود السورية هو بمثابة نداء بالثورة للسكان المتعبين من الحكم المصري . لدى أول انتفاضة كان باستطاعة الجيش السلطاني أن يتدخل بحجة إعادة السلام ، ومع الوقت لن يبقى أمام الجيش المصري المحشور من كل الجهات بالعصيان الشعبي ، وجيش السلطان ، أي منفذ إلا أن يقفل عائداً أدراجه هارباً باتجاه مصر ، هذا إذا لم يقطع العصيان عليه الطريق ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، إن اقتراب الأعلام السلطانية لا بد وأن يؤثر على معنويات الجيش المصري نفسه ، والذي يرتبط بنير الانضباط بعرى الخوف فقط ، بعد أن افتقد أي تعاطف مع محمد علي وابنه ابراهيم ، الذي أصبح يعتبرهما مارقين سارقين حالفهما الحظ . كذلك كان هذا الجيش يعتقد بأن السلاسل التي تكبله ستترسخ ويزداد ثقلها في حال انتصار مصري مجدداً في المعركة المقبلة مع السلطنة .

هذا الوضع النفسي للجيش المصري كان معلوماً من قبل السلطان ، مثل معرفته لوضع القبائل السورية . ونؤكد هنا بلا أدنى شك ، بأنه لو وقف حافظ باشا ولمدة أسابيع مقابل الجيش المصري مراقباً وحسب ، لاستطاع جذب نصف الجيش المصري إلى جانبه . وفي هذه الحالة لن يظهر السلطان وكأنه داعية حرب ولكان تجنب أخيراً مفاجآت المعركة . إن وقوف حافظ باشا مراقباً كان كافياً لتحقيق أفكار السلطان ، ولكن هل كان بإمكان ذينك الجيشين في مثل تلك الظروف أن يكتفيا بالمراقبة طويلاً ؟ حافظ باشا عمل على تحصين مواقعه من الناحية السورية بشكل جعلها غير قابلة للاختراق ، وبقي ينتظر التأثير المعنوي لوضعيته تلك . وبما أن ابراهيم باشا اضطر إلى التمركز في حلب فإن اشتعال شرارة الحرب الشعبية في أية منطقة ، في نابلس أم حوران أم ذيول لبنان الشمالية كان يعني أن العصيان سيحتضن كل سوريا ويقدمها هدية سهلة للسلطان .

بعد نظر السلطان محمود أمن له النجاح الحاسم في اللحظة المناسبة : باشا بغداد علي ، الذي كان لتوه قد أخضع عصيان سلفه داوود ، كان مستعداً لغزو سوريا مع بدوييه عبر صحراء الفرات ؛ أنجي محمد ، باشا الموصل ، خرج من بلاد ما بين النهرين مع ميليشياه لمساندة عمليات الجيش الأساسي ، كردسليمان ، باشا مرعش ، أدخل زمر الأكراد الحربية ، وقد انضم إليهم أبناء عشيرتهم الأكراد البدو داخل سوريا . وأخيراً حاج علي باشا وعزت محمد باشا كانا في قيادة الفرق الاحتياطية في قونيا وأنقرة ، الأول مهدداً وادي كولك بوغاز والثاني لمساندة الجيش المحارب . ولو أضفنا إلى هذا المخطط الواسع الذي حضره محمود بدقة ، إمكانية ظهور الأسطول التركي عند الشواطىء السورية والقيام بإنزال في طرابلس قرب عكار العاصية ، فإن الجيش المصري

سيختنق من هـذه السيول العسكرية المتقدمة من كل الجهات .

بدأ حافظ باشا ، وقد نفذ صبره ، وبعد أن أنهى تحصيناته في نـزيب ، يحرض على العصيان القبائل السورية المجاورة المقيمة في السناجق المحصورة بين الجيشين ، ولدى أول فرصة قفز واحتل سنجق أورول (Orol) ومدينة عين طاب الـواقعة داخـل الحدود السورية ، وبهذا افتتحت العمليات العسكـرية قبـل أوانها . عندهـا انتفضت القبائـل الجبلية في الذيول الجنوبية لجبال طـوروس الواقعـة تحت الحكم المصري وأخـذت تنزل جماعات من كرد ـ دائما وغبور ـ دائما نحو السناجق القريبة الواقعة تحت سيـطرة القوات السلطانية . في سناجق عكار والضنية هاج الشعب وقتل ، ليس جباة الأتاوة المصـريين وحسب بل والمتسلمين أيضاً .

كانت سوريا مستعدة للانتفاضة والتمرد ، إلا أن أخـطاء القائـد العثماني وضعت الأمبـراطوريـة مرة أخـرى على شفـير المـوت ، بـاستبـاقـه الأمـور وتعجيله العمليـات العسكرية . حصلت صدامات صغيرة بين بـدو قبائـل هنادي الـذين كانـوا في خدمـة ابراهيم وبين خيالة حافظ باشا غير النظامية . طلب ابراهيم باشـا من القائـد العثماني شرحاً خطياً لما حدث محملاً إياه مسؤولية العواقب التي قد تنجم عنها ، متهماً إياه بتهديد حالة السلم القائمة . في خطابه الجوابي المزين بزهور الخطابة الشرقية ، تذرع حافظ باشا بصدف التحركات العسكرية ، واتهم بدوره صفوف الجيش المصري بسرقة السكـان ، وانطلاقاً مما ورد في رسالة ابراهيم باشا من تأكيدات عن ولاته للسلطان ورغبته في الحفاظ على السلام ، فقد طلب منه مطابقة أفعاله بأقواله والانسجام مع واجبه كمواطن مسلم مؤمن .

إن هذه المواقف كانت صدى للعلاقات الـديبلوماسيـة في هذه الفتـرة . فالسلطان ومحمد علي كانا يخبئان بكل دقة نوايـاهما ، التي لم تكن الاتهـامات المتبـادلة عن تهـديد السـلام لتفصح عنهـا . من كان يهـدد السلام رغم سعي الـدول الأوروبيـة العـظمى وبياناتها الحازمة بهذا الشأن ؟ كانت هذه الدول تعمل بكل الوسائل للحفاظ على السلام في الشرق تجنباً لأي اضطرابات جديدة ستهدد عاجلاً أم آجلاً السلام في أوروبا نفسهـا ، من هنا كان تشددها ضـد داعية الحـرب المحرض عليهـا . لكن من هو هـذا الداعيـة والمحرض ؟ أمِن المعقول اعتبار من يطلق الرصاصة الأولى داعية حرب ؟ هل كان بوسع محمد علي أن يحتمل دون اكتراث إهانات اتفاق كوتاهية الإجباري ؟ وهل مـا يزال هـو نفسه أميناً لهذا الاتفاق ؟ ألم يطلب الباشا المصري نفسه مساعدة الدول الأجنبية لتنفيذ مخططاته الاستقلالية ؟ هذا وحده كافٍ لتبرير رغبة السلطان الكامنة بـالثأر . كـل هذا

عدا الامتناع عن دفع الأتاوة المشروطة ،وعدا التغيير الكيفي لرجالات الدين المسؤولين في مكة والمدينة ، والذين يعتبر تعيينهم حقاً من حقوق السلطان رأس الإسلام . كل سلوك محمد علي تجاه السلطان وتجاه الدولة ، كان تعبيراً عن تطاوله على الحقوق المدنية والدينية للبيت العثماني .

السلطان ووزراؤه اتهموا بالرياء واللعب على الحبال أمام الدول الأوروبية . وإنما هل كان باستطاعة محمود الاعتماد على النية الحسنة لهذه الدول ، أو على الأقل الاعتماد على موقفها الموحد ، وهذه فرنسا التي تعتبر نفسها حليفة مخلصة للسلطان ، لم تكف منه سنة ١٨٣٣ عن مساندة ادعاءات محمد علي بحقوق له ، وتحث هذا الوالي الخائن على وقاحة جديدة .

هل كان باستطاعة محمد علي أن يركن لنصائح الدول الأوروبية ، والتي كان لكل منها نظرتها الخاصة لأحوال الشرق ، وكانت دائمة السعي إما لكسب منافع جديدة ، وإما لتأمين ثقل جديد في التوازن السياسي القائم يمكنها من تحقيق أطماعها ؟ وحدها الروسيا أسرعت للمساعدة في الأوقات الحرجة ، ودون مقابل ؛ لكن أية مشاعر أظهرتها المنافسات الغربيات تجاه الأمبراطورية العثمانية ؟ كان من حق محمود أن يتمنى ويعمل لحل المسألة التي يتعلق بها مصير الأمبراطورية والعرش ، كمسألة شرقية بحتة ، تحل عائلياً بمحكمة بين السلطان والوالي ، دون أي تدخل من قبل الدول الأوروبية ولكن وبعدما رفضت كل تنازلاته من قبل الباشا الجشع ، وبعدما أصبح هذا الوالي عاماً بعد عام أكثر وقاحة وخطورة ، كان من الأفضل له أن يلجأ إلى السلاح للدفاع عن حقوقه الشرعية ، ولكي يستعيد في عيون شعبه مواقعه الهجومية ، بدل أن ينتظر حملة الجيش المصري الجديدة في ضواحي العاصمة نفسها .

مع كل هذا ، فإن التجربة السابقة مع محمد علي فرضت حذراً جدّياً أثناء تنفيذ الخطة المرسومة . قبل ذلك بعام ونصف ، وعندما اهتزت دعائم الحكم المصري في سوريا إثر حرب حوران ، كان ظهور جيش السلطان عند الحدود السورية كافياً لايصال الأزمة الخطرة إلى ذروتها . نفس عناصر الاستياء الشعبي لم تكف عن الاعتمال داخل الاقليم ، كان من الضروري إعطاؤها فرصة النضوج ، وعندها يمكن تحطيم الحكم المصري في سوريا ، بدل أن تدعى قبائل صغيرة لاعلان العصيان وهي قبائل يعسكر الجيش المصري وراءها بالأصل . كان على حافظ باشا أن ينتظر انتفاضة القبائل الداخلية ، وأن يقدم الباشاوات الشاردين إلى المحكمة في الوقت المحدد ، تحت اعلام السلطان الشرعي منقذ الشعب المظلوم .

الفصل الحادي عشر

مرسوم المجلس عن الحرب - إبحار الاسطول - تنقلات السلطان الاخيرة - مرضه - شبح الأخ - موت محمود - تتويج عبد المجيد - توزع القوى السياسية في العاصمة - خسرو وخليل - بدء العمليات الحربية - أوامر محمد علي التحضيرية (التمهيدية) - أوامر ابراهيم وسليمان - الضباط البروسيون في المعسكر العثماني والائمة في المجلس الحربي - الحركة الالتفافية والهجوم الليلي - معركة نزيب - أسباب اعتدال ابراهيم باشا بعد النصر - خيانة قبودان باشا .

* *

لنترك الجيش قليلاً عند حدود سوريا الشمالية ونلقي نظرة على ما يحدث في القسطنطينية والاسكندرية .

عودة طبار باشا وعمر بك إلى العاصمة وضعت النهاية لتردد الباب العالي بين رغبة السلطان السرية في الحرب وبين تحذيرات أنصار السلام . حسب تقرير المبعوث، كان بناء الجيش الممتاز والتجربة المكتسبة في مملكة كردستان وحماسة وحيوية الرأي العام وراء السلطان، عوامل تتكفل بالنصر المبين . في آخر أيار[1]، وعندما كان حافظ باشا يحتل نزيب، وفي الاجتماع العام للوزراء وكبار الموظفين في الهيئتين المدنية والدينية للدولة، وبحضور السلطان نفسه، تقرر سحب سيف التأديب من غمد الصبر السلطاني . وانطلاقاً من القوانين الاساسية في الامبراطورية العثمانية أصدر شيخ الاسلام فتوى في شرعية هذه الحرب، ولتجنب شرح الموقف أمام السفارات الاوروبية قرر المجلس إبقاء هذه الوثيقة طي الكتمان، باعتبار أن هذا الأمر تدبير عائلي داخلي وليس إعلان حرب، فهو تأديب وكيل مذنب من وكلاء الباب العالي . وفي اليومين التاليين قام الاسطول من مرساه في خليج أمام قصر بشيك طاش، بنزول استعراضي إلى بحر مرمرة حاملاً ستة آلاف جندي من وحدات الانزال . ولم تصدر الحكومة إلى السفارات الاوروبية، أي إعلان عن هذا

---

(١) ٧ حزيران ١٨٣٩ . الناشر .

التحرك البحري. إلا أن هذه التحركات والهمس بها فضحت القرار التركي، وبقيت العاصمة في حالة انتظار مقلقة. ثم ما لبث الاسطول أن أمر بالبقاء في الدردنيل، يكمل هناك بعض التصليحات الداخلية، بانتظار أوامر لاحقة.

استعرض السلطان اسطوله بنفسه، وهو الذي جهد في تطويره حسب النظام الاوروبي لسنوات متواصلة ثم سلم قيادته لمحبوب قلبه المقرب أحمد فوزي. قبل إبحار الفرقة الثانية بقيادة قبودان باشا نفسه، زار السلطان يرافقه كبار رجالات الدولة سفينة الادميرالية «محمودية» ذات الـ ١٤٠ مدفعاً والمبنية حديثاً في فترة وجيزة بروعة وأناقة نادرتين. وفي هذه الزيارة قضى السلطان قرابة الساعة في حديث سري مع الاميرال قبل إعطائه أوامره الاخيرة.

منذ بعض الوقت كانت قد ظهرت لدى السلطان بعض الاعراض المرضية. وفي هذا اليوم وأثناء الزيارة بالضبط دهش الجميع لهزاله وشحوب وجهه ونظراته الباهتة. صعد الدرجات إلى ظهر السفينة بصعوبة بالغة، مما استوجب مساعدته في خطوة المترنح بشكل جدي، وليس وفق ما يتطلب دلع الاتيكيت الشرقي. وإنما أثناء محادثاته على ظهر السفينة مع المقرب اليه أحمد فوزي الذي ركع أمام سيده وودعه باكياً، وأثناء تهليل طواقم السفينة المصطفين بانتظام، وأثناء رعد المدافع من كل سطح الاسطول، أثناء كل ذلك شعت عيون محمود وكأن أمل الانتقام القريب قد أعاد اليه شعلة الحياة، التي حكم عليه بفقدها وإلى الأبد.

في تلك الفترة التاريخية الحرجة كنت متوجهاً إلى سوريا عن طريق القسطنطينية، فقضيت هناك عدة أسابيع تمكنت خلالها من مشاهدة السلطان محمود ولأكثر من مرة. منها واحدة في أول أيار. كان يوم أحد، وكنت في منتزه «المياه العذبة» حيث ظهر السلطان في قاطرة سوداء غير رسمية بمرافقة ولديه وخسرو العجوز. كان وجهه يختفي تحت ماكياج واضح، ليستر عن الناس هيأته المريضة. في ذلك اليوم وللمرة الأخيرة، تنعم مصلح الشرق في جوسق مرمري مفتوح وبحضور أوروبيين عديدين بمشهد تركي قديم، رقص الفتيان.

أثناء زيارته للاسطول كانت عوارض المرض قد أصبحت أشد حدّة ووضوحاً، أهدته الطبيعة جسماً متيناً، إرث القبيلة العثمانية، لم يمرض في حياته تقريباً، وقد تحمل في ديوانه، مشقات عمله الذي كان يستهلك ٨ ساعات من وقته يومياً. وبسعادة أيضاً تحمل تعب الاستعراضات والمناورات والحفلات التهتكية الليلية، التي كان يغط بعدها في نوم سباتي عميق.

في السنوات الأولى من محاولاته الاصلاحية كان محمود يحب الشمبانيا التي ما لبثت أن أصبحت بالنسبة إليه مثل الشربات عادية مستهلكة دنقة لافراطها في الحلاوة، فراح يكرع الرووم على امتداد سنوات، وأخيراً لم يبق أمامه إلا الكحول المقطرة. التستر المعهود في الحياة الشرقية أخفى عن الشعب حفلات السلطان الخلاعية وعواقبها، أما الاوساط العليا فكانت تدور في أحاديثها على أن السكر الدوري كان يبعث نشاطاً جديداً في فكر السلطان المتعب. والواقع أن السلطان لم يكف عن التدخل حتى في التفاصيل الدقيقة للادارة، فكان يسير باستبداد كلي الامور السياسية وكل تركيب الامبراطورية العام: علاقات الباشاوات مع الباب العالي، البناء الداخلي للوزارات، كل جوانب الادارة العسكرية. بكلمة واحدة كل الصروح الجديدة التي تميز بها عهده. إلى كل هذا كان يشرف على تربية أولاده ويشبع رغبته الداخلية في البناء وإعادة البناء مانحاً الكثير من وقته وماله لتهيؤات خياله الهندسي الخصب.

في السنوات الاخيرة من عمره كانت سوريا شغل محمود المفضل، وقد أشرف بنفسه، دون مشاركة من وزرائه وحتى من وراء ظهورهم أحياناً على مجريات الامور فيها،وكانت كل مخططاته تتحدد في كيفية إخضاع محمد علي السارق المتغطرس وتنفيذ حكم السلطة الواحدة الصارم في مجمل الامبراطورية. لكن برنامجه الواسع الذي وقف عليه مجهود عبقريته توقف عن التنفيذ حين خانته قواه الجسدية الخائرة قبل أن يخونه القدر.

في الربيع، مع بداية ظهور أعراض المرض، امتنع عن المشروبات الروحية، إلا أنه تردد في اللجوء إلى العقاقير. كان يعذبه الأرق وفقدان الشهية والسعال العنيد والبواسير، وتهيج عام في الجسد. وقد أمضى شهري نيسان وأيار في حالة كئيبة كهذه، وبارادة فولاذية ضاعف نشاطه مع بضع التمارين لجسمه المتعب، وأخفى عن المقربين إليه وحتى عن نفسه بالذات تدهور صحته. وبالرغم من الاهتزاز العام في أعصابه، احتفظ محمود بكامل قواه العقلية، تحت تأثير هاجسه الاساسي: الاستعداد لحملة سوريا.

ما إن وصلت الاستعدادات العسكرية إلى نهايتها، وأعطي الأمر للجيش بالتحرك وللاسطول بالابحار من القسطنطينية، حتى انفجر الضابط الذي كان يبعث تماسكاً في قدراته الفكرية والجسدية. الثاني من حزيران وقع السلطان طريح الفراش في حالة ميؤوس منها، كما أفاد مجمع الاطباء الذي انعقد مباشرة في البلاط وفي عداده الدكتور Neier المستدعى من فيينا قبل ذلك بقليل.

قبل السلطان بناءً على اقتراح الاطباء أن ينتقل إلى منزله الريفي في تشامليدجا على

جبل بولغورلو الشهير بهوائه النقي[٢] . لكن المرض كان يستفحل يوماً بعد يوم، والمجمع الطبي المنعقد باستمرار تحت اشراف وزير الصحة حكيم باشا عبد الله افندي الذي كان ولمدة طويلة مقرباً من محمود، كل نفوذ عبد الله الذكي وتأثيره على فكر السلطان لم يستطع إقناعه بضرورة الالتزام بأوامر المجمع الطبي. البلاط والوزراء حاولوا من جهتهم إخفاء مرض السلطان عن الشعب، إلا أن الإشاعة ما لبثت أن انتشرت في الخارج واحدثت حزناً عميقاً في العاصمة المهددة دائماً بتجدد اضطرابات الانكشارية. وقد لوحظ القلق على كل الوجوه، ففي هذه الدقيقة الحرجة قدر المسلمون والمسيحيون خدمات هذا المصلح الذي قدم لشعبه أخيراً الأمن والادارة الانسانية، وإن كانت هذه التقديمات مفتداة بجهد وطني كبير. وانتقامات دامية أصابت اليونانيين سنة ١٨٢١ والاتراك سنة ١٨٢٦[٣] .

السلطانة أسما، أخت محمود المحبوبة، أرسلت طبيبها الانكليزي ميلينجين، وقد أدهش هـ ! الطبيب الحاشية بثاقب بصره وتشخيصه الدقيق لمرض السلطان، وادراكه كل عوارضه الخفية، وقد أرجع مرضه، الذي يسميه Delirium Termens، إلى الإفراط في المشروبات. أحياناً كانت تطغى على المرض حالات السكر، وأحياناً كان ينقشع تفكيره ويطلب بعناد أن ترفع إليه كل تقارير الباب العالي، ويتولى تصريف الامور مع معاونيه. نهار جمعة شعر بتحسن حالته، ورغبة منه بتبديد كآبة الشعب عليه ورغم الحاح مقربيه بالا

---

(٢) كان سفيرنا أ. ب بوتينيف يعيش آنذاك مع عائلته في كاديكي على الساحل الاسيوي للبوسفور على مقربة من بولغورلو. أثناء تنزهنا على الخيل سوية بمرافقة السيدات، مررنا على مقربة من الجوسق السلطاني ورأيت، للمرة الاخيرة، وجه محمود الشاحب بوجنتيه البارزتين. كان يجلس أمام شباكه حزيناً، يسرى عن نفسه بالمناظر الخلابة من حول الجبل، عندما عرف السلطان السفير، وكان يكن له مودة خاصة، أرسل له من يطمئن بلطف الاتيكيت الشرقي، عن صحته وصحة عائلته. الكثير من التفاصيل المثيرة والنكات اللاذعةوالمخلوطة بالقيل والقال عن هذه المرحلة مسطرة في كتاب: **Deux** années **de l'hsitoire d'Orient par Cadalvéne et Barrault.**

هذه الحكاية التي رويتها عن الايام الاخيرة في حياة السلطان محمود، تعتبر إضافة الى التفاصيل المذكورة في نبذات عن القسطنطنية، عن جلوس محمود على العرش ومحاولاته الاولى في ميدان الاصلاح.

(٣) المقصود هنا قضاء محمود الثاني سنة ١٨٢٦ على الفيلق الانكشاري في اسطمبول والاقالية، بعد المباشرة بتشكيل الجيش النظامي وفق النمط الاوروبي. هذا العمل في أساس السياسة الاصلاحية التي أقامها محمود الثاني. الناشر.

يفعل خوفاً من تأثير شمس الظهيرة الحارقة عليه، خرج السلطان على نقالة دراجة إلى المسجد في سكوتاري، وهناك وبعد أن أدى فريضة الصلاة وقع مغمياً عليه. استدعي الدكتور ميلينجين من جديد، الذي لم يتردد باعلام صهري السلطان خليل باشا وسعيد باشا والرجالات الكبار المحيطين به، بأن أيام مريضه باتت معدودة، وإن كل امكانيات الطب تنحصر في تأخير الدقيقة المكتوبة وتخفيف الآلام ليس غير. لذا اقترح الأفيون يعطى بجرعات كبيرة. هنا يلجأ العلم الاوروبي إلى إكسير الشرق لكي يحارب العواقب المميتة للمشروبات التي لعنها النبي صلعم. والواقع أن الجرعات الأولى من الأفيون أعطت مفعولاً عجيباً، إذ استفاق السلطان محمود من غيبوبته وكأنه بعث من جديد وشعر بنفسه تمام الصحة. طار الخبر المفرح في المدينة التي لم تهدأ فيها الزينة والالعاب النارية طوال ثلاثة أيام بلياليها.

بهذا كان البلاط يأمل ربح الوقت لاتخاذ التدابير الامنية اللازمة في حال تتويج السلطان الجديد. في مثل هذه اللحظات الحرجة كانت أبصار البلاط والحكومة والشعب تشخص إلى خسرو العجوز الذي كان بتفكيره وتجربته ونشاطه وتأثيره على عقول الناس وحيازته ثقتهم، قادراً على حماية العرش من الاخطار المحدقة به. دُعي خسرو إلى تشامليدجا من قبل أم ولي العهد[٤] (زوجة السلطان)، وبقي هناك مع أصهرة السلطان دون أن يفارقه دقيقة واحدة. جرعات الافيون بعد أن زيدت أطالت حياة محمود الذابلة عدة أيام أيضاً، إلا أن صراعه مع العلة ضعف شيئاً فشيئاً. الكوابيس المرضية أقلقت في السلطان فكره المشوش أصلاً. أثناء الهذيان، وفي نزاعه مع الموت رأى شبح أخيه مصطفى الذي قضى خنقاً بأمر منه قبل ٣١ سنة.

وأخيراً صباح ١٩ حزيران، انطفأت الحياة في جسد السلطان بعد نزاع طويل. تدابير تنصيب الخلف كانت قد اخذت مقدماً بترتيب من خسرو باشا، ومن خلال الدموع التي ذرفها فوق والده المسجى الذي أحبه برقة، أعلن الخليفة الجديد عبد المجيد ذي الـ ١٧ ربيعاً خسرو باشا صدراً أعظماً وخليل باشا وزيراً للحربية موكلاً اليهما مصيره ومصير الامبراطورية. وتوجه معهما إلى قصر السلاطين القديم في توب ـ كابي لكي يأخذ مبايعة كبار الوجهاء. وفي مساء نفس اليوم ووري جسد السلطان محمود الثرى وسط نحيب صادق من كل سكان العاصمة.

---

(٤) لقب السلطانة محملة فقط أم السلطان، أخواته وبناته قبل جلوس الابن على العرش لا تحمل أم الخليفة أية ألقاب مميزة. المعروف ان السلطان لا يستطيع امتلاك زوجة شرعية.

فتوة عبد المجيد بعثت الحذر عند الحاشية والشعب، وقد وجد الجميع في خسرو الذي غاب طويلاً في عهد محمود، وعاد مع السلطان الجديد غير المدرب على علم الحكم والقيادة، صدراً أعظماً متمتعاً بصلاحيات نائب السلطان، وجدوا فيه السند القوي للتاج الجديد الذي لم يكن ليختار قائداً أفضل.

أعقبت وفاة محمود إشاعات حازمة عن توصيات ونصائح أعطاها لابنه قبيل موته، بتعيين خسرو في منصب الصدر الاعظم وإيكال الجيش والحربية لأمر خليل المجرب المخلص. وقد دعي شبح المتوفى ليبارك الوثيقة التي تنصب ابنه سلطاناً. وبعد عدة أسابيع وخلال تقليد التمنطق بالسيف الذي يحل مكان تقليد التتويج، نشرت بين الناس إشاعة عن حضور باشا منطقة قيدين حسين الرهيب، والذي يذكر اسمه دائماً ملطخاً دائماً بدم الانكشارية، وهذه الاشاعة خدمت في تخويف رعاع العاصمة، حيث بدأ المتذمرون يختفون واحداً بعد الآخر. البوليس السري من ناحية ثانية كان يختار ضحاياه بصمت ويرميهم ليلاً في البحر بعد خنقهم، وكان الهمس الشعبي يضاعف عدد هؤلاء الضحايا فيخاف المتآمرون. وهنا نقول أن ذكاء خسرو، العجوز الاعرج، المثقل وجنتيه بالمساحيق، والذي كان يزداد نشاطاً مع ازدياد سنيّه، هو الذي أنقذ العاصمة والسلطنة اجالاً من مآس جديدة.

قبل وفاة السلطان بثلاثة أيام وفي ١٦ حزيران بالضبط، أرسلت باسم الباب العالي، وبايعاز من خسرو باشا، أوامر إلى السرعسكر حافظ باشا بالكف عن العمليات الحربية، كذلك ارسلت للاميرال قائد الاسطول الراسي عند الدردنيل، أوامر تطلب اليه الرجوع فوراً إلى العاصمة مع أسطوله. إلا أن السيف كان قد سبق العذل، فالامور كانت تأخذ مسارها المغاير تماماً.

عندما أحتل الجيش التركي عين طاب، كما مر معنا، طلب ابراهيم باشا من والده أوامر وتوجيهات جديدة، فالعمليات العدائية قد بدأت بالفعل؛ لم يعد باستطاعة ابراهيم، وأمور الشرق تأخذ انعطافاً جديداً بعد البيانات الحازمة الموجهة باسم الدول الاوروبية إلى ابيه، أن يتصرف سنة ١٨٣٩ مثلما تصرف سنة ١٨٣٢. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم يكن أمامه خيار آخر يغنيه عن الحسم العسكري. إضافة إلى أن وضعه كان يزداد خطورة كل يوم، فالتراب السوري وراءه وحوله يميد ويضطرم عصياناً، حتى أن جيشه بالذات كان معرضاً للعدوى بروح العصيان وبترك راياته المصرية.

فرح محمد علي، تقديراً منه لظروف ابنه وجيشه، لتحمل حافظ باشا مسؤولية البدء بالعمليات المعادية. وفي يوم ٢٦ أيار، أي في اليوم الذي ترك فيه قبدوان باشا العاصمة

مع اسطوله، وبدون أن يطلع أياً من الدول الاوروبية على قراره، تماماً مثلما كان يتصرف السلطان محمود قبلاً، في ذلك اليوم أمر محمد علي ابنه بمهاجمة الجيش التركي، وفي حال انتصاره احتلال ملاطية وأورفا وديار بكر وأن يقف هناك دون أن يعبر وادي كولك بوغاز. وإذا كـان البـاشـا قـد أجبر على التصرف واللجـوء إلى السلاح لكـي يتجـنب الانتفاضة العامة في سوريا، وموت ابنه وفناء جيشه، فإن تهديد اتفاقية خنكيـارا سكلـه سي والخـوف من ظهور الأسـطول الروسي للمـرة الثانيـة في القسطـنطينيـة، عـوامـل لجمت تفكير الباشا ورغبته القيام بحملة أخرى في آسيا الصغرى باتجاه العاصمة، فاكتفى بخطة احتلال السناجق المتاخمة لحدود سوريا الشمالية الشرقية والتي لا يستتبع احتلالها عواقب سياسية ذات أهمية.

كانت الاتصالات بين الجيش المصري العامل في سوريا وبين مصر تجري في هذه الفترة بسرعة هائلة. خلال خمسة أيام وصل أمر محمد علي من الاسكندرية إلى ابراهيم المتمركز في مخيماته في العراء عند الحدود المسماة بنهر الساجور أحد روافد نهر الفرات. وبناء على هذه الاوامر توجه ابراهيم فوراً إلى الامام مع مفارز خفيفة إلى ما وراء خط الحدود مع تركيا، وتبعه الجيش كله بإمرة سليمان باشا. في المزار وعلى بعد ١٠ فـراسـخ من النزيب كانت مواقع الاتراك المتقدمة، وقد اجبروا بعد معارك خفيفة على التراجع والالتحاق بمعسكر حافظ باشا الحصين. وفي اليوم التالي وتحت حماية البدو وتغطية مدفعية الخيالة تقدم ابراهيم مع سليمان والقيادة العامة إلى نزيب لاستكشاف مواقع العدو، فتواجهوا مع مفارز الخيالة غير النظامية باشي بوزوك والمدفعية والتي كان السرعسكر قد أرسلها إلى هناك، حصلت بين الطرفين رمايات قصيرة بالرصاص، تبختر أثناءها الخيالة الاتراك مزهوين زاعقين في الميدان، دون أن يمنعوا المصريين فعلياً، من استطلاع تحصينات المعسكر: سبع طوابي قوية كانت تحمي الجبهة.

في تلك الفترة كان ابراهيم مستعداً لأن يقود صفوفه إلى الهجوم، إلا أنه تراجع بناء على نصيحة سليمان باشا الذي يدين له محمد علي ببناء قوته العسكرية النظامية، والذي كان قد درس على الطبيعة، الاستراتيجية العسكرية للمنطقة في حملاته السابقة في بلاد المورة وسوريا. وسليمان هذا ضابط فرنسي اسمه Sèves[٥] خدم برتبة كابتن في جيش نابوليون ولكنه تخلف في مصر بعد رحيل الفرنسيين. في اليوم التالي من حركة المصريين تلك، نسب الاتراك تراجع العـدو عـن إتمام هجـومهـم إلى عـامـل الخوف، إلا أن الضبـاط

---

(٥) Octav Joseph de Séves (١٧٨٨ - ١٨٦٠) ضابط فرنسي خدم في مشاة البحرية، في الخيالة، سنة ١٨١٦، دخل الخدمة في مصر كمدرب في جيش محمد علي الناشر.

النمساويين العاملين في خدمة حافظ باشا فطنوا بسهولة لخطة ابراهيم باشا: القيام بحركة التفافية والهجوم من الخلف (من العمق). وبهذه الطريقة يفقد المعسكر التركي كل منافع الموقع الذي اختاره وحصنه بعناية. وقد حاول هؤلاء الضباط تنبيه حافظ باشا واقترحوا عليه العودة السريعة إلى المعسكر الحصين في بيرجيك، على ضفاف الفرات والاعتماد على النهر في حماية المؤخرة. إلا أن حافظ باشا خاف من اتهامه بالهرب أمام العدو، واستدعى إلى الاجتماع رجال الدين الذين كانوا بهذيانهم وهرائهم يبعثون النشاط في الجيش، فأعلنوا للمرعسكر أثناء اجتماعهم ان جيوش السلاطين «المنصورة» (اسود الاسلام حسب التعبير الحرفي للمقطع التاريخي التركي) بشهادة الاسفار العثمانية، كانت تتقدم إلى الامام ولم تنحرف عن المعركة، وبأن قضيتها عادلة، وبأن الله سيصرع العاصي المرتد إلخ...

في هذه الأثناء كان مصير الجيش العثماني قد حسم: كانت قوة هذا الجيش تكمن في عدم تحركه، وهذا خطر جداً بالنسبة لابراهيم في ظل غمامة العصيان التي كانت تتجمع في أفق سوريا. من الخطأ الكلي تجربة القوى المادية، في حال تكون فيها القوى المعنوية وحدها قادرة على تأمين نجاح لامع.

إذا كان حافظ باشا، مخطئاً بعدم عبوره إلى معسكر بيرجيك ساعة شعوره بحركة الجيش المصري الالتفافية، فإن هذا التصرف يبرر على الاقل بخشيته انتشار الخوف لدى جنوده، وخشيته من فقدان الجزء الاكبر من عرباته. أما الأمر الذي لا يسامح عليه فهو تلكؤه، خلال مناورات جيش العدو التي استمرت مدة يومين حول معسكره الحصين، في احتلال الشعب والجسر الذي كان ينتظر أن يمر عليه المصريون، وهذا ما كان يلح الضباط البروسيون على حافظ باشا أن يفعله. إن تحديد ساعة الهجوم ومكان المعركة في يد حافظ باشا وحده، وبدل أن يتصرف بسرعة أعطى العدو فرصة إتمام أكثر المناورات وقاحة بصفوف طويلة بشكل جيش عظيم وفي أماكن متقاطعة بشقوق عميقة وانهار وعقبات، حيث كان من الممكن طحن الجيش المصري المتعب من هذا العبور الصعب، فيما لو سارت الامور عكس ما ارتأى حافظ باشا وتصرف.

في اليوم الاول لكي يشغل الاتراك ويحتل الجسر والشعاب، قام الجيش المصري بعملية عبور على مرأى من العدو وعلى مسافة ٥٥ فرسخاً منه، وقبل غروب الشمس لساعتين احتلت المدفعية التركية الخفيفة مرتفعاً وراحت تقصف المصريين دون أن تلحق بهم أي أذى. وبعد أن عبر المصريون شعب الوادي ونصبوا خيامهم في مكان مكشوف في الوادي قرب مجرى النهر على بعد سبعة فراسخ من المعسكر التركي، فقط عند ذلك تسللت في عتمة الليل إلى المرتفع القريب، أربع بطاريات مدفعية تركية وراحت ترمي

التجمع المصري بنار مدافعها ذات الرماية المنحنية فأحدثت في المعسكر فوضى وارتباكاً كبيرين. كنا قد لفتنا النظر إلى أن ابراهيم باشا، وتبعاً لنظامه الإستراتيجي في المعارك، كان يحتفظ وراء صفوف المشاة بوحدات مدفعية تعيد برماياتها الهاربين إلى الصفوف. وفي هذه الليلة، وما إن فتح الاتراك نيران بطارياتهم حتى أسرع المدفعيون المصريون، وهم بالعادة من أوفى العناصر واكثرها اخلاصاً، وبحركة عفوية وبدون انتظار الاوامر، بدأوا فوراً بالرد على النار بالمثل. وبهذا انقذوا الجيش المصري الذي كان نصفه ينتظر الفرصة للانضمام إلى العدو. وبالفعل كانت هناك كتيبتان، جنوداً وضباطاً يفتشون عن طريق تقود نحو المعسكر التركي، وقد قطع البدو عليهم الطريق وأعادوهم إلى ابراهيم الذي صدق ادعاءهم ضلال الطريق في العتمة أثناء الفوضى التي أحدثها القصف التركي. باختصار، بضعة مئات فقط من جنود ابراهم نجحوا في الهرب والانضمام إلى معسكر الاتراك. المعلومات تؤكد أن فكرة القيام بهجوم مضمونة النتائج راودت فكر السرعسكر تلك الليلة، إلا أن موقف الائمة ونصحهم بأن معارك حروب المؤمنين يجب أن تجري في وضح النهار، وليس في ظلام الليل وكأنهم خفافيش، جعلت حافظ باشا يتراجع ويلبث منتظراً الهجوم المصري، متنازلاً لعدوه عن كل منافع وامتيازات موقعه، واكثر من ذلك فقد اضطر هو نفسه أن يقلب على البطانة (القلب) كل خطته الحربية وأن يترك في المؤخرة تلك الطوابي التي كانت تحمي الجبهة (المقدمة).

في اليوم التالي تابع المصريون تنظيف بنادقهم واسترخائهم تحت الشمس فالجنرالات وحدهم كانوا يملكون خيماً في هذه المحطة الحارقة، حيث كانت تصل درجة الحرارة في الظل إلى ٣٠ْ درجة (ريومور). الطعام كان وجبة واحدة في اليوم حصة الجندي فيها نصف رغيف محمص لا أكثر. نصف الرغيف الأخير أعطي للجندي المصري في اليوم الثالث من تواجده هناك في ١٢ حزيران، حيث أعلن ابراهيم باشا لجنوده بعد ذلك بأنهم سيجدون كل المبيعات وبكثرة في معسكرات الجيش التركي. ثم تابع حركته الالتفافية ونزل إلى الميدان الذي اختاره موقعاً لمهاجمة العدو من الخلف.

نجح الاتراك بوضع بعض طوابيهم أمام جبهتهم الجديدة. وفي البداية قاد ابراهيم باشا صفوفه عامودياً على أمل أن يخرج الاتراك إلى الميدان المنبسط، وعندما رأى أن هؤلاء يعملون على أن تكون المعركة في خطوطهم بدأ بالمناورة الموازية وأمر فجأة باحتلال المرتفع الواقع عند الجناح الايسر لجيش العدو، حيث كان بإمكان المدفعية من هناك أن تصيب بنارها كل الميدان. عندها فقط أدرك حافظ باشا أهمية هذا الموقع وحاول إلهاء المصريين. وهكذا بدأت المعركة.

لم تعرف الصدامات العسكرية في الشرق، منذ ادخال النظام العسكري الاوروبي جيوشاً، أكثر من هذين الجيشين، حيث كانت قوى الطرفين متساوية تقريباً. في جيش السلطان كان هناك ٥٧ كتيبة (١١ حراسة، ١٧ كتيبة صف، و٢٩ كتيبة ميليشيا نظامية ـ رديف) ٥٠ سرير خيالة (١٨ حراسة، ١٢ صف، و٢٠ سرية خيالة غير نظامية من السباهي وباشي بوزوك). المجموع ٣٣ ألف جندي مشاة و٥ آلاف خيال و١٤٠ مدفعاً و٣ آلاف طلقة. أما الجيش المصري فكان يتألف من ١٤ فوج (آلاي) مشاة و٣كتائب و٣٢ سرية خيالة نظامية وحوالي ٣ آلاف بدوي وباشي بوزوك و٤ أفواج مدفعية و١٣٠ مدفعاً. المجموع حوالى ٤٠ ألف جندي.

كان هناك بالطبع امتيازات مادية ومعنوية كثيرة في الجانب التركي، إذ كان الجندي أسلم صحة وأفضل كساءً وغذاءً، وبطبيعة الحال كان أكثر حباً للقتال بما لا يقاس من المجندين السوريين والمصرين، وبالتالي كان أكثر نشاطاً وشجاعة، إضافة إلى أنه كان أكثر اخلاصاً لراياته، فبقتاله كان يقترب أكثر من شعوره وواجبه الديني. الجيش التركي نسي تعب الطريق بعد استراحة عدة أسابيع في المعسكر، وتخلص من الامراض التي اتعبته طوال فصلي الشتاء والربيع. الحملات الناجحة ضد الاكراد، أكدت له أخيراً امتيازات التكتيك الجديد ورفعت ثقته بنفسه، فللمرة الاولى يستمد الجيش التركي روحاً من التفاؤل الشجاع، الذي كان في القديم، يخلق العجائب في العساكر الانكشارية.

في الجيش المصري كانت انضباطية الجندي والمزايا الشخصية لقائديه الكبيرين. هي كل ما يقابل تلك الامتيازات المهمة التي عرضنا لها في الجيش العثماني. نصف النظاميين المصريين وكل المجندين السوريين دون استثناء كانوا مرتبطين براياتهم خوفاً لا أكثر. كان بإمكانهم تذكر انتصارات سنة ١٨٣٢، ولكن ما هي الامتيازات التي خلفتها تلك الانتصارات، جنوداً مع إبراهيم باشا؟ سبع سنوات كان محكوماً عليهم باستمرار القتال ضد أبناء قبيلتهم في سوريا والجزيرة العربية. وكذلك سماع لعنات مواطنيهم. لا الشعور الديني، ولا شرارة الحماس الحربي، استطاعتا أن تبعثا النشاط في الجماهير المستعبدة، المكبلة بسلاسل التنظيم والانضباط إلى مصير الطامح محمد علي باشا المحاط بالخوف والمجد. من الناحية الجسدية كان المصري أضعف بنية من نظيره الجندي التركي، ولكنه كان في نفس الوقت أكثر إدراكاً للمتاعب واكثر تصبراً على الحرمان، هذا بالاضافة إلى تلوحه وتشبعه بالشمس الاستوائية، ولهذا منتهى الأهمية، ففي يوم المعركة قرب نزيب كانت درجة الحرارة في الظل تصل إلى ٣٠ درجة كما سبق وأشرنا.

إن الامتيازات التي كان يحق للجيش التركي أن يفاخر بها أصبحت قاتلة: فقد

أعيرت راحة الجندي اهتماماً عظيماً، ومع تطور نظامه الحربي لم يبخل محمود بأية تضحيات في سبيل أن يجمع شعبه حول خدمة الصف[٦]. وقد درج البذخ خاصة في الأكل وفي اقامة العسكريين وسكنهم بشكل لا نجده على الاغلب، في أي بلد اوروبي آخر. بدأوا بحماية الجنود من الشمس والبرد والرطوبة وكأنهم أطفال. طعامهم كان اللحم والخضار والارز، وكانوا يخافون عليهم من تعب المناورات الصيفية. كل هذه الامور انعكست في التربية النفسية للجندي. كذلك أقدمت القيادة، في محاولة لتحسين سمعة خدمة السلاح ودرء سوء استعمال السلطة، على تخفيف العقوبات بشكل لا يتناسب مع درجة الوعي الشعبي، ومع مفاهيم الشعوب الشرقية عن حقوق الرؤساء. بعيداً عن الجبهة كان كل الضباط حتى رتبة رائد يمرون جانب جنودهم العاديين وكأنهم متساوون في الرتبة، أما أمام العقداء والجنرالات فكانوا يتزلفون بكل إذلال التقاليد القديمة للاتيكيت التركي. كل هذا لأن المراسيم والعادات الجديدة ادخلت من قبل الرؤساء الكبار الذين كانوا يوافقون بسرور على تقريب الضباط من جنود الصف العاديين، لكنهم في نفس الوقت احتفظوا لأنفسهم بإرث المراءاة في التقاليد القديمة[٧].

في الجانب المصري كان الانضباط العسكري خلال المرحلة القلقة من حكم محمد علي باشا في سوريا، قد رفع إلى الدرجة القصوى. وقد تعود الجندي المصري على تحمل كل المصاعب، كان يقظاً باستمرار ولا يشكو الحرمان، يطيع رؤساءه بشكل أعمى. كان ابراهيم القائد الحاكم بأمره في الجيش، به يتعلق مصير كل الضباط، الذين كان اخلاصهم الدائم يتعمق بأمل الترقي، خاصة وأن معاشات ذوي الرتب العالية من مقدم فما فوق كانت مرتفعة. أخيراً كان ابراهيم يعرف كيف يقدر التفوق العسكري الستراتيجي لآمر غرفة عملياته (آمر القيادة العامة) سليمان باشا، وكان يثق بكل خططه، وكان ينفذ بدقة كل تغير أو تطوير فيها، وحتى المعركة نفسها، لدرجة أن ابراهيم رغم كبريائه الآسيوي كان يتحمل بصبر طباع قائده الحادة.

في المعسكر المقابل، كان في الجيش التركي عدداً من ضباط الاركان البروسيين، إلا

---

(٦) كان الجندي اثناء تشكيل الجيش النظامي عام ١٨٢٦، يكلف سنويا ٥٠٠ قرش، أي ما يعادل في تلك الايام، ٤٠ روبلاً فضياً، بعد مضي ١٣ سنة اصبحت كلفة الجندي السنوية ثمانين روبلاً فضياً.

(٧) سنة ١٨٤٢ واثناء وجودي عند سرعسكر مصطفى باشا، ركع المارق النمساوي عمر باشا أمام مصطفى باشا وقبل رجله، بعد أن رقاه الى رتبة جنرال ماجور. قبل ذلك بقليل كان مقبل الارجل هذا يتغدى عندي مع الكثير من الضباط الانكليز، وكان أرفع الحاضرين رتبة.

أن حافظ باشا لم يكن يعيرهم أذناً صاغية، أما الباشاوات الذين كانوا تحت امرته، وبعضهم يتمتع بتربية أوروبية، فكان يرى فيهم، وليس بدون سبب بالطبع، الحساد الراغبين بالقضاء عليه ليس غير.

بمثل تشكيل الجيشين الآنف، وبعد الاخطاء المبكرة للجنرال التركي، بات من غير المعقول الشك بنجاح ابراهيم. بعد احتلال مدفعيته المرتفع المشرف على الجناح الايمن للجيش التركي، وجه ابراهيم كل قوة جناحه الايمن صوب الجناح التركي الأيسر، مؤجلاً اشراك قلب جيشه وجناحه الايسر في المعركة. وقرر أن يقود بنفسه هجوم خيالة سريع إلى مؤخرة الجناح الايسر المعادي ومحاصرته داخل الطوابي وبذلك يفصله عن المعسكر ويسحقه تالياً بالضربة القاضية. وافق معه سليمان باشا على هذه الخطة، شرط أن يجري الهجوم بواسطة سرايا خيالة بين الواحدة والأخرى مسافات كبيرة كي لا يقع جمهور خيالته الكبير الذي يحوي كل صف من صفوفه على ١٥ حصاناً، تحت رحمة المدافع التركية. لم يعر ابراهيم أذناً صاغية لهذه النصائح أو أنه لم يستوعبها، وبدأ هجومه بكل خيالته، ولكن مناورته تلك لم تنجح وفشلت بعدة زخات من الرصاص، وفي الوقت نفسه نفدت ذخيرة جناحه الايمن، فبدأت كتائب هذا الجناح الـ١٦ بالتراجع المشتت، ولم تنفع في ردهم كل محاولات ابراهيم باشا ولا بسالة ضباطه الاوائل الذين كانوا واحداً بعد الآخر يسقطون بالنار العدوة. في هذا الوقت كان سليمان باشا وبأعلى صوته، يشتم ويلعن ابراهيم ويلجأ إلى وسيلته المعتادة لمنع الهرب وارجاع الجند، فوجه نحوهم من الخلف نيران مدفعيته وأجبرهم على مواجهة النار العدوة، حتى تمكن في النهاية من ايصال الذخيرة اليهم(٨). لقد تباطأ حافظ باشا كثيراً في هذه المرحلة من المعركة، إذ لو قام بهجوم سريع للخيالة أو دفع المشاة بالسلاح الابيض لتمكن من القضاء على كل الجناح

---

(٨) هذه النقطة تبقى غامضة في كل الروايات عن معركة النزيب. كل ما نعرفه عن حيثيات المعركة وتكتيكاتها مأخوذة عن رسالة لسليمان باشا منشورة في المجلات الفرنسية، والذي لم يكن نظراً لعلاقته بالباشا المصري، لينشر على الملأ غلطة هذا الباشا الفادحة ومناورته الفجة، والتي كادت أن تفقده المعركة. أما تفاصيل الفوضى العامة التي سببها تراجع الخيالة فإنها لا تشرف الجنرالات المصريين، وتفضح في نفس الوقت موقف الجندي المصري الذي طالما جهد محمد علي في إخفاء خلفيته عن أنظار أوروبا. على سبيل المثال، بماذا نفسر عدم هجوم المشاة بالحراب عندما نفذت الذخيرة لديهم بعد ساعة من بدء المعركة، وهذا مستغرب اصلاً، سوى بخوف الجنرالات من انتقال جنودهم الى جند العدو، يمكن القول وبكل تأكيد بأن المدفعية هي وحدها المنتصرة في معركة النزيب.

الأيمن للمصريين. وقد حاول متأخراً استغلال حالة الفوضى لدى الجيش المصري، ولكن هذه المحاولة انقلبت عليه وبالاً، إذ أن خيالته التي خرجت للمواجهة مع الجناح المصري الايمن المضطرب، وجدت نفسها أمام صفوف قد تماسكت من جديد وأمام هجوم مدفعي مصري جديد على مسافة ١٠٠ ساجين (الساجين متر و١٣ سم)، فتراجعت الخيالة التركية هاربة إلى الوراء وأثارت الاضطراب في صفوف الجيش التركي بكامله. وفي هذه المرحلة تقدم إلى الامام القلب والجناح الايمن المصريين اللذين لم يشتركا حتى الآن في المعركة. وبعد نصف ساعة كان الجيش التركي قد احبط تماماً ولم تنفع عجائب الشجاعة التي أبداها حافظ باشا في اصلاح غلطته، وتعديل مسار المعركة، فقد اندفع بنفسه إلى حمأة المعركة أكثر من مرة، لكي يجذب وراءه صفوفه المضطربة، إلا أن المعركة كانت قد حسمت.

كل المعسكر وكل العربات، ١٠ آلاف أسير، ١٢ ألف بندقية، جزء من خزينة الجيش وحتى شعارات السرعسكر المصنوعة من الالماس، وكل الأوامر العسكرية والوثائق السلطانية التي تتعلق بتلك الورشة الحربية، كل هذه كانت من نصيب المنتصرين. أما القتلى والجرحى فكانوا حوالى سبعة آلاف اقتسمهم الطرفان بالتساوي..

حط ابراهيم باشا رحاله في المعسكر التركي، وارتاح في خيمة حافظ باشا الرائعة، وفي اليوم التالي احتل المعسكر الحصين في بيرجيك، وقد وجد فيه ٤٠ مدفعاً ثقيلاً. البقايا الناجية من الجيش التركي. فرّت إلى الجبال القريبة. المجندون الاتراك تسلقوا جبالهم. نظاميو روميليا وآسيا الصغرى نجوا بأنفسهم مع جنرالاتهم والتحقوا بالفرق الاحتياطية في مالاطية وأنقرة. كان هذا هو مصير الجيش الذي كان حسب تأكيدات حافظ باشا المتغطرس سينفذ إلى مصر بعد معركتين. هل نستطيع أن ننسب خسارة معركة النزيب إلى الاخطاء الستراتيجية للقائد التركي أم ننسبها لصدف الحرب؟ الشعوب تصف المعارك بأنها حكم الله، وهذه صفة ليست بدون أساس ونحن أمام هزيمة الجيش التركي في نزيب نرى، وبدون كبير عناء، تدخل الرب الذي أنقذ بانتصار ابراهيم باشا السكان المسيحيين في سوريا وفلسطين من مآس عظيمة، نظراً لنوايا القبائل المحمدية في هذه البلاد، وهذا ما تحدثنا عنه في الفصل السابق، إذ ان انتصار الاتراك، وهذا ما لم يحدث، كان سيشكل بلا شك إشارة لانطلاق عامة الشعب الفقيرة المفلسة، وقبل وصول حافظ باشا إلى داخل سوريا في شهوات فوضوية مجنونة، للقضاء على المسيحيين في حلب ودمشق وفي مدن أخرى، ولنهب كل مقدسات القدس. (ملاحظة).

فرض ابراهيم باشا بعد انتصاره جزية ضخمة على سكان عين طاب وغيرها من المناطق

العائدة للاتراك، واستقر في مرعش على الرغم من أن الطريق إلى اسطمبول كانت مفتوحة أمامه. لم يجدد محاولة ١٨٣٢، وحتى أنه، وخوفاً من اتفاقية خنكيار اسكله سي، لم يدع قبائل آسيا الصغرى إلى التمرد. ولكنه ما لبث بعد فترة أن انشغل باخضاع الاضطرابات المشتعلة وراءه في سناجق سوريا الشمالية، وهذا برهان أكيد، على ما سبق وأشرنا إليه من أن قوة الجيش السلطاني كانت تكمن في عدم تحركه واكتفائه فقط بالمراقبة. ولو عمل حافظ على تجنب المعركة لمدة أسبوعين أو ثلاثة لاستطاع الحصول على سوريا بدون معركة.

وبالمناسبة هنا، يجب التذكير بأمر أثار من جانب فرنسا ادعاءات وتفسيرات لا مبرر لها، ومفاده أن فرنسا حذرت مرة أخرى ابراهيم باشا من حملته إلى آسيا الصغرى، حتى أن وزير العلاقات الخارجية المارشال سولت ارسل في أيار، اي عندما كانت الدول الاوروبية مضطربة للازمة التي تعتمل في الشرق، اثنين من مساعدي المسيو كايبه والمسيو فولتز، إلى الاسكندرية والقسطنطينية. مع نصيحة لمحمد علي وللباب العالي بتحاشي العمليات العسكرية أو الحد منها قدر الامكان، وأن يثق الطرفان في كل الحالات بالوساطة الاوروبية. حضر الكابتن كايبه إلى الاسكندرية بعدما كان محمد علي قد أرسل أمره إلى ابراهيم بمهاجمة الجيش السلطاني، وقد ذكرنا أن هذا الأمر كان ينهى ابراهيم عن اجتياز طوروس. إلا أن الباشا الخبيث، المعتاد على ذر الغبار في عيون الديبلوماسيين، وتضخيم قوته ووسائله ونفوذه ومخططاته بشكل خيالي، أخفى هذه المرة عن المبعوث الفرنسي فكرة الامر الذي أعطاه بنفسه لابنه ابراهيم وبدأ يتبجح بأن جيوشه ستحتل آسيا الصغرى إلى حيث دعاه حب الشعب وسيذهب دون توقف إلى القسطنطينية مهما كلفه الأمر. الفرنسيون من جهتهم سعوا بالحاح للاعتدال في النصر. كان لكل ذلك تأثيره الاستعراضي. أخيراً قَبلَ الباشا الممثل العجوز، واحتراماً للحكومة الفرنسية كما ادعى، أن يكتب لابنه ابراهيم، بأن لا يفتتح عمليات عسكرية، وأن لا يعبر جبال طوروس بأي حال من الاحوال والتوقف في حال الانتصار في المكان الذي يستلم فيه الرسالة من الياور الفرنسي (كان أمر محمد علي بالهجوم الفوري قد أرسل إلى معسكر ابراهيم قبل ذلك بـ ١٨ يوماً، وكان الباشا العجوز متأكداً من أن أمر الصدام قد قضي) ثم أنه بحجة عدم وجود سفينة متجهة إلى سوريا، أمسك بالمبعوث الفرنسي أربعة أيام في الاسكندرية، لكي يفسح في المجال أمام ابراهيم بالتقدم ما فيه الكفاية، بما يتناسب وروحية الامر الاول، دون أن يتوقف في أية حال، وعلى مرأى ومسمع المبعوث الفرنسي عن متابعة استعداداته الحربية. وأخيراً في ١٧ حزيران أدرك الكابتن كايبه، ابراهيم باشا في الطريق

بين عين طاب ومرعش، على مسافة ثلاثة أيام من المدينة الأخيرة. وهنا في المعسكر، أعاد ابراهيم نفس الكوميديا التي لعبها أبوه في الاسكندرية، فقد أعلن، وهو الذي يخضع لارادة والده بشكل أعمى، أنه رغم أوامر والده سيتجه مباشرة إلى قونيه، ومن هناك إلى حيث الله أعلم... وأخيراً، واحتراماً لكلمة الحكومة الفرنسية وحسب، رضي بالاذعان لطلب والده ومع تعهده ذاك، فإنه لم يتوقف حيث أدركه المبعوث الفرنسي بل تقدم حتى مرعش تمشياً مع الخطة الاساسية لحملته. الحكومة الفرنسية من ناحيتها لم تتردد في إعلان رضاها عن مثل هذه الوعود الهشة، ضماناً للاعتدال وتوقف الحرب. أكثر من ذلك فقد نسبت لتوسطها توقف ابراهيم في مرعش، وأبرزت نفسها كحامية للسلام في الشرق ومنقذة للامبراطورية العثمانية من العواقب اللاحقة لمعركة النزيب(٩).

في هذه الفترة من العمل الديبلوماسي يجدر أن نذكر أمراً آخراً: كانت فرنسا وبمبادرة منها، قد تقدمت بنصيحة لمحمد علي باشا تحثه على الثقة بالوساطة الاوروبية، ثم أنها رددت مع الدول الاوروبية هذه النصيحة إلى القسطنطينية والاسكندرية، ولكن فرنسا، وعندما حانت ساعة حفظ الوعد المقطوع، عادت بكل ثقلها ونصحت الباب العالي ومحمد علي بتسوية أمورهما دون وساطة الدول الاوروبية. هذا التناقض والتأرجح في السياسة الفرنسية، الخاضعة لنفوذ الاحزاب الداخلة في الحكومة، والمحكومة بتحامل

---

(٩) يسرد الكتاب الفرنسيون بدقة كل تفاصيل هذه المفاوضات ويذكرون بأمر محمد علي الاول الى ابنه ابراهيم بعدم تخطي جبال طوروس. ومما يثير العجب بأنهم رغم كل ذلك ينسبون اعتدال المصريين بعد النصر الى وساطة حكومتهم. إن كتاب **Deux** années de l'histoire d'orient (1839 - 1840), par Cadalvéne et Barrault »

يتفرد عن غيره بطموحه'للاختلاق السياسي، لذا نراه طافحاً بالنمائم الكاذبة المكتوبة باسلوب الواثق من نفسه.

قارنوا الفصل الرابع، الذي أدخلت في نهايته رسالة محمد علي لابنه ابراهيم كاملة والمؤرخة بـ ٢٨ أيار، مع الفصلين الخامس والسادس.

كاتب فرنسي آخر **Louis Blanc** صاحب كتاب «**Histoire de Dix ans**» الذي أثار ظهوره ضجة كبيرة في أوروبا، والذي يتهم دائماً وبكل شيء كل الحكومات الفرنسية المتعاقبة من سنة ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠، الا أنه عند تناول النقطة التي نحن بصدد الحديث عنها فإنه يعتمد على كتاب Cadalvène et Barrault ويزعم بأن الذي اوقف ابراهيم في طريقه الى القسطنطينية كان ظهور الضابط الفرنسي في معسكر المصريين وبهذا وحده تم تفادي الحرب الاوروبية. بهذا الشكل الطفولي المتعجرف يكتب التاريخ الحديث في قرننا، أناس يطلقون على أنفسهم اسماء شهود عيان، ثم يتبين أنهم متحيزون وحيدو الجانب في حكمهم على ما يجري أمام عيوننا.

الشعب على السياسة الحكومية أصلاً، أوجد في فرنسا أزمة ١٨٤٠، وهيأ المواد المتفجرة التي كانت توشك أن تحاصر أوروبا بنار عامة، بمناسبة الصراع بين السلطان التركي ومحمد علي باشا.

لننشغل قليلاً بمغامرات الاسطول العثماني. كنا قد ذكرنا بأنه أعطي قبيل موت محمود أمراً بالعودة إلى العاصمة. وهذا التدبير يعود إلى رغبة خسرو بتجنب حرب جديدة مع مصر، وهو تدبير له أهمية قصوى في تلك الظروف: لم يكن في العاصمة عند تتويج خليفة السلطان المتوفي، قوات كافية لقمع أي اضطراب لحظة حدوثه. ومباشرة مع تولي عبد المجيد صدرت إرادة سلطانية بترقية قائد الاسطول أحمد فوزي إلى رتبة قبودان باشا، مع تأكيد الامر السابق بضرورة عودته فوراً إلى العاصمة.

توالت الأيام ولم يعد الاسطول، ووسط مظاهر الزينة والاعلام والرايات ودوي المدافع التي أقامها بمناسبة تتويج السلطان الجديد، وصدور الفرمان بتعيينه قائداً للاسطول، أخفى أحمد فوزي باشا بعناية الاوامر المتكررة بالعودة إلى العاصمة. في ٢٢ حزيران خرج الاسطول من الدردنيل إلى عرض البحر، وهناك عند تينيغوس كان الاسطول الفرنسي بقيادة الاميرال «لالاند» يجوب البحر مع أوامر بضرورة منع العمليات العدائية بين الاسطولين الفرنسي والمصري. وكانت الوسيلة الفضلى للوصول إلى هذا الهدف هي التأثير النفسي على الاسطول العثماني لمنعه من الخروج إلى البحر الابيض المتوسط. وبعد أن أضمر في قلبه الخيانة، دخل قبودان باشا في محادثات سرية مطولة مع الاميرال الفرنسي، أبحر بعدها بحرية إلى الاسكندرية ليسلم الاسطول إلى الباشا العاصي. لنتذكر أن قبودان فوزي باشا كان في حياة السلطان محمود، لاهياً بأقدار المملكة، من دعاة الحرب المحرضين عليها لأجل منافعه الخاصة.

الفصل الثاني عشر

الحذر في العاصمة وانتصار محمد علي ـ الاقتراحات السلمية المقدمة من الصدر الاعظم ـ ادعاءات الباشا ـ طموحه للحصول على حق السلطة العليا ـ المراسلة الجارحة ـ وثيقة ١٥ (٢٧) تموز ـ كآبة محمد علي ـ المفاوضات بين الدول الكبرى ـ اختلاف آرائها ـ الاساطيل في الدردنيل ـ سفر كنّة محمد علي للمرة الثانية ـ انحراف فرنسا عن وثيقة تموز ـ نوايا نبير ـ الاصطلاحات الجديدة للامبراطورية العثمانية وأهميتها ـ الاعتراف السياسي بخط كلخانة ـ وعود التسامح الديني ـ الخدمة التي قدمتها النمسا رغماً عنها للروسيا ـ محاولة القيام بمحادثات جديدة ـ التحضيرات العسكرية في مصر والشكاوي إلى القسطنطينية.

* *

في اليوم الاول من تولي السلطان عبد المجيد مقاليد العرش، برزت طباعه الهادئة وميوله السلمية إذ أعلن رغبته بالكف عن الحرب مع الباشا المصري، ولم يبطىء الباب العالي بإعلام السفارات التابعة للدول الكبرى بـالأوامـر الموجهـة بهذا المعنـى إلى الفيلـد مارشال وقبودان باشا، وعن قراره بإرسال عاكف افندي إلى مصر مفاوضا محمد علي. في اليوم الخامس من العهد الجديد، وعندما كانت العاصمة والحكومة تحت وطأة الخوف الذي يلازم عادة تتويج أي سلطان جديد، تسلم الباب العالي نبأ انكسار الجيش التركي في نزيب. ومن ناحية ثانية كان تـأخر قبودان باشا في المثول بأسطوله إلى العاصمة يثير الشكوك والمخاوف ساعة بعد ساعة. في مثل هذه الاوضاع أسرع المدبر خسروباشا بإرسال عاكف افندي على ظهر سفينة مراسلة إلى مصر حيث أعلم محمد علي بترقيته إلى وزير أعلى، وإعطائه حكم مصر وراثياً، مستحلفاً إياه باسم صداقتهما القديمة وحبهما المشترك للإسلام، نسيان الماضي والبقاء على أمانته للسلطان والدولة.

من جهة ثانية، إذا كان الاميرال الفرنسي لم يمنع الاسطول التركي من ترك الدردنيل واللجوء إلى مصر، فإنه لم يتأخر عن إبلاغ هذا النبأ إلى القسطنطينية حيث كانت ضربات السوء المتتابعة تنبىء بانهيار حتمي للعرش المتآكل. حكومة الباب العالي المغلولة اليد نسبت خيانة قبودان باشا لتخوفه وشعوره بأنه كان مسبباً هذه الحرب المميتة مع مصر،

والتي أضرمت بالرغم من نصائح خسرو باشا وتحذيراته. لذلك قررت الحكومة أن تهدىء من روع قبودان باشا باللين والملاطفة. فأرسلت على ظهر سفينة مراسلة سريعة، في نفس اليوم الذي وصل فيه خبر خيانته، مستشار الأميرالية موشين أفندي مع خطي شريف رحيم، يدعو قبودان باشا بالعودة فوراً إلى العاصمة. أدرك موشين أفندي الاسطول عند رودوس، حيث كان الخائن ينتظر جواب محمد علي على عرض بالاستسلام وتسليم الاسطول. استقبل قبودان باشا الفرمان السلطاني من المبعوث بمراسيم عادية ثم أوقف المبعوث ليخفي عن الأسطول مضمون الأوامر السلطانية، وإمعاناً في التضليل ابتهج ببيان السلطان الكريم بدوي مدافعه، معلناً إبرام معاهدة السلام مع مصر، متابعاً في نفس الوقت إبحاره نحو الشاطىء الافريقي، وقد انصاع الاسطول لأوامره، لأن زمرة قليلة جداً من أفراد الاسطول وهم مقربيه الخلص، كانت تعلم بمخططه الاجرامي.

في كل الارجاء التي كانت خاضعة لمحمد علي احتفل بالنصر في معركة النزيب ثلاثة أيام متتالية. في سوريا كان دوي مدافع الابتهاج، كرنين أجراس الحزن، يدفن تلك الآمال التي أنعشها اقتراب الجيش السلطاني من الحدود. محمد علي تظاهر بالحزن أثناء هذه الاحتفالات، كان يؤكد أن ضرورة تبديد الإشاعات السيئة التي سرت بين القبائل الخاضعة له، عن مصير جيشه، هي التي أجبرته على إقامة مثل هذه الاحتفالات بالنصر. هذا النصر الذي كان ثمنه هدر دماء متبادل بين المؤمنين.

ما إن أسلم السلطان محمود الروح، حتى أرسل أحد عملاء محمد علي السريين في العاصمة، النبأ إلى مصر بواسطة زورق يوناني خفيف كان قد حجزه مسبقاً لهذه الغاية. وصل النبأ بعد أربعة أيام من حصول الوفاة، ويبدو أن رياح البحر المتوسط بالذات قد تآمرت مع القدر لخدمة محمد علي في تلك الفترة، فقد بلغ المركب الشراعي الاسكندرية بعد ثمانية أيام ولم يستح الباشا العجوز من أن يعطي للربان أربعة آلاف تعريفة مجيدية (مكافأة) لبشارته الحسنة، حسب التقليد الشرقي. وأخذ يقيم من جديد الاحتفالات وتزيين البلاد وإطلاق العيارات النارية، مدعياً أن ذلك احتفاءً بجلوس عبد المجيد على العرش.

في اليوم الخامس نبأ جديد كاد يودي بالباشا إلى الجنون، فقد وصلت عروض الخائن قبودان باشا بالاستسلام وتسليم الاسطول. قبلها محمد علي على الرحب والسعة. لم يعد الباشا المصري يرى حدودا لطموحاته، وبالفعل خشي المقربون منه أن تؤدي ثورة فرحه وجموح خياله الى علة حقيقية لديه. من جهة ثانية كانت الامبراطورية بلا جيش ولا أسطول قد أصبحت تحت قيادة سلطان يافع ذي ١٧ عاماً، وفي هذه الحالة كان باستطاعة

الباشا العجوز المنتصر أن يفرض بسهولة بواسطة قواه العظيمة البرية والبحرية كل شروطه. كان يحلم أن يبحر على ظهر الاسطول الموحد من سفن الاسكندرية واسطمبول إلى العاصمة بحجة حماية العرش والسلطنة من الاخطار المحدقة. وهنا لا بد من ملاحظة: لو تركت الامبراطورية العثمانية في يد القدر، ولو لم يخف محمد علي من الروسيا التي كانت تمتلك لموقعها المميز أسباباً خاصة لحماية الشرق من هزات جديدة، وتمتلك في نفس الوقت الوسائل السريعة والمضمونة لتذليل طموحات الباشا العجوز، لولا هذا العامل، لم يكن محمد علي، وبدون أدنى شك ليبطىء بالظهور في عاصمة السلطنة السائبة ويخلع الحكومة المطووشة بالمصائب المتكررة. إن البيانات المتتالية التي أصدرتها الدول الكبرى وتحذيرات الروسيا الصارمة لمحمد علي بمناسبة استعداداته لمنازلة السلطان، أجبرته، وهو الذي كان يأمل، من خلال أوضاع السلطنة الحرجة آنذاك أن يحقق على الاقل الملك الوراثي للبلاد التي احتلها بسلاحه، على البقاء ضمن حدود الطاعة للسلطة الدينية والدنيوية الواحدة في الامبراطورية العثمانية.

في هذا الجو وصلت إلى محمد علي رسالة الصدر الاعظم، التي تحمل المنة السلطانية التي سبق وأشرنا إليها. وللمرة الثالثة أمر محمد علي باطلاق النار تعبيراً عن فرحه، وليعلن بصوت عال أمام قبائله تثبيته وابنه ابراهيم في البشاليك الموكولة إليه. الباب العالي مخفياً تخوفه بقناع الهدوء وافق مع محمد علي على الشروط التي كان قد رفضها سنة ١٨٣٧. وهنا نتساءل هل يكتفي الباشا بالحكم الوراثي لمصر؟

ما إن ظهر الاسطول العثماني بقيادة قبودان باشا في أفق مصر حتى طلب سفراء الدول الكبرى من محمد علي إعادته فوراً إلى سيده الشرعي خوفاً من أن يدنس مجده باظهار نفسه شريكاً لقبودان باشا في خيانته المخجلة. أجاب محمد علي على ذلك بأنه لم يفكر قط بالاحتفاظ بالاسطول لنفسه، لكنه سيبقيه في حوزته ضماناً لتنفيذ الشروط التي سبق وتقدم بها إلى الباب العالي.

ما هي هذه الشروط؟ عدا الحكم الوراثي لسوريا وسناجق طوروس والجزيرة العربية وكريت ومصر، كان محمد علي يطالب بتغيير الصدر الاعظم. كان يملك بالطبع أسبابه القديمة لكره خسرو باشا، مع أنه على معرفة تامة بأن خسرو كان داعية السلام في عهد محمود، وحتى في عهد السلطان الجديد فإن كلمة السلام، أول وثيقة قدمت لمصر، كانت بمبادرة من خسرو. كان محمد علي يعرف كل هذا إلا أن ذنب الصدر الاعظم كان، في عرف الباشا المصري، يتلخص بقدرته ونفوذه وإخلاصه للعرش. بكلمة واحدة، بالخدمة التي قدمها للحكومة الواقفة على هاوية الدمار بعد موت محمود، وبعد فقدان الاسطول

وانهيار الجيش.

خسارة الحكومة العثمانية في معركتها هذه. كانت ستؤدي إلى مصائر براقة لابن روميليا الذي بنى جبروته على ضفاف النيل. صحيح أن التحذير الاوروبي لم يسمح له بقلب السلطة المفتتة في اسطمبول، ولكن هل كانت اوروبا قادرة في حال سقوط الحكومة السلطانية تحت رحمة مصير مجهول من منع الواليالموهوب، المجهز بـ ٢٠٠ ألف جندي واسطول ضخم، وتعاطف شعبي في روميليا والاناضول من تشكيل سلطنة جديدة على حطام المارد العثماني؟.

كان مسعى الدول الاوروبية يهدف إلى حماية الشرق من الهزات، وتجنيب أوروبا الحرب، فمن هو الطرف أو الاطراف التي تستطيع تقديم الضمانات الاكيدةللوصول إلى هذا الهدف؟ ومن هو الذي يملك الوسائل الجاهزة لتركيب البناء الداخلي للقبائل الشرقية بشكل يخالف النمط الفوضوي الذين تدين له سوريا ومصر باحلال السلام فيها؟ إن المصير البراق الذي كان يداعب مخيلة الباشا العجوز. تبدد كالحلم على يد عجوز ثمانيني آخر. كان يفتح بخته على ضفاف البوسفور، ويصب اللعنة على طيور النحس التي زارت السلطنة بموت السلطان.

إذا كان محمد علي لا يجرؤ أن يظهر بنفسه في البوسفور كضيف مدجج، فإنه على الاقل لم يفقد الأمل بفرض شروطه على الحكومة والسلطان. ألبس مطالبه ثوباً من الوطنية والولاء للعرش. ووعد، في حال تنحية خسرو وتثبيت حقوق وراثية لعائلته، بالمثول إلى العاصمة كوالٍ خاضع، وأن يرمي عند أقدام السلطان جيشه وتجربته القديمة في إدارة الدولة. وفي جوابه الرسمي على كتاب خسرو، تجنب الاشارة إلى اقتراح حكم مصر وراثياً، مكتفياً بالتأكيد على أنه أمر ابراهيم بعدم التقدم إلى الامام. لكنه وفي رسائله الخاصة إلى خسرو نفسه، وإلى أم وخالة السلطان وشيخ الاسلام وغير هؤلاء من الوجهاء، راح يطالب بتنحية الصدر الاعظم، وفي نفس الوقت أرسل مبعوثيه إلى روميليا والاناضول مع منشور عمومي إلى الباشاوات يصب فيه سموم نقمته على خسرو متهماً إياه بالخيانة العظمى، ناسباً إليه كل تعاسات الامبراطورية، وبدرجة أولى الخلاف بين مصر وبين السلطان السابق محمود، وهو الخلاف الذي أدى إلى المآسي المعيوشة، مع أنه (أي محمد علي) أكثر خدام الامبراطورية خضوعاً. مع إشارته في نفس الوقت إلى تسرع السلطان المتوفى. وهذه الصفة كانت تلوّث الخصائص العظمى التي تحلى بها ذلك السلطان، زاعماً أن خسرو من زاوية رغبته بقتل الاسلام. كان يحث السلطان على كل اخطائه المتسرعة تلك. ثم راح يقدم كل التبريرات لخيانة قبودان باشا، زاعماً أن الاسطول أعلن

بصوت واحد الرغبة بأن ينضوي تحت أسرة خادم الامبراطورية الأمين محمد علي، خو من أن يقدم الصدر الاعظم هذا الاسطول إلى الكفار. وأخيراً باسم الوطنية والدين دعا كل الباشاوات إلى التكاتف لخلع خسرو من منصبه ذاك.

وهكذا نجد أن محمد علي. الذي اتخذ بعد ثلاثين سنة من الجد صفة البادىء بأكثر الاصلاحات جذرية في الشرق. ينهج في سياسته اسلوباً فوضوياً قديماً كأساليب الانكشارية الذين كانوا يطلبون تنحية وزير أو وزراء، وهو هنا لم يكتف بالوصول إلى مآربه وتحقيق مصالح بيته، وإنما كان يطمح إلى منصب السلطة العليا، مطالبا بتنحية رأس الحكومة ذاته، في نفس الوقت الذي كان يخل فيه هو بوقاحة بحقوق السلطان الدينية. وعلى سبيل المثال، إذا كان تعيين رئيس مركز الشرطة في الكعبة وقبر النبي صلعم حسب الحقوق الشرعية للمحمديين هو حق محصور بالخليفة وحده. لم تتجرأ السلطات الدنيوية، حتى في أكثر الأوقات حرجاً في شبه الجزيرة العربية. على التطاول في أمور هذه المراكز. فإن محمد علي. وبحجة أن عثمان باشا شيخ الحرم في مكة، وشريف بك حارس قبر النبي صلعم في المدينة، كان على علاقات مشبوهة مع بدو الجُدَيْدَة ويتصرفان بإيعاز من باشا بغداد. قرر تجريدهما من منصبيهما ووضعها تحت الحراسة مطالباً بأن يعين السلطان مكانهما غلمانا كما كانت العادة في الزمن القديم. كانت هذه الامور تحدث في الوقت الذي كانت فيه احدى الكتائب المصرية المتواجدة في شبه الجزيرة العربية تتقدم نحو الخليج الفارسي وتهدد البصرة. وفي سياق التصرفات، نسوق وقوف ابراهيم باشا مع جيشه في مرعش خارج حدود سوريا. وهو إن لم يتقدم إلى الامام باتجاه عاصمة السلطنة خوفاً من الروسيا. فإنه بوجوده هناك يشكل تهديداً سافراً للعاصمة العزلاء. ويهدد بإثارة الاضطراب في آسيا الصغرى.

كان الباب العالي مجبراً على تحمل كل هذه الاهانات. وأن يكتفي بتأكيداته المستعجلة لمحمد علي بضرورة الاعتدال. الفكرة الوحيدة التي يعمل لتحقيقها كانت تحرير الاسطول، وقد طلب خسرو باشا، برسائل سرية إلى أربعة من الباشاوات الذين كانوا في الاسطول تحت إمرة قبودان باشا، القبض على الخائن وقيادة الاسطول إلى العاصمة. وولاء طاقم الاسطول وأمانه، وقد ظهر هذا بالاستياء الذي عبروا عنه عند افتضاح أمر قبودان باشا في الاسكندرية، كانت تتكفل بنجاح الخطة. إلا أن رسائل خسرو تلك. والمرسلة عبر سفينة بريد فرنسية، وعبر القنصل الفرنسي العام، وقعت في يد الباشا العجوز، فزادت من نقمته وتصلبه، وراح يطلب بالحاح شديد، ومن خسرو نفسه، بضرورة تركه منصبه. خسرو، من ناحيته اعتذر عن عدم تنحيه، بكون بقائه في الحكم أو عدمه لا يتعلق به

وحده، وبأنه شخصياً في سنوات شيخوخته يفكر بالراحة، إلا أن إرادة الله كانت تقضي منه. وفي هذا السن، أن يخدم السلطان والوطن ويرفع شأن الاسلام من خلال منصب الصدر الاعظم، وبالطبع إن عدم الخضوع لإرادة الله إثم لا يغتفر... إلخ.

إن هذه المراسلة الجارحة بين رجلين عتيقين من رجالات الامبراطورية العثمانية، وهذه الشتائم والاستهزاءات التي كان يمرغ بها هذان الشيخان لحاهما البيضاء على مسمع من أوروبا والمسلمين، كانت تشكل الجانب الكوميدي والحدث المبكي والمضحك في آن معاً، للمسألة الشرقية، هذه الدراما التي كانت تؤدي بلبكة ونشاط على الشواطىء الشرقية للبحر الابيض المتوسط[1].

---

(١) في هذه المرحلة التاريخية، الحافلة بالاضطرابات التي كانت تعم الشرق، توجهت الى مصر، ولأول مرة رأيت محمد علي، عندما تركت القسطنطينية كان السلطان المعذب معلقاً بالحياة بجرعات الأفيون وحسب. وكان اسطوله يرسو في الدردنيل، وقريباً منه كان الاسطول الفرنسي بقيادة العميد البحري لالاند (وقد التقيته وتحادثت معه) يطوف هناك لمنع المراكب التركية من النزول الى البحر. تابعت إبحاري باتجاه مصر على متن مراكب بخارية فرنسية للبريد. وأجبرت على تحمل ١٥ يوماً من الحجر الصحي في صور. وهناك تلقيت نبأ عن وفاة محمود وآخر عن معركة نزيب، عندما وصلت الى مصر، أول ما صعق بصري في الكلأ كان منظر «المحمودية» السفينة التركية ذات الـ ١٤٠ مدفعاً، والتي كانت تبدو وكأنها تحددت في حجمها على الشواطي المصرية المنخفضة، وعلى سواريها كانت ترفرف أعلام ورايات قبودان باشا. لبثت طويلاً مأخوذاً لا أصدق ما أرى، ولم أعرف تفسيراً لظهور الاسطول السلطاني في الاسكندرية، بعد موت السلطان وموت جيشه. هل كان هناك انتصار أخير لمحمود قبل موته؟ هل ألحق، هزيمة بالاسطول المصري؟ اذا صح هذا، فبين ساعة واخرى توقعت أن يفتح الاسطول ناره على المدينة. لكن هذه التساؤلات كانت ترتد لأن القاطرة كانت تسبح بسلام. بعد ذلك استطعت تمييز المراكب المصرية وسط المراكب العثمانية. لم تخطر لي ولا لأي من مرافقي فكرة خيانة الاميرال التركي. أخيراً حلّ هذا اللغز بعد وصول مرشد الشواطىء الذي جاء يقود باخرتنا الى خليج الاسكندرية. في هذه الفترة كان نجم محمد علي في عز تألقه. الا أن مدلل القدر العجوز، أرهق قواه الفكرية، بفورة تصوراته وخيالاته، التي انفجرت دون حدود مخططات طموحه كانت قد اخفتها روح ابن روميليا.

من الاهمية بمكان أن نصف سيرة محمد علي الشخصية، لنكون نبذة فعلية عن تركيا الحالية. تبدو سيرة هذا الانسان المشهور في كل الرحلات وفي جوانب الانجازات السياسية الحديثة، وكأنها ضريبة مفروض دفعها من قبل أي مؤرخ لتلك الحقبة، لذلك اعطي لنفسي الحق بأن أرفض هذه الضريبة العادية التي يدفعها عادة، كل الكتاب من مختلف الشعوب، الذين زاروا أو كتبوا عن مصر من بعيد في العشرين سنة الاخيرة. اكتفي فقط بخاصة من خصائص محمد علي

كانت الدول الاوروبية، ومن خلال الشعور الذي خلفته المآسي المتتالية في الامبراطورية العثمانية، تتبادل التأكيدات عن نواياها الجديدة من خلال جهود مشتركة في الحفاظ على استقلال الامبراطورية تحت إمرة سلالتها الحاكمة وعدم المساس بها وعلى

= استسقيتها من حديثي معه، وهي تعبر بما فيه الكفاية عن واقعه ونزواته التي كانت تقلقه في تلك الفترة. عندما علم الباشا بقدومي عن طريق قنصلنا العام الكونت أ. ميدين، حدّد لي موعداً في إحدى حدائق الاسكندرية حيث اعتاد الاجتماع والاستقبال، أدركناه محاطاً بعدد من المقربين اليه: غوشيتسي (القنصل اليوناني العام) الصرافون زيزينيا وبريتسا والكثير من رجال البلاد. كان الباشا يجلس على الصوفاء أمام نبع ماء تحت أوراق الموز الظليلة. اميراله مونوش باشا العجوز، أحد زملاء فتوته المغامرة، كان يقف أمامه باحترام، وبمروحة من ريش النعام كان ينعش الهواء ويطرد البعوض والذباب عن سعادته. أريتين بك، من ثم وزير الشؤون الخارجية، قام بدور المترجم. في هذا الوقت كان محمد علي قد تخلى عن عمامته إلا أنه لم يرتد بعد البذلة التركية. يغطي رأسه طربوش صغير مع شرابة زرقاء تتدلى الى الخلف، الرقبة مكشوفة على الطريقة القديمة، سترة صوف زرقاء تركية القصة عرواتها مطرزة بالحرير، وسروال واسع من نفس اللون مع شراريب تظهر من تحتها قدماه في نعال حمراء في جنبه سيف مع ربطات حمراء، سبحة من الكورباء تكمل البذلة التي فرضها على الجيش والاسطول وخدم القصر وموظفي الادارة المدنية، مع تمييز في الرتب والخياطة والالوان، وفي الشعار الذهبي أو الالماسي على الصدر. كان وجهه يعبر عن الرزانة والهدوء أكثر من تعبيره عن تلك النفس المغامرة التي اشتهر بها. لو كانت عليه عمامة بيضاء وعلى جنبه غليوناً بدل السيف، لتخيلتموه أحد أولئك المساومين من الجيل القديم، الذين لا يزالون يزينون أسواق اسطمبول، كأنهم آخر ممثلي القومية العثمانية في عهدنا، عهد الاصلاحات المقلقة. ولاكمال المقارنة أضيف أن محمد علي لم ينهض للقاء أصحابه من أهل الذمة، وأنا لا أرجع هذا الى التعصب الديني التركي القديم ولا الى الشعور الفظ بالكبرياء القومية، التي كانت تعتبر احترام الاوروبي، مهما كان مقامه، ذنباً لا يغتفر عند الشعب المؤمن، وإنما يرجع ذلك الى أن محمد علي في تلك الفترة كان يحاول جاهداً لعب الدور الملكي، وكان يحاكي في تصرفاته اساليب البلاط القسطنطيني.

بعد السلام، عرض عليّ الباشا أن اتفرّج قبل كل شيء على ترسانة، صرحه المحبوب، وحوله فبارك، قصور وحدائق. وأما فيما يخص الحضارات الكلاسيكية، اعمدة بومبي، المدافن وغيرها - أضاف محمد علي - فإنه لم يكن هناك مثل وصولي، اي قبل ثلاثين سنة ونيف، أي شيء يمكن مشاهدته في الاسكندرية سوى هذه الآثار. وراح يتابع حديثه عن حال الاسكندرية حين أدركها عام ١٨٠٧ في فترة الانزال الانكليزي. وذكر الحضور المسنين عن أنه لم يكن في المدينة كلها آنذاك غير بيت واحد لم يصبه الدمار، وكان فيه مسكنان: العلوي حيث حل فيه بعد طرد الانكليز، والسفلي حيث أحلّ حصانه. تغنى الباشا بما فعل للمدينة طويلا، ولم يكن في الأمر مبالغة، لأن محمد علي والحق يقال مؤسس الاسكندرية =

سعيها في إيجاد حل عادل للمسألة الشرقية تمشياً مع الرغبة العامة في قارة أوروبا. هدوء العاصمة عند تتويج خلف السلطان محمود وغياب الاضطرابات واراقة الدماء التي ترافق عادة تنصيب السلاطين الجدد. إشارات تبعث الأمل - كان بامكان الدول الكبرى، مع مثل وضع كهذا في العاصمة، أن تتقي المآسي التي كانت الازمة العظيمة تهدد باندلاعها. وبإيحاء من الدولة النمساوية قدمت خمس دول كبرى في القسطنطينية ١٥ (٢٧) تموز، مذكرة إلى الباب العالي عن اتفاق هذه الدول فيما يتعلق بالمسألة الشرقية،

= الجديدة. ولمعرفتي عن محبة محمد علي تذكيره بأصله ومدينة طفولته كافاللا، مدينة الاسكندر المقدوني. أشرت للباشا بأنه من كل ما أخضعته عبقرية الاسكندر في العالم القديم، وحدها الاسكندرية بقيت خير أثر له، ووصلت كأن بحق الوراثة الى واحد من ابناء مدينة هذا البطل المقدوني، الذي ينحصر جهده الآن في تجديد هذا الأثر الرائع. ملاحظتي هذه دغدغت كبرياء الباشا الى حد بعيد، فراح يحكي لنا بسرور عن مدينته كافاللا، وينابيعها المنعشة، وهوائها الذي يمنح سكانها حيوية وشجاعة، وعن رغبته في زيارة هذه الزاوية الحبيبة يوماً ما. من هذه الرغبة المعبرة عن شعور حقيقي غير متوقع من صاحب الكبرياء، مالك مصر، كانت تطل قومية القبائل الروميلية التي لا تقاومها عند هؤلاء المبادرين من البانيا ومقدونيا لا معاناة المآسي ولا حتى النجاحات في بلاد الغربة. ثم أن الباشا استرسل في التفكير العميق، وتساءل فجأة «هل توصل حكماء الغرب الى تحديد ماهية السعادة الحقيقية بالنسبة للانسان؟ يكتبون الكثير يتكلمون اكثر عن كيفية إدارة الجماهير الشعبية وعن الشكل الامثل لهذه الادارة، لكنهم يتناسون الجانب الشخصي في سعادة الانسان بعيداً عن كل الظروف السياسية، التي تلعب كما يظهر الدور الاساسي في التنعم الاجتماعي». لم أكن أبداً مستعداً للدخول في مثل هذه التفاصيل مع سعادة الباشا المثقل بجبروته، والذي قضى نصف قرن من الزمن منغمساً في بناء مجده. ولم أدخل معه على ما أظن في أي نقاش عن بؤس عيش الملايين من الفلاحين المصريين الذين امتص، بعيداً عن المبادىء الفلسفية، عرقهم ودمهم لتنفيذ مآربه الانانية. الاخرون من الحضور راحوا يدبجون نظرياتهم الافلاطونية عن السعادة الارضية الكاملة. كان الباشا يستمع مبتسماً، وقد أجاب على الرأي القائل بأن سعادة الانسان تكمن في تحقيق كل أمانيه «لنفترض أنك غفوت البارحة بهناء تام لأنك أتممت تحقيق كل ما تصبو اليه، وفي صباح اليوم التالي لم يبق ما تتمناه، وتطمح اليه. لماذا هذه الحياة؟ ما قيمتها؟ لا، لا تكمن السعادة في ذلك، هذا على الاقل بالنسبة لي!».

هذه الملاحظة لم يغترفها محمد علي من الكتب، فقد لبث أمياً حتى الاربعين من عمره، ولم يسمح له الوقت بعد ذلك بقراءات فلسفية، وإنما اكتسبها من تجارب روحه العطشى، وبعد أن كان يظن أنه قد توصل فعلاً إلى تحقيق طموحاته الجسورة عندما فاقت نجاحاته كل آماله هذه الملاحظة تعبر بما فيه الكفاية عن طبائع هذا الرجل الشهير.

راجين الامبراطورية العثمانية ألا تأخذ أية تدابير حاسمة دون إشراك هذه الدول في صياغتها[٢].

تقبل الباب العالي هذه الوساطة بسرور. ولأن الحق إلى جانبه جلس باطمئنان ينتظر وقت المحاكمة الصعبة، وهي محاكمة لا تتخذ من القوة ميزاناً، وإنما ستتم في ظل نفوذ وعدالة الدول الكبرى.

من ناحية ثانية، أطاحت مذكرة الدول الكبرى ١٥ (٢٧) تموز بكل آمال محمد علي بمستقبل نير، وساعة استلامها تبدلت لهجته وكل ادعاءاته. وكتب بنفسه إلى خسرو باشا يستحلفه باسم الصداقة القديمة، الدخول في تسوية سلمية وتجنب أي تدخل خارجي.

سنة ١٨٣٩ أعلنت أوروبا وبصوت واحد تبريرها مأثرة الروسيا الانسانية وغير المغرضة التي أمنت وحدها السلم للشرق المضطرب سنة ١٨٣٣، إلا أنه من المشكوك أن يكون موقعو المذكرة الشهيرة وحتى الباب العالي نفسه الذي فرح بالمذكرة حتى الجنون، وتمسك بها تمسك الغريق بلوح خشبي، أن يكونوا قد فهموا كل أهمية هذه الوثيقة والمهمات الصعبة التي ألقيت على عاتقهم دولاً كبرى. سنة ١٨٣٣ كان التدبير الروسي الحاسم وظهور اسطولنا وجيشنا سريعاً في القسطنطينية، هو الذي أعاد السلام إلى الشرق وجنب أوروبا المخاطر التي تهددها. لكن الوصول إلى نفس الهدف سنة ١٨٣٩ من قبل أية دول أوروبية، كان محكوماً بموافقة جماعية من بقية الاطراف الاوروبية. أن بوادر الاختلاف في المواقف بدأت تبرز بين فرنسا وبريطانيا، إذ كان لكل منهما وجهة نظر خاصة في المسألة الشرقية.

كانت انكلترا، ومنذ فترة طويلة، تنظر بقلق إلى قوة محمد علي المتعاظمة في سوريا ومصر، وهي مناطق تحاذي طريق الهند، وكانت ترتاب بمخططاته في البحر الأحمر والخليج الفارسي، من هنا سعيها إلى خلعه وطرده من سوريا. في الجهة المقابلة راحت فرنسا، تقدم لمحمد علي تسهيلات كبيرة لا توازي بأي شكل مساعداتها للسلطان. كل ذلك انطلاقاً من منافستها الدائمة لجارتها الخبيثة المدبرة، ومن تعاطف الرأي العام الفرنسي مع حاكم مصر، الذي كان يداهن الغرور الفرنسي باتخاذه مستشارين فرنسيين.

عندما اقترحت انكلترا على فرنسا أن يقوم اسطولاهما مشتركين باجبار محمد علي على تسليم الاسطول السلطاني، لم تكن فرنسا ترغب حتى بسماع أمور استعمال القوة. والواقع

---

(٢) اشترك في صياغة هذه الخطوة كل من انكلترا. وفرنسا، الروسيا، النمسا وبروسيا. وقد اتخذت هذه الخطوة بمبادرة من مترنيخ، الذي كان يهدف الى منع حصول تدخل أحادي من قبل الروسيا، والى إجبار فرنسا على التنسيق مع باقي الدول الكبرى. الناشر.

أن الرأي العام الفرنسي كان مضللاً تحت تأثير الدعايات الصحافية عن الباشا المصري، وكانت الحكومة الفرنسية من ناحيتها، وخوفاً من إثارة "الشعور الشعبي"، لا تستطيع اتخاذ أية تدابير عسكرية ضد مصر. فاقترحت على انكلترا بالمقابل أن يقوم الاسطول المشترك، قرب ساحل الاسكندرية، بالاعلان عن رغبة الدول الكبرى بتسليم الاسطول. لم توافق انكلترا على هذا باعتبار أن الاعلان وحده سيحثُّ الباشا على القيام بوقاحة جديدة، وبأن التهديد الكلامي لا يناسب كبرياء الدول العظمى. وفي هذه الأثناء كانت أساطيل الدولتين تقف مقابل الدردنيل، وتلح على ضرورة الدخول إلى العاصمة لحمايتها، مثلما فعل اسطولنا، اسطول البحر الاسود سنة ١٨٣٣. إلا أن الاوضاع آنذاك كانت مختلفة تماماً عما هو قائم الآن. لم يكن ابراهيم باشا على مسافة ٣ أيام من البوسفور، فقد أبقاه ميثاق خنكيارا سكله سي على مسافة لا يستهان بها من العاصمة التي لم يكن يهددها أي خطر. إن أول ثمرة لتعهد الدول الكبرى الاحتفالي بالدفاع عن استقلال الامبراطورية العثمانية وعدم المساس به، كون هذا التعهد يشكل خرقاً للقاعدة القديمة عن تسكير الممرات المؤدية إلى العاصمة العزلاء وخرقاً للتعهدات الديبلوماسية التي كان الباب العالي قد قدمها للبلاط الروسي.

كان باستطاعة الحكومات الغربية أن تتفق فيما بينها على هذا المسعى الذي لا يجد تبريره إلا في إرضاء الرأي العام الاوروبي وتخديره. وقد رفضت الروسيا هذه الادعاءات بحزم، في الوقت الذي كان فيه الباب العالي يطالب بإبعاد الاسطولين الفرنسي والانكليزي عن الدردنيل، بعدما أدرك في الوقت المناسب، أن السفن المتحالفة لن تستطيع أن تقدم أكثر من إجبار محمد علي على إطلاق الاسطول من الاسكندرية.

وجد محمد علي، الغارق في كآبته بعد بيان الوساطة الاوروبي، في خلاف الوسطاء وعدم اتفاقهم، بعض قوته، فلم يقدم على أية تنازلات وراح يهدد بالهجوم مجدداً في الخريف، على آسيا الصغرى، موجهاً الاهانات إلى المسؤولين الاتراك في بلاد ما بين النهرين وديار بكر، الذين أمروا فوراً من قبل الباب العالي بتجنب أي خلاف مع الجيوش المصرية، وحتى بالتراجع في حال ظهورها. وفي كل تصرفاته تلك كان الباشا المصري يحاول بالطبع استغلال خلافات الدول الكبرى لتمرير شروطه التي لم يستطع فرضها على السلطان الاعزل المهزوم.

بعد النقاشات العقيمة عن الوسائل التي يجب اتباعها لاحلال السلام في الشرق، بدأت الدول الكبرى تبحث في وضع مسودة لشروط مصالحة السلطان مع واليه. فرنسا التي كانت تسند ادعاءات الباشا، سعت لمصلحته من أجل الحكم الوراثي في مصر وسوريا،

وحكم أضنة وكريت وشبه الجزيرة العربية مدى الحياة. ولانهاء الخلافات سريعاً أعلن الباب العالي استعداده لاعطاء الباشا الحق في حكم قسم من سوريا مدى الحياة بالاضافة إلى الاقتراح السابق الذي كان قد قدمه عن حق محمد علي بحكم مصر وراثياً.

من المتعارف أن العرض الذي تقدمت به الدول الكبرى إلى الباب العالي لانهاء النزاع. يوجب من الناحية الادبية على الأقل تأمين شروط أكثر منفعة للسلطان من تلك التي كان يود الباشا المنتصر فرضها. على كل حال كان يتحتم حصول قرارات الدول الكبرى على موافقة حرة من الباب العالي لأنه يلزم أولاً، على من يتخذ منطلقاً لتحركه السياسي، استقلال وشرعية السلطان، أن لا يفرض تنازلات لا تتوافق مع هذا الاستقلال وتلك الشرعية، وثانياً، كان هناك، في حال عدم موافقة الطرفين المتنازعين على قرارات الوسطاء، تخوف من اللجوء إلى استعمال القوة وتجديد مشكلة المسألة البلجيكية[٣].

كان محمد علي يدرك كل هذا جيداً، ولذا شرع في تحريك كل العوامل الخفية والظاهرة، للتفاهم مع الباب العالي. في رسائله إلى خسرو، كان يستصرخ وطنيته لرد اعتداء الكفار على استقلال الاسلام. وكان يقنعه بضرورة تناسي كل القضايا التي جعلت منها «أضحوكة لكل الجرائد»، لدرجة أنه دعاه إلى اختيار مجموعة من بين علماء الشرع للحكم في النزاع بينهما، وأرسل تكراراً مبعوثته إلى اسطمبول، كنته زهرة خانم لكي تستميل الوزارة إلى جانبه ولتستنهض النساء لنصرته، وأكثر من ذلك وعد بزيادة الأتاوة ودفعها كائناً ما بلغت... إلخ. كل ذلك تجنباً لتدخل الدول الاوروبية في شؤون المسلمين البيتية.

إلا أن الباب العالي لم يتخل عن مواقعه المناسبة، فقد بقي على اتفاقه مع الدول الكبرى، مع أنه كان يشعر بالخجل من الوساطة الاوروبية، ويتذكر بالطبع، أن ثلاثاً من الدول الخمس الوسيطة كانت قد وقعت منذ زمن غير بعيد بروتوكولاً يعترف باستقلال اليونان. لكنه كان في نفس الوقت يتذكر الاقوال المتغطرسة لمحمد علي عشية صدور مذكرة تموز، وكذلك كان يخشى، إن دخل في مفاوضات مباشرة مع محمد علي، أن يهين كرامة حلفائه وأن يزيد في تعقيد وضعه. من جهتها كانت عروض محمد علي تتقلب بين الجسارة والاعتدال، حسب مؤشرات الاتفاق والاختلاف داخل مجموعة الدول الكبرى. إذ أن الفرضية التي كانت تنبني عليها حساباتـه تتلخص كالاتي: كلما أظهر ميلاً لاستعمال القوة كلما صعب على الدول الكبرى الاتفاق فيما بينها على التحرك المشترك. كانت فرنسا

---

(٣) المقصود هنا المفاوضات الديبلوماسية التي شغلت اوروبا في بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر بعد الثورة البلجيكية، التي أدت الى انفصال بلجيكا عن هولندا. الناشر.

تنتقد مخططات الدول الأخرى وترفض رفضاً باتاً استعمال القوة ضد الباشا العنيد. مع وزارة تيير Thiers التي خلفت وزارة الكونت موليه Molè دار الحديث حتى عن احتلال نقاط أخرى على شواطىء سوريا وآسيا الصغرى مثلما احتلت انقونا Ankona قبل ذلك بثماني سنوات. لم تستطع فرنسا بهذا التطاول على دولة مستقلة ولا بخرقها تعهداتها الرسمية أمام الدول الاخرى، أن تتقدم خطوة بسيطة في اجتراح حلّ للمسألة الشرقية. كانت وزارة تيير تأخذ بعين الاعتبار الناحية الاوروبية لهذه المسألة، أو لنقل ببساطة خوفها من إثارة المشاعر في فرنسا. فكانت تفتش عن طريق اشباع رغباتها الذاتية دون أن تحدث بالعواقب الوخيمة لتصرفاتها.

شكل تدخل الدول الكبرى، بكل ما يحمله من مخاطر، سنداً قوياً لتركيا. ولم يعد فقدان الاسطول وانهيار الجيش مآسيها العظيمة، فالمأساة الفعلية كانت تكمن آنذاك في فقدان ذلك السلطان الذي كان عقله الراجح وإرادته القوية، سندي الدولة المنهوكة، وإذا كان لم يستطع تأديب الوالي العاصي فلعدم كفاية الوسائل المادية ليس غير. إلا أنه على الاقل ذلّل الطغمة التي كان السلاطين يجبرون على إيكال السلطة الحكومية إليها.

منذ الأيام الاولى للعهد الجديد امتصت نمائم الحاشية ودسائس السرايا وخلافات الوزراء كل الميول الحسنة الموروثة لدى السلطان عبد المجيد.

هذا الواقع السياسي الداخلي الجديد، أعطى مركز الثقل لرشيد باشا، وزير الخارجية العائد لتوّه من لندن. وبايحاء منه وبحجة تطوير نظام محمود بشكل جديد ومهيب، نجح الوزراء بتحجيم حقوق السلطة العليا عن طريق إصدار النسخة الدستورية الضعيفة، المعروفة باسم خط شريف كلخانة.

كانت لنا فرصة الحديث عن معنى وفي اتجاه الاصلاحات التي قررها محمود(٤)، والتي كانت تتوق إلى تغيير جذري في دستور الدولة التركية وقوانينها. سار محمود عن طيب خاطر في الطريق المرسوم، مع يقينه بأن العناصر المسيحية ستأخذ ثقلها الشرعي. حافظ على الاشكال الاستبدادية، وسيلة أمينة للتحكم بوجهة الازمة الآتية. لقد استطاع هذا العاهل الموهوب بإرادته الصلبة، وبواسطة الحكم الواحد الممركز، ضبط الادارة الحكومية بنفس المقدار الذي ذلّل فيه التعصب الديني. أخضع حركات الانفصال الفردية، عن طريق أوامره الزاجرة، وفي أغلب الاحيان عن طريق جعله سلوكه الخاص وتصرفاته مثالاً ينسج عليه. وهكذا هيأ عناصر الادارة المدنية المبنية على المساواة أمام القانون، وعلى مسؤولية رجال السلطة. لم يعلن محمود أية نظريات، لم يقطع نذراً، ولم

(٤) راجع نهاية الفصل السادس.

يرتبط بأية وعود، ولم يصدر القوانين، وهي غير ممكنة التحقيق في تركيا آنذاك، وإنما اكتفى بالاصلاح العملي مبتعداً عن هراء الخيال الفارغ.

حالياً حلت مع عبد المجيد عهود أخرى، فمع تغير الرموز الادارية تغير الاتجاه الجوهري للاصلاح الحكومي الذي كان محمود قد بدأه. لقد أسند السلطان الفتى مصير الدولة والسلالة الحاكمة إلى وزراء عابرين وصوليين غير موهوبين. وهكذا بدلاً من أن يجدد في الامبراطورية على نسق والده، أسرع بالقضاء عليها.

في ٢٢ تشرين الاول ١٨٣٩، دعي إلى أحد بلاطات السراي القديم في كلخانة (تعريشة الورود) كل رجالات الدولة وذوي المقامات الرفيعة من مدنيين وعسكريين وعلماء ورؤساء روحيين لكل الشعوب المحكومة، وكذلك دُعي الجسم الديبلوماسي في العاصمة التركية شهوداً على العهود التي سيقطعها السلطان على نفسه في احتفال فريد. جلس السلطان في الجوسق المفتوح على الجمع الخليط، وأخذ منه رضا باشا وزير البلاط خطي شريف، ونقله إلى رشيد باشا المكلف بقراءته على مسمع الجميع.

وعد السلطان شعبه باصلاح جذري للدستور، وباستئصال المظالم التي استمدت من قدمها ومن قوتها قوة القانون. منع بيع المناصب والامتيازات وكذلك الرياء، الذي كان، تحت اسم رشوة، يشكل في السلطة امتيازاً رفيعاً يتسلسل حتى العرش. تنازل عن حقوق الانتقام التعسفية، كذلك عن حق مصادرة الاملاك، وعن كل الابتزازات والضرائب الكيفية. وبدون مقابل، أعطى لكل المواطنين أمان الحياة، وأمان الاعراض والاملاك. منع التعذيب واستعمال السم والخنجر. أمر بمحاكمة المذنبين أمام الملأ وبألا يشنق أحد من دون محاكمة. قضى على احتكار السلع وتلزيم الرسم الاميري وموارد الدخل. أمر بتوزيع عادل للاتاوات والواجبات بحيث تتناسب مع إمكانات الافراد، مشيراً إلى القرحات المزمنة في جسم الامبراطورية ناسباً إياها إلى ضعف التجارة والصناعة وفقر الشعب وضعف الدولة، مبرزاً في الوقت نفسه مميزات الوضع الجغرافي للامبراطورية، وغنى أرضها وقدرات سكانها، واعداً برفع مستوى المعيشة خلال بضع سنوات. ولتحقيق هذا الهدف أمر الحكومة بوضع قوانين جديدة واستصدار مراسيم تنظيمية مبنية على المنطلقات الجديدة التي تحددت في خطي شريف، وفي القانون الروحي الذي استندت إليه الامتيازات الممنوحة للسلطان. هذه الامتيازات والحقوق قدمتها إرادة السلطان لكل المواطنين بدون تمييز بين الاديان، أي أن هذه التنظيمات لم تكرس التسامح الديني وحسب، بل أعلنتها مساواة حاسمة بين المسيحيين والمسلمين. «كضمان لعهودنا هذه - أضاف السلطان في بيانه - نقسم بالله أمام السنجق المقدس، علم النبي

الشريف، على تنفيذها بدقة، ونأخذ على هذا عهد علمائنا وكل وجهائنا».

ثم تليت صلاة عامة، تلفظ بعدها كل الحاضرين بكلمة آمين ونحرت ذبائح كثيرة، ودخل السلطان نفسه وخطي شريف في يده، إلى المخدع حيث يحفظ السنجق المقدس، وأقسم واضعاً يديه على قدس الاقداس، وأقسم من بعده كل الوجهاء والوزراء وكل ممثلي السلطة الروحية العليا للاسلام.

من الصعوبة ابتكار أشكال أكثر احتفالية وأكثر قسرية لالقاء الضوء على النهج الجديد. ولو كان مصير الشعوب والممالك يتعلق بالتشدق الكلامي وبالمراسيم الاحتفالية، لافتتحت وثيقة كلخانة صفحة جديدة مزدهرة في تركيا كما وعد السلطان. لقد شكلت هذه الوثيقة بداية نمط التعهد الاحتفالي الغالب الآن في تصرفات الحكومة التركية، فمن يومها والمسؤولون عن المآسي الشعبية يلقون غطاء النظريات الانسانية والليبرالية وأزهار الخطابة على الوقائع الملموسة العجيبة.

إن السنوات الطويلة التي قضاها رشيد باشا مدبج بيان خطي شريف، في لندن وباريس مطلعاً على دساتيرها لم تذهب هباءً. إذ كان يعرف تماماً، أي ملحق يجب أن نضيفه في تركيا. الأثر المباشر لهذا المسح الدستوري تبدى في تقوية السلطة الوزارية على حساب سلطة الملك التي تحولت إلى أداة في يد الوزير القوي رشيد باشا الذي تمكن لقدرته وحنكته من السيطرة على مفاصل الادارة، وبالتالي بناء نفوذ له يتخطى نفوذ السلطان نفسه وتخلي السلطان بقسمه الآنف عن المذابح والانتقامات الاستبدادية، وعن مصادرة الممتلكات، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من هو الطرف الذي كان أكثر تعرضاً من الوزراء والوجهاء لانتقام السلطان؟. كان حق المصادرة يشكل في تركيا وسيلة لتأديب الباشاوات والوجهاء المنتفعين، وبعد قضاء السلطان محمود على الاقطاعيين، لم يبق في تركيا ارستقراطية أخرى غير الارستقراطية الطفيلية خادمة السلطة، ولم يبق بين الاتراك ثروات غير تلك التي كان يجمعها أصحابها أثناء الخدمة، كل حسب وسائله الخاصة[٥].

وفقاً لدستور الدولة القديم، كان بامكان السلطان أن يجير لحساب الخزينة، الاملاك

---

(٥) يسقط بازيلي من اعتباره التجار والاقطاعيين الاتراك، الذين كانت أحوالهم غير مرتبطة باداء الخدمة العسكرية، أو بجهاز الدولة (رفع النظام الحربي في عهد محمود الثاني). رفع المصادرة (بكلمات أخرى، تأمين حقوق الملكية) خطوة تستجيب لمصالح التجار والاقطاعيين بالدرجة الاولى، وهم المرتبطون بالتجارة ولذا فإن هذا البند في خطي شريف يعتبر تقدمياً في تلك الايام. الناشر.

الخاصة التي جمعها أي مسؤول في فترة خدمته، حتى أنه ـ أي السلطان ـ كان يعتبر الوريث الشرعي لكل الموظفين. وهكذا كان الموظفون في ظل هذا الدستور يجهدون لعدم إثارة الشبهات حول غناهم المفرط. عهد السلطان في كلخانة حرر عابري السلطة من هذا التهديد الدائم المسلط فوق رؤوسهم، وأصبح بإمكانهم الآن وبهدوء، التنعم بالخيرات المجبية بطرق غير مشروعة. لقد خضعت سلطة الوزراء في الواقع، لتجديدات قانونية، ولكن بالمقابل، كان الوزراء أنفسهم هم المكلفون بوضع القوانين الجديدة التي كان يفترض أن يتم بموجبها تنفيذ النظريات الجميلة الواردة في بيان السلطان. وعدا ما أشرنا إليه من تضييق صلاحيات السلطان، فإن كل التشريعات والقوانين التي استحدثت ستبقى نظرية، لقد تغيرت الاشكال فقط. صحيح ان السلطة البوليسية مثلاً، فقدت الحق بالقتل شنقاً، ومنعت من ممارسة التعذيب، إلا أن العدالة في جوهرها لم تعرف التطور أبداً، لأنها فقدت سرعة التصرف، هذه السرعة التي كانت تشكل سابقاً في تركيا ميزتها العملية الوحيدة. بقي تعسف السلطة، ليس في شكله الخشن كالسابق مع خنجر ومشنقة، لكن علاقات دموية هذه المرة، حلت محل التعذيب أثناء المحاكمات.

إذا كانت الثقة بالقوة الذاتية ترفع بشكل ما، شأن إنسان، فإن عجز السلطة المتحول إلى تعسف، ينحرف بالمجتمع الذي لا يفهم قدسية القانون. وعندما تطرح مسألة انقاذ الدولة، يصبح الانعطاف الجذري في الافكار والمشاعر والطبائع والقوانين ضرورة حتمية، وتبقى السلطة الاستبدادية مهما كان أمر إدارتها ملكية كانت أم جمهورية، الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف. وزراء السلطان عبد المجيد من ناحيتهم اهتموا فقط بمصالحهم الخاصة بدرء الخطر عن أنفسهم وعن ثرواتهم. استغلوا ضعف سلطانهم ليحدوا من صلاحياته، وهو السلطة الوحيدة التي كان بإمكانها أن تسعى إلى الخير. بيان كلخانة يشبه الغطاء المخاط من الرقع البالية، التي يخايل من خلالها الاضعاف المقصود للسلطة باضعاف ممثلها الاعلى (السلطان). وفي نفس الوقت حدّت اتجاهات المركزية في البيان من دائرة عمل الادارات الاقليمية لصالح الوزارات، المرتهنة من ناحيتها لصراع النفوذ السري الداخلي والخارجي وللانقلابات العادية.

المحاولات الاولى لتحقيق الاصلاحات الايجابية المقررة فضحت عجز الحكومة الكلي، نظام الالتزامات العجيب، أو نظام افتداء الجباية والاتاوة الذي تحدثنا عنه قضي عليه تماماً بموجب خطي شريف. صحيح أن ملتزمي الجمارك وضريبة الاعشار في الحقول وغير ذلك من الجبايات المالية، كانوا ينهبون الشعب، إلا أنهم في الوقت نفسه كانوا يقدمون إلى الخزينة وفي الوقت المحدد الاموال المطلوبة. الموظفون الذين خلفوهم،

تابعوا مثل سابقيهم عملية النهب، بالاضافة إلى سطوهم زيادة على خزينة الدولة، غير آبهين من الانتقام والمصادرة شأن الملتزمين السابقين، لعلمهم بأن الاقتصاص منهم يفترض قرائن وأدلة ثابتة. وهكذا حرمت الخزينة من مداخيلها الاكيدة في وقت كانت فيه النفقات الحكومية ترتفع باطراد، لادخالها في الموازنة معاشات عالية جداً. مخصصة بموجب خطي شريف للوزراء والحكام وكل الاداريين. وبعد هذه المحاولة الفاشلة لإصلاح نظام الجباية وفق قواعد جديدة، كان على الحكومة أن تعود إلى نظام الالتزام السابق الذي أصبح أكثر قوة مما مضى.

لقد استبدلت بالرواتب من الخزينة، بموجب خطي شريف، المداخيل العائدة للمناصب المختلفة. وكانت هذه الرواتب وخاصة لدى ذوي المراتب الرفيعة، تفوق بدرجات ما تدفعه أية دولة أوروبية. فمثلاً كان الوزراء أو باشاوات الدرجة الاولى، الذين يديرون مقاطعات من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ألف من السكان يتلقون رواتب تعادل ١٢٠ ألف روبل فضي في السنة بدلاً من المداخيل التي كانوا يستحصلونها سابقاً، والتي كانت تتمثل ببيع المناصب، والرشوة والجزية، التي كانت تحددها السلطات المحلية كيفياً في المدن والسناجق. خطي شريف قضى في الواقع على الجزية فقط، أما بيع المناصب والرشوات فقد ظل قائماً وبشكل جديد أكثر وضوحاً، على امتداد الامبراطورية الشاسعة وعلى الأخص في العاصمة. الرشوة والبخشيش، امتيازات السلطة دائماً، كانت قد انغرست في الصلب من إدارة أي أقليم ابتداءً من المسؤول القروي حتى الوزير الاعلى، وكذلك انغرست في صلب مفهوم الشعب للسلطة، أي سلطة. فقط بواسطة القسوة التي لا تعرف الرحمة، يمكن القضاء على هذه الآفات، لكن بيان كلخانة حرم القسوة والشدة طرائق في الحكم.

لا بد وأنكم لاحظتم، ومنذ فترة بعيدة، أنكم تلتقون أساساً شرفاء من كل فئات الشعب التركي، عدا تلك الفئة التي تعمل في الخدمة الحكومية. هذه المسلمة البديهية تبرهن على الشكل التالي: ما إن يتسلم مواطن، تاجر أو حرفي مثلاً، شريف معروف بامانته واستقامته ورفعة اخلاقه، منصب حاكم سنجق أو على الاقل عضواً في مجلس المدينة، فإن نفسه، مع محافظته على اخلاقيته واستقامته في أعماله الخاصة، ينهب الشعب من خلال منصب الموكل إليه دون أي تأنيب ضمير. وهكذا كان توجه المجتمع بكامله. فهل كان بعد باستطاعة الوزراء، حتى ولو قرروا القضاء على عادة جمع الثروات لدى الموظفين، أن يختاروا وسائل لتحقيق النظريات المطروحة في خطي شريف؟ ولا ننسى هنا أن المناصب الحكومية بقيت كالسابق، من نصيب الاتراك.

أما فيما يخص منح المسيحيين المساواة مع المسلمين أمام القانون، فإن هذا الحق لا يتعايش ووجود حكومة إسلامية ضمن أغلبية مسيحية. بل يشكل برنامجاً جديداً من الملاحقات والمطاردات، يثير نقمة حكومية وقضائية على امتداد الامبراطورية. لقد أمر خطي شريف بأن تستقي القوانين الجديدة من القوانين الروحية التي يقوم عليها المجتمع المدني المحمدي، وهذا القانون يحكم على المسيحيين بالعبودية، ملاحظة. من خلال تناقض كهذا كانت الترجمة العملية لنظريات السلطان المجردة عن المساواة غير قابلة للتحقيق، وكيف يمكن التوفيق بين فكرة المساواة وبين رفض شهادة المسيحي أمام المحكمة؟ وهل الرفض سار بكل قوته في تركيا. في الحقيقة لا يتحدث القرآن أبداً عن مثل هذا، ولا الخلفاء الأربعة الأوائل الذين كانت قوانينهم تمتلك قوة الرجز، على قدم المساواة مع القرآن، ملاحظة. إن قانون منع شهادة المسيحيين صدر بعد الخلفاء الأربعة بكثير، في عهد الخليفة الدمشقي عمر الثاني، وبالتالي فباستطاعة عبد المجيد وهو خليفة إسلامي كما يزعم، ان يرفع مثل هذا القانون العجيب دون الوقوع في الهرطقة. وإذا كان يخشى إثارة حكام الشرع الذين حفظوا قانون عمر الثاني، فبإمكانه أن يأمر، مثلما فعل محمد علي وابراهيم، ببقاء الامور المدنية والجنائية بين المسيحيين والمسلمين تحت اشراف المجالس المدينية، دون أي تدخل في أمور هذه المجالس من جانب المفتي والقضاة، الملزمين بالاعتماد على الشرع في آرائهم القضائية. هذه الوسيلة استعملها ابراهيم بنجاح في سوريا حيث يغلب العنصر المحمدي، وفي تركيا الاوروبية، فإن هذا الترتيب في حال إقراره، لم يكن ليتعرض لأية مقاومة.

وزراء عبد المجيد اكتفوا من إصلاحاتهم بالجمل البلاغية والتجريد اللفظي، وهل كان باستطاعة الحكومة المؤلفة أصلاً من العنصر التركي صاحب الامتياز أن تفكر بالتخفيف عن الاغلبية الساحقة من مواطني السلطنة في الوقت الذي كان يبدو فيه واضحاً أن المساواة المفترضة ستؤدي إلى تفوق العنصر المسيحي على الطغمة الحكومية التي صيغ البيان أصلاً من أجل تقويتها؟ كان بإمكان سلطان يمتلك عقل محمود النير وإرادته القوية، السعي والاقدام على تأسيس نفوذ امبراطورية المقبل ومجد سلالته على قوة العنصر المسيحي. عبد المجيد أتى على ذكر المسيحيين بايعاز من وزرائه، لكي يكمل أمام الدول الكبرى والرأي الاوروبي تجميل النسخة الدستورية المسخ. لقد أصاب رشيد باشا كاتب خطي شريف، كل ما توخاه من بيان السلطان. إذ أمن لنفسه منذ ذلك الحين تعاطفاً نشيطاً من الحكومة الانكليزية.

أرسل رشيد باشا مبعوثيه إلى كل أنحاء الامبراطورية لاعلان المبادىء الجديدة، المعروفة حالياً في تركيا باسم تنظيمات خيرية. بدأ الباب العالي بتنفيذ هذا التدبير المدني أو

بالاحرى هذا الطقس المبتكر، في أنحاء امبراطوريته، إلى جانب اهتمامه الاساسي بعلاقاته العدائية مع باشا مصر، التي أرسل إليها كامل باشا مبعوثاً من قبله. كانت الحكومة التركية تتعامل مع محمد علي كما لو كان والياً خاضعاً، فلم يجر أي كلام عن معركة نزيب ولا عن الاسطول، ومن ناحيته أخذ باشا مصر هيئة الخادم المطيع الأمين، وفي جوابه على رسالة الوزير إليه توسل إلى الله أن يطيل عمر السلطان مؤكداً أن كل المبادىء التي أمر بها بيان خطي شريف، طبقت في المناطق التي يديرها ومنذ وقت بعيد.

كلما كان الباب العالي يتجنب خوض محادثات مباشرة معه، كان محمد علي يصيخ بسمعه للخلافات السياسية بين الدول الاوروبية الكبرى، التي كتب ممثلوها بايعاز من الامير مترنيخ المذكرة الشهيرة ذات الخمسة سطور ١٥ (٢٧) تموز، عن اتفاق آرائهم حول المسألة الشرقية، مع إلحاح بأن لا يقدم الباب العالي على أية خطوة دون استشارتهم. لكن اختلاف آراء هذه الدول بدأ يتضح يوماً بعد يوم وعلى هذا راح محمد علي يبني آماله.

تعقدت الامور بعد مذكرة ١٥ (٢٧) تموز سعى الدبلوماسيون الاوروبيون إلى إزاحة وساطة الروسيا المرتكزة على مبادىء خنكيارا سلكه سي، وإلى اجبار فرنسا في نفس الوقت، بالرغم من تعاطفها مع محمد علي على العمل يداً واحدة مع الدول الأخرى، ولم يدر أنه قدم بذلك خدمة جوهرية للروسيا. كانت لنا فرصة الحديث عن أهمية خنكيارا سكله سي فيما يخص مصلحة الروسيا كدولة[٦]، فهل كان بإمكان الروسيا ومن مصلحتها، في ظل الاتجاه الذي أخذته قضية تركيا بعد موت محمود والخطر الاكيد من حرب أوروبية، أن تتمنى التدخل المنفرد وحل المسألة الشرقية لمصلحة تركيا حسبما ورد في المعاهدة السابقة، والتي كانت سنواتها الثمانية، توشك على الانتهاء؟. ومن ناحية أخرى كان موقف فرنسا يزداد حرجاً، بعدما ابرزت المذكرة القرار الاوروبي الجماعي، بوجوب التنسيق مع الدول الأوروبية الاخرى، في الوقت الذي كان فيه الرأي العام الفرنسي يقف ضد التوجه الوقائي لهذه الدول.

بقي هناك وسيلة واحدة: حل تمهيدي للمسألة بين الباب العالي وباشا مصر دون وساطة الدول الكبرى، التي احتفظت لنفسها بحق الاعتراف بشروط السلم وتثبيتها. وصولاً إلى هذا الهدف، نصحت الدول الأوروبية الكبرى الباب العالي بالدخول في محادثات مع الباشا. فعرض على محمد علي أما الحكم الوراثي لمصر وفلسطين حتى عكا

---

(٦) راجع الفصل السادس.

شرط عدم ضم القلعة إلى حدوده، وإما حكم مصر وراثياً وحكم كل جنوب سوريا بالاضافة إلى عكا مدى الحياة. على هذه العروض أجاب محمد علي بإصرار بأنه يطلب كل سوريا حتى حلب ملكاً وراثياً، مع تنازله للباب العالي عن الجزيرة العربية التي أفرغت خزينته وقتلت من جنوده طوال سنين.

دعماً لادعاءاته تلك بدأ محمد علي بالتحضير للحرب، مؤكداً أنه يستطيع الدفاع عن مناطق حكمه ضد كل الاطراف والقوى الاخرى. واستدعى جيوشه من شبه الجزيرة العربية، قوى الجيش في سوريا، سلح عمال الترسانات والفبارك، استقدم من انكلترا مدفعية ضخمة لعكا، سلح في نفس مناطق السلطان عدة آلاف من الالبان، شكل داخل مصر عسكراً شعبياً من المدنيين المصريين لحماية المرافق الداخلية، كذلك أعاد للقبودان الخائن المخلوع بفرمان سلطاني إمرة الاسطول وألبس طاقمه التركي بزة البحرية المصرية. في كل تصرفاته تلك كان محمد علي يحاول أن يظهر أمام جيشه وأمام الشعوب الاخرى الواقعة تحت سيطرته، حامياً مدافعاً عن الاسلام ضد خيانة وزراء الدولة وضد مؤامرات الدول الاوروبية اللئيمة، ومحاولاتها النيل من استقلال السلطنة العثمانية، ورغم كل ما أقدم عليه من عدائية تجاه القسطنطينية، فإنه ظل يبرز نفسه الخادم المطيع الأمين للسلطان، وحتى أوامره العسكرية للجيش والأسطول لا تحكي غير ذلك.

الوقت يمر والمفاوضات تأخذ لهجة حادة. الباب العالي يتمسك بمذكرة تموز ويشتكي بمرارة من بطء المساعدة الاوروبية الموعودة.

الفصل الثالث عشر

افتتاح المؤتمر في لندن ـ سوء نية الامير اللبناني ومشاعر القبائل السورية ـ عصيان الجبليين ـ حفيد غوتفريد النابليوني ومهزلة التقليد السيء للحملات الصليبية ـ مبعوث محمد علي الى العاصمة والحملة اللبنانية ـ ظهور الاسطول الانكليزي في بيروت ـ النصر الاخير لمحمد علي والأمير اللبناني ـ ميثاق ٣ (١٥) تموز ـ ظهور الاسطول الانكليزي للمرة الثانية ـ فشل الكومودور نيبير ـ خطة الدفاع عن الشاطىء السوري ـ وصول الاميرال ستوبفور والحملة الحليفة.

* *

افتتحت في لندن، ربيع سنة ١٨٤٠ المحادثات بين مبعوثي الروسيا، النمسا، انكلترا، فرنسا وبروسيا، ودعي ممثلو الباب العالي الذين جددوا شكوى حكومتهم من تباطؤ الدول الاوروبية في حل المسألة، وأسهبوا في شرح وطأة مثل هذا الوضع على الحكومة وعلى السكان المتعبين من غموض مصيرهم ومن هموم الاستعداد الدائم للحرب.

لم يكن ثمة شك، بأن فرض إرادة الدول الكبرى على الشرق لم يكن من الصعوبة بمكان. وإنما كانت الصعوبة تكمن. وفرنسا متمسكة بمحاباتها للباشا المصري، في التوصل الى الحكم بالاجماع في أمر دولي مهم، لا يتقرر مصيره عادة باصوات الاغلبية.

إن الذي عجل بحل تلك العقدة المستعصية كان عصيان الجبليين في أيار عام ١٨٤٠. كنا قد تحدثنا عن العلاقات المحيرة والمبهمة بين الامير بشير ومحمد علي، وعن تخوف الامير على حقوقه الاقطاعية وحقوق بيته من حال حصول سيطرة مصرية نهائية على سوريا. وعن سعيه الدائم لابراز نفسه أمام الجبليين مدافعاً عنهم أمام جور الباشا، موحياً بعدم ثقته بالسلطة المصرية في الاساس.

محمد علي، وقد فهم جيدا موقف الامير بشير، تابع كالسابق إظهار النية الحسنة تجاهه، الا أنه في نفس الوقت كان يلاطف الشيخ الفتى نعمان جنبلاط، الذي توصل بفرمان سلطاني الى أن يستعيد أملاك والده الشيخ بشير جنبلاط التي كان الامير بشير قد صادرها

بعد قتله الشيخ الدرزي الشهير[١].

عرض الشيخ نعمان جنبلاط على الباشا زيادة أتاوة الجبال اللبنانية، فيما لو سمح له، أن يقوم، كما سبق وفعل والده، بدعوة المشايخ واختيار أمير آخر من داخل العائلة الشهابية كما درجت العادة في لبنان.

علم الامير العجوز بذلك، فاسترسل في تفكيره وقعد ملوماً محسوراً، يتمنى اضطرابات جديدة في سوريا، يفشل أثرها المصريون في تدبير أمورهم دون مساعدته، فيحافظ بالتالي من خلال ذلك على حقوقه القديمة. في الجهة المقابلة كان الأمير قد قطع في معارضته للباب العالي شوطاً كبيراً، حارقاً وراءه سفن العودة، ولكنه كان دائم الشعور بالذنب من جراء تلك العلاقة الصدامية منذ عبد الله باشا المجنون وحتى تحالفه المستمر مع الباشا المصري، وكان شعوره هذا من القوة بشكل جعله لا يتمنى معه عودة السيادة السلطانية الى سوريا. هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كانت القواعد التي تتبعها الادارة المصرية في هذا الاقليم، وهدفها القضاء على كل السلطات الاقطاعية، تهدد الأمير البعيد النظر، الذي كان يرى ـ وليس هذا بدون مبرر ـ أن التسليم بحكم المصريين يعني سقوطه في نهاية الأمر. موت محمود، معركة نزيب، خيانة قبودان باشا، هذا الانتصار المثلث لباشا مصر وجد فيه الامير نهاية ذلك النزاع الخفي الطويل الذي نمت خلاله سلطته في لبنان وامتلأت خزائنه فضة.

يبدو أن الظروف واتت الامير في هذه اللعبة المثيرة. في كانون الثاني اقلقت سوريا الانباء الواردة من مصر عن الاستعدادات العسكرية لمحمد علي، الذي كان يلعب أمام أوروبا في هذه الدراما الشرقية دور دون كيشوت، وعندما علم سكان بيروت عن تشكيل العسكر المدني في مصر عم الخوف المدينة وكأن العدو أصبح على الأبواب، الكل اختبأ من خوف التجنيد الجديد (سفر برلك)، وللمرة الاولى تهامس الناس عن خطة الباشا لجمع المجندين من المسيحيين. وبالطبع أقلقت هذه الاشاعات الجبليين، «ولأنهم» «ملّوا السلام والعيش الطيب الذي اجبروا على التنعم به طيلة ثماني سنوات». راحوا يزعقون ضد المصريين، بدون أي سبب وجيه.[٢].

---

(١) سردنا في الفصل الخامس الوقائع الكاملة لموت الشيخ بشير جنبلاط.

(٢) يدخل بازيلي هنا في تناقض مع الوقائع التي سبق وأوردها بنفسه، والتي جهدت ان ترسم بوضوح الاضطهاد في سوريا من قبل المصريين، والذي تسبب في تلك الانتفاضات في ١١ حزيران ١٨٤٠، كتب أ. ب، بوتينيف في تقرير سري: «أقول بكل ثقة ان مبرر الانتفاضة هو الضرائب الثقيلة، والسخرة من كل الانواع، واكثر من ذلك هو تخوف الجبليين من

على مسافة ٦ ساعات من بيروت، كانت الحكومة قد حفرت على حسابها منجم فحم حجري، وبالرغم من أن فحمه كان أقل جودة وأكثر كلفة من الفحم المستورد من انكلترا، فإن محمد علي تحمل الخسارة، محافظة منه على أموال الاقليم وليطور هذا المرفق الصناعي. أعمال استخراج الفحم، وقعت سخرة على أكتاف سكان السناجق القريبة، أما السناجق البعيدة فقد طلبت الحكومة الحجارين من سكانها لحاجتها اليهم في أعمال تحصين عكا، وبالرغم من أن اعمال هؤلاء لم تكن سخرة بالكامل، الا أنهم راحوا يرمون بغالهم من علو في المنجم والهاويات ليتخلصوا من نقل الفحم. كان الامير بشير يراقب من قصره في بيت الدين بوادر الخطر القادم، مغذيا النقمة الشعبية بخطاباته العنيفة.

طوال الشتاء كان العصيان يبرز طوراً بين الانصاريين قرب انطاكية، وتارة في سنجق عكار عند منحدرات لبنان الشمالية، أو عند قبائل المتاولة في بعلبك وأعالي القاسمية بين صيدا وصور. أو في حوران بين بقايا الدروز المهزومين في اللجا، أو في حبرون في جبال اليهودية. إبراهيم ما زال في قيادته العامة في مرعش، يهدد بالحملة على آسيا الصغرى تدعيما لادعاءات والده، وكان من وقت لآخر يجهز حملات لمساعدة السلطات المدنية في جمع الأتاوات، وكانت الأفواج الجديدة تحضر اليه من مصر لتقوية جيشه، أما المؤن والذخائر العسكرية فكانت تنقل اليه بحراً وبكميات كبيرة، الى عكا واللاذقية.

في هذا الواقع الذي كان يؤثر بشدة على مواقف القبائل السورية، كان الباشا ينجح بصعوبة في المحافظة على ولائها، ويومها لو رفع الامير بشير والقبائل اللبنانية علم العصيان منفردين، لتبعتهم كل سوريا، ولتحطم الحكم المصري بسرعة تفوق سرعة إقامته في هذا الاقليم. إلا أنه وبسبب ما أشرنا اليه من عدم ثقة الامير بالاتراك، فإنه لم يكن راغباً بمثل هذا الانقلاب في المواقف. كان يعمل فقط لأن يطيل ما أمكن، ودون أن يحسم، تلك العلاقة المترددة مع محمد علي. وكان الامير كعادة محمد علي في مثل هذه الظروف، يدغدغ آماله بانقلابات أخرى آتية، يتمكن من خلالها، وبقدرة العنصر المسيحي الغالب في الامارة اللبنانية، من التوصل الى الاستقلال السياسي لهذه الامارة.

في نيسان ١٨٤٠، أي في فصل الربيع، حيث تثير حرارة الطقس القلق والاضطراب في دم الانسان الجنوبي، كانت علامات الاستياء اكثر بروزاً في الجبال اللبنانية[٣]. قبل

= التعرض للتجنيد الاجباري. AVPR, F. «السفارة في القسطنطينية» D 701, 136. ملاحظة الناشر.

(٣) للاستياء آنذاك أسباب أكثر وجاهة من «حر الربيع». قبل ذلك بقليل سيق الى الجندية المسيحيون اللبنانيون تلاميذ مدرسة الطب المصرية. وهذا ما شكل أساساً لإشاعة تجنيد =

ذلك بعامين كان محمد علي قد سلم الامير اللبناني ١٥ ألف بارودة لتسليح الجبليين، وسوقهم لمساندة الجيش المصري في حربه ضد دروز حوران. اليوم وفي ظروف الباشا القاسية طالب بإعادة هذا السلاح لحاجته في مصر. وقد تكون هذه حجة لجمع السلاح من القبائل التي كان الباشا يشك بولائها. استاء الامير جهاراً لهذا الطلب. محتجاً بأنه لا يجرؤ على القيام بذلك، وبأن الجبليين لا يمكن أن يتحملوا هكذا إساءة... الخ. والجدير بالذكر هنا أن نصف كمية البنادق تلك كان قد وزع، والنصف الباقي ظل محفوظاً في قصر الامير. جواب الامير على طلب ابراهيم باشا كان ينبغي، لحدته، أن يبقى مطوياً، لكنه أعلن في مجموع لبنان. خاصة وأن فيه شكوى باسم الشعب، وتخوفاً من انتفاضة الجبليين لهذا الأمر، وقد يكون إعلان ذلك بإيعاز من الامير نفسه. من ناحية ثانية أصاب الطاعون في تلك الفترة مدينة دمشق. فأقام حاكم بيروت محمود بك الحجر الصحي حول مدينته، وهذا ما شكل تهديداً مباشراً للجبليين الذين كانوا يحصلون على خبزهم آنذاك من بيروت نفسها.

١٩ أيار تفجر العصيان[٤] بكسر الحزام الكارانتيني وسرقة البريد. في مثل هذه الاحوال كانت السلطات التركية معتادة على الدخول في مفاوضات مع المتمردين، وتهدئتهم بالملاطفة والمداهنة والوعود الكاذبة وبذر النزاع. السلطات المصرية من ناحيتها اعتادت عكس ذلك، إذ كانت تتصرف بقسوة على امتداد سوريا. وبسرعة بدأت مفارز عسكرية مصرية تصل الى بيروت لتدعيم نصف كتيبة الجيش المتواجدة، وأخذت تمنع نقل الخبز الى الجبل وكذلك أقدمت سفينة الحراسة المصرية التي كانت تقوم بمراقبة الشاطيء على تنفيذ نفس التدابير في النقاط الساحلية الأخرى، وهذا ما ساعد على انتشارالعصيان. خلال أيام وصل من صيدا سليمان باشا قائد غرفة العمليات المصرية، ووصلت كذلك أوامر ابراهيم وفيها يتوعد الامير بالويل والثبور، الا ان الامير لبث مكتوف اليدين،في الوقت الذي كان فيه عملاؤه السريون، وحتى أبناؤه، ينفخون في النار مع ادعائهم

= المسيحيين في لبنان. وقد ازدادت الاضطرابات مع وصول مركب محمل بالبزات العسكرية الى بيروت. وهذا ما جعل البعض يفترض أنها مخصصة للشباب المزمع تجنيدهم. ورداً على تلك الاضطرابات أمر ابراهيم باشا بجمع السلاح من اللبنانيين. الناشر.

(٤) في الاول من حزيران اشتعلت بؤرة ثالثة في الانتفاضة. قبل شهر من هذه الاحداث قام سكان دير القمر بمقاومة جامعي السلاح، وردوا جنود الحاميات المصرية على حدود لبنان في منطقة صيدا. وفي بداية أيار حصلت بعض الاشتباكات المسلحة في المفارز المصرية في منطقة المتن. الناشر.

الوقوف الى جانب الباشا. كل هذا ترافق مع إشاعة تفيد بأن الحكومة تطلب السلاح بهدف تطبيق التجنيد الاجباري، وليس لما تدعيه وتختلقه.

أقسم ابراهيم باشا برأسه ورأس والده، بأن لا نيّة لديه لطلب مجندين، الا أن هذا القسم لم يوقف الاضطراب الذي كان قد اجتاح كل السناجق المسيحية في لبنان. أما الدروز هم يملكون أسباباً للاستياء أكثر وجاهة، إذ كانوا قد طلبوا في السابق للجندية مرتين، فلم يحركوا ساكناً(٥). عدّة آلاف من الجبليين نصفهم مسلح بالبنادق والنصف الآخر بالمجارف والنبابيت نزلوا الى بيروت محاولين احتلالها، فاحتلوّا الضواحي دون أن يوقع بهم قصف المدفعية أية خسائر لاختبائهم في الخنادق والحفر. قتلوا اثناء سيرهم كل الجنود الذين التقوهم في الحقول سرقوا الاموال الحكومية، لكنهم لم يمسوا الاشخاص العاديين بأي أذى، واحترموا خصوصاً مطالب القناصل، أملاً في كسب تعاطف الدول الكبرى، التي كانوا يسمعون عن موقفها المعادي لمحمد علي. في بياناتهم كان المتمردون يقسمون يمين الولاء للسلطان، ويسردون شكاواهم من المصريين، وبتعابير توراتية يصورون محمد علي وابنه ابراهيم خلفاء مرموقين للفراعنة ظالمي شعب الله.

في أوروبا كانوا ينسبون هذا العصيان الى تحرك عملاء الباب العالي ونفوذ الانكليز، الذين لا يتورعون عن استعمال أية وسيلة لطرد المصريين من سوريا. وادعاءات اوروبا تلك لا أساس لها من الصحة، إذ يجب في هذا السياق أن نلاحظ أمراً هاماً. كان الفرنسيون الذين كانت حكومتهم في صف المدافعين عن محمد علي، يقدمون وحدهم من بين كل الاوروبيين، تعاطفاً ومساندة للثائرين. يمدونهم بالبارود ويوجهون تحركاتهم ويحضرون اجتماعاتهم.

التعاطف الفطري مع كل عصيان، تغلب في هذه الحالة على تعاطف الشعب الفرنسي مع محمد علي. نفسها القنصلية الفرنسية. وعلى العكس من اتجاه حكومتها، كانت تؤجج الفتنة لافتراضها بأن الباشا في حالة عدم استطاعته القضاء على العصيان سيلجأ مجبراً الى وساطتها، وبهذا تحصل على حقوق ونفوذ جديدين لدى القبائل اللبنانية التي يغلب عليها العنصر الكاثوليكي، لولب السياسة الفرنسية الاساسي في الشرق. وبحجة إساءة وجهها جندي مصري لأحد الجنود الفرنسيين، قطع القنصل الفرنسي علاقته مع السلطات المحلية

---

(٥) يرتكب بازيلي خطأ في ملاحظته تلك ففي انتفاضة ١٨٤٠ لم يساهم المسيحيون وحدهم، بل اشترك ايضاً الدروز والمسلمون السنة والمتاولة. وهذا ما تشهد عليه تواقيع ممثلي كل هذه المذاهب على اتفاق بالوحدة في نظامهم من أجل الحرية، أقر في قرية انطلياس في ٨ حزيران ١٨٤٠. الناشر.

وأنزل علمه. وهذا ما ظنه الجبليون بمثابة إعلان حرب بين الطرفين.

في هذه الاثناء كان الفتى الفرنسي «الكونت أونـغروا» يتجول في سوريا. مغموماً في وطنه حيث لا يتسع الميدان السياسي برأيه لتصورات خياله الجامحة، ولا لموهبته الأكثر انقاداً من أي فكر سليم، جاء الى سوريا يقتنص فرصة يروي بها تعطشه للمغامرات. تمرد الجبليين بالآلاف وهذا أمر عادي جداً في تركيا، اعتبره الكونت انتفاضة لمسيحي سوريا في مهد ديانتنا بمجاورة القدس، على المسرح المتقدم للمآثر الصليبية، الكونت نفسه كان يرجع أصله إلى الصليبيين ـ زملاء وأقارب غوتفريد البوليوني ـ وعندما تسمح الظروف كان بإمكانه المطالبة بحقه في حصته من إرث القدس. لم يكن الكونت في فهمه للمسألة الشرقية والسياسية المعاصرة ليتعدى فهمه للغة البلاد، حيث لبث لا يعرف كلمة عربية واحدة لعدم دخوله الى نفوس القبائل السورية. التصق الكونت أونغروا بالمتمردين، مبرزاً نفسه محرضاً ومشجعاً للمأثرة المسيحية، وقائدا للمعسكر المتقدم الذي ستهب اوروبا في إثره صفاً جديداً من الملاحم الرومنطيقية التي اشتهر بها القرنان الحادي عشر والثاني عشر. كان في حوزة حفيد الصليبيين هذا عدة آلاف من الفرنكات ادخرها نفقات لرحلته الى الاماكن المقدسة. وبدافع من رسالته الخيالية عرض على الجبليين تشكيل ميليشيا واقترح نفسه زعيماً لها. قُبِلَ عرضه بسرور، لأنه كان يدفع يومياً للمجند الواحد، قرشين (١٠ كوبيك فضي) من خزينته (ولا نقول من جيبه)، وبما أن أياً من النبلاء المحليين لم يكن ليقبل أن ينصب نفسه علناً زعيماً للتمرد، فإن ضيف ما وراء البحار سعد بجمع ألفين أو ثلاثة آلاف شخص تحت راياته.

معتبراً طوباوية الحملات الصليبية، مزق الكونت القائد المتحمس، وفي غمرة انفعاله في احدى خطبه النارية، التي لم يكن سامعوها ليفهمونها حتى مع الترجمة، معطفه نتفاً صغيرة وأقنع الجبليين أن يخيطوا منها صلباناً على ثيابهم، كأعلامه التي كانت ترتسم عليها صلبان القدس. مهزلة الخرافات الروحية هذه المآثر الملتهبة لـ «بيتير بوستينيك» والقديس برنار، وهي مآثر تابعة لقرن آخر ووطن آخر، تبدت في قسم وشعار تلك الفترة، إما الموت والسلاح في اليدين، وإما طرد المصريين من سوريا. اتخذ الكونت لنفسه لقب قائد جيش، وعين آخرين غيره من المشردين الاوروبيين في مناصب، آمر غرفة العمليات وياوران وضباطاً وفي مناصب أخرى[٦].

(٦) يغالي باربلي هنا في تقديره نفوذ العملاء الفرنسيين لدى المتمردين. محادثة الكونت اونغروا على أغلب الظن لا تؤخذ على محمل الجد. كان لدى المتمردين زعماءهم المحليين ـ من ضمنهم ـ ابن حجّار مدير أملاك احد الاقطاعيين السوريين، أبو سمرا غانم، الفلاح أحمد ظاهر، الاقطاعي الشيخ فرنسيس الخازن. ملاحظة الناشر.

المرسلون اليسوعيون الذين حطوا رحالهم في لبنان منذ زمن ليس بالبعيد، والمهيأون بدورهم لتعكير المياه، بشروا بالعصيان وحثوا عليه املاً بتأسيس إمارتهم الكاثوليكية في لبنان. وبوحي منهم ظهرت دعوات حماسية، شكل الفرنسيون من خلالها مثالاً أعلى للبنانيين. الذين دعوا لاجتماع شعبي عام ناقشوا فيه مسألة الحرية، وتطلعوا الى اليونانيين الذين تمكنوا بمساعدة الله من القضاء على الحكومة التركية، إن مقابلة هذه النزوات الاخيرة مع دعوات الجبليين الاولى باسم شرعية سلطانهم ستشكل مقياساً لتوجه أي عصيان.

اقتصرت أعمال المتمردين على التجمعات الاستعراضية وقرقعة الحشود في ضواحي بيروت[٧]، والتراشق من فترة لأخرى برمايات طائشة مع حامية المدينة. كذلك هاجموا الكارنتين حيث تختزن أسلحة مصرية، ولكن الحامية الالبانية صدت الهجوم وقامت بهجوم معاكس، تمكنت خلاله وبسهولة من تنظيف الميدان من الجبليين الذين هددوا بمهاجمة الجيش المصري، وفي هذا دلالة على هشاشة التمرد. لكن صدى هذه الحركة أدى من جهة ثانية الى استياء القبائل السورية. فالامير الشجاع خنجر من عائلة حرفوش العريقة انهض متاولة بعلبك، كذلك بدأ الشيخ خضر مع جبليي سنجق الضنية تمردا في ضواحي طرابلس، وفي جبال حوران تهيأ الدروز للتمرد، وفي أماكن اخرى من السامرة واليهودية تجمع المتمردون ما وراء الاردن في الكرك عش التمرد الدائم وكل سكان سوريا اتجهوا بابصارهم نحو لبنان: لكي يرفعوا سلاحهم في اللحظة الحاسمة. الى كل هؤلاء يضاف حوالى عشرين الف بدوي من بلاد ما بين النهرين، الذين كان قد جمعهم باشا الموصل للنفوذ الى سوريا قبل معركة النزيب، وما لبثوا حاضرين للانتقال عبر الفرات. إلا أن سوريا كانت تفتقد آنذاك الرأي المشترك الواحد الذي يجمع المتمردين، والاتجاه الواضح الذي يحدد مسيرتهم. اونغروا الذي تسمى بالجنرال اللبناني الاعظم، أنفق أمواله خلال

---

(٧) اثناء التمرد لم يكن بازيلي قادراً على التهكم شأنه الآن. اليكم ما رفعه لبوتينييف في ٧ تموز ١٨٤٠ من بيروت: « حصلت اشتباكات كثيرة بين الجبليين المتمردين وبين الجيوش المصرية. الاخيرون استفزوا واهينوا في كل الاماكن، وكانوا المهزومين والمطرودين في كل الأحوال. ضواحي مدينتنا تبقى مسرحاً للعمليات العدائية. كتائب كاملة من الجند النظامي هزمت بشكل مخجل أمام أعيننا بحفنة من ٥٠ جبلياً. » AVPR. F. « السفارة في القسطنطينية » D. 710, L. 38)

كذلك يشهد قلق القيادة المصرية والتدابير التي اتخذتها لإخضاعه، على جدية هذا التمرد وقوته والمشاركة العامة فيه الناشر.

اسبوعين، فانفرط عقد عسكره وتخلى عن راياته الاخاذة.

في هذه الاثناء، كان محمد علي الى جانب التدابير اللازمة لإخماد أي تمرد، يجدد محاولاته لاعادة المفاوضات مع الباب العالي دون اشراك الدول الكبرى. كان خسرو كريه محمد علي قد حرم من منصب الصدر الاعظم وفقد حظوته في الوزارة الجديدة أمام قوة وتأثير رشيد باشا وزير الخارجية. محمد علي، منطلقاً من أن هذا التغيير الوزاري جاء في صالحه، وآخذا بعين الاعتبار بذور التمرد المعتمل في سوريا وموقف البلاط الانكليزي المعادي له، وبمناسبة ولادة السلطانة الابنة، أرسل الى القسطنطينية ياوره سامي بك، الانسان الذكي اللبق الجذاب، وكلفه بطرح فكرة إعادة الاسطول، وطلب الاذن لسعيد بك ابن محمد علي كابتن الاسطول بقيادته بنفسه الى العاصمة. وفي نفس الوقت أعطي سامي بك الاذن بالدخول في مفاوضات سرية لتسوية سلمية على أساس إعادة أضَنَة للباب العالي وزيادة الاتاوة عن سوريا، مقابل عدم تدخل الدول الاوروبية في أمور المسلمين الداخلية (البيتية). الباب العالي وقد أصبح ذا تجربة كبيرة بأساليب واليه، استقبل مبعوث الباشا بلطف، معلناً ببرودة أعصاب أن إعادة الاسطول مسألة ثانوية ما لم تحل مسألة سوريا. رافضاً في الوقت نفسه كل مباحثات جانبية، بحجة ضرورة التنسيق مع حلفائها الاوروبيين.

في تموز عاد سامي بك الى الاسكندرية صفر اليدين. في هذه الفترة كان بإمكان التمرد اللبناني أن يضع حداً لعدم اتفاق الدول الكبرى. وعد الباشا الجبليين بعدم جمع السلاح إن هم خضعوا طوعاً في نفس الوقت الذي كان يوجه فيه قواته من كل صوب لدخول الجبال. مدينة زحلة على السفح الشرقي من لبنان كانت محتلة من قبل لواء من الجيش النظامي، ثلاثة آلاف الباني نزلوا ببروت عن طريق البحر من بشليك أضنة، من الاسكندرية وصلت سفينتا صف و ١٢ فرقاطة و ٨ مراكب اخرى. نصف سفن هذا الاسطول كانت تركية والنصف الآخر سفن مصرية، وكان من أصلها نصف لواء من قوات الانزال التي كانت قد التجأت مع قبودان باشا. كان محمد علي يريد من تأليف تلك القوة البحرية على هذا الشكل إيهام الجبليين بأن استياءه منهم يتم باسم السلطان وكأنه في تحالف معه. وزيادة في تأكيد هذه النقطة، وتمويها للاستعدادات العسكرية احتفل بميلاد السلطانة رسمياً في بيروت ولمدة سبعة أيام بلياليها، في الوقت الذي كانت تتم فيه سراً كل التحركات العسكرية المنوّه عنها. من جهة ثانية أبرزت هذه التحركات البحرية من الاسكندرية الى بيروت مشاعر طاقم الاسطول التركية حيث اكتشفت مؤامرات هدفها الابحار حتى شواطىء يسيطر عليها السلطان، وعند وصول الاسطول المصري، بيروت

وبدون أية ضجة قذف عدد كبير من ضباط البحرية الاتراك في مياه البحر.

صلاحيات القيادة العامة للحملة على جبل لبنان، أعطيت في حالتي العمليات الحربية او المفاوضات لسليمان باشا، وتحت إمرته حفيد محمد علي عباس باشا. محمد علي، ولمعرفته بطبائع ابنه ابراهيم العنيدة التي لا ترحم، ولإدراكه بما يحدثه ذكر اسم الباشا الابن من اضطراب في نفوس الجبليين وتحاشياً لتجديد حرب حوران، أمر ابنه بعدم الاشتراك في هذه الورشة الحربية، خاصة وأن الفشل وإراقة الدماء في هذه النقطة الساحلية، كان سيعطي انعطافاً سيئاً بالنسبة لمحادثاته مع الدول الكبرى بشأن سوريا.

عند انتشار نبأ التمرد اللبناني وصلت الى بيروت الفرقاطة الانكليزية، الا أن عدد الجنود الذين يحيطون بالجبال المتمردة كان قد بلغ منذ ثلاثة اسابيع الثلاثين الفاً. وجود العلم الانكليزي والبريد البحري الانكليزي العامل بين القسطنطينية وبيروت ومالطا، مؤشرات أوحت لسليمان باشا بخطر كبير على الاسطول الراسي في بيروت بانتظار الحملة الى الجبل، فاسرع باعادته الى الاسكندرية بعد إنزال فرقه العسكرية. والواقع إنه بعد إبحار الاسطول المصري الى الاسكندرية بقليل، ظهرت في مياه بيروت فرقة انكليزية تحت إمرة الكومودور نابير [٨] المشهور بشجاعته في طاخو في حرب دون بدرو مع دون ميكال. لو كان وصول الكومودور قبل ذلك بعدة أيام لاستطاع بغض النظر عن عدم تكافؤ القوى، الاستيلاء على المراكب المصرية، وبالتالي إعطاء المسألة اللبنانية انعطافاً آخراً. كان هذا في أوائل تموز، حيث كانت الحملة المصرية تتأهب للدخول الى الجبال. الكومودور من ناحيته، بقي مراقباً غير قادر على التحرك، محاولاً دون جدوى رفع معنويات المتمردين المذعورين من الحشود المصرية.

رأى الأمير بشير خطة سليمان باشا، ولم يشك بقرب إخماد التمرد، فأسرع بإرسال ولديه عارضاً خدماته. سليمان باشا وعباس حفيد محمد علي أدركا جيداً مرامي الامير الماكرة، إلا أنهما أجلا الانتقام بانتظار ظروف اكثر ملاءمة، موطدين علاقاتهما مع الأمير ليسهل القضاء على القبائل المتمردة بضربة واحدة. في هذه الفترة جرت مشاهد عجيبة. كانت العواطف الشعبية ملتهبة، لدرجة أن الجبليين الذين لم يشتركوا حتى الآن في التمرد، حضروا للدفاع بعناد عن قممهم المنيعة ضد حملة العسكر المصري، خاصة بعد أن كشف هؤلاء بعد نزولهم في بيروت عن تعصب ديني ضد المسيحيين.

---

(٨) تشارلز نبير Charles Napier (١٧٨٦ - ١٨٦٠) أميرال انكليزي. سنة ١٨٣٣ قاد الجيش خلال الحرب الاهلية في البرتغال الى جانب الدستوريين. سنة ١٨٤٠ أشترك في العمليات في سوريا. الناشر.

نجح بشير في أيام ثلاثة من بذر الخلاف بين آمري التمرد، وأوحى للشعب بالشك في إخلاص وصدق قواده، ونشر الاشاعات مرعبة في كل مكان، حتى أن الممرات الجبلية خلت من المسلحين تماماً، أما المتآمرون الذين لم يطلقوا رصاصة واحدة فقد هربوا أو طلبوا العفو. في نفس الوقت كان خيالة الامير يطوفون فرقاً صغيرة في السناجق التي كانت تغلي بالعصيان قبل ذلك بقليل، يأخذون السلاح والجزية عقاباً على التمرد. هذه الدوريات المؤلفة من شخصين أو ثلاثة نزعت السلاح من مئات الجبليين، الذين كانوا يجلدون بالسياط حتى تسليم السلاح أو دفع الجزية. ثم ظهر الالبانيون أو جيش الانزال السلطاني الذين اجبروا من قبل قبودان باشا على خيانة السلطان واللجوء الى محمد علي، وهؤلاء بسبب كرههم المضمر للباشا افرغوا حقدهم ضد الجبليين التعساء، فنهبت القرى والاديرة والكنائس، ويجدر أن نذكر هنا أن الجنود المصريين كانوا أكثر رحمة تجاه السكان من أولئك الجنود الاتراك، وهذا يرجع إما الى انضباط المصريين في حياتهم العسكرية. وإما لأن الباشاوات كانوا قد استثاروا عنف الجندي التركي، وإما لأن القيادة المصرية تغاضت قصداً عن ممارسات الاتراك السيئة، في محاولة للقضاء على المفاتن التي كانت القبائل السورية مرتبطة من خلالها بسلطانها الشرعي. ونذكر في هذا السياق عن أن وجود فرقة الانزال التركية ضمن الحملة المصرية كان يهدف اساساً الى تبديد الاشاعات المغرضة عن علاقات سعادة الباشا بخليفة السلطان محمود.

خلال أيام معدودة، خضعت الجبال اللبنانية دون مقاومة، وترك الكومودور الانكليزي الشواطىء اللبنانية والحسرة في قلبه، محتفظاً بذكرى عميقة عن مقدرة الامير العجوز على المفاجأة، لأنه تمكن، خلال اسابيع، من إطفاء الحريق الذي هدد باشعال كل سوريا. كان بمقدور الامير بشير، وحسب القواعد الاساسية لحكمه، أن يستخرج منافع من أية أزمة سياسية، وبحجة اتقاء تمردات جديدة محتملة، وتأديب المتمردين، قبض على كل من لا يتماشى وجوده مع مخططات الامير، وأرسله الى مصر، وقد طال في تصرفه هذا أمراء عدة من أقربائه. ومن مصر نفي هؤلاء الى سانور، حيث قضوا صيف ١٨٤٠ تحت الشمس المحرقة متحسرين على نسائم جبالهم المنعشة، ومنابعها الباردة، وقممها المكللة بالثلوج، ولم يخرج هؤلاء المطرودون من معتقلهم الا بعد انتهاء خريف وشتاء ذلك العام.

لم يلق الحكم المصري طوال فترة تواجده، الذعر في القلوب كما حصل هذه المرة، فقد خافت كل سوريا بعد أن عرفت باخماد العصيان اللبناني، مع أنها لم تعرف في السابق ما يماثل حقدها وعداوتها الحالية للباشا المنتصر، ولم تكن المشاعر الشعبية تضطرم تحت الستار

الظاهري للهدوء القسري بمثل قوتها الآن. إضافة الى أن التعاطف الذي كشفته السفن الانكليزية والقناصل الأوروبيون في بيروت، وبالرغم من أنه لم يقف حاجزاً في وجه نجاحات الباشا، إلا أنه كان ذا تأثير معنوي ومؤشراً على عداء الدول الكبرى لباشا مصر. سورية المخدوعة سنة ١٨٣٩ بعد معركة النزيب، أخذت تنتظر تحريرها على يد أوروبا. وبالفعل سرت إشاعة بأن فيلقاً روسياً من ٥٠ ألف جندي كان يعبر ارض روم لطرد المصريين بمساعدة الاسطول الانكليزي من البحر. استقصاء المشاعر الشعبية كان ذا أهمية كبرى في وقت كانت تستعد فيه الدول الاوروبية لحل المسألة الشرقية.

في مثل هذه الظروف وقعت في لندن المعاهدة الشهيرة ٣ (١٥) حزيران [١٨٤٠] بين الروسيا، النمسا، انكلترا، بروسيا والباب العالي. وبالرغم من معارضة فرنسا قررت الدول الكبرى بموجب هذه المعاهدة اخضاع محمد علي بالقوة، ووضع حدود لطموحه اللاشرعي واللامحدود. كانت المعاهدة ترتكز على ما أخذته الدول الكبرى على عاتقها في مذكرة ١٥ (٢٧) تموز [١٨٣٩]. المقدمة الى الباب العالي، فإن المعاهدة تسمح بالتصرف دون تأجيل. إن السرعة في التصرف هي أفضل ضمان لنجاح هذه المهمة، ولتفادي حرب اوروبية محتملة، بسبب استبعاد فرنسا عن العمل الاوروبي المشترك.

انطلاقاً من معاهدة لندن قدم الباب العالي لمحمد علي عرضاً بحكم مصر وراثياً، وإدارة سوريا الجنوبية (فلسطين) حتى الخط الممتد بين الرأس الابيض (رأس الناقورة) على البحر المتوسط وبين بحيرة طبريا في الداخل، مع الاشارة الى أن مهلة قبول هذا العرض المزعوم من قبل الدول الاوروبية كانت عشرة أيام، يعطي الباشا خلالها كل الاوامر اللازمة لاخلاء بقية سوريا، اضنة، كريت والجزيرة العربية، مع تسليم الاسطول السلطاني بالسرعة اللازمة.

وفي حال عدم موافقة الباشا المصري على هذا الاقتراح، يتقدم الباب العالي بعرض جديد، يكتفي فيه بالتنازل عن مصر يحكمها محمد علي وراثياً، وإعطائه كما في الاقتراح السابق مهلة عشرة أيام للقبول، تاركاً لنفسه في حال رفض الباشا للمرة الثانية، فرصة التحرك بما يراه مناسباً بعد استشارة تمهيدية من قبل الحلفاء، وبما أن سوريا الشمالية كانت ستعاد الى الباب العالي بموجب أي من العروض المقدمة، وكمكمل للمفاوضات مع الباشا، كان من المنتظر، وقت انتهاء مهل العروض المحدودة، افتتاح المعارك عند الشواطىء اللبنانية لقطع الاتصالات البحرية بين مصر وسوريا. أما فيما يتعلق بتهديد محمد علي الدائم بمتابعة حملة ابنه ابراهيم داخل آسيا الصغرى، فإن الدول الاوروبية اتفقت أن تحتل أساطيلها الدردنيل والبوسفور لحماية العاصمة العثمانية، في حال تنفيذ محمد علي

لتهديداته. ومن ناحية اخرى كان فيلق الجيش الروسي حاضرا للتوجه من أوديسا وسيباستوبول عبر البحر الاسود لمواجهة ابراهيم.

نبأ المعاهدة الانكليزية وصل الى سوريا بواسطة الكومودور الانكليزي نابير الذي ظهر فجأة مقابل بيروت في اول آب مع أربع سفن صف وفرقاطة واحدة. وكان هذا القائد يتوقع أن يشكل ظهوره وإعلان إرادة الدول الكبرى، ودعوة السكان باسم السلطان الى تمرد جديد. عوامل تخيف الجيش المصري، وتؤدي بالتالي الى أن ينضم اليه نصف اللواء البحري السلطاني الذي اشترك في الحملة على الجبال اللبنانية كما رأينا، والذي لسوء تصرفاته في هذه الحملة أقام له سليمان باشا معسكراً على شواطىء بيروت. توقفت السفن الانكليزية على جانبي هذا المعسكر وأعلنت بأن الجيش السلطاني يقع تحت حمايتها: وهذا يعني منع الجنرالات المصريين من إبعاد الجنود الاتراك عن هذا الموقع.

التهديدات، الايحاءات، والبيانات شكلت بالنسبة لنسكان وللجنود نذيراً لبدء العمليات العسكرية. دون أن يتعدى ذلك حدود اللغط المتبادل. وهنا لابد من اتهام نابير بالمغالاة في حماسته، وهي حماسة خادعة على كل حال، للاسراع في تنفيذ معاهدة لندن. كان يريد من ناحية اولى، التأثير على جيش السلطان والقبائل الخاضعة له، دون أن يكون الى جانبه أي وجيه من وجهاء السلطان، ودون ان يكون لديه فرمان سلطاني يعطي خطاباته وأعماله صفة مشروعة، ومن ناحية ثانية فإن نابير جازف كثيراً بدعوته تلك القبائل لاعلان العصيان وهي مجردة للتومن سلاحها عقاباً على تمردها الذي ما زال يسمع ترجيعه، وما زال الثلاثون الف عسكري مصري يحتلون الجبال، أو هم على أهبة الاستعداد لمهاجمتها. كل هذا أسقطه القائد الانكليزي إضافة الى عدم امتلاكه أصلاً الوسائل المادية لمساعدة الجبليين أو حمايتهم من البحر. أما فيما يتعلق بموقف طاقم الاسطول السلطاني المحجوز، فإن كلمات وتصرفات الكومودور شكلت مبرراً للدور الذي مثله محمد علي أمامهم في تلك الفترة: حامي الاسلام من نوايا الكفار السيئة. حسن باشا قائد هذه العساكر رفض بكل كبرياء، على رأس مجموعة ضباطه، خدمات الانكليز ممتنعاً عن إقامة أية علاقات معهم.

لم تلْق وعود وتهديدات الكومودور أي سَنَدٍ، وبعد عدة أيام رحل أمام عينيه طاقم الاسطول التركي من معسكره على الشاطىء، عبر الجبال اللبنانية الى بعلبك، المكان الجديد كما حدده لهم الجنرالات المصريون، خوفاً عليهم من أي اتصال مع الخارج. لكن أكثر ما أضرّ بالكومودور، خطأ بلاغي بسيط ارتكبه في استعماله النعوت. المميزة العبقرية للغة العربية: في أحد بياناته التي دعا فيها السكان الى التمرد ضد المصريين، وعدهم بأن

يكون رحيماً مع مدينة بيروت. في الترجمة غير الموفقة لهذا البيان الى العربية، ترجمت رحمة الكومودور وكأنها أحد اسماء الله الحسنى التسعة* وهذا ما ظهر للسكان المسلمين تجديفاً متعمداً فابتعدوا لتعصبهم الديني، عن الاوروبيين المسيحيين، حتى ولو كانوا ينتظرون على يد هؤلاء تحرير المنطقة من الوجود المصري البغيض.

استمرت محاولات الكومودور نابير ونداءاته المهينة للسلطات المصرية، طوال شهر آب، دون أن تعرف المنطقة طوال هذه الفترة أي تبدل اساسي، فأبرز ما حصل كان تحركات بسيطة، استدعي حفيد محمد علي على إثرها الى مصر، عند اول نبأ عما يجري في بيروت. سليمان باشا انصرف لتأديب نزوات عامة المسلمين المتعصبين وحتى تأديب اندفاعات جيشه الناقم على المسيحيين بعد موقفهم من انتفاضة الجبل، والمطعون في شعوره الديني بسبب البيان الانكليزي. من جهة ثانية وصلت للكومودور الانكليزي سفينتا صف. الحدث الأهم كان قطع المواصلات البحرية بين سوريا ومصر تمشياً مع مضمون المعاهدة الاوروبية، ولهذا صارت الناقلات المرسلة من مصر إلى جيوشها في سوريا غنائم حربية.

حاول الكومودور الانكليزي الحزين، لعدم امكانية افتتاح العمليات الحربية بينه وبين الجيش البري المصري، رشوة سليمان باشا، واعداً اياه باسم السلطان بالاموال الطائلة وبحكم مدى الحياة لأي بشليك يختاره[٩]. الا ان الضابط النابوليوني العجوز رفض كل هذه العروض، وكأن الصراع القائم أيقظ في نفسه كره طفولته المقدامة للانكليز، الذي تربى عليه اثناء العمليات الفرنسية. إن الكومودور نابير يحوز بلا شك مواهب حربية كبيرة، إلا أنه بتصرفاته أثر كثيراً في سرعة نجاح العملية، فهو لم يفهم الوضع في الاقليم ولا نفسية الاهالي، ولا طبائع الرجالات والوجهاء، ولا التصورات السياسية والنوايا الانسانية التي اتخذت من خلالها، وبسببها مقررات المؤتمرات اللندنية، وهذا ما يحكم على أي تحرك يقع خارج إطار تلك العوامل بالفشل الذريع. بدل الهدوء والروية التي تليق بمثل هذه المهمة المبنية على أساس قرارات الدول الاربع الكبرى، ظهر في تصرفات الكومودور المتتابعة الفشل، وظهرت الحسرة الداخلية لأنه لم يكن يملك وحده امكانية حل مسألة عظيمة مثل المسألة الشرقية، كما كان قد حصل معه في «طاخو» قبل أعوام، إذ قرر منفرداً مصير البرتغال بجسارة موفقة.

(*) ترد عن بازيلي: اسماء الله التسعة، بدلاً من التسعة والتسعين وهذا على الاغلب خطأ مطبعي (المترجم).

(٩) هناك عرض رسمي بنفس المضمون قدمه القنصل الانكليزي مور في ٥ أيلول ١٨٤٠ - الناشر.

جواباً منه على تهديدات الكومودور، أعلم سليمان باشا قناصل الدول الكبرى المتحالفة، رفض الباشا العجوز القاطع للعروض المقدمة له، وتصميمه على الدفاع بالسيف عما غنمه بحد السيف، وعلى رد أية هجمة للاسطول على المواقع الساحلية في سوريا. تقدم سليمان باشا بهذه الاجوبة، تنفيذاً لإرادة سيده وحسب، لإنه كان يشعر بأن الامور في المنطقة ستأخذ انعطافاً دموياً حاسماً.

إن النظام الدفاعي كما قرره محمد علي باشا كان نظاماً عقيماً، فليس بإمكان أية قوة مهما بلغ تعدادها تسكير الشاطىء الممتد بطول ٨٠٠ فرسخ في وجه اسطول معاد، قادر على تحديد وقت ومكان الهجوم. إضافة الى ذلك فإن العساكر الآسيوية إجمالاً، تقدر أكثر ما تقدر الانطباع الاول وتتصرف من خلاله، واكثر ما يخيب الجندي ذعر الفشل الاول. كان رأي سليمان باشا إخلاء كل الشاطىء السوري ما عدا عكا، والتمسك بالخط الداخلي بين حلب، حماه، حمص، دمشق، نابلس، والقدس، مع مواقع مراقبة متقدمة في بعلبك وانطاكية. خطأ محمد علي الاساسي عدا ما أشرنا اليه من أخطاء استراتيجية، كان في اعتماده على تأثير الامير بشير بين القبائل اللبنانية، واعتقاده، انطلاقاً من كلام الصحف وخطابات تيير، بالتدخل الفرنسي، وانتظاره بين ساعة واخرى، وصول مساعدات ضد الدول المتحالفة وبدء الحرب الاوروبية.

تزايد الجيش المصري حتى بلغ ٧٥ الفاً، تكفيه مخزوناته لمدة عام. ولكن محمد علي بدل المحافظة على جيشه حسب رأي سليمان باشا، والتخلص من همّ اخضاع الجبليين. واستدراج العدو الى الداخل، وحرمانه من كل أفضليات القرب من الشاطىء وإطالة أمد الحرب التي كان التفوق المادي فيها الى جانبه، وإعطاء الفرصة لسكان الساحل بأن يستشعروا ثقل مسرح العمليات الحربية عند ضرورة إمداد الجيش السلطاني بالذخائر والمؤن، واخيراً تبريد حماسة السكان نحو الاتراك، الذين لم يكونوا ليتأخروا بتصرفاتهم السيئة عن إثارة استياء القبائل السورية ودفعها للتحسر على أيام المصريين. بدل كل هذه الامتيازات الواضحة لصالح محمد علي، والتي نزيد عليها إمكانية حصول الاختلاف بين الضباط الاتراك والانكليز، وضع محمد علي جنوده في المواقع الساحلية من طرطوس حتى غزة. الجناح الايمن لخط العمليات هذا، كان في انطاكية حيث تمركز لواءان، الجناح الايمن - الخيالة المتمركزة بين عسقلان ويافا، اما فرق الخيالة غير النظامية (باشي بوزوك) فكانت تحمي سنجق طوروس من هجوم من ناحية آسيا الصغرى. ٣ كتائب، ٦ سرايا خيالة وفوج (آلاي) مدفعي احتلوا عكا. أما مركز العمليات الحربية فكان في بيروت، حيث يعسكر ١٢ ألفا من المشاة، ٥ آلاف الباني، ٤ آلاف مجند نابلسي ودروز

الامير اللبناني، وقد اعلنت حالة الحصار على طول الشاطىء السوري من طرطوس حتى خان يونس، اقصى اطراف سوريا من ناحية صحراء السويس[١٠]، ووضعت كل السلطات المدنية تحت أمرة السلطات العسكرية بحيث خضعت كل جريمة سياسية لمحكمة عسكرية، قوافل الجمال المصرية امتدت من مصر عبر الصحراء بالذخائر والثياب الشتوية للجيش.

الواقع أن محمد علي قرر الدفاع بكل ما أوتي من قوة، ممنياً نفسه بالانتصار التام أو على الاقل بصلح مشرف مربح، في حال استمرت الحرب طويلاً. إلا أنه كف عن التهديد الوقح بحملة جديدة على آسيا الصغرى، وهو التهديد المحبب اليه يستعمله دائماً وكأنه فتيل جديد لاشعال الحرب الاوروبية. تراجع ابراهيم باشا من مرعش الى وسط العمليات العسكرية، حيث تمركزت القيادة قبل وصوله بيد سليمان باشا.

في نهاية شهر آب استعرض ابراهيم باشا جيشه في بعلبك، حيث دعا الأمير بشير الى الاجتماع به. وفي نفس الوقت كان الاميرال الانكليزي سير روبرت ستوبفورد[١١] والعميد البحري النمساوي بارون بانديير الذي كلف بالظهور في الاسكندرية ومساندة عرض السلطان، وقد التقيا عند انتهاء مدة الانذار بالحملة التركية المرسلة الى سوريا من القسطنطينية بسرعة عن طريق البحر. وقد كلف الاميرال ستوبفورد بالقيادة العامة على كل القوى البرية والبحرية للحملة المشتركة على سوريا.

كانت هذه القوى تتألف من ١١ سفينة صف، ٦ فرقاطات، ٥ بوارج و ٥ مراكب انكليزية[١٢] مع بطاريتين لجيش الانزال، و ٢ فرقيطة و ٣ فرويت نمساوي، بالاضافة

---

(١٠) ٢٦ آب ١٨٤٠. الناشر.

(١١) ستوبفورد روبرت (١٧٦٨ - ١٨٤٧) اميرال انكليزي، خدم مدة طويلة في الاسطول (منذ ١٧٨٠) سنة ١٨٣٧ عين قائداً للاسطول الانكليزي في المتوسط سنة ١٨٤١ استدعي الى انكلترا.

(١٢) مراكب الصف: «Princess Charlotte» (تحت علم الادميرال ستوبفورد) تحمل ١٠٤ مدافع «Powerful» (تحت علم الكومودور نيبير) - ٨٤ مدفعاً، «Langes» - ٤٨ مدفعاً، «Thundrer» - ٨٤ مدفعاً، «Bellerophon» - ٨٠ مدفعاً، «Implacable» - ٧٤ مدفعاً، «Hastings» - ٧٢ مدفعاً، «Edinhourgh» - ٧٢ مدفعاً، «Belleisle» ٧٢ مدفعاً، «Revenge» ٧٢ مدفعاً؛ الفرقيطات: «Dido» - ١٨ مدفعاً «Carysfort» - ٢٦ مدفعاً، «Talbot» - ٢٦ مدفعاً، «Tyne» - ٢٦ مدفعاً، «Daphne» ٢٦ مدفعاً، «Magicienne» ٢٤ مدفعاً البوراج: «Hazard» ١٨ مدفعاً، «Wasp» ١٦ مدفعاً، «Zebra» ١٦ مدفعاً، «Scorpio» ١٠ مدافع، «Weazle» - ١٠ مدافع البواخر «Gorgon» ٦ مدافع، ←

الى قوة تركية صغيرة مؤلفة من سفينة وفرقاطة ومركبين صغيرين جهزت سريعاً في القسطنطينية بعد فقدان الاسطول. هذه القوة البحرية وضعت بأجمعها تحت إمرة الكابتن « ووكر » الذي كان قد دخل منذ عام في الخدمة التركية كمستشار لدى الاميرالية، وقد تسمى باسم ياور بك بعد أن رقي الى منصب عميد بحري.

قوة الحلفاء هذه تظهر وكأنها لا تتناسب مع ضخامة المهمة الملقاة على عاتقها، هزيمة سبعين الف جندي مصري وطردهم من سوريا، والتغلب في الوقت نفسه على كل التحصينات الموجودة. وإنما يجب الا ننسى هنا أن القوة المعنوية لارادة أربع من الدول الكبرى كانت تكمن وراء القوة الحليفة، ولندخل في الحسبان كذلك حيازة هذه القوة تعاطف القبائل السورية الذي تحدثنا عنه. وبالمناسبة لقد حاولنا في صفحات سابقة وفي أكثر من مرة، أن نستجمع عناصر التركيبة الداخلية للاقليم. هذه التركيبة التي تسهل منذ القدم أي فتح أو تخدم في نفس الوقت كعقبة في وجه أي نجاح أو تقويه أي سلطة.

على الرغم من تذرع الفرنسيين بقلة الوسائل اللازمة لفصل سوريا عن السلطة المصرية، فإن الدول الاوروبية، هيأت كل متطلبات ذلك، ابراهيم باشا الذي كان يرى في نفسه الاسكندر المقدوني، ويرى رتبته أعلى من مرتبة نابليون لأنه تمكن، وبحملتين من ٢٠ ألف جندي، من احتلال سوريا والوصول إلى مكب آسيا الصغرى، ابراهيم هذا توصل بالتجربة الى أدراك ركاكة مأثرته وهشاشة انجازه، عندما لم يستطع بجيش من ٧٠ الف مقاتل من الدفاع عن غنيمته أمام حفنة من القوى المتحالفة، وقبل فيضان سيل الغضب الشعبي.

= «Cyclops»٦ مدافع، «Rhadomthus» - ٤ مدافع، «Hydra» - ٤ مدافع، «Phœnix» ٤ مدافع.

الفصل الرابع عشر

علاقات الدول الكبرى فيما بينها ـ أخطاء الحكومة الفرنسية ـ تفجر العواطف والميول الشعبية في فرنسا ـ تهديدات ألمانيا ـ التحضيرات للحرب في أوروبا ـ تعهدات الدول المتحالفة ـ إعلام محمد علي بقراراتها ـ مذكرة القناصل العامين ـ رفض الباشا وغروره ـ شكواه للباب العالي واعتماده على فرنسا .

* *

قبل الدخول في الحديث عن الحملة التي قضت في نهاية ١٨٤٠ ، بعد أربعة أشهر من الصدام ، الخلاف الطويل بين السلطان والباشا المصري ، يجدر أن نلقي نظرة على الموقف في أوروبا حيال هذه المسألة ، وعلى المحادثات التي سبقت بدء العمليات العسكرية في سوريا .

كانت القضية البلجيكية في البداية ، ثم الحلف الرباعي في مواجهة الاضطرابات الطويلة في شبه جزيرة البيرنيه ، وثالثاً ، وقد يكون هذا الأهم ، الحسرة العامة لتفوق النفوذ الروسي ، في تركيا سنة ١٨٢٩ . كلها عوامل أسهمت بتسريع تقارب وجهات النظر ، وخلال عقد من الزمن ، بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية . ويبدو هنا أن العداء الشعبي المزمن ، وقد استنزف كل طاقاته في فترة الحروب النابوليونية، تراجع أخيراً ليفسح في المجال أمام الرغبة في السلام ، في انكلترا في ظل وزارة الـ (Weigs) ، وفي فرنسا تحت نفوذ تيير ، الذي ذاع صيته زعيماً لتيار المهادنة والاتفاق مع بريطانيا . بالاضافة إلى هذا تأتي العلاقات الودية بين الملكة الشابة فكتوريا والعجوز المجرب حاكم فرنسا منذ ١٨٣٠ . هذه العوامل مجتمعة ساعدت على التحالف التدريجي بين هاتين الحكومتين الغربيتين بحيث أصبح بإمكاننا أن نخمّن أن هذه العواطف المتبادلة بين الشعوب والحكومات ستكون ضمانة السلام الآتي خاصة بعد الاحتفالات الرسمية بدفن رفات نابوليون المحررة من الأسر سنة ١٨٤٠ بعد موته قبلاً . لكن كل هذه البدايات الجيدة في التعايش بين الدولتين سرعان ما انهارت إثر مذكرة ٣ (١٥) تموز ١٨٤٠ ، وإثر استثناء فرنسا من العمل على حل

المسألة الشرقية بحجة افتراق خططها عن مخططات غيرها من الدول الأوروبية الكبرى .

هل كانت الشكوى من استبعاد فرنسا عن مجموعة الدول الأوروبية ، تصرف محق ؟ وفرنسا هي الدولة التي كانت بشكوكها وترددها وتخوفها من أوضاعها الداخلية ، قد أطالت حل الأزمة التي يتعلق بها سلام أوروبا ، لمدة تقارب السنة ؟ في موقف مغاير لتعهدات الحكومة الفرنسية الرسمية ، المرفوعة بواسطة المذكرة ذات الخمس فقرات في أزمة ١٨٣٩ ، تراجعت هذه الحكومة الآن واشترطت وجوب موافقة الباشا المصري على أي حل يقترح . حكومة تيير ، إيماناً منها بعدم إمكانية جذب الدول الأخرى إلى تأييد مخططاتها ، وبعدم نجاح محمد علي بالحصول على سوريا حكماً وراثياً ، توجهت بقواها لحل المسألة صلحاً بين الباب العالي والباشا المصري مباشرة دون الوساطة الأوروبية ومذكرة ١٥ (٢٧) [١٨٣٩] ، مستغلة في ذلك الأوضاع المتأزمة التي كانت تنخر الأمبراطورية العثمانية في تلك الفترة .

بغض النظر عن أن حلاً كهذا لا يتناسب أبداً مع كبرياء وكرامة الدول الكبرى فإننا نتساءل : هل يوفر مثل هذا الحل أية ضمانات مستقبلية ؟ أيعقل بعد سبع سنوات من القلق الدائم الذي اختتم بأزمة ١٨٣٩ ، وضع مسألة الحرب والسلم في متناول الطموح الجشع للباشا المصري ، ومزاجية السلطان ذي الـ١٧ سنة ، ومؤامرات الحريم والوجهاء ، أو في مهب أول انفجار للرغبات الشعبية في سوريا والأناضول ؟

بعد تعهدها السابق بدعم وحدة الأمبراطورية العثمانية وعدم المساس بها، بدأت الحكومة الفرنسية تعلن اليوم بأن وحدة الأمبراطورية لن تنتهك بل ستدعم في حال إشباع وحام محمد علي بإعطائه المقاطعات الواسعة التي يطلبها . وانطلاقاً من هذه الفرضية ؛ فإنها نعتت محمد علي بالسند الأمين للسلطان و«حارس العرش ضد أية هجمات داخلية أو خارجية» . ولكن امتناع الباشا المصري عن مدّ السلطان بأية مساعدة في حربه مع الروسيا ، ثم قيامه بحملة ١٨٣٢ ، والنداءات التي توجه بها إلى أوروبا طالباً تدعيم انفصاله عن الأمبراطورية ، وتهديداته المتواصلة بحملة جديدة على آسيا الصغرى ، وتحصين كولك بوغاز ، وحيلة احتجازه الأسطول في الاسكندرية ، ورسائله إلى الباشاوات يدعوهم لشق عصا الطاعة ، ومطالبته بتنحية الصدر الأعظم ، أليست كل هذه التوجهات العدائية للباشا المصري تجاه الباب العالي ، كافية لدحض الفرضية الاستبدادية التي يرتكز إليها البلاط الفرنسي في سعيه من أجل مصلحة الوالي ؟

من ناحية أخرى كانت الحكومة الفرنسية تشير تدعيماً لوجهة نظرها ، إلى إمارات الدوناي المتمتعة بحقوق سياسية خاصة ، وإلى المملكة اليونانية المنفصلة حديثاً عن تركيا . ولكنها في إشارتها تلك كانت تسقط من الاعتبار الأسس التي كانت ترتكز عليها الاهتمامات الروسية النبيلة ، بمصير الشعوب ذات المذهب الواحد والأصل الواحد ، وتسقط كذلك تدعيم أوروبا على استقلال اليونان ، وبالتحديد تطوير العنصر الوطني المسيحي المرتبط بالحياة السياسية للقبائل وغير القابل للتعايش مع السيطرة المتعصبة للهلال الشاحب . أما في ما يخص العنصر العربي والرغبة في إعطائه وجهاً سياسياً في عائلة أتراك روميليا ، فقد سبق وأشرنا إلى أن البحاثة الاجتماعيين والرحالة ، والذين سيطروا بنظرياتهم على الرأي العام في فرنسا ، كانوا يدفعون للإيمان بالسراب لا أكثر .

في ضوء توزع القوى الآنف ، وبعد معاندة حكومة تويليري المضطربة لرغبات الدول العظمى ، كانت معاهدة ٣ (١٥) تموز ، مهينة لكرامة الفرنسيين ، وهذا ما أثار خوف وذهول الحكومة الفرنسية ، المجبرة دائماً على إخضاع مواثيقها السياسية لرغبات الرأي العام . المجلات الفرنسية المهيأة بدورها لاستثارة العواطف الشعبية ، أرسلت بصوت واحد زعيقاً تناول كل أوروبا ، وتحديداً الروسيا وانكلترا ، اللتين لعبتا الدور السباق في حل المسألة الشرقية ، واللتين جعلتا باتحادهما كل الاعتراضات الأخرى تروح هباءً . انتقاد الروسيا ظل طوال عشر سنوات نوطة معتادة لكل معزوفات المجلات الباريسية ؛ لكن انكلترا ، هذه الصديقة البريئة ، وعمر صداقتها مع فرنسا عشر سنوات لا غير ، والحسنة الطوية تجاه ثورة تموز ، أصبحت من جديد ألبيون Albion العهد الكلاسيكي للحروب الثورية النابوليونية . كانت المجلات الفرنسية تطالب حكومتها بخوض الحرب ضد الروسيا وانكلترا ، ولكن خطوة كهذه ، تتعدى بالتأكيد ، طاقات فرنسا . كان باستطاعتها أن تتيقن ، فيما لو تلفتت حولها من عدم وجود حلفاء . ولكي تشترك في حرب الشرق المتفجرة مع حليف كالوالي المصري كان عليها أن تمتلك البحر . . . ومنازلة انكلترا في البحر الأبيض المتوسط ، في وقت كان فيه الأسطول الروسي ، أسطول البحر الأسود في تمام الاستعداد للحملة ، والأسطول الآخر ، الأسطول البلطيكي ، يتأهب من الخلف ، كانت مثل تلك المنازلة ضرب من الجنون .

وعند الضرورة كانت المجلات الفرنسية تصب جام غضبها على ألمانيا ، فراحت تتحدث عن مطامع بحدود الراين ، عن بلجيكا ، وعن الفتوحات في أوروبا ، وعن

النداءات الثورية للشعوب ، بكلمة واحدة عن تجديد الصراع الذي تفجر في السنوات الأخيرة من القرن [(الثامن عشر)] . وقد وجدت هذه النداءات صدى لها في المناقشات السياسية . الحكومات الفرنسية من ناحيتها بدلاً من أن تهدىء الثورات الشعبية بروية وتعقل ، ردت على معاهدة لندن بأوامر ملكية عدائية ، فدعت في ٢٩ تموز إلى السلاح ١٤٠ ألف مجند ، وفتحت حساباً لتقوية الأسطول ١٠ آلاف بحار ، ٥ مراكب ، ١٣ فرقاطة ، ١٠ بواخر كبيرة .

تعليقات الصحف على هذه الخطوات أثارت ردود فعل قاسية في أوروبا وخاصة في ألمانيا التي انتفضت رجلاً واحداً من أقصاها إلى أقصاها ، وراحت باستياء تسترجع ما حلّ بها في عهد نابوليون ، عندما كانت ميداناً للطموح الفرنسي ، وميداناً للحروب الأوروبية . وقد أجابت ألمانيا ، الشاعرة ، على طبول الحرب الفرنسية ، بأغان وطنية ، فيها ترجيع لسنة ١٨١٥ ، كانت مقاطعها تنتهي بتحذير الفرنسيين : «لا ، لن تشربوا من خمورنا الراينية . لا ، لن تعانقوا عذارانا الشقراوات» . وأنهضت ألمانيا مليون جندي .

في هذه المرحلة تأكدت فرنسا التي ظلت طوال عشر سنوات ، تزعق ضد معاهدات سنة ١٨١٥ ، التي أشعرت الشعوب الأوروبية بالسلم ، بعد اضطرابات استمرت عشرين سنةً . أقول تأكدت فرنسا مع أنه لم يكن بمقدورها أن تفلت من العقاب في ما لو حاولت النيل من أي من الدول التي كانت المعاهدات السابقة تضمن وجودها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن المشاعر التي كشفتها أحداث ١٨٤٠ لدى القبائل الألمانية ، والحماس العام عند أول نداء للحكومة من أجل الدفاع عن الوطن المهدد ، برهنت لفرنسا ، أن عواطف الشعوب الأوروبية لن تكون إلى جانبها في حالة الحرب ، وبينما على ندائها الثوري لن تنهض الجماهير من Zound حتى Messino ومن Neman حتى Savoic كما كان يعتقد منجمو المجلات والوزارات .

الدول الحليفة بسعيها لحفظ السلام الأوروبي ورغبتها في تجنب أي سوء تفاهم في ما عنى المسألة الشرقية ، أعطت لأوروبا ضمانة جديدة بسلوكها الغيري وسياستها غير المغرضة . وبعد توقيع معاهدة ٣ (١٥) تموز أبرم ممثلو الروسيا والنمسا وبروسيا والسفير العثماني في لندن بالاضافة إلى الحكومة الانكليزية في ٥ (١٧) أيلول بروتوكولا يقضي بعدم السّعي إبان تطبيق معاهدة ٣ (١٥) تموز ، لكسب أي نفوذ خاص أو أية غنائم أو امتيازات تجارية .

لنرجع إلى ما يدور في الشرق ، انطلاقاً من مضمون المعاهدة قدمت عروض الباب العالي إلى محمد علي بواسطة المبعوث رفعت بك [١] . وقد كلف القناصل العامون للدول الأوروبية المتحالفة بتأكيد هذه العروض بمذكرة فيها شرح وافٍ ودقيق لحقيقة الأمر .

كانت ديباجية المذكرة على الشكل التالي :

«باتفاقية ٣ (١٥) تموز ، تغير وضع محمد علي تماماً ، فهو إن لم ينفذ الآن العروض المقدمة إليه ، فسيكون في عداء مفضوح ليس مع سلطانه وحسب بل ومع الدول الكبرى الموقعة على المعاهدة ، والذي يزيد من صعوبة الأمر بالنسبة إليه ، إن كل النهج السياسي الأوروبي ، قائم على التنفيذ الأمين للمعاهدات . فالمعاهدات المعقودة بشأن قضايا اليونان بلجيكا واسبانيا طبقت بحذافيرها على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي كانت تعترضها في بعض الأحيان ، وعلى الرغم من أن الآراء الأوروبية حيالها لم تكن متشابهة .

من الخطأ الاعتقاد أن تغييراً قد يحصل في بنود الاتفاقية ، فالمهل الزمنية لتنفيذ شروطها تستبعد أية إمكانية من هذا القبيل . ولندخل الآن في عواقب قبول أو رفض الاتفاقية المذكورة .

في حالة قبوله الشروط المعروضة ، يبرهن سعادة الباشا لأوروبا وللأجيال القادمة ، بأنه لم يكن فقط فاتحاً محظوظاً كالكثيرين من أسلافه الذين لم يتوقفوا عن التحرك في الوقت المناسب لتثبيت دعائم إنجازاتهم ، وإنما في الوقت نفسه رجل دولة وسياسي متعمق . وهل يثير الحسد أكثر من مجد تأسيس أسرة حاكمة يعترف بها السلطان الشرعي وكل أوروبا ؟ وعلى حافة ميدان العمر المجيد ، ما هو أكثر عزاء للنفس من الايمان الداخلي بأن ما أسسته سينتقل إلى أطفالي دون أن يسلبهم إياه أحد ؟

في وقتنا الحالي ، لا تشكل المساحات الواسعة ولا القوة المادية ضمانة رخاء الدول ؛ إن الدول المكفولة بمعاهدات ، هي التي تضمن عدم المساس بها ، وتضمن حقوقها داخل النهج السياسي الأوروبي . لننظر إلى الخارطة : دويلات صغيرة ، عبارة عن أملاك غير واسعة ، محرومة من وسائل الدفاع ومحاطة بالدول

---

(١) أصبح لاحقاً وزيراً للشؤون الخارجية مع لقب باشا .

الكبرى دون أن تخشى المضايقات أو الجور ، فأوروبا بأسرها تحمي شرفها وأمنها . في الشرق هل يندم محمد علي أو خلفاؤه ، مقابل ضمانات راسخة ، على فقدان مقاطعات ، لم تحمل لهم حتى الآن أي مردود ، بل على العكس من ذلك ابتلعت فوق مداخيلها الخاصة جزءاً من مداخيل مصر نفسها ؟ سعادة الباشا نفسه يعلم بالطبع أية تضحيات بشرية ومالية يدفعها ثمن احتلاله لسوريا والجزيرة العربية .

هذا ليس كل شيء ، ففي حالة إقرار السلام ، تختفي الخلافات البائسة بين الباب العالي وسعادته لتفسح في المجال أمام صداقة متينة قائمة على وحدة المصالح السياسية ووحدة الدين ، وبالتالي فإن الشعب المسلم يحزم أمره من جديد ويجدد جبروته القديم وعيشه الكريم . وفي حالة الخطر الخارجي فباستطاعة الطرفين أن يستند كل على الآخر من أجل الدفاع عن الوطن المشترك .

مستقبل محمد علي وعائلته ، رخاء مصر وتركيا ، المصالح السياسية للأمبراطورية العثمانية التي يسمي محمد علي نفسه مدافعاً متحمساً عنها ، كلها عوامل تدفع محمد علي إلى قبول العرض المقدم إليه ، والأكثر شرفاً ومنفعة من امتلاك مقاطعة ، وإن كانت غنية ، فهي لن تكون بأية حال مصونة أمينة . وفي نفس الوقت يبقى لمحمد علي ميدانه اللامع : متنعماً في ممتلكاته ، يستطيع أن ينذر كل نشاطه لتدعيم وتطوير تلك المؤسسات الرائعة التي منحها لمصر . نوبا السودان . . . ، مقاطعات غنية تبقى تحت سلطته تشكل مجالاً واسعاً لنجاحات العلم والمدنية . بذلك يكون محمد علي أهلاً لتسميته بمصلح مصر ، مهد العلوم العريق .

لنبحث الآن في عواقب رفض سعادته للعروض السابقة : قبل كل شيء سيؤدي ذلك إلى استعمال القوة الحربية ، والباشا يدرك جيداً أية إمكانيات تمتلك الدول الأربع الكبرى ، وبالطبع لن يداعبه حلم بمقاومة حتى واحدة منها .

تبقى المراهنة على مساعدة خارجية وهي في الوقت الراهن وهماً مميتاً . فمن هو الطرف الذي يستطيع إيقاف قرار الدول الكبرى أو يستطيع مقاومته ؟ ومن هو الطرف الذي يضحي بمنافعه الخاصة ، بأمنه ، تعاطفاً مع محمد علي ؟ وهل سيكون لمساعدته في حال افتراض حصولها أية منفعة جدّية ؟ في الصراع الجبار القادم سيكون محمد علي أول ضحية وسينتهي حتماً. الدعم الخارجي تعجيل بسقوطه ليس غير .

في سبيل إنجاز هدفها المرسوم ، كانت الدول الكبرى مستعدة لتقديم القوى

الكافية لسحق أية مقاومة ، محمد علي باشا سيكون المسؤول عن الحرب ، وعن ظهور الجيوش الأوروبية في مصر وآسيا . والشعوب الاسلامية ستدرك بدورها هذه الحقيقة وسترى الباشا مسبباً لويلات الحرب التي أشعلها من أجل منافعه الخاصة ، فقد أعلن أنه سيريق دماءً كثيرة قبل أن يتراجع ، بينما تسعى الدول الأوروبية إلى عكس ذلك ، فهي تتجنب جهدها إراقة دماء المسلمين والمسيحيين العاملين تحت رايات الباب العالي الساطعة .

إن ما تقدم يؤكد حتمية سقوط محمد علي . والسؤال البديهي : هل سيكون سقوطاً ممجداً ؟ لا ، لن يكون في ذلك أي مجد . إنه يسقط بسبب خطئه ووقاحته العمياء ودخوله صراعاً يائساً ، مع أن مصلحة مجده الخاص وحكمة التصرف ، عوامل تدفع للتنازل أمام القانون والأمر الواقع . سؤال آخر : عندما يسقط محمد علي هل ينتقل اسمه إلى الأجيال القادمة ؟ لا ، لأن فتوحاته لم تهز العالم مثل فتوحات جنكيز خان وتيمورلنك والاسكندر ونابوليون . التاريخ سيقول ببساطة : في عهد السلطان محمود حكم مصر باشا موهوب وصاحب مبادرة ، خاض الحرب بنجاح ضد سلطانه الفتي عبد المجيد خليفة محمود . مد السلطان يده مع عرض بالسلام وبتشريفات من الدرجة الأولى في الأمبراطورية ، لكن الباشا رفضها جميعاً . فتقدمت أوروبا وأدبته . وهكذا يضيع اسمه في زحام الباشاوات الكثر الذين تمردوا وهزموا .

قد يتصور محمد علي ، بأن الدول الأوروبية لن تقدم ، في حال رفضه للشروط المعروضة على اتخاذ تدابير عملية لتنفيذ اتفاقية ٣ (١٥) تموز . ولو نحن سلمنا بصحة هذا الافتراض المغلوط ، هل يأمل الباشا من ذلك المحافظة على الوضع الراهن (ستاتيكو) ؟ إنما ، أية دول تستطيع الصمود ، إذا ما كان سيف الدول العظمى مسلطاً عليها ، أو عندما يُقضى على تجارتها وتقطع مواصلاتها ؟

يستطيع محمد علي أن يضحي بمصالحه ، بعائلته ؟ حباً برفعته الذاتية وتحقيقاً لنواياه المجرمة . إنه يستطيع أن يهجم بالسيف والنار على آسيا الصغرى ، مهدداً الأمبراطورية دون أن يرفق بالشعب المسلم ، مقدماً بذلك مبرراً لتدخل الجيوش الأجنبية . إلا أن كل هذا لن يمر دون عقاب ، إذا تقدم ابراهيم باشا إلى الأمام ، فإن طريق الرجعة سيقفل بوجهه إلى الأبد ، ستنتظره في الأناضول هزيمة حتمية ، وقد ينتظره القبر ، وسيتبعه موت محمد علي وكل العائلة .

ستندفع أوروبا إلى الحرب رغماً عنها عندما تحتم الضرورة ذلك . والدول

الموقعة على اتفاقية لندن لا تتصرف من موقع الكره والانتقام . فالاتفاقية قائمة على العدل واللياقات السياسية وعلى الأمل بالمستقبل ، وهي ترمي أساساً إلى دعم الأمبراطورية العثمانية . إنها تملي على محمد علي ما يفترضه شرفه ومصالحه الخاصة نفسها ، لكنها بالإضافة إلى ذلك وقبل كل شيء تتماشى بالضرورة مع أوضاع السلام الأوروبي العام ، وهذا ما يجب على الباشا أن يدركه .

ليخضع محمد علي للأمر الواقع وليقبل بامتنان من يدي سلطانه الفتي الكبير النفس ، المنّة المجيدة التي تتعهدها كل أوروبا : تأسيس بيت حاكم جديد .

بذلك ينتقل مجده لنسله ، وسيباركه أولياء عهده ، ويدخل اسمه في صفحات التاريخ .

الاسكندرية ٧ (١٩) آب»

كانت هذه إيحاءات الدول الكبرى مرفوعة في المذكرة التي رفعها القناصل الأوروبيون في الاسكندرية لمحمد علي باسم دولهم . لكن هذه البراهين المنطقية والتصورات السياسية الواضحة ، القائمة على التجربة والرأي السديد ، لم تستطع أن تعيد إلى العجوز الجشع تفكيره السليم . كان يراهن على فرنسا وعلى حرب أوروبية ينتظرها بين ساعة وأخرى . عندما سألته الحكومة الفرنسية عن إمكانية صموده في سوريا ضد الحلفاء ، أجاب الباشا بأنه يستطيع خوض الحرب لمدة خمس سنوات على الأقل . هل كان هذا اقتناعاً أو تبجحاً وألاعيب ترمي إلى دفع فرنسا لتعاطف أكثر معه ؟ في الحالين لن يكون من حق الباشا اتهام فرنسا بعد ذلك ، فهو نفسه كان على خطأ بادعائه المقصود عن عظمة إمكانياته في مواجهة الدول العظمى التي أرادت صادقة مساعدته . من ناحية ثانية وتأميناً لولاء الأمير اللبناني ، فإن محمد علي كتب له بأن فرنسا ستدفع لرد الدول الأوروبية المتحالفة وفي أقرب فرصة ، ١٠٠ ألف عسكري ، ٢٤ سفينة و٧٠٠ ألف كيس (٢٠ مليون روبل فضي) .

في رسالة إلى الباب العالي عند أول نبأ عن اتفاقية لندن ، كتب محمد علي يشكو بمرارة «بأن العروض التي قدمها بواسطة سامي بك قد رفضت» . (لنتذكر هنا بأن هذه العروض كانت مشروطة وغير مباشرة ، وكانت محاولة لفتح مفاوضات ولم يقدم خلالها أية تنازلات) «وبأن الدول الأوروبية تعتدي على استقلال الأمبراطورية ، وبأنه يبقى موالياً للسلطان ، مصلياً ليل نهار ليحفظ جبروته مبدياً استعداداً للدفاع عنه ضد أعداء الاسلام ، وبأنه يعتمد على الله الذي تحفظ بركته الشعب المسلم منذ ١٢ قرناً

ونيفاً من كل الاعتداءات وإنه ـ أي محمد علي ـ إن شاء الله ، سينقذ الشعب المسلم من نوايا الكفار السيئة» .

هذه النداءات الموالية المؤمنة التي ترددت من محمد علي على مسمع المؤمنين ، كانت تهدف إلى إشعال التعصب الديني ، كمقدمة لكسب التعاطف الشعبي ولإضفاء صفة الهرطقة على تحالف الباب العالي مع الدول الكبرى . في هذا الوقت كانت السفارة الفرنسية في عاصمة الأمبراطورية قد استنزفت كل تهديداتها لردع الحكومة التركية عن تصديق الاتفاقية ، ساعية كذلك إلى إيقاظ استياء الشعب التركي ودفعه إلى خلع الوزارة القائمة التي كانت تعمل لمصلحة الأمبراطورية دون أي اكتراث لوحام المصالح الفرنسية . بتصرفاتها هذه كانت السفارة الفرنسية تخرق كل الأسس المقدسة للحقوق الشعبية وكل اللياقات الديبلوماسية .

بانتظار وصول القوى الحليفة إلى الشاطىء السوري وبدء العمليات الحربية ، مرت المواعيد التي حددتها الاتفاقية لمحمد علي . في أحد اجتماعاته مع رفعت بك والقناصل العامين ، أعلن الباشا ببهرجة وادعاء أن الدول الأوروبية الحليفة لن تستطيع مواجهته ، لا بل إنه يلزمها للقضاء عليه ضعف الـ ٢٠٠ ألف عسكري الموجودين لديه ، أكثر من ذلك أعلن محمد علي أنه سيندفع للأمام لا يلوي على شيء «مثل تركي عجوز ، ممتلىء إيماناً بالقدر المكتوب» وسينهض الأناضول ، الأكراد ، الداغستانيين والقبائل الشركسية في حرب لن تعرف نهاية لا في آسيا ولا في أوروبا الخ . . .

لم يكن محمد علي نفسه بكل تأكيد يؤمن بهذا الهراء ، لكنه بانتظار الحرب ، وقد رفض مقترحات الدول الحليفة ، كان يلعب دور المقدام عن سابق تصور وتصميم لكي يثير الحيرة والارتباك لدى ممثلي الدول العظمى . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية لكي ينشر إشاعة عن مساعدة فرنسية . لكن الوزارة الفرنسية لم تقدم له في تلك الفترة تعهداً إيجابياً ، إلا أن الفرنسيين المحيطين به كانوا يؤكدون له بأن فرنسا ستنجر إلى الحرب تحت ضغط الأوضاع والرأي العام الشعبي الذي أثارته الصحف والمجلات . ومع هذا لم يستطع الباشا أن يلعب دور البطل حتى النهاية : في اجتماع ١٧ (٢٩) آب وقبل انتهاء الموعد الثاني ، قلق الباشا من التدابير الجادة التي كان يقوم بها الكومودور الانكليزي نايير مقابل ساحل بيروت ، وأعلن بخضوع بأنه يقبل حكم مصر الوراثي طالباً فرصة سؤال السلطان أن يحكم سوريا بمنة خاصة من جلالته . كان الجواب بأنه يجب عليه وقبل كل شيء تنفيذ ما جاء في المعاهدة : تسليم الأسطول

وإخلاء سوريا ، ثم السعي وراء تلك المنة . قسوة الجواب رمت العجوز في هياج مرضي «لا تعذبوني ، اتركوني» . كان يصرخ في وجه القناصل العامين . لم يعد يطيق سماع أية اقتراحات أو أية نصائح . في آخر يوم من المدة المحددة كانت أعصابه مضطربة بشكل ملفت ، بحيث أنه ارتمى طريح الفراش ، وأعلن رفضه كتابياً تهرباً من أية استفسارات جديدة .

بهذا عاد رفعت بك إلى القسطنطينية . ودعى القناصل العامين ، وافتتحت العمليات العسكرية عند الشواطىء السورية .

الفصل الخامس عشر

بدء العمليات الحربية مقابل بيروت ـ دخول ابراهيم الى الجبال ـ معسكر الحلفاء في جونية ـ الكومودور نابير ـ المشاعر الشعبية في لبنان ـ نجاحات الحلفاء ـ احتلال الشاطىء السوري ـ مسألة بكفيا ـ تراجع ابراهيم ـ تسليح الجبليين ـ سقوط الامير بشير ـ اخطاء الحلفاء ـ احتلال عكا ـ الانتفاضات المتتابعة للقبائل السورية ـ الفوضى في فلسطين ـ تمركز الجيش المصري في دمشق والمآسي التي تعرض لها ـ خروج ابراهيم باشا من دمشق .

* *

مساء ٢٨ اب نكست الاعلام فوق قنصليات الروسيا، انكلترا وبروسيا في بيروت، وقبل شروق شمس صباح اليوم التالي، اخذ جيش الانزال مراكب التجذيف بعد ان قطرتها السفن حتى الرأس (رأس بيروت) من الناحية الجنوبية للمدينة، وما ان تقدم المصريون الى هذا الموقع حتى وقعوا طعماً لنار بطاريات السفن. اما سفن الانزال المحملة بالجنود فقد انطلقت بسرعة الى الشمال صوب خليج جونية عند سفوح لبنان، مسافة ٢٠ فرسخا عن بيروت، حيث كان الكومودور الانكليزي قد عين موقعا ممتازا للانزال. في هذه الاثناء كانت السفن قد طوت اشرعتها والقت بمراسيها على طول الشاطىء الممتد من بيروت الى جونية، لمنع اي تحرك عسكري مصري باتجاه هذا الموقع. خلال ساعة وصل جيش الانزال الى مركزه المحدد حيث تمكن، بحماية مدفعية البواخر من النزول الى الشاطىء وطرد زمرة الالبانيين الذين كانوا تحت امرة الامير مسعود ابن الامير اللبناني بشير . نتيجة لعدم معرفته بوجهة العدو وخططه ، لم يكن بمقدور سليمان التدخل قبل اليوم التالي فيما لو اراد، اي بعد ان تكون كل الحفر والبطاريات قد جهزت في معسكر الحلفاء. ومن ناحية ثانية لم يكن بامكان الجيش المصري ان يصل الى هذا الموقع الا عن طريق الوديان الوعرة، لان طريق الساحل كانت تحت رحمة السفن العدوة. ومن ناحية ثالثة كان ابراهيم باشا قد امره بالدفاع عن بيروت حتى النهاية لان سقوط هذه المدينة يترك لدى الجبليين في حال حصوله انطباعا سيئاً عن الجيش المصري. تسلم ابراهيم زمام القيادة المباشرة، فأسس مخازن احتياطية في بعلبك، ثم انتقل مع فرقة واحدة الى مدينة زحلة

عند سفح لبنان الشرقي. صحيح ان تعداد الجيش المصري كان في حدود ال٧٥ الف جندي، لكن ابراهيم باشا كان مجبرا على تفتيت قواه وتوزيع جيشه في مواقع عديدة مهيأة للتمرد بين ساعة واخرى. سار القائد المصري في حملته متحسساً طريقه بصعوبة، ولم ينجح في الوقت المناسب، في الوصول الى جونية، ومهاجمة حفنة من جيش الحلفاء ورميهم في البحر، قبل ان تتحصن، وقبل ان يلف الجبل روح التمرد والعصيان، ان هجوما لابراهيم باشا في الاسبوع الاول يعني بكل تأكيد نصراً مصرياً، ويعني بالتالي اطالة امد النزاع من جديد، ولكن القائد المصري تباطأ في حركته فأعطى الحلفاء الوقت لتحصين معسكرهم، واعطى الاتراك الفرصة لالتقاط النفس بعد دوار البحر والوقوف بقدم على الارض السورية التي كانت تتراءى لهم، لبسع سنوات خلت، أرضاً مسكونة بجن ابراهيم باشا الرهيب.

اثناء ذلك في القرى القريبة، بدأ الجبليون المجردون حديثا من سلاحهم، وبعد أن كانوا في الايام الاولى من الصدام لا يجرأون حتى على النظر صوب معسكر الحلفاء الاوروبيين، بدأوا بالهمس واستقصاء الاخبار التي تروى عن ان ما يربو على عشرين الف بندقية مهيأة لتوزيعها على السكان للقتال تحت رايات السلطان الشرعي. بطء ابراهيم باشا، غلطته التي لا تغتفر ولا يقبلها عقل، قدم للحلفاء خدمة تفوق التصور، ففي اليوم الثاني للانزال تجرأت سريتان دخلتا الوادي الى مكان يسمى «الذوق» في سفح الجبل، مراهنين على التعاطف الاكيد للسكان، وفي هذا المكان كانت تتمركز كتيبة مصرية من ٦٠٠ الباني. وقد استطاعت هذه القوة ان تتوغل في اليوم التالي حتى عينطورة على مسافة ٥ فراسخ من المعسكر، واحتلت هناك بناية حصينة، هي بناية الدير الكاثوليكي، وأقامت بطاريات مدافعها على المرتفع المطل على ملتقى ثلاثة وديان، تشكل مسارب وطرق الجيش المصري في حال قرار بمهاجمة الساحل.

عند أول تحرك للمصريين ضد جيش الانزال القت سريتان سلاحها وانضمتا الى الاتراك. وبالمقابل لم يكن الجيش التركي كامل الثقة بنفسه، فقد حاول اومباشي مع ١٢ من ضباط الصف الانتقال الى صفوف العدو خلال المعركة. لدى الطرفين تكشفت نفس المشاعر التي لم تكف عن اقلاق في سوريا واسيا الصغرى منذ مسألة قونية وحتى معركة النزيب. قرب الاسطول وتعاطف سكان الاقليم، عوامل اوحت هذه المرة للضباط الاتراك بالاقدام. في الطرف الاخر تجنب القادة المصريون الذين لا سند لهم، كل ما يثير جنودهم. اثناء المعركة نفسها امر عمر بك بقتل الخونة والمترددين من الجنود الاتراك رمياً بالرصاص، وقد اثار نجاح المواجهة الاولى مع العدو النشاط في نفوس الجيش، وامد

الجندي بالولاء والثقة لراياته. في هذه الاثناء قام الجبليون الذين كانوا قد هربوا من غضب الامير الى قبرص طلباً للنجاة، والذين عادوا الآن مع جيش الانزال التركي، قاموا بهجوم على الاودية الشمالية لكسروان،فأثاروا السكان وتوجهوا نحو موقع بزمار الذي كان يحتله المصريون، ظهور ضابط تركي جاء مستطلعاً مع كوكبة من جنده، اوحى لهم بالشجاعة والاقدام مما جعلهم يهاجمون الموقع دون انتظار الاوامر بذلك، واحتلوه وساقوا معهم ٦٠٠ اسير.

قوة الحلفاء البرية كانت تتألف من اللواء التركي (٥٤٠٠ جندي)، والفي جندي انكليزي من قوات الاسطول وسرية نمساوية واحدة. كان يقود الجيش التركي الجنرال سليم باشا ثم ما لبث ان وصل من القسطنطينية عزت محمد معيناً من قبل الباب العالي باشا على عكا وتسلم القيادة بلقب سر عسكر سوريا. القيادة العامة لكل هذه القوى من برية وبحرية، كانت من نصيب الاميرال ستبوفور. اما مفرزة الانزال فكانت بإمرة الكومندور السير شارل سميث، ولكنها، وبسبب مرضه في هذه المرحلة الدقيقة من الحملة وضعت تحت القيادة المباشرة لنابير الذي كان يوجه كل عمليات الحلفاء.

الحيوية، سرعة الحركة، قوة الشكيمة، الطباع الفرحة، هذه هي صفات البحار الاعرج، البطين القصير، الذي كان، والعصا بيده ومسدسه يتدلى من وسطه، يتسلق الصخور قبل الفجر، على مسافة ٤ او ٥ فراسخ من المعسكر لاستعراض الوحدات المتقدمة. بسلوك هذا الضابط النشيط شكل تناقضاً صارخاً مع سلوك الضباط الاتراك وكسلهم الوقور. معاملته المازحة السليطة مع الاتراك كانت تبعث النشاط في نفس الجندي غير المعتاد على الاعمال الثقيلة وتحصين المعسكرات السريع على الارض السورية الحامية في فترة الحر الاستوائي.

رغم استيلاء القوات الحليفة على عدد من القرى، بقيت الجبال اللبنانية، ولايام، تنتظر بصمت. احياناً كان احد القرويين يقصد معسكر الحلفاء متلجلج يرجع عدم تحرك السكان الى وجود جيش ابراهيم في الجبال وتهديده بحرق القرى التي يتطلع سكانها صوب جونية. ليس هناك من شك في كره الجبليين للادارة المصرية واستعدادهم للتمرد. الا ان ترددهم وخوفهم يجد مبرره بالتأكيد بفشل المحاولات السابقة للكومودور نابير امام بيروت قبل مجيء الاميرال. وهكذا بدل ان يأتي الجبليون بأنفسهم الى معسكر الحلفاء ليؤلفوا عسكراً شعبياً تحت رايات السلطان، فانهم لبثوا في امكنتهم يدعون الجيش الحليف اليهم لطرد المصريين المتمركزين في سنجق القاطع القريب. وقد حاولت القوات الحليفة ارسال السلاح الى بعض القرى القريبة، وبالفعل نفذ ابراهيم باشا تهديده عندما علم

بالامر، فأبيحت قرية بيت شباب الواسعة للنهب والحريق. ان تحريك الجبليين الجدي كان يفترض اما توسيع رقعة عمليات الجيش الحليف او القضاء على ابراهيم. الا ان ابراهيم التزم موقع المراقب. تسلق الجبال التي كان يحتلها قبل انتفاضة الجبليين كان ضرباً من الجنون، وكانت الامكانيات محدودة جداً لنشر جيش واسع مقابل الجيش المصري.

الا ان البحر والبواخر كانت تقدم للحلفاء امتيازات لا تقدر بثمن والاميرال ستوبفورد، اختار لهذه الاماكن نظاماً ممتازاً للهجمات المتتالية، السريعة المفاجئة، وبذلك برهن عن صحة تنبؤ سليمان باشا، الذي كان متأكداً من عدم امكانية الدفاع عن الشاطىء الطويل في وجه هجمات من البحر، على أساس القانون الستراتيجي عن عدم امكانية منع العدو، ولو في حالة التفوق العسكري عليه، حتى من عبور نهر عندما يكون بامكانه اختيار المكان الملائم والفرصة المناسبة لهجومه.

قلاع بيروت القديمة، وبطاريات مدفعيتها المصرية السيئة دمرت بكاملها، قبل ان تطلق طلقة واحدة، رداً على نيران سفن الحلفاء، الا ان الحامية بقيت لاجئة تحت القناطر في مناطق المدينة الداخلية التي كانت شوارعها قد قطعت بالمتاريس والخنادق. كان احتلال المدينة من قبل الحلفاء عملا ممكناً ولكنه يتطلب تضحية بخسائر كبيرة، وعلى هذا واصلت السفن قصفها المستمر والبطيء بينما كانت تجهز الحملات الى المواقع السورية الساحلية الاخرى.

القلعة الرومانية في جبيل (بيبلوس القديمة) عند سفوح لبنان، لم تطل صمودها امام المدافع الثقيلة للباخرة «سيكلوب»، وقد خسر الانكليز في احتلالها عشرين جندياً ما بين قتيل وجريح. وفي النهاية طردوا الحامية الالبانية التي كانت تطلق النار من وراء الاسوار المهدمة، وسلموا هذا الحصن للمتاولة المجاورين، الذين كانوا يرصدون الفرصة للتخلص من المصريين. مدينة ساحلية اخرى البترون (بوتريس القديمة) احتلت من قبل المتمردين الجبليين بمساعدة المراكب الاوروبية. في طرابلس وحدها، صمدت الحامية المصرية لان المسافة بين الحصن والشاطىء كانت تعرقل الهجوم من البحر. الا ان دوي المدافع بعث النشاط في السناجق اللبنانية الشمالية، التي كانت مضطربة طوال الصيف. اما صيدا فقاد الحملة اليها الكومودور نفسه، وقد سقطت المدينة مع قلعتها دفعة واحدة (١٤ ايلول)، بعد ان تمكن الاسطول من فتح ثغرة من البحر على الرغم من مقاومة الحامية الشديدة. إرتس جرتسوغ فريدريك، الذي كان يخدم الاسطول النمساوي، قاد الصفوف بنفسه الى الثغرة مذكراً رفاقه بأن اجداده حاربوا تحت رايات الصليب، الكفار على الشواطىء السورية. صور، (تير) العريقة ملكة البحار الشهيرة بعناد مقاومتها ضد البطل المقدوني،

لم تصمد ساعة واحدة امام السفن واحتلها ملازم انكليزي . . عند سفوح الكرمل، على منعطف خليج عكا الجنوبي، مقابل عكا، رفع الحلفاء علم السكان في حيفا وهكذا فان الشاطىء السوري، عدا مواقع قليلة، اعترف بسلطة السلطان، وبدأت القبائل الداخلية بالنزول نحو الساحل للاتصال بالسفن واخذ السلاح منها لنشر التمرد.

من ناحية ثانية كانت الاوامر تتواصل على الامير اللبناني باسم السلطان، تطالبه بالانفصال عن المصريين والتعاون على طردهم وكذلك كانت الملاطفة والاقناع والوعود بالاعتراف بكامل حقوقه، ومنح الجبليين الامتيازات الكثيرة، وسائل تستعمل لجلب الامير الى المعسكر، الا انه كان ما يزال مؤمناً بنجم ابراهيم باشا ووعود الفرنسيين، الذين كان عملاؤهم يجوبون الجبال مؤكدين على ان فرنسا اعلنت الحرب وبأن اسطولها والملايين من جيشها في طريقها لنجدة ابراهيم باشا . وفي هذه الفترة كان نفوذ الامير ما يزال قوياً في الجبال اللبنانية، وكانت قوته هذه تستند الى الذاكرة الطازجة عن الانتفاضات السابقة بعد التمرد في الربيع. مشايخ الدروز خضعوا بهدوء للامير رغم شديد كرههم للمصريين. وانطلاقاً من التركيب الاقطاعي لقبيلتهم الذي يعتمد على ولاء الجماهير الشعبية، قادوا عساكرهم الى جانب ابناء واحفاد الامير تحت رايات ابراهيم باشا . اما القبائل المسيحية الناقمة على المصريين، فقد كانت تغلي على امتداد الجبال اللبنانية بالرغبة في التمرد، على الرغم من ان هذه القبائل تدين لوجود الادارة المصرية، بفترة الرخاء المعيوشة . وقد تكون فترة الرخاء هذه هي التي اسهمت في تسلم المسيحيين قبل الاوان زمام سلطة سياسية غير ناضجة .في هذا الوضع القلق رأى الحلفاء مؤشرات تعلق الجبليين بسلطانهم . ان موجة التمرد اللبناني في الربيع اللاحق، وكل ما تبعه من اقرار للنظام، وادخال للسلطة العثمانية، ومن حروب عصبية واضطرابات في الجبال كشفت عن مدى استعداد المسيحيين أنفسهم للتسلح تحت راية السلطان، ليس ولاء له، وإنما بسبب تزايد البدايات الفوضوية وضعف البناء الاساسي الاقطاعي ـ الثيوقراطي في الجبال، نتيجة النفوذ المستديم والمتواصل للشهابيين والباشوات الاتراك .

ارسلت الحكومة الفرنسية الى الشواطىء اللبنانية، رئيس الاخوية اللعازارية، علّه يؤثر بنفوذه الروحي في توجهات الجماهير خاصة بعد فشل حملتها الدبلوماسية لصالح باشا مصر . وهكذا جهزت فرنسا الى الشرق، لا ،ما كان ينتظره الباشا والامير المخدوعين بالبيانات: الجيش والاسطول والخزينة: بل أرسلت رئيساً روحياً، انطلاقاً من حق حماية الكنيسة الكاثوليكية الذي اعطته المعاهدة لفرنسا، والذي استعملته الاخيرة سلاحاً في سياستها ضد السلطان. لكن هذه الرسالة الدينية ـ السياسية لم تؤد الا الى تقوية وفاء الامير

العجوز للباشا المصري. اما الكهنوت الكاثوليكي فكان مجبراً على الاعتراف بأنه عاجز عن الوقوف في وجه عاطفة الجماهير. اما اقرباء الامير انفسهم، فكانوا يظهرون واحداً بعد الاخر في معسكر الحلفاء مقدمين الولاء. وقد تسلم ابن عمه بشير القاسم فرماناً بالامارة[١] مكان الامير المتهم بالخيانة.

من ناحية ثانية كانت عوامل التفكك تضرب الجيش المصري على اكثر من صعيد، فمع اتساع العصيان الشعبي، اتسع نطاق الهرب من هذا الجيش، حتى ان مئات من المجندين السوريين والمرتبطين برايات ابراهيم باشا عن خوف لا اكثر، ومئات اخرين من النظاميين الاتراك من لواء الانزال البحري الذي كان قد احتجزه محمد علي، كانت تلتحق يومياً بمعسكر الحلفاء. وكذلك حصلت حالات خيانة حتى في صفوف كبار الضباط.

بعد احراقه بيت شباب ونهبها، بقي ابراهيم باشا على مسافة ١٠ فراسخ من معسكر الحلفاء، مراقباً من على قمم بكفيا، محافظاً برهبة وجوده على خضوع الجبليين. مع اقتراب الخريف لم يعد يفكر بالعمليات الهجومية، كان فقط يتمنى اطالة الصراع اسابيع عدة، منتظراً العاصفة الاولى التي تبتعد بالاسطول من هذه الشواطىء الخطيرة. عندها فقط كان بإمكانه ارهاق جيش الحلفاء المكشوف من ناحية البحروتأديب تمرد القبائل السورية. والواقع ان الحكومة الفرنسية كانت قد طلبت من ابراهيم باشا الصمود مدة ستة اشهر في سوريا، وهي تتكفل بمجريات الامور لاحقاً. وللحد من عمليات الهرب، وتبديد كآبة الجندي المصري، المعتاد على النظر الى قائده مظفراً دائماً، وللايحاء لجيشه بالمحبة والثقة، كان ابراهيم باشا يسخر بصوت عال من العسكر التركي، كذلك امر عسكريبه القدامى بتكرار الحديث على مسمع الجند عن احداث حملة ١٨٣٢، عندما قضى على ثلاثة جيوش. حتى انه لم يتردد في ان يعيش حياة عسكريبه في معسكرهم الخلوي، ينام على اللباد، ويأكل من طعامهم. ولكي يحتفظ امام جنوده، على الرغم من قلقه الدائم انذاك، بتلك المسحة من الفرح الكاذب كان ابراهيم باشا يحتسي الخمرة بدون حساب.

الا ان الحلفاء المنتشين بالنجاح وتعاطف السكان، دخلوا الجبال في ٢٨ ايلول وهاجموا مواقع ابراهيم، تساندهم في ذلك مفارز كثيرة من الجبليين المسلحين من قبلهم.

---

(١) وفقاً لما يورده عادل اسماعيل، فإن هذا الفرمان صدر في ٣ أيلول ١٨٤٠ (Adel Ismail, histoire du Liban du XVII à nos Jours, T. IV, Beyrouth, 1958. P. 105). الناشر.

وهؤلاء بالرغم من اشتراكهم الفعال في المعارك، الا انهم شكلوا مضايقة لا بأس بها لتحرك المصريين.

تمركز الكومودور نابير وسليم باشا على القمم المقابلة لمواقع ابراهيم باشا، فتحصنا بالخنادق وركزا المدفعية، مشرفين بشخصيهما على كل الاعمال والتحركات. بينما كانت مفرزة اخرى بقيادة العقيد عمر بك، وميليشيا من اتباع الامير بشير القاسم من الجبليين يدخلون الوادي باتجاه اخر،ويلتفون وراء موقع ابراهيم استعداداً لاحتلال المرتفع القائم خلفه. جهل الضباط الاتراك للامكنة حجب عنهم مغزى تحركات الجبليين تلك، والتي كانت في حال نجاحها تمكنهم من اسر ابراهيم باشا نفسه.

لم يستطع ابراهيم باشا الصمود طويلا، فقد كان مع جنوده النظاميين معلماً لنار المدفعية التركية، دون ان تسمح له امكنة تواجده من استعمال مدفعيته. الوادي الذي كان يفصل بين مواقع الجيشين احتله البانيون دون اية فائدة عسكرية، الميليشيات الدرزية التي كانت بحوزته واصلت هربها. اضافة الى ان هذا الجيش كان محاطاً بالتمرد والوديان السحيقة من كل النواحي، حيث كان من الممكن بروز اعداء غير منظورين من ساعة الى اخرى من وراء صخرة او جب او شجرة. الكآبة تسود الجيش، والحركة الالتفافية التي قامت بها ارتال الاتراك المتمركزة في القمم الواقعة في مؤخرة جيشه، اجبرت ابراهيم باشا على الانسحاب بسرعة قبل ان تقفل بوجهه الوديان من كل الجهات مع غروب الشمس ركب ابراهيم باشا بأسى، حصانه الذي يطيع صوته والذي رافقه في كل حملاته بامانة ووفاء الكلب، وانطلق به وحيداً مع سائسه بعد ان اطعمه بنفسه، في تلك الليلة، في ممرات سنجق المتن الضيقة حيث لم يصل التمرد بعد. وفي طريقه نزل احدى القرى يروي عطشه «ما عندكم من جديد؟» سأل مضيفه القروي، «يشاع ان ابراهيم باشا هزم وهرب» اجاب بضحكة لئيمة، القروي الذي لا تستبعد معرفته للضيف. ابراهيم الذي تعود ان يهز نفوس العرب بالخوف وحده، لم تتغير طباعه حتى مع الهزيمة، فأمر سائسه بقطع رأس الجبلي الوقح وتابع ببرودة دم شرب الماء من ابريق القروي ضحيّة غضبه.

نصف جيش ابراهيم هرب ونصفه الاخر رمى سلاحه. في هذا الوقت خرج سليمان باشا من بيروت[٢]، دون ان ينفذ خطته بنسف المدينة، فقد نجح جيش الانزال الانكليزي في قطع فتائل المتفجرات. الجيش التركي نزل ببيروت بعد عملية بكفيا. احتلالها، حيث انتقلت اليها، من جونيه، غرفة القيادة العامة للحلفاء، انهى تردد

---

(٢) ٩ تشرين الاول ١٨٤٠. الناشر.

الجبليين وخوفهم من الاسم المصري. حوالى عشرين الف بندقية وزعها المعسكر الحليف في الجبال، تمكن بواسطتها الامير الجديد، من تشكيل جيش شعبي للدفاع عن الجبال في وجه اي هجوم مصري معاكس، ولمساعدة الجيش الحليف في عملياته الهجومية. وبالرغم من ان ابراهيم باشا: بغض النظر عما حل به حتى الآن من مصائب، كان لا يزال يمتلك جيشاً كبيراً في سوريا الداخلية، فان الضرورة العسكرية كانت تستدعي تحركاً هجومياً سريعاً للحلفاء مستنداً الى الانطباع الناجح للضربة الاولى، بالاضافة طبعاً الى ان اقتراب فصل الخريف يستلزم مثل هذا التحرك، لان تدخل الاسطول في مثل هذا الفصل، اذا ما اراد ابراهيم باشا القيام بهجوم معاكس ضد مواقع الحلفاء الساحلية التي تكثر باطراد، يصبح غير مأمون. كذلك كان الوضع في اوروبا واضطراب المواقف في فرنسا حيث تمكنت الحكومة بصعوبة من الحؤول دون الانفجار الشعبي. كل ذلك عوامل كانت تملي على الحلفاء الاسراع بحل المسألة الشرقية مهما كلف الامر.

انطلاقاً من ان القبائل السورية كانت تنتظر فقط النداء لاعلان الانتفاضة ضد المصريين، دخل تسليح الشعب في برنامج ومخطط الحملة السورية، المدعومة اصلا بامكانيات عسكرية ضعيفة. وهذا التبرير كان ايضاً ضمن مخطط السلطان محمود في حملته الفاشلة سنة ١٨٣٩. لكن ما يجب التنبه اليه، انه في وطن مثل سوريا، وفي فترة كالتي نحن بصددها، حيث ينهض من جديد العنصر الفوضوي بعد سقوط السلطة القامعة، وقد ظهر هذا بأخذ القبائل السلاح الواحدة تلو الاخرى، وبحجة الحماس الديني والولاء للسلطان،كانت تستعد للاحتفال بال saturnales العنيفة لتحررهم من السلطة البغيضة التي يكرهونها، ما يجب التنبه اليه، هو خطورة نداء العصيان المميتة.

كان التركيب الاقطاعي للاقليم يهيأ للحلفاء وسائل أمينة لجمع المجندين بشكل مقبول، فهي اي الوسائل، تتماشى مع روح القبائل السورية وتطلعاتها. بهذه الطريقة فقط كان يمكن تجنب اراقة الدماء في لبنان ونابلس بعد طرد المصريين، وتجنب الفوضى العامة التي خيمت على سوريا مع عودة السيطرة التركية من جديد. ولكن الحلفاء بدلا من ان يوكلوا لكل شيخ عدداً معيناً من قطع السلاح يتناسب وعدد الرجال الذين يستطيع هذا الشيخ ان يقدمهم للحملة، بدلا من هذا! ، كانوا يوزعون السلاح بدون تمييز وحتى بدون تسجيل اسماء من اخذ السلاح، هذا اضافة الى السفن التي كانت تطوف الساحل بهدف خلق علاقات مع السكان، وقد قامت فعلا بانزال ضباط شباب لتوزيع صناديق السلاح على القرويين الذين يلتقون بهم. لو ان الباشاوات الاتراك هم الذين ارتكبوا هذه الغلطة لما تعجبنا، لان هؤلاء لم يفعلوا في السنوات الاولى لاسترجاع سوريا سوى الحماقات.

لكن العجب ان الانكليز انفسهم ساعدوا في ذلك، وهم الذين كان عليهم التنبؤ بعواقب هذا التسلح العشوائي للجماهير. ابراهيم باشا نفسه لم يخف سروره عندما أُخْبرَ بذلك «كنت قد قدمت خدمة جلّى للسلطان ـ اشار ابراهيم باشا ـ بجمعي السلاح من القبائل السورية، اما الان فان هذه القبائل، وبسلاح السلطة، تهدد السلطة نفسها في هذا القطر بالعجز».

لنرجع الى ابراهيم باشا وحيدا بصحبة سائسه عبر الجبال بين خطرين: خطر الممرات الزلقة، المعلقة فوق الهاويات وخطر الغضب الشعبي الذي اقتفى اثره وكاد يدركه. وصل ابراهيم الى زحلة الى الناحية الاخرى من لبنان. كل المفارز المصرية القادمة من الجبال والخط الساحلي امرت بالتمركز هنا، فشكلت معسكراً من ١٥ الف جندي مع ثلاثين مدفعاً. الحامية القوية التي كانت تقاوم في طرابلس تلقت امراً باخلاء المدينة والقلعة والتراجع الى بعلبك في الناحية الشرقية من جبل لبنان (٦ اكتوبر). وكذلك جاءت حاميات اللاذقية والاسكندرية اثر استدعائها او بعد طردها من البحر. وهكذا نرى صدق نبوءة سليمان باشا، إذ لم يستطع المصريون على طول الساحل ان يصمدوا منذ ان بدأت الحملة، باستثناء عكا التي كانت تحضر نفسها لدفاع عنيد.

في الاسابيع الاربعة الاولى من المواجهة، بلغ عدد الاسرى والهاربين من الجيش المصري عشرة الاف جندي، ونصف اللواء التابع للاسطول التركي، والذي تحدثنا عنه سابقاً انتقل تقريباً الى صفوف الاتراك يقاتل تحت رايات السلطان. والمجندون السوريون في الجيش المصري لم يتركوا فرصة للهرب الا واستغلوها، وقد دفعت لهم معاشات من الخزينة السلطانية بأمر من الباب العالي. وهنا يجب ان نعود بالذاكرة الى ان محمد علي الذي يتنطح **الآن** لعمل لا يتناسب وامكانياته، كان يترك جيشه، وبعض الجهاز الاداري بدون رواتب لمدة تصل الى ١٠ او ١١ شهراً. امام تزايد ظاهرة الفرار وجد ابراهيم باشا نفسه مجبراً على ايكال القيادة في افواجه النظامية الى الالبان والبدو. في هذا الوقت كانت قواته موزعة على الشكل التالي: فيلق مؤلف من ١٥ الفاً يتمركز. في اورفا، على استعداد لتنفيذ تهديد محمد علي بمهاجمة آسيا الصغرى. ٧ الاف يحتلون سنجق طوروس لاقفال وادي كولك بوغاز في وجه الجيش السلطاني اي الاحتياطي السابق للفيلد مارشال حافظ باشا. في انطاكية الى حيث تراجعت الحاميات الساحلية تمركز ٧ الاف جندي. حاميات حلب حماه وحمص وصلت الى ٦ الاف جندي. حوالي ٣ الاف في دمشق و٤ الاف في عكا ومثلهم كان في يافا وفي عسقلان وغزة والقدس.

على الرغم مما نلاحظه من اضطرار القيادة الى توزيع قواتها اتقاء لخطر التمرد، وعلى

الرغم مما ذكرناه عن المعسكرات في زحلة وبعلبك وعن الاسرى والفارين، فان ابراهيم باشا لم يلغ من حساباته حتى الآن التهديد المضطرب بالحملة على آسيا الصغرى، وهو لم يستدع فيلقه المتقدم المتمركز في اورفا. وهذه بالطبع غلطة استراتيجية مهمة. ان فكرة الذهاب في حملة الى آسيا الصغرى فكرة مجنونة ولا شك، فوراء الجيش المصري في هذه الحالة كانت مطبات سورية التي تشتعل حرباً وتمرداً، وامامه بدون شك محاذير الاصطدام بالحربة الروسية.

ادرك الامير بشير بعد عملية بكفيا خسارة المصربين الحرب، فنزل مع عائلته وخزنته الى صيدا سعياً للعفو عنه [٣]، لكن بعد فوات الاوان، وبأمر من الاميرال الانكليزي، وفي سبيل تأمين ادارة جديدة للبنان بعيداً عن مؤامرات الامير وتأثيره، نقل الى مالطا، في تدبير لم يشك احد في صحته. فالامير بتحالفه مع الباشا المتمرد كان خائناً لسلطانه الشرعي. ولم تلق كل تبريراته عن كونه وعائلته كانوا اسرى الباشا، اي اهتمام، لان القول الاصح ان ابراهيم باشا وجيشه كانوا تحت سلطة الامير في الجبال اللبنانية. لكننا هنا نتساءل هل يستند عزل الامير وطرده الى حسابات سياسية محايدة، والى معرفة جيدة بالاشخاص والطبائع والاحداث والتأثيرات؟. كانت لنا فرصة التعرف على علاقات الامير بمحمد علي. في مثل طبائعها يخضع التعاطف والاخلاص والميول للمنافع الشخصية. ان دراسة الانتفاضة الاخيرة للجبليين خير تقييم لاخلاص الامير للباشا. اذا كان الامير قد ساعد ابراهيم باشا بحماس في موقفه من الاتراك والحلفاء، فلأنه كان يرى فيه قائداً مظفراً من ناحية، ومن ناحية ثانية، كان (اي الامير) على معرفة بالقوة الهزيلة التي اراد بها الحلفاء احتلال سوريا. اضافة الى كل هذا كان يثق بآراء الفرنسيين الذين يحيطون به، ونظراً لكونه شاهداً حياً لحملة بونابرت، فانه كان ينتظر حملة فرنسية جديدة. لكن الامير وفي اللحظة التي تأكد فيها من غلط حساباته ترك رايات ابراهيم باشا، متحيناً فرصة التخلص النهائي. كان بامكان الحلفاء الاعتماد على حماسته للسلطة الجديدة، واستثمار نصف قرن من نفوذه وتجاربه لصالح ادخال السلطة العثمانية الى سوريا. من هنا كانت ضرورة التساهل مع الامير، خاصة وان مؤشرات الفوضى كانت ترتسم في الافق، ولان الانكليز انفسهم كانوا متأكدين من عجز السلطات التركية الجديدة، وعدم تجربتها ولا اخلاقيتها المثيرة للشفقة. والواقع ان سلطة الامير في الجبال والمستندة الى التركيب القديم للامبراطورية، لم تعد تتماشى مع القواعد الجديدة التي يعتمدها الباب

---

(٣) ١٢ تشرين الاول ١٨٤٠. الناشر.

العالي، لكن لماذا يهدم صرح سلطة الامير بالقوة وقبل الاوان، ما دام هذا الصرح نفسه يميل الى التهدم؟ انطلاقاً مما افصحت عنه الروح الشعبية عند سقوط الحكم المصري، فاننا نؤكد، بلا ادنى شك، بأن هذه القبائل التي شكت بمرارة طرد اميرها والتي طالبت بعناد بعودته، هي نفسها التي كانت ستطالب بخلع الامير بعد مرور سنة لا اكثر فيما لو استمر في الحكم.

وهكذا في الفترة الزاهية للحملة السورية، وخلال النجاحات المتتالية لسلاح الحلفاء، وضع منفذوا معاهدة لندن بدايات مميتة لكل تلك الشرور التي انتشرت. انتشار الوباء فوق سوريا، وبذلك اعطوا فرنسا مبررات جديدة في محاربة اهداف ووسائل المعاهدة وبرهنوا صحة ادعائها عن عجز الاتراك في ادارة سوريا، واجبروا الحلفاء على التدخل من جديد فـي شؤون هذا الاقليم.

في هذه الاثناء كانت السناجق الداخلية ترسل مشايخها نيابة عنها، يعلنون ولاءهم للسلطان، واستعدادهم للخدمة تحت راياته. ولم يتبق لاستكمال مأثرة اسطول الحلفاء الا احتلال عكا وهدم اخر معقل معنوي للسلطة المصرية في سوريا.

بعد ظهر ٢١ تشرين الاول، ظهر الاسطول الحليف بقيادة الاميرال ستوبوفورد مقابل هذه القلعة، وعلى متنه ثلاثة الاف من جيش الانزال التركي بقيادة سليمان باشا، في الوقت الذي كانت فيه قوة من الفي جندي بقيادة عمر بك المتقدم من صيدا وصور تحتل ممرات الرأس الابيض الى الشمال من عكا مع ميليشيا المتاولة المجاورين. الاسطول الانكلو ـ نمساوي رسا، عندما واتته الرياح، بشكل مقوس في موازاة البطاريات الشاطئية. وقبل ذلك باسبوع كانت باخرة انكليزية قد تمكنت من قياس عمق الماء، لذلك استطاعت سفن الاسطول الوقوف على مسافة ثمانين ساجيناً (الساجين متر و١٣ سم) من القلعة. اما مفرزة المراكب التركية التابعة للعميدالبحري« ووكر» فقد تقدمت الى مسافة اقرب من القلعة، مسافة طلقة بندقية لا اكثر، ولم يتبق من الماء امام مقدمتها اكثر من عمق قدم. المصريون من جهتهم لم يتوقعوا ابداً مثل هذا الهجوم الجريء، لذا كانت مدافعهم مصوبة الى مسافات ابعد، ولم ينجحوا بسبب الفوضى التي حصلت بعدما فتحت سفن الاسطول نيرانها، من اصلاح خطئهم وتغيير مدى رماية مدافعهم.

كانت عكا مسلحة بـ٢٢٩ مدفعاً، منها ١٠٠ او ١٠٥ فقط، مصوبة لناحية البحر، ومقابل هذه المئة مدفع المصوب اصلا بشكل رديء كانت تقف ١٠٠٠ بطارية مدفعية على ظهر الاسطول الحليف الذي كان يعمل من جهة واحدة من سفنه، اي بـ٥٠٠ مدفع من ضمنها مدافع ذات عيار ٩٦ قدماً. بدأ القصف متواصلا سريعاً بدون

توقف، حتى ان الرماة لم يجدوا الوقت لصب الماء على المدافع لتبريدها. خمسون الف قذيفة سقطت على المدينة خلال ثلاث ساعات في الوقت الذي كانت فيه تسعة اعشار القذائف المرمية من القلعة، تطير فوق الاسطول دون ان تلحق اي اذى. ومن شدته كان القصف مسموعاً في بيروت على مسافة ١٣٠ فرسخاً (خط نظر). فمخزن البارود داخل المدينة انفجر اثناء العملية نتيجة عدم اخفائه بحذر واحتراس. كان مشهداً مريعاً، فقد اختفى الشاطىء في سحب الدخان ما يزيد عن عشر دقائق. همدت بعدها مدافع القلعة. ما يزيد عن ١٠٠٠ شخص من رجال الحامية قتلوا بتأثير الانفجار. وما لبث الاسطول ان فتح ناره من جديد، بعد ان كان القسم الاكبر من بطاريات مدفعية المدينة قد دمر وبعد ان كان مدافعوها قد ذعروا وفقدوا اي امل. وعند غروب الشمس سكتت القلعة تماماً، وكفت السفن عن اطلاق النار. وفي منتصف الليل ابحر باتجاه الاسطول زورق صغير ليخبر بأن الكومندان محمود بك مع ٥٠٠ من رجال الحامية، قد خرجوا من عكا باتجاه يافا حاملين خزينة المدينة. صباحاً تقدم الحلفاء ودخلوا عكا، حيث وجدوا كميات من الاحتياطي من كل الانواع، الذخائر والاسلحة، وكل تشكيلات المدفعية السلطانية التي اخذها ابراهيم في معركة النزيب. قلعة عكا التي عرفت منذ تجديدها على يد ظاهر، بمقاومتها العنيدة للحصارات، صمدت هذه المرة ثلاث ساعات امام هجوم الحلفاء المركز، وهذا ما كان يجب التنبؤ به، وقد بلغت خسائر حاميتها ١٧٠٠ شخص، بينما لم يزد قتلى وجرحى اسطول الحلفاء عن مئة شخص، مع العلم بأن السفن لم تتعرض لتلف يذكر. الخسائر الفعلية للحلفاء كانت في اليوم التالي لاحتلال المدينة، فقد امتدت النار التي ما زالت تشتعل نتيجة انفجار مخزن بارود، الى مخزن سري آخر دون ان يلاحظ ذلك احد، وقد تبع ذلك انفجار جديد ادى الى وقوع ١٥٠ ضحية في صفوف الحلفاء.

في هذا الحادث المؤسف جرح الجنرال شارل سميث جرحاً بسيطاً، وهو الجنرال الذي كان يقود مشاة الحلفاء عند احتلال بيروت، والذي لم يقدم طوال التحركات التي تلت احتلال تلك المدينة، سوى المخططات الفارغة. كذلك جرح السر عسكر عزت محمد الذي لم يشترك اصلا في القتال، ولكنه وكإشارة نصر، اراد ان يطلق من مسدسه رصاصة في الهواء، لكن المسدس روكب على ما يبدو، فأعاده الى وسطه، وفي هذه اللحظة انطلقت الرصاصة نفسها وكسرت عظمه وصيرته مقعداً. كان عزت محمد يكن حقداً فطرياً على الحلفاء، وقد توضح حقده هذا عقب الحادث الآنف تحت تأثير المعاناة الجسدية والحسرة الداخلية، خاصة وانه طوال الحملة، لم يمتلك حتى مع رتبته سر عسكر اية سلطة فعلية.

كان اختيار هذين الجنرالين الانكليزي والتركي، غير مصيب من كل النواحي، هذا ما ظهر بوضوح عند انفصال الحملة البرية عن الاسطول، حيث لم يعد الاميرال ستوبفورد مشرفاً مباشراً على ادارة العمليات. فتخبطت هذه القوى في الفوضى، بدون برنامج عام وحتى بدون ارادة او فكرة موحدة. لكن الواقع كان اقوى. لقد تجمعت في سوريا، وعلى امتداد سنوات سبع كل العوامل التي ادت الى تتويج سلاح السلطان بالنجاح الكامل دون كبير استحقاق.

لدى سقوط عكا، وبدون اي تشجيع من جانب الحلفاء، قامت قبائل جبال نابلس وكل الجليل حتى الاردن، وكل بلاد المتاولة ووادي التيم، بخلع السلطات المصرية مظهرين خضوعهم وطاعتهم للباشاوات الاتراك. وهذا ما حصل في اي مكان كان مشايخه قد طردوا او اهينوا من قبل المصريين، فقد عاد المشايخ ووجدوا الجماهير الشعبية جاهزة لتلبية النداء. السلاح كان بداية من الحلفاء، ثم جاء بقسمه الاكبر من القوات المصرية الهاربة والمهزومة. اخرج كل السلاح الذي كان قد اخفي ايام الملاحقات المصرية. الشيخ سعيد عبد العال، احتل باسم السلطان، الناصرة وطبريا وصفد، وتمركز مع ميليشيا من السكان المحليين قرب الاردن عند جسر بنات يعقوب على الطريق ذاتها التي تصل ابراهيم بمصر. مشايخ طوقات اثاروا نابلس ببساطة، بعد ان كانوا قد هربوا منها لمساعدة المصريين منافسيهم مشايخ عبد الهادي. ثم ان عبد الهادي انفسهم ما لبثوا ان انقلبوا على ابراهيم باشا تفادياً لخسارة نفوذهم المحلي وخسارة وسائل متابعة الصراع المتوارث مع آل طوقان. الشيخ عبد الرحمن عمرو الذي حكم عليه ابراهيم باشا بالموت منذ زمن بعيد اثار سكان جبال اليهودية واحتل معهم حبرون.

كان هذا، الاثر المباشر لسقوط عكا، تأكد بعده ابراهيم باشا من عدم امكانية الاحتفاظ بسوريا وبدأ يفكر جدياً في انقاذ جيشه. اعطيت الاوامر لكل المفارز والحاميات المصرية المتواجدة في شمال سوريا بالتجمع السريع في دمشق للبدء في مسيرة العودة الى مصر. وقد لبت هذه المفارز الطلب مرتعدة الفرائص فانطلقت على اعقابها وكأن عدوا يتبعها. اتلف المصريون عند انسحابهم المخزون الحربي، برشموا مدافعهم او رموها في هاويات كولك بوغاز. واثناء الانسحاب الراكض السريع كان الضباط يقطعون بأيديهم، خوفاً من ظاهرة الفرار، رؤوس الجنود الذين كانوا يتأخرون بحجة المرض او التعب.

البدو، التركمان والاكراد والمتنقلين باستمرار في هذه المناطق اغتنوا بدورهم من الغنائم المصرية، تماماً كما كانوا قد اغتنوا قبل عام ونصف من مخلفات الجيش التركي بعد

معركة النزيب. وفي هذا الوقت كان مشايخ الذيول الشمالية للبنان يطلبون من السر عسكر كتيبة مشاة نظامية وستة مدافع، للنفاذ مع ميليشياتهم الى الوادي، الممتد من البحر حتى حمص بين لبنان وجبال الانصاريين لقطع طريق دمشق امام المفارز المتجهة للالتحاق بابراهيم باشا واجبارها على رمي السلاح. هذه المفارز كانت تؤلف ما مجموعه ٢٥ الف جندي، ولكن عرض المشايخ هنا يبدو معقولا اذا ما اخذنا عامل الخوف الذي كان يسيطر انذاك على الجيش المصري. ولكنه لم يتحقق لعدم موافقة الجنرال سميث وعزت محمد باشا.

في هذه الاثناء كانت حاميات يافا والقدس المحاصرة بتمرد سكان المناطق المجاورة والخائفة من تمرد وشيك لسكان هذه المدن نفسها، تلجأ الى غزة، الى حيث نجح في الوصول اليها آمر عكا الكومندان محمود بك. الجنرال (اللواء) ابراهيم بك والجنرال (اللواء) اسماعيل بك، تسلما قيادة الفيلق الذي كان يحتل لدى بدء الحملة فلسطين، بتعداد يصل الى تسعة الاف جندي، ولكن لم يتبق منه إلى الآن الاالثلث تقريباً. اكثر من عشرة الاف من القرويين المسلحين احاطوا بمدينة غزة، املا بالانتقام والغنيمة، ولكن المحاصرين المحظوظين كانوا يؤمنون المواد الغذائية من غزوات فوج خيالتهم الممتاز على القرى المجاورة.

كادت يافا والقدس ان تقعا غنيمة في أيدي القرويين الغاضبين. كل فلسطين كانت في فوضى تامة. ثروة وكنوز اديرة القدس كانت تثير طمع سكان الجبال المجاورة طوال الازمة السياسية. في تركيا كانت السلطة القضائية المستمدة من سلطة السلطان الروحية، تحتل بلا جدال مكان السلطة التنفيذية في حال سقوط هذه الاخيرة، على هذا استطاع قاضي القدس الاعلى بأوامره الذكية انقاذ المدينة المقدسة من خطر اكيد. يافا التي تدفقت عليها سيول القرويين فوراً بعد تراجع الحامية، انقذت من الدمار بتدخل من نائب قنصلنا، الذي توجه اليه السكان بأجمعهم من مسلمين ومسيحيين طالبين تدخله بانتظار القوى السلطانية والجيش الحليف. الجيش التركي، وبالرغم من تدعيمه حديثاً بـ ١٢ ألفاً وصلوا من القسطنطينية عن طريق البحر، فانه لم يستطع اللحاق وتسلم عدد من المواقع المهمة التي كانت تسقط تلقائياً بلا ادنى معركة. في هذه الفترة، وفي كل فلسطين كان الفلاحون يعيثون فساداً، اذ انهم بعد ان استولوا على كل ما وقع تحت ايديهم من مخلفات الجيش المصري، بدأوا ينهبون بعضهم البعض، واخذوا من جديد يسددون حساباتهم الثأرية القديمة، التي كانت قد طويت امام هيبة الحكم المصري.

مع انسحاب القوات المصرية من سناجق لبنان الشمالية بدأ الجيش التركي وعدده ١٥

الفاً يخرج من آسيا الصغرى باتجاه سوريا عبر اودية جبال طوروس، قيادة هذا الجيش كانت من نصيب احمد زكريا باشا المعين خليفة لعزت محمد باشا. ومن ناحية ثانية كان الجنرال سميث قد ابدل بدوره لعجزه وكبر سنه، وعين مكانه الجنرال ميشيل. طوال الحملة كان الانكليز هم الذين يحددون الاتجاه الاساسي للعمليات العسكرية، بالرغم من ان عددهم، بعد اعادة جيش الانزال الى الاسطول كان لا يتجاوز الـ ٤٠٠ شخص يشتركون مع حملة المشاة. القائد العام لغرفة القيادة كان الجنرال جوكموس، المولود في هامبورغ والذي خدم في فرقة المتطوعين في اسبانيا والعامل في الخدمة التركية بلقب باشا بمسعى من الانكليز.

تجربة الباب العالي العسكرية السابقة، اقنعته بأن تشكيل الكتائب العسكرية من الميليشيات المحلية (القديمة) اسهل من تشكيلها من الباشاوات والجنرالات. وكان جلياً في حملة كالتي نحن بصدد الحديث عنها، حيث يتلخص هدفها بتمشيط البلاد المحصورة بين الصحراء والبحر والمقطعة من كل الاتجاهات بالاودية والجبال، من جيش العدو القوي، كان جلياً ان النجاح يتعلق اساساً بالمناورات الناجحة، وليس بالتفوق العددي. اواسط تشرين الثاني (نوفمبر) تراجع ابراهيم باشا الى دمشق عبر وادي التيم واسرع لاحتلال الموقع المتقدم في مزيريب على الطريق الى مكة، حيث هزم جمهرة الدروز وبدو حوران الذين كانوا يقلقون اجنحته، واستولى منهم على الحاجيات الغذائية والجمال، واجرى مفاوضات مع بدو الصحراء الكبرى لتأمين مواقعه بالمواد الغذائية. قضى ابراهيم باشا حوالى الشهر مع جيشه، الذي ما يزال يزيد في تعداده عن ستين الفاً رغم كل المصائب التي تعرض لها[٤] وقد عمل في مكوثه ذاك على تنظيم جيشه وتقوية انضباطيته من ناحية ومن ناحية اخرى عمل على كسب ود الاهالي، فبدلا من ان يصب جام غضبه على سكان دمشق، وعداواتهم له معروفة جيداً لديه، كان يعاملهم كالأب الحنون، ويحميهم من اساءات جنوده، الى درجة انه، ونظراً لعدم وجود الخيم، لم يدع جنوده يأوون الى منازل سكنية بالرغم من انهم كانوا، بعد ان ضاقت بهم القشلات والمساجد يتناوبون المبيت في المعسكرات الخلوية في ضواحي المدينة، محتمين بالاشجار من الامطار الخريفية الغزيرة.

---

(٤) هناك أقاويل كثيرة عن الخسائر الفعلية التي مني بها جيش ابراهيم قبل تراجعه من سوريا، وعن مدة هذا الانسحاب المميت. والرقم الوارد أعلاه هو الأقرب الى الصحة. لأن مفوضية دمشق كانت تقدم في هذا الوقت ٦٥ ألف حصة. يحسم منها حوالى ٥ أو ٦ آلاف حصة لنساء الجنود وأطفالهم المتواجدين مع الجيش، بمعدل حصة كاملة أو نصف حصة للفرد، وحوالى ٣ آلاف شخص كانوا في غزة.

وفي كانون الاول ديسمبر سقط الثلج وحل البرد والصقيع والجنود ما زالوا خائري القوى في معسكراتهم، يرتدون ثياباً ممزقة واحذية خفيفة، ورغم ذلك لم يأذن لهم بالمبيت في منازل المدينة، لان هذا لا يتماشى والتقاليد الشرقية بل امرهم بقضاء الليالي في أسواق دمشق المسقوفة. اضف الى هذه الظروف القاسية، هرب الكثيرين من ضباط جيشه، المدينين له ولوالده، وبيعهم انفسهم للاتراك. وقد عاقب بعض هؤلاء اثناء وجوده في دمشق. فخلال حفلاته المسائية كانت، وبأمر منه، تتدحرج رؤوس كثيرة على البلاط المرمري للبيت الذي يحتله. الناجي المحظوظ من انتقام ابراهيم كان شريف باشا حاكم سوريا السابق الذي ارتفع مقاماً وغنى من قبل محمد علي، فقد اكتفى ابراهيم بتوقيفه مع ان علاقة سرية اكيدة كانت تربطه بالاتراك.

مقابل السياسة السمحة لابراهيم باشا تجاه سكان سوريا، كانت القوات التركية من البانيين وباشي بوزوك بقيادة السر عسكر الجديد يسيئون التعامل مع القرويين الذين كانوا يستقبلون بابتهاج الرايات السلطانية.

بعد همومه اليومية كان ابراهيم باشا يقضي لياليه متهتكاً ماجناً، ثملاً من النبيذ والحقد، وبأمر من سليمان باشا كانت مشاهده الماجنة تخفى بعناية عن عيون الجند، وغالباً ما كانت نار الحقد والثأر من السوريين تشتعل تحت تأثير النبيذ في نفس ابراهيم، فيأمر بإباحة المدينة. الا ان سليمان باشا كان يودعه الفراش، ولا يتركه بدون حراسة اثناء الليالي خوفاً من ان تتكرر في غيابه اوامر ابراهيم باشا الثأرية.

في طريق العودة الى مصر انقسم الجيش ثلاثة ارتال: الاول خرج في بداية كانون الاول (ديسمبر) تحت امرة سليمان باشا، وفي حمايته نساء الجنود واطفالهم ومدفعية القوات الثقيلة، وعدد جنوده لا يزيد عن خمسة الاف جندي. وقد توجه مباشرة نحو الجنوب، وعلى طريق مكة في موازاة السويس، ومن هناك انعطف نحو الغرب ووصل مصر بخير بعد ان خسر في الطريق نصف حيواناته الناقلة،قسماً من المدفعية وعدة مئات من النساء والاطفال والجنود الذين سقطوا من الاعياء. ثم في ١٧ كانون الاول خرج الرتلان الباقيان تحت امرة ابراهيم باشا وجنرال الفرقة احمدمنكلي باشا. وفي الساحة قبل انطلاقه ودع ابراهيم سكان دمشق طالباً اليهم بانتظار السلطات الجديدة التزام الهدوء ومسايرة المسيحيين وعدم اثارة القلاقل « والا ـ اضاف ابراهيم بينما كان يركب حصانه ويهدد باصبعه ـ فإنني سأرجع لمحاسبة الذين لا يمتثلون لهذه الاوامر».

الفصل السادس عشر

نيّة الباب العالي في القضاء على محمد علي ـ تصرفات الباب العالي الرعناء ـ تغير الاتجاه السياسي في فرنسا وبيانها الجديد ـ لعبة تيير وتقارير الأميرال الفرنسي ـ حكومة غيزو ـ تحصين باريس ـ خوف محمد علي ـ اتفاقية الكومودور نابير وعدم تمشيها مع الاتفاق الأوروبي ـ استكانة محمد علي ـ عناد الباب العالي والحديث الشهير للصدر الأعظم ـ فرمان العفو ـ أحابيل الأتراك والحل النهائي للمسألة المصرية ـ اتفاقية المضائق ـ أهمية هذه الوثيقة بالنسبة للروسيا ـ الخطأ الديبلوماسي التركي وجواب الأمير مترنيخ .

* *

كانت اتفاقية لندن تهدف إلى تحرير سوريا من محمد علي وإحلال السلام في الشرق ، فقد رأت الدول الأوروبية سنة ١٨٤٠ ضرورة وضع حد عادل لطموحات الباشا المصري ، دون أن تقصد القضاء عليه . فقد خلف محمد علي وراءه عدا المآثر والبطولات الحربية الموصوفة والنجاح والاقدام ، الكثير من الخدمات المدنية التي تميزت مشاريعها في فوضى إصلاح الشرق ، بتوجه أساسي راسخ ومتين .

ولكن للباب العالي مذهبه المختلف ، فقد أصر على تنفيذ خطته في المركزية التي كان قد وضعها السلطان محمود ، دون أن يعي (أي الباب العالي) إمكانية ومستوى قدرته في إحلال المركزية نظاماً على امتداد الأمبراطورية الشاسعة . كان الديوان قد فوت فرصة مناسبة ـ معاهدة ١٥ تموز ـ لهدم الصرح الذي بناه في مصر ، ابن روميليا خارج فلك اسطمبول السياسي . أما في الوقت الحاضر فإن سوريا تدخل من جديد فلك الدولة العثمانية وإنما بحكم من الدول الكبرى ، لذا يتوجب على الباب العالي إثبات جدارته لهذا الحكم الصادر في صالحه ، وهذا يتم فقط عبر إدخال إدارة جيدة إلى سوريا . الحكومة الروسية كانت لا تزال تشك بمثل هذه الخطوة ، في مباحثات الدول العظمى مع الباب العالي ، حول شروط الافتراق السلمي مع محمد علي والتي جرت في القسطنطينية سنة ١٨٣٩ . والآن ، هل ينجح الباب العالي بعد

مرور ثماني سنوات ، في تبديد الشكوك التي ظهرت آنذاك مهينة لكرامته ؟

كان جواب الباب العالي على رفض محمد علي ثانية عرض الدول الأوروبية ، فرماناً بخلعه عن بشليك مصر . وعندما أخذت القوات التركية تحتل سوريا أضاف الباب العالي إلى ألقاب سرعسكر عزت محمد لقب وكيل السلطان ، الكامل الصلاحيات في مصر ، دون أن يستشير في ذلك أياً من حلفائه ، كما يقضي البند السابع من الملحق المضاف إلى معاهدة ٣ (١٥) تموز والذي ينص على أنه إذا لم يرض محمد علي ، في نهاية المهلة المحددة بعشرين يوماً ، بالعرض المقدم له عن حق الحكم الوراثي في مصر ، فباستطاعة السلطان أن يتخذ التدابير التي «تتماشى مع مصالحه ونصائح حلفائه» . لكن تدبير الباب العالي الآنف ، لم يكن قائماً لا على مصالح الأمبراطورية الحقيقية ولا على رأي الحلفاء ، والمسؤول عن كل ذلك ، كان الديبلوماسي الذي يدير على هواه السياسة الخارجية لاسطمبول [١] . الحلفاء من جهتهم أدانوا هذا التدبير بصوت واحد ، أما فرنسا التي كانت تستعد للحرب بنشاط ، فقد أعلنت بأن وضع تهديدات الباب العالي ضد محمد علي موضع التنفيذ يشكل بالنسبة لها ذريعة لاعلان الحرب Casus belli .

ساعدت غلطة الباب العالي الخشنة في الوصول إلى حل تدريجي . إذ أن فرنسا ، وقد تخلت عن ادعاءاتها لصالح محمد علي في حكم سوريا ، اكتفت بمصر حكماً وراثياً له ، وهذا ما كان يتوافق تماماً مع خطط الدول الكبرى . وقد غطت الحكومة الفرنسية الاعتدال العاقل لاتجاهها السياسي الجديد [٢]، بخطاب حماسي رنان ، يهدف بالدرجة الأولى إلى إشباع الكبرياء الشعبي المهان بمعاهدة لندن . والذي ساهم بأهمية في تبديل موقف فرنسا ، كان التغيير الوزاري الذي حدث في أيار ١٨٤٠ أثناء اضطرابات الربيع العنيفة ضد حكومة تيير ، التي أثارت ضجة كبيرة طوال الصيف ، حتى بدا سقوط الحكومة آنذاك في تشرين الأول (أكتوبر) وكأنه صدى لقصف الشواطىء السورية . لقد أقامت هذه الحكومة حساباتها على أساس بعبع القوى المادية التي يملكها محمد علي ، مسقطة من اعتبارها هشاشة حكمه المغتصب

(١) يقصد «بونسوبي» سفير انكلترا في القسطنطينية . الناشر .

(٢) كان النواب في اجتماعات مجلسهم لمناقشة البيان الحكومي حول ضمانات فرنسا لوجود محمد علي السياسي ، يصرخون بوجه حكومة تيير «لقد حطمت أنفسكم أيها الأسياد بشجاعة على أبواب مفتوحة على مصراعيها» مشيرين بذلك إلى أن الدول الحليفة لم تكن تريد من ناحيتها طرد محمد علي من مصر . وبالتالي كانت كل سياسة فرنسا من قبيل تحصيل الحاصل .

في سوريا . لقد كانت متأكدة من أن قرارات الدول الأوروبية الكبرى ستصطدم بامتداد فترة القتال ، وبالتالي كانت تنتظر الفرصة كي تتدخل بالمسألة إما حرباً وإما عن طريق المفاوضات ، وقد أسرعت هذه الحكومة ، عند افتتاح العمليات الحربية بدعوة الأسطول إلى طولون ، بعد أن كان قد استعرض نفسه أكثر من عام ونيف في المياه العثمانية .

كان الأدميرال «لا لاند» يتمنى حرباً بحرية ، آملاً غسل العار الذي ألحقه الانكليز بالأسطول الفرنسي طوال خمسين عاماً . ففي التقرير المكتوب تحت انطباع قصف الشواطىء السورية يطلب الأميرال الاذن بالتوجه إلى سوريا للقضاء على الأسطول الانكليزي ضامناً النجاح في مهمته هذه «وإذا أصرت الحكومة من ناحيتها على حماية السلام ـ أضاف الأميرال ـ فإنه يتوجب استدعاء الأسطول فوراً لتجنب لقاء السفن الفرنسية مع الانكليزية ، لأن النار ستنطلق تلقائياً من المدافع الهائجة المستنفرة» .

تخوفات الأميرال الفرنسي كانت منطقية أكثر من تأكيداته بالنصر . والحقيقة أن السخط الشعبي كان يضغط باتجاه الحرب رغم إرادة الحكومة ، التي كانت ترى بلا شك ، ومعها الملك ، ضرورة الحفاظ على السلام وتجنيب فرنسا مآس جديدة داخلية وخارجية ، قد تضطر معها إلى توقيع معاهدات صلح أكثر إهانة من معاهدة ١٨١٥ التي كانت عواطف الجماهير العمياء تزعق ضدها . لكن التوازنات الأساسية للإرادة الدستورية الفرنسية لم تكن لتسمح بالرجوع إلى التفكير السليم ومصلحة الدولة وحدها . لقد قام تيير وقبل سقوطه ، الذي كان يستشعره سلفاً ، بلعبة دستورية مجرمة ، إذ أنه نصب نفسه فدائياً للحرب داعية لها ، لإيمانه الذي لا يتزعزع بأن الملك الحكيم لن يقدم على مثل هذه الخطوة ، والهدف الأخير من كل هذا مداعبة عواطف الجماهير وكسب ودها ، وإلقاء مسؤولية حفظ السلام في أوروبا على الملك وعلى خليفته في رئاسة الوزراء ، والاحتفاظ بسلاح المعارضة في فورة الحماس الشعبي لتأمين طريق عودته إلى رئاسة الوزراء مجدداً .

بدأ غيزو الرصين الذي خلف تيير المتوقد ، عملاً شاقاً ، لحلحلة كل تعقيدات سلفه . إلا أن الحل الناجح للمسألة الشرقية بدون اشتراك فرنسا ورغماً عنها ، بالاضافة إلى صلابة الحكومات الأوروبية والمشاعر التي عبرت عنها الشعوب في ما خص تهديد السلام في أوروبا ، كل ذلك حطم أحلام فرنسا عام ١٨٣٠ ، وأقنعها بأنها لم تعد تملك مغارة أيول Eol ، ولم تعد الصواعق تأتمر لها ، وبأن التجريب

السابق علم أوروبا كيف تتقي دعواتها الثورية . وهكذا فبدلاً من أن تهدد فرنسا ، أوروبا بالحرب ، بدأت تفكر بحماية نفسها . خصصت ٦٠٠ مليون فرنك لتقوية التحصينات المحيطة بالعاصمة ، التي احتلها الحلفاء مرتين في السابق سنة ١٨١٤ و١٨١٥ . وهذا التدبير الدفاعي الذي أقرته الحكومة ، والمؤكد عليه بخطابات بليغة من قبل داعية الحرب ، تيير نفسه ، هدأ كثيراً من روع النفوس وبدّدت الأشباح التي أعمت الرأي العام الفرنسي .

كان محمد علي باشا لدى بدء العمليات العسكرية عند الشواطىء السورية ، يأمل بنجاح عكا وإبراهيم باشا في إطالة أمد الصراع في سوريا حتى تتخربط الأمور في أوروبا باشتعال حرب أوروبية . ولكن النجاحات العسكرية السهلة والسريعة للقوى الحليفة أولاً ، ومشاعر القبائل السورية ومواقفها ثانياً ، وسقوط تيير ثالثاً ، عوامل نبهت العجوز الـ نيد ، بأنه يتحمل وحده تبعة الحرب . وأكثر من ذلك ، فقد طوى إلى غير رجعة فكرة الحملة إلى آسيا الصغرى ، وأصبح جل ما يطمح إليه افتداء ابنه ابراهيم وتخليصه من سوريا . وانكفأ بالتالي مدافعاً عن مصر ، فنشط بتحصين الاسكندرية من ناحية البحر ، مع بعض المواقع الساحلية الأخرى على الشاطىء المصري ، وقد استغل في هذه الأعمال طاقم أسطوله وطاقم الأسطول السلطاني . وعمل كذلك وكيفما اتفق على تأليف القوات العسكرية الشعبية في القاهرة والاسكندرية في محاولة منه لتحضير حملة عسكرية جديدة إلى سوريا . وأثناء هذه الاستعدادات بعث برسالة شكر إلى الملك الفرنسي على البيان الذي كان قد أصدره وفيه تأكيد على الوجود السياسي لباشا مصر ، دون أن ينسى في رسالته تلك أن يتباهى من جديد بقدرته على الدفاع عن كل سوريا ، ساعياً من ناحية ثانية بواسطة فرنسا لإبقاء بشليك عكا وجزيرة كريت في حوزته على الأقل ، مع تأكيدات في نهاية الرسالة على إخلاصه التام لفرنسا والاستعداد المطلق لاتباع نصائحها .

وصل نبأ سقوط عكا بعد أيام من رسالة محمد علي تلك ، فلم يتورع أمام حاشيته والكثيرين من الأجانب ، من توجيه غضبه إلى القنصل الفرنسي العام متهماً فرنسا بشدة ، بأنها السبب الرئيسي في كل مصائبه وأخطائه . وبعد أن وصلت الأمور السياسية والعسكرية إلى هذا الحد أرسل مبعوثين أربعة (خيالة) باتجاهات مختلفة إلى سوريا ، مع أمر فوري لابنه ابراهيم بالتراجع إلى مصر دون إبطاء دقيقة واحدة ، فما زالت طريق العودة إلى مصر مفتوحة وسالكة .

كانت السفن الانكليزية منذ فترة وجيزة ، تحاصر الاسكندرية جزئياً مكتفية بمنع

ورود الذخائر الحربية ، وبالسماح فقط بتصدير الحاجيات المصرية منها . وبعد سقوط عكا توجه الكومودور نابير ، الذي لم يعد لوجوده قبالة الشاطىء السوري أي مبرر عسكري ، ليدعم البحرية الانكليزية في حصارها للاسكندرية . وما إن وصلها حتى بدأ ، وبمبادرة شخصية منه ، محادثات مع الحكومة المصرية ، بحجة السعي لدى الحكومة المصرية من أجل إرجاع المشايخ اللبنانيين المنفيين إلى سانور بعد انتفاضة الجبليين في الربيع . وما لبث بعد عدّة أيام ، وبدون أي تكليف إن من حكومته أو من الأميرال ، أن وقع اتفاقاً في ١٥ (٢٧) تشرين الثاني (نوفمبر) ، بينه وبين بوغوص بك وزير العلاقات الخارجية لدى محمد علي باشا ، يرتكز في مضمونه على النصيحة التي قدمتها الدول الكبرى للباب العالي بمنح محمد علي الحقوق الوراثية في حكم مصر ، ورفع الفرمان القاضي بخلعه . وبالمقابل يتعهد الباشا باستدعاء جيشه من سوريا فوراً ، وتسليم الأسطول السلطاني ، ساعة يعترف الباب العالي بهذا الاتفاق . مع كفالة الدول الأوروبية لحقوقه وحقوق عائلته المنوه عنها . ومن ناحيته ، وعد الكومودور باسم الأميرال بالكف عن العلميات الحربية ، وكذلك بالسماح لابراهيم باشا بنقل جيشه بحراً من سوريا إلى مصر .

هذه المعاهدة تفتقد إلى الشرعية شكلاً ومضموناً ، وقد رفضت من قبل الحكومة البريطانية نفسها ، واحتج عليها الباب العالي . وبالفعل أعطى الكومودور بعمله هذا برهاناً جديداً على رعونته وتهوره في مسألة خارجة عن نطاق «مواهبه» العسكرية . لقد نصت معاهدة لندن ، وبموجب تعهد رسمي من الدول الكبرى ، على الحفاظ على وحدة واستقلالية حقوق السلطان الشرعية ، أما تأمين حقوق الوالي المصري وضمانها من قبل الدول الأوروبية كما تقر اتفاقية نابير مع محمد علي ، دون استشارة السلطان ، فهذا ما يعتبر خرقاً لحقوق السلطان صاحب الكلمة العليا في هذا الشأن ، علاوة على ذلك ، فإن هذه البدعة في الحق الدولي ، ستجلب ولا شك إزعاجاً للدول الكبرى بوصفها تعهدات مستقبلية بالسهر الدائم على الأمور الداخلية للأمبراطورية العثمانية .

لم يبق أمام محمد علي ، والحال هذه ، إلا أن يخضع لسلطانه الشرعي ، وأن ينتظر عفوه ، وسعي الدول الكبرى الصادق لترتيب أمور مستقبله ومستقبل أسرته . وقد كلف الأميرال ستوبوفورد من قبل حكومات الدول الكبرى بإعطائه هذه النصيحة . وأخيراً في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ، وفي كتاب أرسله للصدر الأعظم ، حمل محمد علي طاعته ، دون قيد أو شرط ، ودون أن يطالب بأية ضمانة ، مكتفياً بما سبق

وأعلنه نابير عن سعي الدول الكبرى لصالحه . وقد أعلن محمد علي بخضوع مع طلب العفو من سلطانه أن ابنه ابراهيم خرج من سوريا ، وبأن الأسطول السلطاني في الاسكندرية حاضر لمن يؤمن قيادته إلى العاصمة . ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الرسالة التي تعبر عن خضوع الباشا الفعلي ، لم تكن تحمل من عبارات الطاعة والولاء ما كانت تحمله رسائله السابقة للسلطان ، من عبارات التبعية التي كانت ازهار البلاغة فيها تغطي أشواك ادعاءاته المتغطرسة .

إذا كان إخضاع الباب العالي للوالي المصري ، قد استدعى تدخل سلاح الحلفاء ، فإن جهوداً ديبلوماسية حثيثة توجبت لدفع الباب العالي إلى قبول طاعة واليه حسبما تمليه معاهدة لندن ، التي تصرف نظر السلطنة عن تحقيق حلمها الجميل بالقضاء التام عليه . وقد خادع الباب العالي طوال أشهر بتطويق تنازلاته ، المرغم على تقديمها ، بشروط قاسية جداً . وعندما قدّم الكابتن الانكليزي «فنشر» كتاب محمد علي إلى الباب العالي ، أجاب الصدر الأعظم رؤوف باشا ، «المخل» العظيم للمناورات الديبلوماسية في اسطمبول ، وبكل برودة دم ، باكالوم (أي لِنَرَ) ، مشيراً إلى أن قبول الرسالة من يد الكابتن لا يعني قبول رجاء الوالي . وعلى قول الكابتن بأن الباشا وعد شرفياً بتسليم الأسطول بمن يأمره الباب العالي بقيادة عودته من الاسكندرية الى العاصمة أجاب الوزير «الاسكندرية بلدنا والأسطول لنا ، وهو يعود إلينا عندما يخطر لنا ذلك ؛ وهذه مسألة لا تستأهل الحديث بشأنها» . وعندما أشار الكابتن في نهاية حديثه ، وهو العارف بأن الحرب ما زالت مستمرة في سوريا ، إلى ضرورة الاسراع بعقد سلام ، غضب الوزير من هذا التعبير ورد بشكل جازم «السلام يعقد بين حكومتين وليس بين سلطان ومواطنه المتمرد» .

هؤلاء هم الأتراك ، والأعدل أن نقول هذا هو الإنسان . لقد جهدت الدول الأوروبية لتبعث القوة لدى الحكومة التركية التي كانت ترتعد كلما سرت إشاعة عن تحركات جيش ابراهيم باشا ، والتي كادت ـ ولم يكن هذا مستبعداً ـ أن تندثر أمام انتصارات الوالي المظفر . ولكن الحكومة التركية نفسها ، وما كاد القدر يضحك لها بإيماءة من الدول الأوروبية الكبرى ، وما كاد شاطىء سوريا يتخلص من السيطرة المصرية ، حتى هامت في أحلامها ، رافضة الحديث عن السلام وكأنها في عز جبروتها ، بالرغم من أن المناطق الداخلية كانت لا تزال تحت سلطة ابراهيم باشا ، وبالرغم من أن الـ ٦٠ ألف جندي المصري ما يزالون في دمشق (كان هذا في أول

كانون الأول ، ديسمبر) ، وباستطاعتهم القضاء بسهولة على العشرين ألف جندي عثماني !

أخيراً ، وفي مواجهة إصرار الدول الأوروبية ، قبل الباب العالي خضوع محمد علي ، وأرسل إلى مصر مظلوم بك مع فرمان العفو ، وياور باشا (كابتن ووكر) لاستلام الأسطول . وقد ظل الباب العالي بعد هذا يحاول بعناد إطالة الخلاف والسكوت على مسألة حكم محمد علي مصر وراثياً . وقد ساوم طويلاً محاولاً تحجيم هذا الحق عندما أجبرته الدول الكبرى على «بق البحصة» في هذه المسألة .

أعيد الأسطول إلى القسطنطينية [٣] ، وسلمت كريت ، وأخليت سوريا وشبه الجزيرة العربية من الجنود المصريين ، وعادت كلها إلى السيادة الأمبراطورية . أما المحادثات بين الطرفين فلم يكتب لها نهاية بعد . لقد أسقط الباب العالي من اعتباراته أن المصالح الجوهرية للحكومة العثمانية تملي عليه إنهاء هذا الخلاف البيتي العائلي بين المسلمين ، وبالتالي تجنب تدخل الدول الأوروبية الكبرى في أمور السلطنة السياسية الداخلية . وبإصرار على موقفه ذاك أطال الباب العالي مدة محكمة صلح الدول الأوروبية وأيقظ لديها شعوراً بالانحياز قليلاً لصالح محمد علي .

هل كان من الواقعية في شيء القبول بطلبات الباب العالي ، كرغبته في تعيين خلف لمحمد علي ، وإن من عائلة الباشا نفسه ، أو أن يحصل الباب العالي الضرائب من مصر ليس على أساس مبلغ محدد وإنما على أساس ربع الدخل المصري ، وعلى أن تكون هذه الجباية مباشرة تحت إشراف ومراقبة موظفيه ؟ رفض محمد علي قطعياً القبول بهذه الشروط ، التي تجعل من مصر ومن عائلته ضحايا ومسرحاً لمغامرات ودسائس الديوان ، فراح من جديد يعمل على تجهيز جيشه وتحصين الاسكندرية ، مهيئاً نفسه هذه المرة لدفاع يائس مستميت .

لن ندخل هنا في تفاصيل المفاوضات ، التي لعبت الدور الأكبر فيها الشهوات الشخصية إن لوزراء عثمانيين أم لآخرين من الديبلوماسيين الأجانب ، فهي ليست من شؤون مادتنا . علينا هنا أن نتذكر باختصار القرار الأخير للباب العالي ، والموافق عليه في أيار ١٨٤١ من قبل الدول الكبرى .

---

(٣) بقي الخائن فوزي باشا في مصر بأمر من الباب العالي . وقد قضى مسموماً بعد ثلاث سنوات على عكس وعود وإيمان خطي شريف كلخانة بالقضاء على القتل السري . كان الخائن قد عرف مصيره من معاملة محمد علي الصارمة . وبعد مصالحة محمد علي مع الباب العالي ، فهم أن أجله صار أقرب ويؤكد الشهود أن فوزي باشا سأل بعد أن ذاق الشراب المسموم الذي قدم له : «هل كمية السم كافية كي لا أتألم كثيراً» .

أعطي محمد علي حق الحكم الوراثي لمصر ، النوبيا ، دارفور ، كاردافون وسنار ، كوكيل كامل الصلاحيات للسلطة ، مع منعه من غزو تلك المناطق جلباً للرقيق ، ومنعه كذلك من تحويل الرقيق إلى خصيان .

حق الوراثة تحدد بالولد الأول في الخط الذكري المباشر ، أي الأكبر في العائلة مع إبعاد الخط النسائي تماماً في حال انقطاع النسل الذكري .

من حيث التراتبية الإدارية يتساوى باشا مصر مع الوزراء الآخرين ، وتمنح له نفس ألقاب الشرف ونفس النيشان (شعار من الألماس) .

يعتبر خطي شريف‌كلخانة نافذا في مصر ، أما في ما يخص التشريفات والقوانين فقد أعطيت للباشا فرصة التصرف حيالها لجعلها ، قدر المستطاع ، متناسبة مع ظروف البلد .

كل معاهدات الدولة العثمانية مع الدول الأخرى تسري على مصر وتحمل قوة القانون . ما يجب أن نلاحظه هنا ، هو أن هذا الشرط يخص بشكل أساسي المعاهدة التجارية الجديدة التي تقضي على كل الاحتكارات والالتزامات في كل الأمبراطورية . وهذه الاتفاقية التي أوحت بها انكلترا سنة ١٨٣٨ كانت موجهة أصلاً ضد باشا مصر ، لأن مداخيله كانت ترتكز أصلاً على احتكارات غير محدودة .

الأتاوة لخزينة السلطان تحددت بثمانين ألف كيس (حوالى ٢١٥٠ ألف روبل فضي) . وأعطي الباشا حق نقش العملة باسم السلطان .

جيش المشاة في مصر أيام السلم يتشكل من ١٨ ألف عسكري نظامي . بناء السفن الحربية يستلزم إذناً من السلطان . كل هذه القوى العسكرية المصرية تعتبر في خدمة السلطان ولا يسمح بأي تمييز في الأساطيل ولا في إشارات الرتب المميزة . الترقية حتى رتبة عقيد من صلاحيات الباشا .

وهكذا ، وبضغط من الدول الكبرى ، اختتم مسلسل الصراع الطويل بين السلطان وواليه ، الذي شغل كل الأفكار سنة ١٨٤٠ . لقد وضعت جانباً كل محاولات التوسط الفرنسية ، وما نفذ كان معاهدة ٣ (١٥) تموز ١٨٤٠ .

كانت فرنسا تجد نفسها مضطرة إلى تخفيض نداءاتها كلما تزايد نجاح الحملة الأوروبية في سوريا ، ثم لاحقاً نجاح المفاوضات بين السلطان والباشا . وفي النهاية أجبرت على الاعتراف بالحقائق الشرقية التي استجدت دون اشتراك أو مساهمة منها ،

وبذلك تكون قد تلقت درساً سياسياً عظيماً بعد انقلاب سنة ١٨٣٠ . وهكذا وعلى أثر أخطائها السياسية والخطابات البليغة لثرثاري المنابر والصحف ، وبعد أن وجدت نفسها مفردة دون حلفاء ، ودون تعاطف شعبي على امتداد الساحة السياسية ، وبعد أن كانت قد أهانت اسبانيا بإعلان حكومتها السابقة عن نيتها في احتلال جزر البليار ، وفوق هذا كانت مهددة بفقدان كل أملاكها في افريقيا ، غير واثقة من نفسها وتخشى إفلاساً حقيقياً في ميزانيتها . على أثر كل هذا فتشت فرنسا عن حجة مناسبة للكف عن الجدال العقيم في مسألة محمد علي الذي كان يخضع حديثاً لقدره الجديد (٤) ، فتقدمت من الدول الكبرى بناء على عرض من الحكومة الروسية ، بدعوة للاشتراك في عقد معاهدة تتعلق بإغلاق مضيقي بحر مرمرة .

وقعت هذه المعاهدة في لندن [١ (١٣) تموز] ١٨٤١ بين الروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وفرنسا والباب العالي العثماني ، وهي تشكل النتيجة السياسية الأهم لكل حوادث الشرق وما تبعها من مفاوضات بين الدول الأوروبية . وقد ساهمت تعابير المعاهدة نفسها في تهدئة المشاعر الأوروبية المتصادمة بعد ١٨٤٠ ، تقول في بعض فقراتها : إن الدول الأوروبية واثقة من أن اتفاقها يشكل ضمانة أكيدة للسلام ـ وهو الطموح الأساسي لجهودها الدائمة ـ وكتأكيد على هذا الاتفاق ، تعترف الدول الأوروبية بحق الأمبراطورية العثمانية القديم ، بأن الدردنيل من ناحية والبوسفور من ناحية ثانية ، ممرات مقفلة في وجه الأساطيل البحرية . وتتعهد هذه الدول من ناحيتها بالتزام تطبيق هذه القاعدة الداخلة في الحق الدولي الأوروبي.

إن الدول الأوروبية باتفاقها هذا سنة ١٨٤١ ، تكون قد اعترفت بالبحر الأسود بحراً داخلياً للروسيا وتركيا . الروسيا من جهتها كانت قد وضعت سنة ١٨٣٣ ، وفي ظروف الحملة السورية الأولى ، أساساً جيداً لهذا الحق في اتفاق خنكيارا سلكه سي الذي يجبر تركيا على إقفال الدردنيل في وجه الأساطيل البحرية من كل القوميات (٥)

---

(٤) **عندما لاح خطر وقوع الحرب ، سقطت سندات الخمسة بالماية ، ومعدلها عادة يصل إلى ١٢٠ ـ ١٢١ سقطت خلال أيام معدودة** إلى ١٠٠ ، كما لو في أيام المآسي الكبرى . مخطط احتلال جزر البليار التي كانت اسبانيا قد سمحت لفرنسا بأن تبني عليها مستشفى عسكري للجيش الافريقي ، لم يتم أبداً . يقال إن أحد وزراء تيير اختلق هذا المبرر في خطته المرتجلة أمام مجلس النواب سنة ١٨٢١ ، لاستدعاء الأسطول من ليفانت .

(٥) نشير هنا إلى أن الانكليز بعد محاولة الأميرال ديوكو أورت (١٨٠٨) الفاشلة ، كانوا مجبرين على الاعتراف للأتراك بحق إقفال المضائق في وجه السفن العسكرية . وبهذا المعنى وقعوا معاهدة القسطنطينية في ٥ كانون الثاني ١٨٠٩ .

يقصد بازيلي بمحاولة الأميرال ديوكو أورت الفاشلة ، العمليات العسكرية التي قام بها الأسطول الانكليزي ضد تركيا في =

وكانت مدة هذا الاتفاق ثماني سنوات وبانتهاء هذه المدة جذبت الحرب السورية الثانية والأوضاع السياسية في الشرق وأوروبا ، الدول الكبرى الأخرى إلى الاعتراف ببند وضعت الروسيا منطلقاته التي تتناسب مع السياسة السليمة ومع القوانين الخالدة في الطبيعة وإدخاله إلى الحق الأوروبي . والطبيعة نفسها تملي على كل دولة وكل شعب حدود وطرق نشاطه ، أحياناً بمجاري الأنهار أو بقمم الجبال ، أو بشواطىء البحار . الزعيق الأوروبي الحاسد ضد خنكيارا سكله سي لم يصمت ، مع أن المكسب الروسي السلمي والبريء ، أدى إلى وضع حد للقلق الذي احتضن الغرب وكاد يرمي كل أوروبا في هاوية المآسي الرهيبة .

يجدر أن نشير إلى قضية أخرى ، تعتبر أيضاً من الآثار الايجابية لأزمة ١٨٤٠ السياسية ، وخاتمتها أي المعاهدة الأوروبية . الجميع يذكر بالطبع حالة فرنسا الداخلية القلعة المضطربة ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ ، والتي سادها صراع أحزاب مرير ، وعدد كبير من المؤامرات والتمردات ومحاولات لاغتيال الملك السبعيني ، وتغيير مستمر في التشكيلات الوزارية العاجزة التي كانت تخلف إحداها الأخرى ، بسرعة تغيير الديكور المسرحي ، والمتهاوية تباعاً تحت وطأة الاضطرابات العشبية . ولا يوجد أدنى شك بأن لا حكمة الملك ولا وطنية الطبقة المستنيرة المنعمة كانت ستمنع فرنسا من الهجوم على الراين أو على ايطاليا والتعرض بالتالي للحكم الشعبي الحتمي في Nemeside ، لو لم يكن لديها الحقول الافريقية ، مصبات لفائض الدم الفرنسي الملتهب . الدروس القاسية سنة ١٨٤٠ كانت منقذة ليس فقط للحكومة الفرنسية ولكن أيضاً ، رادعاً للغريزة الشعبية ، فتدعمت حكومة غيرو ومنطلقاتها الوفاقية ، ومنحت بعد نابوليون وآل بوربون المرحلة الثالثة من الرخاء والسلام للجيل الذي حكم عليه العذاب المرير ، افتداء الأهوال والكفر الذي خيم على مهد ومسكن آبائه في نهاية القرن الثامن عشر .

هذه هي النتائج المباشرة للدراما العظيمة عام ١٨٣٢ ، والتي أديت أمام الدول

= شباط سنة ١٨٠٧ (يخطىء بوضع التاريخ سنة ١٨٠٨) عندما عبر الأسطول الانكليزي بقيادة الأميرال ديوكو أورت الدردنيل واقترب من القسطنطينية . وطلبت الحكومة الانكليزية من الحكومة التركية يومها ، عقد معاهدة تحالف ، وقطع العلاقات مع فرنسا ، وتسليمها تحصينات الدردنيل (كانت الحكومة الانكليزية تخاف أن تحتل الروسيا بالاتفاق مع تركيا منطقة المضائق) . مددت الحكومة التركية فترة المحادثات وزادت من تحصيناتها في الدردنيل . وبعد فشله ساق الأميرال ديوكو أورت أسطوله إلى البحر الأبيض المتوسط .

الأوروبية على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . المشهد الأول فيها انتهى بمعاهدة خنكيارا سكله سي ، وانتهى الثاني بتعهد متبادل من الدول الأوروبية تجسد بمذكرة ١٥ (٢٧) تموز ، وانتهى الثالث بتنفيذ المعاهدة المتعلقة بسوريا . خاتمة هذه الدراما كانت معاهدة المضائق . وهذا التقسيم لا يغير منه ما برز من ظواهر أخرى ، وفي الخط الأول من المسرح : الأسطول الانكليزي والنمساوي المشترك . ما تجب ملاحظته بهذا الصدد ، الفكرة العظيمة ، وهي لا تفوت المراقب المنتبه ، والتي تربط صف الأحداث الطويل من البداية فالذروة حتى الحل . وهذه الفكرة تتجسد في الخاتمة .

صحيح أن الروسيا اكتفت بعرض أسطولها ، أسطول البحر الأسود وفرقه الإنزال سنة ١٨٣٣ ، في البوسفور ، ولكن الصحيح أيضاً أن الأحداث الشرقية بمجموعها خضعت لمنطق معاهدة خنكيارا سكله سي . والعمليات العسكرية سنة ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ انحصرت بدورها تحت تهديد المعاهدة في الأفق السوري . لم ترق نقطة دم واحدة من الدم الروسي ولم تنفق أية أموال . ففي الوقت الذي كان فيه الغرب يغلي بالتحضيرات الحربية والانفاق عليها ليس بالملايين وإنما بالبلايين ، حيث كانت القروض تعقد في كل مكان مما أدى إلى هبوط أرصدة هذه الدول ، كانت الروسيا من أعاليها تراقب مجرى الأحداث ، وعدم تغير الموازين تحت وطأة سيفها الثقيل . وفي الساعة الحاسمة دعمت بالمعاهدة الأوروبية حقوقها الشرعية على البحر الأسود . وهذا المكسب سيقدر حق قدره عندما تتحول هذه الشواطىء الخيرة ، بعد استقرار القفقاس وتطوير مناطق ما وراءه ، إلى سوق تلتقي فيه التجارة الأوروبية والآسيوية ، والتي كانت تستعيد من جديد حركتها الدورية على الطريق العريقة عبر البحر الأسود وبحر قزوين لوصل الشمال والغرب بآسيا الداخلية .

لنختتم ملاحظاتنا هذه بالحدث المثير للفضول ، ويتمثل بالهفوة الديبلوماسية التي ارتكبتها الوزارة العثمانية ، وهي واحدة من مسلسل زلات رافقت دخول تركيا فلك السياسية الأوروبية . في حمأة المذكرات والبروتوكولات والمعاهدات التي كان يتبادلها السلطان ذو الـ ١٨ ربيعاً مع أوروبا ، اقترح على دولها تأمين حماية أوروبية متبادلة للأمبراطورية العثمانية . وإليكم ما كتبه الأمير مترنيخ ، جواباً على ذلك في ٥ نيسان [من القرن الحالي] ١٨٤٠ .

«فكرة الديوان هذه ، قائمة على منطق خاطىء غير قابل للتحقيق ، لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية . خاطئة ، لأنه غير خليق بدولة بأي حال من الأحوال

قبول الحماية ، فكيف والحال هنا مطالبة دول أخرى بخدمة لا تستطيع تأمينها . والدول التي تتقبل مثل هذا النوع من الخدمات ، تفقد في الحقيقة اللون المفضل لاستقلالها . إن الدولة المحمية تكون محكومة لارادة متعهد الحماية ، إذ أن الضمانة (الكفالة) الحقيقية ملازمة لحقوق الحماية . إن حامياً واحداً لأمر مزعج تماماً ، فكيف إذا كان هذا «الحامي» حماة متعددين ، إنهم يشكلون في هذه الحالة همّاً غير محتمل . يبقى فقط شكل واحد للتوصل إلى ضمانة مع التخلص من إحراجاتها ، ألا وهو تحالف دفاعي . فهل هذا ما يريده الديوان ؟ فليتقدم باقتراحاته ، ولكن من الصعب أن نأمل بأن اقتراحات من هذا النوع ستلاقي القبول» .

الفصل السابع عشر

خروج الجيش المصري من سوريا وتصرفات الجنرالات الاتراك الغريبة ـ عناد ابراهيم باشا والعذاب الهائل لجيشه ـ اعتداؤه على القدس ـ تنبؤاته للاتراك ـ مرضه وتوجهه إلى مصر.

* *

تقدمت روايتنا عن الاوضاع السياسية وعن الحوادث السورية وعن المرحلة الاخيرة لحملة ١٨٤٠ وتراجع الجيش المصري من سوريا. والملاحظ في هذه الفترة أن العمليات الستراتيجية وخاصة العمليات الهجومية للجيش السلطاني كانت تتخبط في فوضى كبيرة، بشكل يستحيل معه متابعتها بدقة وانتباه. ولهذا علينا اختصار الرواية واجتناب القراءة النقدية للاحداث. نشير فقط الى أن اتجاه الحرب والمفاوضات كان يملي على الجنرالات الاتراك الدفاع عن الخط الساحلي من الجيش القوي الذي بدا وكأنه أصيب بالشلل، كقطار ينسحب على الخطوط الصحراوية الداخلية متراجعاً من دمشق الى مصر. القيادة العامة للجيش العثماني لم تتصرف حسب ما يمليه العقل السليم والقوانين الانسانية المقدسة، وتفتح الطريق أمام الجيش المصري للرجوع الى مصر وتسريع إنجاز السلام المطلوب، دون إراقة دماء إضافية، والاختصار ما أمكن من نتائج اضطراب القبائل السورية التي أظهرت. وبعنف. ميولها الفوضوية في فلسطين.

على العكس من هذا. تصرفت القيادة العامة من خلال الشهوات التي تولدت والآمال التي أعمت ديوان القسطنطينية الحاكم آنئذ ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ أي القضاء المبرم على محمد علي. إذ أن عمليات الجيش العثماني الهجومية كانت تزداد ضراوة وحقداً كلما أحرزت محادثات السلام تقدماً، وهذا ما يخالف إرادة الدول الاوروبية الكبرى التي تجري الحملة السورية تحت راياتها، وتصورها لشكل العلاقات المقبلة بين الباب العالي ومحمد علي.

أسند الفرمان الصادر في أوائل رمضان (في نهاية تشرين الأول اوكتوبر ١٨٤٠) قيادة الجيش الى الجنرال جوكموس، الذي كان يشغل حتى ذلك الوقت منصب قائد

الاركان. نجاحات الحملة السورية باشراف الضباط الاوروبيين بعثت الهمة لدى الباب العالي للوقوف ضد بعض الاباطيل الدينية الراسخة وضد الشعور القومي بالذات. فللمرة الأولى. تمشي الجيوش الاسلامية المنصورة، تحت إمرة مسيحي، في حرب مقدسة، لأن كل الحروب تحت راية الخليفة هي مقدسة في نهاية الأمر، كونها فرضاً من الفرائض الدينية حسب التشريع الحربي الاسلامي. وزيادة في هول الأمر بنظر المسلمين المحافظين، فإن هذا التطاول على القوانين الروحية وعلى الشعور القومي تمّ في ليالي شهر رمضان المباركة... لقد سبق ورأينا كيف شجعت مآسي الامبراطورية السلطان وكبار رجالاتها على تلطيخ صراعهم مع الباشا المصري المسلم، بكفر التحالف مع المسيحيين، في الوقت الذي كان فيه هذا الباشا متهم بالهرطقة والتمرد ضد خليفة النبي صلعم. وبعدما نجح الديوان في تبرير هذا التحالف أمام شعبه، تجرأ الخليفة الشاب، السلطان المصلح، على نفض هذه الخرافات التي لم يجرؤ والده على المساس بها، هذا على الصعيد الشعبي، أما بالنسبة للجيش. فإنه كان يدرك أكثر من غيره أن انتصاراته تؤول أساساً الى وجود الضباط الاوروبيين الذين يقودون الحملات، لهذا كان يتقبل عن طيب خاطر، البدعة القائلة بأن سر عسكر سوريا أحمد زكريا باشا. لم يكن يفقه في علم الستراتيجية العسكرية شيئاً.

قبل تراجع ابراهيم باشا عن دمشق احتل الجنرال جوكموس حاصبيا في كانون الاول (ديسمبر) لكي يراقب مع أركان حربه. من أعالي وادي التيم حركة الجيش المعادي، لأنه افترض أن ابراهيم باشا سيتابع احتلال سوريا دعما لادعاءات ومفاوضات والده مع الباب العالي وتأمين شروط أفضل لصالح مصر، وعلى أساس الافتراض الذي لا يستند الى أية براهين. أخذ الجنرال التركي يهدد الجيش المصري بقطع طريق العودة. المفارز الخفيفة للأكراد والبدو المنضوين بسرور تحت رايات السلطان طمعاً بالغنيمة، قامت بغزو مستودعات الاحتياط الغذائي وعلف حيوانات الجيش المصري، فنهبت واتلفت قسماً منها، قبل أن يتمكن المصريون من طردهم. كل هذا جرى قبل يومين من مغادرة ابراهيم دمشق. حيث كانت طريق انسحابه تزداد حراجة بين ساعة وأخرى، خاصة وأن قبائل حوران في هذه الاثناء كانت تبدو أكثر قلقاً. وقد سأل ابراهيم مجلسه الاستشاري الحربي عن الطريق الافضل الى مصر: عبر سوريا بين مفارز الاعداء والسكان المعادين حتى غزة، أو عبر الصحراء؟ كل الضباط الذين يعرفون جيدا حالة الجندي المصري اليائسة، واستعداده للفرار والانتقال الى صفوف الاعداء لدى أول صدام، نصحوا بسلوك الطريق الاصعب لأنها أقل خطراً، أعني طريق الصحراء. من جهته أصر ابراهيم، وقد أضناه المرض وحسرة الخسارة على النفاذ عبر سوريا مهما كلفه أمر لقاء الاتراك في

الميدان، متهماً ضباطه بالجبن. مهدداً بقطع رؤوس المتذمرين منهم. لكن هذا الاصرار ما لبث أن اختفى مع بداية مسيرة العودة. فقد تمكن الفان من الجنود، وبالرغم من شدة الرقابة. الفرار وترك الجيش في الطريق بين دمشق والمزيريب، دون أن تثني هذه الظاهرة، ابراهيم باشا عن محاولة الانعطاف نحو اليمين ليعبر سهل الجليل الى فلسطين الساحلية. في هذه الأثناء تحرك القائد التركي جوكموس من حاصبيا الى أعالي صفد عبر أعالي الاردن. أما الجيش التركي في ساحل فلسطين، وبعد أن ترك حامية كافية للدفاع عن عكا في حال معاودة تحرك الجيش المصري اليها، فقد نزل في محاذاة الكرمل بموازاة الجيش العدو، استعداداً للقائه في وادي جنين عند سفوح جبل السامرة، في حال عبوره الاردن. وعندما وصلت طليعة الجيش المصري الى الاردن كان جسر المجامع، وهي نقطة لا بد من عبورها، قد هُدِمَ بأمر من الجنرال التركي. وفي الناحية المقابلة في وادي مرج بن عامر كانت تقف ميليشيامن سبعة آلاف جبلي بقيادة الأمير اللبناني. كل هذه العوامل دفعت بابراهيم باشا، الذي كان ينتظر في المزيريب مع مؤخرة جيشه، الى تغيير خط سيره، مقتفياً وببطء، تجاه القسم الآخر من الجيش المصري المؤلف من الخيالة، والذي كان بأمرة احمد منكلي باشا قد تحرك عبر الصحراء باتجاه غزة.

في الوقت الذي كان فيه ابراهيم باشا يحاول مسيرته الصعبة باتجاه مصر، نجح جنرالاته في غزة، في الحصول على تعهد من القوات التركية، بالكف عن العمليات الفدائية. وقد جاء هذا الاتفاق، بعد هجوم مفاجىء ناجح للخيالة المصريين، كادوا فيه أن يبيدوا جنود إحدى المعسكرات الكبيرة للجيش التركي، المؤلف من ١٥ ألفاً من المشاة النظاميين و ٣ سرايا خيالة، و ٣٠ مدفعاً و ٧ آلاف من الميليشيا غير النظامية، والفين من الخيالة السوريين. والذي كان يحتل فلسطين بين يافا وغزة والقدس متخذاً غرفة قيادته في الرملة. وبموجب هذا التعهد حدّد محمد علي، بالاتفاق مع مبعوثي الباب العالي وكفالة الاميرال الانكليزي، مدينة غزة مكان تجمع الجيش المصري، حيث ينتقل بعدها براً وبحراً الى مصر، كذلك سمحت الاتفاقية لمحمد علي بايصال المؤن لقواته المتجمعة في هذه المدينة.

في هذه الاثناء عقد السلام بين السلطان والباشا، إلا أن الجنرالات الاتراك لم يكفوا، وقد أعماهم النصر، عن دعوة السكان الى حمل السلاح، لانهاك ابراهيم باشا في طريق عودته الى مصر بعد تراجعه عند جسر المجامع.. على هذا انتقل القائد التركي جوكموس، بعد أن فقد أثر ابراهيم باشا، من جنين الى القدس وأخذ بتجهيز قبائل البدو وقبائل جبال اليهودية على الناحية الجنوبية الغربية للبحر الميت، لتمكينهم من إتلاف احتياطات المؤونة الموجودة في معان في قلب الصحراء.

لم يظهر أي أثر لابراهيم باشا طوال أسبوعين، وفجأة انتشر ما أقلق المعسكر الحليف، عند عبور ابراهيم الاردن قرب أريحا في الرابع من كانون الثاني، وتحركه باتجاه القدس، التي كانت ستسقط حتماً بيد المصريين. في حال عدم تمكن قوات تركية من الوصول سريعاً لدعم حاميتها المفردة. إلا أن مشاعر السكان المعادية للمصريين خذلت ابراهيم باشا ثانية، حتى أن هذه الضيعة الفقيرة أريحا (يريحون القديمة) استقبلته كعدو. كذلك فإن بعض سكان جبال اليهودية الذين كانوا يقعون أسرى مفارز الاستطلاع المصرية. الباحثة عن الاخبار، كانوا من خبثهم، وكأن اتفاقاً مسبقاً تم فيما بينهم، يؤكدون على أن القدس محمية بـ ١٥ ألف جندي نظامي تركي عدا الشعب المسلح الذي لا يحصى والمنتشر في كل الاصقاع. هذه الطوالع السيئة أجبرت ابراهيم على التراجع ثانية، عن محاولته النفاذ الى الرملة وغزة عبر الجيش التركي، فقفل عائداً نحو الاردن، بعد أن دفعت اريحا المحترقة ثمن فشله ذاك. سوء الحظ لم يفارقه حتى في تراجعه، فقد تعاملت الامطار الغزيرة مع كل ما سبق، وافقدته غرقاً في مياه النهر حوالي ٥٠٠ من رجاله وعدداً من المدافع وكمية من الحمولة وقسماً من الخزينة. في الصحراء انتقم ابراهيم من سكان الكرك الذين رفضوا امداده بالمؤونة. من جهة ثانية كان الرتل المصري الآخر بقيادة أحمد منكلي باشا قد نجح في الالتفاف صوب الطرف الجنوبي للبحر الميت، بعد أن عانى من حرج الصحراء ونقصان المؤونة في معان ومهاجمة زمر السكان المسلحة. ولكنه استطاع في نهاية الأمر تأمين طريق مسيره وتوفير الغذاء بأكل لحوم الحيوانات الناقلة للعتاد من جمال وخيول. الجديد في هذه الفترة كان وصول أوامر صارمة الى المعسكر التركي، بعد إصرار جازم من ممثلي الدول الكبرى بالكف عن العمليات الحربية. وبالفعل أرسل الى معسكر المصريين، ضابط تركي مع راية سلام بيضاء، ومهمته مواكبة القوات المصرية حتى غزة، عبر السكان المتكالبين حقداً على هذه القوات. كذلك أرسل، وفي كل الاتجاهات ضباطاً اتراك وانكليز للتفتيش عن ابراهيم الذي كان لا يزال هائماً في الصحراء على أتعس حال، فقد شنق أكثر أدلائه لخيانتهم أو لجهلهم الطريق وتخويفاً لمن يتولى الدلالة من بعدهم وكذلك أكره على رمي جزء كبير من مدفعيته بعد أن نفق الكثير من حيوانات النقل لديه. الطريق من ورائه كانت مبذورة بجثث القتلى الميتين تعباً أو قتلا بعد محاولات فرار. المخلصين الفعليين لابراهيم كانوا بدو مصر وقبائل هنادي وموقف هذه القبائل يرتبط الى حد بالعداء القديم بينها وبين قبائل البدو السوريين وعلى رأسها قبائل عنزة. لقد شكلت قبائل هنادي حلقات وصل تربط معسكرات جيش ابراهيم بعضها بالبعض الآخر، هذه المعسكرات التي لم يكن يميزها من ميدان أية معركة أي

فارق. لكثرة ما انتشر فيها من جثث البشر والخيل والجمال.

إن المآسي التي تعرض لها الجيش المصري في طريق عودته تفوق أي وصف. قسوة الانضباط الحربي... وتطرف ابراهيم في تطبيقه، بالاضافة الى طبع الجندي المصري الصبور، عوامل أنقذت الجيش المصري من الفناء الكامل. إبراهيم باشا نفسه ما كان ليصمد لولا مساعدة خدمه، لأنه كان يعاني من مرض ثقيل، لكنه رغم كل ذلك لم يكتئب أو ييأس وبقي يشرف بنفسه على كل ما يجري، مستمداً من الخمرة قوى جديدة تمكنه من تحمل صعاب ومتاعب لم يسمع بها من قبل، والتي كان يعانيها مع جيشه بسبب عناد العجوز المجنون محمد علي في مواجهة ارادة الدول الكبرى.

كان ابراهيم على هذه الحال ساعة أدركه العقيد الانكليزي روزي، المكلف بمرافقته حتى غزة. وبعد سفر ٣٤ يوماً أدركوا غزة وانطرح [ابراهيم] على فراش المرض. وعندما أتاه عمر بصفته مبعوث الحكومة التركية، لحضور ترحيل الجيش المنهك إلى مصر. هنأه ابراهيم بالاستيلاء على سوريا مضيفاً ببرود: لنر إذن كيف ستديرون هذا الاقليم بعد هذه الفوضى. ثم تابع مازحاً يسرد كم كلفه من الجهد اخضاع القبائل السورية العنيفة وتطبيق الترتيبات الداخلية، التي تعمل الآن قوات الباب العالي على هدمها حتى حجر الاساس.

دخل جيش الباشا الى مصر. وقد نقص حتى النصف بسبب هرب كل المجندين السوريين وبسبب المتاعب في الصحراء. كان عدده ٣٦ الف جندي. وهنا يجب أن نتذكر أنه خلال كل الحملة وعند سقوط عكا وكل المدن الساحلية الأخرى كان عدد القتلى يصل بالكاد الى حدود الـ ٣٥٠٠. إن حل هذه الظاهرة الغريبة لجيش تعداده ٧٥ ألف جندي، مدربين بشكل ممتاز، وبإمرة اقدر الجنرالات الموهوبين الشجعان، ولكنه ما يلبث أن يتحطم سريعاً في اربعة اشهر وكأنه تحت تأثير السحر، ويحكم عليه بأن يرشد عبر الصحراء بعظام جنوده وبقايا جثثهم، اثناء عودته من سوريا هارباً امام حفنة من الاعداء، إن حل هذه الظاهرة الغريبة يجب أن لا نبحث عنه في فن الاستراتيجية أو في المآثر الحربية لجيش الحلفاء، وإنما في الموقف الشعبي المعادي. في آذار ١٨٤١ وبعد أن شفي ابراهيم من مرضه بمساعدة الاطباء الانكليز أبحر الى مصر. وكممثل قبطان سفينة محطمة كان آخر من ترك غنيمته المميتة، سوريا، التي شربت الكثير من الدماء المصرية.

الفصل الثامن عشر

نظرة على الفتوحات التركية ـ متانتها تتناسب مع جهودهم ـ المسألة التاريخية عن سوريا ـ وقائع تاريخها السياسي والروحي القديم ـ اليهودية المسيحية والمحمدية ـ سقوط سوريا ـ محاولة الانكليزي تشيزني لتجديد المسالك التجارية .

* *

تجاوزت الأمبراطورية العثمانية ، بعد تنفيذها قرارات الدول الكبرى ، القطوع الذي أصابها عبر مآسيها المتتالية في فترة أسبوعين من حزيران ١٨٣٩ : موت السلطان ، انهزام الجيش، خيانة الأسطول . كذلك تبدد القلق الذي عمّ الشرق وأوروبا وتسلم حفيد سليم الرهيب (ياؤز سلطان سليم) سلطانه الشرعية.

تركيبة هذا الاقليم الداخلية ، والتي حاولنا التعمق بدراستها في الفصول السابقة تشرح بما فيه الكفاية النجاح السريع والبسيط لأي احتلال أجنبي لسوريا . هذا هو طابع الاقليم ولا يغير فيه أبداً الصراع العنيد الصوري ـ الصيداوي ضد الاسكندر ، ولا صراع اليهود ضد روما . إن هذه الأحداث استثناءات تماثل صراع الضيوف السلاجقة ضد الصليبيين . فالتاريخ بمجمله لا يقدم مثالاً يشهد بأن سوريا كانت تفكر باستقلالها حتى في فترة جبروتها ، عندما كان سكانها أكثر عدداً من السكان الحاليين بعشرات المرات ، وفي عز ازدهار مدينتها وتفتحها . بعد الانتصارات التي أحرزها بطليموس ضد انطيوخوس عند حدود سوريا الجنوبية أمام مدينة رفح أسرعت القبائل السورية ، واحدة بعد الأخرى ، تقدم طاعتها للقيصر المصري «هذه هي العادة البشرية ـ يقول بوليبي ـ لكن ليس هناك من بلد لديه بالطبيعة من الميول السريعة والانطباعات الفطرية ، ما يدفعه لأن يستسلم للفاتح طوعاً بمثل هذا الرضى كسوريا» (١) .

---

(١) سترابون ، الجزء ٧ ، الفصل ٨٦ .

نفس الظاهرة تتكرر مع دخول العثمانيين عام ١٥١٦ ، كذلك مع الحملة المصرية سنة ١٨٣٢ ، أي في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها . وفي هذا السياق ، وفي هذه المرحلة بالذات ، أنتهم القبائل السورية ، أم نتهم الحكومات التي كانت تخضع لها هذه القبائل تالياً ؟ شكلت سوريا هماً دائماً للأمبراطورية العثمانية منذ أيام سليم الأول حيث برزت أول حركات عصيان . وبعد سليم مع حكم السلاطين المتعاقبين اللاأخلاقي ، ملاحظة ، ترسخ عنصران كانا قد بدآ بالبروز في السنوات الأولى من الاحتلال التركي : العادة على الفوضى والتفتت الاقطاعي .

ككل أسلافه وخلفائه من بعده ، كان سليم ، في مأثرته العظيمة ، تأسيس الأمبراطورية العثمانية على أفضل قسم من الأمبراطورية الرومانية ، مهتماً بالبريق المادي لفتوحاته ، قليل الاكتراث بتحقيق إنجازات مدنية تواكب وتسند أعمال السيف العثماني القادر .

لو تتبعنا بانتباه تلك الصفحات العثمانية المكتوبة بالدم والنار ، منذ المؤسس الأول عثمان حتى عبد المجيد ، لتأكدنا من أن أياً من الفتوحات التي اشتهرت بها الأيام البارقة للتاريخ العثماني ، كانت باستمرار ، تدعم بجهود جبارة مماثلة لتلك المبذولة في تحقيق المكسب الأول . المقاطعات الداخلية في آسيا الصغرى ورومبليا حيث كل شبر اشتري بالنصر ، تشكل حتى الآن أتوناً للقوى العثمانية . إذا طردت حفنة من الهلينيين ، العثمانيين في السنتين الأوليين للحرب اليونانية العثمانية من البيلوبونيز وشمالي اليونان واستولت على قلاع الاقليم المنيعة ، فلنتذكر بأن الأتراك بدورهم أيضاً ، وقبل ذلك بقرن ونيف ، كنسوا من هناك أهل البندقية . بينما جزر الأرخبيل تلك الأزهار التي جمعها الأسطول العثماني في نزهاته البحرية ، سقطت بدون جدال من تاج محمود . كريت المروية بدماء الانكشاريين ، صمدت ضد الجهود البطولية لسكانها المسيحيين وحملات الهلينيين العنيدة . وتتأكد ملاحظاتنا أكثر ، إذا ما أمعنا النظر في مقاطعات السلطنة العثمانية ، من العربية والبحرين حتى إمارات الدوناي . وهنا نجد أن لا قدر الحرب ونتائجها، ولا مصادفات المحاولات الحكومية هي العوامل الحاسمة في مصائر الشعوب والممالك ، وإنما تأتي القوانين السياسية الفاعلة المؤثرة بقوة تتعدى بأشواط قوة القوانين الطبيعية . وإذا كانت تركيا ، حتى في العصر البراق لجبروتها ومدنيتها في القرن السادس عشر ، عندما كانت تنجب عباقرة من سلاطين ورجال دولة ، لم تنجح في إلحاق سوريا بها ، ولم تفز

باستخراج أية منفعة منها . إذا كان الأمر كذلك فهل ننتظر من الأمبراطورية الآن ـ وقد هرمت ـ أن تنجح بجهد وطني بافتداء خلل إدارتها السورية على امتداد ثلاثة قرون ، سيما وأن المنطقة (سوريا) أقفرت وأفقرت بإرادة الدول الكبرى ؟

أمام محكمة التاريخ لن تلقى على الأتراك كل مسؤولية الإفقار المدقع والدائم للاقليم ؛ هبوط تجارته وصناعته خلال القرون الثلاثة الأخيرة . بالتأكيد لن نغفل مساهمة النظام الحكومي التركي أكثر من أي شيء آخر في الانحراف السياسي للاقليم . لقد عاشت سوريا في ظله الهياج الدائم ، فتحطمت بذلك تلك العناصر التي كمنت فيها فترة ألفي سنة ، منذ فينيقيا حتى مجيء الأتراك .

وعلى امتداد تاريخها ، كانت سوريا تهم باسترجاع رخائها الداخلي في فسحات الهدوء والسلام التي كانت تتقاطع عندها حقب وتجارب صعبة وقاسية .

لقد بلغت سوريا أيام السلوقيين درجة عالية جداً من تطورها ، وقد اوشكت أن تكون الأكثر بريقاً وألقاً في حطام امبراطورية الاسكندر المتداعية . الصراعات مع مصر المجاورة ومع القبائل الشمالية ، الأرمن والـ Parfiants ، لم تكف عن إقلاقها ، في نفس الوقت الذي كانت فيه عداوات نسل سلوقوس نيكاتور تنخر بنيانها الداخلي . ثم أنها ما كادت ترتاح تحت النسور الرومانية ، حتى أصبحت ، ولما يمضي نصف قرن بعد ، أفضل وأغنى وأكثر بذخاً من كل أقاليم الأمبراطورية الرومانية. وكذلك اكسبت اليونان نفسها نخلة العلم الهلليني التي انغرست في تربتها بسعادة على يد أتراب الاسكندر . وفي عهد خلفاء قسطنطين انطيوخوس أصبحت العاصمة الثانية للشرق ومدرسة الفلسفة المسيحية . ولكن المآسي لم تلبث أن طالتها من جديد مع هجمات الفرس . ثم عادت بعد ذلك ووقعت غنيمة العرب نصف المتوحشين . ولكنها ، مغطاة برماد مدنها . تماثلت للشفاء بعد نصف قرن ، وعادت تقاسم العرب كنوز العلم اليوناني ، قاسمتهم بريق الخلفاء والعلم الذي استوت أركانه من جديد ، وراحت تنير العالم بفائض رخائها . وفي عهد الصليبيين الذي جاء بعد الصراعات الداخلية للإرث الروحي والمدني المتفسخ لهارون الرشيد ، وبعد حملات السلاجقة المتوحشين ، حرمت سوريا من منارة العلم التي شعت منذ قرون ولا تزال تنير تجارة وصناعة فاخرة في فترات السلام القصيرة .

رغم كل الاضطرابات التي عرفتها الفترة العثمانية الكئيبة التي تمتد منذ ثلاثة قرون ، فإن الفتح العثماني حرّر سوريا من تبعة الهجمات الخارجية ومن حمى الصراعات الداخلية . ولم تكف التجارة والصناعة عن الازدهار ، رغم بعض

الاضطرابات التي تشوب أحياناً هذا الاقليم الذي وهبته الطبيعة بسخاء . يتأكد هذا من الثروات التي تغرفها جمهوريات إيطاليا البحرية .

كان حرياً بالفتح العثماني أن يمنح سوريا ، كما الفتح الروماني ، عهداً جديداً من الرخاء ، ويساعدها على تطوير قواها الحياتية في ظل جبروت حكومي مركزي قادر على إخضاع الاستبداد المبعثر للأمراء المحليين والقضاء على صراعاتهم الاقطاعية . لكن الذي حصل في سوريا ، ومنذ الفتح العثماني ، أنها تزداد ضموراً وشحوباً ، ويشوب صناعتها وتجارتها إعياء يستنزف سكانها باستمرار .

وإنما يجب الاعتراف بصدق ، بأن الإدارة التركية ، مهما كانت أخطاؤها مميتة ، إن **في البداية أم في العواقب التي عرضنا لها في مصائر سوريا السياسية ، كانت أفضل من كل الإدارات التي سبقتها منذ عهد الخلفاء [...] . لقد دخلت** سوريا نطاق الأمبراطورية العثمانية ، تحديداً ، في الفترة التي اكتشف فيها ملاحي الغرب العباقرة ، مسالك جديدة للتجارة الدولية ، سلبت الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ما لا يقدر بثمن ، أي احتكاره العلاقات بين الغرب وبلدان الشرق الداخلية ، أعني الهند وفارس . إن بوصلة فاسكو دي غاما ، وليس سيف سليم ، هي التي كتبت نهاية رخاء سوريا القديمة . وما لبثت المنطقة بعد ذلك أن ذبلت وأقفرت بعد أن تركت مفردة محرومة من كل تلك الثروات التي كانت تصب فيها من الخارج . وفي أيامنا هذه تمثلت الضربة الأخيرة لصناعتها ، بمنافسة الغرب المسلح بالماكينات البخارية للحرف في الشرق ، للأنوال التي أورثتها صور وصيدون للأجيال البعيدة القادمة . للآلات الكلاسيكية البسيطة التي كانت هذه الأجيال ملتصقة بها ، وهي التي كانت لثلاثة آلاف عام مضت ، تحصل دخلها من الشرق والغرب على حد سواء .

إن كل هذه المآسي التي تدور على أرض سوريا ، وتطعن سواء في صناعتها المحكومة بالموت القريب أم في أرضها التي أجدبت في ظل هبات العواصف السياسية ، التي كانت تقذف بالسكان تارة إلى الجبال وطوراً إلى الصحراء ، إن كل هذه المآسي ستتوج بفائض امتيازات الموقع الجغرافي فيما لو عادت التجارة والملاحة إلى طريقها القديمة ، وهذا ما تسعى إليه بعض المحاولات في وقتنا الحاضر .

لقد استطاعت جمهورية صور ـ صيدون ، وبالرغم من محدودية رقعتها الجغرافية ـ أن تشكل مركزاً للتجارة العالمية حتى في عصر سليمان وهوميروس ، فغطت

البحار بأساطيلها وزرعت شواطىء البحر الأبيض المتوسط بمستعمراتها المزدهرة ، حيث كان يصب فائضها الحيوي . مدن سوريا الساحلية كصور وصيدون فاقت مصر بنشاط عبقريتها وسبقتها بنجاحاتها المدنية . ومن غير الممكن أن ننسب ظاهرة رائعة كهذه إلى شيء آخر يتعدى امتياز الموقع الجغرافي على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، رحم حياة العالم القديم . من هنا كانت لقيادة الشرق نحو المأثرة العظيمة : نفوذ الشرق - بكر النسل البشري - الروحي والمادي على قبائل الغرب البعيدة ، الأصغر سناً والهائمة في حال المشاعية البدائية ، والمكتوب لها لاحقاً ، وراثة الإشعاع الحضاري المنطلق من الشرق ، بخيوطه الثلاث : الدين والعلم والمدنية .

بينما كانت آسيا الوسطى ترمي في أوروبا عبر القفقاس والسهول الشمالية ، أرتالاً متوحشة من الـ Pelasgues و Etrouss و Skif كانت المدنية والدين تتغلغل إليها من الجنوب عبر سوريا ومصر . من ناحيتها كانت مصر قد أنجزت ، مقدماً ، تطور معيشتها في ظل وحدة دينية وسياسية . فأصبح وادي النيل موقداً لتطور سحري موحد للقبائل العاملة في الزراعة ، وعلى هذا فإن قوى هذه القبائل تضافرت مشحوذة طوال آلاف السنين في سبيل كينونة وحياة المجتمع الداخلية ، وتلك راياتها في الكرنك وأبي سنبل محفورة في جوف الأرض . أما سوريا ، وعلى عكس ما ورد ، فإنها بتضاريسها المتقاطعة بالجبال المتناثرة ، والمحاطة من جهات ثلاث بالبحر والصحراء ، كانت تجعل قبائلها خارج قيد الاقامة ، تعيش حياة حرة وإن في ترحال دائم ، وهذا ما انعكس ، تفتتا في بنيتها الاجتماعية ، بدل الانصهار في وحدة مدنية أو في وحدة دينية . هنا منذ القدم يظهر أن سوريا مزجت كل الديانات ، التيوغونيا الهندية ، نزعت عنها شفافيتها الصوفية ،صوفية الشرق وتعاليم الكلدانيين والماغيين والتقاليد التي تعود لباكر عمر البشرية ، كل هذه أحيتها من جديد هبات نسيم الزفير الغربية ، فعبرت البحر إلى اليونان ، مشكلة الشغل الشاغل لعبقرية هذا البلد ، وقد عادت وظهرت في موطنها الجديد ، تارة على شكل أساطير فرحة ، وطوراً على شكل استعارات ومجازات شعرية ، وفي الحالين كأنها عمل عصامي للقبائل الهللينية .

في الوقت الذي كانت فيه الأساطير الشرقية فاكخ الهندي ، هركوليس الفينيقي ، أبولون الكلداني ، وفينيرا اللبنانية ، تتآلف على جبل الأولمب مع الأساطير الرومانو - مصرية ، كانت قبيلة إسرائيل المحافظة في انتقالها من أعالي الفرات حتى ضفاف النيل، على تقاليدها في عبادة الإلّه الحقيقي الواحد، تسرع بكسر نير الفراعنة ، وتتخلص من ربقة الحياة المستقرة في مصر ، وتعود إلى الترحال تحت إمرة

زعيمها الموحى إليه ، والذي تعرفه المصادر اليونانية بالكاهن المصري [٢] ، وتستمر في ترحالها في الصحراء العربية مدة أربعين سنة . وقد استطاع جيل قبيلة بني إسرائيل هذه ، المطهر من نجاسات مصر الوثنية والمصغي إلى كلمة الصراحة القديمة ، استطاع أن يدخل احتفالياً مع وصايا Skinia إلى سوريا ، إلى أرض الميعاد .

تابعت قبيلة إسرائيل مدة عشرة قرون ، صراعها الديني العنيد مع القبائل المجاورة ، وقد حمى عدد من الأنبياء قبيلة يعقوب ، من عدوى أمراض الوسط الوثني ، أي من التأثير الثلاثي للتعاليم المصرية ، الهندية وبلاد ما بين النهرين هذه التعاليم التي عمت سوريا وانتقلت انعكاساتها إلى العالم الغربي عبر مستعمرات سوريا التجارية . إن التبشير غريب عن تقاليد الشعب الإسرائيلي . وقد تجنب هذا الشعب وفاءً منه للقانون الأساسي لأقربائه العرب عن نقاوة النسب ، أي اختلاط مع المغلوبين ، وأقفل بدقة في وجههم أبواب أنواره . لهذا ، فإن قانون موسى ، وإن لم ينتشر في سوريا حتى في فترة جبروت الشعب العبراني مثل غيره من الأديان ، فقد حافظ على نقاوته ببقائه منيعاً أمام أي تأثير خارجي .

لكن كلمة موسى وإن كانت قد انطلقت بداية في مصر ، فإنها ومن خلال ضباب النيل انتقلت إلى بلاد اليونان ، وأنارت مدارس فيثاغور وأفلاطون ونفحت في فلسفة ذاك الوقت حياة جديدة ، أسماها آباء الكنائس لاحقاً : التنبؤ بالمسيحية (هاجس المسيحية) . ومع تبدل المقاييس عندما بدأت اليونان تعكس تعاليمها الفلسفية على الشرق ، هذه التعاليم التي أشعلت نبارس الشرق السحرية ، أخذت نظريات أفلاطون تتردد حتى في الكنيس المهتاج لطوائف الفاريسيين والصدوقين . وعندما حلت الساعة التي هجس بها الأنبياء ، تمت في سوريا ، بين الجبال اليهودية على صخرة الجلجلة ، صياغة جديدة للعالم القديم .

ظلت سوريا على امتداد ثلاثة قرون ، وقبل تمكن المسيحية من عاصمة الأمبراطورية العالمية آنذاك ، عاصمة روحية للعالم المتجدد ، تستنير بدماء قديسيها المجاهدين ، وتغمر الشرق السحري بتنبؤات العهد القديم ، بنساكها القديسين ملأت الصحراء المصرية ، وبالكلمة الإلهية بشرت في بلاد اليونان ، حيث تمركزت في هذه الفترة كل القوى الفاعلة لعالمي الغرب والشمال . مقابل الصراع الديني العنيد لشعب إسرائيل ضد القبائل السورية الصغيرة ، كان العالم القديم يتقبل باحترام التبشير المندفع من السواحل السورية سيلاً منعشاً مباركاً في كل الاتجاهات . التقاليد البالية والمذابح

(٢) سترابون ، الجزء XVI ، الفصل ٣٩ .

الهمجية التي لا تعرف الرحمة لقبائل بكاملها ، أبدلت بصبر وجلد مبشري الدين الجديد الذين لم يبشروا بكلمة الانقاذ بواسطة السيف ، بل واجهوا بحلمهم ، مثل المخلص نفسه ، سيوف مطارديهم .

غرق الغرب والشمال بإشعاعات نور القدس ، واستعدا لرسم المستقبل انطلاقاً من المأثرة الروحية نفسها. أما الشرق فكان أسير كآبة هاجس انحطاطه الروحي، ملاحظة، فقد غمر سوريا سيل الوثنية الأخير. خسرو، سرق الشعار المقدس لقديسة القدس، وأصبحت سوريا مسرحاً لأول حرب صليبية انتهت بانتصار القيصر هرقل على الكفار . لكن في هذا الوقت بالذات ، ومن رمال صحراء الجزيرة العربية الحارقة يسطع نجم رهيب .

مبشر مكة العبقري صهر بعنف خليطاً مقدساً من كل الأديان وصاغ دينه الجديد من عناصر متناقضة من الوصايا القديمة وتعاليم زارادشت وأخلاقيات الإنجيل وميول الإنسان الجنوبي الحساسة *. وقد شكلت سوريا الميدان الأول للمأثرة الجديدة. السيف كان رمز وأداة التبشير فالشعوب المغلوبة كانت تواجه اختباراً حتمياً بين الانضواء في الدين الجديد وبين الموت ، أو العبودية السياسية التي كانت تفتدى من خلالها ، حياة ابن الدين الجديد ، بأتاوة سنوية . لقد وقعت سوريا ، المقاطعة البعيدة من الامبراطورية الرومانية المهترئة ، غنيمة سهلة في أيدي الفاتحين العرب ، وما لبثت أن أصبحت في الشرق ، أتون الحياة الدينية الجديدة ، ومعسكر الجيوش المتعصبة التي اندفعت نحو الهند وآسيا الصغرى وحتى البيرينيه .

وما إن هدأت عاصفة القرن السابع ، حتى شرعت عناصر المدينة التي وهبتها العبقرية اليونانية لمنطقة سوريا ، في التفوق على الغرائز الوحشية لفاتحيه . قدمت سوريا مثلاً فريداً من نوعه في سرعة التطور الفكري . فما إن برزت الخلافة على رأس القبائل الرحل في شبه الجزيرة العربية ، في القرنين الثامن والتاسع ، حتى أصبحت مركزاً للنشاط الفكري ، وللاكتشافات العظيمة في العلوم والفنون ، وبدأت تحضر للمستقبل عناصر التربية في الغرب الذي كان آنذاك يعاني من كل أمراض الطفولية السياسية . امتدت المأثرة الروحية والمدنية للخلافة في سوريا ثلاثة قرون . في القرن الهجري الرابع هاج شمال آسيا، وتحولت قبائله فاتحة تحت تأثير قانون النبي صلعم الحربي، فتدفقت قبائل السلاجقة المتوحشون تعبث في سوريا ، بعد أن أخذت سهول آسيا الداخلية تفيض

* حديث بازيلي هنا عن الإسلام ينبع من فهمه المغلوط المبني على قواعد خاطئة كانت لدى الاستشراق الروسي، راجع المقدمة (الناشر).

بملايين من منغولييها تقذفهم في الغرب الآسيوي . وفي نفس فترة الاضطرابات هذه أنجزت الشعوب الأوروبية حملاتها الصليبية ، وجاء شبانها بالملايين يروون ميادين سوريا الآسيوية بفائض دمائهم الفتية . وهكذا غدت سوريا ضحية مستنزفة محكومة لكل الفاتحين حتى إخضاع سليم لها .

منذ دخول سليم وسوريا البائسة تعض جراحها المميتة وتلتحف مجدها الألق الغابر ، وهي تغيب كلية عن المسرح السياسي العام ، غياباً لا تلغيه بعض الحوادث الحامية في حياتها السياسية الداخلية كتلك التي رافقت ولادة الخدوجين فخر الدين وظاهر العمر . وفي وقتنا الراهن وبدافع خارجي تشكل سوريا مسرح الصدام الجديد بين الشرق والغرب . من بين الطوباويات التي تولدت إبان أحداث سوريا نتساءل : ماذا يضمر المستقبل لهذا الاقليم ؟ في مساحته التي كان يتزاحم عليها ما يقارب الـ ١٥ مليون نسمة ، يحمل بضعف حالياً ، مليون ونصف من البشر ، مفتتين بتقاليدهم ، بإقليميتهم وبدياناتهم إلى مجموعة من القبائل الصغيرة والمجتمعات المثخنة بالحقد المتبادل ، والمستعدة دوماً لأن تكون أداة القمع والانتقام لدى عملاء الباب العالي . صناعة هذا الاقليم تعيش بكسل أيامها الأخيرة . وتكتفي التجارة بتصريف منتوجات الصناعة الأوروبية ، تقايضها ببعض المنتوجات الخشنة لأرضها الأكثر خصوبة في العالم ، وبذهب وفضة الأجداد المدخرة من أيام النشاط الحرفي . مدن سوريا الساحلية ذبلت من زمن بعيد ، بعد أن ترك الأحفاد عادة الملاحة ، حرفة الأجداد الصوريين والصيدونيين الشهيرة . أما مواصلات سوريا الداخلية فهي مصحوبة دوماً بمخاطر كبيرة وبتبذير للوقت وللمال . هيهات أن تصل سوريا إلى استثمار الامتيازات الكبيرة التي يقدمها لها موقعها الجغرافي . إن التجارة الأوروبية ، وقد أتعبها الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، تتوجه من جديد نحو طريقها الكلاسيكي عبر الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . إن معالم هذا الطريق تمر الآن عبر خرائب بعلبك الساحرة ، تدمر ، البصرة ، جرش والبتراء ، التي كانت يوماً ما مدناً مزدهرة رائعة ، ينسب العرب تأسيسها إلى الملك سليمان وللعباقرة من حاشيته ، ويمكن كذلك أن ننسب تأسيسها لعبقرية التجارة ، لهرمز القديم الذي ملأ بصولجانه السحري ، الصحراء مدناً ، وكأنها خانات القوافل السائرة تحت رايته من شواطىء البحر الأسود حتى الفرات والخليج الفارسي .

في عشرينات القرن التاسع عشر بدأ الليوتنانت الانكليزي تشيزني [٣] يبحث في

---

(٣) فرنسيس تشيزني (١٧٨٩ ـ ١٨٧٢) جنرال انكليزي ، قام سنة ١٨٢٩ ، برحلة عبر تركيا ، مصر وسوريا . سنة ١٨٣٩ =

إمكانية وشروط الملاحة في الفرات . فابتنى في بيرجيك مركباً مسطحاً تتوسطه خيمة ، ووضع عليه ما يحمل من مبيعات ، واتجه مع طاقم من العرب المستأجرين ، نزولاً حسب مجرى النهر حتى بغداد ، بعد أن وضع المركب على قرب منفوخة (٤) . وقد قدّر لهذا الضابط الانكليزي في رحلته تلك أن يصارع صعوبات من كل الأنواع : تارة كان زورقه الأخرق يصطدم بالقاع في الأماكن الضحلة ، وطوراً آخر كان البدو الهائمون على ضفاف النهر يصوبون اليه رصاصهم . إلا أنه في نهاية الأمر بلغ هدفه وقدم تقريراً إلى حكومته يعدد فيه المنافع التي لا تقدر بثمن من سلوك الفرات في الطريق إلى الهند .

إن المسافة التي تفصل نهر الفرات عن خليج الاسكندرون شمالي حلب لا تزيد ، خط نظر ، عن ١٧٠ فرسخاً . وطبيعة أرض هذه المنطقة تسمح بشق طريق أو حتى مدّ خط حديدي . وبرأي تشيزني أن السفن المسطحة القعر تستطيع الملاحة حتى بغداد والبصرة ، حيث بإمكان السفن الشراعية أو حتى البواخر الكبيرة ، ايصال البضائع من هناك ، إلى بومباي وكلكوتا خلال أيام معدودة . إن هذا المشروع يبدو أفضل من الاتصال بالهند عن طريق مصر لأن الملاحة في البحر الأحمر محفوفة بالمخاطر دائماً ، أضف إلى أن البواخر كانت ملزمة ، وحتى القوية منها ، بمصارعة الرياح الموسمية على امتداد ستة أشهر .

لكن تشيزني المنتشي بنجاح تجربته الجريئة عبر الفرات أسقط من حسابه أهم العقبات التي كان عليه التفكير بتجاوزها قبل أي شيء آخر . والتي تتمثل أولاً ، بعدم ثبوت المجرى الملاحي للنهر في مستوى معين ، وارتفاع قاعه باستمرار نتيجة تراكم الطمي المحمول من مسافات بعيدة ، لدرجة أنه لدى كل رحلة في النهر يجب التقدم عشوائياً إلى الأمام ، ويجب أن نتدارك بصعوبة ، وكأن بواسطة اللمس ، خطر الرسوب في الكلس ، في أي مكان من النهر . وتتمثل ثانياً ، في أن ارتفاع منسوب المياه في النهر لا يزيد في بعض الأماكن ، وحتى في فترات امتلائه بالمياه ، عن خمسة أقدام عمقاً ، وهذا

= قاد البعثة الانكليزية التي كانت تدرس ظروف الملاحة عبر الفرات . في الخمسينات سافر إلى سوريا من جديد على رأس حملة لدراسة إمكانية مد خط سكة حديد عبر وادي الفرات . أصدر تشيزني كتباً عن رحلاته تلك إلى سوريا والعراق .

«Expedition for the surrey of the rivers Euphrates and Tigris. London . 1850 .

Narrative of the expedition 1835 - 1837» . London . 1854 .

وهناك كتب أخرى . يخلط بازيلي في تواريخ رحلات تشيزني إلى العراق . الناشر .

(٤) هذه الطريقة في الملاحة النهرية والتي يذكرها حتى كسينوفونت لا تزال تتبع حتى يومنا هذا على نهر دجلة ، وحتى عندنا على الحدود مع بلاد الفرس على نهر آراكس .

بالطبع غير كاف لتسيير السفن التجارية . أما في أشهر الخريف فيصبح النهر غير صالح للملاحة أصلاً . وتتمثل ثالثاً ، في أن طول النهر يزيد حتى الضعف بسبب تعرج مجراه ، وهذا ما يجعله أكثر وقوعاً تحت رحمة البدو . أضف إلى كل هذا عدم وجود مرافىء يمكن أن تؤسس فيها مخازن للفحم .

كل هذه العقبات تجلت سنة ١٨٤١ عندما قامت باخرتان بريطانيتان بقوة ٥ ـ ١٠ أحصنة ، بالإبحار نحو أعالي النهر من البصرة حتى بيرجيك . وفي أغلب الأحيان أجبرتا مداورة على قطر بعضهما تحاشياً للرسوب في كلس النهر ، لدرجة أن واحدة منهما ، استهلكت بكليتها في طريق العودة . بعد هذه التجربة الفاشلة تراجعت فكرة الطريق إلى الهند عبر سوريا ، وبدأت التجارة البريطانية ببناء مسالك لها عبر الأراضي المصرية . وهكذا فقدت سوريا الأمل الأخير بعهد صناعي جديد . وقد لا تكون العقبات الطبيعية هي السبب في ترجيح كفة الطريق عبر مصر ، إذ أن العواصف السياسية الهادرة دائماً في أفق سوريا ، بدت أكثر خطراً على التجارة من أمواج البحر الأحمر . إضافة إلى أن المصريين كانوا قد اشتروا موقعاً مهماً في الجزيرة العربية . رأس عدن الذي يقفل البحر الأحمر مقابل القارة الافريقية ، والذي يشكل مخزناً للفحم وباباً لتصريف المصنوعات الحرفية داخل شبه الجزيرة العربية نفسها .

إن الاضطرابات التي كانت تغلي في سوريا تحت الحكم السلطاني ، حرمت هذا الاقليم من أفضل هبة قدمها المصريون ، ألا وهي أمن المسالك الداخلية إذ أنه كان باستطاعة القوافل ، بفضل جهود ابراهيم باشا ، أن تتوجه عبر الصحراء من بغداد إلى دمشق محملة بالبضائع الهندية والفارسية ، وأن تعود بالمصنوعات الحرفية الانكليزية المباعة في بلاد ما بين النهرين والبحرين وإيران الجنوبية . سنة ١٨٤٥ سطا البدو على قافلة من ثلاثة آلاف جمل ، كانت في طريقها من دمشق إلى بغداد ، فنهبوا ما يقدر بالملايين . هذه الحادثة أجبرت التجار المتوجهين إلى بغداد على الاكتفاء بالطريق عبر حلب والموصل وهي الأطول بثلاثة أضعاف من الطريق المباشر من دمشق عبر الصحراء ، لكنها الأقل خطراً . وهذا ما أدى بالطبع إلى خراب التجارة الدمشقية .

الفصل التاسع عشر

إعادة سلطة الباب العالي إلى سوريا ـ مطاردة المسيحيين ـ تقسيم سوريا إلى بشاليك ـ أغلاط الأتراك المتتالية ـ المداخيل والنفقات ـ ادراج المعاهدة التجارية ١٨٣٨ ـ استعراض النظام التجاري التركي والملحق النظري عن التجارة الحرة ـ القضاء على الاحتكارات ـ النظام الاداري الجديد واتجاهه ـ تأثير الاصلاحات على التطور النفسي **والفكري للقبائل السورية** .

* *

كنا قد أشرنا إلى الأخطاء الكبرى التي ارتكبها الحلفاء في عملياتهم الأولى على الساحل **السوري** ، والتي تمثلت بتوزيع السلاح على السكان **ودعوتهم** إلى العصيان ، وبالوعود التي كالها الباشاوات الأتراك والضباط الانكليز للقبائل السورية وإغرائها بكل الامتيازات غير القابلة للتنفيذ . وهكذا ، وبعد إقرار السلطة التركية من جديد في سوريا ، اشتعلت **الرعنات** الفوضوية التي كانت قد أخمدت بصعوبة ، طوال سبع سنوات من الادارة المصرية .

تبدت هذه النزعات الفوضوية بادىء الأمر في ملاحقة الأقلية المسيحية في مناطق الأكثرية المسلمة . وقد سبق وأشرنا في حديثنا ، إلى أن تسامح المصريين مع المسيحيين أثار حفيظة المسلمين وأذكى لديهم التعصب الديني . وتحدثنا كذلك عن المصائب المحتملة التي كانت تهدد المسيحيين في فترة معركة النزيب . وحتى إبان الحملة السورية ، وبالرغم من أن الرايات السلطانية المتقدمة ، كانت تتضلل بإعلام المسيحيين ، فإن المسلمين كانوا يستقبلونها ، ليس بمطاردة المسيحيين وحسب ، بل وكل التابعين لغير دين الإسلام . حتى أن الحجاج الفرس ، وعددهم ألفان ، والذين أموا دمشق في طريقهم إلى مكة ، لم يجرؤوا بسبب انشقاقهم المحمدي على الظهور بثيابهم الوطنية خوفاً من الشتائم والملاحقات الدموية لعامة دمشق ، الذين كانوا يتفجرون **تعصباً دينياً، ملاحظة، وهم في قمة فرحهم لتخلصهم من إبراهيم باشا. محتفلة باسترجاع** انفلاتها الحر القديم ، عبرت سوريا عن إخلاصها للسلطان بإنزال اللعنات الدينية على

ابراهيم وعلى ترتيباته المدنية وإصلاحاته الادارية . وعلى التسامح الديني الذي أدخله وأمر به .

تراكض المسيحيون من كل صوب على القنصليات الأوروبية طلباً للحماية ، وكان القسم الأكبر من نصيب القنصلية الروسية . لقد شكل تهاون وعجز الحكام العثمانيين الجدد ومسايرتهم لنزوات العامة المسلحة تملقاً ورغبةً بكسب ثقة السكان ، مبرراً لتدخل عملاء الدولة الحليفة (الروسيا) ، في شؤون الادارة الداخلية لسوريا ، عندما تحتم درء المصائب التي باتت تهدد المسيحيين . إن التدابير الحازمة الجريئة المتخذة من قبل القنصليات الأوروبية تشكل في نواح كثيرة خرقاً لحقوق السلطنة الشرعية ، لكنها في نفس الوقت مبررة تماماً نظراً للسلوك المجرم لممثلي هذه السلطنة . في كانون الثاني ١٨٤١ ، وبعد إلحاح المفوضية الروسية في القسطنطينية ، صدرت فرمانات حماية المسيحيين السوريين والدفاع عنهم ، مع تأكيد جديد لتلك الامتيازات التي تمتعت بها الكنيسة إبان الادارة المصرية ، وخاصة في القدس إذ منعت كل أنواع الجباية من الأديرة والحجاج . لقد حرمت هذه الفرمانات بالرغم من عدم وضوح صيغتها الطنانة ، باشاوات الباب العالي من أهم مورد مفتوح في هذا الاقليم ، كل ذلك إكراماً لمصلحة الحلفاء الأوروبيين ، الذين كانوا على يقين ، وليس في الأمر افتئات ، بأن هبّات التعصب الديني لم تكن لتغضب الحكومة السلطانية ، لأن هذا التعصب هو ضمانة كره المسلمين السوريين للسياسة المصرية . ولكن الحقيقة التي بلغها إبراهيم باشا ، وقصر عن فهمها الباب العالي وممثلوه في سوريا ، هي أن تعصب العامة ، ومع التسليم بأنه يصيب التابعين للديانات الأخرى غير الاسلامية ، كان في نفس الوقت يزكي لدى هذه العامة التقاليد الفوضوية للفترات السابقة والتي تشكل عقبة في وجه أية سلطة . القناصل الأوروبيون من ناحيتهم ، وقد تمسكوا بالمعنى المباشر للفرمانات ، بدؤوا يناضلون بحزم أكثر ضد سلطة الباب العالي ، بحيث لم ينقطع منذ ذلك الوقت تدخل الدول الأوروبية الكبرى في شؤون الادارة العثمانية ، دون أي اكتراث لامتعاض ولوم الباب العالي .

قسم الباب العالي سوريا من جديد ، إلى بشاليك حسب الطريقة القديمة ، ناسفاً بذلك نظام الادارة المصرية المتطابق كلياً مع الخصائص الجغرافية والسياسية للاقليم . بموجب التقسيم الجديد فتحت الحدود القديمة لإيالة حلب ، سناجق طوروس شكلت بشليك أضنة . سنجق طرابلس دخل في عداد إيالة صيدا وقد جعلت بيروت عاصمة لها . القدس مع كل فلسطين ، شكلت سنجقاً خاصاً يديره مرمران ، أما باشوية صيدا

فأصبحت تحت إشراف باشا برتبة مشير .

الإدارة الجديدة في كل إقليم كان لها دور كبير في استقرار الأوضاع الداخلية أو في اضطرابها . الصفات الخاصة بأسد باشا ، والي حلب ، عدو انكشارية ادريانوبول ومبيدهم ، أنقذت هذا الجزء من سوريا من الاضطرابات والهزات العنيفة . في دمشق عُيّنَ في البداية الحاج علي باشا ، الذي ما لبث أن نقل إلى جدّة لإدارة مكة والمدينة ، مفسحاً في المجال أمام نجيب باشا ، أحد أكثر الأفنديين ثقافة ولطفاً . وهو من رعيل الباشاوات التقليديين السالفين ، عاشق للأدب والشعر ، وقد أتلف من عمره حتى الآن ما أتلف ، موظفاً في وزارات الدولة دون أن يكتسب أية مواهب مباشرة في فن الادارة . إضافة إلى كل ذلك ، حمل نجيب باشا في إدارته كابوس ذكرى باشا دمشق الأخير سليم الذي نتفته العامة قبل دخول المصريين . وصل نجيب باشا إلى دمشق واللعنات تنصب على سياسة ابراهيم باشا وبدعه التي وجد فيها الشعب المؤمن ، كل ما لحق بالمسلمين من إجحاف . ذاع صيت الباشا الجديد في العاصمة كمجدد ، أما في دمشق فقد لبس قناع المراءاة والنفاق أملاً بكسب الرأي العام وبتقوية نفوذه . لكن ما نجح الباشا الجديد بتحقيقه كان الايعاز لعامة دمشق بالوقاحة والثقة الزائدة بالنفس . وقد أدرك هذا الباشا خطأه أخيراً في خريف ١٨٤١ ، عندما انعكست الحروب العصبية اللبنانية ، ردات فعل ومساوىء طائشة في دمشق ، عندها فقط عرف الباشا حقيقة كان قد أدركها ابراهيم باشا ، وهي أن التسامح الديني وخنق التعصب الديني ، عناصر تشكل الضمانات الفضلى في سوريا ، لنفوذ السلطة الشرعية وامتدادها [١] .

إن الشريط الساحلي السوري من اللاذقية حتى غزة ، مروراً بلبنان وجبال الجليل واليهودية ، منطقة تحمل في أحشائها منذ القدم بذور الاضطرابات السياسية مع أساطير

---

(١) تركت نظرية إبراهيم باشا القائلة بالتسامح الديني أثراً كبيراً في تفكير نجيب باشا . أثناء وجودي تلك الفترة في دمشق تحادثت معه بخصوص تأديب المؤمن الذي كان يهدد بحرق الكنائس في دمشق نفسها . خلال محادثتنا جلبوا للباشا مسيحياً ، كان المسلمون قد أشبعوه ضرباً لأنه ظهر في الأسواق بعمامة بيضاء ، وكأنهم يريدون تجديد العادة القديمة بمنع المسيحيين من لبس الثياب الزاهية . الرجل المسكين أبدل ، بعد تأديبه ، العمامة بمنديل أسود . وبعدما استقصى نجيب باشا عن هذا الحادث أمر المسيحي المسكين ، وأمام كل رجال الحاشية بخلع المنديل الأسود واعتمار العمامة البيضاء ، وأمر كذلك بالاقتصاص من الجناة المذنبين . فصرخ أحد هؤلاء في فورة غضبه بأنه لا يعترف بوكيل السلطان الباشا حامي الكفار . أمر الباشا بتقييده ونقله إلى بيت المجانين ، وبجلده ، بعد عودة هدوئه إليه ، ٣٠٠ جلدة . ثم أنه وبطلب مني قيّد بالأصفاد زعيمين مسلمين لقريتين حرق العامة فيهما كنيستين ، وأودعهما السجن حتى رممت الكنيستان بجهود المسلمين وعلى نفقتهم . هذه الأمثلة كانت ذات تأثير في دمشق ، إذ أنها أنقذت المسيحين من الإساءات ، وأنقذت كذلك سلطة الحكومة ، لا بل أنها ساعدت حتى على جمع الأتاوات . لم يكن نجيب باشا ذا تجربة إلا أنه كان يتمتع بذكاء حاد .

متوارثة عن النزاعات بين ساكنيها . وفي هذه المنطقة تأججت النزوات الشعبية إلى أقصاها في الحرب الأخيرة ، تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية . فقد ظهرت ، وبوضوح ، أغلاط السلطات الجديدة ، التي كانت لغبائها تقطع الطريق على نفسها بإثارتها زوابع الفوضى دون التفكير بعواقب الأمور وانعكاساتها . إلى هذا ، نضيف الفشل ، في البدء ، في اختيار باشاوات أكفاء لحمل أمانة ومسؤولية إدارة إيالة صيدا وفلسطين ، فقد تعاقب في سبع سنوات ثمانية باشاوات على بيروت . ومثل هذا كانت الحال في القدس .

لم يكن الأتراك من ناحيتهم يملكون المعلومات ، ولا التجربة أو القدرة الكافية لتشكيل إدارة جديدة في سوريا بمبادرة ذاتية . كان بمقدورهم الاستفادة إلى حد كبير من التجربة المكتسبة عن المصريين ، لو أنهم حافظوا على التنظيمات المدنية المتطابقة بمضمونها وأهدافها مع قواعد ونوايا السلطة الأمبراطورية . على العكس من ذلك عمل الأتراك سريعاً على تهديم كل شيء باسم التنظيمات الخيرية ، أي الحقوق الممنوحة من قبل السلطات في بيان كلخانة ، مع العلم أن مثل هذه الحقوق لا وجود لها إلا على المستوى النظري لا غير ، أو بالأصح أنها لم تتعد الوعود بالأصل . وهكذا بدلاً من قيام السلطات التركية بجردة مالية لإمكانيات الاقليم الجديدة ، راحت تقضي على كل التنظيمات الاقتصادية المصرية . ونحن لم نتوسع هنا في ذكر إساءة استعمال السلطة من قبل الموظفين فور إعادة الأتراك إلى سوريا . كان الجيش المصري المؤلف من سبعين ألف مقاتل ، يمتلك مخزوناً غذائياً يكفيه سنة كاملة ، وقد تخلى عنها جميعها عند انسحابه . من كل هذا المخزون لم يجد الجيش التركي وهو المؤلف من ١٥ ألف رجل فقط ، ما يكفيه من المؤونة سوى لنصف سنة فقط . أهراءات انطاكية الرائعة نهبت وأفرغت ، ولم يتبق من كل ما عمره المصريون سوى أبنية عارية . حتى الأراضي التي ملأها إبراهيم بالسكان أقفرت عن بكرة أبيها .

عند القضاء على كل التنظيمات المدنية التي أقرها المصريون ، تأكد الشعب من أنه لن يدفع بعد الآن أية أتاوة عدا أتاوة الأرض (ميري) ، التي كانت مفروضة منذ القدم على كل سنجق ، والتي أصبحت بعد سقوط العملة تساوي ١٢ / ١ من قيمتها السابقة . كان الباب العالي يريد ، من خلال هذه التدابير الرعناء ، ملاطفة الشعب وتعزيز سيطرته على سوريا ، بتدعيم تعاطف قبائلها مع الادارة السلطانية . كان من الأفضل إنجاز هذا الهدف بالتسامح في دفع مكسورات الضرائب المتأخرة أو برفع الأتاوات لمدة نصف سنة أو سنة دون التراجع عن حقوق السلطة الشرعية .

عندما نضبت الأموال ، نكث الأتراك بوعودهم ، وعادوا تدريجياً إلى النظام الضرائبي المصري ، وإلى طريقتهم السابقة ، بجمع العديد من بنود الأتاوة على شكل التزام . كذلك أعيدت ضريبة الرأس أو الفردة والتي كنا قد أشرنا إليها (في الفصل السابع) ، مع حسم الثلث من قيمة الجباية المصرية . لم تستطع الحكومة التركية ، حتى إقرار الموازنة بين مداخيل الضريبة في الاقليم وبين نفقات إدارته ، فقد ابتلع هذا الاقليم من الخزينة الحكومية خلال سنوات من إقامة الجيش التركي الذي أعاد احتلاله ، ما يزيد عن ٣٠٠ ألف كيس (حوالى ٩ ملايين روبل فضي) ، إضافة إلى أن المكسورات الضرائبية ، نتيجة ضعف الادارة كانت تزداد عاماً بعد عام حتى وصلت عام ١٨٤٧ إلى ما يزيد على ١٤٠ ألف كيس . وحدها مداخيل الجمارك في ظل الادارة التركية الجديدة ازدادت مقارنة مع مداخيلها إبان الحكم المصري . وبالطبع لا ننسب هذه الزيادة هنا إلى ازدهار لحق بتجارة وصناعة الاقليم ـ وهذا ما لم يحصل أصلاً ـ وإنما تعود إلى التعرفة الجمركية الجديدة التي تحددت على أساس المعاهدة التجارية عام ١٨٣٨ والتي قضت على أي احتكار في تجارة الصادرات ، وعلى الرسوم الداخلية على الحاجيات المستوردة .

إن هذه المعاهدة تفتح صفحة جديدة في تجارة الأمبراطورية العثمانية مع الدول الأوروبية ، وتشكل أحد أهم الاصلاحات الحكومية ، لذا يتوجب إلقاء الضوء على أسسها .

في معاهداتها التجارية المبكرة مع الدول الأوروبية ، كانت تركيا قد فرضت على تجارتها الخارجية من صادرات وواردات ، وبدون أية شروط ، رسماً يبلغ ٣ ٪ . وهكذا طبقت في الشرق أكثر النظريات الجديدة جرأة عن حرية التجارة الشائعة حالياً في المجتمع الأوروبي تحت اسم Free trade . إن الفقر العام ، في دولة وهبتها الطبيعة كل ثروات الأرض والمناخ ، وإعياؤها وتقوض تجارتها القديمة ، التي كانت ترى في أوروبا ، **منذ القدم، دافع ضرائب لتركيا. إن هذه الأمور تجيب ببلاغة على مثل تلك النظريات الكاذبة، التي كغيرها من النظريات الطائشة، ينسى المدافعون عنها والمبشرون بها ظروف الاقليم الخاصة، ومستوى واتجاه التطور الصناعي للمجتمع، المأخوذ بالتعاليم الجذابة .**

لن ننسب هنا هبوط الزراعة ، وقلة المنتوجات وتناقص عدد السكان وكل مساوىء النظام الحكومي التركي ، ملاحظة ، إلى نظام التجارة الحرة . ولكن ، بماذا نفسر التراجع الكامل للمصنوعات الحرفية ، التي كانت ترعاها الحكومة ، والتي كانت بسبب احتمائها في المدن ، أقل معاناة ، أو أنها لم تعان أصلاً من نتائج الاضطرابات السياسية التي كانت

تعصف بالاقليم ؟ قبل هذه الفترة بأربعين سنة ، كان يعمل في المدن السورية ما يزيد على ٥٠ ألف نول للمنسوجات الحريرية ونصف الحريرية والديباج . أما حالياً ، فبالكاد يصل مجموع الأنوال إلى ٢٥٠٠ نول . لقد استبدلت في كل تركيا منتوجات الشرق المتينة والجميلة بالدمّور (البفتة) المانشسترية ، التي زينت برسوم وتصاوير تتناسب والذوق المحلي . إن خسائر سوريا في هذا المجال تفوق التصور ، فلو افترضنا أن الربح الصافي ليوم عمل النول الواحد ، يعادل ٧٠ كابيكا فضياً (الكابيك ١/٢ من الروبل) فإن خسارة سوريا تصل إلى ٣٣ ألف روبل فضي مدخولاً صافياً . وبالطبع فإن هذا المبلغ يتضاعف إذا ما أخذنا بالحسبان الدورة التجارية للسلعة الصناعية المحلية ، تحضير المواد الأولية ، والصباغ وغير ذلك . . . في جبال اليهودية ونابلس ولبنان ، كان يصنع الكثير من خيوط النسيج الورقية . في نهاية القرن الماضي مثلاً ، كان يصدر سنوياً من يافا وعكا ثلاثة أو أربعة أحمال من الجنفاص ، الذي كان يباع في المستعمرات قمصاناً للزنوج . حالياً يبيع الفلاحون قطنهم بمبلغ يصل إلى نصف مليون روبل ، في الوقت الذي يدخل فيه إلى سوريا ما يقدر ثمنه بثلاثة ملايين روبل من البضائع الانكليزية : القطن المبروم والجنفاص والبفتة . إن هذه الأرقام على صغرها هي بنظرنا أكثر فصاحة ووضوحاً من كل المناقشات النظرية عن حتمية التوازن بين إنتاجية واستهلاكية أي بلد ، وعن الأزمات المؤقتة في كل تجارة . إن الأرقام ذاتها تغدو أكثر حدة لدى رؤية الفقر المتزايد في صفوف عائلات الصناعيين السالفين في حلب ودمشق . إن دعاة التجارة الحرة ، المنفلتة بدون حساب ، ينصحون الصناعيين ، وقد خربت بيوتهم ، بكسر نول الآباء والأجداد والعودة إلى المحراث ؛ ولكن هل يملك مثل هذا الطلب إمكانية التحقيق في الواقع العملي ؟ هل باستطاعة أولئك الدعاة أن يسوقوا ، ولو مثلاً واحداً عن تحول سكان نشأوا في ظل صناعة حرفية إلى عاملين في الزراعة ؟ لن يقع ضحية الفقر في هذه الحالة أكثر من جيلين أو ثلاثة أجيال !

عقدت تركيا مع الدول الكبرى ، كل على انفراد ، وعلى أساس القاعدة الثابتة للرسوم العامة ٣ ٪ ، تعريفات تتغير بتغير ثمن السلعة وتقلب قيمة العملة . وفي هذه الأثناء ، مع شح المداخيل الحكومية ، في البلد المحكوم بفقر متزايد ، ومع تزايد المآسي الداخلية والخارجية ، احتاجت الدولة إلى المال . في البداية ضاعفت الرسم الجمركي على التجارة الداخلية . وبتعارض مع روح المعاهدات فرضت الرسوم على السلع الأوروبية المستوردة ، حتى عند نقلها من مرفأ إلى آخر . ورغم احتجاجات السفارات الأوروبية على هذه الخطوات ، فقد أصر الباب العالي على تطاولاته تلك مفسراً بنود

المعاهدات وفق ما يراه متناسباً مع مصالحه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، أخذ الباب العالي بتطبيق الاحتكارات على مواد معينة ، وقد أخذ نظام الاحتكار هذا ينتشر تدريجياً حتى أصبحت الحكومة في السنوات الأخيرة من عهد محمود تشتري تقريباً كل الصادرات وبالأسعار التي تحددها ، والتي كانت مجحفة غالب الأحيان بحق المنتجين . وفي بعض الأحيان كان يسمح للتجارة الحرة بشراء هذه المنتوجات مباشرة من أصحابها ، لكن هذا كان يستلزم فرمانات خاصة ، ويوجب على التجار دفع الرسوم التي كانت تفوق ثمن السلعة ، علاوة على التعريفات الجمركية المفروضة أساساً ، انطلاقاً من هنا كان كل باشا يسيطر وبشكل اعتباطي ومزاجي ، على صادرات مقاطعته ، وهذا ما أدى إلى الفقر والافلاس على صعيد الدولة . أما على صعيد المزارع ، الذي كان مجبراً على التنازل عن إنتاجه للملتزم أو الباشا بأبخس الأثمان ، ودون أن يحصل في أغلب الأحيان على مكافأة عن عمله ، فقد تخلى عن الأرض وترك حقوله دون زراعة مكتفياً بالخبز اليابس قوتاً . ومثلما قتلت حرية الاستيراد غير المحدودة الصناعات الحرفية ، فإن التدابير المانعة والالتزامات والاحتكارات على المواد الأولية قتلت الانتاجية نفسها .

لم يكن نظام الاحتكار في شموليته وقسوته مطبقاً في أي من المقاطعات العثمانية ، مثلما كان مطبقاً في مصر ، إذ كان باستطاعة الباشا أن يسخر الفلاحين في معالجة أرض وادي النيل الخيرة ويزيد انتاجها عشرة أضعاف ، فيضاعف كذلك مداخيله بحيث تصل إلى ٨٠٠ ألف كيس مصري (حوالى ٢٧ مليون روبل فضي) .

منذ القدم انتفضت التجارة المصرية ضد الاحتكارات والرسوم الجمركية الداخلية . وبدأت الحكومة تدرك العيب الأساسي ، المميت للصناعة الوطنية ، بتحويلها الحقول المعطاء إلى أراض بور ، رغم أنها شكلت لفترة ، منبعاً مؤقتاً لأرباح الخزينة . على أية حال ، إن محاولة الحد من الاحتكارات في الأمبراطورية ، هي في أغلب الظن قضاء على المنبع الأساسي لثروات محمد علي وتحجيم لقوته العسكرية والاقتصادية . كان هذا سنة ١٨٣٨ ، أي في تلك الفترة التي كانت فيها سوريا شغل محمود الأهم والأوحد .

عقدت المعاهدة مع انكلترا أولاً (٥ (١٧) آب) ، بحجة التجديد الدوري لتعريفاتها ، ثم عقدت تالياً مع بقية الدول الأخرى . وكانت تقضي برفع كل الاحتكارات وكل الجمارك الداخلية في الأمبراطورية ، وكذلك زيادة الرسوم الجمركية على الصادرات بنسبة ٩ ٪ ، وعلى الواردات ٢ ٪ ، والسماح للسلع المستوفاة عن الرسوم الجمركية ، بالانتقال بحرية من سوق إلى آخر أو حتى أن تصدر إلى الخارج . وهكذا

بـدلاً من الرسم السـابق ٣ ٪ ، استوفيت عـلى السلع المستوردة رسـوم ٥ ٪ ، والسلع المصدرة ١٢ ٪ .

مقارنة هذه النسب الجمركية تظهر مفارقة غريبة ولا شك ، لأن كل دولة تجهد في تسهيل تصريف منتجاتها وتثقل بالرسوم أساساً ، السلع المستوردة . وتبدو هذه المفارقة أشد غرابة ، لو تذكرنا بأن تركيا تمد الدول الأخرى حاليـاً بالمنتـوجات الخـام وتحصل بالمقابل على مصنوعات مانيفاكتورية . مفارقات تبدو غريبة ، إلا أن للأتراك مفاهيمهم الاقتصادية المغايرة . معاهدة ١٨٣٨ تشي بخلفية تركية تتمثل بالعداء لمحمد علي ، فهم الأتراك الأساسي آنذاك كان كسب الموقف الأوروبي إلى جانبهم ، وإثارته بالمقابـل ضد الباشا المصري . ولنتذكر أن محمد علي في هذه الفترة ، وخوفاً من خطر الإفـلاس ، لم يذعن للفرمان القاضي برفع الاحتكارات .

كنا قد ذكرنا بأن محمد علي لم يدخل مبدأ الاحتكار إلى سوريا ، بل وأكثر من ذلك منح التجارة السورية حرية أوسع برفعه التدابير التركيـة التي كانت تُكبـل ، قبل مجيء المصريين ، انطلاق تجارة المنطقة . إن قانون تسخير القرويـين كما كـان يحصل في مصر بهدف زيادة الانتاجية ، مستحيل التطبيق في سوريا لأسباب تتعلق بالظروف السياسيـة آنذاك وبطبيعة الأرض السورية نفسها . بقي فقط جذب الأهالي إلى الزراعة عن طريق تقديم الإغراءات والامتيازات . لهذا السبب نفسه لم يصادف إدخـال النظام التجـاري التركي الجديد بموجب معاهدة (١٨٣٨) أية صعوبات ، وقد أغدق على الأتراك مدخولاً يساوي أربعة أضعاف المدخول الجمركي الذي كانت تجبيه الادارة المصرية . (أي حوالى ٢٠ ألف كيس) .

أما في ما يتعلق بالسلطة المدنية ، وقد سبق وفصلنا في الفصل الأول نظام الالتزام في إدارة المقاطعات والسناجق ، فإن الاصلاح السياسي المبـاشر للحكم الحالي يتمثـل بعـدم إشراف البـاشـاوات والمتسلـمين ، إن عـلى القـطاع الاقتصادي أم عـلى القـوة العسكرية . فقد أصبح هؤلاء موظفين يـأخذون مـرتبات بـدلاً من استخدام مـداخيل الـدولة لـدفع كميـة المال المشتـرطة إلى الخـزينة . في كـل بشليك كـان يعـين مـوظفـاً خاصاً ـ دفتردار ـ للاشراف من قبل وزارة المالية على الدخل والانفاق . وفي كل سنجق يوجد محصل لضبط الحسابات (مع ملاحظة بقـاء الجبايـة في عدة سنـاجق حسب نظام الالتـزام السابق) . محـاولات البـاب العـالي في القضـاء عـلى الالتـزام قليلة الحظ من النجـاح ، إذ أن موظفيـه من الوزراء وحتى آمـري السنـاجق ظلوا يتـابعـون استغـلال الالتزامات في سبيل جمع أموال طائلة بتآمرهم مع الملتزمين واقتسامهم الأرباح سوية

أحياناً كان الباشاوات يشترون الالتزام باسم آخرين . من السهل ، والحال هذه ، تصور أية مضايقات مخيفة تحل بالشعب عندما يشترك الحاكم نفسه في التزام جباية العشر من المنتوجات الزراعية مثلاً ، خاصة وأن نظام الالتزام هذا ، بجوهره وطريقة التحصيل فيه ، يشكل في تركيا ميداناً واسعاً لإساءة الاستعمال .

القوة الحربية في سوريا ، كانت تتشكل من فيلق عربي منفصل (عربستان أوردوسو) وهو أحد فيالق الامبراطورية الخمسة ، تحت قيادة سرعسكر يتعلق مباشرة بوزير الحربية . وكانت السلطات المدنية تتوجه إليه من ناحيتها في حالة احتياجها لمؤازرة مسلحة . أما تشكيل الشرطة المدنية والريفية ، فكان يستلزم الاحتفاظ بعسكر غير نظامي أو بسكان مسلحين مشاة وخيالة . وبين جميع المقاطعات العثمانية كانت سوريا وحدها ، حتى تلك الفترة ، معفية من التجنيد المدني ، وكأن السلطات التركية كانت تريد من هذا الموقف تهدئة روع الشعب بعد حملات التجنيد المصرية المكثفة ، أو كأنها كانت تحاول بتنازلاتها تلك افتداء هفوات ممثليها في سوريا (٢) .

رغم محاولاته تطبيق مركزية متشددة ، لم يرفع الباب العالي حتى الآن قاعدته الادارية العتيقة ، والتي تقضي بأن تخضع كل الرتب الادارية المدنية في الولاية ، لاختيار وإشراف الباشا نفسه . وهكذا كان تغيير الباشا يستتبع استبدال الوجوه والحاشية القديمة ، بوجوه رجالات الباشا الجديد وزمرته ، أو بوجوه محلية ، خاصة في السناجق البعيدة عن مركز الولاية . فالقسم الأكبر من سناجق ولاية صيدا مثلاً ، والتي تضم من ثلاثين إلى أربعين سنجقاً ، وخاصة سناجق المناطق الجبلية ، كان يخضع لزعماء محليين يتطلعون باستمرار لاستعادة حقوقهم السياسية والاجتماعية القديمة التي أهدرتها الادارة المصرية السابقة . إن محاولات الزعماء المحليين هذه ، ومهما كانت تستحق من اللوم لعرقلتها الترتيبات الحكومية الهادفة إلى تأديب الحكم الاقطاعي المطلق ، كانت مبررة بدافع من عجز ولاأخلاقية الموظفين الأتراك المختارين من بين خدم الباشا وحشمه . وهذا بالطبع ما كان يساعد في نواح كثيرة على نجاح نضال اقطاعيي سوريا ، المكشوف حيناً والخفي حيناً آخر ، والعنيد النشيط في كل الأحيان . وبالتأكيد ، يمكننا أن نتصور الفوضى الادارية الدائمة في ظل التبدل الدوري ، السنوي تقريباً لهؤلاء المتسلمين من حاشية الباشاوات ، الحكام الرحل ، المتجولين من مقاطعة إلى أخرى مع أي باشا جديد .

(٢) بدأ التجنيد الإجباري في سوريا (سفر برلك) عام ١٨٥١ .

في سوريا ، وتحت تأثير الاصلاح السياسي والاداري ، أخذت الالتزامات القديمة ، شكلاً آخراً ، الربا . أما دسائس النبلاء والعداوات العائلية وصراع الأحزاب ، فإنها بقيت بنفس المظهر الذي كانت عليه في المرحلة السابقة من تاريخ سوريا . ولا بد من القول هنا ، بأن لتجربة ودروس المرحلة المصرية ، وأكثر من ذلك ، لاتجاه السلطة الحكومية نحو إقرار مركزية شاملة ، ولتضييق حقوق وكلاء السلطان في المناطق ، إن لهذه العوامل جميعاً فعل الانقاذ في هذا البلد الفوضوي ، بغض النظر عن الفشل أو النجاح الذي كانت تصادفه تلك الترتيبات ، وبغض النظر عن الهفوات التي ما زالت تدفع حتى الآن محاولات الأتراك في سوريا . إن السلطة الحكومية لم تعد تظهر بشكلها المتوحش السابق ، فلا مذابح ولا شنق اعتباطي ولا ابتزاز مالي ولا غرامات . وإذا كانت الادارة الاقطاعية المحلية بالاضافة إلى العادات الشعبية ، تصر على إساءاتها ، فإننا وإن على المستوى النظري ، نجد بأن الأفكار عن حقوق المواطنين تنتشر عاماً بعد عام والشعور بوجودها يتغلغل شيئاً فشيئاً في كل الطبقات الاجتماعية .

قد تكون المنطلقات الانسانية التي يعتمدها الباب العالي حالياً في إدارة سوريا ، لا تتناسب مع الحياة الأخلاقية للاقليم ، إذ أنها أوجدت عند الناس ، إضافة إلى أخطاء ممثلي الباب العالي ، انطباعاً عن تدهور قوته وجبروته . لكن من الخطأ على أي حال أن لا نرى فيها نجاحاً إنسانياً مثيراً للسعادة . من هذه الزاوية تبقى الادارة التركية الجديدة ، أفضل من سابقتها الادارة المصرية القاسية . ولنذكر هنا ، بأن أي مصلح عبقري يتخطى دائماً حدوده الطبيعية استجابة لتوجهاته وتطلعاته الشخصية ، يقدم على ذلك انطلاقاً من فورة نجاحه الأول وألقه ، أو انطلاقاً من شعور هذا المصلح من أن أي توقف يحكم عليه بالموت .

ابتداء من سنة ١٨٣٩ ، جهد الباب العالي في تحجيم سلطة وكلائه ، ناسباً ضعف الامبراطورية ونضوب خيرات أكثر مقاطعاتها ازدهاراً إلى تعسف الباشاوات . وقد أعرض هو نفسه عن الاستبداد تمشياً مع مرونة خطي شريف كلخانة ، وفوق ذلك فرض على وكلائه في المقاطعات ، وعلى السلطة التنفيذية بشكل عام ، قيوداً تشل من حركة هؤلاء ، خاصة عندما كانت هذه السلطات تفتقد مباركة الباب العالي نفسه .

هذه الصيغة الادارية الجديدة ، أوصلت بدورها شراً آخر ، فقد أدت إلى إضعاف الأساس الذي كانت تقوم عليه السلطة كقوة في الأمبراطورية . إن العنصر الأساسي لقوة الأمبراطورية العثمانية الداخلية ، منذ تأسيسها وحتى أيامنا هذه ، لم يكن يكمن في

القانون ولا في الاخلاص ولا في حب الشعب ، وإنما كان يكمن في الخوف فقط . وحده الخوف من اسم السلطان كان يصهر في بوتقة واحدة هذا الحطام غير المتجانس الذي تتألف منه الامبراطورية . المبدأ ذاته ينسحب على نظرة المقاطعة لوكيل السلطان الذي يحتفظ حتى أيامنا هذه بخضوع الشعب عن طريق الخوف وحده . وغالباً ما كانت تسيل الدماء ، ويسمع عويل المحكومين بالموت ، ليس بسبب قسوة الباشاوات ولاأخلاقيتهم ، وإنما بهدف إخافة الحشود المكتظة . وجهت الحربة الروسية ، ومنذ أيام كاترين طعنات قاتلة لهذا العنصر الرهيب . كذلك أضعفته المآسي الداخلية التي وصمت عهد محمود ، من هنا كان لزاماً على هذا السلطان الفتى أن يفتش عن عنصر جديد يبعث قوة ولحمة في بنيان السلطنة الداخلي ، المهدد بالانفراط ، وأن يدعو إليه القلوب والعواطف لكي يفتدي بادارته الأبوية الجديدة، قساوات أجداده التي امتدت قروناً . وهذا الاصلاح بدون أدنى شك ، هو أكثر جذرية وصعوبة من كل ما أنجزه والده .

بهذا المعنى فهمت أوروبا خطي شريف كلخانة ، وقد أشرنا إلى أهمية هذا الأصلاح المجيد ومعناه الأساسي الذي اعتمده رجالات أوروبا على حساب قوة السلطان . عواقب هذا الاصلاح على امتداد الامبراطورية ، والأزمات السياسية في سوريا ، والتي سنشير إليها فيما بعد تبرهن صحة رأينا الأكيدة . نحن لا نخاف أن نتهم ، على الأقل بالتشاؤم من طرف أولئك المراقبين الذين يستطيعون تقييم الاصلاحات الحكومية ، ليس انطلاقاً من الجمل الطنانة ولا النظريات ولا الوعود المعلنة على مسمع المواطنين والعالم الخارجي ، وإنما بالوسائل الواقعية الجديدة ، وبالمفاتيح الخفية السحرية للنشاط الحكومي ، وبالمصالح الغالبة ، بمزاج المجتمع ، بالعناصر والأوضاع الذاتية وبالنواحي العملية المباشرة ، لا بالإخراج المسرحي .

هذه الملاحظات لا تعني أبداً حكماً مسبقاً على الاتجاه الذي اتخذه إصلاح ١٨٣٩ . وهو اتجاه يقيد إلى حد بعيد مصالح سلالة قبيلة عثمان الحاكمة ، فهو يسهل تأكيداً اكتمال بدايات كانت تظهر منذ مدة طويلة وتتمثل بإضعاف سلطة السلاطين المطلقة ، التي كان باستطاعتها بعث السلطنة من جديد ، فيما لو اتبعت نفس الطريق الذي اختارته إرادة محمود الحديدية وفكره الفذ. أما في ما يتعلق بالقبائل الشرقية ، ومهما كان مستقبل التجارب الجديدة كئيباً ، فإن المنحى الذي يسلكه الاصلاح ، قد يؤدي إلى مستقبل أفضل .

يملي علينا الحياد ، عندما يدور الكلام عن تركيا وعن التدابير الحكومية فيها ، ضرورة صعبة ، ألا وهي تمييز المصحلة الحكومية عن المصالح الاجتماعية . ليس في

تركيا شعب ، بالمعنى الكلي لكلمة شعب ، له ارتباط وعلاقة بدولته . يوجد في تركيا فقط قبائل مرتبطة بالدولة برابط القوة وحده . من بين هذه القبائل ، تتمتع بحق الحكم واحدة هي الأكثر خشونة وتأخراً وكسلاً . أربعة قرون من الاغتصاب وحمامات الدم ، ضد دين وقومية القبائل المغلوبة ، لم تستطع أن تمنح القبيلة الحاكمة امتيازاً آخراً غير قدرتها وبقوة السيف على بعث الخوف وتقديس حقها ، المغتصب أساساً ، وتكريسه في عيون العالم الخارجي . طوال تلك الفترة بقيت الحكومة التركية فقط ، أو بالأحرى مسلحة ، أما القبائل الأصلية المحافظة على مذهب آبائها ، فلا تزال تقبع في حالة فريدة من العبودية .

جاء القرن التاسع عشر بمولود جديد ، في عائلة الدول المسيحية ، وضعته أوروبا بواسطة الحروب الشعبية والقومية . هذا المولود هو «العنصر الشعبي» الذي انتفض من تابوته الشرقي بعدما قويت الروابط التجارية بين الشرق والغرب ، وبعد الصراع الطويل بين الروسيا وتركيا . وكصدى للأفكار المنتصرة في فرنسا بدأت مفاهيم الحقوق الانسانية والقومية تتغلغل في الشرق العثماني ، داخل القبائل المظلومة . الحكومة العثمانية من جهتها ، تابعت في الربع الأول من هذا القرن ، كما في السابق ، مقارعتها الوحشية ، ملاحظة مع قوى الشعوب التي لا تهزم ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار مفاهيم هذا العصر المطل وعناصره الجديدة . إنما مع القضاء على الانكشارية زمن محمود الثاني ، السلطان المغتني بتجربة الحرب مع قبائله بالذات ، أي مع اليونانيين والصرب ، بدأت السلطنة تتفهم بشكل أفضل أفكار العصر المستجدة والاتجاه الجديد لمصائر الامبراطورية العثمانية التي تحددها الظروف الداخلية والخارجية . بدأ محمود يحضر لإصلاح جذري أكيد ، كنا قد أشرنا إليه في سياق سابق ، وهو الخطوة الوحيدة القادرة على إنقاذ السلطنة والسلالة الحاكمة في آن معاً ، وذلك عن طريق تجديد البناء السياسي للشرق وفق أسس مسيحية .

لكن تلك البرامج تبخرت بموت السلطان محمود . فقد كان خليفته الضعيف رهين دسائس الوزراء ومؤامراتهم . إعلان التسامح الديني الذي صدر عن عبد المجيد ، جاء ليفتح صفحة جديدة في مطاردة المسيحيين وملاحقة القوميات الأخرى بشكل لا يقل حدّة عن ملاحقة المسيحيين أنفسهم . منذ ذلك الوقت انفصلت في تركيا ، وبحدة تتعدى شكلها السابق ، المصلحة الحكومية عن المصلحة الاجتماعية ، فقد أصبحت المصلحة الحكومية ملكاً خاصاً للقبيلة والطائفة الحاكمة ، وهذا يرد إلى التناقض الذي ينوجد بالضرورة بين السيد والعبد . بالرغم من هذا الواقع ، وبالرغم من النوايا السيئة للسلطة ، بقي لدى القبائل المحكومة أملها بالتطور الداخلي . في مثل واقع القوى

المعارضة المقاومة ذاك ، من يملك حق الوقوف بوجه القبائل المحكومة والتنديد بها ، بسبب فرحها العارم لدى تعرض السلطة لأية مصيبة تحل بها ؟ اليونانيون ، الالبانيون ، الصرب ، البلغار ، الفلاخيون ، المولدافيون ، الأرمن ، الكلدان ، الأكراد ، البدو ، الدروز والأنصاريون كانوا يبتهجون مجتمعين لأية نكسة للسلطة أو للقبيلة الحاكمة . هذه القبائل المحكومة التي حافظت على استقلال شخصيتها وعلى أملها بالمستقبل ، كانت قد تعرفت منذ زمن بعيد ، وتحت تأثير العوامل الخارجية ، وبفضل اندفاعها وتجربتها الذاتية ، إلى مفهوم حقوق الإنسان ، المهضومة في الشرق بدون حساب . لكن القبائل المحكومة في سوريا ، وخاصة المسيحية منها ، كانت ، كما في آسيا الصغرى وكما في مصر ، قد تعايشت ، طوال فترة امتدت ١٢ قرناً من العبودية ، مع فكرة مؤداها أن حياة وشرف وأملاك العبد تخضع بكليتها لإرادة الحاكم ، وأن العدالة لا تدخل في نطاق من يتمتع بالسلطة ، وأن القبيلة التركية لتميزها العرقي ، تتحكم بالاقليم وقبائله ، وأن الباشا أو المتسلم أو الديربي وكل الخدم الحكومي أو الاقطاعي وجدوا بالأصل . . . من أجل النهب والقتل مثلما يولد الجراد من الأرض لاكتساح الحصاد والمحصول .

على هذا المستوى من الأفكار ، أدرك ابراهيم باشا القبائل السورية عام ١٨٣٢ . كل مرسوم أو أمر عادل أصدره الباشا المصري ، كان يثير في الشعب الدهشة والاستغراب أكثر مما يثيره من البهجة والفرح . طرد الأتراك من سوريا وهم يعتمرون العمائم ويلبسون الشباشب ، وعادوا بعد ثماني سنوات ، ولكن هذه المرة بطرابيش وجاكيتات ضيقة وجزمات لماعة وبرفقة حلفائهم الكفار . القبائل السورية وبتأثير الأفكار الجديدة عن حقوق الانسان التي كانت تنفذ إلى المفاهيم الشعبية (القومية) ، رأت فيهم متسلطين عليها وحسب . كنا قد رأينا كيف تميز لواء جيش الانزال التركي الذي جهزه محمد علي قصداً للتصدي للجبليين المتمردين ، فهو لم يكن مشابهاً أبداً للجيوش التركية السابقة ومسلكيتها السيئة ، ولكن السكان المحليين في الواقع الراهن بعد إقرار السلطة السلطانية مجدداً ، أخذوا ينصتون لممثلي الدول الكبرى وتدخلهم السافر في الشؤون الحكومية والادارية للامبراطورية . وقد أدرك هؤلاء السكان بأن الباشاوات ما كانوا ليبشروا بالتسامح الديني محاولين محاكاة الحكام العادلين ، مع أن هذا الوجه يخالف كلياً مشاعرهم وآراءهم الخاصة ، لولا المراقبة اللجوجة من قبل القناصل الأوروبيين .

ثم جاءت الفرمانات بإلحاح من القناصل ، ومن خلالها شرح السلطان لباشاواته ، وبفصيح العبارة ، بأن حياة وشرف وأملاك المواطن ، وبدون أي تمييز في الدين ، مكفولة بموجب القانون . وهذا بالطبع ، ما أحدث لدى الجماهير هزات عميقة ، فمن

ناحية ، أخذت حقوق الانسان تتحدد مفهوماً وإن جنينياً ، ومن ناحية ثانية بدأ الانطباع الشامل عن جبروت الباب العالي ووكلائه وخدم السلطة عامة ، يخبو ويهمد . صار بإمكان أي مسيحي تلقى إهانة من وجيه تركي أو من سائس أو تشويختشي ، أن يتقدم بشكوى إلى الباشا نفسه أو أن يلجأ إلى قنصل أوروبي يحصل حقه بواسطته . تجاسر مثل هذا كان يؤدي قبلاً إلى الموت . من هنا نقول بأن تعليمات الباب العالي الجديدة ، وبتسهيل من الظروف المحلية ، كانت ذات تأثير حاسم على مصائر القبائل ، بتطويرها فهم هذه القبائل لحقوق الانسان ، المدماك الأول في أي نجاح مدني . ونحن هنا نتكلم فقط عن الحقوق الإنسانية ، دون أي دخل للحقوق المدنية التي لا تقع حتى الآن في دائرة حلم قبائل الشرق ، التي جفت ويبست في العبودية والإذلال .

يبقى أن نشير إلى أن معاملة الضباط الانكليز للقوات التركية خلال الحملة ، وخاصة بعد توقف العمليات الحربية ، ساهمت كثيراً في ضمور الجبروت التركي بنظر القبائل السورية . في معسكر الحلفاء في جونيه نصبت خيمة الكومودور نابير في الموقع الوسط على مرتفع ، يرفرف فوقها العلم الانكليزي ، وفي أمكنة أخفض من هذا بكثير كانت تتراءى الأعلام التركية والنمساوية . تذكر السكان المحليون بأن أعواماً عشرة ، مضت على الزمن الذي قررت فيه انكلترا إنشاء قنصليتها في بيروت . يومها ، وبحجة أن ظل العلم الذي يرتسم عليه الصليب ، كان يطال المسجد القريب ويطرد الملائكة الهاجعة على القبة ، قام سوقة المدينة بإجبار القنصل على إنزال علم بلاده ، وراح يفتش عن شقة جديدة بعيدة عن الحي المسلم وعن المسجد . أما الآن فإن السرعسكر التركي نفسه ينضوي تحت إمرة الكومودور ويتحمل كل الإهانات . وبالطبع كان نقباء وملازمو المفرزة الانكليزية يوجهون الأوامر للباشاوات دون أية مراعاة لغطرسة الأتراك ، أحد مفاصل جبروتهم .

من ناحيتهم كان ممثلو فرنسا ، يعاملون الأتراك لتحالفهم مع الانكليز ، بنقمة واحتقار ، وكانوا يصطنعون أعذاراً لاختلاق صدام . لكن الباب العالي أفسد عليهم ذلك ، بتعليماته للباشاوات بتجنب كل ما من شأنه أن يكون حجة لشكوى فرنسية .

علاقات القنصلية الروسية مع السلطات المحلية كانت أكثر ليونة ، لكن المسيحيين ، مواطني السلطنة ، كانوا يتدافعون جماعات للاحتماء بالعلم الروسي . وكان الباشاوات يتحملون رقابة القناصل وتدخلهم ، وهذا الأمر استوجبه إهمال أولئك وإهانتهم للسلطة المسندة إليهم . الأوامر والتهديدات التي أصدرها سرعسكر إلى كل

السناجق بإنزال عقاب شديد مقابل أي حيف يطال المسيحيين وكنائسهم ، أرسلت إلى القيادات المحلية عبر القنصلية الروسية ، وفيها تركيز على شكوى قنصليتنا حول هذه التعديات بالذات . أقدم الباشا البليد على ذكر هذه الواقعة ، تبريراً لنفسه أمام أبناء دينه عن تهديداته وأوامره السابقة ، ردعاً لتعصبهم الديني ، ولكنه نسي أنه بإشاراته تلك أعطى صفة شرعية لتدخل ممثل الدولة المسيحية التي اعتاد مواطنو السلطنة اللجوء اليها طلباً للحماية . كانت أوامر الباشا مرصعة بسور قرآنية عن التسامح الديني . والمعلوم أن القرآن يحوي دون شك كل شيء من السياسة وعلم الفقه من الألف إلى الياء [. . .] . ملاحظة .

يتوجب أن نشترع بنيّة صادقة كما كان يفعل منافقو اسطمبول والمولعون بالكتب فيها ، في حال كانت تأمرهم الحكومة بصدق وحزم ، كما كان يحدث في زمن السلطان محمود . يومها لم تجرؤ الحكومة بدسائسها الفقهية القضائية المباركة من العلماء على مقاومة إرادة السلطان والاحتيال أمام السفارات انطلاقاً من تأويلها لقوانين الاسلام . في عهد عبد المجيد تنعكس الآية ويقدم العلماء الدليل على استحالة رفع الحكم بالموت عن المرتد وعن المسيحي المتهم باعتناق المحمدية زوراً . كذلك قدموا الدليل على استحالة قبول شهادة المسيحي في أمر تقام فيه الدعوى على مسلم ، مع أن القرآن لا يحوي حتى إشارة إلى مثل هذه أو تلك من الأعراف العجيبة . إن التهديد بالحرب من جانب الحكومات المسيحية هو الذي أجبر الباب العالي على تليين قانون الارتداد .

لقد ساعدت السلطات التركية منذ دخولها الأول إلى هذا الاقليم المحتل ، بسبب هفواتها وعجزها من ناحية ، ومن ناحية ثانية نتيجة العواقب المحتمة لتحالفها مع الدول الأوروبية ، إضافة إلى تأثير بيان كلخانة والتعصب الديني للقبائل السورية ، كل ذلك ساعد وخدم إرادة خير بتسهيله تطوير أفكار ومشاعر جديدة عند الجماهير الشعبية . لقد أدى هذا التوجه الجديد إلى أزمات دامية سيأتي الحديث عنها ، تعرض المسيحيون أثناءها إلى تجارب مرّة . إن انبعاث هذه الأزمات مجدداً وخلال مدة قصيرة أمر لا يحتمل الجدال ، ومع ذلك فإن آفاقاً جديدة تتفتح أمام القبائل السورية . أما الحكم التركي الذي يشكل عقبة أمام التطور المدني ، فقد بدأ بالترنح في هذه الناحية المعذبة مثلما ترنح في المقاطعات الأوروبية من الامبراطورية .

الفصل العشرون

مشهد تاريخي عن بطولات كجك علي أوغلو في باياس [1] ، وعن أولاده دادا بك وميستيك بك .

* *

كان اهتمامنا منصباً لدى دراستنا لمصائر القبائل السورية ، على الأحداث اللبنانية . وقد تتبعنا في هذه الأحداث كما في مشاريع (أعمال) ظاهر العمر ، العنصر القومي في كل تجلياته ومراحله . من حق اللبنانيين احتلال الموقع الأول في هذه اللوحة التاريخية ، ومن بعدهم في عمق اللوحة ، تأتي قبائل الجبال والسهول السورية ذات الطباع المختلفة ، مع تراث عديم اللون ، ومستقبل باهت . وفي أفق اللوحة الرملي يترحل البدو ، في أيامنا هذه كما في أيام الفتح المقدس .

وفي هذا الفصل نضيف مشهداً تاريخياً يشكل تعبيراً حياً عن مدى التأثير الحكومي والحياة الشعبية في الزاوية الشمالية الشرقية من سوريا قرب جبال طوروس ، حيث يتراجع العنصر العربي أمام أغلبية تركمانية .

من الأساطير المتداولة بكثرة في كل مناطق سوريا سنختار واحدة حية تتحدث عن مآثر كجك علي أوغلو ، في أيسوس القديمة الشهيرة بأحد الانتصارات الثلاثة التي حسم بها البطل المقدوني مصائر الشرق حتى الهند وحتى أقصى حدود العالم المعروف (طرف الدنيا) . هذا المكان القديم يسمى الآن باياس . عند خروجها من آسيا الصغرى تجحظ جبال طوروس في البحر وتحضنه من علٍ بطوق من الصخور الشرسة المكللة بالثلوج ، مؤلفة خليجاً فسيحاً تسمى باسم المدينة الصغيرة ، اسكندورن ، الاسكندرية القديمة ، التي أسسها الاسكندر العظيم في سوريا ، بدل مدينة صور التي هدمها ، بتأثير

(١) قد تكون هذه التسمية بأصلها تعود إلى كلمة «بياز» التركية وتعني الأبيض ، نسبة إلى جبال طوروس المغطاة بالثلوج . والمدينة من القمم التي تحيط بسوريا من ناحيتها الشمالية .

نوبات الحمى الخبيثة . شواطىء هذه المنطقة وقد عرفت كثيراً من الاضطراب والهدم ، أقفرت واستوحشت منذ زمن بعيد ، وسكانها يتناقصون باستمرار . الطريق الذي يمر عبر باياس ، المدينة التي تقع إلى الداخل في خليج الاسكندرون وتشكل أفضل مكان للدفاع ، محصور بين الجبال الصخرية والبحر ، وقد تلتقي الجبال مع الشاطىء مؤلفة هاوية سحيقة . هنا ، يستطيع عشرة من القناصين المهرة ، إيقاف جيش بكامله ، ولكن هذا الطريق يبقى الأقصر والأفضل بين سوريا والأناضول ، وفي حال انقطاعه فإن سالكه سيجد نفسه مجبراً على الالتفاف حول الذيول الشرقية لجبال طوروس ، طوال عشرة أيام في ممرات جبلية ضيقة وصعبة .

نشأ التركماني خليل بك المعروف بكجك علي أوغلو ، والذي منحه السلطان سليم الثالث لقب باشا ، في أواسط القرن [XVIII] في كنف والده قاطع الطرق في الجبال المتاخمة لباياس ، في الفترة التي كانت فيها هذه المدينة على علاقة تجارية بمصر ، حيث كانت ترسل إليها حوالى ٢٠٠ حمل من محصول الحرير . أثار خليل بك الاضطراب بسطوه وغزواته الجريئة وأسلابه وإتلافه المزروعات والبساتين في ضواحي المدينة ، إلى درجة اضطرت الملاكين إلى افتداء أنفسهم بالهدايا ، حتى أصبح هذا التصرف عرفاً . كذلك استطاع قاطع الطريق هذا أن يفرض على المدينة وسكانها فدية ، غرامة معينة كانت تصله بضائع عينية أو أموال نقدية . هذا النجاح أعطى قاطع الطرق المقحام دفعاً جديداً ، فتضاعفت كوكبته حتى بلغت خمسين عنصراً ، فراح يخطط للسيطرة على المدينة . أخذ يغتال سراً ، واحداً بعد الآخر ، كل من تميز بالذكاء والثروة أو بقدرة التأثير من شخصيات المدينة . وفي النهاية لم يبق أمامه إلا أحد الزعماء المسلمين البارزين في المدينة ، والذي لم يستطع قتله بالوسائل العادية لأنه كان محاطاً بخدم أوفياء . عقد خليل معه تحالفاً ، وأعطاه ابنته زوجة له . تطميناً وإيحاءً بالثقة . وكان أن دعاه إلى جباله بعد شهرين تكريماً له واحتفاءً به . وهناك تمكن منه أثناء الاحتفال بطعنة أردته قتيلاً . غادر المسكين الدنيا تاركاً أرملته (ابنة خليل باشا) حبلى . «لم تقبل نفسي (قال خليل لأحد أبنائه الذي نصحه بخنق حفيده بعد أن ولدت ابنته) أن أرفس في أحشاء ابنتي تمساحاً صغيراً ، مع أن هاجس الثأر سيتولد لديه مع الوقت» .

بعد تصفية كل أخصامه ، صار كجك علي أوغلو حاكماً على باياس وعلى الجبل الذي طالما هام به سالباً . حاكم في ظل الادارة التركية ، يعني أن يكون فرداً بلا منازع ، سيداً على الأرض والشعب ، وحياة وممتلكات كل من تطاله يداه . وقد شكل هؤلاء الحكام فئة جبارة من الديريبي التي تحولت حقوقها الممنوحة بداية من قبل السلطان

لحمايتها الممرات الجبلية . . . ، إلى سلطات جائرة طاغية قائمة على السيف ، وعلى الجرأة وعلى مناعة الأمكنة التي كان يبني فيها الديربي عشه . ونتيجة لضعف المركزية الحكومية ، كان هؤلاء يستنزفون الشعب المحكوم ، ولكنهم تعاملوا في نفس الوقت ، مع الطبقة المنتجة [الفلاحين والحرفيين] بصبر وأناة ، كي لا يضطر هؤلاء إلى الهرب سراً وبذلك ينقطع مورد رزق أكيد . على كل حال كانت الامبراطورية بمجملها مصابة بنفس المرض ، فالباشاوات لم يكونوا أفضل من الديربيي بأي حال ، مع أنهم لم يتخرجوا من نفس الصفوف . وفي جميع الحالات ، كان على الشعب أن يتحمل كل تبعات هذا المرض دون أن يراوده أمل بأن هذه الأحوال تتبدل مع تبدل أمكنة الاقامة .

نصف قرن انطوى ، وعلي أوغلو كابوس خوف في نفوس السكان والقوافل عابري الطريق بين الأناضول وسوريا ، والذين يشكلون في نهاية الأمر مصدر رزقه الأساسي . في بعض الأحيان كان الباب العالي يغضب فيطلب رأسه من الباشاوات المجاورين وكأن هذا الرأس وديعة أيديهم ، وأحياناً أخرى كان يعلن العفو عنه ويمنحه بونتشوك (نيشاناً) يحلل فيه باسم السلطان ، كل سفالاته ورذائله التي لم يستطع السلطان القضاء عليها أساساً . والواقع أن المنافع المتبادلة بين الباب العالي والديربيي كانت تملي علاقة طيبة بين الفريقين . ومع ازدياد قوته لم يجد الباب العالي لمضايقة كجك علي أوغلو سوى منع القوافل من سلوك الطريق الساحلية عبر باياس ، وبهذا ضرب بيت الديربي ، بحرمانه من مورد رزقه الأساسي : سلب القوافل . لكن مع بدء مسيرة الحجاج إلى مكة ، ومع اضطرار موظفي الباب العالي والحجاج إلى الالتفاف حول طوروس ، انتشرت الإشاعات والخوف في كل مناطق الامبراطورية ، مما دفع الباب العالي إلى قبول التماس العفو الذي كان كجك علي قد تقدم به ، وأكثر من ذلك اعترف به والياً لا يشك السلطان بإخلاصه .

لم تتعد عصابة كجك علي أوغلو في أية فترة ، المائتي عنصر من متشرد وجزار ، لكنه كان يمتلك قدرة البهورة من خلالهم ، وإشاعة الأخبار عن عساكر لا تعد تعمل في خدمته. فمثلما توزع العساكر على المسرح كما يفترض الديكور، علم كجك علي جدعانه كيف يعرضون أنفسهم على طول الطريق بين الشعاب والأجباب ، في كل مكان وعلى مرأى من قوافل المارة ، الذين كانوا لجهلهم الحيلة ، يحسبون أن هناك مئات من المفارز الصغيرة . كذلك ابتنى من الطوب والقش ، على قمم الجبال المتاخمة لباياس أسواراً وهمية وعدداً من الأبراج والكوى المزيفة التي كانت تبدو بعد طلائها بالكلس ، وكأنها لا تختلف بشيء عن التحصينات العسكرية التركية الحقيقية . وبذلك أخاف حتى

مسافري المناطق البعيدة بما يتركه منظر القلاع من إيهام بالمناعة والقوة . والطريف أن كجك علي كان يؤمن صيانة دائمة لهذه «الإنشاءات الهشّة» التي لم تكن بحاجة لأكثر من سيل ماطر أو عاصفة ، لكي تختفي كلياً . كل هذا كان يدخل في حسابات الديربي ، لذلك وانطلاقاً من مفهوم مؤداه أن الفراغ يؤدي حتماً إلى العصيان ، كان يجبر رجاله والسكان بالعمل دورياً في إعادة تأهيل وتزيين تلك التحصينات والقلاع الوهمية .

ومن القواعد التي اتبعها كجك علي أوغلو لتثبيت شهرته ، وبث الخوف من اسمه فقط ، كانت تعليق عدد من المشانق المحملة بالضحايا ، في الفترة التي كانت فيها قوافل الحجاج الكبيرة تعبر في طريقها إلى مكة تحت إمرة وجهاء من قبل السلطان . كل هذا ليؤكد لرجالات اسطمبول أنه الحامي الوحيد لأمن المسالك ، والدليل بادٍ فالمشانق معلقة للخارجين على القانون والمعترضين للقوافل . حشود الحجاج التي تعودت منذ القديم ، مثل كل شعوب الشرق ، أن ترى في الفظائع عنوان الجبروت والسلطة ، كانت تدفع باستسلام خوة على الحيوانات والحمولة والمرور عبر الشعاب التي يحميها الديريبي بجدارة . ومن ناحية ثانية ، في حال حصول عملية تشليح مسلحة ، بالرغم من دفع الخوة ، وغالباً ما تكون هذه العملية مدبرة من الديريبي نفسه ، كان تعليق ضحايا جديدة من المساجين ، يشكل إجابة نهائية على أي احتجاج أو شكوى . وقد حدث مرة أن «خلصت» مساجين الديربي ، ولم يبق لديه من يعلقه في موسم مرور الحجاج لإتمام لعبته ، وقد زاد الموقف حراجة اختباء كل من يتصور نفسه هدفاً للديريبي . وهكذا كان اكتئابه يزداد خوفاً من افتضاح أمره وتلطيخ شهرته مع اقتراب اليوم الموعود ، وخشية من أن يفقد طريق باياس رهبته في نفوس الحجاج نتيجة عدم اكتمال ديكوره بمشهد الشنق «نحن مجبرون ، كما همس لبعض المقربين إليه ، أن نشنق واحداً أو اثنين ، وحتى من الباشي بوزوك التابعين لنا إذا اقتضى الأمر ، وليكونوا مثلاً ، أولئك الذين سرقوا تجاراً مسافرين دون إذن «في الأسبوع الماضي» . «ذنبهم مزدوج ، أجابه مستشاروه المقربون ، لأنهم نهبوا بدون إذن ، وحملوا إلى خزانتكم النذر اليسير ، والأنكى أنهم تقاسموا حصتهم مع رفاقهم ، ولهذا فإن شنقهم يولد الخوف في قلوب من تسول لهم نفوسهم مثل هذا العمل» . أطرق كجك علي أوغلو يفكر في حل آخر ، وفي النهاية قال متنهداً «كم هو مؤلم لقلبي أن أزعل الصيرفي القديم المسيحي يعقوب ، لكنها قسمته . كتب عليه كما يبدو أن يسدد فاتورة أخطاء الآخرين . كم خدمني بأمانة هذا المسكين ، إلا أنني أغدقت عليه الكثير . فقط عند الضرورة القصوى كنت أفتش في صناديقه ، وها كم هو منذ شهرين ، يرقد مريضاً محموماً . حياته لم تعد حياة ، وإنما عذاب دائم ، والموت

بالنسبة إليه واحد إن على المخدة أم في الهواء الطلق». وفي نفس اليوم لاقى المسكين مصيره المحتم منفذاً ، حتى بعد مماته ، مهمته في تخويف المسافرين .

سُرّ أميني ، من وجهاء الصف الأول في اسطمبول والمؤتمن على هدايا السلطان إلى الكعبة ، كان مجبراً كل مرة أن يشتري بأثمن الهدايا لكجك علي أوغلو ، أمان عبوره في المنطقة . وقد يحدث ألا تتناسب الهدايا وذوق الديريبي ، فلم يكن الأخير يتورع عن إعادتها مع رجاء حار بإبدالها بأشياء أخرى أثمن ، مكافأة له على إخلاصه ، وعلى الذبائح من الأغنام التي نحرت باسمه ، سيداً للمنطقة ، تكريماً لضيفه العزيز .

لقب الباشاوية الذي منحه كجك علي أوغلو ، لم يحدث أي تغيير في أسلوب ونمط حياته . لم يتغير حتى في حياته العائلية ، فقد حافظ على بساطة الطبائع الأبوية للراعي التركماني . خلع بزة الباشوية لأنه لم يجد في كل بازارات اسطمبول قاووقاً [٢] يتناسب وكبر حجم رأسه . لم ينشىء حريماً ، بل اكتفى بزوجتين أدارتا كل شؤون البيت المنزلية حسب تقاليد القبيلة التركمانية ، أي إنهما لم تلبثا وراء قضبان القصر تحت مراقبة وحراسة الخصيان حسب عادة حكام الامبراطورية . كان يتناول الخمرة بدون حساب ، أطول وقت من الليل ، وعند الصباح كان يستيقظ مع الشمس يبني أو يعيد تأهيل ديكور مسرحه أو يشرف على الأعمال الزراعية في الحقول . كان يحب أن يفتخر بدقته في العمل ، معتبراً نفسه المثال الأعلى للديريبي ، والحقيقة أنه لم يكن يسمح لأوباشه بالابتزاز خارج حدود سنجقه أو بالتقاتل مع الجيران ، بل كان مكتفياً بما يهبه الله في باياس التي كانت مسرحاً لا يعرف تحريماً لأي عمل .

عام ١٧٨٩ ، رست سفينة انكليزية ، بعد أن أفرغت حمولتها في مرفأ الاسكندرون ، عند أعمدة النبي يوحنا قرب باياس ، كي تتزود بالماء ، مباشرة وبأمر من خليل باشا ؛ كجك علي أوغلو قبض على قبطان السفينة «فاولس» وكل طاقمها ، وسجنوا في البرج بحجة أن السفينة لامست أملاكه ، فيجب والحال هذه دفع الضريبة ، وقد زاده إصراراً على المطالبة بذلك عدم وجود سلع أو أموال على ظهر القارب . القبطان التعيس ، الذي لم يكن ينتظر ، في أيام السلم وعلى شواطىء دولة صديقة ، وتحت حماية المعاهدات ، مثل هذا اللقاء وكأنه في جزيرة منسية من جزر الأرخبيل الهندي . القبطان التعيس مرعوباً بأقوال وأساليب خليل باشا ، لدرجة ظنه من أكلة لحوم البشر ، رمى

(٢) قبعة ملفوفة بعمامة كان يعتمرها الباشاوات الأتراك سابقاً .

بنفسه من عالي البرج ولحق بعض أفراد طاقم سفينته . أما الآخرون فقضوا في الحبس ، عدا ولد قاصر أشفق الوحش عليه ، وأرسله إلى القنصل الهولندي في حلب ، الذي كانت تربطه بخليل باشا صداقة قديمة .

بعد عامين على هذه الواقعة ، رست عند باياس سفينة فرنسية ، تحمل بضائع من مرسيليا إلى حلب ، بعد أن أخطأ ربانها في الاهتداء إلى ميناء الاسكندرون . وما كاد القبطان ينزل إلى البر حاملاً أوراقه ليزور القنصلية الفرنسية ، حتى اقتيد مباشرة إلى الديريبي ، الذي أدرك ببداهته ما حصل للربان ، فبالغ في تكريمه والاحتفاء به ، وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الخدم يقدمون للضيف القهوة والشربات ، كان رجال الديريبي يغرقون السفينة في مياه البحر ، بعد أن نقلوا ما فيها إلى قصر سيدهم . وبعد هذا سمح للقبطان ورجاله بالتوجه إلى حلب لمقابلة القنصل الفرنسي ، وقد تزودوا بكل ما يلزمهم من مؤونة في سفرهم ، وطوال إقامته لم يوجه للقبطان أي مكروه انطلاقاً من قوانين الضيافة الشرقية ، فقد دخل آمناً منطقة خليل باشا . أما حمولة المركب فيقدر ثمنها بالملايين ، لدرجة أن كل أوروبيي حلب وقعوا في خسارة فادحة ، وكان فيها أبابيل الجوخ والمخمل والساعات وأدوات الزينة المحبوبة في بلاد الشرق .

حاول القنصل الهولندي ماسيّ ـ وقد ذكرنا قبلاً عن علاقته بالديريبي ـ استغلال حظوته ، آملاً استعادة ولو قسم من المسروقات . رد خليل على مسعى القنصل ، توضحة رسالته الجوابية التالية : «صديقنا الفاضل ، ذو المركز العظيم في الشعب المسيحي . لقد تلقينا لون فصاحتكم الغالية ، وملأ مضمونه نفسنا فرحاً حلواً عندما علمنا عن صحتكم المغداة . أما في ما يخص رجاءكم في إعادة أبابيل السفينة التي دفعتها الأمواج إلى شاطئنا ، فإنكم تعلمون جيداً ، أن كل خيرات العالم وحتى الحياة نفسها هي بالنسبة لي شيء ثانوي ، أمام المشاعر الصدوقة الصادقة القائمة والمتبادلة بيننا . أقسم لك بالله ، بأنني في سبيل هذه الصداقة مستعد للتضحية بابني الغالي دادا بك ، لكني أرجوكم رجاءً حاراً ألا تطلبوا مني المستحيل . أشرح لك وأرجوك أن تحكم أنت : أنا في علاقة متردية مع سلطاني ، والأخطار الجسيمة تحيط بي من كل جانب ، في مثل هذه الأوضاع المحرجة ، من المؤكد أن رحمة الله أرسلت إليّ عمداً السفينة مع حمولتها . فأنا في حياتي كلها لم أسمع أن سفناً تقف مع حمولتها عند الشواطىء ، أفليس كفراً أن يرفض إنسان هدايا الارادة الإلهية ؟ أنا أعلم أن الفرنج سيطلبون (رضوة) وتعويضاً من الباب العالي البهي ، وهذا ما أتمناه ، إن شاء الله ، أن تسنح لي فرصة استصدار عفو . على أي حال تصرف بأمري كما تريد . ليحفظك الله الرحيم» .

بعد هذا الجواب فقد التجار كل أمل بإنقاذ أموالهم ، فتوجهوا بالشكوى إلى الباب العالي في القسطنطينية ، الذي جهز عدة سفن حربية لمعاقبة الديريبي على ألاعيبه . ومع وصول الحملة إلى شواطىء باياس ، تراجع خليل باشا إلى جباله المنيعة ، تاركاً وراءه البيوت الفارغة طعماً لنار الجنود الاتراك ، الذين فرغوا من المؤونة بعد أسبوعين أو ثلاثة ، فأمدهم المتمرد بكل طيبة قلب بما يلزمهم من أسباب العيش مع هدايا للآمرين في الجيش ، ساعات وأشياء أخرى من حمولة السفينة الفرنسية ، وكلفهم كذلك بإيصال الهدايا القيمة وعدة أكياس من الذهب إلى قبودان باشا ، ليسعى هذا الأخير باستصدار عفو سلطاني عنه . وبالفعل صدر بعد فترة فرمان بالعفو عنه ، شرط إعادة المنهوبات ، ومنح كذلك درجة ثاني بوتشوك (مرمران) . إن مثل هذا الطلب إعادة المنهوبات ، ومثل الحملة التأديبية السابقة أمور حصلت لاحقاً براً وبحراً ، دون أن تغير في الأمر شيئاً والنتائج لم تختلف أبداً عما حصل هنا .

حادث آخر لا يقل طرافة عما أوردناه ، حصل مع قنصل هولندا عام ١٨٠٠ ، في فترة كانت فيها علاقة الديريبي بالباب العالي على درجة من سوء التفاهم . أثناء عودته من القسطنطينية إلى حلب حاملاً فرماناً سلطانياً ، ونظرا لصداقته القديمة مع الديريبي ، لم يتردد قنصل هولندا ماسي ، في أن يعرج على باياس لإلقاء نظرة على مأوى اللصوص فيها . وقبل أن يدرك صديقه الذي كان قد تبادل معه الهدايا أكثر من مرة حسب العادة الشرقية . قبض عليه رجال خليل باشا وسجنوه في البرج . القنصل المسكين ظن الأمر في بدايته خطأً لا يعدو سوء التفاهم ، وفي أن الرجال لم يعرفوه . لكن سرعان ما اتضحت الصورة ساعة جاء ابن الديريبي ، دادا بك ليعلن عن لسان أبيه والدموع تبلل خديه ، بأنه في هذه الفترة بالذات حيث الخزينة خاوية ، يجيء القدر ليختبره ، فيدخل إلى أملاكه أعز صديق لديه ، وهو الآن مرغم على الاحتفاظ به رهينة حتى دفع الفدية التي تتناسب ورفعة شأن الصديقين معاً : خليل باشا والقنصل ماسي .

الاعتراف بالصداقة وبمكانة القنصل الخاصة ، لم ينتقص الفدية عن ٢٥ ألف قرش ، أي ما يعادل ٢٠ ألف روبل فضي . على كل حال ، نصح خليل باشا رهينته بعدم الاكتئاب ، وإيكال شأنه إلى الله وأن يتحمل برجولة العذابات والتجارب الملازمة للعمل في الميدان السياسي . «أنا نفسي (قال الديريبي لسجينه عبر ابنه دادا بك ، لأنه كان قد تجنب مواجهة القنصل طوال فترة سجنه) بقيت في السجن تسعة أشهر عند عبد الرحمن البيلاني ، لكن الله منّ عليّ وأنقذني» . أما توسلات ماسي بتخفيض قيمة الفدية فقد ذهبت هباءً ، أمام إصرار «الصديق الصدوق» ، الذي كان يردها بحجة أنه

مجبر بحق الصداقة ، على صيانة شرف صديقه وإبقاء الفدية عالية ، تتناسب وعلو رتبة القنصل ، وعلى هذا فهو لن يستطيع إنقاصها حتى ولو قرش واحد .

باع السجين كل أملاكه في مدينة حلب ، وحصّل منها الفدية . وفي نهاية الأمر أشفق الباشا عليه ، وسلمه لقافلة تجار عابرة ، بعد أن سلبها ما يعادل ثلثي الفدية المتبقيين ، على أن يتصافى تجارها مع القنصل بعد بلوغ حلب . وهكذا أطلق سراح «الصديق» بعد أن رأى الموت تكراراً ، ففي كل مرة كان رجال الباشا يعذبون رهينة أو يعلقونها على مشانق الطريق كان الباشا يرسل من يقول للقنصل ، بأن مصيره مماثل لمصير أي سجين عاجز عن تأمين الفدية .

بعد هذا الحادث بسنوات ، وبالضبط في عام ١٨٠٨ ، مات قاطع الطريق هذا ، مكللاً بالمجد ، حاملاً رتبة وزير [٣] ، مورثاً طباعه الوحشية وجبروته لابنه دادا بك الذي أتمّ فصول والده مع القنصل الهولندي ، بفصول جديدة لا تقل شراسة وخبثاً . فقد تذكر القنصل بعد موت الأب أن البك الشاب أظهر له كل الشفقة في فترة سجنه ، فتوجه نحوه برجاء إعادة الفدية التي دفعها والبالغة ٢٥ ألف قرش . جواب دادا بك ، بأن هذا مستحيل لسببين : أولاً ، إن إرجاع ما أخذه والده هو اعتراف بعدم عدالة تصرفه : الله هو القاضي الأكبر ولا يجوز لابن محاكمة والده المتوفى . وثانياً ، لو طالب كل الذين يدعون بأحقية ديونهم على المرحوم ، بتعويضات عن ديونهم ، فإن كل جبال طوروس ، ولو كانت ذهباً ، لا تكفي لإرضائهم .

ورث دادا بك عن والده الطبع المتوحش الشرس والإقدام ، دون القدرة على التعاطي مع الباب العالي والقبائل المجاورة ومع شاكلته من الولاة الآخرين . عمل خليل باشا في اللصوصية نصف قرن ، نهب خلاله الشعب ، وأهان الحكومة كباشا وكديريبي ، لكنه مع هذا مات محاطاً بكل التشريفات الممكنة . أما ابنه دادا بك فلم يحرز السلطة أكثر من ثماني سنوات انتهت بميتة مخجلة تعيسة .

لم يكتف الابن بالطريق البرية الرئيسية ميداناً لنشاطه ، بل نزل يتعاطى القرصنة البحرية ، فاقتنى السفن الحربية ، وقام بحملات إلى مكلأ الاسكندرون ، وحتى إلى مرسين والمرفأ التجاري لطرطوس ، حيث كان يستولي من كل هذه على السفن والبضائع ، والذي ساهم أكثر في عثرة الابن خروجه عن قاعدة والده الحكيمة : عدم

(٣) هذا اللقب يحوزه كل الباشاوات برتبة مشير .

التعرض للسناجق المجاورة ، والاكتفاء فقط بما يهبه الله إليه من سنجقه . سنة ١٨١١ ، جهز الباشا اليوزكاتي أمين شعبان أوغلو ما بين ١٢ إلى ١٥ ألف مقاتل من قبائل جبال طوروس ، وبأمر من الباب العالي ، قام بمهاجمة سنجق دادا بك ولكنه ردّ على أعقابه . بعده بأعوام قام مصطفى باشا ابن الديريبي البيلاني عبد الرحمن ، مدفوعاً بعدائه الموروث ، وعرض نفسه على الباب العالي ، مؤدباً لدادا بك ، فنجح في خطته بعد أن استمال إليه القبائل المجاورة لدادا بك والتي تكن للأمير كل الحقد ، وقد تمكن فعلاً من أسر الدادا واقتاده إلى أضنة وهناك أحرق الجسم دون الرأس الذي أرسل إلى العاصمة اسطمبول .

ولا بأس من عدة كلمات في هذا المجال عن مصطفى باشا ، الذي أنجز أحد الجوانب المضيئة في الدولة العثمانية ، ولعب دوراً مهماً في الحرب مع الروسيا (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩) . من حيث النشأة والنسب ، كان مصطفى بك ومن قبله أبيه عبد الرحمن أنداداً لدادا بك ووالده كجك علي أوغلو ، فقد اشتهرت عائلته في بيلان بنفس الإساءات المأثورة عن عائلة كجك علي أوغلو في باياس والتي مرّ الحديث عنها . عقب موت والده ، تخلص مصطفى من أخيه الأكبر «ملا بك» قتلاً ، في محاولة منه للتفرد في حكم السنجق ، لكن أخاً ثالثاً استطاع كسب عطف السكان ، فهرب مصطفى قاتل أخيه إلى القسطنطينية بعد أن سرق أموال الخزانة . وهناك نجح في المساومة على حكم بشليك أضنة القريب من سنجق أخيه ، ومن أضنة تمّ لمصطفى إخضاع بيلان وباياس ، وعلى هذا منح بشليك أرزروم مكافأة من الباب العالي . ثم انتقل إلى بشليك حلب وبهذه الصفة اشترك ، بأمر من محمود ، في الحملة ضد عبد الله باشا المستقوي خلف أسوار عكا ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الخامس من هذا الكتاب . وقد ظل مصطفى باشا ينتقل من بشليك إلى آخر ، تارة في الأناضول وطوراً في روميليا ، حتى تعرض لغضب السلطان محمود ، فنفي وسجن في بورسا بعد شكوى سفيرنا ضده ، لألاعيبه في فترة سلام ادريانوبول .

بعد مقتل دادا بك سنة ١٨١٧ ، لجأ أخوه ميستك بك ، ذو الـ ١٠ سنوات ، هرباً من مصطفى ، إلى عدوه وجاره كالنذير باشا والي مرعش . وبعد ترك مصطفى لأضنة كما مر معنا ، عاد ميستك بك إلى باياس واحتل السنجق بأكمله ، وكأنه يسترجع إرثاً شرعياً عن والده وأخيه ، وظل يحكمه تحت وصاية عمه زيتون أوغلو حتى سنة ١٨٢٧ ، حيث هاجمه في هذه السنة متشرد آخر حاج علي بك ، كان قد تمكن من احتلال أضنة وشعاب كولك بوغاز ، ولم يحتج لتثبيت نفسه هناك إلى فرمانات سلطانية ، فحكم بإرادته حتى أنه

لم يسمح للباشاوات المرسلين من القسطنطينية إلى سوريا بالعبور في مناطق سيطرته . وفي فترة خلافة ميستك بك مع حاج علي بك برز في ساحة العصيان متشرد آخر ، تركماني الأصل ، كال ـ آغا فاستولى على طرطوس مستغلاً غياب حاكم أضنة حاج علي بك ، وعندما عرف هذا الأخير ما حصل ، عقد صلحاً سريعاً مع ميستك بك وعاد حثيثاً إلى أملاكه ، قرب أضنة، فاجأ كال ـ آغا ليلاً على حين غرّة ، عندما كان مع كل عصاته يغطون في النوم كالموتى بعد إحدى سكراتهم الليلية ، فقطع رؤوسهم . وأرسل من بينها رأس الزعيم العاصي إلى القسطنطينية ، مع فتوى روحية باعتبار العاصي خارجاً على السلطان ، بينما حاج علي خادم مطيع للسلطان .

في هذه الفترة كان إبراهيم باشا يحاصر عكا ، وكان الباب العالي منشغلاً بهمّ وحيد ، كيفية تأمين الطريق إلى سوريا وتطهيرها من عصابات السرقة والنهب . وبما أن سيطرة حج علي آغا على كولك بوغاز لا تخضع لمساومة ، فقد وافق الباب العالي على اعتبار هذا المتشرد والياً وفياً مخلصاً ، ومنحه ما تستتبعه هذه الصفة من اعتبارات وامتيازات . وبالفعل سمح حاج علي بك لسردار ـ أكرم حسين باشا يوم انطلق على رأس ٥٠ ألف جندي لمقاتلة ابراهيم باشا ، سمح له باجتياز شعاب الوادي ، ومده بحيوانات النقل مساهمة في الحملة إلى سوريا . ومن جهة لاطف حسين باشا ديريبي طوروس وأغدق عليه الهدايا من معاطف (جلد خروف) وأسرجة خيل . وبعدما اجتاز عسكره الشعاب ، ومع تحيات الوداع أبرز له الفرمان السلطاني الذي يأمر بإرساله تحت الحراسة إلى اسطمبول . وهناك استقبل حاج علي بحفاوة لأن الباب العالي لم يكن يرغب في غمرة الأزمة السورية ، في أن يبعث الريبة والحذر في نفوس أمثال هؤلاء من المقدامين . ولكن حاج علي مات لاحقاً ، فجأة بعد تناوله فنجان قهوة لدى وزير الحربية .

أما ميستك بك فقد اختبأ من سردار أكرم حسين باشا أثناء مروره باتجاه سوريا ، ولكنه مع عودة هذا الجيش مهزوماً يعبر شعاب باياس على غير هداية ، أتخم غنائماً وسلباً من القوات التركية المتراجعة ، ثم انضم إلى القوات المصرية ، فثبته ابراهيم باشا حاكماً على باياس ، وعلى أساس القاعدة العامة للتركيب الاداري المصري في سوريا ، عين له راتباً ثابتاً بدل الابتزاز الاستبدادي للشعب والمسافرين . ولكن هذه التغييرات المصرية لم ترق للبك الفتي فتلاعب من جديد في المنطقة حسب طريقة تعامله القديمة ، وهرب ثانية إلى مرعش معلناً التوبة والإخلاص للسلطان . دعاه إبراهيم من جديد آملاً في أن يتمكن بواسطته من تأديب بكاوات ثلاثين آخرين متمردين في الجبال المجاورة ، وعفا عن آثامه

السابقة ، متغاضياً عن اللاحقة منها ، مظهراً كل المودة واللطف .

عام ١٨٤٠ ، عندما اضطرت القوات المصرية إلى إخلاء سناجق طوروس متراجعة باتجاه القيادة العامة في سوريا ، لم تفت ميستك فرصة الانتفاع من الغنائم المصرية ودخل مجدداً في طاعة الأتراك وتقلد لخدماته نيشان افتخار . منذ تلك الفترة وعلاقة ميستك بك وباشوات أضنة المجاورين لسنجقه تتأرجح بين الحظوة الكبيرة والرضا وبين الخلاف الدموي . سنة ١٨٤٣ جهزت عليه حملة من متشردي البشليك ، فترك باياس ودخل من ذلك التاريخ في خدمة باشا حلب .

إن سنجق باياس والمناطق الأخرى المجاورة ، متعبة نتيجة الصراع المستحكم بين تركيبتها الاقطاعية القديمة وبين محاولات المركزة الحديثة . ومن المنتظر أن يطول هذا الصراع ، حتى ينقرض تدريجياً مثل هؤلاء الناس ومثل تلك العائلات التي أسهبنا في تصويرها والحديث عنها . والواقع أنهم سينقرضون ، وإن لم يكن بتأثير المتغيرات ، فبتأثير قانون طبيعي ما عن عمر كل قبيلة . فمن المؤكد على الأقل بأن القبيلة التركية التي أعطت في عصرها الذهبي ، ذاك القدر من الناس العباقرة ، وأعطت في الفترة التالية نفس القدر من الوحوش العباقرة ، هذه القبيلة تنضب الآن . في الجيل الحالي ذبلت رجالاتها وتفتتت ، والطبائع تساوت وانحلت فيزيونومي الوجوه . حالياً خلف الموظفون الاقطاعيين ، والحقيقة أن الشعب يتحمل من هؤلاء الموظفين بالقدر نفسه ، وإنما مع تغير في الشكل فقط ، ما تحمله في الماضي من الاقطاعيين الذين يوشك أن يعود ويتحسر على أيامهم . لكن الشعب ليس على حق ، لقصر نظر الجماهير الخاص ، في رؤية الأمور المتعلقة بتطورها الداخلي .

الفصل الواحد والعشرون

وضع الإقليم في ظل ترتيب السلطة الجديد ـ الأمير اللبناني بشير القاسم ـ دسائس نبلاء لبنان وطموحات الشعب ـ نوايا الكهنوت الكاثوليكي ـ مؤامرات الارساليات البروتستانتية ودموية الباشاوات ـ الالتماس الوقح ـ صدقات من أوروبا ـ هراء الجبليين ـ الأسقفية البروتستانتية في القدس ـ ظهور الأميرال الفرنسي ـ أسباب الحروب العصبية اللبنانية .

* *

شكلت الأحداث الدامية التي رافقت إدخال الادارة التركية مجدداً إلى سوريا ، مدداً وتبريراً لتدخل الحكومات الأوروبية في الأمور الداخلية للدولة العثمانية . الانطباع السائد عن هذه الأحداث وجهتها وعواقبها ، خاطىء لأن الآراء التي تتناولها كاذبة ومنحازة غالباً ، وهذا ما يجبرنا عند تناول هذه الأحداث وتوخياً للحقيقة على سرد وقائع الأحداث بمجملها .

كان الأمير اللبناني الجديد على تناقض غريب مع سلفه ، فهو الوحيد الذي تميز من كل أفراد الأسرة الشهابية بميول سليمة وطبع أبوي وقلب طيب ، ومع أنه تمتع بالمحبة الشعبية والاقدام العام في بدايات فترة انتخابه حاكماً على لبنان [1] ، فإنه وبلا أدنى شك ، لو كان في معسكر الحلفاء في جونيه ، من هو على دراية واسعة في الأمور الداخلية للبنان ، وفي درجة نفوذ الشخصيات والعائلات ، لتراجعوا عن خلع الأمير بشير العجوز أو على الأقل لوقع اختيارهم على ابنه الأمير أمين بدلاً من الأمير الجديد بشير القاسم .

الأمير الجديد شخص شريف ، حسن النية ، يحوز صفة الشجاع على الرغم من طعونه في السن ، لكنه لم يكن على صلة بأي من الخصال التي تليق به حاكماً للشعب ، فلا بصيرة نافذة ولا طباع لينة ولا تجربة إدارية ولا مقدرة على حبك المؤامرات ، الصفة

(١) عين الأمير بشير حاكماً على لبنان في ١٣ أيلول ١٨٤٠ . الناشر .

الملازمة لأي حاكم ناجح في كل الدول الآسيوية ، ولا يد كريمة ولا طلعة مهيبة ، لم يكن موهوباً بأي من هذه المميزات التي توضع في المحل الأول بين قبائل البلاد العربية ، أكثر من أي مكان آخر والتي كانت تشكل قوام نفوذ سلفه الأمير بشير الثاني . التناقض بين الاثنين يبدو في مسألة اعتناق الدين المسيحي . كان كلاهما مسيحياً متحمساً ، إنما كان باستطاعة بشير الثاني إخفاء دينه عن المحمديين حتى النهاية ، كان يصوم شهر رمضان ويقسم بجده محمد صلعم بينما بشير القاسم يحتقر هذه البدعة والمخادعة فأشهر إيمانه علناً ، وهذا ما جلب له كرهاً ضمنياً من قبل الحكومة التركية ، التي شكل لها ارتداد الشهابيين، أحفاد النبي محمد صلعم، تدنيساً دينياً وخسارة سياسية، لأنهم الأشد قوة بين القبائل الجبلية التي تتوارث الحكم والامارة في سوريا .

من ناحية أخرى ، كانت قبيلة الدروز ، منذ وقت طويل تنظر بعين الغضب إلى أطماع الموارنة وتطاولهم ، خاصة بعد تحول قبيلة وأمراء أبي اللمع المحمديين واعتناقهم الدين المسيحي ، وهم الذين يتمتعون بالمركز الأول في أرستقراطية قبيلة الدروز ، لكن الصيت المخيف لابراهيم باشا وشخصية الأمير بشير ، وتخلصه مقدماً بالشنق أو بالنفي من كل أخصامه السياسيين ، عوامل أدت إلى إشاعة الخوف والخضوع في الوسط الدرزي . من جهته لم يكن الأمير الجديد بشير الثالث قادراً على ملاطفة الدروز وكسب ودهم ، ففي الحملة الفلسطينية ، وبعد أن لاحظ علائم التمرد الأول عند الدروز الذين كانوا في عداد المعسكر الجبلي ، لم يتورع عن إهانة مشايخهم بعبارات بذيئة وتهديدهم : إن شاء الله سأقطع رؤوسكم العنيدة في يوم من الأيام ! .

في هذه الأثناء كان المشايخ الدورز المشردون المطاردون من قبل الأمير السابق أو العاملون مجبرين تحت رايات ابراهيم ، قد بدأوا يعودون إلى جبالهم واحداً بعد الآخر . الإخوة جنبلاط ، أولاد الشيخ بشير المزودين بفرمان سلطاني يسترجع لهم أملاكهم وأرزاقهم التي كان الأمير الشهابي قد صادرها بعد قتله والدهم ؛ الإخوة ارسلان الذين كانوا قد هربوا بعد مقتل والدتهم ، الإخوة أبو نكد ، العماديون ، كل هؤلاء رموز التقاليد الاقطاعية اللبنانية وممثلوها وضحايا مطاردات الأمير بشير الأنانية التي لم تعرف الرحمة طوال خمسين عاماً من الحكم ، ضحايا تصميمه الدائم على خلع الأرستقراطية اللبنانية ، كلهم عادوا الآن ساعين لاستعادة حقوقهم الوراثية وأرزاقهم . استقبلوا بفرح ودهشة من قبائلهم ، التي مكثت طوال الحكم المصري تحت سوط التجنيد والضرائب ، تتحسر على زعمائها الذين كانت ترى في غيابهم سبباً لكل ما أصابها من ذل ومآسي . مع أن الدروز في هذه السناجق كانوا يتوارثون الحكم منذ القدم ، وكان الشعب المسيحي

يخضع بأغلبيته لسلطانهم . لكن الفترة الأخيرة من حكم الأمير بشير الثاني حملت جديداً على صعيد هذه المعادلة ، فقد أدى ميل الأمير الأكيد نحو المسيحيين وإذلاله لأرستقراطية قبيلة الدروز ، والأكثر من ذلك اشتراك المسيحيين (أبناء دين الأمير) في حملة ١٨٤٠ تحت رايات السلطان والدول المسيحية ، كل هذه العوامل أدت إلى بعث نشاط جديد لدى الشعب المسيحي دفعه لأن يرفض بكرء ، الأطماع الاقطاعية لزعمائه التاريخيين القدماء .

هكذا كانت الحال في الذيول الجنوبية للبنان ، أما في السناجق الشمالية حيث يغلب العنصر الكاثوليكي وتأثير رجال الكهنوت ، فإن مشاعر الاستياء من التواجد التركي هي البادية للعيان بدل مشاعر الولاء والاعتراف بجميل السلطان لتحريره سوريا من المصريين المكروهين . لقد بردت ردات الانفعال الأولى للتحرر من المصريين ، وبدأت تختمر بعض الأفكار الجديدة خاصة بعدما تأكد الجبليون الذين شاركوا في الحملة ضد ابراهيم عن كثب ، من خطأ مراهنتهم على الباشاوات واعتبارهم لهم ، وبعدما لطخت المفارز التركية في سوريا الساحل اللبناني وعلى امتداده من طرابلس إلى بيروت بكل أنواع المساوىء .

لقد بدأت قبيلة الموارنة ، العاملة في الزراعة والغريبة عن أية مواهب فروسية ، تنسب لنفسها فضل هزيمة ابراهيم باشا ، وصارت تسعى نحو الامتيازات والتعويضات عن خدماتها ، وبدأت باضطراب وعجقة تتزين بالسلاح الموزع من قبل الحلفاء أو المصادر من الفراريين المصريين . من جهة ثانية كان منافسو الأمير المخلوع ، وهم كثر ، قد بدأوا في كل مكان وبكل الوسائل يؤججون المشاعر الشعبية . ومن جهة ثالثة جاء الكهنوت الكاثوليكي المرعوب من التأثير الذي يحرزه على الساحة اللبنانية ، من ينسب له هذا الكهنوت نوايا تبشيرية ونعني بهم الانكليز، جاء ليضيف قلقه وتململه إلى عناصر العاصفة التي كانت تتجمع في الأفق السياسي اللبناني .

سمع الباب العالي بوجود الشعب والكهنوت المارونيين للمرة الأولى عام ١٨٤٠ . وهذا يبدو غريباً لمن يجهل علاقة الأتراك وكيفية تعاطيهم مع الشعوب المحكومة . لقد منح السلطان، بعد الضجة التي أثارها الموارنة ، بطريركهم شعار الألماس وأعطاه الحق بتعيين وكيل (كابي ـ كآي) يسعى بما يخصه لدى الباب العالي . خطوة الحكومة هذه جعلت الموارنة على قدم المساواة مع الشعوب المغلوبة الأخرى ، دون أن تنجح بمثل هذه الملاطفات في استمالة الكهنوت الماروني ، الذي أصبح بنتيجة موقف الباب العالي المتراخي ، أكثر جرأة على المناورة وعلى الاشتراك في تدبير أمور إدارة الجبليين . لقد بدأوا

في السينودوس الماروني يناقشون المسألة التالية : أليس من الكفر أن يتلقى الشعب الكاثوليكي ، السلاح من المارقين الكفرة ، وهل يتوجب في مثل هذه القضية طلب الاذن والسماح من روما ؟ (٢) .

كانت هذه التخوفات البريئة ، نتيجة مباشرة لدسائس المبشرين ، الذين كانوا قد حلّوا في بيروت قبل ١٥ عاماً ، وبدلاً من أن يبشروا بالمسيحية كما تفترض بالمرسلين مهماتهم ، بذروا الخلاف بين الكنائس المسيحية لإضعاف تأثيرها فيتمكنوا بالتالي من اجتذاب الناشئة إلى مدارسهم . ولأن القومية تمتزج بالدين في المشرق ، فقد تاه سكان المنطقة في التمييز بين الأميركيين والانكليز . وهذا استغله المرسلون الأميركيون ليكسبوا ثقلاً جديداً في عيون الشعب باعتبار مساهمة الانكليز السابقة في الأحداث السياسية والعسكرية لسوريا . بعد رحيله عن شواطىء سوريا ، ترك الأسطول الانكليزي سرية من فرقة الانزال اتخذت من بيروت مقراً لها . ومن هذه الفرقة توجه ثلاثون ضابطاً في كل الاتجاهات ، لإعداد دراسة وافية عن سوريا ، ولكن كثيراً منهم بدل الاكتفاء باتمام الخرائط ووضع الخطط ، تدخلوا في مجمل شؤون الادارة العثمانية مما خلق مضايقات شديدة لدى الأتراك أنفسهم . أما الباقون فلغيرتهم على ديانتهم وأملهم بالقضاء على نفوذ الفرنسيين ، القائم على إخلاص الموارنة إخوانهم في الدين ، فقد راحوا يجوبون

---

(٢) في تقريره المؤرخ في ١٨ آذار ١٨٤١ ، كتب بازيلي لتيتوف ف. ب، «أمر البطريرك الماروني ، الذي التقاه قنصل فرنسا على مسافة ١٢ فرسخاً من بيروت ، بجمع السلاح تحت تهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة . الخلاصة ، أن أحداً لم يكن يفكر بإعادة السلاح» .

(AVPR, F. . «السفارة في القسطنطينية» d. 718 L. 65)

يعتقد بازيلي أن الدسائس هي وراء أمر البطريرك هذا ، وهي ترمي بالأصل إلى إضعاف النفوذ الانكليزي (الضباط الانكليز هم الذين وزعوا الأسلحة) . يجب الافتراض بأن البطريرك الماروني كان يمتلك أسباباً أخرى : خطر قيام انتفاضة واسعة ضد الاقطاع . نذكر هنا بأن الكنيسة المارونية كانت أكثر الاقطاعيين وملاك الأرض نفوذاً . توجه البطريرك إلى السكان داعياً إياهم إلى الخضوع لأسيادهم «ليسلك كل منكم طريق المحبة والطاعة حسب متطلبات الدين . . . ليخضع كل منكم للسلطان ولكل رجل سلطة» . طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص ٦١٧) . ملاحظة الناشر .

(٣)وصل المبشرون الأميركيون إلى فلسطين سنة ١٨١٩ ، وفي سنة ١٨٢١ تمركزوا في بيروت . كان يشرف على نشاطاتهم ويديرها المجلس الأميركي للارساليات الأجنبية ، المنظمة التي كانت تنفق أموالاً طائلة لتحضير كوادر المبشرين الذين كانوا يتلقون اللغات الشرقية إلى حد الاتقان . في أواسط القرن التاسع عشر كان لدى المجلس حوالى ثلاثين مطبعة تصدر نشراتها بلغات متعددة . سنة ١٨٤٢ أسست الجمعية الاستشراقية الأميركية لمساعدة النشاط التبشيري . سنة ١٨٢٢ أسست الإرسالية البروتستانتية في جزيرة مالطا . مطبعة عربية لطبع المنشورات التبشيرية ـ الدينية ، سنة ١٨٣٤ نقلت هذه المطبعة إلى بيروت . سنة ١٨٤٠ ، كانت للإرسالية البروتستانتية الأميركية فروعها في صيدا وحمص وطرابلس ودير القمر وعبيه ، فضلاً عن بيروت . ملاحظة الناشر .

الجبال مع المبشرين الأميركيين ، يؤازرون النشاطات التبشيرية لهؤلاء السادة .

من جهتهم ، تابع عملاء فرنسا دورهم وألاعيبهم ، فأججوا التعصب الديني لدى الشعب والكهنوت الكاثوليكي . البطريرك الماروني أمر بعدد من الأوامر العلنية بحرق ، إن لم يكن الهراطقة أنفسهم فعلى الأقل ، الكتب الدينية الصادرة باللغة العربية عن المبشرين في بيروت . وقد زاد من حنق البطريرك ، عندما رأى أن الرهبان المتهمين بسرقة خزينة الكنيسة أو بتهم أخرى ، وجدوا عند المرسلين الأميركيين الحماية والملجأ الأمين .

في مطلع ١٨٤١ ، عانى لبنان من خطر مجاعة حقيقية ، إذ فقدت المواد الغذائية حتى الخبز [٤] ، وأصبح سكان القرى التي ذاقت مرارة انتقام ابراهيم باشا ، تحت رحمة الموت جوعاً أو برداً في قسوة الشتاء . وزعت القنصلية الفرنسية في تلك الفترة ، عبر رجال الدين أحمال القمح بدون مقابل ، وكلما نجحت فرنسا في اجتذاب التعاطف الشعبي المفقود سابقاً بسبب تحيزها لمحمد علي ، كلما ارتفعت أصوات السكان الموارنة باللعنات على الأتراك والانكليز كذلك صار السكان ينتظرون ظهوراً وشيكاً للأسطول الفرنسي لتحرير القبائل اللبنانية ، مع أن كاهل هذه القبائل لم يكن مثقلاً في الواقع إلا بطموحات الموارنة بالذات . هذه الطموحات التي شكلت لدى كل حزب دافعاً لتحقيق مآربه الخاصة : المشايخ الدروز طالبوا ببعث وإعادة الحقوق الاقطاعية ، المكروهة عميقاً لدى مسيحيي السناجق الجنوبية . أنصار الأمير بشير عملوا على إعادة أميرهم المنفي . أما الكهنوت الماروني فقد سعى من جهته إلى تأسيس حكم تيوقراطي في الجبال اللبنانية فوق حطام كل السلطات الدنيوية .

وبعد ، هل يستطيع الأمير الجديد ، وسط هذه الاضطرابات وصراع النفوذ في الداخل ، ووسط هذه التدخلات الخارجية ، وفي ظل استياء سلطات الباب العالي الواضح منه ، هل يستطيع التحصن والصمود بوسائله وقدراته المحدودة ؟

كان سليم باشا وكيل الباب العالي في تلك الفترة ، وهو الحائز على لقب سرعسكر بعد نجاح الحملة المشتركة على سوريا ، حيث كان يشغل خلالها آمر اللواء السلطاني . وسليم باشا شخص محدود المواهب ، جاهل ، حاقد ، وبليد ، نقول هذا على الرغم

(٤) في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت الزراعة اللبنانية قد تخصصت بتربية دود الحرير وزراعة العنب . الحبوب المنتجة محلياً كانت تكفي السكان المحليين لمدة ٣ ـ ٤ أشهر فقط . وكان القمح يأتي إلى لبنان من سوريا الداخلية ومصر . العمليات العسكرية في سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ أعاقت نقل القمح إلى لبنان . ملاحظة الناشر .

من إغداق الألقاب والمنن عليه من حكومته ، وارتفاع شأنه والاهتمام به حتى لدى الدول الأوروبية نفسها ، وهذا ما أوصله إلى أن يصدق ما تزين له نفسه من مزايا ومواهب ، حتى أنه نسب لشخصه ووجوده النصر على ابراهيم باشا فوق مرتفعات بكفيا ، وراح يتهم الأمير اللبناني بالخيانة لأن ميليشياه في تلك المعركة لم تنجح باحتلال الوديان خلف ابراهيم باشا ، مما حرم الباشا التركي من نصر مكلل بغار «أسرة» القائد المصري . للتذكير كان سليم باشا يعمل في تلك الفترة في عهدة الانكليز والجنرال جوكموس . المهم أن سليم باشا أدار المنطقة بكل ما هو معروف عن الادارة التركية من ملاحقات سرية وقدرة على حبك الدسائس . وأول ضحاياه كان الأمير اللبناني التعيس ، وكان التسريع في حصول الأزمة اللبنانية عام ١٨٤١ ، أول ثمار سياسته .

في ربيع ١٨٤١ ، أمر الباب العالي بأن تجبى الأتاوة من القبائل اللبنانية ، مبلغاً ثابتاً ، وليس على أساس النظام المالي العام كما هي الحال في سائر الأمبراطورية . وفي هذه الخطوة رجعة لعادة الجباية القديمة التي طالما تمنى الجبليون معاودتها . تبلغ الأتاوة المطلوبة ٤٠٠٠ كيس (أي ما يعادل ١١٠ آلاف روبل فضي) ، يكتفي الباب العالي بثلثها ويوضع الثلثان الباقيان بتصرف الأمير ، مصاريف إدارية . مقارنة بسيطة مع ما كانت تدفعه القبائل اللبنانية في ظل الادارة المصرية تظهر كم هي أطماع الباب العالي الحالية شديدة الاعتدال . دعي ممثلون عن كل السناجق الى اجتماع عام بهذا الخصوص ، يعقد في قرية عين عنوب على مسافة ١٥ فرسخاً من بيروت (٥) . وفي هذا الاجتماع ، أزاحت العناصر الفوضوية التي كانت تعكر هدوء الجبال القناع عن وجهها وتصرفاتها . فقد عرض الأسقف الماروني طوبيا بتفويض من بطريركه المدعوم بتعاطف الفرنسيين ، ليس رفض دفع الأتاوة وحسب ، وإنما تعدى ذلك إلى مطالبة الحكومة بالمكافآت والتعويضات عن الخدمات التي قدمها الجبليون والخسائر التي تكبدوها في الحرب مع إبراهيم باشا ، وطالب كذلك برفع الرسوم الجمركية حسب التعرفة الجديدة ، منتهياً إلى اقتراح رجاء الدولتين الكبيرتين فرنسا والنمسا التوسط في حال عدم قبول الباب العالي بالمطالب الآنفة .

هذه الأقوال كانت تعكس حقيقة تفكير الجماهير الكاثوليكية في لبنان ، في هذا الوقت انفصل الأرثوذكس والدروز عن الموارنة . الأولون أدركوا ببساطة ، بتأثير من الكهنوت اليوناني الذكي ، هدف هذه الألاعيب الخطرة وعواملها الخفية . الآخرون

(٥) تم الاجتماع في عين عنوب في صيف ١٨٤١ . ملاحظة الناشر .

(الدروز) أشعلوا منافسيهم السذج وأججوا حماستهم من خلال الوعد بمساعدة سرية ، آملين من خلال هذا الموقف الوصول إلى أهدافهم الذاتية (إعادة الحقوق الاقطاعية) دون إغضاب الحكومة .

تقدم الموارنة من الباب العالي برجاء مغرق في ولائه ، عارضين ادعاءاتهم السابقة مجدداً ، مطالبين زيادة ، بأن الأتاوة التي يدفعها الشعب إلى الخزينة هي بالأصل مقابل حماية تؤمنها السلطات ، وهم ليسوا بغنى عن أية حماية وحسب ، بل وأيضاً قادرين على حماية الآخرين والدفاع عنهم .

كانت هذه البراهين الطريفة التي ساقها الجبليون بإيحاء مباشر من «سعاة الخير» الأوروبيين ، الذين كانوا في الطرف الآخر ، يملأون بعد ذلك الصحف باللعنات على الأتراك لأنهم أفسحوا في المجال أمام المآسي وسفك الدماء التي دفعتها قبيلة الموارنة ثمناً لرعونتهم . ذنب الجبليين لا يبرر بأي حال اللامبالاةالمجرمة للسلطات العثمانية تجاه هذه المصائب ، إنه يفسّر برغبة الباب العالي الذاتية بأن تطرح مثل تلك الآراء في الاجتماع .

كان الأمير اللبناني ، بشير الثالث قد ترأس هذا الاجتماع ، وبدلاً من أن يعمل على التخفيف من اتجاهاته الفوضوية ، فقد نجح بخموله المعهود في إبراز مشهد حقارته أمام الشعب والحكومة . الشيوخ الدروز من ناحيتهم عرضوا على الأمير مساعدتهم الخاترة ، شرط أن ينطوي تحت وصاية أحد الجنبلاطيين ، كما كان سلفه في وقت من الأوقات تحت عهدة الشيخ بشير جنبلاط . الأرستقراطية المارونية ، طامحة لإعادة تأثيرها الفوضوي القديم الذي أذله بشير الثاني ، لم تحترم بشيراً الثالث ولم تخضع له . أقرباؤه الأخصاء ، الأوفياء لتراث الشهابيين التقليدي شكلوا أعداءه اللدودين . حاول الأمير المحاط بالدسائس العلنية والمستترة من كل صوب ، جذب الجماهير الشعبية إلى جانبه ، مستنداً في طموحه هذا إلى أوامر الباب العالي عن المساواة بين المواطنين أمام القانون ، وعن توزيع جباية الأتاوة بشكل يتناسب وإمكانية كل فرد . وعد الأمير الشعب بكل الامتيازات الممكنة ، وكان لطيفاً متواضعاً ، يسعى صراحة وبشكل مكشوف لتخليص القبائل اللبنانية من نير اقطاعية الأمراء والمشايخ . لكن في الطرف الآخر كانت فرنسا والسلطة الروحية ، تغذيان النزوات الشعبية ، وهكذا أضحى الأمير الذي كان محبوباً ومحترماً في فترة انتخابه ، أضحوكة شعبه ، الذي لم يكن يرى في ملاطفات أميره ووعوده سوى الضعف والعجز .

في طرف الدول الأوروبية ، استغلت النمسا من ناحيتها اشتراكها في حملة ١٨٤٠ ، واستغلت المبالغة في تصوير المآسي المزعومة التي تتعرض لها القبائل اللبنانية ، وفتحت باب الاكتتاب لصالح أبناء الدين الواحد في لبنان . كذلك أرسلت فرنسا ، في محاولة منها لإعادة تأثيرها السياسي المهزوز في سوريا بحوادث ١٨٤٠ ، كميات وفيرة من المساعدات والأموال ، التي اتخذ منها رجال الكهنوت الموارنة وسيلة لتمرير نواياهم . أما الشعب الذي أصبح بتأثير اهتمام الدول الأوروبية أكثر غنجاً ودلعاً ، والذي كان يفسر حسب فهمه الخاص ، اشتراك الدول الأوروبية في صياغة مصيره ، والذي قرأ ترجمات عربية للمقالات السخيفة التي كانت تضج بها صحف المعارضة الفرنسية ، هذا الشعب راح ينتظر حرباً صليبية جديدة تشنها ضد تركيا ، دول أوروبا الكاثوليكية . كان القرويون اللبنانيون يتسامعون في اجتماعاتهم عن ناحية ما من بلاد الفرنجة اسمها سويسرا ، جبلية مثل لبنان ، لا تدفع أتاوة لأحد . البطريرك الماروني الساذج جعل من نفسه ألعوبة في مهب التأثيرات المحيطة ، عندما أفسح في المجال أمام انتشار إشاعة عن متانة علاقاته مع الدول الكاثوليكية ، وعن أن الأسطول الفرنسي ، عند رجائه ، لن يبطىء بالظهور من أجل تدعيم أطماع قبيلته وادعاءاتها . وقد حدث في نهاية الصيف أن الأسطول الفرنسي ، الذي كان يطوف البحر المتوسط تحت إمرة العميد البحري لاسيوس ، ظهر في المكلأ البيروتي . وهنا التقى بالمراكب الانكليزية التي لم تكف أصلاً عن التردد إلى الشواطىء السورية . راح الموارنة من أعاليهم ينتظرون بين الساعة والأخرى كيف سيطرد الفرنسيون الانكليز الذين كان الكره الشعبي لهم قد تزايد ، بعد النجاحات التي أحرزها في العام الماضي الكهنوت الروماني بتأثير تبشيره المتعصب .

نضجت في هذه الأثناء خطط الدروز أيضاً . لقد بيع السلاح والذخيرة التي وزعت قبلاً من جانب الحلفاء ، أو التي خلفتها المفارز المصرية ، بأبخس الأثمان . ومثل منافسيهم اقتنى الدروز الفائض منها وراحوا يفتشون عن سند خارجي . في هذا الوقت كانت انكلترا وبروسيا تؤسسان في القدس مركزاً دينياً بروتستانتياً ، وقبلاً كانتا قد افتتحتا أسقفية انكليكانية جديدة ، هدفها الأساسي تحويل اليهود إلى المسيحية . وبهذا تأكدت القبائل اللبنانية من نوايا الانكليز التبشيرية . الدروز الدهاة الفطنون ، وفي سعيهم لكسب تعاطف عملاء الانكليز ، أخذوا يكشفون عن ميل نحو المرسلين البروتستانت وراحوا يدعونهم إلى التبشير بمذهبهم في الجبال . وفي الوقت نفسه كان الأصغر في الإخوة الجنبلاطيين يستقل فرقيطة إنكليزية في طريقه إلى لندن لتلقي العلم بدعوة من هيئات دينية رفيعة . وهكذا أضيف إلى عناصر الخلاف الداخلية بين القبيلتين

الرئيسيتين في لبنان ، عنصر خارجي قائم على التنافس الدائم بين الدولتين الغربيتين .

أدى تواجد الأساطيل إلى تفجير كوامن الجبليين وإشعال نزواتهم ، فأريق الكثير من الدماء في الانتقامات الثأرية العائلية وفي الخلافات العشائرية التي حصلت في ظل انعدام السلطة وغياب العقاب عن الجرائم . في شهر آب حصل شجار بين درزي وماروني ، جارين ساذجين في دير القمر ، على حجلة مقوصة في حاكورة أحدهما. وعلى الأثر قتل وجرح من الجانبين ما يزيد عن ٦٠ شخصاً . الحكومة التركية من جانبها ، كانت تنظر من بين أصابعها متغاضية عن كل ما يجري . كل الأطراف قعدت تنتظر الانفجار العام الوشيك . وحده الأميرال الفرنسي من بين كل مواطنيه ، الذي لم يشترك في الجعجعات والتفاهات اللبنانية ، فأبحر بحزن معترفاً بأن ظهور علمه أدى إلى تأجيج النزوات ليس غير .

هذه هي العوامل التي أدت إلى إشعال حرب داخلية بين القبائل اللبنانية سنة ١٨٤١ ، وهي الحرب التي اعتبرتها أوروبا حرباً دينية . إن العداء الديني بين القبيلتين لم يكن سبباً للحرب بل أثراً لها ونتيجة . يشكل الدين في الشرق وبشكل أساسي في سوريا ، وهي الوطن المقدس لدى كل الأديان والطوائف ، العنصر الأولي في حياة المواطن ، ولهذا ينعكس تأثيره في الحياة الخاصة والعامة ، وفي المصائر السياسية وفي مشاعر كل قبيلة . أما في لبنان ، وعلى الرغم من الاضطرابات القديمة والدائمة لقبائله تارة تحت رايات القيسيين واليمنيين وطوراً تحت رايات اليزبكيين والجنبلاطيين ، وبالرغم من صراع الأمراء الحاكمين ضد ادعاءات المشايخ ، فإن القبائل العاملة في الزراعة والتي اختارت الجبال ملجأ آمناً اتقاءً لتعصب المسلمين ، في لبنان هذا لم يتكشف في أي وقت من الأوقات كره ديني متبادل . إن أي مكان آخر في الشرق ، لم يعرف التسامح الديني . ولم يتمتع به ، كما عرفته في لبنان المذاهب الدينية المختلفة من مسيحية ومحمدية .

وفي ما يخص اعتناق البيت الشهابي الحاكم للمسيحية ديناً ، فإن نوايا الكهنوت الكاثوليكي وطموحاته الأنانية ودسائس المبشرين البروتستانت تشكل فترة عصيبة في تاريخ لبنان . في هذه الفترة ، اختفى صراع الأحزاب القديم ، وصراع الاتجاهات السياسية ، وهي صراعات كانت تقمع بسهولة على يد أول حاكم موهوب ، واستبدلت حالياً بصراع مقيت لئيم للشعور الديني الذي ولد الأهواء السياسية وأوجد غذاءً جديداً للتعصب الديني .

الفصل الثاني والعشرون

الاضطرابات في نابلس واليهودية ـ الحرب العصبية الأولى بين الموارنة والدروز ـ انتصار الدروز ـ خلع الأمير اللبناني ـ وصول وزير الحربية وأخطاؤه ـ عمر باشا اللبناني ـ دسائس الشهابيين ـ المكائد الدينية الداخلية والخارجية ـ تدخل الحكومات الأوروبية في شؤون توقيف المشايخ ـ مبعوث جديد من قبل الباب العالي وأخطاء جديدة ـ الاضطرابات في لبنان ـ تمرد الدروز ـ انتصار عمر باشا .

* *

في الوقت الذي كانت تتجمع فيه المواد الحارقة في لبنان ، نشبت في جبال نابلس حرب داخلية شعواء . الشيخ محمود عبد الهادي الذي كان قد استمد من الحكم المصري الدعم ورفعة المركز ، ثبته الأتراك من جديد حاكماً على نابلس مكافأة له على خيانته لابراهيم باشا . لكن الجديد الآن هو عودة المشايخ الذين كانوا قد نجوا هاربين من إبراهيم أيام المذابح النابلسية إلى عشائرهم وقبائلهم ، في وقت كانت فيه هذه القبائل والعشائر مدججة بالسلاح الذي وزعه الحلفاء أو السلاح الذي سلبوه من المصريين في فوضى هربهم أو ذاك الذي اشتروه من لبنان . عودة المشايخ المنفيين جددت العداوات العشائرية القديمة ، بين القبائل النابلسية ، وهي الأقوى شكيمة والأشرس بين كل القبائل السورية . وحسب العادة القديمة المتبعة في الشرق ، أي بعد إعلان المشايخ خضوعهم مواطنين مخلصين للباب العالي وتسمية أنفسهم عبيداً لوكلائه ، شكلوا ائتلافاً ضد عشيرة عبد الهادي . وتقاتلوا معها طوال سنوات خمس ، كان الباشاوات الأتراك خلالها يعينون الحكام تارة من هذا الحزب وطوراً من ذاك وفقاً لمن يتعهد بأتاوة أكبر للخزينة ويتعهد بهدايا أفضل ، دون أن يجرؤوا على التدخل في أمور الاقليم الداخلية على الرغم من أن للحامية التركية وجوداً دائماً في مدينة نابلس .

كانت الفوضى تأكل قبائل جبال اليهودية ، التي كانت تحمل باستمرار إرث عداوة عمرها ١٢ قرناً بين اليمنيين والقيسيين ، وتحتفظ به إضافة إلى الأخلاقية الاقطاعية وأباطيل العالم العربي . استغل المشايخ الانقلاب السياسي في تلك المرحلة ،

لتصفية حسابات الثأر القديمة بينهم بعد فترة السلام الاجباري الذي أثار سأم وتذمر فلسطين تحت الحكم المصري . البدو الرحل تـدفقوا من ناحيتهم أمواجاً هائجة على امتداد الشريط المأهول لشرق سوريا ، ناهبين القوافل والضياع دون رادع أو وازع . في كل مكان وفي كل ميادين الادارة ، وفي ظل الدعوات المرتجلة بضرورة الاعتدال والعدل ، ووسط البريق الخارجي المصطنع لروعة واحتفالية الاستقبالات ، وسط كل هذا نجحت السلطات العثمانية فقط في التعبير عن عجـزها ولاأخـلاقيتها وفي إبـراز عيوبها الذاتية الشائنة أمام مجموع القبائل السورية .

كل هذه الظروف المحيطة ساعدت على إخراج كوامن المشايخ الدروز اللبنانيين ، الذين كانوا يكرهون الخلف الضعيف بشير الثالث ، لأنه شأن سلفه بشير الثاني سعى ولو بوسائل مختلفة إلى تقويض الحقوق الاقطاعية [1] .

بعـد فشل محـاولة الاجتمـاع الشعبي العام في عين عنـوب ، لم يقبـل البـاشـا المعروض الذي قدمه الموارنة بمطالبهم . لكن نسخة منه أرسلت إلى الباب العـالي سراً . لو حصل مثل هذا التحرك مثلاً ، لأمر الباب العالي بـإحراق عـدد من الضياع حتى يعـود الشعب إلى صوابـه . لكن التجارب القـاسية أعـطتـه دروسـاً في الصبـر والتحسب . لذلك أمر الباشا بتسوية الأمر مـلاطفة وبـأية طـريقة . وهكـذا دعي إلى بيروت الوجهاء الجبليون المعروفون بـاتجاهـاتهم السلمية وبـإخلاصهم للحكـومة ، ووزعت عليهم الأموال والهدايا والقفطانات الرسمية بحجة مكافأتهم على خدماتهم في الحـرب الأخيرة . وحددت الأتاوة من لبنان بـ ٣٥٠٠ كيس (١٠٠ ألف روبل فضي) ، ١٢٠٠ كيساً منها حصة الخزينة والقيمة الباقية نفقات إدارية تبقى بتصرف الأمير . لم يتردد بشير الثالث في أن يأمر [2] ، وبالرغم من عدم استعداد الجبليين للدفع ، بالبدء فـوراً بجمع الأتـاوات [3] ، المهمة الـرئيسة للسلطة في الشـرق . ونظراً لاحسـاسـه

---

(١) كان الأمير بشير القاسم يسعى لاستصدار موافقة من الحكومة التركية لتشكيل مجلس تحت إمرته ، وظيفته جمع الضـرائب والنظر في الدعاوي القضائية التي كانت سابقاً من صلاحيات المقاطعجي . وكان يحاول كذلك مصادرة أراضي الاقطاعيين المنافسين له . ملاحظة الناشر .

(٢) في ٥ أيلول سنة ١٨٤١ . ملاحظة الناشر .

(٣) يمكن الحكم على موقف اللبنانيين من رسالة بعثها الأمير بشـير القاسم لسليم باشا بتاريخ ١٦ أيلول ١٨٤١ : «أرجـو سعادتكم أن تسمحوا لي بإعلامكم أن الوثيقة التي كنا قد اتفقنا عليها أثناء اجتماعنا في بيروت بحضوركم ، والتي ذيلها كل الأمراء والمشايخ بتواقيعهم ، تركت أثراً سيئاً لدى السكان في لبنان ، الذين أعربوا عن استيائهم من هذا الاتفاق الذي يلزمهم بدفع الضرائب . لهذا فإن الاجتماعات تتوالى في الجانبين المسيحي والدرزي . من جهتنا سارعنا محذرين الأصدقاء من زعمائهم من مغبة مثل تلك النقاشات الاستفزازية . . كذلك أرسلنا الرسل باتجاهات مختلفة . . وقد أفادوا بأن بعض =

بالعاصفة التي أخذت تتجمع نتيجة قراره ، سأل الباشا أن يرسل كتيبة أو اثنين من الجيش النظامي . لكن طلبه رفض ، ومع اتهامه بالعجز والتباطؤ ، تجرأ بشير الثالث على طلب الجزية من الدروز أولاً ، لكي يستجلب في حال ، مقاومتهم غضب الحكومة على رؤوسهم ، إضافة إلى مراهنته بأنه سيجد سنداً في سكان السناجق الجنوبية من المسيحيين المعادين الدروز .

عندما وصل الأمير إلى دير القمر ، كان الدروز من ناحيتهم قد استعدوا لخلعه ، بإيعاز وتأثير الإخوة أبي نكد الذين كانوا حكام السنجق قبل ذلك بثلاثين سنة(٤) ، المسلحون البسطاء اختبأوا ليال في المدينة عند أبناء دينهم . وبعدما انتهت كل الترتيبات وأصبح كل شيء حاضراً ، ومع إشارة البدء وهي عراك في الساحة بين درزي وماروني ، اندفع الدروز يعملون ذبحاً في المسيحيين ونهباً وحرقاً في بيوتهم (٥) . غطت شبكة المؤامرة العامة هذه ، كل السناجق الجنوبية ، التي كان سكانها يرفضون الخضوع للمشايخ وبدأت مطاردة المسيحيين في كل مكان وفي نفس اليوم .

تحرك موارنة السناجق الشمالية عند معرفتهم بما حصل (٦) واتجهوا بـ ٥٠٠٠ مقاتل إلى ساحل بيروت ، وبدلاً من أن يسرعوا لنجدة الأمير المحاصر الذي يدافع بيأس عن قصره في دير القمر ، فضلوا مهاجمة مدينة الشويفات التي يقطنها الدروز والأرثوذوكس الذين كانوا قد قرروا عدم الاشتراك في الحرب بأي شكل . أقسم الموارنة في فورة تعصبهم الديني على إباحة كنيسة سيدة الشويفات الممجدة على

= المشايخ يبذرون الخلاف ، محرضين الشعب على مخالفة أمر الباب العالي . إلا أن بعض الرسل نجحوا في إقناع الكثيرين بالخضوع لأوامركم . أما في ما يخص هدف المحرضين فهو تخفيض الضريبة على الحرير والعودة إلى النهج القديم . ويقال إن الكثيرين من أولئك الذين وقعوا على الوثيقة في بيروت ، انضموا إلى المتذمرين مخافة استنكار عام من بقية سكان لبنان» . ثم يتقدم الأمير بشير القاسم من سليم باشا برجاء إرسال فرقة مسلحة لمساندة السلطة الحكومية . ملاحظة الناشر .

(٤) كان مشايخ أبي نكد يملكون مقاطعة المناصف ، وقد حرمهم بشير من حقوقهم الاقطاعية وصادر أملاكهم . وبعد سقوطه عادوا إلى لبنان محاولين استرجاع حقوقهم في تلك المقاطعة ، لكن هذا الأمر جوبه بمقاومة من سكان دير القمر . «أهالي دير القمر - يكتب الشدياق - كانوا ينظرون بتعال إلى المشايخ النكديين ويرفضون تنفيذ أوامرهم» . هذا هو السبب الأساسي للعمليات العدائية لمشايخ أبي نكد ضد سكان دير القمر ، وقد استمر هذا الصراع بين المشايخ وسكان المدينة طوال السنوات التالية أيضاً .

(٥) بدأت الصدامات في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤١ . ملاحظة الناشر .

(٦) استطاع الكهنوت الماروني والاقطاعيون جر الفلاحين المسيحيين إلى الصدام . البطريرك الماروني يوسف حبيش (من عائلة مشايخ آل حبيش) أمر كل الموارنة بالخروج لمساعدة بشير القاسم بالسلاح . وقد أرسل إلى المعسكر المسيحي أموالاً لشراء الحاميات والذخيرة . ملاحظة الناشر .

امتداد لبنان ليس من المسيحيين وحسب ، بل ومن الدروز أنفسهم . من الملاحظ أن لا حدود لغطرسة الموارنة تجاه القبائل المسيحية الأخرى في حالة الانتصار ، أما عندما تحل بهم مصائب عامة ، فيسمّون غيرهم من المسيحيين إخواناً لهم وأقرباء . هذه الصراعات المتبادلة كانت تضعف الجبهة المسيحية بشكل واضح . فالأرثوذوكس الذين يعتبرون أكثر القبائل المسيحية شجاعة في هذه الجبال ، يعانون اليوم بشكل خاص من الموارنة وتعصبهم الكاثوليكي . في ظل ميول المسيحيين الفطرية نحو العمل الزراعي ، أكثر من ميولهم نحو الحياة العسكرية ، وفي ظل تشكيلهم الداخلي الأكثر أبوية منه إقطاعياً ، وفي ظل مزاجهم القلق السطحي والثرثار ، وفي ظل خرافات الطائفة عن القبيلة والنسب والتي يقضي تأثيرها المميت على أي طموح عند الشعب في فترة الأزمات السياسية ، في ظل كل هذه الأوضاع نشأت تربية المسيحيين الاجتماعية في الهوان ، فيما الحكم والسلطة المحاربة ، فهي حكر على الدروز منذ القدم .

تميز الدروز وقبيلتهم داخل الشعوب الآسيوية بشدة المراس . رأوا في الدين القومية ضمان الوحدة السياسية وحسب . لم يكترثوا أبداً بأسرار الفرائض الدينية ، بل لبثوا مثل اليهود يكرهون من تبقى من الشعوب وينتظرون امتلاك العالم كإرث شرعي . الايمان بالتقمص وخلود الأشياء يبعث فيهم نشاطاً قاسياً في المعارك . الامتيازات التي تمتع بها المسيحيون اللبنانيون تحت الحكم المصري خاصة ، بعثت الغيرة في نفوس القبائل السورية الأخرى . مع الدروز لا يتعاطف فقط أبناء مذهبهم في وادي التيم وحوران ، وإنما كذلك جماهيرالسكان المسلمة المستاءة من حيل الحكم المصري نحو المسيحيين ، والتي كانت تعاني كما الدروز من عسف قانون التجنيد الاجباري . وأخيراً ، إذا كان المسيحيون اللبنانيون يقدرون أرستقراطيتهم بخضوع عبودي ظاهري لا أكثر ، فهم غريبون عن الشعور الجبار بالثقة بهذه الأرستقراطية والاخلاص لها ، إذا كان المسيحيون كذلك ، فإن الدروز يرون في البيوت الحاكمة ونسلها عباقرة وحراس كيان قبيلتهم . كانت جماهيرهم مقتنعة بمفاهيم الحقوق الاقطاعية عندما أهرق النكديون الدماء المسيحية في دير القمر ، حتى أن النساء الدرزيات اللواتي كن في بيروت دهشن من انتقاد قناصل الدول الغربية للسلطات التركية على لامبالاتها ، مؤكدات بأن المشايخ غير مسؤولين أمام أي كان عن تصرفاتهم في حدود أملاكهم الوراثية . هذه من الأفضليات التي عوّضت للدروز قلة عدد قبيلتهم مقارنة مع المسيحيين .

معروف لدى القارىء [٧] شبلي العريان ، الذي دخل في خدمة ابراهيم باشا بعد مآثره العسكرية في اللجا ، ثم ترك راياته قبل تراجع المصريين من دمشق وعاد إلى صفوف الجيش السلطاني آمراً لمفرزة الخيالة غير النظاميين في بشليك دمشق . ما ان بدأت الحرب العصبية في لبنان حتى انضمت اليه مجموعات من دروز وادي التيم واتجه بهم صوب مدينة زحلة المسيحية ، راسماً طريقه في وادي البقاع بجثث المسيحيين المقطعة الرؤوس .

تقفل زحلة الأودية الشرقية للبنان ، من هنا يصبح بإمكان الدروز في حال احتلالها الدخول إلى قلب السناجق المسيحية . في هذه الأثناء كان القنصل الروسي [٨] في دمشق يفاوض لحماية المسيحيين ، فتوجه إليه سكان زحلة شاكين مولولين . فترك القنصل دمشق بمرافقة مفرزة خفيفة من الخيالة ، وعبر على ظهر حصانه شعاب وادي التيم وظهر فجأة في معسكر الدروز المحيطين بالمدينة من ناحية وادي البقاع . رهبة الاسم الروسي أجبرت شبلي العريان على عقد مصالحة ثم على التراجع . في هذه الأثناء جهز الأمير الشجاع خنجر الحرفوش من بعلبك ، وبإصرار من القنصل الروسي ، فصيلة من المتطوعين المتاولة للدفاع عن المدينة في حال تجدد الهجوم .

ظلت الحرب العصبية طوال ستة أسابيع ، مستعرة في السناجق الجنوبية من لبنان[٩] ، وفي النهاية تم نزع سلاح المسيحيين وإخضاعهم لسلطة المشايخ الدروز . حصل هذا في الأثناء التي كانت فيها مفرزة كبيرة العدد من الموارنة تَـعْـبَث مقابل الشويفات دون أن تتجرأ على دخول الوادي ومساعدة أبناء الدين الواحد . أما الأمير الحاكم الذي تخلى عنه حتى أخصاؤه، فما زال يبذّر آخر رصاصاته في دير القمر مع بعض حراسه الألبان، حتى أنقذ أخيراً من غضب الدروز بعد تدخل المعتمدين الأوروبيين ، وقد نهب الدروز منزله واستولوا على زوج المسدسات التي أهدتها له الملكة فكتوريا .

في الوقت الذي كان فيه الأمير اللبناني يهرب خجولاً إلى بيروت ، كان العسكر

---

(٧) انظر الفصل الثامن .

(٨) يقصد بازيلي رحلته إلى دمشق . ملاحظة الناشر .

(٩) يمكن الحكم على حجم هذه الصدامات من المعطيات التالية : أكثر من سبعين قرية ومدينتين (زحلة ودير القمر) ، دمرت كلياً أو جزئياً . قتل من الجانبين ألف وخمسمائة شخص . احرق ما يقارب الـ ٤٤٠٠ بيتاً . سرقت من المسيحيين أرزاق تعادل قيمتها ١١٧ ألف كيس ومن الدروز ٢٥٥٠ كيساً .

«السفارة في القسطنطينية»، 241 - 240 .L.L. 718 .d ، .AVPR, F ملاحظة الناشر .

الماروني المؤلف من خمسة آلاف مقاتل ينهزم في سهل بيروت أمام ٧٠٠ من الدروز والأرثوذكس الشويفاتيين. خيم الخوف على كل السناجق الشمالية ، وفي البقاع لو لم يدافع الأمير خنجر الحرفوش في هذه الأثناء عن شعاب زحلة ومداخلها لاجتاح الدروز كل لبنان . البطريرك الماروني الذي رمى القبائل اللبنانية في أتون هذه المصائب لتخلفه وأنانيته ، نزل إلى القرى الساحلية استعداداً للهرب على مركب فرنسي فيما لو هجم الدروز .

ولما كانت خلافات القبائل اللبنانية ضمانة أساسية للخضوع للأتراك ، فقد لبث وكيل السلطان في بيروت يراقب بالمنظار ، الحرائق التي كانت تدل على مواقع العمليات العسكرية على منحدرات الجبال ، حتى اختلط دخان هذه الحرائق بالدخان الطيب الرائحة للغلايين والأراكيل ، التي كان الباشاوات والضباط الأتراك يشغلون بها فراغهم في ليالي رمضان المباركة .

قام قناصل الروسيا وانكلترا وفرنسا ، مع بداية الحرب العصبية بمحاولة إقناع الباشا بضرورة ظهوره شخصياً مع مفرزتين من قواته في الجبال اللبنانية[١٠]. قرر الباشا التصرف بعد أن انهزم المسيحيون في كل مكان ، وشردوا وجردوا من السلاح ، وبعد أن شبع الدورز نهباً وأخضعوا لسلطتهم كل السناجق الجنوبية . عند ذلك فقط تحركت المفارز التركية فاحتلت زحلة ودير القمر فاستقبلها المسيحيون كمنقذة . لنتذكر هنا بأنه لو دخل الجيش التركي هذه الجبال قبل شهرين ، كما ظهر الآن لشكل ذلك حينها شرارة تمرد أكيد .

بقي الأمير اللبناني في بيروت وقد خلعه التمرد قبل أن يصدر الباب العالي فرماناً بذلك . ولحماية السكان المسيحيين في السناجق الجنوبية ، والذين دفعوا من دمائهم ثمن ألاعيبهم ومحاولاتهم غير الناضجة ، توجه أحد الوجهاء المسلمين إلى دير القمر ، حيث كان الدروز في نشوة انتصارهم يجاهرون ضد اعتناق الشهابيين للمسيحية ، ويقسمون على عدم الاعتراف بسلطتهم في الجبال .

---

(١٠) في ٨ تشرين الأول ١٨٤١ ، وبعد عودته من دمشق كتب بازيلي في تقرير له إلى القسطنطينية : «عند عودتي إلى بيروت ، وكنت ما أزال قلقاً من كل ويلات الحرب التي عبرت منذ وقت طويل مسرح معاركها ، بعثت نداء قوياً إلى سليم باشا بخصوص عدم تحركه الذي يسيء إلى سمعة الحكومة ، ويشاركني رأيي هذا العقيد روزي قنصل فرنسا وممثلو النمسا وبروسيا» .

AVPR. F. ، «السفارة في القسطنطينية» d. 718. L. 182 ملاحظة الناشر .

هكذا احتفل في الجبال اللبنانية في ربيع ١٨٤١ بالذكرى الأولى لسقوط الحكم المصري . إن الحرب الداخلية التي اشتعلت في نابلس دون رادع أو عقاب ، أوحت للقبائل اللبنانية بالاحتكام إلى السلاح في محكمة الشعب التي أنهت حكم الشهابيين . الكره المتبادل بين القبائل اللبنانية كان ثمرة حكم الأمير بشير الذي استمر خمسين عاماً . في القرن الثامن عشر استبدل التنافس القديم بين القيسيين واليمنيين بالصراع اليزبكي الجنبلاطي . وقد رأينا كيف أدى هذا الصراع إلى تدعيم تأثير الشهابيين . إن الأمير بشير الشهابي الثاني بطعنه اليزبكيين أولاً ، ومن ثم الجنبلاطيين ، كان على تناغم تام مع قاعدة أسلافه الأساسية في الحكم : بذر الخلافات بين القبائل الجبلية . الجديد هو ارتداده نحو المسيحية واعتناقها ديناً وهو حفيد النبي محمد صلعم، وهو ما غرس بذرة الكره الديني الذي راح يتنامى تدريجياً بين القبائل الجبلية والذي رأى فيه الباب العالي عنصر خلاف جاهز يتسلل عبره لتقوية نفوذه . وقد اغتنم الأتراك أوضاع هذه الفترة المضطربة لتمرير نظام الوحدة الحكومية وخلع عناصر ورموز السلطة المحلية القائمة على الحق الأقطاعي القديم . ففي الوقت الذي كان فيه سليم باشا يدعو الدروز والموارنة إلى بيروت لإقرار السلام ، حضر في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) وزير الحربية العثماني سرعسكر مصطفى نوري باشا على رأس قوة بحرية ، مع صلاحيات كاملة من الديوان في محاولة لإعادة النظام إلى الجبال ، وإقرار الترتيبات الحكومية الجديدة . مصطفى نوري هذا كان سركاتب محمود وأحد أخصائه ، فهو بالتالي شخصية وفية لتراث السياسية العثمانية . استقبله الأمير اللبناني بلطف وتشريفات مبالغ فيها ، ولكن هذه لم تجده نفعاً ، لأن الباشا نصحه بالتنازل طواعية عن الحكم الذي غدا مستحيلاً بعد الأحداث الأنفة ، عارضاً عليه مقابل ذلك حكماً ووراثياً لسنجق جبيل . لم يرض الأمير بذلك مطالباً الاحتكام إلى القضاء . لكنه أوقف وأرسل إلى القسطنطينية . كان ذلك في ٢ كانون الثاني ١٨٤٢ . وهكذا انتهى حكم الشهابيين بعد ١٤٧ سنة على بدايته ، أي بعد قرن ونصف من المؤامرات والاضطرابات التي أدت إلى تدعيم تدريجي للحكم التركي في الجبال .

بعد الشهابيين عين الباب العالي ، عمر باشا حاكماً على لبنان ، وهو مارق من ضباط الخدمة النمساويين [11]. انتصار الدروز في أحداث هذه الفترة جعلهم أكثر ما

---

(١١) في ١٦ كانون الثاني ١٨٤٢ . ملاحظة الناشر .

يخافون من عودة الأمير بشير الثاني ، الذي كان قبل أشهر قد ارتحل من مالطا إلى القسطنطينية مع عائلته وخزينته وفيها ضعفا الأتاوة التي تجبى من لبنان . أنصاره في جبال لبنان ، وبتأثير الانطباع الطازج عن المآسي التي تعرض لها الكاثوليك ، والذي يجد تفسيره عندهم بسقوط الحاكم ، كانوا يقفون في وجه أية سلطة جديدة في البلاد ، عاملين على اجتذاب القلوب إلى جانب حاكمهم السابق ، وعلى إرهاق الحكومة بهدف إعادة أميرهم المخلوع أو أحد أبنائه إن عاجلاً أم آجلاً .

شكل الكهنوت الكاثوليكي أداة مخلصة لهذه الدسائس التي طالما أقلقت اللبنانيين ، وأراقت الكثير من دمائهم ، وحرّفت طبائعهم الاجتماعية وخاصة في الجبال . الحكومة الفرنسية المقهورة من كل ما حدث في الشرق سنة ١٨٤٠ رغماً عن إرادتها ، رأت من ناحيتها في مصائب القبائل اللبنانية تأكيداً على صحة انذاراتها السابقة ، وفرصة لإعادة تأثيرها في مجريات الأمور ، فساند معتمدوها بنشاط جهود الحزب الذي كان يقوى يوماً بعد يوم تبعاً لأخطاء وفشل الإدارة التركية ، أما سفارتها في القسطنطينية فراحت تسعي حثيثاً لدى الباب العالي لمصلحة إدعاءات الأمير العجوز وأطماعه .

رفعت إلى الباب العالي كثير من التوسلات الحارة باسم المسيحيين اللبنانيين تطالب «بإعادة الحاكم المسيحي من عائلة الشهابيين» . ولكي تغطي هذه العرائض بألوف التواقيع والامضاءات ، طالب رافعوها في بند من بنودها بـ ٦٠ مليون قرش (٣٥٠٠ ألف روبل فضي) ، تجبى من الدروز تعويضاً عن محروقات ومنهوبات الحرب العصبية . الدروز من ناحيتهم رفعوا عرائض تفيد بأنه في حال تعيين أمير مسيحي على لبنان ، يتعين عليهم أن يتركوا جبالهم والالتجاء إلى حوران الموحشة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدروز اقتفوا خطى مناصري الأمير بشير ، حيث يستند السلوك السياسي إلى الشعور الديني عند الشعب . لذلك استدعوا الحكومة التركية طالبين منها أئمة لإعلان إسلام قبيلتهم . في هذا الوقت كان المرسلون البروتستانت قد طردوا ، وعلاقات المشايخ الدروز مع الانكليز كانت قد توقفت طوال الوقت الذي عصفت فيه هذه الدراما الدينية ـ السياسية .

لنذكر هنا بأن مصطفى نوري ، محبوب السلطان محمود وفارس الحفلات الماجنة القديمة في السراي ، كان في هذه الفترة معروفاً بحماسته للإسلام ، وقد يكون الأمر تكفيراً عن مجون فتوته ، وعن شمبانيا ورووم المرحلة الأولى من

الاصلاحات الاسطمبولية ـ فريسة الحيل السهلة ، لم يدرك مصطفى نوري أن قانون الدروز نفسه لا ينتشر على مجموع الشعب وإنما فقط على طبقة العقال ، ويسمح للجماهير الشعبية بقبول أشكال خارجية لأي دين آخر حسبما تمليه الظروف . جهز مصطفى باشا وفداً من الأئمة إلى الجبال ، وتحت إشرافهم أخذ الشعب يتعلم الصلاة. وبعدما لمس عقال الدروز حماس الأتراك في التبشير، تخوفوا من أن تتشرب قبيلتهم الاسلام في حين كان الهدف الأساسي مخادعة سرعسكر ليس غير . واتقاء لأي غلط أو سوء فهم من قبل الشعب ، اختلى العقال بالمشايخ في قصر آل جنبلاط في المختارة ، وهناك في حفلة تصوف غامضة حسب الطقوس القديمة ، توّجوا الشيخ نعمان في قمة التراتبية كبيراً للبيت الجنبلاطي .

يجدر بالذكر هنا أن هذا الإنسان الشاب ذاع صيته كأكثر المشايخ دهاءً ومبادرة في قبيلته . مع بلوغه مرتبة العقال ، ودخوله الدين ، رفض أية مشاركة في الأعمال السياسية حتى أنه عزف عن إدارة أملاك والده وأرزاقه مستسلماً لتأمل وتراخ. وحتى الآن يظهر أحياناً من لامبالاته المعتادة ، تحت ضغط مدبري المكائد ، لكي يخطط لخلاف مع أخيه الذي كان يرتبط به برقة قبلاً . إذا كان هذا التغير يعزى لتأثير الدين ، فهيهات أن نكتشف سر هذا القانون الغريب رغم كل الأبحاث عنه .

اتفق في هذه الفترة ، وبعدما جهز مصطفى باشا الأئمة المسلمين إلى الدروز في الجبال ، أن وصل إلى بيروت الأسقف الانكليزي الكسندر ، الحاخام المعمّد ، المعين حديثاً في القدس . وهذا ما ولد شعوراً مزدوجاً . فمن ناحية تأكد الشعب جازماً من النوايا التبشيرية لانكلترا نحو قبيلة الدروز ، ومن ناحية ثانية تعمق الانتصار الموهوم لسرعسكر .

كانت كل تصرفات مصطفى نوري ونواياه وأساليبه وأقواله تميل نحو إثارة التعصب الديني لدى مسلمي سوريا . هذا التعصب الذي يحل عند القبائل الشرقية محل الشعور القومي ومحل الولاء للسلطان ومحل حب الوطن . ولنشر إلى أن النقمة على المسيحيين كانت كامنة في صدور المسلمين ، وهم بغنى عن تهييجات سرعسكر التي كان يهدف من ورائها إلى خلق معادل في سوريا للقبائل المسيحية الشاخصة بحب واتكال إلى إخوان لها في الدين ، ونعني الدول الأوروبية . ثم أن سرعسكر ، وقد أزعجته الثقة التي اكتسبتها الدول الأوروبية لدى المسيحيين ، والتي يقابلها بالطبع ازدراء للنفوذ التركي ، كان يظن بأن احتفالية الاستقبالات والفخامة والحاشية الضخمة والأقوال الطنانة ، مظاهر كفيلة بإعادة الثقة المفقودة بالباشاوات وبالباب العالي البهي

(وهذا تعبير مرافق لاسم الباب العالي مثلما نقول سعادة البك مثلاً) . ففي دمشق وبمناسبة وصوله ألقى سرعسكر خطاباً مبجلاً مع انحناءات متكررة أمام أعلام الاسلام ، كل ذلك ليبرهن بأن المصريين لم يطردوا من سوريا بقرار من الدول المسيحية وسلاحها ، كما تنم الإشاعات ، وإنما تحت تأثير شهاب جيوش السلاطين المظفرة وحسب .

ظل مصطفى نوري يبشر بالاسلام بحماس ، متخذاً من الخطابة أسلوباً ومن مقارنة ماضيه الماجن بحاضره المؤمن مثالاً ، ومتهماً باستمرار ابراهيم باشا بالتحيز للكفار . ومع أن مصطفى باشا لم يقم بأية تدابير زاجرة بحق المسيحيين ، إلا أنه عاملهم باحتقار . كذلك فعل مع القناصل الأوروبيين العامين ، إذ احتقرهم وانتقم منهم لتدخلهم في أمور الادارة ، وذلك بعدم النهوض ساعة يدخلون ، لإلقاء السلام عليه ، وبعدم رد الزيارات البروتوكولية . كذلك تعمد عدم الاهتمام بشكواهم . والواقع أن سلوك مصطفى باشا في سوريا ـ ولم يكن يشك في ذلك ـ سبب هموماً ثقيلة لحكومته . فالدروز قبل وصوله كانوا يخشون ما سيقع عليهم من تبعات أعمالهم الدموية السابقة ، لكنهم ، وقد رأوا الباشا على ما هو عليه ، جددوا في مطاردتهم للمسيحيين ، وزادوا من ادعاءاتهم حتى أنهم حاولوا فرض قانونهم على عمر باشا ، مغلفين تصرفاتهم السيئة وعدم خضوعهم ، بالجمل البليغة عن إخلاصهم للباب العالي وباشاواته .

لاقت صيحات السكان المسيحيين الخائبين ، صداها في أوروبا بمجموعها . الحكومات الحليفة من جهتها ذكرت الباب العالي بوعوده للقبائل السورية بعدم المساس بالامتيازات الداخلية والحقوق التي تكرست مع الوقت ، ونصحته بالكف عن محاولته الفاشلة بإدارة الجبال اللبنانية مباشرة من قبل حكام أتراك . والحقيقة ، أن النتيجة الأولى لهذه المحاولة التركية كانت إعادة سلطة المشايخ على الشعب المنهوب المشرد . من ناحيته أصر الباب العالي على تحقيق أطماعه . ولكي يربح الوقت جهز إلى بيروت مبعوث سليم بك ، حفيد علي باشا اليانيني ، لدراسة احتياجات ومطالب القبائل اللبنانية ، كذلك أمر إرضاءً للسفارات الأوروبية ، كلاً من سرعسكر وعمر باشا بتقديم كامل الحماية للقبائل المسيحية ، وإعادة الثقة اليها . هذه الظروف كانت مناسبة بالطبع ، لبذر دسائس أنصار الأمير الشهابي ، وقد سعت فرنسا بحماس لإعادة هذا الأمير العجوز . إلا أن الباب العالي وبالرغم من الاغراءات التي قدمها الأمير بزيادة الأتاوة على لبنان ، ظل يخاف توجهات العائلة الشهابية ومن ناحية ثانية لم يكن ليسامحها على اعتناقها المسيحية ديناً .

وفي الطرف الآخر ، هل كانت الحكومات الحليفة ، والتي حصل انقلاب ١٨٤٠

بتأثير منها، قادرة على القبول بعودة الأمير الساقط ، في الوقت الذي اعتبر فيه خلعه أول عمل علني للحملة المشتركة على الشواطىء السورية ؟ هل كان بإمكان هذه الحكومات المطالبة بإعادة الأمير بشير القاسم الذي قدم عجزه مبرراً لحرب ١٨٤١ الداخلية ؟ لكن الدول الأوروبية ومن ضمنها فرنسا ، وقد أصغت بمجموعها لصيحات المسيحيين ، أصرت على إبعاد الباشا وإعادة العناصر المحلية للإدارة الداخلية . كانت الصعوبة الأساسية تكمن في إيجاد صيغة حل تلبي المصالح المتناقضة للقبائل اللبنانية والباب العالي والتأثيرات الخارجية المحيطة . أخطاء سرعسكر المذكورة أدت إلى تعقيد المسألة وحسب ، فغطرسة الدروز لم تعد تعرف حدوداً ، وبقايا المسيحيين من سكان دير القمر اختبأوا في بيروت أو في صيدا ، تاركين مدينتهم للشيخ ناصيف أبي نكد يتابع عنفه على مرأى من الباشاوات ومن الحامية التركية ، التي كانت تحتل قصر الأمير بشير الثاني في بيت الدين على مسافة فرسخين من دير القمر . وسط هذه الظروف الداخلية والخارجية ، **أمر الباب العالي بإخضاع الدروز . وقد جاءت هذه الخطوة تلبية لرغبات ممثلي الدول الكبرى ، أكثر منها شفقة ورحمة بالمسيحيين .**

في نهاية آذار ١٨٤٢ وبإشارة متفق عليها ، أوقف في بيت الدين ثمانية مشايخ دروز ، كان عمر باشا قد استدعاهم إلى اجتماع يعقد عنده وهؤلاء المشايخ هم : الإخوة الجنبلاطيون ، خطار العماد ، الأمير أحمد ارسلان ، حسين تلحوق ، ناصيف أبو نكد ، حسين الدين ومحمد القاضي * . وبالطبع بقي هناك من لم يقبض عليهم من المشايخ كالأمير أمين ارسلان والشيخ حمود أبو نكد (احتجز أخ لكل منهما) والشيخ يوسف عبد الملك .

تململت القبائل الدرزية بعدما علمت باحتجاز مشايخها ، لكنها ، بلا قيادة ، بقيت مكتوفة اليدين . عمر باشا من ناحيته كان قد اتخذ تدابير احتياطية ، فقد جمع في قصر بيت الدين كل مفارز الجوار العسكرية ، حتى بلغت حاميته ٤٠٠٠ رجل ، كذلك عمل على تأمين الاتصالات مع الساحل باحتلاله الشعاب في الطريق إلى مدينة صيدا ، التي

---

* يظهر أن هناك خطأً أو نقص من قبل بازيلي في نقل الاسمين الأخيرين إلى الروسية . فالمصادر والمراجع التي تتحدث عن المعتقلين الدروز لا تورد هذين الاسمين . كمال صليبي يجعل المعتقلين سبعة : نعمان وسعيد جنبلاط ، أحمد وامين ارسلان وناصيف أبو نكد وحسين تلحوق وداوود عبد الملك ، راجع «تاريخ لبنان الحديث» ، دار النهار ، ط ٤ ، ١٩٧٨ ، ص ٩٤ ، أما طنوس الشدياق فهو يورد أسماء المعتقلين كالتالي : نعمان وسعيد جنبلاط، أحمد ارسلان ناصيف أبو نكد ، حسين تلحوق ، يوسف الملكي وخطار العماد . راجع أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧٢ .

أرسل إليها الأسرى تحت حراسة مشددة حيث نقلوا بحراً إلى بيروت .

هذه المرة كما في كل المرات السابقة ، شكلت نزاعات الجبليين دافعاً لنفوذ الباشاوات الأتراك في الجبال ، ووسيلة لإخضاع الأحزاب اللبنانية بعضها بواسطة البعض الآخر . فالمسيحيون اللبنانيون لا يتأخرون عن النهوض والثأر من الدروز . وهنا نجد أن الكره الديني الذي أسس عليه آل شهاب نفوذهم المرحلي الآني ، سهّل لاحقاً أمام الباب العالي القضاء على العناصر المحلية وتقوية السلطة العثمانية بغض النظر عن كل أخطائه وأخطاء باشاواته .

بعد خطوات عمر باشا تلك بدأ المسيحيون بالانتعاش ، فقد منحتهم ملاطفة الباب العالي روحاً طالما افتقدوها . سكان دير القمر عادوا إلى مدينتهم وبدأوا تحت حماية الباشا بتدبير أمور بيوتهم وحدائقهم التي كان الدروز قد اغتصبوها . ومثل هذا حصل في كل لبنان الجنوبي . وأخيراً حلّت ميليشيا من المسيحيين في خدمة عمر باشا .

مبعوث الباب العالي سليم بك طاف الجبال اللبنانية طالباً من السكان طرح آرائهم دون خوف . أنصار الشهابيين جددوا مطالبهم وعمقوا دسائسهم مستمدين نشاطاً من ظهور الأسطول الفرنسي للمرة الثانية بقيادة الأميرال لاسيوس . وبالمناسبة ، لقد قدمت الأرستقراطية المارونية أمامه مشهداً من تراثها العائلي «في قتال الإخوة» بين شهابيي مدينة غزير [١٢] . الدروز والكثير من الطوائف المسيحية التي ما زال انطباعها عن فترة حكم الأمير الجائرة أقوى لديها من جروح الحرب الداخلية الطازجة ، طالبوا الادارة التركية بالمساعدة المباشرة . أما أكثرية الكاثوليك فقد جددت توسلاتها بحاكم مسيحي من البيت الشهابي ، وقد رفع الطرفان المتقاتلان ، دعماً لمواقفهما السياسية عدة آلاف من التواقيع والأختام كان في عدادها الكثير من الأسماء المختلفة والأختام المزورة . وهكذا فإن القبائل العربية التي كانت ترزح تحت نير مزدوج ، نير المشايخ الاقطاعيين ونير الاستبداد التركي ، تكرست اعتباطياً ودون أن تدري في أشكال تمثيلية .

تشكل العرائض التي تقدم بها الجبليون من سليم بك ، أو من الباب العالي

(١٢) عن أسباب وطبيعة هذا الصدام يكتب بازيلي إلى تيتوف في ٣٠ آب ١٨٤٢ ما يلي :
«نتيجة الخلاف في غزير على مسافة أربع ساعات من بيروت ، وبسبب أن فلاحاً ترك سيده للعمل عند آخر ، قتل أربعة من زعماء العائلات المارونية الاساسية ، وجرح آخرون كثيرون، نشير إلى أن السكان لم يشتركوا في هذا الخلاف ، بل إنهم لم يتحملوا حتى مسؤولية دفن الجثث» .
d. 736. L. 229. «السفارة في القسطنطينية» . AVPRF ملاحظة الناشر .

مباشرة ، وثائق حقوقية عن مسألة بناء السلطة الحكومية في الجبال . هذه العملية وبالمسار الذي أخذته ، لم تكن الحكومات الأوروبية تمتلك إزاءها سوى صوتاً ناصحاً لا غير . إن الظروف هي التي أعطت صفة الشرعية لتدخل الدول الأوروبية الدائم ، في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، التي أصبح استقلالها وعدم المساس بها نصاً أساسياً في البروتوكولات والمعاهدات ابتداء من العام ١٨٣٩ .

في هذه الأثناء في القسطنطينية كانت تجري محادثات بين الباب العالي والسفارات الأوروبية . وفي لبنان كذلك كان الدروز يستعدون لخلع عمر باشا الذي زاد نفوذه بعد توقيف مشايخهم ، فتبنوا الدعوات التي جاهر بها الموارنة في اجتماع عين عنوب ، تعيين أمير مسيحي على جبل لبنان وتقديم التعويضات عن خسائر الحروب الداخلية . أي أن الدروز دغدغوا في آن معاً شعور القومية وشعور المنفعة الذاتية ، اللولبان الجباران في العالم الشرقي ، لكي يجتذبوا القبائل المسيحية إلى ناحيتهم . تجربة الماضي مع الدروز حمت المسيحيين من الوقوع في مطب جديد ، لأنهم ما زالوا يتذكرون جيداً كيف منافسيهم الدهاة شجعوهم قبل عام على رفض دفع الأتاوة ، فقط لتوجيه غضب الحكومة صوبهم ، ثم ما لبثوا أن ذبحوا بعد ذلك بدون شفقة أو رحمة . حالياً ، وبعد أن أحست الدولة العثمانية بتململ الدروز ، أخذت بملاطفة المسيحيين باعثة لديهم الأمل بالحصول على تعويضات عن خسائر ١٨٤١ ، كما أنها لم تطالبهم بالأتاوة ضاربة كذلك صفحاً عن أخطائهم . أي أن الحكومة التركية كانت تجهد في المحافظة على هدوء المسيحيين ريثما يتم لها التخلص من الدروز .

يعتبر سنجق إهدن في أطراف لبنان الشمالية ، والذي يقطنه موارنة فقط ، مكاناً مقدساً . ففيه تنتصب أشجار الأرز اللبناني الشهيرة ، التي تعطيها الأبحاث الفيزيولوجية عمراً يصل إلى آلاف السنين ، ومنها أخذ سليمان أخشاباً لبناء هيكله في القدس . وعلى القمم الثلجية في ظل هذه الأشجار ، يختبىء مصلى (كنيسة صغيرة) للنساك الزاهدين . نفسه اسم إهدن حسبما تلفظه الشعوب الأوروبية Eden يوحي بالذكريات الجميلة .

إلى إهدن هذه هرب الأمير عبد الله شهاب أحد أقارب ومقربي الأمير بشير ، الذي كان قد دعا الموارنة الى التمرد أثناء ظهور الأسطول الفرنسي . وقد نجح عبد الله هذا في إيهام الاهدنيين بأن المفرزة التركية التي تطارده ، إن هي إلا قوة كبيرة تدخل شعاب إهدن لتجمع السلاح من السكان وتحصل الضريبة . فأسرع الجبليون واحتلوا الوادي الذي كانت المفرزة قد دخلته دون احتراس ليلاً ، وقد استطاعوا قتل ١٥ جندياً تركياً مجبرين الآخرين على الانكفاء إلى طرابلس .

أخبار المناطق الشمالية هذه وصلت إلى السناجق الدرزية على أنها انتفاضة كبيرة ، فاستعجل الدروز عملياتهم العسكرية ، حاولوا قطع المياه عن قصر بيت الدين لكن عمر باشا أفشل محاولتهم بمدفعيته . ثم أخذت زمرهم تهيم على الطريق الرئيسية من بيروت إلى دمشق دون أن تتعرض للقوافل التجارية أو الأشخاص ، إلا أنها احتجزت كل حراس الحكومة . في مثل هذه الظروف لم يعد ممكناً التفكير بإخضاع إهدن . ولتسوية القضية سريعاً أمر السرعسكر بمحاكمة ضابط المفرزة متهماً عسكره بإساءات أدت إلى يأس الجبليين الأوفياء المخلصين للحكومة . ثم أن مفرزة من الميليشيا الالبانية دخلت من ناحية إلى السنجق المذنب قابلتها مفرزة نظامية قوية من الناحية الثانية . لكن محمد باشا قائد الحملة اكتفى بالتهديد متحاشياً بدقة أية عمليات حربية . استضاف المسيحيون قائد الحملة بدون عسكره ، واعترفوا أمامه بخطئهم مؤكدين طاعتهم وولاءهم . بهذا التكتيك العادي في علم الإدارة التركي ، خبت الزوبعة في الناحية الشمالية من لبنان في الوقت الذي كان فيه التمرد مشتعلاً في كل السناجق الجنوبية .

في مثل هذه الظروف نقل مصطفى نوري من سوريا ، ليبعد بعد ذلك بقليل عن الوزارة . انتقل أسد باشا والي حلب إلى إيالة صيدا وارثاً الهموم التي خلفتها له سياسة سرعسكر الغبية . والواقع أن وزير الحربية (مصطفى نوري) الذي وصل سوريا بهدف تسوية أوضاع لبنان تاه في شؤون المنطقة أكثر من سابقيه ، خلط كل شيء ، تمادى في الحيلة ، نقل الأساليب التبشيرية إلى الجبال ، بعث التعصب الديني عن المسلمين ، تخابث على الأحزاب ، داهن الشهوات ، وأوضاع هيبة الحكومة في الوقت الذي كان عليه إعادة النظام الشرعي ، والظهور بمظهر الحكم الحيادي في الخلاف الشعبي .

في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) واستجابة لنداء الدروز اللبنانيين ، دخل شبلي العريان الجبال اللبنانية على رأس ثلاثة آلاف مقاتل درزي من وادي التيم وحوران ، وأقام في قصر الجنبلاطيين في المختارة على مسافة ١٢ فرسخاً عن بيت الدين . وباسم كل قبيلة الدروز طالب الباشاوات الأتراك بإطلاق سراح المشايخ الدروز المسجونين منذ عدة أشهر في بيروت ، حاول أسد باشا جاهداً تهدئته بالملاطفة والحسنى ، وعد بعزل عمر باشا هدف الشكوى الدرزية فوراً . أطلق سراح ثلاثة مشايخ من الموقوفين طالباً منهم تهدئة أبناء دينهم ، لكنهم ما لبثوا أن انضموا إلى التمرد المستعر . أسقط من يد أسد باشا ، ولم يبق له من خيار إلا الحسم المسلح ، خاصة وأن وضع عمر باشا وحامية قصر بيت الدين في حرج كبير ، فقد شحت لديهم المؤونة والذخيرة ، وطريق الساحل مقطوعة بعد نجاح الدروز في السيطرة عليها ، في هذه الأثناء كان عمر باشا يدرب جيشه

على خطط جديدة في مناورات بين الصخور والشعاب المحيطة بالقصر . كان هذا القائد التركي قد شاهد سنة ١٨٣٣ في البوسفور تحركات العسكر الروسي على أصوات الأبواق . أراد عمر باشا أن يطبق في لبنان ما رآه في البوسفور بالرغم من الصعوبات التي تعترض تطبيق هذا التكتيك بسبب طبيعة الأرض . ظن الدروز أن عمر باشا يرفه بأبواقه عن جنوده النظاميين ، فراحوا يتفرجون على هؤلاء الجنود الذين كانوا على صدى أصوات الأبواق المتجاوبة من جبل إلى جبل ، تارة يتفرقون راكضين ، وطوراً ينبطحون أرضاً أو يختفون بين الصخور ، ودون أن يعرف أحد من أين أتوا يخرجون فجأة للانتظام في صفوف والقيام بعرض عسكري منتظم الخطى . راقب المتمردون المناورات من القمم ، ثم قفزوا إلى الصخور القريبة ، داروا في الممرات ، غاصوا في الشعاب على بغالهم العجيبة ، وبدأوا يسخرون من الباشا ونظامييه ، دون أن يفطنوا أن هذه التدريبات على نغمة الموسيقى ، كانت لعبة وخدعة لتجميع قواتهم ليس غير .

أخيراً أحاطت ميليشيا الدروز بالقصر وبدأوا يدعون للمعركة . قبل عمر باشا دعوتهم ، وفي نفس الوقت وحسب الخطة المرسومة مع أسد باشا ، انطلقت تحت إمرة رشيد باشا كتيبتان محمولتان بحراً من بيروت إلى صيدا ، ودخلتا شعاب الجبل تدكان بالرصاص مكامن الجبليين في الطريق إلى دير القمر . وما كاد عمر باشا يسمع من ناحيته رصاص كتيبتي رشيد باشا ، حتى باشر بضرب المتمردين ، الذين أدركوا في هذه اللحظة فقط معنى تدريبات الجنود وأصوات الأبواق . قاتل الدروز بضراوة دون أن يستطيعوا الصمود ، فتراجعوا أمام قوات عمر باشا تحت تغطية نارية ، ولكنهم فوجئوا من الخلف بقوات رشيد باشا وقد سدت الشعاب بمدفعيتها وبالمفرزة الألبانية الخفيفة . جثث القتلى الدروز انتشرت في كل مكان وقد تعدت الألف . وحتى ساعة متأخرة من الليل ظلت قوات عمر باشا تطارد المتمردين في كل الاتجاهات . وفي صباح اليوم التالي وصلت قواته إلى قصر المختارة فأحرقته جزاء ارتداد سعيد جنبلاط أحد مشايخ الدروز الذين أطلقهم أسد باشا بهدف محاورة أنصارهم وتهدئتهم ولكنهم ما لبثوا أن انضموا إلى صفوف التمرد .

هكذا ، وبضربة واحدة حاسمة ، انتهى تمرد الدروز في نفس الأمكنة التي شتموا فيها المسيحيين قبل سنة تماماً . وانتهت بنجاح عسكري السنة الثانية من إعادة السلطة السلطانية إلى سوريا ، إلى هذا الاقليم المحكوم بإرادة الباب العالي والدول الكبرى ، حيث المراحل الزمنية فيه لا تتحدد بتطور القانون والمستوى المدني ، وإنما بصراعات قبائله ، وبإراقة دماء متتالية التي تصب نتائجها دوماً في مصلحة الباشاوات . لا تزال

حتى الآن بالتأكيد ، تتردد أصداء الحوادث التي خصصت لها الفصول الأولى من كتابنا ، إنها نفس الظروف الداخلية والخارجية التي عصفت بالمنطقة سنة ١٨٤٠ أثناء إعادة السلطة السلطانية . إنها نفس الظروف التي كبدت الباب العالي جهداً طويلاً دامياً وتضحيات جمة ، بدل المنافع التي كان الباب العالي يأمل جنيها من سوريا ، غنيمته العزيزة عليه .

يرجع الأتراك كل هذا إلى عادات القبائل وإلى التدخل الخارجي ، ولكن يجب عليهم قبل كل شيء إلقاء التبعة على أنفسهم وعلى باشاواتهم وعلى تذبذب السلطة الدائم وتأرجحها بين أباطيل الماضي وليبرالية النظريات المسرحية التي لا تتلاءم مع عناصر الاقليم الشعبية ولا مع قواه الحاكمة . إلى هذا نضيف عدم امتلاك الباب العالي أية معلومات عن التركيبة الداخلية للمقاطعات البعيدة والقبائل المختلفة الطبائع ، الواقعة تحت سلطته . إن مثل هذا الإهمال كان مسموحاً ومغفوراً في الفترة التي كان فيها ممثلو السلطان بسلطاتهم الواسعة ، يغنون السلطة المركزية عن أية هموم في إدارة المقاطعات . ولكن الاهمال الآنف لا يتماشى والأطماع الحالية للباب العالي ، الذي يكمش في يديه كل السلطات بدون أية معلومات إحصائية عن الاقليم وقبائله ، ويزود باشاواته في نفس الوقت بتوصيات اعتباطية أو «قانوني» حسب تعبير المراسلات التركية ، وهي توصيات مستحيلة التنفيذ .

مهما يكن من أمر هذه الأحداث ونتائجها ، فإن عملية تأديب المتمردين أوحت للشعب برأي إيجابي عن قوة الجيش السلطاني النظامي ، إذ استطاع هذا الجيش بانتصار براق مفرد تشريد عسكر الجبليين ، في الجبال المعاقل التي أمل الدروز إطالة تمردهم فيها . كذلك ألحق جيش الدولة الهزيمة بشبلي العريان ، بطل حوران وآخيل الملحمة السورية والملقب بـ «سيف الدين» بين أفراد قبيلته .

بعد مغامرته في لبنان ، ولعدم معرفته بالنظام الحكومي الجديد ، ظهر شبلي العريان في دمشق ، انطلاقاً من أن أي متمرد في سنحق ما يجد دائماً الملجأ الأمين لدى الباشا المجاور . أحمد باشا والي دمشق أطال عدة أيام حلم شبلي العريان بفوزه بالأمان ، فاستقبله بحفاوة وأهداه الشال والقفطان أملاً باستدراج كل شركائه . ثم بعد فترة ، ما لبث أن أرسله إلى القسطنطينية حيث أودع سجن الأميرالية [١٣] . شريكاه : الشيخ

---

(١٣) عام ١٨٤١ ، وفي محادثة لي مع شبلي العريان في معسكره قرب زحلة ، تنبأت له بهذا المصير بحضور مساعديه ومستشاريه

يوسف عبد الملك والأمير أمين أرسلان اختبآ في القنصلية الانكليزية في دمشق ، ثم استحصلا عفواً بعد ذلك . سعيد جنبلاط الذي كان ، مع فتوته في هذا الوقت ، بسبب عجز أخيه الأكبر الداخل في فئة العقال ، رأس البيت الجنبلاطي القوي ، نال الحرية بعد أن اعتبر أسد باشا أعماله من عبث الطفولة وانصرف من جديد إلى إدارة أملاكه الواسعة .

= الرئيسين . خاف يومها مترجمي من نقل كلماتي إلى العربية ، اتقاء لثائرة الشيخ الهائج . فرحت بكل بساطة أشرح نبوءتي تلك باللغة التركية (كان الشيخ يفهم هذه اللغة) ، ورجوته أن ينقل حديثي للحضور . ببسمة وبغضب وبتنهد عميق نفذ شبلي طلبي . هذه اللوحة انطبعت عميقاً في ذاكرتي . كل وجه من وجوه المشايخ الستين أو السبعين ، المحيطين بي ظهر لي نموذجاً من لوحات رامبرانت أو سلفادور روزي .

الفصل الثالث والعشرون

نظام الادارة الجديد في لبنان ـ سقوط الشهابيين ـ قائمقامان اثنان ـ أطماعهما المتبادلة ـ مسألة السناجق المختلطة ـ الاتجاه الديني للتطور السياسي في لبنان ـ وصول قبودان باشا مع الأسطول ـ ضلال الرأي العام وتأثيره على أمور لبنان ـ المؤامرة الشعبية ـ اللصوصية والقتل ـ رحلة أسد باشا إلى الجبال ـ تبديله ـ رحيل قبودان باشا والحرب الثانية في لبنان ـ مواقع السلطات التركية والجيش ـ مآسي مسيحيي وادي التيم ـ عواقب الدسائس التبشيرية في حاصبيا ـ ادعاءات الدول الكاثوليكية ـ نفي الأمير العجوز ووساطة أولاده وأحفاده ـ الاضطرابات الجديدة لدى الموارنة عند انتخاب البطريرك ـ علي باشا والي دمشق وفراخه الرومية ـ شرور أبي غوش في اليهودية ـ أحوال البدو .

* *

ما أن أخضع التمرد اللبناني ، حتى وصلت من الباب العالي أوامر جديدة تتعلق بالادارة الداخلية لهذه الجبال [1] فقد أجبر ، أمام إصرار الدول الكبرى وفشل المحاولة الأخيرة (تعيين عمر باشا النمساوي) على إيكال إدارة الجبال إلى العناصر المحلية ، والتراجع بالتالي عن فكرته المحبوبة إليه : تعيين باشا تركي وحكم لبنان مباشرة . في أوامره الجديدة ، أقر الباب العالي بأن يوكل إدارة القبائل الجبلية إلى قائمقاميين اثنين من السكان المحليين ، نائبين لباشا صيدا ؛ أحدهما درزي قائمقاماً على الدروز ، والآخر ماروني على المسيحيين . جاء هذا الترتيب ، الذي يعني إبعاد البيت الشهابي عن الحكم إلى الأبد ، لأن الباب العالي كان يرى أن السبب في الاضطرابات وانعدام النظام يعود إلى العداوات المتبادلة بين الدروز والموارنة . أما الدول الأوروبية فقد أثنت من ناحيتها على هذا الترتيب ، كما وافقت على الحكم الذي أصدره الباب العالي بحق البيت الساقط . حتى أن السفارة الفرنسية نفسها اعترفت رسمياً في مذكرة رفعتها بهذا الصدد

---

(١) ٧ كانون الأول ١٨٤٢ . ملاحظة الناشر .

«بحقوق الباب العالي التي لا تتجزأ» . مع الإشارة إلى أننا سنرى لاحقاً كم كانت تصرفات الحكومة الفرنسية صادقة مع هذا العهد . تطبيقاً لسياسة الباب العالي الجديدة ، أمر أسد باشا باختيار القائمقامين فوراً : الأمير حيدر أبي اللمع ، قائمقاماً على المسيحيين ، وهو رأس عائلته ، قريب الشهابيين ، معتنق المسيحية معهم ، والذي يحتل من بعدهم المكان الأول في التراتب الاجتماعي لمسيحيي لبنان . اختيار قائمقام الدروز كان أكثر صعوبة لأن نقمة السلطة تطال كل شيوخهم أكانوا في السابق موقوفين أم أحراراً ، فالجميع شركاء في التمرد الأنف . لكن الباشا فضل الاختيار من المجموعة التي كانت موقوفة . وبعد اجتماعه بمرشحي هذه الفئة انتقى الأمير أحمد ارسلان الذي ظل أخوه أمين يحارب عمر باشا حتى وقت قريب .

يتبادر إلى الذهن أن الدروز سوف يستقبلون هذا القرار بفرح ، وهم الفئة التي طالما رزحت تحت النير الشهابي والتهديد التركي . لكن تركيبة مجتمعهم الاقطاعية والمنافسة المتبادلة بين عائلاتهم وشخصياتهم وانقسام جماهيرهم إلى حزبين اليزبكي والجنبلاطي ، عوامل مجتمعة دفعتهم لتفضيل الحكم الخارجي ، الذي يستطيع كل حزب في ظله المحافظة على حقوقه ونفوذه ، فالوجه المختار من الوسط الدرزي ، إذا أضيف إلى تأثيره الخاص قوة السند الخارجي من ناحية السلطات العثمانية ، يطمح كما حصل مع الشهابيين لأن يدوس أرستقراطية قبيلته .

لنتذكر هنا ، في نهاية القرن السابع عشر ، عندما انقطع نسل البيت المعني الحاكم آنذاك ، فضل مشايخ الجبل دعوة أمير من وادي التيم المجاور ، على اختيار أمير من وسطهم . لكن في الوضع الراهن ، فإن انطباع المآسي الشعبية الطازجة والسجن الذي أرهق المشايخ ، والنقمة المعلقة سيفاً فوق رقاب أقارب الهاربين ، كلها عوامل أجبرت المشايخ على الخضوع دون قيد أو شرط لإرادة الحكومة والقبول بالامتياز الممنوح لآل ارسلان . ولكنهم ، ومن داخل جدران سجونهم عقدوا مع القائمقام الجديد شروطاً يتعهد بموجبها بأن يجعل من سلطته ستاراً شرعياً يحجب وراءه تعسف المشايخ وممارساتهم عن عيون الحكومة ، وأن يضع في تصرفهم من ناحية ثانية ليس حقوقه القانونية ، بل وعلاوة على ذلك جزءاً من مرتبه . لنشر هنا إلى أنه قضي على الحقوق الاقطاعية للأمراء اللبنانيين ، أما القائمقامون فكان لهم الحق بمرتبات لأنهم مدرجون في خانة موظفي السلطة .

في الجهة المقابلة كان على القائمقام الماروني النضال ضد دسائس الحزب الشهابي

الذي لم يكف بالرغم من الحكم الذي أصدره الباب العالي وبموافقة فرنسا الدولة التي يعتمد عليها هذا الحزب اعتماداً كلياً ، لم يكف عن إقلاق الاقليم ونفخ النزوات الشعبية ، في سبيل إطالة الفوضى فقط ، وإثارة احتجاجات السكان ، وإرهاق الباب العالي والدول الكاثوليكية ، وإقناع الجميع بالتالي بأن ترتيب الأوضاع المدنية في الجبال من دون الشهابيين هو ضرب من المستحيلات .

وسط هذه التوجهات المتعددة بدأت ترتيبات سنة ١٨٤٢ المبنية على الموازنة التالية : في سبيل القضاء على الصراعات الدموية بين الدروز والموارنة يجب قبل كل شيء شطر إدارتهم الداخلية إلى قسمين . لكن هذه الموازنة لا تأخذ بعين الاعتبار أمراً مهماً : في كل السناجق الجنوبية من لبنان والخاضعة لسلطة المشايخ الدروز ، يتألف السكان مناصفة من الدروز والمسيحيين ، وحتى من أغلبية مسيحية في بعض الأحيان . وهذه الناحية هي التي كانت مسرحاً للمعارك القبلية بعد أن استفحل العداء الشعبي بين القبيلتين عام ١٨٤١ ، نتيجة محاولة السكان المسيحيين خلع نير مشايخهم الدروز . بموجب النظام الجديد يبسط القائمقام الماروني سيادته على كل السناجق اللبنانية باعتبار أن هناك مسيحيين في كل مكان من الجبال . أما القائمقام الدرزي فسلطته محصورة فقط في المنطقة التي تسكنها قبيلة الدروز . السكان المسيحيون في السناجق الجنوبية التي أعطيت منذ بروز هذه المسألة اسم السناجق المختلطة (Districts mixtes) كانوا يجاهرون بموقفهم من المشايخ الدروز ويتوسلون القضاء على سلطتهم الاقطاعية ، سيما وأن حق ممارسة السلطة في القائمقامية أصبح ، بعد التعديلات والترتيبات الادارية الجديدة التي أقرها الباب العالي ، محصوراً بالسلطة التنفيذية وبالشرطة الملحقة بها .

أما أطماع المشايخ الدروز فهي ترتكز على الوعد الذي قطعه الباب العالي سنة ١٨٤٠ ، بأن حقوق المشايخ القديمة ستكون مصانة مثلها مثل الامتيازات المحلية . وفي ما خص ادعاءات القائمقام الماروني فقد رفض القائمقام الدرزي وبشكل منطقي وجود إدارتين في سنجق واحد وحتى في ضيعة واحدة ، لعدم قابلية حل كهذا لأن يستمر ، لذلك تخلى للقائمقام الماروني عن إدارة أحوال الدروز القاطنين في أملاك أمراء أبي اللمع في منطقة المتن ، مقابل إدارة القائمقام الدرزي للسناجق المسيحية الجنوبية دون أي تدخل مطلقاً .

شكلت هذه الأطماع المتناقضة والمسائل المعلقة ، مساراً جديداً معقداً تابعت من خلاله الدول والحكومات الأوروبية ، ولسوء حظ الباب العالي، المساهمة في صياغة الشؤون الداخلية للأمبراطورية العثمانية ، بدرجات متفاوتة بالطبع تبعاً للظروف وتبعاً

لمواقف الدول الأوروبية نفسها . وهو تدخل مهين للكبرياء التركي في كل الحالات وفي أي زمن كان . وهذا ما سهل بالطبع أمور الدسائس التي لم يتعب الشهابيون من إثارتها في لبنـان ، في القسطنطينية وفي أوروبـا . كان عمـلاؤهم يفتشون بـاسم السكان عن التعـاصف والمسـانـدة في رومـا ، فيينـا بـاريس ، وقـد مـلأوا الصحف الكـاثـوليكيـة المتعصبة بأكاذيبهم المثيرة للشفقة ، عما يلاقونه من ملاحقات بسبب انتمائهم الديني على حد زعمهم ، ساترين بقناع الدين كل نواياهم السياسية ، صـابغين بمـا أوتوا من قـوة نزاعاتهم المحلية بصبغة دينية دافئة .

انقضت سنوات ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ في محاولات عقيمة لبناء الادارة اللبنانية ، كانت تستجد خلالها ، ولدى كل خطوة ، إحراجات لم تـرد في الحسبان لنـظام القائمقـاميتين المزدوج . أما التقسيم الجغرافي للسناجق بين القائمقاميتين فكان محكوماً بفكرة النـظام الأساسية الهادفة إلى شطر إدارة لبنان . على كل حال لقد نال رسم حدود القائمقاميتين كما أقرها الباب العالي ، مع بعض الاجراءات الرامية التي اتخذها لتذليل بعض العقبات المهمة ، مباركة وإطراء السفارات الأوروبية .

مسيحيو السناجق المختلطة ، أعطوا حق انتخاب وكلاء مقاطعجية لهم من وسطهم مستقلين عن مشايخ السنجق (من أبناء الدين الآخر) ، ومتمتعين بالسلطة الساهرة على الأمن العام . وفي حال حصول مضايقة من أي شيخ ، كان باستـطاعة هؤلاء الـوكلاء التوجه إلى القائمقام المسيحي طلباً لوساطته المباشرة ، أو السعي لدى الباشـا . مدينـة دير القمر ، التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت حصة مشايخ أبي نكد ومسرح مساوئهم عام ١٨٤١ ، اقتطعت من القائمقامية الدرزية ونالت حقـوقاً بلديـة حمايـة لسكانها من هجمات جديدة . هذا في الوقت الذي كـانت فيه الحـامية التـركية لا تـزال تحتل قصر بيت الدين المجاور . وفي النهاية ، وبعد التحقيق في ادعاءات المسيحيين عن خسائرهم المـادية سنـة ١٨٤١ ، تمت الموافقـة على أن تكـون التعويضـات في حدود الـ ١٣ ألف كيس . ولما لم يكن الدروز في حالة تسمح لهم بتأمين هذا المبلغ فقد تعهد الباب العالي بسداد ١٠ آلاف كيس (حوالى ٢٨٥ ألف روبل فضي) على أن يدفع الدروز ما تبقى من المبلغ أي ٣ آلاف كيس .

إن الباب العالي الذي لم يكن يجبي في تلك الفترة الأتاوة من لبنان ، والـذي كان يبذر الأموال الكثيرة لتسهيل أمـور جيشه فيـه ، ولتأمـين هدايـا للجبليين تيسيـراً لمهمة مبعوثيه . . . الخ ، الباب العالي هذا كان يدفع بصبر ثمن التصرفات السيئة لمواطنيه ،

لكي ينهي وكيفما اتفق ، هذه المسألة اللبنانية المثيرة للقرف . كذلك أرسل خليل باشا الذي كان قد شغل منصب سرعسكر في بداية حكم السلطان عبد المجيد ، وتسمى بعد ذلك بقبودان باشا ، أرسله في صيف ١٨٤٤ إلى بيروت ، علّه يسارع بحل المسألة بظهوره في سواحلها على رأس أسطوله .

لكن النزوات الشعبية كانت تضطرم بقوة جديدة [٢] وكانت القبائل المسيحية ترى في صبر الباب العالي الجبن والضعف لا غير . لذا أرادت ، وجراح الحرب الداخلية الأولى لم تندمل بعد ، تجربة حظها ثانية وحسم دعواها مع الدروز بقوة السلاح . وعلى هذا أمضى المسيحيون شتاء ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ يستعدون للحرب . ولأنهم نسبوا المآسي التي تعرضوا لها سنة ١٨٤١ إلى عدم تنظيمهم الداخلي ، فقد عملوا على تشكيل عسكرهم الشعبي من مجموعات مؤلفة من عشرات ومئات الشبان ، دون أن يجرؤ أي شيخ أو أمير على ترأس هذه العساكر . ومن ناحيته لم يكن لدى الشعب أية ثقة بأرستقراطيته . هذه الأرستقراطية التي كانت أقرب وأقدر على فهم الأحداث من الرأي العام الأوروبي المخدوع بالصبغة الدينية للمسألة اللبنانية . وكانت هذه الأرستقراطية ترى بوضوح الاتجاه الفوضوي لأبناء دينها ، وكانت تدرك تماماً بأن إسقاط سلطة المشايخ الدروز سيل سيطالها ويرميها هي بذاتها . أخيراً انتظم الشعب السائب المتروك وشأنه يتدبر أموره ، وأعطى قواد عسكره المعينين من وسطه لقباً جميلاً غير مألوف «شيخ الشباب» .

مركز الاستعدادات الحربية المسيحية كان في دير القمر ، المدينة التي يعود فضل رخائها السابق وتطورها الصناعي إلى الأمير بشير الثاني . مسيحيو هذه المدينة تحمسوا للحركة ظناً منهم بأن الاضطرابات السياسية هي الضمانة الأكيدة لعودة الشهابيين . كانت تجتمع في المدينة لجنة سرية تتمتع بحقوق الإشراف على كل جمعيات المؤامرة

(٢) بدأ نمو الحركة الفلاحية سنة ١٨٤٣ عندما عزمت السلطات التركية على جمع الضرائب المتأخرة عن ثلاثة أعوام خلت (بعد ١٨٤١ لم يجرؤ الباب العالي على جمع الضرائب) ، كردٍ على تململ سكان كسروان في أيار سنة ١٨٤٣ . في ربيع ١٨٤٤ رفض فلاحي منطقة جبة بشري دفع الضرائب . كذلك طرد الفلاحون في منطقة البقاع ملتزم الضرائب بعد صدامات مسلحة . كذلك رفضت طرابلس دفع الضرائب بعد رواج إشاعات عن نية الحكومة التركية جمع المجندين من سوريا . في تموز ١٨٤٤ أدخلت السلطات التركية الجيش إلى طرابلس وجبة بشري . إلا أن التذمر الشعبي لم يهدأ . وعلى الرغم من أن الانتفاضة لم تنفجر إلا أن «الحالة تصبح معقدة يوماً بعد يوم ، والحديث عن إدارة نظامية يغدو أكثر صعوبة» . في كسروان عقد اجتماع شعبي ، احتجاجاً على وجود ضريبة ١٢ ٪ . وفي جنوب جبل لبنان عقدت عدة اجتماعات رفعت بنتيجتها عرائض والتماسات من قبل الفلاحين المسيحيين يرجون فيها تحريرهم من سلطة الاقطاعيين الدروز . ملاحظة الناشر .

الشعبية التي امتدت بخيوطها إلى السناجق الجنوبية . وكانت هذه اللجنة تصدر الأحكام بالموت ، ينفذها أفراد تدفع لهم الرواتب وكأنهم جلادو جمهورية البندقية .

مشايخ الدروز من ناحيتهم ، وبعدما لمسوا الاستعدادات العسكرية المسيحية، اجتمعوا سراً في المختارة عند الجنبلاطيين ، وتعهدوا بتجميد خلافاتهم العائلية لفترة والوقوف صفاً واحداً لدى أول تحرك للمسيحيين [٣] .

بالرغم من أن أية أزمة قادمة ، كانت ستهدم بناء الادارة اللبنانية المتأرجح ، على رأسي القائمقامين قبل أي طرف آخر ، فإن هذين المسؤولين ، وبدلاً من أن يوجها جهودهما لإخضاع السيل الشعبي ، قدما للقبائل الجبلية مشاهد مستمرة من التنافس والأنانية الرخيصة والوشاية ببعضهما البعض لدى الباشاوات . ومن ناحية أمر الباب العالي باشاواته بتنفيذ الأوامر الصادرة عنه ، وتجنب أي تدبير أعوج . لذلك فقد هؤلاء الباشاوات ، بانتظارهم الأوامر من حكومتهم ولغياب أي تصور لديهم عن حل سلمي بين القبائل ، كل إمكانية تحكم بالأحداث ، حتى إمكانية إطالة أمد الهدوء الظاهري الذي كان يطمر بركاناً متفجراً . وفي هذه الفترة أبحر الأسطول التركي للإشتاء ، أما قبودان باشا فقد بقي في بيروت بصفته مبعوثاً كامل الصلاحيات دون أن يكون لديه في الواقع أية صلاحيات، كاملة كانت أم منقوصة. المهمة الموكلة لقبودان باشا في لبنان شكلت حجة وواجهة جيدة لسرعسكر رضا باشا صاحب الجبروت القوي في ذلك الوقت لكي يبقي بعيداً عن العاصمة ، خصمه قبودان باشا الذي كان قادراً بتأثيره على السلطان وقرابته منه على خربطة كل طموحات السرعسكر .

تضاعفت في السناجق الجنوبية ، في الأشهر الأولى من العام ١٨٤٥ ، كل أنواع الشرور من سلب ونهب وقتل . وكان الحزبان المستعدان للحرب يتبادلان التهم ويتداوران تقديم الشكاوي للباشاوات . حاول الدروز جذب الأتراك إلى جانبهم بتكرار إعلان ولائهم وإخلاصهم ، دون أن يقبلوا بالتنازلات التي كان يمليها عليهم الباب العالي لمصلحة المسيحيين . أما المسيحيون فكانوا يعملون على شغل اهتمام الحكومة ، مظهرين أنفسهم ضحايا تعسف وأنانية المشايخ الدروز .

في شباط وصلت من النمسا هبات وعطاءات جديدة (تقدر بحوالى ٣٠ ألف روبل فضي) جمعت لضحايا الحروب الداخلية سنة ١٨٤١ . كل هذا المبلغ الذي تولى

---

(٣) كان هذا في ٢ شباط ١٨٤٥ ـ الناشر .

الكهنوت الماروني مهمة توزيعه أنفق على شراء السلاح والذخيرة ، وقد تولت اللجنة السرية في دير القمر تغطية هذا الأمر ، إذ لفقت باسم المسيحيين توسلات باكية رفعت إلى الباشاوات الأتراك ومعتمدي الدول الكبرى عن نوايا الدروز الشريرة ، محذرة في نفس الوقت لتبرير شكاويها من انفجار نزاعات داخلية جديدة . كانت النفوس ساخطة لدرجة أن خورياً مارونياً له من العمر ٧٠ عاماً خنق في الطريق العام من قبل أقاربه لأنه خالف أوامر اللجنة السرية بضرورة قطع أية علاقة مع الدروز ، وذهب زائراً صديقاً مفضلاً لديه ، أحد مشايخهم . وأكثر ما شجع المتآمرين كان مرور الجرائم دون عقاب ، إذ أن سلطة القائمقامين كانت عاجزة تماماً ، أما الحكومة فلم تكن تجرؤ على فرض تدابير صارمة .

بناءً على اقتراح قناصل الدول الكبرى ، وبعد إلحاح استمر طيلة شهر شباط ، توجه أسد باشا بنفسه في زيارة إلى دير القمر، حيث أطلع شخصياً على ما تخبئه النوايا في لبنان ، في محاولة لاتقاء الانفجار . في كل مكان وجد علائم الطاعة والاحترام . وبالمناسبة والحق يقال ، إن الشعب خلال كل اضطراباته كان يستطيع تقدير الصفات الشخصية حق قدرها . الذكاء ، الطبع الصارم ، الحياد والعدل غير المغرض ، هذا هو أسد باشا النبيل وهو يمثل إلى حد كبير النموذج الأخير من وجهاء الزمن الماضي . في دير القمر خرج في استقباله كل السكان المسيحيين بكامل سلاحهم . وعند مداخلها غنى الأطفال والنساء يمجدونه ، وفي شوارعها نثروه بالأزهار ورشوه بماء الورد . رؤساؤهم وضعوا السلاح عند قدميه ، شارحين بأنهم تجاسروا على لقائه مدججين إشارة إلى الاضطراب الدائم الذي يخيم عليهم في الجبال في ظل الخوف من نوايا الدروز السيئة .

كل هذا كان مدروساً ومحفوظاً عن ظهر قلب . حاول المسيحيون إظهار أنفسهم عبيداً مخلصين متحمسين لكي يميلوا كفة ميزان عدل الباب العالي إلى جانبهم . لم يستطع الباب العالي من ناحيته اقتناص هذه الظروف المناسبة وتأكيد نفوذه الشرعي في الجبال . رحلة أسد باشا إلى دير القمر ، نصائحه ، وعوده بالعدل في الشكاوى المتبادلة بين الدروز والمسيحيين ، كل هذا أوجد انطباعاً إيجابياً منقذاً . وإنما وفي هذا الوقت الحرج نحي أسد باشا وأمره الباب العالي بالسفر فوراً إلى بورسا ، التي تحددت منفى له .

كان أسد باشا قبل تنحيته ينوء بالصعوبات السياسية والمالية لبشليك صيدا التي أثقلته إضافة إلى المسائل اللبنانية ، حتى أصبح بعد فترة غير قادر على حملها أو إيجاد حل لها . لذا كان يتعرض باستمرار لملاحقة موسى صوفاتي باشا وزير المال الذي كان في هذه

الفترة يقاسم رضا باشا نفوذه في الوزارة [٤] . يجدر القول بأن العاصفة التي كانت تتجمع في الجبال كانت ستهب حتماً وفي ظل أسد باشا . لكن وليس في ذلك من شك ، كان باستطاعة الباشا الذكي والعادل والذي نجح عند توليه منصبه في أن يحل الذعر في قلوب الجبليين بإخضاعه التمرد ، وأن يوحي لهم من ثمّ بالثقة ، والذي نجح كذلك في دراسة الاقليم والتعرف إلى أموره ووجوهه ، كان باستطاعته إخضاع الجبليين في الوقت المناسب بعد الانفجار الأول ، ولكفاهم بالتالي مآسي الحرب الداخلية الثانية .

---

(٤) هذا الكره ، الذي استتبع آثاراً مميتة ، ناتج عن أن أسد باشا أبدى أمام أحد خدمه الذي طرد لاحقاً من الخدمة ، وبطريقة بذيئة استياءه من اللهجة الآمرة لكتاب موجه إليه من قبل وزير المالية . الخادم المطرود أسرع إلى العاصمة حاملاً الوشاية . وهي مهينة لأنها تضرب على الوتر الحساس في شخصية الوزير الذي كان والده يعمل في وقت من الأوقات في خدمة أسد باشا نفسه . ولهذا الأخير كانت عائلة الوزير مدينة له بمجدها الراهن .

كان أسد باشا في عداد القلة من الوجهاء الأتراك الذين يرتبطون بالقصر برابطة النسب . فهو يرجع بأصله إلى عائلة إقطاعيي آسيا الصغرى العريقة ، فرسان الفتوحات الأولى . في فترة القضاء على الانكشارية كان منفذاً متحمساً بل وإنسانياً لحكم السلطان في بشليك إدريانوبول وكان يعد بذكائه وتجربته أحد أفضل خدم السلطان . عام ١٨٢٧ سأل السلطان محمود أسداً في رسالة سرية رأيه عما يجب أن يكون عليه الموقف من الإنذار الذي وجهته الحكومة الروسية : هل يعطي السلطان الروسيا مطالبها ، أم لا ، فتكون الحرب ؟ رغبة أسد باشا كانت الحفاظ على السلام ، عارضاً على سلطانه في الوقت نفسه ، كل ما يملك لدفع التكاليف التي تطالب بها الروسيا للتعويض على تجارنا الذين أفلسوا بسبب تسلط الباب العالي سنة ١٨٢١ . كل ذلك لأن السلام ضروري جداً لتمتين إصلاحات محمود . السلطان المخدوع بمداهنات المقربين الذين كانوا يصفون جيوشه الجديدة بالتي لا تقهر ، رأى في نصيحة أسد الذكية الجبن فقط . وقد قبل من واليه اقتراحه بالتضحية بكل أملاكه وإنما ليس في سبيل دفع الدين للروسيا ، كما كان يقصد أسد ، بل من أجل دفع تكاليف الحرب معها . لكن عواقب الصدام اللاحق برهنت سطوع تنبؤ العجوز المجرب ، دون أن يعيد هذا إليه أملاكه التي ذهبت إلى غير رجعة .

عام ١٨٢٦ كان أسد باشا يدافع عن «شملا» في مواجهة الحملة التي قادها جلالة القيصر إلى ما وراء البلقان . وبعد ٩ سنوات على هذا الحدث وبأمر من السلطان ، توجه أسد باشا الذي كان والياً في أرزروم إلى الكسندر وبول لتأدية التحية باسمه إلى جلالة القيصر الذي كان في رحلة إلى ما وراء القفقاس . إطلالة القيصر ، سلوكه وحديثه تركت عميق الأثر في ذهن الباشا ، وقد حصل أكثر من مرّة في بيتي في بيروت أن أعاد أسد سرد أدق تفاصيل هذا اللقاء وعيناه تنظران باحترام إلى صورة القيصر المعلقة . يروي أسد أن جلالة القيصر تذكر في اللقاء الآنف بأن المدافع الشجاع عن حصن البلقان كان يدعى أسد ، فسأل ضيفه إن كان هو نفسه القائد . أسد باشا المنشأ حسب المفاهيم التركية لقواعد السلوك الرسمي اعتبر أن الرد بالإيجاب غير لائق . قول «نعم» يعني التبجح بكونه قارع الجيش الذي كان الأمبراطور نفسه على رأسه ، لكنه كان يعلم كذلك أن الكذب في حضرة القيصر أمر مخجل . فأطرق كالمذنب دون أن يجرؤ على الجواب . فهم جلالته الأمر فدلله وامتدحه لخدمته الشريفة لسلطانه ، فظهرت في عيون العجوز المدهوش دموع العرفان بالجميل . بهر السلطان محمود بتقرير الباشا عن لقائه مع الأمبراطور ، فأصبح أسد المقرب الأول في هذه الفترة . لكن ، وكما يحصل دائماً في تركيا ، أثار عطف السلطان عليه تخوف انتهازيي السلطة . وأحاطت به النميمة فأقصي على إدارة البشليك . ثم أن سفارتنا تواسطت له مدافعة عنه ، فأحيط بالرعاية من جديد ودخل للمجلس الأعلى . لكن صراحته لم تسمح له بالبقاء طويلاً في العاصمة . فأخذ ينتقل من بشليك إلى آخر بعيداً عن اسطمبول . عام ١٨٤٧ أدار كردستان وعاقب فيها العاصي الشهير بدرخان بك . عمره الآن حوالى التسعين عاماً . يعد من أكبر شعراء تركيا وأكثرهم موهبة .

[بدرخان بك ، أمير كردي ، حاكم سنجق الجزيرة . تزعم انتفاضة الأكراد ضد السلطات التركية . وقد أخمدت هذه الانتفاضة سنة ١٨٤٧ . ملاحظة الناشر]

أسقط الباب العالي من اعتباره بإبعاده أسد باشا تلبية للنزوات الخاصة المخيمة على مجالسه كل هذه العوامل المذكورة . وبهذا حكم على القبائل اللبنانية المعذبة بتجارب جديدة مخيفة إضافة إلى تعريض نفوذه في سوريا لهزات عنيفة .

رحيل أسد باشا ووصول خلفه وجيهي باشا الذي كان يريد حتى ذلك الوقت بشليك حلب ، شكل إشارة البدء بالقتال ، خاصة وأن قبودان باشا ترك بيروت بعد أن قضى الفترة يهدس ـ وليس الأمر مجرد شك ـ بأن شيئاً ما يحضر له في العاصمة يقصيه عن منصب الأميرال العظيم . ولكنه نجح باستصدار إذن له بالعودة إلى اسطمبول حيث بإمكانه أن يتدارك ما يخشى حدوثه . ومن بيروت ركب البحر غير آبه بما يحصل في الجبال ، إذ كان يوم سفره هو اليوم الذي بدأت فيه الحرائق الأولى للقرى اللبنانية تطل بدخانها على مدينة بيروت من أعالي الجبال .

لا يجوز لأحد أن يشك بنوايا اللطيف الطيب الذكر خليل باشا ، وأن يتهمه بالسعي المقصود للوصول إلى نتيجة كهذه. كان بطبيعته غريباً عن كل الدسائس رافضاً لها. كان يسأم من الفراغ في بيروت، إذ لم يكن له من تسلية أو حتى شغل غير التهديف وإطلاق النار من بندقيته، ولم يكن يشعر بسعادة تعادل فرحه بإصابة إبريق كسره عن مسافة ١٢٠٠ خطوة(٥). لا نشك بنوايا خليل باشا لأن المسؤولية تقع أساساً على الوزارة، فكأنها وعن سابق تصور وتصميم قذفت بسمعة الحكومة إلى الحضيض بإرسالها الغريب للأميرال العظيم إلى المنطقة ، وباستدعائه الأشد غموضاً وغرابة . وبذلك جلبت لنفسها اتهام المواطنين والرأي العام الأوروبي ، برغبتها الخفية في إنهاك القبائل الجبلية بالنزاعات الداخلية ، وتقطيع عناصر السلطة المحلية . وضرب نفوذها بواسطة الدسائس ، حتى تنجح (أي الحكومة) أخيراً بتعيين باشا يحكم الجبل مباشرة ، رغم التعهدات المقطوعة للدول الأوروبية .

أول ما بدأت العمليات العدائية بين الطائفتين كانت عند نهر الدامور في الطريق الرئيسية بين بيروت وصيدا (٦) . عراك عادي بين مكاريين دروز وموارنة . الرصاص الذي انطلق إثر ذلك أنهض كل السناجق الجنوبية . ولكن المسيحيين هذه المرة كانوا مستعدين سلفاً للمبادرة والهجوم . سكان جزين السنجق الغني والجميل ، الموارنة بمجموعهم ، انطلقوا صوب الشوف السنجق المتاخم لهم ، فأحرقوا الكثير من

(٥) وزع الباشا على حاشيته مبلغ عشرة آلاف قرش في المرة الأولى التي تحطم بها إبريق من على هذه المسافة بطلقة من سعادته .
(٦) في بداية أيار ١٨٤٥ . ملاحظة الناشر .

الضياع ، وهزموا الدروز وشردوا قسماً كبيراً منهم ، وتوجهوا من ثمّ إلى قصر المختارة حيث تحصن الشيخ المكروه من المسيحيين سعيد جنبلاط . وفي الوقت نفسه كان مسيحيو المتن السنجق القائم على الحدود بين الدروز والموارنة ، يهجمون جماعات على الدروز الذين يساكنونهم في قرى مختلطة ، ويعملون حرقاً ونهباً وقتلاً دون أية رحمة .

كل السناجق الجنوبية خضعت في يوم واحد لوحشية وأهوال الحرب العصبية اللئيمة . فقد اشتبك المسيحيون مع الدروز في كل قرية ، وكان المنتصر يحرق بيوت ويتلف أملاك المهزوم. حصل هذا في فصل جمع محصول دود الحرير . ولكي يصرف مشايخ الدروز اهتمام أتباعهم عن العمل في الزراعة وليجبروهم على القتال والدفاع عن القبيلة ، راحوا يحرقون ديدان الحرير مع شرانقها . وعلى صعيد الدولة راحوا يستغيثون بالباشاوات وبالجيش التركي المتمركز في بيت الدين .

امتد انتصار المسيحيين طيلة أسبوع . في كل المتن وكل جزين ، وفي نصف قرى سنجق الشوف ، لم يبق أي درزي . بعضهم سقط قتيلاً والبعض الآخر التجأ إلى السناجق المجاورة وقد سرقت أملاكهم وأحرقت بيوتهم . لكن الدروز بعد نكبتهم ما لبثوا أن فازوا بأسباب القوة وجاء دورهم برد الكيل وكان رداً قاسياً لدرجة أنه خلال أسبوعين من هذه الحفلة الجنونية ، لم يبق في سبعين قرية لبنانية رائعة الجمال مزدهرة غنية ، حتى ولو بيت واحد قائم . كان يمكن تتبع الحرب من بيروت ، نهاراً بغيوم الدخان المتجمعة فوق قمم الجبال ، وليلاً بالنيران الراكضة من قرية إلى أخرى على منحدر الجبال . كل هذه الأحداث والطبيعة في عيدها في فصل الربيع ! الذي يجري فيه نسغ الحياة في مملكة النبات ، والذي يدفىء الطبيعة بشمس أيار ويغطي الحدائق بالزمرد ، والمواسم الناضجة في الحقول والتلال يغطيها بالذهب . هذا في الطبيعة أما في الانسان فقد جن لديه جنون الشهوات ، فاجتاح وكأنه حيوان مفترس هائج الخيرات التي منحتها له الطبيعة المعطاء . كان بجحيم ملتهب في يديه ، وكلب في قلبه ، متعطشاً فقط للدماء والفتك .

القوات التركية كانت في ناحيتين : حامية بيت الدين في الناحية الأولى ، وفي الناحية الثانية كان وجيهي باشا مع جيشه ومدفعيته وقد خرج إلى الجبال لتفريق القبائل المقتتلة . لكن الأتراك انسلوا بحذر متلمسين طريقهم في الجبال خوفاً من أن تنتفض القبيلتان معاً ضدهم ، وخوفاً من أن تتحول نزاعات الجبليين إلى عصيان عام . لكن هذه التخوفات الآن تبدو أقل واقعية منها في الحرب الداخلية الأولى ، حيث يتعمق أكثر

فأكثر حالياً الحقد المتبادل . لكن هذه التخوفات تصبح في محلها فيما لو انتصر الموارنة ، إذ ذاك تتجه طموحاتهم الفوضوية ضد الحكومة ، تماماً مثلما رفع الدروز سلاحهم في وجه الباشا ، بعد انتصارهم على الموارنة سنة ١٨٤٢ . كان يجب على الأتراك ، وفق منطق القوانين الإنسانية والسياسية السليمة وانطلاقاً من الظروف الداخلية والخارجية ، التمسك بحياد حازم بين القبيلتين المتحاربتين مهما كانت الظروف والمستجدات . كان يكفي صدور أمر بمعاقبة كل جبلي يحمل سلاحاً في غير قريته حتى تتفرق الزمر المسلحة إلى قراها . كذلك كان باستطاعة عسس الجيش النظامي التجول في الجبال وفي كل الاتجاهات وتفريق الحزبين بدون جهد . كان تخوف الأتراك يبدو وكأنه أكثر ما يكون على جيشهم ، ولكن هذا كان قناعاً لحسابات لئيمة ليس غير ، فهم غاضبون على الدروز والمسيحيين سواء بسواء ، والقبيلتان حتى الآن وبعد كل ما جرى لم يضعفا كفاية لضمان خضوعهما .

أعلن داوود باشا جنرال الفرقة ، بأنه لن يشتت أرتاله في الجبال ، حيث الممرات والوديان ومشاعر السكان تخبىء كلها الخيانة . وقد تقرر في المجلس الحربي أخيراً بأن لا يقل تعداد أي رتل من الأرتال المتجهة إلى الجبل عن نصف كتيبة ، وأن تبقى معسكرات مع المدفعية في المتن وبيت الدين كاحتياطي للمواقع الأساسية ، إلى حيث كان باستطاعة الأرتال المتحركة الاستناد . هذه المحاذير الاستراتيجية كشفت للقبائل الجبلية تخوفات الأتراك ، وأوحت لها بوقاحة جديدة .

قرر الباشاوات ، التفتيش عن سند بين الحزبين المتحاربين بدل أن ينفذوا حياداً حازماً . فكان الدروز هذا السند ، فما هي العوامل التي أمالت كفة الميزان للمرة الثانية إلى ناحية الدروز ؟

إن التركيبة الأساسية الأوليغارشية للدروز وحتى طباعهم العامة ، تشكلان ضمانة أقوى من الأهواء العنيفة التي كانت تخيم على المعسكر المسيحي . فمشايخ الدروز وأمراؤهم غريبون عن هذا الطموح الشعبي للمسيحيين ، الذي كانت تقوده الدسائس السرية للكهنوت الماروني وأنصار بيت الأمراء الشهابيين الساقط ، والذي كان يهدد بالطوفان كذلك كل النبلاء الاقطاعيين . أما في ما يتعلق بشيوخ الشباب ، زعماء الشبيبة المسيحية ، فقد انهارت تركيبتهم السياسية الفجّة عند أول استنفار حربي ، أما اللجنة السرية في دير القمر ، فإنها كانت تستطيع قيادة المؤامرات وليس العمليات الحربية . بالاضافة إلى ذلك فإن الموارنة وتحت تأثير الفوضى القاتل ، لم يترددوا في جلب غضب

الباشاوات عليهم . ففي الوقت الذي كانوا فيه هم أنفسهم يستغيثون بالأتراك طالبين الحماية ، أقدموا على مصادرة ونهب القروانة (المؤونة) المرسلة بحراسة تركية إلى معسكر وجيهي باشا . وكذلك لم يتوانوا أثناء تراشقهم بالرصاص مع دروز قرنايل في قتل مناوب المفرزة التركية ، الذي كان قد وصل إلى هناك في محاولة لتفريق الحزبين . هذه الجريمة أو لنقل هذه الصدمة ، أثارت كل الجيش التركي ضد المسيحيين ، وأمنت للدروز عطف الباشا المبني على حسابات سياسية . وهذا ما أدى بالتالي إلى تعاطف بين الطرفين قائم على الكره الديني ضد الكفار الذين خانوا الجيش المرسل أصلاً لصيانة السلام .

استغل مشايخ الدروز من ناحيتهم أخطاء منافسيهم ، فقد دعا الباشا إلى معسكره كل مشايخ وأمراء القبائل المتعاركة ، فبينما لم يحضر الموارنة ، بعضهم لعدم ثقته بالأتراك ، والبعض الآخر لشعوره بالعجز عن التأثير في الجماهير من أبناء دينه ، أسرع الدروز وأقاموا عند الباشا وأخذوا يديرون من المعسكر التركي تحركات قبيلتهم تحت حجة بريئة : التعاون من أجل وقف النزاع .

هذه العوامل تفسر ظاهرة غريبة في تلك الفترة : اتحاد الجيوش التركية مع الدروز اتحاداً صارماً مميتاً ضد المسيحيين . مع أن الدروز ومن فترة ليست بالبعيدة ، كانوا قد أعلنوا ضد السلطنة عصياناً عاماً . بينما في الطرف الآخر كان المسيحيون قد أظهروا كل الاخلاص للسلطان سنة ١٨٤٠ . ويمكن القول بأنهم لم يرتكبوا تجاه الحكومة أي ذنب اللهم سوى الأقوال العقوقة القليلة الوفاء وبعض الآمال الضعيفة بمساعدة أوروبية . ولكن مقابل هذه «الذنوب» فإن الفكرة الأساسية التي كانت تحرك الجماهير المسيحية ، ونعني فكرة تقويض الحقوق الاقطاعية ، كانت تتناسب كلياً ونوايا الحكومة العثمانية . أما في ما يخص الدسائس عن إعادة سلطة البيت الشهابي السابق ، فإن أي مراقب حيادي يستطيع الجزم بأن اسم الأمراء الشهابيين ـ كرابيج الطغمة اللبنانية ـ كان يشكل بالنسبة للجماهير الشعبية ، الغريبة عن مكر الأحزاب ، راية طموحها أكثر منه هدفاً لها .

تابع الدروز ، بمباركة الأتراك إخضاع المسيحيين التعساء في كل مكان . بيروت وصيدا امتلأتا بضحايا الحروب الداخلية اللبنانية . البطريرك الماروني مات من الخوف لدى معرفته باقتراب بعض الدروز من كسروان . في هذه الفترة ، وكبادرة حياد وتخفيفاً لشكاوى قناصل الدول الكبرى وإرضاءً لهم ، أمر الباشا بشنق درزي في بيروت اتهم بحرق بيوت المسيحيين ، وبشنق مسيحي في معسكرات الجبال وهو المتهم بقتل المناوب

التركي في جهات قرنايل . تم شنق الاثنين في وقت واحد . ومع أنه كان من الصعوبة بمكان التفتيش عن المتهم في حشود المتقاتلين ، فقد شنق أول من وقع في أيدي القوات التركية ، فقد كان هذا المشهد ضرورياً لإرضاء الجيش الناقم .

سفك الدماء في لبنان انعكس على الوضع في وادي التيم ، حيث إدارة سناجق راشيا وحاصبيا المسكونة بالمسيحيين الأرثوذوكس والدروز على السواء ، ما زالت كما كانت منذ القدم في يد الخط الأصغر من العائلة الشهابية التي لا تزال تحافظ في هذه المنطقة على إسلامها . الأميران سعد الدين في حاصبيا وأفندي في راشيا كانا حتى تلك الفترة ، وقد حرما من حقوقهما الاقطاعية زمن المصريين ، يتمتعان بسلطة متسلمي أو آمري السناجق المتاخمة . وقد ثبتهما الأتراك في هذه المناصب مكافأة لهما على تمردهما ضد المصريين . سنة ١٨٤٣ أقدم باشا دمشق البليد على ارتكاب حماقة بعزله حاكم حاصبيا الأمير سعد الدين وتلزيم مكانه لأحد الأكراد . ثم كان أن حصل نزاع داخلي بين مسيحيي حاصبيا بسبب التوزيع الجديد للأتاوة . مشايخ الدروز من عائلة شمس وقيس والذين لم يحوزوا في أية فترة وزناً سياسياً في هذه المنطقة ، حاولوا على غرار تصرفات المشايخ في لبنان ، تهييج النزاع وتزكية أعمال الحزبين أملاً بإخضاع السنجق المسيحي المزدهر المدين برخائه للأمير المعزول سعد الدين ، هؤلاء المشايخ طلبوا مساعدة المرسلين الأميركيين البروتستانت الذين يجهدون من خلال تكتيكهم وخطتهم التبشيرية في توليد الخلافات بين الطوائف والعائلات ، والاصطياد في الماء العكر كما يقول المثل .

كانت لنا في لبنان ، فرصة التعرف إلى دور المرسلين الأميركيين في إشعال النزوات الشعبية مستندين إلى تأثير «اسم الانكليز وشهرتهم» وإلى التعاطف مع عملاء هؤلاء . لقد فتحوا المدارس وأخذوا ينشرون تعاليمهم ، وقد نجحوا في جذب ٥٠٠ من الناقمين إلى جانبهم ، معللينهم بخيرات ومنن وفيرة ، ومساعدات مالية وحسومات في الأتاوة . في تركيا كانت الهيئة الكهنوتية للقبائل المغلوبة تشترك في تسيير أمور الادارة . من هنا فقد تحول الخلاف غلى توزيع الأتاوة ، بسرعة وسهولة وبدسائس من الدروز والمرسلين إلى خلاف داخل كنيسة حاصبيا نفسها . مما أدى بالتالي إلى خلاف تأججت تحت تأثيره تدريجياً النزوات الشعبية المسببة للانشقاق في الأصل . المرسلون الأجانب الذين ظلوا طوال ٢٥ سنة من عملهم يتشبثون بالشرف ، دون نجاح يذكر اللهم ، سوى إثارة الخلاف بين قبائل وعائلات المذاهب المسيحية الأخرى ، احتفلوا بالارتداد الديني المزيف لمئة عائلة أرثوذوكسية تحولت عن مذهبها واعتنقت البروتستانتية . صحيح أن هذه

العائلات كفت عن زيارة الكنيسة إلا أن المرسلين كانوا مجبرين على ملاحقة جدية «للمهتدين الجدد» لمنعهم من إشعال مصابيحهم أمام صور الأيقونات ، ومن تأدية فرض الصيام . وبالرغم من هذا ظل المهتدون يؤدون بالسر عن مرشديهم ومعلميهم كل طقوس مذاهب الآباء . نجح بطريرك أنطاكية الطاعن في السن ، في مسعاه لدى الحكومة برفع التدابير المالية التي كانت في أساس الخلاف بين أفراد رعيته ، ونجح كذلك في إعادة الأمير سعد الدين محبوب شعبه إلى سدة الحكم ، وقد اجتاز هذا الأخير ثلوج قمة وادي التيم في مهمة ناجحة تتمثل في مصالحة الحزبين المختصمين اللذين أخذا يشعران بوطأة النفوذ الأناني لمشايخ الدروز ، أجبر على أثرها المرسلون البروتستانت على ترك حاصبيا والاختفاء من غضب الشعب . إن هذا الاستطراد ضروري لتفسير تلك المآسي التي طالت حاصبيا التعيسة بحجة الحرب الداخلية اللبنانية . معروف لدى القارىء من هو الشيخ ناصيف أبي نكد . وللتذكير انه جلاد مسيحيي دير القمر ، والهارب من السجن بعد ذلك ، وهو المستثنى ، وبإصرار من قناصل الدول الكبرى من العفو العام الذي منحه أسد باشا للدروز . ومنذ ذلك التاريخ ينتقل هائماً في حوران وبين قبائل البدو الرحل . وما ان بدأت الحرب اللبنانية الداخلية الجديدة ، حتى استدعاه دروز وادي التيم ووعدوه بتقديم المساعدة لمهاجمة لبنان على أن يساعدهم مقدماً في ضرب مسيحيي حاصبيا وإخضاعهم لسلطة المشايخ الدروز . الكاسر أبو نكد جمع عصابة تزيد عن ثلاثة آلاف مقاتل من دروز حوران والأكراد والبدو وخلاف هؤلاء من الأوباش ، وأعلن فرماناً سلطانياً مزوراً ، يوجب على كل المؤمنين بالانقضاض على المسيحيين . ثم ما لبث ، مسبوقاً باسمه المخيف ، أن انقض كالحدأة على حاصبيا . نصح الأمير سعد الدين مسيحييه بالهرب ، فانحدفوا مع عائلاتهم إلى طريق دمشق طلباً لحماية الباشا ، لكن دروز حاصبيا المنضوين في زمرة أبي نكد حاصروا مدينتهم وكمنوا في واد من وديان وادي التيم وقطعوا طريق دمشق على المسيحيين الهاربين الذين كانوا يبيتون لليلة . يأس المسيحيين التعساء أثار لديهم الشجاعة والبأس ، فدافعوا عن أنفسهم طويلاً ، دون أن يتمكنوا من دفع الهزيمة . سقط منهم المئات وقد نجا من التجأ إلى زحلة حيث كان يعسكر وجيهي باشا . بعد ذلك دخل أبو نكد مع زمرته مدينة حاصبيا الخالية من سكانها وأعملوا فيها السلب والنهب كما في مجموع السنجق . كذلك دنسوا الكنيسة وبقروا بطون الخوارنة عند المذبح . وقد فاقوا بممارساتهم وشراستهم إخوانهم في الدين في لبنان .

نعم ! وبعد كل هذه الشرور استقبل أبو نكد بحفاوة من قبل وجيهي باشا وألبس

قفطان الشرف . إنه يستقبل الآن بحفاوة ، بعد أن كان الباشا السابق العادل ، وكأنه يتنبأ بالجرائم التي ترتكب حالياً على يد أبي نكد ، يمنعه من أن يطأ أرض لبنان . هل ننسب ما يحصل مع أبي نكد الآن إلى عمى الباشا أو إلى شراكة الطرفين واقتسامهما غنائم حاصبيا . إن كل تصرفات وكيل الباب العالي أثناء الحرب الداخلية اللبنانية جاءت لتؤكد أكثر افتراضات الروايات الشعبية سوءاً . والأنكى من ذلك ، أنه أوحى بفرحة الباب العالي وسروره تجاه مأساة الجبليين . من ناحيته ، وفي تبريراته أمام سفراء الدول الكبرى ، ألقى الباب العالي تبعة الأحداث على دسائس الأمير العجوز بشير ، الذي كان لا يزال يخربط الأمور اللبنانية ويضيف إلى هموم الحكومة الجديد ، حتى بعد إرساله مع كل عائلته إلى منفى كاستان ـ بولا في آسيا الصغرى . إلا أن عائلة الأمير اللبناني أولاده والأحفاد ، راحوا يتخلون واحداً بعد الآخر عن المسيحية دينهم الجديد الذي ولد البعض منهم عليه . على رأس المرتدين كان الأمير أمين الذي يراهن عليه أنصار الشهابيين بشكل أساسي في مشاريعهم السياسية . عاد الشهابيون إلى دين أجدادهم استرضاء للحكومة ، تماماً كما فعلوا قبل ثلاثين عاماً يوم تعمدوا في الجبال ليجعلوا من قبائل المسيحيين اللبنانيين سنداً ضد الولاة القاسين . وتكريماً للأمير العجوز بشير الثاني وحفظاً لحقه نشير بالمناسبة إلى أنه لم يخن شيبته وكبره ويرتد ، فهو لا يزال إلى الآن على دينه المسيحي في بورسا ، إلى حيث انتقل حديثاً تغييراً للمناخ (٧) .

في الوقت الذي كان فيه دروز لبنان يتابعون التنكيل بالمسيحيين على مرأى من الباشاوات والجيش، كان وجيهي باشا في معسكره مع مدفعية التدريب «يطرد» الدروز بدوي رماياتها الخلب ، وكان يرد على العتاب المر والشكاوى العاجلة للقناصل العامين ، بتصريحات أنيقة عن حياده وانسانيته وعن صفاء وصدق نواياه ، متهماً زعماء المسيحيين وقائمقامهم ضمناً ، بعدم الحضور إليه في المعسكر للتفاوض مع الدروز . ولهذا فإنه يطرح على قناصل الدول الكبرى أن يكونوا وسطاء خير ، ضامناً أمن وسلامة الزعماء المسيحيين والدروز في ما لو أرادوا النزول إلى بيروت لعقد مصالحة .

بدأت المفاوضات في بيروت ، لاحقاً في أواخر أيار ، بمباركة ممثلي الدول الكبرى . وعلى أثر ذلك خفت اشتباكات الجبل شيئاً فشيئاً . ومع أن المسألة الأساسية حول إدارة ما سمي بالسناجق المختلطة التي شكلت مسرحاً للحروب العصبية أو الداخلية ، لم تجد

---

(٧) توفي الأمير بشير على المذهب المسيحي في بورسا [٢٩ كانون الأول ديسمبر ١٨٥٠] .

حلاّ لها ، إلا أن الطرفين قبلا الاحتفاظ بالهدوء ريثما تأتي أوامر وترتيبات جديدة من الباب العالي .

الجديد الذي حصل بعد توقف الحرب بين الموارنة والدروز في السناجق الجنوبية ، كان بدء اضطرابات جديدة في السناجق الشمالية لدى محاولة انتخاب بطريرك ماروني جديد . وقد كانت هذه الاضطرابات تعبيراً عن الصراع الداخلي بين الأطماع الأوليغارشية للمشايخ وبين الميول الجديدة لدى الشعب .

بعد وفاة البطريرك ، راحت الأرستقراطية المارونية تسعى لإنجاح مرشحها ، لكي تسيطر بالتالي ، من خلال رجال الدين المنتمين إلى عائلاتها ، على كل المناصب الحساسة المعطاء في إدارة الأملاك الكنسية ، وهذا ما يشكل مصدر ثورة للمشايخ الكسالى . بالمقابل كان جمهور رجال الدين المسيحيون ، وعلى غنى كنيستهم ، غارقين في الفقر المدقع ، يعالجون بأيديهم أرض الأديرة ، وبالكاد يحصلون الخبز اليابس (٨) . هذا الاستغلال القديم والمتواصل ، أصبح أكثر حدّة ووضوحاً مع تعاظم النفوذ السياسي ، الذي اكتسبه رجال الكهنوت من الانقلابات والأحداث المتتالية لدى القبائل الجبلية .

طوال الصيف استمرت المواجهة بين الطرف الأعزل ، المسلح بالعصي ، ونعني عامة الشعب والرهبان وبين الطرف الثاني المتمثل بالأرستقراطية المارونية التي استطاعت في نهاية الأمر أن تحصر خصومها وتعلن في مجمعها الكنسي ، وبمساعدة من الأدوات الفرنسية ، مرشحاً لسدة البطريركية من عائلة آل الخازن . ونشير هنا إلى أنه في غمرة هذا الصراع وجهت ضربة قاسية للأرستقراطيين القدماء من الموارنة ، تماماً كما كان قد حصل في المناطق الجنوبية الدرزية للمشايخ الدروز في أحداث ١٨٤١ ـ ١٨٤٥ . هذه الأحداث ـ الحروب التي شكلت مقدمات لسقوط المشايخ الذي لا مفر منه .

بعد هدوء الأوضاع في لبنان مات علي باشا والي دمشق . ويؤكد العارفون بأن

---

(٨) في أحد تقاريره المرفوعة بتاريخ ٢ أيلول ١٨٤٥ يصف بازيلي الوضع الفقير للكهنوت الماروني في لبنان «كانت الأوليغارشية المارونية تسيء بشكل صارخ استعمال الأديرة وأملاك الكنائس . . . كان الرهبان الموارنة كادحين فيها ، وكانوا بعرق جبينهم يربون نصوب العنب ، دود القز والزيتون . بأيديهم أجبروا الأراضي غير المستصلحة في السابق على إعطاء المحاصيل . كل هذه التضحيات كانت تزيد ثراء الكنيسة ، إلا أن هذه الثروات كانت تبدد من قبل عدد قليل من الأساقفة والأباتية ، أما الكهنوت الأدنى رتبة ، وهم مطوعو الأرض وغارسوها الحقيقيون ، فكانوا يتدثرون بالصوف الخشن ، ويقتاتون خبز الشعير فقط . جماهير الكهنوت الماروني كانت تعيش في فقر مدقع ، بينما كانت الكنيسة المارونية تعتبر ، بلا مغالاة ، أكثر الكنائس ثراءً في سوريا» .
AVPR. F. «السفارة في القسطنطينية» d. 799. L. 239. ملاحظة الناشر .

مصائب مسيحيي حاصبيا أقضت مضجعه في أيامه الأخيرة واستعجلت موته . وبالرغم من كل عيوب علي باشا وكسله البليد فإنه كان طيب القلب إنسانياً . ومهما يكن من أمر حكمه فإنه ظل حتى نهايته يهتم بمطبخه أكثر من اهتمامه بكل بشليكه . فكان يناقش طباخه مثلاً بكل اتساع صدر وطيب خاطر عن البهارات والمرق وأنواع الـ Catchup أكثر من أحاديثه مع موظفيه عن ترتيب أمور إدارته المهترئة . وحام ممثل الباب العالي في دمشق كان النبيذ والفراخ الرومية . لقد نذر للنبيذ لياليه على مرأى من أهالي الشام الشريفة ، ضاحية وشذى جنة محمد . أما الصباح فكان يقضيه بين ٣٠٠ من ديوكه الرومية المصطفاة . لا ينظر بثقة لأحد إلا لأمر «غرفة القيادة العامة لعنايته ورعايته القطيع المحبب من واليه» . في بشليك هذا الباشا ، وفي الوقت الذي كان فيه مسيحيو حاصبيا يهيمون بلا خبز أو مأوى ، كان متسلم مدينة حمص المتوحش ، إحدى مدن بشليك دمشق ، يعذب على الصليب أحد المسيحيين وهو خزمتشي السنجق المنهوب أصلاً من قبل جيش الباشا . ويستجوب المطران عن التعذيبات التي تحملها يسوع الرب من قبل اليهود ! . هكذا طبقت في المناطق من قبل وكلاء السلطان تعهدات بيان كلخانة أمام القبائل المغلوبة وأمام كل أوروبا .

باستثناء بشليك حلب ، حيث كان يتمركز فيلق الجزيرة العربية الحربي ، كانت كل سوريا غارقة في الفوضى تحت تأثير العاصفة اللبنانية . قبائل المتاولة في وادي بعلبك ، تمزقت بصراعاتها العائلية مع آل حرفوش البيت الحاكم ، وقد اقتصر خضوعها للباشاوات على دفع الأتاوة وحسب . وكل هذا يحصل ، فقط لأن الأمراء الحرافشة المنقسمين إلى حزبين كانوا ينهضون مداورة إلى دمشق طلباً للحماية والدعم ضد بعضهما البعض . باقي قبائل المتاولة المتواجدة في الأودية والمنحدرات الجميلة لذيول لبنان بين صيدا وصور ، أصيبت بعدوى جيرانها اللبنانيين ، فأسست فيما بنيها ائتلافاً تمنعت بعده عن دفع الأتاوة المقررة للباشاوات ، إذا ما تدخل هؤلاء في شؤون القبائل الداخلية . مشايخهم أحفاد ناصيف النصار ، الشهير الذي تحدثنا عنه في عهد الجزار ، لم يظهروا أبداً في المدن ، ولم يستقبلوا أبداً في سنجقهم ، لا موظفي الباب العالي ولا الجيش التركي . الجليل كان مثقلاً بالعصابات الكثيرة من قطاع الطرق . وقد أجبر تعصب المسلمين من سكانه ، مسيحيي الناصرة على الهرب إلى عكا ، حيث كان آمر قلعتها محمد باشا كيو بروزلي ، ذو النشأة الباريسية ، قد أسقط السلطة إلى درك سافل ، حتى أن قواته وخيالته وبدلاً من تطويع عصابات السنجق ، توقفوا عن الخدمة وأخذوا ينهبون الضياع . وقد نجح الباشا ذات مرة في القبض على بعضهم وسجنهم في القلعة ، فما كان

من الباقين إلا أن هاجموا القلعة في وضح النهار وأنقذوا المحتجزين .

في سانور [في جبال نابلس] تواصلت حروب النزاع الداخلي بين عبد الهادي وطوقان التي انطلقت ١٨٤١ ، وتنامت سنة بعد سنة حتى أصبحت الآن أكثر شراً ودموية . في جبال اليهودية استمر البغض المتوارث بين الحزبين القديمين (القيسيون واليمنيون) ، وكان ممثلاً هذه المرة بصراع مشايخ سمحات وأبو غوش . بدوره كذلك ، تمرد الشيخ مصطفى أبو غوش ، المعروف من حجاجنا جميعاً [الروس] كونه حارس الشعاب المؤدية إلى القدس ، وقتل المتسلمين المعينين من باشا القدس نفسه . في الصحراء العظمى ساد الجفاف وراحت خشارم (أسراب) البدو التي لا تعد ولا تحصى ، تفتش عن مراع في الحدود الجنوبية لفلسطين ، وهناك تنازعت فيما بينها فقطعت المسالك البرية بين سوريا ومصر ، إلى أن طردها محمد علي باشا في نهاية الأمر . في الناحية الشرقية لسوريا وعلى امتداد الصحراء الواسعة من حمص حتى الجليل ترحلت على حدود المناطق المأهولة قبائل أخرى من البدو الذين دفعهم القحط من شواطىء الفرات ومن الصحراء العربية . قبل ذلك بعامين كان الباشا التركي الذي قاد قافلة الحجاج إلى مكة قد قتل غدراً في معسكره شيخ إحدى قبائل البدو ، ناسخاً بذلك قوانين الضيافة . ومنذ ذلك الوقت عم قبائل الصحراء كلها استياء من الأتراك ، فراحت تهدد المسالك بين دمشق ومكة ، إلى أن نجح الأتراك أخيراً ببذر الخلاف بين هذه القبائل ، ومن ثم أوجدوا ائتلافاً جديداً على رأسه شيخ فتي ومبادر محمد دوخي ، يقابله ائتلاف آخر على رأسه شيخ ناصيف شيلان ذو الـ ١٦ سنة ، والذي كان يحوز حتى ذلك الوقت حق خفر القافلة إلى مكة . وقد وصلت هذه القبائل إلى حدود دمشق في صراعها الذي يخوض فيه ما لا يقل عن نصف مليون شخص . وقد تابعوا حربهم قرب دمشق ناهبين القرى آكلين مع قطعان حيواناتهم ، كل المواسم غير الناضجة .

هكذا كانت الحال في سوريا بعد سنوات خمس من حكم الباشاوات الأتراك المباشر المطلق . أصداء الأحداث اللبنانية العنيفة كانت تتردد في كل الأرجاء ، مع محاولات الباب العالي العاجزة أو الدموية لإعادة بسط سلطته على قبائل الجبل .

الفصل الرابع والعشرون

تخوفات الباب العالي ـ وصول وزير الخارجية شكيب أفندي إلى بيروت ـ دخول الفيلق الحربي إلى الجبال ـ توقيف المشايخ وجمع السلاح من الجبليين ـ سوريا تشبه أوروبا القرون الوسطى وإقليم ما وراء القفقاس ـ تغيير قائمقام الدروز ـ الترتيب النهائي للإدارة في لبنان ـ تأسيس المجالس ـ خدمة شكيب أفندي (فضله) ـ إعادة الهدوء إلى سوريا ـ أهمية المسألة اللبنانية في ما يتعلق بالحقوق الدولية ـ الخاتمة .

* *

كان تراجع الشهابيين ، عائلة الأمير العجوز بشير ، ذا أهمية حاسمة بالنسبة للأوضاع في لبنان ، لأنه أجبر الدولتين الكاثوليكيتين (فرنسا والنمسا) على طي فكرة الإمارة الكاثوليكية في سوريا ، مما يعني بالتالي عدم تجدد الخلافات الحادة بين الحلفاء الأوروبيين . هذه الخلافات التي كانت تبعثها ، لدى أية أزمة ، فرنسا والنمسا بسعيهما الحثيث لإعادة الشهابيين أو بمقاومتهما الضمنية لنجاح مبدأ ثنائية الادارة اللبنانية . أما الباب العالي المعتمد في حساباته السياسية على الصراعات الأوروبية ، فإن الأمل لم يفته بتعيين باشا في لبنان على الرغم من المعارضة الأوروبية المشتركة لمثل هذه الخطوة . وهكذا عاد الاتفاق إلى أطراف المسألة اللبنانية ، شركاء الباب العالي في مجرياتها ، بعد أن أدركوا جيداً حسابات الباب العالي منها ، وبعد أن سئموا من التعامل مع أحداثها . وفي النهاية كشفت السفارات الأجنبية أوراقها ، وأفهمت الباب العالي بصوت حازم بأن حل المسألة قد يفرض قسراً في ما لو استمر بوضع العراقيل. خاصة وأن المسألة اللبنانية كانت تأخذ من يوم إلى آخر حجماً سياسياً أوروبياً ، تحت تأثير الرأي العام الأوروبي المنفعل بولولات المسيحيين السوريين .

لم يكن تدخل الدول الأوروبية نابعاً من قدسية الحقوق الانسانية ، إذ يلزم لو كان الحال كذلك ، أن يشمل كل القبائل المسيحية في الشرق ، وإنما كان تدخلاً قسرياً سريعاً لتجنب المسؤولية واللوم عن المآسي التي أصابت المسيحيين السوريين لدى إعادة السلطات الحكومية إلى هذا الاقليم . لقد طالبت السفارات الأجنبية وأصرت على أن

يطبق في لبنان مبدأ الادارة الثنائية الذي اقترحه الباب العالي ونال اعتراف الخلفاء سنة ١٨٤٢ . في هذا الوقت كان الباب وكل ممثليه في سوريا يحاولون ، بما أوتوا من مكر ، التدليل على فشل مبدأ الأدارة الثنائية ، آملين بالتالي إقرار مبدأ الادارة التركية المباشرة في الجبال اللبنانية ، ولو صبوا على لبنان مزيداً من النار والدم .

كان موقف الحكومات الأوروبية يهدد بصدور بروتوكولات ومواقف جدية ، مما أجبر الباب العالي على التحفظ في حساباته ، خاصة وأنه كان شديد الكره لمثل هذه البروتوكولات بعد الدَّرس الذي تلقاه في نافارين . لقد آن الأوان لوضع حد للألاعيب والأكاذيب التي أصبحت خسيسة وخطيرة في آن معاً ، والبدء بتنفيذ التعهدات المقطوعة سنة ١٨٤٢ .

لهذه الاعتبارات أرسل الباب العالي إلى سوريا ، لا الوجيه ولا المقرب الذي يُتوخى من إبعاده عن العاصمة ، مصلحة وجيه ومقرب آخر ، كما جرت العادة في تركيا ، وكما سبق وفعل الباب العالي مرتين بإرساله سرعسكر نوري مصطفى والأميرال العظيم خُليل باشا ، وإنما اختار الإنسان العملي المجرب شكيب أفندي وزير الخارجية . وقد أخذت الدول الأوروبية علماً بالمبعوث الجديد وبالصلاحيات المطلقة المخول بها ، في ٢٣ شباط بواسطة مذكرة ديبلوماسية رفعت لسفاراتها التي وافقت عليها .

وبما أن الخلاف يتمحور حول نقطة تتعلق بحقوق المشايخ الدروز لدى السكان المسيحيين في الاقطاعات الدرزّية ، فإن المادة الأساسية في مسودة شكيب أفندي كانت تحجيم حقوق أولئك المشايخ المقاطعجيين ، وتحديد حقوق ممثلي السكان المسيحيين في كل إقطاعه . وفي الوقت نفسه كان الباب العالي يعلن عن عزمه على إدخال جيشه إلى لبنان للحفاظ على الهدوء وتطبيق النظام الاداري الجديد .

كل أصحاب النفوذ المحليين من أمراء ومشايخ ، دروزاً كانوا أم موارنة ، بالاضافة إلى قائمقامي القبيلتين ، دعوا للاجتماع بشكيب أفندي في قصر بيت الدين لإعلامهم الارادة السلطانية بضرورة تناسي ماضي النزاعات الدموية بين القبائل اللبنانية ، وتنفيذ أوامره المتعلقة بتحجيم حقوق المشايخ الدروز لدى مسيحيي اقطاعاتهم، واعتراف هؤلاء المشايخ بحقوق الممثلين المسيحيين . وبالاضافة إلى ذلك أمر بجمع السلاح الذي وزع على الجبليين سنة ١٨٤٠ والذي لم يؤدِ إلا إلى إراقة الدماء في النزاعات الداخلية . وبالفعل كان الفيلق العربي الخاص بقيادة نامق باشا ، قد سبق المبعوث المطلق الصلاحية ودخل الجبال اللبنانية ، واحتل بالتتابع المواقع الستراتيجية المهمة ، ثم وبدون أية

مقاومة ، توزعت المفارز العسكرية التركية في شعاب واتجاهات الجبال اللبنانية وباشرت جمع السلاح ، في الوقت الذي كان فيه الأمراء والمشايخ المدعوين إلى بيت الدين قد أوقفوا وأودعوا إقامة جبرية «مشرفة» أو كما كان يقول شكيب أفندي حلّوا ضيوفاً عليه . كان الأتراك يدركون جيداً بأن الجماهير في حالتها الراهنة ، متروكة وشأنها دون زعماء ، قادرة على القيام بضجة أو حتى بمقاومة في بعض الأماكن ، وإنما لم يكن بإمكانها التمرد بأي حال .

بدأنا بإنهاء عملنا الذي استعرضنا فيه الحوادث السورية في القرون الثلاثة الأخيرة ، وبحثنا فيه بدقة بداية وتطور المجتمع الاقطاعي للقبائل الجبلية ، التي أطالت أمد الكيان السياسي للعنصر العربي في هذا الاقليم تحت الحكم التركي . كذلك لاحظنا علائم تطور النظام البلدي الذي تتطلع إليه الجماهير الشعبية ، وتأثير الاصلاحات الحكومية في الامبراطورية العثمانية . وهذا التوجه محكوم أينما كان بقوانين التطور الطبيعي للمجتمعات المدنية . وتطرقنا أيضاً إلى الصراع بين هذا التوجه الجديد والنظام الاقطاعي السابق ، وكنا على وشك أن نرى النجاحات الأخيرة للنظام الاقطاعي في المجتمع اللبناني ، هذا المجتمع المتقدم في شعوره بالانتماء إلى وطن على بقية قبائل العائلة العربية الكبرى . في دراستنا لهذه الوقائع المعاصرة ، كنا نسترسل بأفكارنا أحياناً إلى الحياة المدنية الداخلية للمجتمع الأوروبي في القرن الخامس عشر ، وفسرنا لنفسنا الأسفار الألمانية والايطالية الشمالية بالطبائع السياسية والحياة الخاصة للدروز والموارنة . يجدر كسر موشور الرواية التاريخية المهمة ، موشور الشعر والقصة الفاتن ، لكي نتعرف بسرعة على أجداد البارونات الغربيين الذين استضافهم أمراء ومشايخ لبنان ، فدرسوا حياتهم المنزلية ، تراثهم العائلي واتجاه وعوامل تأثيرهم السياسي [1] .

---

(١) إن الدراسة التفصيلية لهذه المادة المثيرة للفضول لا تدخل في إطار كتابنا هذا . وتلميحاً أقول بأن أفضل مدرسة لقراءة التاريخ الغامض والمعتم للقرون الوسطى في أوروبا هي برأيي إقليم ما وراء القفقاس وسوريا . إن الكثير من المغالطات التاريخية حول القرون الوسطى سينهار حتى الأساس ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار غب دراستنا لوقائع العالم الغربي من القرن التاسع حتى القرن السادس عشر ، النمط الاجتماعي الخاص المعاصر لقبائل ما وراء القفقاس وسوريا . إن كل قبيلة ، وأيا كانت درجة تطورها المدني الراهن ، تشكل انعكاساً لفترة معروفة في هذه المرحلة العظيمة ، التي تطوي في جوانحها بداية عالم غربي حديث . إن مثل هذه الدراسة مثيرة للفضول أيضاً لأنها تكشف أكثر من اي أمر آخر وجود اختلاف في التطور السياسي للقبائل السلافية عن بقية أوروبا . والواقع أن النظام الاقطاعي غريب عن كل القبائل السلافية . بالقوة وحدها ولفترة غير طويلة حلّ الاقطاع لدى بعض هذه القبائل في بولونيا مثلاً . ما من أحد يستطيع خلط تاريخ الاقطاعات الروسية من يار وسلاف وحتى إيفان III أو ما يتبعه من نظام الرق مع النظام الاقطاعي في أوروبا الغربية . إن النظام المشاعي أو البلدي ، الذي تمثلت بدايته ولو بشكل محرف في إدخال العبودية ، وكذلك نظام المركزية الادارية اللامحدودة ، قد بقيا حتى الآن في قوانيننا من إدارة الحي وحتى انتخابات البلاد ، فلأنهما في انسجام تام في الشعور

كان شكيب أفندي واحداً فرداً بين أقرانه وأسلافه الذين تعاقبوا على سوريا ، فقد أدرك بثاقب نظره ، أن رغبة الباب العالي بالقضاء على الطغمة الاقطاعية في لبنان ، والوقوف في الوقت نفسه في وجه تطور الحقوق البلدية ومقاومتها ، واستبدال عناصر السلطة المحلية ببيروقراطية حكومية ضرب من المستحيل ، لذلك قاد خطواته بحكمة ودقة نحو تحجيم الحقوق الاقطاعية ، وإخضاع النظام المدني البلدي للنظام الشرعي ، في آن معاً .

تشكل ترتيبات شكيب أفندي عهداً مهماً في التطور المدني المتدرج للقبائل اللبنانية ، ويمكن أن تكون كذلك مقياساً لانتقال مجتمعات شرقية كثيرة من التركيبة الاقطاعية إلى البلدية .

لم تلاق هذه الترتيبات أية عقبات لا من جانب الجماهير الشعبية ولا من جانب النبلاء لأنها جاءت في وقتها ومتطابقة والمتطلبات الجوهرية لتلك الفترة . أما في ما يخص خطوة نزع السلاح من الجبليين ، فإنها تدبير ضروري ، يبدو برأي أي مراقب حيادي ، شرطاً أساسياً للنجاح .

لنلق نظرة إلى الوراء على الأحوال الداخلية للقبائل اللبنانية . كان المصريون بلا شك أكثر إدراكاً لعلم الادارة من أفضل الباشاوات الأتراك . فلأول مرة عرف الاقليم تحت إمرتهم التركيب الصحيح للسلطة المدنية . فقد هدأ الجبليون بعد صراعات داخلية طويلة ، وخضعوا للتسلط البطريركي لأميرهم . دفعوا أتاوات كبيرة لكنهم كانوا يعيشون في نعيم . نجح أميرهم في تذليل استبداد المشايخ . وهنا تجدر الاشارة إلى أن هذه الوقائع الجيدة كانت مرفقة بجمع السلاح من الجبليين من قبل إبراهيم باشا . ومنذ ذلك الوقت وحسب ، قويت سلطة الأمير ، وبالرغم من ابتعاده عن الوسائل غير المحدودة في فرض السيطرة، من التعذيب وخلق العاهات إلى الانتفاضات الجماعية إلى إتلاف المحاصيل والكروم والبساتين ، إلى معاقبة الأقرباء والمقربين على غدرهم ، إلى غير ذلك من التدابير المخيفة التي شكلت في الأوقات السابقة لدى الأمير ولدى كل أسلافه ضوابط الخضوع الشعبي .

دعوة الجبليين لحمل السلاح سنة ١٨٤٠ كانت ضرورة أكيدة ، لو أخذ بعين

= الشعبي بوحدة الحكومة . وهذا المنطلق هو إنجاز ثمين لدى كل القبائل السلافية من الادرياتيك وحتى الفولغا ، ومن البلطيق حتى البلقان ، يحميها في المستقبل من الهزات التي تصاب بها الشعوب المستندة في بنيانها على بداية إقطاعية .

الاعتبار قلة عدد جيش السلطان ، والأثر المعنوي الكبير لمثل هذه الخطوة في بعث التمرد ونشره باسم السلطان الشرعي ضد المغتصب . على أن عساكر الجبليين لم تقدم في الحرب أية خدمة فعالة ذات اعتبار ، ووقائع الحملة السورية في الجبال اللبنانية وفي فلسطين . وكذلك تفاصيل الحربين الداخليتين بين الجبليين ، أدلة كافية لنفي الخرافة القائلة بالجسارة الحربية لدى المسيحيين اللبنانيين. ليست شجاعة المسيحيين ، بل صخور جبالهم هي التي وقتهم منذ القدم شر الادارة التركية المباشرة . بينما وفي كل مرة كان الباشوات يريدون فيها الوصول إلى داخل الجبال ، كان يتم لهم ما يريدون دون أية مقاومة . إن قبائل هذه الجبال ، وبسبب وعورة موطنها ، لم تكن في وقت محاربة قوية الشكيمة . كميات السلاح التي أعطيت لها كانت من الكثرة لدرجة مكنتها من اتقاء شرور الجوع يوم قايض حاملوه (الجبليون) بالخبز من جبلي نابلس أيام مجاعة ١٨٤١ . ومن مظاهر كثرته كذلك أن أطفال الثماني سنوات كانوا يرعون قطعانهم وأكتافهم مثقلة بالبنادق العسكرية .

منذ ذلك التاريخ لم يعد باستطاعة أية سلطة ، إن في لبنان أم في نابلس ، أن تستقر وتقوى . أي عراك بين قرويين كان يتحول عراكاً بين عائلات ، طوائف قبائل وأديان . في لبنان ، أدت التمايزات الدينية والقبلية والحقوق الخاصة الممنوحة للقبائل الجبلية إلى إعطاء أي خلاف يحصل حجم الصراع السياسي والديني ، وصراع نظاميّ الاقطاعي والمدني البلدي . في نابلس ، على العكس من ذلك ، نجد سكاناً من قبيلة واحدة وأبناء دين واحد. إذ مقابل ٢٥ ألف عائلة مسلمة تسكن هذا السنجق يوجد ألف عائلة فقط تعتنق الدين المسيحي ، ولا تعفي هذه العائلات هامشيتها في الحياة السياسية للسنجق ، من تحمل تبعات صراعات المسلمين الداخلية ، دون أن يكون للمسيحيين بالأصل أية مشاركة فيها لا من قريب ولا من بعيد . إن النظام الاقطاعي في نابلس لا يزال يحتفظ حتى الآن بكل قوته .

جهدت نابلس في نضالها ضد التغييرات المصرية . وهي ما ان أخضعت وجردت من السلاح وحرمت من أرستقراطيتها المحاربة ، وتنعمت قسراً بالسلام بعد ذلك ، حتى انتفضت قبائلها ، عبد الهادي جرار طوقان وبرقاوي من جديد في انقلاب ١٨٤٠ ، وكأنها أخطبوط بمئة رأس . تسلحت هذه القبائل بفائض السلاح الموزع في لبنان ، وظلت لسنوات في حروب داخلية ، دون أن تستطيع رقابة الباشاوات الضعيفة من التخفيف من حدّة مجرياتها . وبما أن النظام الاقطاعي في نابلس كان أكثر تماسكاً وصلابة منه في لبنان ، فإن الصراع فيها كان يتبدى بشكل آخر : تتصارع الأحزاب يحاصر

أحدها الآخر في قصوره ودياره ، تسيل دماءٌ كثيرة ، دون أن يقدم أي طرف وفي أي حال على حرق الضياع وإتلاف المحصول أو التعرض للنساء والشيوخ والرضع . ودون انتظار مساعدة من الخارج لا تظهر لدى هذه القبائل أية تطلعات ثورية .

في نابلس كما في لبنان . نفس العوامل أفرزت العواقب نفسها ، مع اختلاف أكيد في تأثير العناصر المحلية ودورها . في لبنان وقبل أن تأخذ الاضطرابات طابع الصراع السياسي ، كان الاغتصاب والقتل منتشراً ومتغلغلاً في أعماق الأسر الجبلية . بعد الهدوء الذي فرضه الأمير المستبد بشير ، مدعوماً من الحكم المصري ، ظلت القبائل الجبلية تحتفل ولمدة خمس سنوات بـSaturnal الدموية . أما العداوات الدينية والاقطاعية فقد شكلت فقط انفجارات السيل الفوضوي الذي غمر الجبال . كل هذه الانفجارات هزت تدريجياً الأسس المعنوية للادارة المدنية ، وهيجت النزوات والانحرافات الشعبية . وما أن هدأت الحرب العصبية الداخلية سنة ١٨٤٥ ، حتى فقد الموارنة الذين عانوا الحرب بمرارة ، أي احترام للسلطة . لقد حصل مثلاً ما لم يعرفه الجبليون في تاريخهم ، وهو إهانتهم جهاراً لزوجة أميرهم (كنيتها قبل الزواج الأميرة شهاب) ، بالأغاني البذيئة . كان ذلك في مدينة الذوق ، من تحت شبابيك نفس البيت الذي كانت قد اختبأت فيه مرة تحسباً من اجتياح درزي . ولم يسلم الكهنوت الماروني من عدوى الفوضى ، ففي فترة انتخاب البطريرك كان أكثر من ثلاثة آلاف كاهن وعشرة آلاف قروي يعملون طوال أشهر على إثارة الاضطراب في السناجق الشمالية للبنان .

في مثل هذه الظروف الداخلية ، كان من الضروري مقدماً ، ضماناً للبدء بعملية البناء الحكومي في الجبال اللبنانية ، نزع السلاح من أيدي الجبليين من ناحية ، ومن ناحية أخرى إشراك الدول الكبرى في الترتيبات الحكومية للجبل ، والحصول على تعهد الباب العالي بإعطاء لبنان الادارة الوطنية . لقد أكدت المحاولات الفاشلة لادارة تركية مباشرة في الجبل ، ضرورة الحفاظ مستقبلاً على الامتيازات الممنوحة للجبليين ، والدفاع عنها من سوء مقصد الباشاوات ، ومن محاولات الباب العالي الجديدة للتفلت من التعهدات السابقة التي قطعها على نفسه .

رأينا كيف أدار البليد سرعسكر سليم باشا وفق هواه ومزاجه النزاعات الداخلية عام ١٨٤١ ، تاركاً الأخير من الأمراء الشهابيين ، بسبب عدائه الشخصي له ، يحترق في بركان النزوات الشعبية . كان من الضروري لتخليص القبائل اللبنانية من الفوضى التي مزقتها طوال خمس سنوات ، تقوية السلطة التي ارتسمت وفرضت حديثاً قدر الامكان ،

كي تتناسب على الأقل مع القدرات والإمكانيات التي تملكها بقية الأطراف اللبنانية . إن الحكم العسكري المستبد هو الوحيد الذي يستطيع تأمين سلطة شرعية . وهذه الوسيلة خطيرة في لبنان أكثر من أي مكان آخر ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العلاقات المتبادلة بين القائمقامين ، إضافة بالطبع إلى ضآلة مداخيل الاقليم .

بينما كانت الفرقة التركية تجمع السلاح من السنجق الماروني في كسروان ، اقتربت الفرقاطة الفرنسية «Belle - Poule» من المعسكر التركي ، وبحجة الرد على إهانة لحقت بعربي منضوٍ تحت حماية القنصلية ، وهذا ما استتبع بالتالي عراكاً بين آمر الفرقة التركية وبين القنصل الفرنسي . بحجة الرد على هذا الحدث ، راحت الفرقاطة الفرنسية تكيل تهديدات مهينة للكرامة التركية ، مما أوحى للجبليين القيام بوقاحات ، وهذا ما استثار بالمقابل المشاعر الدينية لدى الجيش التركي . فما كان من هذا الأخير ، وهو الذي لم يلجأ حتى الآن إلى القسوة أو الغضب في جمعه للسلاح ، وكرد على الاهانة التي تعرض لها من قبل الفرنسيين ، إلا أن صب نقمته على الموارنة إخوان الفرنسيين في الدين ، فنهب الكنائس وشتم الرهبان ، وقتل الكثيرين بدون رحمة ، مما اضطر سرعسكر إلى أن يسرع من بيت الدين ويتدخل بنفسه ، ويهدىء الجنود ، وحتى أن يعاقب بعض الضباط المقصرين . ومهما يكن من أمر فإن كل محاولات الجبليين للمقاومة كانت مبعثرة ، حتى في جبة بشري، السنجق الشمالي الذي يعتبر منيعاً بموقعه ، وبالرغم من احتلال موارنته الوديان في محاولة من جانبهم للوقوف بوجه دخول الأتراك إلى القرى ، فإن الموارنة هنا ولوا الإدبار عند ظهور الأتراك ، لدى أول رشقة رصاص ، والتي جرحت بالكاد شخصين أو ثلاثة ، وقد سلم هؤلاء «اللبنانيون العصاة» كما كان يسميهم الفرنسيون سلاحهم بهدوء كلي .

وهكذا جمع من القبائل اللبنانية وخلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني (أكتوبر ونوفمبر) فقط ، ما يقارب العشرين ألف بندقية . طبعاً بقيت كميات كبيرة ـ وقد تعادل الكميات المصادرة ـ مخبأة لدى أصحابها ، لكن المهم أن هذا التدبير كان فعالاً وإيجابياً بما تركه من انطباع لدى الشعب في سوريا ، ولأنه أخضع حمل السلاح لاحقاً إلى بعض القيود البوليسية .

أطلق شكيب أفندي سراح ضيوفه في بيت الدين ، وعادوا من ثم إلى بيروت جزيلي الشكر والعرفان بالجميل للطفه وعدله ، وقد ساهموا فوراً بحل بعض المسائل والإشكالات التي استجدت في الادارة الداخلية . الانطباع الحسن الذي تركه جمع السلاح ، قضى على كل العقبات التي كانت تبدو عند إدخال نظام ١٨٤٢ غير قابلة

للحل أو للزحزحة . فالدروز ومنذ فترة بعيدة ، يعارضون الأمير أحمد ارسلان لطبعه الأعوج وقابليته للرشوة ومعاملته الفظة ، فاستبدله شكيب أفندي بأخيه الأمير أمين ارسلان ، إنسان ذو ذكاء حاد وطبع رقيق.

كذلك انتخب السكان المسيحيون في السناجق الواقعة تحت إمرة المشايخ الدروز ، ممثليهم ، وبرضى كامل من الطرفين ، ثبتت حقوق هؤلاء وحددت علاقاتهم بالشعب وبالمشايخ وبالقائمقامين . كذلك حددت كل مصاريف الادارة الداخلية للبنان ، دون الخروج على الحدود التي كان الباب العالي قد رسمها : ٣٥٠٠ كيس ضريبة يدخل منها لصالح الخزينة ١٢٠٠ كيساً فقط . أما قاعدة توزيع الضرائب فقد وضعت بشكل عادل دون أية مسايرات شخصية أو عائلية أو إقليمية . كذلك ارتسمت حدود سناجق القائمقاميتين . وأخيراً أتمّ شكيب أفندي إصلاحاته بإنشاء مجلس في كل قائمقاميه ، يضم ممثلين عن كل المذاهب ويتمتع بالسلطات القضائية ، وله صلاحية تحديد الضريبة ومراقبة تحصيلها . وهذا التدبير يمنع من ناحية الاستبداد الاقطاعي ، ومن ناحية أخرى يساوي حقوق كل القبائل والأديان والمذاهب التي كانت ترزح منذ القدم تحت حكم القبائل المسيطرة من الدروز والموارنة .

إن إبعاد الباشاوات عن التصرف في شؤون الجبليين الداخلية والخارجية ، هو أهم تدابير شكيب أفندي الجديدة ، وهو بالضبط ما ترتكز عليه جميعها . فقط في حالة الخلاف بين القائمقامين وفي حال انتهاكهما للأنظمة كان يحق لممثل الباب العاليٰ أن يناقش الشكوى ، انطلاقاً من القوانين المحلية وحسب ، وليس انطلاقاً من رؤيته الذاتية ، ولا حسب ما يراه الباب العالي نفسه .

نلاحظ هنا أن هذه المقررات التي ساهمت الدول الأوروبية في صياغتها ، لن تنتهك أو تعدل بدون مشاركة أو موافقة هذه الدول . من هنا ينبع حقها بالمعارضة في حال التحريف الاستبدادي المقصود للامتيازات المحلية ، وحقها كذلك بالمراقبة الدائمة وحتى بالتدخل . إن هذه الكفالة غير المنصوص عليها في أية معاهدة رسمية ، تدخل الامتيازات اللبنانية في نطاق الحقوق الدولية الأوروبية . لذا فهي بالتأكيد غير متجانسة مع ضمان وحدة واستقلال الامبراطورية العثمانية .

نترك للوقت فرصة التدليل على الفوائد والمضار العملية التي تتأتى من كفالة الدول الكبرى الخمس لأمر معرض باستمرار لتقلبات وصدف كثيرة : لانفجارات الحروب العصبية والانتفاضات الجديدة للشعب ضد البلاط العثماني ، وأحياناً لمؤامرات الباب

العـالي ودسائس بـاشاواتـه . ثم من يضمن دوام أو طـول مـدّة وحـدة مـوقف الـدول الكبرى ؟ وفي حال اختلافها فيما بينها فإن الباب العالي سيرد على مطالب كل منها ، بأنه على الناصحين والمنقذين في الأمور الدولية أن يتفقوا فيما بينهم قبل كل شيء . إن مسألة الحقوق قد حلّت بشكل يتناسب وتطور القبائل ، غير القادرة على الدفاع عن نفسها في مواجهة الوسائل الراهنة للحكومة العثمانية التي استبدلت الإساءات القديمة (الـرذالات) والكبت بحمامات دم دورية . من هذه الزاوية تـأخذ المسـألة اللبنـانية أهميـة سياسيـة وإنسانية تتعدى ما كان للمسألـة المصريـة التي حلّت لخمسة أعـوام خلت . ففي مصر أمنت الدول الكبرى حقوق عائلة واحدة ، أما في لبنان قد ضمنت حقوق الشعب ، على غرار الروسيا ، التي أمنت قبل ذلك بكثير حقوق الشعب في إمارات الـدوناي الثـلاث وليس حقوق العائلات الحاكمة فقط . ومهما يكن من أمر وسواء أكان ذلك في مصر أم في لبنان أم على الدوناي ، فإن حقوق السلاطين كحكام خضعت في سبيل خير الانسانيـة لبعض التحديدات الشكلية .

في ربيع ١٨٤٦ ودعت كل الطبقات والفئات شكيب أفندي ، مع العرفان بالجميل والتمنيات له بالخير . وعندما صعد إلى الباخرة عائداً إلى القسطنطينية ، وحسب العادة الدينية للمسلمين ، قدمت له الذبائح في ميناء بيروت ، وصلّت الحشود متمنية له سفراً ميموناً . هذه العواطف لم تكن كاذبة مرائية . فـالجميع هنـا باتـوا يدركـون أن شكيب أفندي بعد الذي أنجزه في المنطقة سيحرم من حقيبته ، فقد أصبح من المغضوب عليهم في العاصمة ، لكن القبائل السورية كانت تقدر خدماته حق قدرها .

كانت النهاية السعيـدة للمسـألة اللبنـانية تـأثير إيجـابي جيد عـلى الاقليم برمتـه . فتوقفت النزاعات الداخلية في نابلس ، فقط بظهور محمد باشا كوبروزلي الذي انتقل من عكا إلى القدس ، والذي لم يتمكن أثناء حكمه لعكا ، بقوات باشي بوزوك التابعة له ، من توطيد حكمه لأن السلطة الحكومية في تلك الفترة وتحت تأثير الفوضى اللبنانية ، لم تكن تمتلك أية رهبة في النفوس . أما الآن وبحضور الأحزاب المتخـاصمة عبـد الهادي وطوقان فقد بدأ محمد باشا بتهديم الحصن الذي كان عشاً للعصيان منذ أيام الجزار. مدينة خليل ـ الرحمن المقدسة من اليهود والمسيحيين والمسلمين على حد سواء ، أصبحت منـذ تراجـع المصريـين ، تحت سلطة مشايـخ عمرو الـذين كانـوا يـرتعـون في جنـوب فلسطين ، يجبون الضريبة ويمدون علاقات مع قبـائل الصحـراء العظمى . أخـذ محمد باشا مدينة خليل الرحمن على حين غرة ، وأدب عصاتها ، وبسط السلطة السلطانية على هذا الجزء المتاخم للصحراء العظمى وحمى فلسطين من البدو المفترسين . ثم بعد ذلك

قبض على أبو غوش المشهورين كحراس قساة للوديان الفلسطينية ، ونفاهم . بعد كل هذا أخذت الحكومة تحصل بنجاح ما ترتب للخزينة من ضرائب طوال ٦ سنوات .

هذا هو التأثير المباشر لنجاح حل المسألة اللبنانية . إلا أن الباب العالي من ناحيته كان مستاءً من تصرفات مبعوثه شكيب أفندي غاضباً عليه ، فنحاه عن منصبه وعينه سفيراً في فيينا ، لكي يحرمه تالياً أية مشاركة في متابعة تطبيق النظام الذي أمنه بمشاركة وموافقة ممثلي الدول الكبرى . كان الباب العالي يرى أن مندوبه تهاون بكرامة الدولة العثمانية وضحى بمصلحتها لحساب الدول الكبرى المشتركة في حل المسألة ، خاصة وأن مبعوثه سمح لقناصل الدول الكبرى بمناقشة خطته . أقدم شكيب أفندي على ذلك ليقينه التام بأنه في حال معارضة ممثلي الدول الكبرى لترتيباته تلك ، فإنها ستجلب لنفسها خصومة القبائل الجبلية التي كانت تثق بممثلي الدول الكبرى أكثر من ثقتها بالمبعوثين والباشاوات . كان الباب العالي يميل إلى تعديل ترتيبات شكيب أفندي بشكل يسمح بتدخل كبير من جانب الباشاوات في أمور لبنان ، ولكنه وجد نفسه مجبراً في آخر الأمر على القبول بها بعد أن حازت استحسان القناصل في بيروت والسفارات في القسطنطينية . ولكن الباب العالي لم يفقد بالرغم من ذلك الأمل بتعقيد الأمور من جديد بدسائسه المعتادة ، ومن ثمّ القضاء على الامتيازات الجديدة التي نالتها القبائل الجبلية . ولتحقيق هذا الهدف عين كامل باشا عدو شكيب الشخصي [٢] ممثلاً للسلطان في بيروت ، مع تكليفه بمتابعة تطبيق الترتيبات الجديدة . عند تعيينه لم يحاول كميل باشا تمويه أهدافه . بدأ على غرار سابقيه من الباشاوات بالتفتيش عن مبرر للتدخل في أمور لبنان الداخلية . وبحجة الأخطاء أو الصعوبات التي كانت تعترض الترتيبات عند التطبيق العملي ، بدأ يطرح ضرورة تأويلها وتعديلها . لكن ممثلي الدول الكبرى كانوا يسهرون بصرامة على حرمة الامتيازات اللبنانية ، وقد أجبرت شكاويهم الباب العالي على تبديل ممثله في بيروت .

١٨٤٧ عينت الحكومة التركية مكانه مصطفى باشا من سكودرا ، وهو العاصي الشهير ضد السلطان محمود ، والذي أصبح بعد ذلك والياً ما لبث أن قهره ثانية السلطان

(٢) كان العداء مستحكماً بين الرجلين للسبب التالي : كان كامل باشا سنة ١٨٤٣ والياً على بلغراد ، وقد ساهم في تأزيم الأمور ، في بلاد الصرب ، فاستجلب للباب العالي بذلك كره البلاط الروسي . شكيب أفندي وقد أرسل يومذاك مبعوثاً إلى بلاد الصرب ، عمل على تسوية ما خربه الباشا الذي كان يتصرف أصلاً بإيحاء من الباب العالي نفسه دون أن يستطيع أن يخفي بحذاقة كل دسائسه . وقد أقصي كامل باقتراح من شكيب وبعد موافقة الباب العالي الذي كان يفتش عن كبش محرقة .

محمود نفسه في الصراع الطويل الذي خاضته الحكومة السلطانية ضد الاقطاعية الحكومية . يومها لم يطلب السلطان تعليق رأسه عند بوابات السراي بل سامحه وقربه مكتفياً بمصادرة أملاكه . اختيار مصطفى باشا ممثلاً جديداً يدلل على أن الباب العالي أقلع ولو لوقت قصير عن الفكرة التي كانت تسيطر عليه ونعني انتهاك الامتيازات اللبنانية وتأجيلها إلى وقت آخر أكثر مؤاتاة . كان مصطفى غير قادر على الدسائس . فما زال يحفظ حتى الآن طبعه الالباني المستقل ، أي أنه لم يكن من «رجالات الدولة» في الامبراطورية العثمانية . وقد اتبع بدقة وحزم الترتيبات التي وضعها شكيب أفندي ، والتي لم تكن لتسمح بتدخل الباشاوات في أمور لبنان . كان مصطفى باشا في قرارة نفسه مقتنعاً بأن مصلحة الأمبراطورية العثمانية تتطلب التطبيق الصادق للترتيبات تلك ، للتخلص على الأقل من إمكانية تدخل الدول الكبرى في الأمور الداخلية للامبراطورية .

قدم العاصي الالباني ، الذي سامحه محمود وقربه ، بسلوكه وإدارته للمنطقة ، خدمة جليلة لابن سلطانه ذاك . وتبعاً لرواية مصطفى عن عصيانه الذي قاده سابقاً في البانيا ، عندما استولى بالقوة على سكودرا ، تكون الأنانية ودسائس الحاشية ومقربي السلطان في تلك الفترة ، هي المسبب الأساسي لعصيانه الآنف . وهنا يحق لنا أن نتساءل : إذا كانت البيروقراطية الأسطمبولية ذات تأثير حاسم وقاتل ، وفي هذه الفترة التي كان فيها اسم السلطان يشيع الخوف في الحكومة عامة ، هل يجب والحال هذه أن نتعجب حالياً من دسائس الحكومة التي نجحت في حماية نفسها بقسم كلخانة من استبداد الحاكم ؟ .

عهد عصيان الباشاوات ذهب إلى غير رجعة . وقد وصفنا بدقة الفصل الأخير من هذه الدراما التي استمرت مائتي عام ، ونقصد عصيان محمد علي باشا . التنظيم الحكومي الاقطاعي تهدم في أيامنا أيضاً . بقي أمام الباب العالي صراعه ضد القبائل المحكومة وتركيبتها الاقطاعية ، وضد محاولاتها الناضجة أم الفجة ما هم ، للحصول على كيانها واستقلالها ، أو على الأقل الحصول على المساواة مع القبيلة الحاكمة . وإنما لا يمكن أبداً التنبؤ بصراع مقبل مع ممثلي السلطان ووكلائه ، فضعف هؤلاء هو ضمانة ولائهم . ويبدو أن قانون الطبيعة يساعد الباب العالي من هذه الزاوية ، فالظاهر أن القبيلة العثمانية ستذبل وتذوي في قرننا هذا ، وليس باستطاعتها بعد الآن أن تنجب علي باشا التبلاني ولا أحمد باشا الجزار ولا محمد علي ، ولا كجك علي أوغلو ولا حتى الاقطاعيين ـ قطاع الطرق (الديريبي) الآخرين المشابهين له. نفس هذه الظاهرة تنسحب على رجالات الدولة الأتراك ، لقد ذهب عهد الوزراء مثل آل كوبروليو ، ومن المشكوك

بأمره أن يعطي الجيل الحالي دولته رجالاً حتى من أمثال محمد بيرتيف وخسرو .

كان وجود الدولة العثمانية مضموناً بعد سنة ١٨٤٠ بسبب تعاهد الدول الكبرى المتبادل على دعمها في صراعها مع آخر وال عاصي . ولكن هل يغطي هذا الدعم صراعها المحتم القادم مع القبائل المحكومة ؟ إن الباب العالي على الأقل متأكد من ذلك ، لذا فهو يتحمل كل المضايقات وكل الإهانات التي يتعرض لها من قبل الدول الكبرى وتدخلها المستمر في أموره الداخلية ، هذه المحاكمة المستمرة بين الحكومة والشعب . إن سياق المسألة اللبنانية منذ سنة ١٨٤١ وحتى سنة ١٨٤٦ ، وقد سبق وفصلنا مجرياته ، وتصرفات الباب العالي وطموحاته ، وسلوك باشاواته ومبعوثيه في سوريا ، وموقف القبائل الجبلية ، وتعودهم التوجه بالشكاوى ضد حكومتهم إلى ممثلي الدول الأوروبية ، والاشتراك النشيط من قبل هذه الحكومات في تطوير وحل مسألة خاضعة بالأصل ، كلياً لإدارة الدولة الداخلية ، (الدولة التي كان استقلالها مضموناً من قبل الدول الكبرى) ، إن كل هذه الأمور مجتمعة تشكل مشكلة عويصة في الحقوق الدولية ، وخاصة ما يتعلق بحقوق الدولة في الأمبراطورية العثمانية .

كنا ، بدون مواربة أو تحيز ، قد اعترفنا بالامتيازات التي حصلت والتي ستحصل عليها القبائل الواقعة تحت إمرة السلطان في ظل النظام الحكومي الجديد مقارنة مع وضعها السابق . إن التطور الداخلي لهذه القبائل العريقة في الشرق العثماني ، ولعدة سنوات خلت ، يثير اهتمام المراقبين ، خاصة وأن الحكومة العثمانية رغم كل محاولاتها السابقة في وضع العراقيل في وجه تطور القوميات فإنها تبدو مجبرة بعد التوجه العام الذي تقرر سنة ١٨٣٩ بتسهيل هذا التطور التقدمي لتلك القوميات .

هذا هو برأينا تأثير المضايقات والملاحقات التي عانت منها القبائل المحكومة ، منذ ذلك التاريخ الذي استبدل فيه الاستبداد القديم في الامبراطورية ، بالمحكمة اللاأخلاقية والمتحيزة على الدوام لصالح القبيلة المالكة . ابتداء من ١٨٣٩ ، رأت الحكومة العثمانية ضرورة الاعلان على مسامع أوروبا نظريتها الخيالية عن المساواة ، ووعوداً تؤدي في حال تحقيقها إلى تدمير الدولة من أساسها ، لأن المساواة بين القبائل في الحقوق ، وكذلك المساواة بين الطبقات المختلفة ، مع بقاء السلطة محصورة في يد قبيلة واحدة أو طبقة واحدة ، كانت تنتقل كمفهوم بين هذه القبائل وتخلق لدى الجماهير شعوراً جديداً هو الأساس ، لأن الشرط الرئيس لتحصيل الحقوق هو فهم ما تعنيه هذه الحقوق أولاً .

ومهما يكن من أمر ، فإن تجارب مرّة تقف على هذه الطريق . ولو عددنا كل المآسي التي عانتها القبائل اللبنانية ابتداء من ١٨٤١ وحتى ١٨٤٥ ، تحت راية انسانية حكومية رسمية ، وتحت راية التوجه الرقيق من قبل الباشاوات نحو الجبليين ، فإننا نجد بدون شك ، أن الدماء الكثيرة التي أريقت في لبنان في هذه السنوات الخمس ، وما حصل فيه من دمار وفظائع ، تفوق بالتأكيد ما حصل خلال ثلاثين سنة من حكم الجزار المتوحش .

الفهرس

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
ص.ب: ١٤٥٦٣٦ ـ تلفون: ٨٣٣٩٨٩ بيروت ـ لبنان